

التراث المسيحي

في شمال إفريقيا

دراسة تاريخية من القرن الأول
إلى القرون الوسطى

تأليف: روبين دانيال

ترجمة: سمير مالك
مساعدة: م. الخوري و ع. المهدى
وإخوة آخرون



دار النشر الحكيم

جميع الحقوق محفوظة

ص . ب ٦٠ منصورية المتن

بيروت - لبنان

١٩٩٩

Originally published in English under the title:

"This Holy Seed".

Copyright © Robin Daniel 1992

المحتوى

5	المقدمة
7	خربيطة شمال إفريقيا الغربي في القرن الثالث للميلاد
9	خربيطة شمال إفريقيا الشرقي في القرن الثالث للميلاد
11	التورايخ
14	الاسماء الحديدة للمدن
15	الجزء الاول - الشمار الاولى (القرنان الاول والثاني)
17	1- البذار قد يُدر
26	2- الانفتاح على العالم المتحضر
33	3- البحث عن الله
46	4- الأخبار السارة
55	الجزء الثاني - عصر ترتوبيانوس (اواخر القرن الثاني - اوائل القرن الثالث)
57	5- أسلوب الحياة الفاضلة
71	6- الجماعة المسيحية
82	7- انتصار الحق
96	8- الكتابات الروحية
108	9- معاناة الأبراء
119	10- المحن الحارقة
131	11- المعدّبون المبتهجون
143	الجزء الثالث - عصر كبريانوس (القرن الثالث)
145	12- الرعيم الرصين
160	13- قيادة الكنائس
171	14- نَاخِي المكْبَلِين
184	15- تنسيق الكنائس

196	16 - العلاقات البعيدة
208	17 - اشتهر الشهداء
219	18 - نداء المسيح
الجزء الرابع - عصر اغسطسinos (القرن الرابع و أوائل القرن الخامس)	
229	19 - الحركة الشعبية الدوناتية
231	20 - الماظرة الخامسة
247	21 - الاهداء الخارق
260	22 - طريق التحدى
272	23 - الواقع الماهر
282	24 - مدينة الله
292	25 - الكنيسة في هيبيو
304	26 - الكاتب المبدع
314	27 - إرشادات صائبة
329	28 - التقاليد المنحرفة
340	الجزء الخامس - الحصاد الاخير (منتصف القرن الخامس و ما فوق)
355	29 - الونداليون والبيزنطيون
357	30 - الغزو العربي
366	31 - غرض الله المقصود
380	32 - قوة الحياة الجديدة
390	الملحق الأول - الاصول الثقافية لافريقيا الشمالية
399	الملحق الثاني - قوانين الاعياد
410	الملحق الثالث - علم الله السابق و حرية الانسان
412	الملحق الرابع - اسم يسوع
416	اسئلة للبحث والنقاش
420	المراجع البيبليوغرافية
425	الفهرس
431	

المقدمة

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا . فقد عرف الناس ، في هذه القارة ، طريق المسيح وأحبوا زماناً طويلاً قبل أن تصل تعاليمه إلى أوروبا الغربية وأمريكا والشرق الأقصى .

ففي مدة لا تتجاوز الخمسين سنة منذ أن ألقى المسيح الموعدة على الجبل ، ترسّخ الإنجيل في شمال إفريقيا كإيمان غير ممحض لأئلية مضطهدة . وخلال قرنين ونصف ، سمع سكان هذه البلاد إنجيل المسيح واستجابوا له لا بتأييد من السلطة الرومانية ، بل على الرغم منها . الواقع أنَّ الحكماء والقضاة الرومانيين عملوا كلَّ ما بوسعهم للضغط على الإيمان ، وتدمير قادته ، وجلب أتباعه إلى المعابد الوثنية . كما سُنتَ على أعلى المستويات سلسلة جازمة من القوانين القاسية على يد مجموعة متالية من الأباطرة الطغاة الذين كانوا يهددون إلى محظوظية من على سطح البسيطة .

ولأنه لم ينشر أن كنائس شمال إفريقيا ، في سنوات الاضطهاد ، لم تزدد إلا ازدهاراً ونمواً . لقد كان إيمانها صلباً وشهادتها السلمية للناس والمحيطين بها فعالة بدرجة جعلت الجزء الأكبر من تونس وكثيراً من الجزائر وأجزاء كبيرة من ليبيا والمغرب تُعرف في القرن الثالث بأنها مسبحة .

لقد كان المسيحيون الأوائل في شمال إفريقيا مستميِّزين عن الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة كلِّيَّهما . فهم ، بكلِّ بساطة ، كانوا متشبِّهين بالتعاليم الأصلية لل المسيح نفسه وكتابات أتباعه الأوائل التي تواترت من الأجيال الأولى وجُمعت في الكتاب المعروف «بالعهد الجديد» . وكان سُرُّ نجاحهم هو أسلوب حياتهم الجديد المبني على المبادئ النبيلة للمحبة والأمانة واللطف مع جميع الناس . كما أنه كان لديهم رجاء قوي في وعد الله لهم بأن هناك حياة وفرحاً وراء ظلمة القبر .

وسرى في هذه الصفحات ما كان أسلاقنا يؤمنون به بكلِّ قوَّة ، والأثار الرائعة لذلك الإيمان في المجتمع الأول لشمال إفريقيا .

وقد سمي أحد المؤرخين المتخصصين في هذا الميدان شمال إفريقيا «بموطن المسيحية الخالصة»^١ ، وهو محق في هذه التسمية . إلا أن نقاء الإيمان الأصلي كان لا بد أن يُجرب في ضوء حاجيات الحياة في هذا العالم المعقد الفاسد . وسرى في الصفحات التالية كيف أن الجماعات المسيحية المتنامية بدأت تنظم نفسها في وجه الوباء والاضطهاد والمشاكل الاجتماعية والخلافات الداخلية ، وريحت في نهاية المطاف قبول أعلى سلطة في العالم للمسيحية كالدين الصحيح وكأعظم رجاء قدم للإنسانية من أجل السلام والازدهار .

ليس أحد ينكر أن عمل أغسطينوس وكتاباته دخلت ثقافة العالم بحمله ، ولعل هذا كان أعظم ما ساهم فيه شمال إفريقيا في تراثنا الفكري الإنساني المشترك . إلا أن الكنيسة التي ازدهرت بجد عظيم لم تستمر في ازدهارها إلا مائة وخمسين سنة بعده ، قبل أن تستسلم للمرض ثم الموت .

وسنجد في صفحات هذا الكتاب حديثاً عن المجد والهوان ، عن الشمار المتبقية والأمال غير المحققة ، وأخيراً عن إطلاق القوى التي عصفت بما تبقى من مسيحية شمال إفريقيا . وفي كل هذا سنجد دروساً قيمة كثيرة ينبغي تعلمها لا تخلو من التعزية والرجاء للأجيال المعاصرة .

وأود أن أهدي هذا الكتاب إلى القراء الكرام خاتماً بالكلمات نفسها التي ختم بها
أغسطينوس كتابه الضخم «مدينة الله» :

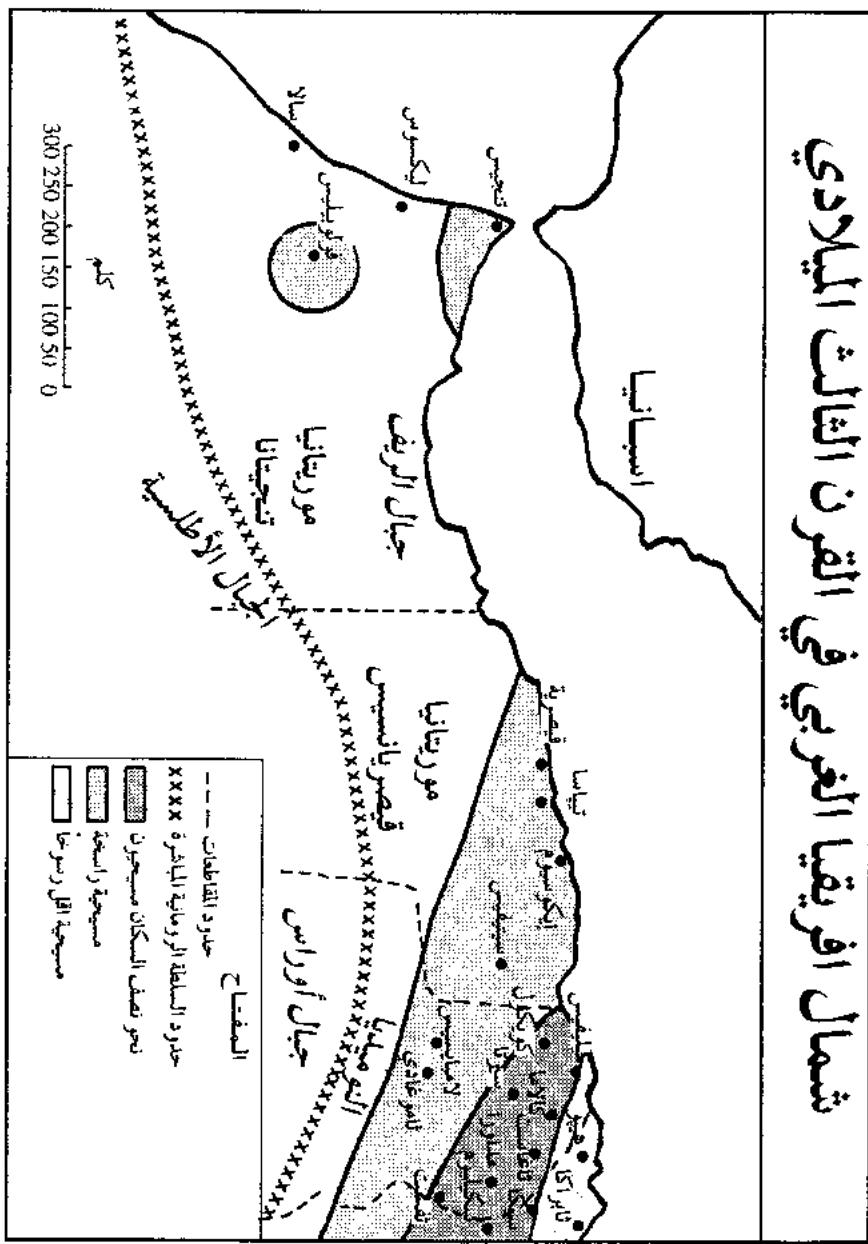
«هذا الكتاب يمكن أن يكون أكثر مما يحتمله بعض الناس ، وأقل مما يرجوه بعضهم الآخر .
إنني أسأل المغفرة من كلا الفريقين .

أما بالنسبة إلى الذين يكتفون به ، فإنني أتمنى عليهم
الآلا يشكرونني أنا ، بل يتضمنوا إلى
في رفع الحمد والشكراً لله» .
آمين .

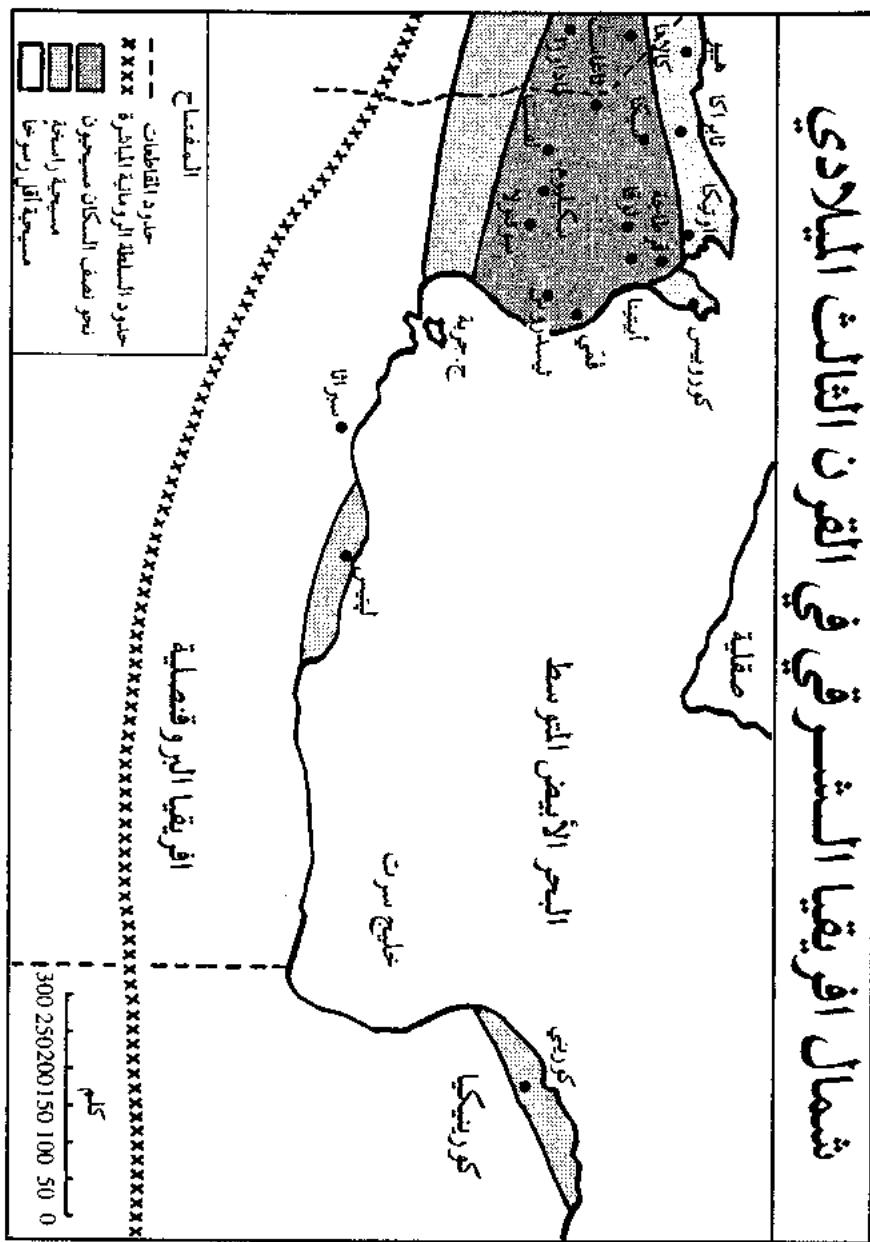
ملاحظة

Foakes-Jackson: History of the Christian Church, p. 509 -1

شمال إفريقيا الغربي في القرن الثالث الميلادي



شمال إفريقيا الشهري في القرن الثالث الميلادي



التاريخ

قبل المسيح

الفينيقيون يستقرون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند إفريقيا الشمالية	1000
بداية امبراطورية قرطاجة	800
روما تهزم امبراطورية قرطاجة ، بداية الحكم الروماني في إفريقيا	146

بعد المسيح

نحو 68	استشهاد الرسولين بطرس وبولس
156	استشهاد پوليكاربيوس ، ناظر سميرنا
نحو 160	ولادة تريليانوس
165	استشهاد يوستينوس الشهيد
177 - 192	الاضطهاد في أثناء حكم ماركوس أوريليوس و كومودوس
177	الاضطهاد في ليون وفيان (فرنسا)
180	الاضطهاد في سكيليوم
نحو 195	اهتداء تريليانوس إلى المسيحية
نحو 200	ولادة كرياتوس : إصدار الحرم الكنسي في روما بحق المونتانيين
202 - 204	الاضطهاد في أثناء حكم سفيروس

استشهاد پِرِپِتُوْكَوْ فِيلِيْسِتَاسْ : انضمّام ترتوبلانوس إلى المونتانيين	203
نحو موت ترتوبلانوس	230
اهتداء كبريانوس إلى المسيحية	245
تعيين كبريانوس ناظراً في قرطاجة	248
251 - 254 الاضطهاد في أثناء حكم دِكِبُوس	249
260 - 263 الاضطهاد في أثناء حكم فاليريان	253
استشهاد كبريانوس	258
نحو ولادة أرنوبيوس	260
جمل غاليليوس المسيحية من البيانات المسموح بها	261
304 - 307 الاضطهاد في أثناء حكم دِبُوفِلِيتِيانُوس	284
نحو بداية الحركة الدوناتية	305
الاضطهاد في أثناء حكم غاليليوس	308
قرار غاليليوس القاضي بمنع الحريات الدينية	310
اعتلاء قسطنطين العرش	312
مرسوم ميلاتو المكرّس للحرية الدينية	313
إدانة قسطنطين للدوناتيين	316
مجمع نيقا	325
موت أرنوبيوس	327
ولادة أغسطينوس	354
ثورة فيرمُوس	372
اهتداء أغسطينوس إلى المسيحية	386

انقسام الامبراطورية الرومانية الى جزئين : شرقي وغربي	395
تعيين اغسططيوس ناظراً في هيبو	396
نهب القوط بقيادة الارك روما	410
مؤخر قرطاجة لفض المسألة الدوناتية	411
غزو الونداليين افريقيا	429
موت اغسططيوس	430
استيلاء الونداليين بقيادة جنسريك على قرطاجة	439
نهب جنسريك روما	455
إعادة استيلاء بيزنطية على إفريقيا الشمالية	533
انتصار العرب في معركة سبيطة ، بداية السيطرة العربية	647
تأسيس القروان	670
686 - 683 كُسيلة ، الحاكم الفعلي على إفريقيا الشمالية	
695 - 702 الكاهنة يمنع العرب من التقدّم	
العرب يجرّون جيشاً في اتجاه إسبانيا	711
740 - 1062 حركة برغواطا في المغرب	
750 - 1146 الحركات الخارجية في الجزائر	
تأسيس فاس	809
893 - 1120 الشعبي (الكتامة والإياضيون) في الجزائر	
1000 - 1100 هجرة بنو هلال وبنو سليم الى إفريقيا الشمالية	
1160 عبد المؤمن يقضي على آخر الجماعات المسيحية	

الأسماء الحديثة للمدن

(Mdaourouch)	مداوروش	ماداورا	(Chahat)	شهات	كوربني
(Tébessa)	تبسة	تَسْتَ	(Sabratha)	صبراته	سبراٹا
(Constantine)	قسنطينة	سِيرَنَا	(El Djem)	الجم	ثيسلدروس
(Timgad)	ثاموغادي	تِيمقاد	(Mahdiya)	المهدية	شمّي
(Lambèse)	تازولت	لامبَيسِيس	(Korba)	كوربة	كوروبيس
(Djemila)	الجميلة	كُويِكُول	(Carthage)	قرطاجة	
(Mélèvre)	الميلية	مبليفيـس	(Chaouïd)	شاورود	أبيتنا
(Sétif)	سطيف	سيـتيفـيس	(Utique)	أُتِيك	أوتيكا
(Alger)	الجزائر	إـكـوسـيـوم	(Dougga)	دقة	ثـوقـا
(Tipasa)	تبـسـة	تـيـپـاسـا	(Sbeitla)	سيـطـلـة	سوـفـوـلا
(Cherchell)	شرـشـال	قبـصـرـة	(Tabarka)	طـبـرـقة	ثـابـرـاكـا
(Tanger)	طنـجـة	تـنـجـس	(El Kef)	الكاف	سـيـكا
(Larache)	العرـاشـ	لـبـکـسـوس	(Kasserine)	كـاسـرـين	سـكـيلـيـوم
(Volubilis)	ولـلـيـ	فـولـوـبـيلـيـس	(Annaba)	عـنـابـة	هـبـيـو
(Salé)	سـلاـ	سـالـاـ	(Guélma)	قالـة	كـالـاـما
			(Souk Ahras)	سوقـاهـرـاسـ	ثـاغـاسـتـ

الجزء الأول

الثمار الاولى

(القرنان الأول والثاني)

الفصل الاول

البزار قد بُذر

لم تكن برييتوا تدرى كيف تخيب أباها . أخيراً استدارت نحوه وهي تقول : «أبي . . . أترى هذا الإبريق القائم هناك ؟ هل نعتقد انه اثناء صغير للماء أم هو شيء آخر ؟ » ألقى الرجل العجوز نظرة عاجلة على الشيء القائم في زاوية زنزانة السجن القدرة ، ثم أجاب : « إنه إبريق ، بحسب ما يبدو لي ». عندئذ قالت برييتوا : « هل نستطيع ان ندعوه اسمًا آخر ؟ » « كلا ، لا نستطيع ، على ما أظن ». ثم تابعت برييتوا كلامها بلطفة وهي تقول : « وانا لا أستطيع ان ادعو نفسي بخلاف ما أنا ؛ ابني مسيحية يا أبي . »

نشأت فيفيا برييتوا (Vibia Perpétua) في عائلة فاضلة . قضت معظم طفولتها السعيدة على شواطئ مدينة قرطاجنة الجميلة ، الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط بإفريقية الشمالية . لم تغقر برييتوا الى الراحة واليسر ، لأن التعليم الذي كان متوفراً لها لم يكن متوفراً لمعظم بنات عصرها . ودعت برييتوا حقبة الطفولة ، لتصبح الآن فتاة شابة في الثانية والعشرين ، ومتزوجة . كما ودعت الفترة الآمنة المطمئنة من حياتها المبكرة لشواجه الآن ضغوطات زعزعت حياة العائلة بأسرها . لقد ألقى القبض عليها وأودع السجن بتهمة خطيرة ، ألا وهي اعترافها بأنها اعتنقت الديانة المسيحية .

ها هي الآن في سجن المدينة منذ عدة أسابيع . وقد أمل أبوها في أثناء ذلك أن يقنعها لترجع عن إيمانها ، فيضمن إذاك اطلاق سراحها . لكن الوقت كان يمر بسرعة من دون أن تُظهر برييتوا أية علامات تشير الى الاستسلام او التخلّي عن إيمانها باليسوع . في هذه اللحظات الخامسة ، سمعها العجوز وهي تقول له بأكثر صلاوة وعناد ، إنها ما زالت عازمة على اتباع الطريق الذي رسمه المسيح ، وعلى السير في إيمانها . و هكذا اندفع الأب الى الخارج ساخطاً غاضباً .

ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك ؟ فهو رجل شريف محترم و مواطن قرطاجي مستقيم الأخلاق ، معروف في مجتمعه و مشهور في الاوساط المحترمة . لم يتورّط فقط في أية مشكلة أو أي إخراج ، وهو بالطبع يتبع للألهة نفسها التي يعبدها جيرانه . لم يتسبّب قط بأية اساءة او إهانة لأحد . ولكن ، ما هو الآن يواجه الذلّ والخزي والعار ، كل هذا بسبب ابنته العتيدة المتمردة .

جَهَ لابته دفعه للذهاب الى السجن العام باذلاً قصارى جهده لدخول تلك المسالك المظلمة والمرات الحقيرة والوسخة . لم يكن أبو پريبتوا قاسي القلب ، لذلك فقد حزن على ابنته واكتب و كان تواقاً ليمد لها يد العون ، و يعدها عن هذا المكان البغيض المفزع . عادت به الذاكرة الى تلك الاوقات السعيدة التي كانا يقضيانها ، هو و ابنته خلال الأيام الخلوة الهائمة . كان مستعداً لبذل أقصى الجهد لأقناع هذه الابنة العينة لتكتف عن حماقتها الرعناء ، تلك الحماقة التي سيطرت عليها بشكل لم يستطع أن يهضمها . كتبت پريبتوا في مذكراتها تقول : « الآن ، وبعد أن دنا موعد المسابقات و مباريات المصارعة بالساحة العامة ، جاءني أبي ممزقاً بالمشاكل والصعاب ، تارة ينتف لحيته و يلقي بنفسه أرضاً على وجهه ، وتارة أخرى يلعن أيامه . أما أنا فقد حزنت حقاً على بوس أبي و تعاسة شيخوخته . »

لم تكن پريبتوا وحيدة في زنزانتها . كان معها طفلها الصبي ، البالغ من العمر بضعة أسبوع . كانت پريبتوا سعيدة لوجود ابنتها معها . أخذ منها في السابق ، لكنها كانت تعلم علم اليقين انه بكى كثيراً طلباً لحضانتها ، فأعید اليها . أما هذا الطفل فهو مصدر آخر لأسى الرجل العجوز . قال أبو پريبتوا : « فتکري في طفلك الصغير الذي لا يقدر على أن يعيش دون امه ؛ اتركي كبرائك جانبًا ولا تدمرينا جميعاً . » حزنت پريبتوا على ابنتها لأنها كانت تعرف أنه لا بد من أن يعيش من دونها .

تحدث بعض الاصحاحات الطيبين الى سلطات السجن فحصلوا على إذن خاص لپريبتوا لنقضي أوقات معينة من النهار في مكان منير في مبني السجن . و هنا ، وفي هذا السجن بالذات حضر أخو پريبتوا وبصحبة والدتها لزيارتها ، و جلبا معهما ابنها الغالي العزيز . فكانت پريبتوا في مذكراتها تقول : « لقد بـدا لي السجن عند حضور طفلـي و كأنه قصر جميل ، وأحبـت أن أبقى فيه مفضلـة إياه على أيـ مكان آخر . » و منذ ذلك الحين لم تدع پريبتوا طفلها يبعد عنها ، فأبنته معها طوال الوقت . وكانت ترضـعه من ثديـها وهي في زنزانتها المخـارقة المـظلمـة المـزدـحـمة . و كانت تصـلي لأجلـه حتى حين يـكـبرـ يـتـعـرـفـ هوـ أيضـاً بـطـرـيقـ الـحقـ وـسـيرـ فيهـ قـدـماًـ منـ دونـ خـوفـ أوـ وجـلـ .

ولـا ننسـى فيـليـستـاسـ (Félicité) التـيـ كانت معـهاـ فيـ الزـنـزـانـةـ عـيـنـهاـ ، إنـهاـ الخـادـمـةـ المـخـلـصـةـ ، بلـ أـكـثـرـ منـ خـادـمـةـ إـذـ هيـ اختـهاـ بـالـمـسـيـحـ وـ صـدـيقـةـ حـمـيمـةـ وـ عـزـيزـةـ . كانتـ فيـليـستـاسـ قـلـقةـ ، وـلـكـنـ لـيـسـ بـسـبـبـ الموـتـ ، بلـ كـانـتـ تخـشـيـ انـ يـتـرـكـهاـ اـصـحـاحـابـهاـ . لمـ تـكـنـ الـإـمـپـراـطـورـيـةـ الـرـوـمـانـيـةـ تـعـدـ النـسـاءـ الـخـيـالـيـ ، وـفـيـليـستـاسـ كـانـتـ جـبـلـيـ فيـ شـهـرـهاـ الثـامـنـ . لقدـ سـأـلـتـ فيـليـستـاسـ پـريـبتـواـ وـاصـحـاحـابـهاـ الـآخـرـينـ لـيـرـفـعـواـ إـلـىـ اللـهـ صـلـاـةـ لـتـلـدـ قـبـلـ موـعـدـ المحـاكـمةـ . وـاستـجـابـ اللـهـ حـالـاـ وـيـدـأـتـ الـآـلـمـ الـخـاضـ . صـرـخـتـ فيـليـستـاسـ منـ الـآـلـمـ ، فـسـخـرـ منهاـ أحدـ الحرـاسـ وـقـالـ : « إـنـ كـنـتـ تـبـكـيـنـ مـنـ الـآـلـمـ الـولـادـةـ ، فـمـاـذاـ سـتـفـعـلـيـنـ حـينـ تـُقـيـنـ لـقـمـةـ الـلـوـحـوشـ الـكـاسـرـةـ؟ـ »ـ أـجـابـتـ : « أـنـأـعـانـيـ الـآنـ مـاـعـانـيـ ، وـلـكـنـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ ، سـيـكـونـ مـعـيـ اللـهـ الـذـيـ سـيـحـمـلـ الـآـلـمـ لـأـنـ مـعـانـاتـيـ حـبـشـتـ ستـكـونـ مـنـ أـجـلـهـ هوـ .ـ فـولـدتـ فيـليـستـاسـ مـولـودـ أـشـيـ ؛ـ وـلـكـنـ الـمـولـودـ الـمـكـبـنةـ ،ـ أـمـسـتـ يـتـيـمـةـ بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ قـفـطـ مـنـ وـلـادـهـ .ـ

كان السجان يسمح لأصدقاء پريستوا وفليستاس بأن يزوروهما في الزنزانة بين الحين والآخر . كان الظلم دامساً و المكان ضيقاً مرعباً ، وقد عانت المرأةن وحشية الحرس و قسوتهم ، و مع ذلك ، ففي هذا المكان المعرف ، تعمدت المرأةن بالماء ، كشهادة على إيمانهما ، وتعمد معهما أيضاً ثلاثة أو أربعة من زملائهما . لقد صلت پريستوا ليمنحها الله الصبر و السلوان لتحمل كل ما هو آت عليها من عذاب و هوان .

أفرزت پريستوا مع أصدقائها الآخرين عن بقية مسيحيي قرطاجة . كانت رغبة السلطات الحاكمة ، أن يجعل من هؤلاء عبرة علنية لن يعتبر من جمهور قرطاجة . و يتضرر الآن جميع أهالي المدينة ليروا إذا كانت پريستوا و زملاؤها سينكرنون الرب المسيح و يذبحون للوثن . كان المحاكم يأمل ذلك ، فهذا الأمر قد يُثبط عزائم الآخرين ، فبحذون حذو هؤلاء في انكار سيدهم ، و اتباع عبادة الأوثان . ولكن الحاكم اساء تقدير تصميم پريستوا ، واستخف بعزم اصحابها القوية الصلبة . ولم يكن يعلم شيئاً عن نعمة الرب وقوته المعطاة للمؤمنين ، والتي ستؤازرهم و تساندهم في ساعة محنتهم . اذا كان المطلوب أن يكونوا عبرة لآخرين ، فقد قرروا ان يكونوا عبرة شريفة وأن ينجزوا ذلك الامتياز الذي منحهم إياه الله إذ يشرقون بيهاء محبة الله على المسرح الذي أعد لهم .

كان قلب پريستوا متعلقاً بأبيها ؛ و كانت ترحب في اسعاده ، لكن الفارق هو أن أبيها لا يعرف المسيح ، أما هي فتعرفه . وقد كانت تدرك أن انكارها للحق لا يمكن أن يساعد أبيها ، بل ستكون بذلك قد خدعته . عليها أن ترى طريق المسيح مهما حدث ، و في كل الظروف ، و أن تصلي لكي يتعرف بهذا الطريق و يتبعه .

كان أخوها يعرف شعورها و دواخلها . وكانت ترناح اليه ، لأنه هو أيضاً اعتنق المسيحية كأنمه ، لقد جاء ليشاركها الصلاة في الزنزانة و اقترح عليها أن تطلب إلى الله أن يكشف لهما ما الذي سيحدث . فجاء جواب الله على هيئة رؤيا . حلمت سليم ذهبي ضيق طوله من الأرض إلى السماء ، يحرسه حبيوان ضار في أسفله ، و محاط من جوانبه بمختلف أنواع أسلحة القتال وال الحرب . كذلك رأت في هذا الحلم ساتوروس (Saturus) ، وهو أحد الرجال المسيحيين الأربع المسجونين معها . ثم شرع ساتوروس بتسلق السلم و تبنته هي أيضاً . وعندما اعتلت الدرجة الأولى من السلم داست على رأس الوحوش . و عندما وصل ساتوروس إلى أعلى السلم ، دعاها باسمها و هو يقول : « ابني في انتظارك يا پريستوا ». ويانضمماها إليه وجدت نفسها في مرج خصيب ، حيث يجلس راع يحلب غنمها ، محاطاً بأناس يلبسون الثياب البيضاء . دنا منها الراعي وقدم لها قطعة من الجبنة . أخذت پريستوا قطعة الجبنة بكلتا يديها ، و إذا بالأناس المتربلين بالثياب البيضاء يصرخون « آمين » . و في هذه اللحظة استيقظت من حلمها ، ولكن مذاق الجبنة يبقى في فمها . لقد جلب هذا الحلم الجميل وغيره من الأحلام ، شعوراً كبيراً من الراحة لپريستوا وأصحابها؛ ومنهم الجرأة و القوة والشجاعة لمحابيهم و ازتعاجاتهم بفرح و غبطة . و هكذا استطاعوا أن يواجهوا المستقبل من دون خوف او وجع . لقد عرفوا يقيناً أن هذه الرؤى كانت من الله ، وان الله تعالى

سيحقق لهم ما جاء فيها . كذلك عرفوا أن الراعي لم يكن في الواقع الأ مخلصهم ، وأن هذا الراعي الصالح سبّاقاً لهم قريباً في المرج الجميل الذي ارّاهم إيه . هناك سيتدوّقون حلاوة مجّة الله .

كانت تصرفات بريبيتو و زملائها تختلف عن تصرفات السجناء الآخرين . كان هؤلاء السجناء يسبّوا اضطرابات ، الأمر الذي جعل حياة الحراس معهم صعبة و شاقة . أمّا أولئك فقد كانوا صبورين و مراعين لشعور الآخرين ، ملؤين اطمئناناً و ايماناً . ورد في مذكرة بريبيتو أن أحد الحراس المشرفين على السجن بدأ ينظر إليها وإلى أصحابها بعين التقدير و الاحترام مدركاً أن قوة الله في داخلهم . كان اسم هذا الحراس « بودن » (Pudens) .

عند إعلان يوم المحاكمة ، عاد والد بريبيتو مرة ثانية ، فحاولت بريبيتو أن تقدم لأبيها التعزية والمواساة و هي تقول : « لتكن مشيئة الله الصالحة يا أباها ، إذ ليس قدّرنا بأيدينا و إنما بيديه الكريعين » . فأجاب أبوها قائلاً : « يا بنّي العزيزة ، ارحمي أباك و اشفقي على شيته ، فإذا كنت تكتفين لوالدك الاحترام و الاعتبار الكافيين ، فلا تدعني الناس يسخرون بي ، ولا تسبّي لنا الدمار والحراب ، بحسبت لن يجرؤ أيّ منا أن يُطلّ بوجهه أمام الناس ، ولا سيما إذا حكموا عليك » . ألقى أبوها بنفسه عند قدمي ابنته و بكى عراره و يأس متسللاً إليها أن تعود عن هذا الطريق الحقير الرهيب الذي اختارته . و قفت بريبيتو أمام والدها بهدوء وسكينة و هي تتمنّى أن يُكمل حديثه . وبعد أن أكمل ما يريد قوله ، تركها بقلب كسير ، و خرج حاملاً طفلها .

وقد كتبت بريبيتو في مذكراتها تقول : « الوقت يمر سريعاً وموعد المحاكمة بات قريباً ، وفيما كنا نتناول الغداء ، استمجلونا إلى السوق العام ، حيث الإستجواب . بسرعة كبيرة انتشرت الأخبار في السوق وبدأ الناس يهافتون للنجمّح حولنا . اعتلينا النصة جميعنا ، واعترف زملائي بكل جرأة أنهم من المؤمنين بيسوع . ثم جاء دوري . » عندئذ انسلّ أبوها ليكون على مقربة منها قدر المستطاع ، و كان يلوح لها بطفلها فكان على مرأى من ناظريها ، وصرخ قائلاً : « ارحمي طفلك يا بريبيتو » . ولم يستطع القاضي أن يتحمل هذا المشهد ، فاللحظة على بريبيتو أن تبكي إيمانها و تسحب قبل فوات الأوان ، وقال لها : « احفظي شيئاً أبيك ، و ارحمي طفلك ، وكل ما هو مطلوب منك هو أن تُقرّبي تقدمة وأن تعبري عن ولائك لأمبراطورنا العظيم ، وهكذا يُخرج عنك فوراً » . فأجابت بريبيتو : « لا استطيع أن أفعل هذا » . فسألها القاضي : « هل أنت مسيحية؟ » فأجابت بعزم و ثبات : « نعم إنني مسيحية » .

بعد هذه الكلمات صرخ أبوها صراخاً مرمياً ، واستمرّ هكذا محدثاً جلبة كبيرة حتى تقدّم صبر القاضي فأمر بإبعاده . وفي أثناء إبعاده عن المشهد ، انهالت عليه ضربات الحراس بهراواتهم الثقيلة . سمعت بريبيتو أصوات الهراءات وهي تنهال على أبيها ، فكتبت في مذكراتها تقول : « لقد عانيت آلام الضربات التي تعرض لها أبي كما لو كانت تنهال عليّ . لقد عانيت بسببشيخوخته البائسة الكثيبة ». ولكن لم تستطع بريبيتو أن تراجع عن إيمانها ؛ لم

تستطيع أن تناكر الحقيقة ؛ لم تستطع أن تخدع عائلتها ؛ لم تستطع أن تتذكر عهد سيدها ومسخلصها . لقد صدر الحكم بادانتها مع الآخرين وبات عليها أن تواجه الوحش في الساحة العامة .

كان هناك محام شاب يدعى ترتوهليوس (Tertullien) ، وكان يعيش في قرطاجة في ذلك الزمان . ويُحتمل أنَّ هذا الشاب كانَ وافقاً في الرحمة الكبيرة ، وقد كان هذا الشخص هو الذي كتب إلى الحكومة الرومانية يقول : «إنَّ دماء المسيحيين هي بذار» . فإذا زُرعت هذه البذار المقدسة ، لا بدَّ من أن تعطي ثمارها ، وستكون هذه الشمار حصاداً مذهلاً مدهشاً .

على كل حال ، نُقل السجناء إلى زنزانتهم ، وبقوا هناك ينتظرون الاحتفال الكبير الذي سيقام بمناسبة عيد ميلاد أحد أبناء الإمبراطور . كان مُقرراً في تلك الأثناء تنفيذ حكم الاعدام بالسجناء لتسليمة أهل المدينة . وقبل موعد تنفيذ حكم الاعدام ، توفي واحد من الشبان يدعى سكُوندولوس (Sécundulus) ، ولكن عرور الأيام شهد السجن مشاهدة استثنائية ملفتة للنظر حقاً . ذلك لأنَّ الشبان المسيحيين الخمسة ، بدأوا يتذمرون حظهم العاشر ، كانوا يستمتعون بشعور البهجة والسرور . كما أنَّ دماثة أخلاقهم ، وأيانهم المخلص الثابت ، ترك عند المشاهدين انطباعاً عميقاً . والذين كانوا يزورونهم ليترثوا لهم ، كانوا يجدونهم مختلفين ثقة وثباتاً . والذين كانوا يأتون ليطمئنوا عليهم ويعزوزهم ، كانوا يجدونهم متمنعين بأقصى الطمأنينة والسلام والثقة التي منحهم إياها الله في حيئه . لقد تأثر زوارهم لدرجة أنهم صمموا بدورهم على السير وراء المخلص يسوع المسيح . كتبت بريبيتا يقول : «غادر جميع الزوار وهم مندهشون ، وتبήجَ لذلك آمن معظمهم» . ويلو بوضوح أنَّ الحارس المدعو بودنر قرر أن يكون مسيحيًا هو أيضاً . شاهدت بريبيتا أباها مرة أخرى قبل يومها الأخير ، ولكنها لم ترَ أنها لأنَّ جده رفض أن يحضره .

كانت العادة تقضي أن يُقام احتفال عام ليلة الاعدام لتسليمة السجناء المحكوم عليهم بالموت ؛ فانتهز هؤلاء الفرصة ليتناولوا وجبة طعام مشتركة ، بعضهم مع بعض ، وذلك تذكاراً لمحخلصهم يسوع المسيح الذي عانى وتألم ومات من أجلهم . تجمهر سكان المدينة ليشاهدوهم ، وقد كان بعض هؤلاء السكان متحددين معهم في الإيمان ، أما بعضهم الآخر فلم يكونوا كذلك . لكن الجميع ترکوكهم مستغربين إيمانهم الثابت وعزيمتهم التي لا تلين .

وفي اليوم التالي ، وهو الموافق اليوم السابع من شهر مارس سنة 203 م ، اقتيد كل من بريبيتا وفيليستاس والشبان الثلاثة ، ساتورروس و ساتورنيوس (Saturninus) وريڤوكاتوس (Révocatus) إلى ميدان الوحش - وهو المدرج الشعبي العام حيث كانت تُجرى المبارisات والألعاب وسباق المركبات . شعرت بريبيتا و زملاؤها بالارتياح والاسترخاء ، لأنَّ الفرج قد اقترب ، ولأنَّ العذابات التي يفاصونها ستنتهي . كذلك انتابهم شعور من الفرح العظيم عندما تأملوا في ذلك الترحب الذي سيلقونه في بيتهم السماوي . وفي أثناء مرورهم بين صفوف الجند كانوا يتلقون ضربات مبرحة . وقد حاول الحرس أن يضعوا عليهم أردية وثيَّة احتفالية - حيث الزي لباس قرمزي وأصفر ، و كان الرجال كهنة للإله زُحل

(Saturne) ، و النساء و كأنهن مكرسات للإلهة كيرنس (Cérès) . فاعترضوا على ذلك بشدة مصرّحين جهاراً بأنهم مسيحيون لا عبدة أوثان . وهكذا ، سُمح لهم في النهاية بأن يخرجوا بشبابهم الاعتيادي . شرع المحتشدون التحمسون ، مجتمعين وجالسين فوق مصطباتهم ، يصخبون وبصرخون بأعلى أصواتهم ، بينما كان المحكومون يسيرون بشجاعة نحو الفسحة المفتوحة في منتصف الدرج . وأخيراً غضبت الوحوش الكاسرة و صرخت من شدة الجوع ، واستثارة الحراس لها ، ففتحت الأبواب بسحب المهازن الذي كان يفصل الوحوش بعيداً عن الدرج . فهرعت النمور والدببة الوحشية باتجاه هؤلاء المؤمنين الخمسة ، وشرعت تمرّق أجساد الرجال الثلاثة بوحشية قاسية . أما بريستوا و فيليستاس فربطا بشبكتين و كانتا ترمان بزماء المفرج والإيمان بالرب . وهنا ، وعلى حين غرة أقيمت الشبكتان اللتان كانتا مأسورتين بداخلهما أمام بقرة وحشية غاضبة ، و سرعان ما أغمدت البقرة قرنيها في الاسيرتين بوحشية و حملتهما في حال تشنج وهياج ، و رفعتهما برأسها إلى الوراء و قذفتهما بعيداً بعنف كبير .

سقطت بريستوا أرضًا ، وقد غرق رداها من جانبه . فأعادت سحبه ، ولقته حولها لأنها «اهتمت ببقاء جسدها محشّماً أكثر من اهتمامها بالأذى والهوان اللذين لحقا بها » . ربطت بريستوا شعرها السائب و دارت بنظراتها حول المكان بحثاً عن رفيقتها فيليستاس ، فوجدتها مطروحة أرضاً ، فاقربت منها و أعانتها على النهوض و الوقوف على قدميها . ثم التفت إلى زملائها الذين كانوا لا يزالون يصارعون الوحوش في الساحة ، و صرخت إليهم تحثهم و تشجعهم و تقوّي معنوياتهم .

اقتبست بريستوا وفيليستاس إلى غرفة خارج الميدان و جراهمَا ثغينة دامية . و على الرغم من جراحات بريستوا البليغة ، فقد كانت في نوبة ما بعدها نشوة ، ولم تكن لتشمر بالآلامها المبرحة . سألت بريستوا عن موعد عودة الوحوش إلى الميدان من جديد . و في هذه الفترة القصيرة من الراحة ، وبعد أن استطاعت بريستوا أن تلتقط بعض أنفاسها ، جاءها أخوها واحد من الأصدقاء يدعى روستيكوس (Rusticus) ليقتداها . فشجعهما بريستوا قائلة لهما : « أثبتوا في إيمانكم ، أحبوا بعضاً ، لعلَّ استشهادنا لا يكون سبباً لخجل لكم جميعاً » . ثم نهضت بريستوا وتوجهت إلى الميدان من جديد . في الوقت عينه و في الجانب الثاني من الميدان ، كان ساتوروس يتحدث إلى الحارس بودنز وهو يحثه قائلاً : « و الآن يا أخي ، آمن من كل قلبك . . . الوداع ، تذكر إيماني ، ولا تجعل أموراً بهذه تهلك ، بل لتكن حافزاً لتزيد إيمانك و تقويه » .

عندما شيع المحتشدون من مشاهدة ما قامت به الوحوش الكاسرة في الميدان ، وادركون أنه ما زال هناك بعض الضحايا الأحياء المجرحين ، صرخوا مطالبين التعجيل بقتلهم والتخلص منهم . أما بريستوا وزملاؤها المؤمنون ، فهرعوا يعانون بعضهم بعضاً ، لانه العناء الأخير قبل انتقالهم إلى أحضان المسيح . مشوا متبعين إلى منتصف الميدان مسيرة الشرف و الكرامة وهم هادئون فرحون . وفيما هم سائرون ، انهالت عليهم طعنات السيف من رجال

عيّنوا لهذا الغرض . أمّا الجلاد الذي أوكل عليه قتل بريتوا فقد كان فتىً يافعاً ، غير ذي خبرة في أعمال الإعدام . كان يتفقد مهمته من دون انفاس ، إذ طعن بريتوا طعنة غير فعالة . عندئذ أمسكت بريتوا بيده وغرزه في صدرها بكلتا يديها . وبهذا تحررت بريتوا من الوضع الذي كانت تعانيه وانطلقت إلى احضان المخلص .

* * * * *

كانت قرطاجة تحمل صفات غريبة تلفت الانظار . فهي عاصمة إفريقيا ، أو على الأقل ، تلك المقاطعة الرومانية التي كانت تحمل ذلك الاسم ؛ وفي الواقع كانت إفريقيا أرضًا ضيقة تحاذى الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط . وتذكرنا قرطاجة وابن القرن الثالث للميلاد ، من بعض وجوهها ، بمدينة كورثوس . فكلتا المدينتين كانتا مبنائين يقطنهما شعب بلا جذور ، يتهونون التجارة . ولم يكن هناك فوارق اجتماعية تذكر في كلتا المدينتين ، ما عدا ما يتعلق بالغنى . كانت كلُّ منها تعاني ظاهرة الانحلال الأخْلقي التي تبرز في المدن الواقعة عند شبكة طرقات رئيسة تربط الدول بعضها ببعض . هذا لأنَّ روادها هم من المغامرين الذين يشعرون بأنَّهم بعيدون عن قيود الأصدقاء والأهل ، ينعمون في الملذات الدنيوية التي تبήجها أماهم الديانة الوثنية . ونحن نجد في كلتا المقاطعتين أعرافاً وأجناساً خلبيطة من جميع أنحاء العالم - الإفارقة ، والإيطاليين ، واليهود ، والمصريين والغالين . كذلك نجد طاقات عقلية أو عاطفية تظهر من خلال المشاحنات المستمرة التي نطالعنا سواء في الشوارع أو الأسواق ، أو على المدرجات . وما زاد الوضع تفاقماً حرارة المناخ والذباب والحشرات والقذارة والأمراض المستشرية في الأرقة التئمة المزدحمة . تعزز مدينة قرطاجة ببنفسها وتزهو بكتابتها وتفتخر ، مع أنها فقدت عظمتها السابقة . فهي تحت حكم روما قسراً ؛ ومن جهة أخرى ، قد يبدو أنها تسيطر على المناطق المحيطة بها بالإضافة إلى القبائل الداخلية ، لكنها في الواقع تفقد تلك السيطرة . وقد يبدو أيضاً أن مواطنيها متخدون في تعبدهم للآلهة القديمة ، ولكنهم كانوا ممزقين داخلياً يشككون في مصداقية تلك الآلهة .

إنَّ شعب قرطاجة ، وجدوا في وسطهم رجالاً ونساءً يتميّزون بطبع الغربة : تخالهم عائلة ، لكنهم لا يرتبطون بروابط الدم . وتنظن أنهم دين ، إنما في الواقع بلا آلهة منظورة . كذلك يبدو أنهم من عرق واحد ، ولكن بالحقيقة متعددون من دول متعددة . الغني والفقير ، الكهل والشاب ، المتعلّم والأعمى ، وهم من الإفارقة أو الإيطاليين أو اليهود ، من دون تمييز . لهم جميعاً دماثة خلق مؤثرة ، ولهם أيضاً جاذبية أخاذة عجيبة . لا تجدهم يتشاركون ، أو يغشون ، ولا يسخرون ، ولا يشاركون في طقوس العربدة ، أو الاحتفالات الفاسدة التي كان جيرانهم يحتفلون بها . ولم يرهم أحد يشاركون في المسرحيات العامة ، ولم يُعرف عنهم قط أنهم دخلوا يوماً إلى معابد المدينة التي كان يرودها كلَّ السكان . ففي الواقع ، كانت هذه الجماعة الغامضة لغزاً من الألغاز وسرّاً من الأسرار . كانوا يعيشون في قرطاجة ، ولكنهم لم يشاءوا يوماً ، أن يكونوا جزءاً من هذه المدينة أو من شعبها .

بل على العكس ، كانوا يجتمعون سرًا ، و في الخفاء - جماعات صغيرة هنا وهناك - لا يعرف أحد ماذا يجري وراء أبوابهم المغلقة ، من أمور وأمور .

و مع ذلك ، فقد كان أولئك القوم من أفضل الناس وأحسنتهم . فإذا اتفق أن تعرَّفت بواحد من هذه الجماعات ترى إنك تنساق أتسيًا لشقت به و تطمئن إليه . و إذا طلبت إليهم أن يحدِّثوك عما يؤمنون به ، يجيبونك بلطف ، أنهم يؤمنون بشخص أنت إلى هذه الدنيا ، ليس منذ وقت طويل ، وذلك ليُعِين البشرية ، فرفضه هؤلاء الذين جاء لكي يعينهم ؛ وأخيراً ، نُفِّذ فيه حكم الموت ، ولكن موته لم يكن نهاية المطاف . لأنك إن صدقت روایتهم وما يقولونه لك ، فهذا الرجل الذي مات ، قام من القبر في اليوم الثالث . قام بطريقه عجيبة وهو لا يزال حيًّا بصحبة اتباعه ، ومعهم حيًّا ذهبوا وإيضاً وطأت أقدامهم .

وبالتأكيد ، فإن هذه الرواية هي رواية جميلة ، والإيمان بها لا يُؤدي أبداً ، وقد تكون صحيبة . ولكن لم تكن الامبراطورية الرومانية تُعْنِي كثيراً بالجمال أو بالحق . لقد كان الدين عند أولئك الرومان مفيدة ، لكنه مفيدة إذا ما استعمل كأداة للسلطة على الناس واستغلالهم . فحتى ذلك الوقت ، كان استغلال الدين قد أعطى نتائج حسنة ، و كان مفعوله جيداً ، شريطة أن يخلص الناس لدين واحد ، و يقدموا له الولاء المطلوب فيشارك جميع الناس بعبادة واحدة عامة موحدة . ازْعَجَ السُّلْطَاتِ الرُّومَانِيَّةَ أَنْ تُحْدِيَ فِي قَلْبِ الْعَاصِمَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ أَنْسَاسًا يَزْدَادُونَ بِاَطْرَادٍ ، وَ يَرْفَضُونَ قَبْوُلَ الْعِبَادَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْعَامَّةِ ، وَ يَمْتَعُونَ عَنْ تَقْرِيبِ التَّقْدِيمَاتِ الَّتِي تُكَرِّمُ الْإِمْپَراَطُورَ . كَمَا شَعَرَتِ السُّلْطَاتُ أَنَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ أَنْ تَهْدَدْ بِنَيَّةَ الْمُجَمَّعِ وَ الْخَضَارَةِ الَّتِي يَسْهُرُ عَلَيْهَا الْإِمْپَراَطُورُ . لَذَا ارْتَأُوا أَنْ تُخْمَدَ هَذِهِ الْحَرْكَةِ وَ تُقْمَعَ وَهِيَ بَعْدِ فِي مَهْدِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْحِلَ أَمْرُهَا وَ تُتَشَّرِّرَ . وَ فِي هَذَا الْوَقْتِ أَصْبَحَتِ الْحُكُومَةِ الرُّومَانِيَّةِ قَلْقَةً وَ مُتَوَرَّةً بِسَبَبِ الْأَزْمَةِ الْاَقْتَصَادِيَّةِ وَ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَفَاقِمَةِ وَ الَّتِي جَعَلَتِ النَّاسَ يَنْدَمِرُونَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ . بَدَا التَّعْلِمُ يَتَنَامِي بَيْنَ سُكَّانِ قُرَاطَاجَةِ ، وَ بَدَا صِرَرُهُمْ يَنْفَدِدُ بِسَبَبِ حُكَّامِهِمِ الرُّومَانِ . لَقَدْ أَصْبَحَ الشَّعْبُ فِي حَاجَةِ إِلَى مَزِيدٍ مِّنْ مَهْرَجَانَاتِ الْلَّهُوِّ وَ التَّسْلِيَّةِ . وَ صَلَّتِ السُّلْطَاتِ الرُّومَانِيَّةُ إِلَى الْحَلِّ الْمُشَوِّدِ ، حِينَ طَلَبَ مَرْوَضُ الْوَحْشُ الْكَاسِرَةَ مَزِيدًا مِّنَ الضَّحَاحِيَا لِإِطْعَامِ وَ حَوْشَهِمِ الْجَائِعَةِ ، عَلَى الْمَدْرَجَاتِ . فَإِنَّ هُؤُلَاءِ الْمُسْكِيْحِيِّنَ سَيْفُونُ بِالْغَرْضِ .

بعد مصرع بريستوا وأصحابها بقي جمهور المؤمنين بعاشور متضاربة - يسرّهم أن معاناة أحبائهم قد انتهت ، لكنهم يحزنون لفراغهم ؛ اطمئنان إلى أنهم من الشهداء الذين رحبت بهم السماء ، وهم الآن في مكان أفضل حيث استقبلهم الراعي الصالح الذي تراءى لبريتوا ، وقلق على مصير المؤمنين الباقين . رفع الإخوة الجشت الخمس المطروحة على أرض الملعب ، ودفنوها بكل محبة . كذلك نصبوا لوحة تذكارية لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء الشجعان ، الذين وقفوا وقفمة مشرفة . وكان المؤمنون يحتفلون سنويًا بذكرى استشهاد هؤلاء الابطال ، فيستمدرون من ذلك القوة ؛ لا سيما ان هؤلاء كانوا نماذج حية للشجاعة والاستشهاد . قامت احدى النساء المؤمنات من الجماعة المسيحية بتبني طفلة فلسطينية وتربيتها مع اطفالها . وعندما شبّت هذه

الطفولة تعرفت بحقيقة والدتها و يأيمانها بال المسيح الذي لم تذكره حتى الاستشهاد . كذلك عرفت هذه الابنة الشابة انها تستطيع ان ترى والدتها يوماً ما وستتعرف بها ، مع انها لم تعرفها في الحياة الدنيا . هناك في السماء ستبقى معها ، حيث لن يكون دموع او احزان ، او أي فراق بين الأحبة .اما ابن پريستوا ، فلا نعلم ماذا حصل له ، لكن ربما عاش مع جده كوثي ، وربما بقي مع خاله و اعتنق المسيحية .

كذلك لا نعرف شيئاً مؤكداً عن زوج پريستوا . فمن الممكن الا يكون له مكان في هذه القصة ، لأنه قد تكون پريستوا قد تزوجته رغمما عن ارادتها و هو لا يأبه إلا قليلاً لزوجته ولا يأيمانها . وهكذا قد يكون تخلى عنها في ساعة محنتهما و حاجتها اليه . ثمة احتمال آخر ، وهو أن يكون هذا الزوج من الذين سُجّنوا ايضاً معها . فعند سماع ساتوروس بالقاء القبض على پريستوا ، نرى أنه قد اسلم نفسه طوعاً الى السلطات الحاكمة . و في الرؤيا ، رأت پريستوا ساتوروس يتضررها في رأس السلم ليدخلما معها الى الجنة و هي بصحبته و الى جانبه . ولم يكن هذان المؤمنان ليفترقا ابداً . لذلك ، فالاحتمال هو أن يكون ساتوروس زوجها . فالمسيحي الذي يمكنه أن يحظى بحب امرأة عظيمة كپريستوا ، لا يمكن أن يكون من الذين يخافون الخطر و يهربون منه . فلا بد مثل هذا الانسان من أن يعلن إيمانه و يعيش هذا الإيمان ، و أن يموت في سبيله شهيداً اذا ما اقتضت الحاجة الى ذلك . فمثل هذا البطل لا بد من ان يقف بجانب زوجته ، في المدرج الروماني ، او في الجبال ، او في الصحاري ، او بعيداً داخل الوطن ، وفي كل الظروف والاحوال . كان هناك الكثير من مثل هؤلاء الرجال الاشداء في افريقيا الشمالية ايأن تلك الحقبة من الزمن .

اما فيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية فقد أدت سياساتها العقيبة المشهورة الى نتائج عكسية ظهرت واضحة امام الملأ جميماً : قبل المسيحي المؤمن هذا التحدي الكبير ، و هكذا ربح المعركة . والآن عرف اهالي قرطاجة أنَّ المسيحيين لا يهابون الموت و أن استعمال القوة معهم لا يجدي نفعاً . لقد ثبت ستة ابطال من الرجال و النساء بايمان راسخ بقوة مسيحيهم و مخلصهم ، ولم يرخصوا في يوم من الأيام للتهديد و القسوة و لا خضعوا للطغيان الروماني . وهكذا نجد الناس يتحدثون في كل مكان عمما رأوه و سمعوه متسائلين : ماذا تعني هذه الظاهرة؟ ما هو هذا التعليم الذي يستحق ان يموت الناس لأجله؟ لقد ظهر بوضوح لأولئك المتسائلين ، أنَّ هذا التعليم الجديد يمنع قوة غير مألوفة تستطيع أن تنزع من قلب المؤمن كل خوف من الموت . كما انه ييلأ معتقديه فرحاً - فرحاً يصعب التعبير عنه و يقيناً غير محدود يصعب تفسيره . لكن ماذا بلي ذلك؟ كانت المدينة الافريقية العظيمة تتضرر بتربّ ، متسائلة ما هو جوهر هذا الإيمان المسيحي الذي لا نظير له .

ملاحظة : هذه قصة واقعية أخذت تفاصيلها من وثائق كُتب في زمن وقوع الأحداث .

من الممكن الحصول على ترجمة انكليزية للقصة المعاصرة في :

الفصل الثاني

الانفتاح على العالم المتحضّر

كانت قرطاجة موجودة قبل واقعة بريتويا بألف سنة ، واستمرت ناشطة خلال هذه الحقبة من الزمن . ويشكّل أولئك الناس الذين أقاموا في المدينة العظيمة ، مجموعة أقوام مختلفة متنوعة ، وجدوا طريقهم إليها من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب . بعضهم جاء من البحر وتزوج من فتيات القوم الذين كانوا يقطنون في تلك الديار منذ آلاف السنين ، ويرعون قطعانهم ومواشיהם في السهول الساحلية . ونزل بعضهم الآخر تدريجياً من جبال الأطلس والريف ، مدفوعين بنزاعاتهم أو طموحهم إلى الأفضل . آخرون منهم سافروا شمالاً على طول طريق القوافل الصحراوية التجارية . وحينما بلغوا مدينة قرطاجة لم يستطعوا أن يذهبوا أكثر من ذلك ، لأنَّ هذه المدينة هي الحد الأقصى والتّخم الأبعد على امتداد البحر الأبيض المتوسط ، حيث لا يمكن تعدّيه ، او السفر لأبعد منه . لقد تزامل البحار مع المزارع ، وترافق أحد أعيان المدينة مع العبد ، والأفريقي مع الأوروبي ، فاختلط هؤلاء الأقوام ، بعضهم ببعض إلى حد كبير ، في الشوارع الضيقَة ، من المدينة القديمة ، ومزجوا لهجتهم المحلية ويضايّعهم في أسواقها . وقد ارتفع سكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي إلى 100 000 نسمة .

وعندما أسس الفينيقيون الأشداء قرطاجة ، استخدموها كمركز تجاري صغير لهم ، وقد وصلوا إلى هذه البقعة من شرق البحر الأبيض المتوسط نحو سنة ألف قبل الميلاد . ولكن الفينيقيين لم يكونوا أول من سكن بمحاذاة هذه المنطقة الساحلية ، فقد وصف الكتاب الأولي الأفارقة بأنّهم من الأمازيقين (Imazighen) أو البربر ، الذين قابلهم الفينيقيون عندما اندفعوا براكيهم الغربية إلى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . وكان معظمهم من البدو والرّحل الذين امتهنوا تربية الماشي والاغنام والماعز ، وهم يعيشون في خيم ينتقلون من مكان إلى آخر حسب المواسم ، ويقيم بعضهم الآخر إقامة ثابتة دائمة في الوديان التجديدة وهم يعيشون في أكواخ عبارة عن جدران وأسوار من الطين أو الحجارة . ويعتنون بشجر الزيتون ويستغلونه ، ويربون الدواجن ، وينذرون حبوب الخنطة والشعير في حقول صغيرة . أما نساوهن ، فكن يبحكن الثياب ، ويصنّعن الحزف ، بينما يعمل الرجال بأعمال الحجارة والأخشاب ، صانعين منها أنواعاً

عديدة من الأدوات التي قد يحتاجون إليها في حياتهم اليومية . كانت المعادن نادرة الوجود ولم يكونوا يعرفون التقدّم بعد .

كان الغذاء الرئيس المتوفّر لديهم ، وهو عبارة عن سميد مصنوع من الحنطة والشعير المجروش ، يُعرف باسم كسكسو (Couscous) . وكانوا يلبسون رداءً طويلاً مزيناً بشريط أحمر وفي الصفيح ، كانوا يلبسون برانس مُقلنسة من الصوف . وكانوا يحبّون المجوهرات ويهتمّون لحاظهم وشعورهم ببراعة واقتان . وكانوا يشتهرُون ببنائهم الجسدية القوية ، وبطول أعمارهم .

تعيش المجتمعات العشائرية مع بعضها تحت مراقبة الجد الأكبر أو العم الأرشد وعنياته . وتشترك في امتلاك الأرضي . وكانوا يبنون قراهم بجانب الوديان ، حتى يتمكّنوا من حماية أنفسهم بسهولة من الأعداء وقت الحاجة . وقد شكلّوا اتحاداً من العشائر والقبائل للحماية المشتركة المتباينة ، وفي بعض الأحيان للمشاركة في العدوان . وتقدّم مثل هذه الاتحادات الكونفدرالية عادة ، جمعية تتألّف من رؤساء العشائر . ويمكن لرجل مشهور بشجاعته العسكرية أن يوحد العشائر ، ويكون شيخاً لها أو حتى ملكاً لبعض الوقت ، وذلك في أوقات الأضطرابات أو القلاقل .

لم يتهجّم الفينيقيون على أراضي هؤلاء الأفارقة الأصليين ، وإنما اقتنعوا ، ببساطة ، بأن ينشئوا مستعمراتهم أو مستوطناتهم الصغيرة بمحاذة ساحل البحر الأبيض المتوسط وكان الفينيقيون قد أنشأوا لهم قاعدة رئيسة في قرطاجة بين الأعوام 800 - 700 قبل الميلاد ، واستمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب ، وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكم تجارية بمحاذة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالساحل الأطلسي المغربي ، وامتدوا إلى ما ندعوه الآن المرائش والصويرة . كان الفينيقيون رحالة ومسافرين عظيماء ، وقد احتفظوا لهم بخطوط اتصال بحرية من وإلى كل مكان معروفة في العالم آنذاك ، من الأطلسي وحتى البحر الأسود امتداداً إلى القناة الانكليزية .

إلا أن هذه الشبكة التجارية الواسعة الجديدة لم يكتب لها البقاء . فقد كان الفينيقيون يلاحظون ، سنة بعد أخرى ، كيف أن بلادهم الأصلية ، في الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، تتعرّض لقوى عسكرية ساحقة معاذية تهددهم ، وبخاصة من الإمبراطورية الآشورية . ولقد أجهز أخيراً ، القائد اليوناني العظيم « الاسكندر » على العاصمة الفينيقية « صور » التي سقطت في القرن الرابع قبل الميلاد . وعندما وجدوا أن جذورهم الشرقية قد انثُرت بالقوة ، اختار المغاررون المستوطنون بمحاذة الساحل الأفريقي البقاء هناك ، وبناء مستقبل جديد لهم في وطنهم الثاني ، وعُرّفوا عندها باسم « القرطاجيين » .

والفينيقيون ، أو القرطاجيون ، كما دعوا في ما بعد ، يدوان قطعهم لعلاقاتهم بوطنهم ، أعطاهم زخماً جديداً ، وذلك على مدى الشهادة قرون اللاحقة . وهكذا تطور القرطاجيون ، الدؤوبون على العمل وأنشأوا امبراطورية كبيرة هيمنت على جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط ، وسيتقلقاً شديداً لا يستهان به لنافسيها عبر البحار المتمثلين بروما . كان القائد القرطاجي الموهوب هنرييل على أهبة احتلال مدينة روما ، عاصمة الامبراطورية الرومانية . ففي العام 219 قبل الميلاد ، بدأ هنرييل بعبوره جبال الألب بإسبانيا ، في حملة عسكرية نقل خلالها 37 فيلاً قاتلًا . ولكن الفيلة ماتت ، وكذلك مات الكثير من رجاله ، وبقي هنرييل يتظاهر وصول الإمدادات العسكرية التي لم تصله . لذا فقد باءت حملته هذه بالفشل . وكان سقوط هذا القائد ، كسقوط قرطاجة نفسها التي احتلها الرومان بعده .

والحقيقة أن القرطاجيين لم يحاولوا قط مهاجمة إفريقيا الشمالية ، أو حكمها بالقوة . وببساطة ، فقد نظروا إلى القارة الجنوبية الكبيرة وكأنها مصدر من مصادر المواد الخام ، وحيثما وجدوا رجالاً ، يستخدمونهم للقتال في حملاتهم العسكرية في أماكن أخرى . وقد أنشأوا مراكز خارجية ، إلا أنها لم تكن أكثر من أسواق تجارية محاطة بضياع واسعة لاتصال زيت الزيتون والحنطة والعنب . ولكن هذا الاستيطان الذي أسس القرطاجيون ، لم يكن كافياً لحمايةهم من أي هجوم عسكري حقيقي قد يتعرضون له ، لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالأمازيغين ، واجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم . كانت هذه العلاقات ، لصلاحة كل من القرطاجيين والأمازيغين على حد سواء . ولنقول هذه الروابط ، فقد تزوج سكان الجهاد بعضهم من بعض ، وقام القرطاجيون بتعليم الأمازيغين لغة فينية خاصة بهم تدعى الپونية (Punique) ، وقدموا لهم شعاراتهم الدينية الوثنية ، وجرت بقايضة بين الفينيقيين من جهة الرعاة والمزارعين المحليين من جهة أخرى : جلبوا لهؤلاء الأفارقة البضائع المعدنية المشغولة يدوياً ، والزجاجيات ، والثياب الملوونة المصبوغة ، من أطراف العالم المحيط بحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقايضاً بضائعهم هذه بالصوف والاحصنة وزيوت الزيتون والماع الأفريقي ، فضلاً عن العبيد ، وريش النعام الذي مصدره تجارة الصحراء . قدم القرطاجيون للأمازيغين أشجاراً جديدة لم يكن لهؤلاء يعرفونها من قبل ، كالتين والكرروم والرمان ، وعلموهم كيفية غرسها والاعتناء بها . إن الزراعة الواسعة النطاق التي أدخلها القرطاجيون إلى إفريقيا ، كانت ابتكاراً جديداً بالنسبة إلى الأفارقة الذين كان عملهم حتى ذلك الحين ، محصوراً في تربية الأغنام والأبقار ، وتوفير حاجيات عائلاتهم من الحقول والبساتين الصغيرة . وافق الأمازيغيون فرحين مسؤولين على أن تستعمل أراضيهم بذلك الطرائق . وبالطبع فقد استفادوا كثيراً من الأسواق

الجديدة التي فتحت أمام انتاجاتهم الغذائية والحيوانية . وليس من شك في أن التغيير الكبير الذي طرأ على غذائهم وأطعمتهم والعدد المعدنية والبضائع المشغولة يدوياً التي زودهم بها القرطاجيون ، زادت من سرورهم وبهجهتهم أيضاً ، حيث كانت هذه جميعها تدل على ذوق رفيع وثقافة عالية . لقد شرع الامازيغون يلبسون الأزياء الارجوانية ، والمجوهرات الثقلة التي يستعملها القرطاجيون عادة ، كما تعلموا استخدام لغتهم أيضاً .

ولكن هذا لم يدم إلى الأبد ، لأنّه ، على الرغم من أنه كان للقرطاجيين أصدقاء في إفريقيا ، فقد كان لهم أعداء أقوى أيضاً في مناطق أخرى من العالم . فالرومانيون صُعِقُوا بالتجاهات السريعة المفاجأة التي حققتها هنريخ ، جنرال قرطاجة . لذلك ، ففي القرن الثاني قبل الميلاد ، زحفت الجيوش الرومانية ، وشارفت أبواب قرطاجة ، ولم تمض فترة قصيرة حتى سقطت مدينة قرطاجة ، واستسلمت لها جمبيها في العام 146 قبل الميلاد .

كان الهدف الأهم من دخول الرومان إلى إفريقيا الشمالية هو تدمير قوة منافسيهم الأول في البحر الأبيض المتوسط ، والعودة إلى ديارهم بعد تحقيق هذا الحدث الهام . ولكن بسبب لم يتمكنوا من تجنبه ، وجدوا أنفسهم وقد تورطوا في نوع من الاتحاد الجديد مع القادة الامازيغين ، الذين أسرعوا بدورهم إلى تشكيل صلات وروابط مع الوافدين الجدد ، كذلك الروابط التي كانت تربطهم بأسلافهم من القرطاجيين . وهكذا بدأ الرومان يعون أهمية الطاقات الكامنة في إفريقيا ، فراحوا يطوعون مرتزقها للدعم القوى العسكرية المرابطة آنذاك على الحدود الأخرى للإمبراطورية ، والتي كانت في حاجة إلى إمدادات . فمنذ فترة ، استُعِيَضَ عن الجنود الرومانيين بالإداريين ، لوضع المخططات المطلوبة لاستعمار إفريقيا الشمالية ، فبدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للإمبراطورية ، ولم يكن معظم الوافدين من إيطاليا نفسها ، بل كانوا من الغاليين والاسبانيين والدلتانيين والسورين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم إلى الخليط الموجود قبلًا في مدينة قرطاجة . وتكلم هذا الخليط من الناس اللغة اللاتينية واليونانية من دون أن يتكلموا البيونية .

كان الرومان من أعظم الإداريين في عصرهم وأبرعهم . فإذا قرروا يوماً أن يقيموا في بلد ما ، كانوا يشرعون بنشر تنظيمات إدارية مناسبة . وعليه ، فقد بدأوا بتنظيم مقاطعة إفريقيا الشمالية ، بكل نشاط . وقد نظروا إلى إفريقيا أولاً على أنها مصدرجيد للطعام والغذاء ، وساورهم القلق ، كما هي عادتهم دائمًا ، على كيفية احتياجاتهم للخبز ، وذلك طبعاً بسبب اتساع الإمبراطورية وازدياد احتياجاتها . لذلك ، قامت السلطات الرومانية باقتلاع أعداد كبيرة من أشجار الزيتون ، وزرعت مكانها الحنطة والشعير . وكذلك قطعت من أشجار الغابات الموجودة بمحاذاة الأنهر أو البحار التي تمكّنهم من شحنها . وخلال فترة

وجيزة ، نظمَ الرومان أعمالَ رِيَّ واسعة ، وبنوا القنوات لمدن متعددة كقرطاجة وقبرصية (شرشال) ، وشرعوا بتبسيط الطرق وأسلوبهم المميز وهو استعمال البلاطات الضخمة التي كانوا قد استخرجوها من المقالع حديثاً .

في البداية ، سمح الرومان للقادة والشيخ المحلين الأمازيغيين أن يحكموا على ما كان تحت سيطرتهم من البلاد والناس . و القادة من الأمازيغين والقرطاجيين الذين قدموا الطاعة والولاء للإمبراطور الروماني ، فقد منحوا ، وبسرعة ، منزلة خاصة ، باعتبارهم مواطنين رومانين : فاستفاد هؤلاء من وضعهم الجديد هذا . وهكذا ، ويسرور لا يوصف ، وجد هؤلاء القادة والرؤساء الأمازيغيون والقرطاجيون انهم قادرون على أن يتبوأوا مناصب عليا رفيعة في السياسة وفي الهيئات أو السلطات الاجتماعية الأخرى في المدن التي جرى تطويرها وإنقاذها حديثاً . وقد أصبح العديد من الأفارقة قادة في الجيش الإمبراطوري . وفي سنة 190 ق. م صار ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الإمبراطورية من روما ، مشكلاً من أعضاء أفريقيي الأصل . وهكذا انتُخب أحد الأمازيغين المدعوسِ سيفيروس (Septime Sévère) إمبراطوراً لروما في وقت مبكر من عام 193 بعد الميلاد . هذا لأن التعيينات الإدارية في روما كانت تُبنى على أساس الاستحقاق والكفاءة . كان بإمكان أحد الأمازيغين الذي أصبح حاكماً في روما أن يكتب باعتزاز واضح : « فيرأيي ، إن عنصرنا البشري مميز ، وكأنما فذر له أن يكون كذلك . لأنه أنتج أنساناً كبيراً ذوي قدرات عالية ، وهو يرى أن الأطفال الذين أنجبهم وريثاهم يتبوأون أعلى المناصب وأرفعها » .

أما أولئك الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الإمبراطوري ، فقد كانوا غير متحمسين للإمبراطورية . وبما أن المسؤولين الإمبراطوريين ، كان همهم الأساسي السعي وراء تسبيق ما يختص بتنظيمات الاراضي الزراعية ، وفرض الضرائب عليها ، الأمر الذي لم يفلح القرطاجيون في إنجازه ، فقد اعترض عليهم عموم الشعب الذين كانوا يأملون ، ربما ، بالحصول على أرباح أكبر بعد أن تغير شركاؤهم التجاريين . لكن ذلك لم يحصل ، بل اكتشف الشعب أن الرومان كانوا أكثر رغبة في السيطرة على الأراضي مما كان عليه أسلوبهم القرطاجيون . فالقرطاجيون مثلاً ، كانوا يدفعون الإيجارات المستحقة عموماً على الأراضي التي يستغلونها . أما الآن ، ومع استمرار تقديم زراعة الخنطة وتقلص المزروع ، فقد خسرت بعض القبائل اراضي الكلاي التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم ، واستولى عليها الرومان لتحويلها إلى مزارع الخنطة والشعير وغيرها . وهنا ، فضل الكثير من الرجال الأمازيغيين إختيار العمل كأجراء ؛ أما بعضهم الآخر ، فقد انتقل مع قطعانه إلى أرض داخلية بعيدة ومرتفعة ، وهي بالطبع أقل خصوبة وكلا . وبذلك فقد أصبح مستقبل الشعب مشكوك في أمره وغامض النتائج ، لا اعتماد عليه .

وما إن حل القرن الأول للميلاد ، حتى شرع الرومان بتقسيم الحزام الساحلي إلى خمس مقاطعات ، وبطريقة سائبة وعشوانية . وكان هذا التقسيم العشوائي السائب يتلاءم ، في الواقع ، كثيراً مع تنظيمات إدارتهم الحكومية . فمثلاً، امتدت مقاطعة كورينثيا باتجاه الغرب وبمحاذاة الساحل من مصر إلى ليبيا الحديثة . وإذا ما توغلنا إلى ذلك بجهة الغرب ، نجد أن المقاطعة أفريقيا البروونقصلية التي دُعيت في ما بعد تُربُوليتانيا ، تطوق الساحل الذي يدعى الآن خليج سرت . كان هذا مقرَّ الإدارة الرومانية في شمالي إفريقيا والمتركزة في عاصمتها ، قرطاجة ، بالقرب من مدينة تونس حالياً . وإذا ما استمررنا بالتوغل غرباً ، فإننا نجد نوميديا وبعدها موريتانيا **فيصرِيائسِيس** (أي الجزائر حالياً) ، ومن ثم موريتانيا **تشيجيتانا** والتي تستمر نزولاً حتى الساحل الاطلسكي إلى أن نصل إلى سلا (بالقرب من الرباط) . إنَّ المدينة الداخلية فولوبليس (وليلي) في شمال المغرب ، ليست بعيدة عن مكناس في الوقت الحاضر . وقد تطورت بالتدرج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع للميلاد . وعندها أدت فوضى الاضطرابات إلى اضطرار الإدارة الرومانية إلى سحب مراكزها القيادية والإدارية إلى سواحل طنجة .

عرفت السهول والجبال الداخلية التي كانت سائبة تقريباً ، ولا حكومة فيها ، باسم أراضي الجيتوليين أو المورين (Maures) (Gétules) و كان يحكمها شيوخ القبائل . وقد حكم الشيخ الأمازيغي المدعو **يُوغرُتا** (أو **يُوكُرْتن**) (عام 154 - 104 قبل الميلاد) المنطقة حُكْمَاً صارماً لا رحمة فيه ولا شفقة ، وذلك حتى يتمكن من بسط نفوذه ، ومدَّ سيطرته على كل المنطقة التي توجد تحت نفوذ قرطاجة . وفي حدود العام 25 ق م ، كانت المنطقة المتعددة إلى الغرب تُحكم من المدعو **يُوبَا الثاني** ، وهو رجل أمازيغي متزوج من امرأة مصرية تدعى **سيلِينا** (Céline) ، وهي ابنة أنطونيوس كليوباترا . وقد شبَّ جوبا في روما ، وتفوق في دراسته . وقد خالل ملكه الذي دام 48 سنة ، مظاهر عديدة للحضاراتين الرومانية واليونانية في إفريقيا الشمالية . ذات الأمازيغيون حلاوة التجارة وتنمية الصناعات اليدوية لحضارات البحر الأبيض المتوسط ، وسرروا كثيراً بحراثة الأرضي وجنبي المحاصيل والمحاصادات المتنوعة التي مارسوها . وقد أدى الاستقرار الذي فرضته الإمبراطورية الرومانية في المنطقة إلى تكثُّن مزارعي إفريقيا الشمالية وصُناعتها البدوين من ان يورّدوا إلى الأسواق البعيدة الواقعة في أقصى أجزاء الإمبراطورية . وهكذا نعمت بلادهم بالسلام ، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدوها ، والارتباطات الدولية القوية التي حصلوا عليها . لكنهم ، في الوقت نفسه ، أعطوا صورة غير مشرفة عن المجتمع الروماني المتهريء آنذاك ، حيث أنَّ هذا المجتمع كان يمارس الاعمال الوحشية والفظة في الملعب والميادين ، وقد ترسخت جذور العبودية المذلة ، فضلاً

عن الوثنية الفاسدة الفاسقة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الرومان قد حكموا البلاد بشكل فعال ومشدد ، ولكنهم لم يهتموا ، إلا قليلاً ، ب حاجيات أفراد الشعب و مشاعرهم .

وهكذا نرى ، أن إفريقيا الشمالية ، كانت في السنوات الأولى للميلاد ، مزيجاً مختلفاً من الناس ، لهم لغات و ثقافات متنوعة . وقد اجتذب هذا الواقع مستوطني الأرض الذين توافدوا عن رضى ، ليندمجوا في هذا الاتجاه السائد لحضارة البحر الأبيض المتوسط . فثبتوا بسهولة وحماسة الأفكار الجديدة للتقنية التي صادفتهم هناك . وهكذا صارت الحقول جاهزة ، بانتظار حلول الحدث الجديد والأهم ، حيث تبشر السنوات القليلة القادمة بالدخول في عصر جديد وهام ، وهوقدوم أشياء لم تعهدنا إفريقيا الشمالية من قبل .

جاء الفينيقيون والرومان في السنوات السالفة إلى المنطقة ، طمعاً في التجارة والاستيطان ، وحباً بالنجاح والثراء . . . ولكن ، من خلف الأفق الشرقي تحديداً ، بدأ بعض المسافرين الأذاذ يُحررون إلى كوريني وقرطاجة . كانت حواجز هؤلاء المسافرين تختلف تماماً عن غيرهم من الوافدين ؛ لم يكونوا يرغبون في الاستغلال الزراعي او استثمار الموارد المعدنية للأرض ، لم يأتوا ليتاجروا مع المستوطنين ، وبالتأكيد ، لم يأتوا ليستأثروا بالسلطة . لم يحملوا معهم السلاح أو العتاد ، ولا الغنى . لم يأتوا بشيء مما تقدم ، جاءوا برسالة الأخوة والأمل والطمأنينة . وهؤلاء القوم اختارت هربرتا ان تسير معهم وأن تتضمّن إليهم . ومعهم فقط ، استعدّت لتلقي رحالها ، وتسلم حياتها .

ملاحظات

Ayache p. 54 - 1

من المصادر الثانوية عمّا قبل تاريخ إفريقيا الشمالية وعن تاريخها القديم تذكر :

Camps pp. 86 - 119, 145 - 177; Frend pp. 25 - 47 ; Guernier pp. 51 - 82 .

الفصل الثالث

البحث عن الله

منذ المصور الغابرة ، أظهرت أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقه والصعبه الإدراك . وبالطبع ، فإن هناك شيئاً عالياً عاماً ، تشتهر فيه الطبائع البشرية ، إلا وهو الرغبة في الوصول إلى حل الغاز هذا الكون ، وأسراره غير المرئية ، والتي تشارك فيها جميع قارات العالم ، وتؤمن بها كل الأجيال . وكلما اقترب الناس بعيشهم من العالم الطبيعي ، اشتدت رغبتهم في التواصل مع هذه القوى الخارقة الموجودة في الخليقة . الواقع أنَّ الإلحاد استطاع أن ينموا ويزدهر في القرن العشرين فقط ، حيث المدن الكبيرة التي أوجدها الإنسان بنفسه . فقد أحاط انسان هذا القرن نفسه بأعمال يديه ، ولم يجد لديه منسع من الوقت ليتأمل في ما هو أعظم من معجزاته من أمور مدهشة يحاول فهمها .

وكثير الناس الذين يقضون أوقاتهم في الحقول والغابات ، فإنَّ الأمازيغيين القدامى ، في العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي ، لا بد من أن تكون قد روّعتهم القوى الظاهرة المدركة في الطبيعة . لا شك في أنهم شعروا في قلوبهم بالمشاعر نفسها التي تُحسّننا نحن ونشعر بها عندما نستيقظ في الصباح وتلقى نظرنا على قمم الجبال المكبلة بالثلوج تحت أشعة الشمس المشرقة الصافية . لقد امتلاَّ الأمازيغيون رعباً ، كما نحن ، بسبب القوى العنيفة الهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تجرف الأشياء بقوّة بعد كل عاصفة ، إذ تكتسح الأشجار والصخور أمامها ، وتلقيها أرضاً وكأنها عصافة في مهبها . لقد افتقض هؤلاء سُحرُوا أيضاً ، بهياج البحر ، ويأمواجها الصاخبة على السواحل الصخرية ، وكذلك باندفاع طيور البحر وهي تنساق بسرعة فائقة خلال هبوب الرياح الغربية . لقد أدهشهم غروب الشمس وهي تصقل لونها الذهبي المتحوّل تدريجياً إلى اللون الأحمر ، لكي يختفي بعيداً وراء التلال الرمادية ، في آخر النهار .

والطبيعة أيضاً مليئة بالخوف والرعب ، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت . فإذا لم يتسلط المطر ، يفسد الحصاد وتموت الغلة ، وهذا يعني المجاعة . وإذا ما نفثت الامراض في قطعان الماشية ، فسيترصد الموت الناس أنفسهم ، إذ إنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم ، فلا ينجو إلا القليل من أطفالهم إيان طفولتهم . فإنْ قُدرَ أن يعيش واحد من أطفالهم ، ويموت الآخر ، فيكون قدراً مبهماً ومخيفاً . فهل هناك طريقة ما يمكن من خاللها أن تؤثر في حوادث المستقبل ؟ هل يمكننا أن نتجنب الكوارث والنكبات ، أو أن نؤكّد استمرار الحياة ؟ هل هناك قوى خفية غير منظورة تتحكم في ماجريات الأمور ؟ وهل يمكن استرضاء هذه القوى ومناصرتها ؟ هل يمكن لهذه القوى أن تساعدنا في صراعاتنا مع الحياة ؟

ليس من السهل أن نعود القهقري لأربعة آلاف سنة غابرة ، لنسدruk ما كان يفكّر فيه أسلافنا ، وما اعتقادوه في الحياة والموت ؛ أولىستطيع ان تتصور كيف حاولوا تفسير اسرار هذه الدنيا والطبيعة في ما يتعلّق بهم ، وما تزخر به من اشباء محيرة مربكة ، خصوصاً اذا ما علمنا انه لم يكن لهم سبب واحد يحملهم على تدوين ما يخص باقتصاعتهم العميق ، وتأملاتهم الخفية الفامضة . ولكن يامكانتنا أن نمسك بالفتاح الذي يزوّدنا ببعض المعلومات في ما يتعلّق بمعتقداتهم ، وذلك من صناعاتهم ومنتجاتهم التي يكتشفها علماء الآثار هنا وهناك ، كالأصنام والمذابح والحجارة المنقوشة والملوّنة ، أولى شيء آخر يعطينا مفهّمّاً حقيقياً للدين معين . هذا ، وإن لم يكتب الأقدمون شيئاً ، فيامكانتنا أن نجد المراجع بخصوصهم ، من خلال كتابات غيرهم ، ومن عرّفـهم من الناس ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يجادلونـهم في التجارة ، أو يحاربونـهم . أحياناً يمكنـنا أن نميزـأشياء كثيرة عن معتقدـاتهم ، من خلال العادات والتقاليد التي لا تزال حتىـاليوم . وإذا تأملـنا في ديانة الأمازيغـيين القديمة نجد ، ولحسنـالحظ ، بعضـالمفاتيح لفكـلغـتها بواسطةـالأـسـالـيـبـالـسـالـفـةـالـذـكـرـ .

هناك شواهد وآياتـات تدلـ على انـهم تعلـموا بشكلـخاصـ إلىـالسمـاءـ ، مسكنـالـشـمـسـ بنورـها ودفـتهاـ ، ومـصدرـالـمـطـرـالـمحـبـيـ . والـسمـاءـ بـطـبـعـتهاـ مـلـيـئـةـبـالـعـجـائـبـ وـالـرـوـاـيـعـ . وـإـلـىـالـنـجـومـالـمـشـرـقـةـ بـلـمـعـانـهـاـ لـيـلـاـ ، وـالـقـمـرـ الـذـيـ يـُضـيـءـ بـنـعـومـةـ وـرـقـةـ ، وـالـأـلـوـانـالـسـحـرـيـةـ لـقـوـسـ القرـحـ الـذـيـ يـشـقـ مـتـلـلـكـاـ منـبـيـنـ الغـيـوـمـ بـعـدـ سـكـونـالـعـاصـفـةـ ، وـكـتـلـالـثـلـاجـ الـبـيـضـ الصـامـتـةـ الـتـيـ تـسـاقـ بـعـمـوـضـالـأـرـضـ ، وـالـوـمـيـضـالـمـرـوـعـ الـذـيـ يـبـعـثـ الـبـرـقـ ، وـالـتـهـدـيدـالـمـدـدـمـ فـيـ قـصـفـ الرـعـدـالـمـزـجـرـ . فـلـيـسـ عـجـيـباـ أـنـ تـشـرـ السـمـاءـ الـرـعـبـ وـالـخـوفـ وـالـعـبـادـةـ فـيـ نـفـوسـهـمـ . وـكـثـيرـاـ مـاـ نـجـدـ نـقـوشـاـ عـنـ الشـمـسـ فـيـ حـجـرـاتـ الـمـوـتـ وـاقـيـتـهـمـ ، وـحتـىـ عـلـىـ الصـخـورـالـقـائـمـةـ . وـفـيـ بـعـضـالـاـحـيـاـنـ ، يـُعـيـرـ الـقـدـماءـ عـنـ إـلـهـ الشـمـسـ بـشـكـلـ أـسـدـ ، شـعـرـ عـنـقـهـ مـلـتـهـبـ وـمـتـقـدـ اـتـقـادـاـ . وـكـانـ هـذـاـ الـحـيـوانـ مـعـرـوـفـاـ عـنـدـ الـأـفـارـقـةـ الـشـمـالـيـنـ قـبـلـ أـزـمـنـةـ الـرـوـمـانـ وـيـعـدـهاـ ، وـهـوـ لـاـ يـرـازـ يـظـهـرـ مـرـارـاـ وـتـكـرـارـاـ فـيـ حـكـاـيـاتـهـمـ الـشـعـبـيـةـ . وـتـشـيرـ نـقـوشـهـمـ الـمـحـفـورـةـ ، وـكـلـمـاتـهـمـ الـمـنـقـوشـةـ ، إـلـىـ إـلـهـ «ـأـيـورـ»ـ (Ayyur)ـ أـيـ القـمـرـ ، بـلـغـةـ الـأـمـاـزـيـغـ .

استمرـتـ عـبـادـةـ الـأـجـرـامـ السـمـاـوـيـةـ خـلـالـ أـزـمـنـةـ التـارـيـخـ . فـقـدـ كـتـبـ لناـ هـيرـودـوـتـ (Hérodote)ـ فـيـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ ، أـنـ الـأـمـاـزـيـغـ ، قـرـبـواـ فـيـ أـيـامـهـ الـتـقـدـمـاتـ لـكـلـ مـنـ الشـمـسـ وـالـقـمـرـ . أـمـاـ بـلـيـنيـ الـكـبـيرـ (Pline l'Ancien)ـ ، فـقـدـ أـكـدـ لـنـاـ تقـدـيمـ مـثـلـ هـذـهـ الـذـبـاـحـ فـيـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ لـلـمـيـلـادـ . قـالـ شـيـشـرونـ (Cicéron)ـ إـنـ عـنـدـمـاـ قـابـلـ الـمـلـكـ الـأـمـاـزـيـغـ مـاسـينـيسـ (أـوـ مـاسـينـيسـ)ـ الـجـنـرـالـ الـرـوـمـانـيـ سـكـيـبـيـوـ (Scipion)ـ فـيـ الـقـرـنـ الـثـانـيـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ ، صـلـىـ إـلـىـ الشـمـسـ قـائـلاـ لـهـ : «ـإـنـيـ أـقـدـمـ شـكـرـيـ الـعـمـيقـ لـكـ اـبـتهاـ الشـمـسـ الـرـفـعـةـ وـلـسـائـرـ الـأـلـهـ اـبـضاـ فـيـ السـمـاءـ ، بـسـبـبـ إـتـاحـةـ الـفـرـصـةـ لـيـ ، وـقـبـلـ اـنـتـقـالـيـ مـنـ هـذـهـ الـحـيـاةـ ، أـنـ أـرـىـ فـيـ مـلـكـتـيـ وـنـحـتـ سـقـفـ بـيـتـيـ كـرـبـلـيـوـسـ سـكـيـبـيـوـ .ـ أـمـاـ إـبـنـ خـلـدونـ فـقـدـ ذـكـرـ أـنـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـمـاـزـيـغـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ عـشـرـ بـعـدـ الـمـيـلـادـ ، كـانـوـاـ لـاـ يـرـأـوـنـ بـعـدـوـنـ لـلـشـمـسـ وـالـقـمـرـ وـالـنـجـومـ .ـ

وتححدث السماء عن أسرار لا يمكن الوصول إليها . وكما فعل الإنسان ، بتوجهه نحو السماء ، هكذا أيضًا فعلت قمم جبال الأطلس التي تحتتها الرياح . ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب الذي جعل الجبال تدفع الأثارقة الشماليين إلى العبادة . وبخبرنا بلبني الكبير «أنَّ الليبيين يعتبرون الأطلس إلهاً ومعبداً» . ولقد وجد علماء الآثار في الأماكنة العالية بقایا المعابد الرومانية ، وهي مكرسة لخدمة ساتورن (زحل) وعبادته . فقد بُنيت هذه المعابد ، في الواقع ، على انقاض مزارات الفينيقيين ، والتي كانت قد شُيدت هي أيضًا من حجارة معابد وثنية قديمة . ولكن حتى قبل هذا التاريخ ، وفي فترة العصر الحجري الحديث ، كان الأمازيغيون ينقشون الرموز والصور على أعلى قمم جبال الأطلس والريف ، وفي الكهوف والمغار ، وعلى الصخور التي تذمر مواقعها ومنظارها المشربة بالحروف ؛ وكأنها تراقبهم ، إنما لمعاقتهم وإيمانًا للتراوُف عليهم .

هل كانت هذه المناطق الصخرية مهبطًا «لأرواح الأرض» التي كانت تدعى «جنون» (Jnun)؟ يظهر أنَّ الأمر هو كذلك . ولا تزال ، حتى يومنا هذا ، تُقدم تقديمات التذور والقرابين في أوان خزفية تُشبه إلى حد كبير الأواني الفخارية لما قبل التاريخ ، اكتشافها مؤخرًا علماء الآثار ؛ ولا تزال الشرائط تربط على الشجيرات الشائكة التي تستظل بها أرواح حرس الصخور التي كانت تُعتبر مقدسة ، وعلى الكهوف التي تأوي الأشباح ، وعلى البئار ، وعلى الأشجار القديمة الملتوية الكثيرة العقد والتقويمات والتحفيمات . إن أعمال العبادة هذه هي الشهادة لإيمان ثابت بالآرواح المحلية ، ويتبين تمامًا أنَّ هذا الإيمان مستمر و دائم منذ ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة . كان ينبغي استعطااف الأرواح المحلية قبل الحراثة ، او قبل جنى الأثمان ، او قبل قضاء ليلة في المنطقة التي تخرسها هذه الأرواح . فإن أزعجت أو أغضبت ، فلا بد من أن يحدث لك المصاب ويأتيك البلاء ، لأنك بهذا الإزعاج أوالمضايقة والإغضاب ، تكون قد خاطرت بالتعريض للعقاب المباشر ، كالعقم أوالعمى أوالجنون وحتى الموت .

ونحن نعرف 52 اسمًا من أسماء هذه الآلهة المحلية . ولقد تعرّفت بها بشكل واسع من النقوش والكتابات المحفورة ، أوالوقف الذي اوقف لهم ، أوالتكريسات التي كُرست لهم في عهد الفينيقيين والرومان . ومعظم تلك الآلهة تحمل أسماء أمازيغية تُظهر أنها كانت أرواحًا قادرة على ان تأتي بالامطار وتُنْجِحُ الأخصاب ؛ ولكنَّ نفوذ كل من هذه الآلهة مقتصر على منطقته الصغيرة الخاصة به . فمثلاً نفوذ هذا الإله اوذاك ، يقتصر على تلته الخاصة ، اوبنوته الخاص ، اوحتى قريته الخاصة . كانت هذه الديانة هي الديانة النموذجية العملية للأمازيغين القدماء ، وهي شكل من أشكال مذهب حيوة المادة (animisme) اوصيغة من صيغها ، تُشبه إلى حد بعيد مع مذاهب حيوة المادة الأخرى التي وُجِدت في أجزاء كثيرة من العالم .

كان على المسافر الذي يتقلَّ من مكان إلى آخر ، وعلى الناجر أوالموسيقي اوالجندي ، أن يرضي أي روح يراقب أيَّ موضع يؤمه هؤلاء الرجال . فعلى المسافرين ، وبالخصوص أولئك الجنود ، الأمازيغين المسجلين في الجيش الروماني ، أن يعتنوا بطاقة من الآلهة المحلية بشكل جماعي ،

واسم هذه الآلهة داكي مُوري (Dei Mauri) أي الآلهة المورين ، وبعد ذلك يجب أن يتوصل إليها و يجعلها مجتمعة ، لأنَّ بذلك يضمن لنفسه أنه لم ينسَ أياً منها . إنَّ أحدى أكثر التكريسات التعبدية المعروفة والمتكررة ، هي للإلهة وَارسيسما أو فارسيسما (Varsissma) ، واسم هذه الإلهة يعني في الحقيقة «إله بلا اسم» . والظاهر انهم كانوا يتكلمون كثيراً في استرضاء هذا الإله ، وجعله مسروراً ، تماماً كما كان تلهف أهل آثينا لعبادة مثل هذا الإله في أيام الرسول بولس² .

ومن الصعب أن نعرف تماماً كيف كان يجري استرضاء هذه الآلهة المعبودة . ولكنَّ رسوم الكهوف في العصر الحجري الحديث ، تشير إلى أنهم كانوا يسترضونها بذبائح الكباش والثيران التي يقدمونها كفدية عنهم . ولكن ، من المستحيل أن نعلم ما إذا كانت هذه الأضحاج أو الذبائح تقدم لآلهة معينة لا نعلم شيئاً عن أوصافها . ولا يزال تقديم القرابين والذبائح الحيوانية موجوداً بين الأمازيغين ، وهذه الذبائح تختلف عن تلك التي يقدمها العرب في الشرق الأوسط ، مع أنها تشابه كثيراً مع قربان الفينيقيين وأضاحيهم .

هذا ما كان يختص بالحيوان ، ولكنَّ الأمازيغين لم يكن اهتمامهم بموتاهم يقلَّ عن اهتمامهم بأحياءهم . كانوا يشيّدون القبور من قطع الصخور ، جاعلين هذه القبور تواجه الشمس . وكانوا يزودون موتاهم بالمجوهرات والأوعية الخزفية ، كما لو كان موتاهم سيحتاجون إلى استعمال هذه الأشياء في الحياة الآخرة . أمَّا القبور الأخرى ، فقد كانت تُطمر وواجهاتها إلى الجرف ، وتُزيَّن بالرسوم الملونة بصلصال أحمر . ونعود بداية تاريخ هذه القبور إلى العصور الحجرية ، وقد استمرت حتى عهد الفينيقيين .

ويظهر أنَّ الديانة العملية للأمازيغين لا تختلف إلا قليلاً عن ديانة المتحدررين من أصلهم الذين يقطنون القرى في أيامنا . فمن ذلك الوقت ، وإلى اليوم أيضاً ، هناك اعتقاد قوي وفي كل مكان ، بوجود قوى فوق طبيعية حاقدة ، ولا تزال الرغبة مستمرة في إيجاد الحماية والوقاية من هذه القوى . ولم يجد الكثير من معتقدات الأنوارقة الشماليين وعاداتهم مكاناً لها في الديانة المسيحية الصحيحة أو في الإسلام . أمَّا بقایا هذه المعتقدات التي ما زالت موجودة ، فهي قائمة منذ العصور القديمة .

وتنصّن استعمال «السحر الأسود» الكبير من الممارسات ، وهي ترتكز على افتراض أنَّ الإنسان قادر على كسب النفوذ على غيره ، سواءً أكان ذلك على الإنسان ، أم على الحيوان ، أم الأشياء ، وذلك بصنع نموذج للضجة التي يُراد إلحاح طقس ما أو أي من الشعائر ضدها . وبهذا تلزم الضحية على أن تتصرف بطرق خاصة معينة حسب ما تخطط لها ، أو تكابد قدرًا أوقضاء معيناً . فمثلاً يمكن للمرء أن يربط عقدة في شريط أو في خصلة شعر لربط مخطوطات الخصم وإحباطها ، أو لغلق رحم امرأة عدوة . كما يمكن أن يؤدي إغفال نصل سكين الجيب إلى عجز جنسي عند الشخص الذي يكتب اسمه على هذا النصل .

كذلك كان الاعتقاد أنه بالامكان التأثير في مسار الاحداث في العالم الخارجي وذلك من خلال ممارسة طقس محدد ، كأن يُصار الى ارتداء الثياب بالقلوب بقصد تغيير ظرف معين . إن شعائر الإخصاب الموسمى تضمّن انتاجية مبدعة من المحاصيل والخصاد والقطعان . لقد تميّزت السنة الزراعية بإحياء احتفالات يُحرث فيها الشق الأول وتُجمع الخزمة الأولى من المحصول . كتب أغسطينوس وغيره من المؤرخين المعاصررين عن إحياء طقوس جنسية عريبة متطرفة ، « ليالي الخطايا » ، لحدث آلهة أوأرواح الإخصاب ، آملين منها أن تتفتح نشاطاً مشابهاً بين القطعان والمواشي .

ظهرت العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الامطار تقريباً في كل الأراضي شبه القاحلة بما في ذلك شمال افريقيا ، حيث يقوم النسوة بصنع دمى تمثّل « عروس المطر » ، غالباً كما يفعل بعض الناس في بعض مناطق اليوم . وثم تُحمل هذه الدمى في موكب طقسي مصحوب بأغاني ودعاءات والتسميات مرفوعة الى السماء³ . ومن عادات أهالي جزر الحالات أن يضرروا مياه المحيط بالعصبي ، وذلك محاولة منهم لإطلاق مياه السماء . وقد دان أغسطينوس هذه الممارسة الوثنية القديمة ، كما ويَخَّ اولئك الذين يستحِمُون وهم عراة في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي ، مؤججين بذلك شهوات مشاهديهم . وقد يُيدوأنَّ مثل هذه العادات قد ماتت ، إلا أن الأرضيات وعتبات الأبواب ما زالت ترش بالماء في مواسم معينة ، وغالباً ما لا تُرش أكثر من رشة رمزية ، إذ يبقى معظم الغبار غير ممسوس . هل المراد من هذه الرشة ان تبرد الأرض وتنعشها ، اوهل لهذه العملية دلائل أكثر عمقاً؟

اعتقد الكثيرون ، منذ زمن الرومان الى يومنا هذا ، أن اقدارهم مسجلة في النجوم . فهم يرجعون الى المنجمين والمرافقين ليقرأوا لهم مستقبلهم في السماوات ، او في احساء الحيوانات ، او في علبة ورق اللعب . فهم يريدون أن يعرفوا ، ويريدون أن يسألوا أيامًا ميمونة لأحراسهم او لرحلاتهم . كما يريدون أن يعرفوا هل بإمكانهم التعامل مع أناس معينين او بخبيتهم ، اوهل بإمكانهم الذهاب الى أمكنته معينة أم لا . إنهم يتساءلون ، وفي قلوبهم أمل لا يستند الى أي منطق ، عما اذا كان بإمكانهم الهروب من اقدارهم المحتومة اذا كانت سيئة ، او انجاز عمل ما ، اذا كانت هذه القدر حسنة . فالخوف من « العين الشريرة » - اللعنة التي يطلقها عدو حسود - تعود الى ما قبل العهد الروماني . والشيء عينه ، ينطبق على الاعتقاد أن الأفراد ، او حتى الاشياء التي لا حياة فيها ، يمكن أن تكون مستودعات للقوى الروحية او «اللبركة» . لقد استعملت المياسم الحديدية المتهبة ، كما اليوم ، لشفاء اوجاع الرأس ، ولمعالجة سوء التصرف كالإدمان على السكر والسرقة مثلاً .

وقد كان للرقم خمسة ، ولرمز العين المفتوحة ، وللرمانة المرسومة ، معانٌ معينة ومغزى سحري ، ونحن لا نزال الى اليوم نلمسها ونراها في افريقيا الشمالية . هذه المتقدّمات والرموز كلها كانت تزامل مع الإلهة الفينيقية ثانية ، التي تترافق بدورها مع القصد من وراء رسم اليد المفتوحة التي تشاهدتها ، بشكل كثيف ، على الابواب الخلفية للشاحنات . وهي تُرسم ايضاً على

عضافي الباب (جانبي الباب) ، كما تُصنَع ببراءة من المجوهرات ، وهي تُعرف عموماً باسم «يد فاطمة الزهراء» (ابنة محمد) أو «الخميسة» . ورمز اليد المفتوحة غالباً ما يُعتقد أنه مستورد من العرب ، والحقيقة أنها أقدم من ذلك بكثير ، إذ وجّدت أيضاً في البقايا الفينيقية في قرطاجة ، وفي أماكن أخرى⁴ . كانت الفسائط والموضع المقدسة في أزمنة الرومان تُبيّض بالكلس ، وما زلنا حتى هذا اليوم نرى قبور رجالات المسلمين ، من أولياء وأئمة ، وهي مطليّة بالكلس المطفاء ، وكذلك على الصخور المفردة والمعزولة ، والأشجار ، وعلى عضافات الأبواب وأطّار الشبائك والبيوت . إن هذا التخصيص لا يعود كونه بعض اللطخات على الجدران الخارجية للبيت . فهل المقصود أن يكون التخصيص لغرض التزيين فقط ، أو أن لهذا العمل معنى آخر أو غرضاً آخر ؟ إن الذين يمارسون مثل هذه العادات في أيامنا ، غالباً ما يجعلون آلة معانٍ كانت لها في الأصل .

لا يزال الناس ، وبخاصة النساء ، يمارسون التعاويذ ، كالعظام والصلائف الأصفر ، حيث يعتقدون أنَّ مثل هذه التعاويذ تمنحهم الأمانة والضمانة ضد العفاريت أو الجن والعيون الشريرة ، وتبعد عنهم الحظ السيء . لقد كتبت الرقيّات السحرية على الأوراق وعلى العظام ، وفي عدّة أحيان كانوا يغسلون الخبر الذي استعمل في كتابة الرقية والتعويذة ويشربون الماء المزوج بالخبر . وكذلك ، ففي أحيان أخرى كانوا يدفنون الورقة أو يحرقونها في المكان الذي يتأكدون فيه من أنَّ الضحية المقصودة ستستنشق دخان هذه الأوراق المحروقة . غالباً ما يصنعون أكياساً صغيرة من الجلد فيضعون فيها التعاويذ والخطاب أو أي شيء صغير فيه قوة سحرية ، ثم يعلّقون هذه الأكياس في رقبتهم ، أو مشكولة في صدورهم أو أي مكان آخر في أجسامهم . ثم راحوا لاحقاً يستعملون الآيات القرآنية ويكتبونها على تعاويذهم ، أو يصقّون رموزاً وكتابات عربية منتظمة بعينات وشكال سحرية ، كما أنها ما زالت تُكتب بالحروف التيفيناغية (tifinagh) القديمة ، بصيغتها المحرّقة تماماً ، مما يوحى لنا بأنَّ أصل هذه الكتابات والتعاويذ يعود إلى ما قبل التاريخ الإسلامي⁵ . وكان للنباتات الطيبة آثاراً شعبية واسعة ، لم تضعف حتى في أيامنا هذه . إنَّه ليس من السهل اطلاقاً ، في بعض الأحيان ، أن ترسم خطأً فاصلاً أو متّميزاً بين العلاجات الشعبية ومارسات السحر الأسود في استعمال الأعشاب والمواد المعدنية والحيوانية⁶ .

هذه هي معتقدات الأمازيغين القدماء والتي تتجذر في الماضي حسب ما نعلم ، وصولاً إلى العصر الحجري . وهي من بعض جوانبها مستمرة حتى وقتنا الحاضر . إلى ذلك ، فإنَّ بعض الممارسات الأخرى قد فرضت نفسها خلال القرون التالية . لقد جلب الفينيقيون معهم ، منذ العام 1000 قبل الميلاد وإلى ما بعده ، بضائعهم التجارية ومعاهم ، ومجموعة من الآلهة الجديدة إلى إفريقيا الشمالية . وقد تبني إهالي إفريقيا شكلاً ديناتهم ، إلى جانب التقاليد والاعراف المتعلقة بذهب حبيبة المادة . فتم نقش الأصنام والصور والأيقونات الخاصة بالآلهة الفينيقيين بتحف نافر خفيف على سطوح الصخور ، أو نصب على أعلى الصخور لعبادتها . وقد ترافق مع هذه الأصنام والأيقونات المحفورة في بعض الأحيان ، كلام متقوش بالحروف التيفيناغية ، لكنَّ النماذج المتأخرة استعملت الأبجدية الفينيقية واللاتينية . كان

لبعض هذه الاصنام اشكال بشعة . ونحن نجد ان ترتوليانوس يؤتّب معاصره في القرن الثاني بعد الميلاد بسبب عبادتهم التافهة العقيمة للخشب والحجر . وفي القرن الرابع للميلاد ، بقي شعب تيپاسا (Tipasa) يتعبد بحماسة شديدة للحية البرونزية العظيمة ذات الرأس المطلي بالذهب .

اما بعْلَ آمُون ، فهو إله الشمس ورئيس الآلهة عند الفينيقين . كان إلَهًا هامًّا في مناطق البحر الأبيض المتوسط كلها ، وبخاصة المدن . وبالرغم من الطقوس القاسية والفظة لعبادة هذا الإله السامي ، قَبِيل الأمازيغيون عبادته بسرور وعن طيب خاطر . ويبدو أن عبادة رئيس الآلهة هنا قد مسَّت وترا حساسًا في قلوب الأمازيغين ، إذ توافق مع شعور كان عندهم بوجود مثل هذا الكائن العظيم الذي يقف على رأس كل الآلهة المحلية والأرواح الأخرى . كما يظهر أنه قد تكونَ عند الأمازيغين مِيلٌ إلى الاعتقاد بوجود إله سام يتصدر كل الآلهة في الوقت نفسه الذي كانوا يتفاعلون فيه مع قوى أقل منه شأنًا وفي متناولهم . وقد اكتشف علماء الآثار أوقاتًا كثيرة كُوست للبلعل ، وفي ما بعد ، لنظريره الروماني ساتورن (زُحل) ، والتي تعود إلى ما قبل دخول المسيحية إلى شمال إفريقيا ⁷ .

وفي ما بعد ، وجد اليهود والمسيحيون أنَّ الأمازيغين يتجاوّبون بشكل خاص مع إيمانهم بالإله الواحد ، كما أن هذا الأمر يصبح أيضًا على المسلمين لاحقًا . ولربما كان اليهود ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده ، أول من قدم فكرة وجود الإله الواحد الكلي القدرة ، ولكن يبدوا أن اليهود لم يضيفوا بذلك سوى أبعاد جديدة إلى مفهوم كان موجودًا ، ولكن بشكل مبهم ⁸ . وفي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ؛ أشار بعض شيوخ الإسلام ، إلى وجود الإله الواحد باسم «ياكُوش» أو «يوش» ⁹ . فهل لا يزال هذا الاسم حيًّا بين ذوي الأصل الأمازيغي منذ ماضيهم الغابر ؟ او انه لم يُعرف عندهم الا حديثاً ؟ نحن لا نتمكن من الاجابة عن هذا السؤال ولكن يبقى من الحقائق المختبرة وجود آثار تدل على الإيمان بالإله الواحد ، ليس هنا فقط ، بل في أماكن معزولة في جميع أنحاء العمورة ، وعند شعوب وأجناس لم يكن لها احتكاك بأية حضارة ، ويفتقر أن هذا اعتقاد عفوياً بوجود إله سام قصي عَطَّل معالمه الممارسات الطقسية وعبادة الأرواح المحلية وأرواح الأسلاف .

فهل يمكن القول إنَّ هذا الإدراك للإله الأسمى ، الكوني والشامل هو علامة من علامات الأصل المشترك للأحد للبشرية جموعه ، ومشابهة الأقدمين في صفاتهم ، والذاكرة المتنقلة من جيل إلى جيل والتي ترجع إلى أقدم أسلافنا ، إلى نوح وحتى إلى آدم قبله ؟ فبعض الأساتذة العلماء يلمح بجدية إلى أن هذا هو واقع الإنسان ¹⁰ . أوهل يتجدد ببساطة ، عند كل جيل ، الشعور بأن الطبيعة بجماليها وتعقيداتها المذهلة ، لا بد من أن تكون قد صُممَت بعقل جبار عظيم ؟ ناهيك بالأنسان بحد ذاته - فهناك الكثير الكثير من الأمور المدهشة حقًا فيه - النظر ، السمع ، التفكير ، الكلام - ليست هذه كلها أمورًا مدهشة مهيبة ؟ اوهل يمكن القول إن البشرية ابتعدت من طريق الصدقة ، وجاءت من اللاشيء ؟ ولكن الحقيقة الواضحة هي انه لا يمكن أن

يخلق الإنسان لا كائن أعظم منه وأكبر ؛ كما أن الكائن العظيم الذي هو أظهر من بنى البشر ، وحده يقدر أن يُلهمهم بهذه الأشواق المجيدة المقدسة التي يختبرونها في أفضل لحظات حياتهم وأحسنها .

وبالطبع فإذا ما وعى الأمازيغيون هذه الأمور ، سيفجدون في هذه الحال ، أن عبادة بعل آمون لا يمكن أن تكون إلا عبادة مخيبة للأمال وفاشلة ، إذا ما قورنت بجمال العالم الطبيعي ، وبنبل أقدس المثل الإنسانية . إن عبادة البعل ورفيقته تانيت هي عبادة موسومة بقساوة ممرضة ووحشية تقرز النفس . كتب جيمس فرايزر (James Frazer) في كتابه «الغضن الذهبي» (Le Rameau d'or) ، وهو يصف التضحيات البشرية في معبد تانيت بتفصيل مؤلم بغيض ، حيث ذكر عن الأولاد الصغار كيف كانوا يوضعون على يدي الصنم المنحدرين ، فيترقص الأولاد المساكين من هناك ليسقطوا على فرن ساخن ملتهب . وفي هذه اللائمة «يرقص الناس على أنفاس الموسيقي والنفع على المزار ، وهم يقرعون على الدفوف الصغيرة ، ليحججوها صرخات الضحايا المحترقة وعوياههم » . وكانتا يمنعون الآبوبين من إظهار الحزن والأسى خلال عملية التضحية بهؤلاء الأطفال . وقد وجد علماء الآثار بقايا هؤلاء الأطفال التفحمة في قرطاجة ، وهي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد ؛ وتتراوح أعمار هؤلاء الأطفال بين حدثي الولادة إلى 3 سنوات ، فضلاً عن انهم وجدوا براهين أخرى تثبت هذه العبادة البشعية . وقد ظهر انه بحلول القرن الثالث قبل الميلاد ، استبدل كيش أوثير بالأطفال ، وكان يتم ذلك ، على الأقل ، بالنسبة الى العائلات الغنية الموسرة .

اندثرت عبادة الآلهة الفينيقية وماتت ، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك منطبقاً على ممارسات مذهب حبوبة المادة التي سبقت هذه العبادات زمنياً . ويشهد ما تبقى من هذه المعتقدات القديمة والخرزعبلات ، على الأهمية والمعنى العميقين اللذين حملتهما ممارسة مذهب حبوبة المادة هذه إلى تلك الأرض . وقد تلاقت ممارسات هذا المذهب مع حاجات عميقة عند مشاعر الإنسان في تلك البقعة من العالم . كما كانت محاولة ذكية من أنساس مرهفي الاحساس لسيطرة على عالم معقد ومخيف .

في القرن الاول للميلاد ، كان هناك عدد وافر من الأمازيغيين يعيشون في المدن الساحلية المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط . فتزوجت عائلات أمازيغية كثيرة مع المسؤولين والاداريين الحكوميين الرومانيين والتجار ، كما كانت لهم معاملات يومية معهم في اعمال السوق وعلى المرافق . كذلك استعموا الى الانباء والاخبار المتداولة بين الناس ، واقتصرت معظم الافكار الحديثة التي انتشرت في الامبراطورية . كما أن ابناءهم الطموحين تعلموا اللغة وحوافز الثقافة والحضارة الرومانية واليونانية . وقد ناقشوا مع المعلمين المثقفين ، الافكار الفلسفية العميقية لليونانيين ، وتأملوا الشروح والتفسيرات الرياضية للألغاز التي كانت حتى ذلك الوقت غير مفهومة . لقد دخل الأمازيغيون الى العالم الأوسع لبلدان البحر الأبيض المتوسط ، وبحثوا بحوثاً فكرية عقلانية كانت معروفة سابقاً ، وبدأوا هم أنفسهم في البحث والتنقيب في

المفاهيم الاكثر عمقاً لمعرفة ما هو مترافق من علوم ومعارف حتى ذلك الحين . فماذا كانت يا ترى الانكارات التي بحثوها بعضهم مع بعض ، وفي مدارسهم الادبية وفي فناءاتهم وساحات دورهم المظللة لداراتهم المصقوله بالقرميد الاحمر ؟

لم يكن الناس الذين يعيشون في السهول والتلال ، والذين يدينون بمذهب حيوية المادة ، هم الوحيدون الذين كانوا يرون انه لا بدّ من وجود إله أسمى يزداد شموخاً وسمواً عن تلك الآلهة ذات القوة الادنى ، إذ إنه كان هناك في الوقت نفسه مثقفون رومان قد توصلوا الى مثل هذا الاتجاه ايضاً . كما كانت هناك في الواقع رغبة ملحة ، خلال العصور الأخيرة للوثنية الرومانية واليونانية ، في التواصل مع الإله الواحد الموجود قبل كل الاشياء والمخلوقات . هذا ، وقد أصبحت الآلهة الاسطورية الخرافية القديمة تُهمل باطراود . وعلى الرغم من ذلك ، فإن المجتمع الانساني كان وما زال لديه احترام لما هو فوق الطبيعة . فالفلاسفة تكثروا في الواقع من ممارسة نفوذ على الناس يفوق نفوذ كهنة روما الوثنية . وبعود الفضل لهم في إيقاظ الرغبة والاشتياق الى المناقبية والكمال الاخلاقي ، وهم الذين أمحوا الى وجود «المحرك الاول» و «العلة الاولى لكل الاشياء» . لقد أمن الناس ان هناك إلهًا في مكان ما أوفي الأعلى وهو إله غير منظور ، والذي لا بد من ان يكون هو من خلق العالم . ولم تكن مشكلة هؤلاء الناس الا معرفة طريقة الاتصال بهذا الإله .

في هذه الاثناء كان سكان المدن الذين كانوا ما زالوا يعبدون الآلهة القديمة على مضض ، يقربون التقدمات للإله زحل (Saturne) او لأحد الآلهة الاخري ، كعطارد (Mercure) ، إله الفصاحة والمهارة ، والمريخ (Mars) وهو إله الحرب ، والزهرة (Vénus) وهي إلهة الحب والجمال ، ونبتون (Neptune) وهو إله البحر ، وهلم جرا . وهناك آخرون عبدوا آلهة «الديباتات السرية» . وقد سُميت بالديباتات السرية لأن شعائرها لم تُكشف إلا لأعضائها . وقد تضمنت هذه العبادات والمذاهب آلهة غريبة ، نصف بشرية ونصف حيوانية ، فضلاً عن قصص اسطورية خرافية عن أعمال هذه الآلهة كانت تترافق مع هذه العبادات ، ولربما كانت عبادة الإله مثيراً (Mithra) هي الأكثر شعبية ، حيث كان اتباعها المتعبدون يستحمون بالدم الذي يهب الحياة ، من ثور يُذبح بأسلوب شعاعي . وكان موت احد الآلهة وقيامته امراً شائعاً بين معظم هذه العبادات والمذاهب ، وأحياناً تكون هذه الآلهة ازواجاً : ذكراً وأنثى ، يموت الأول ويُساعدته الآخر في عملية قيامته . ويتزامن الموت والحياة عادة مع الاعتدالين الخريفي والربيعي ، ويرمز ذلك الى موت السنة الفائتة وولادة السنة الجديدة . ويحاول المتعبدون ، من طريق الاحتفال بالعيد والمسكرات وطقوسمهم الجنسية ، أن يؤكدوا خلودهم الخاص وخصوصية ارضهم وانتاجهم الزراعي . إلا أن الكثيرين لم يكونوا مقتعمين بكل هذا . وبدأوا يشعرون بأنَّ هذه الفناظة والخشونة لم تكن متوافقة مع ظواهر العجائب المহيبة والجليلة التي يشعرون بوجودها في الطبيعة المليئة بالقداسة وفي الكون بأسره ، كما رأوا أنَّ قصص الآلهة تحمل علاقات صافية تافهة عند مقارنتها

بقوى الخبر والشر التي تبيّنها في قلب الإنسان والعالم من حولهم ، حيث أنَّ تصرفات الأكثرة لم تكن أقل قسوة وظلمًا وإيابية من قسوة الذين يعبدونها وظلمهم وفسادهم .

إن أكثر ما أربك الناس في العصر الروماني هوأنَّ الفناء يحيق بكل شيء ، وقد ثملَ الناس شوق غامر إلى الحياة الأبدية والخلود . وظهر لهم آنذاك أنَّ جميع الأشياء من حولهم محكومة بحتمية الأضلال والانفراط . لم تكن الأشياء الجميلة تدوم مطلقاً ، فالدمار كان قدرًا لا مناص منه لجميع البشر . كما كان هناك اشتياق عظيم في قلب كل رجل وامرأة إلى الانتصار على العدو القديم ، الموت . وكان الجميع يتوقون إلى حياة تستمر ما بعد القبر ، والى حفظ كل ما هو نبيل وصادق . ولم يستطع الفلسفة كأفلاطون وغيره أن يعطوا سوى جواباً غامض للأسئلة التي كانت تقضي موضع الناس . فقد أعطت الديانات السرية أملاً أكبر ، لكنها كانت متنوعة وكثيرة العدد . ومن الواضح أنَّ هذه التعددية تُظهر للعقلاء والاذكياء ، أنَّ الديانات ما زالت تحرك في غسل من التخييلات الأسطورية الخرافية ، ولا تسير اوتسحر في نور النهار الواسع المتوكِّء على الحقائق الوطيدة . كانت قلوب الناس جائعة ، وهي تصرخ مستغيثة تطلب رسالة لأمل متجدد وأكيد . لذلك ، فعندما وصلت هذه الرسالة ، التي تعطي الأمل والرجاء ، لوصلت إلى الناس انفراجاً عظيماً واطمئناناً كبيراً ، ولا سيما لأولئك الرجال والنساء المخلصين ذوي التفكير العميق ، سواء أُنْي مدارس المدن ودورها أو في القرى الريفية المسكونة بالأرواح .¹¹

ها قد وصل بعض المسافرين وهو يجوبون الشوارع والطرقات والأسواق يتحدثون بشقة شهود العيان ، أوئلئك أناس كانوا قد تقابلوا حديثاً مع شهود عيان واستفهموا منهم . لم يكونوا يتحدثون عن نظريات غامضة مبهمة أو عن آلهة أسطورية خرافية ، بل عن حقائق ثابتة . كانوا يتكلمون عن أحداث وقعت حديثاً ، وفي موقع وأمكنة مميزة معروفة ، وفي أوقات محددة يعرفها الكثيرون من الناس . لقد جاء هؤلاء بأخبار عن فيلسوف عظيم جديد يرهن حكمته العجيبة وبمبادئ الأخلاقية الرفيعة على قوله المدهشة في تطهير الضعفاء والأشرار عن شفوهه على كل معلمي العصور القديمة . وكان يتحدث عن الإله الواحد الحقيقي ، خالق كل شيء ، وكأنه يعرفه معرفة شخصية . وقضى أيامه في وسط الزحمة الصاخبة والمزعجة لأناس كثيري الطلب . وقدم العون والراحة بكل لطف وحنان لكل من جاء إليه . وقد جعلتهم شخصيته وحياته ينتظرون إليه كفيلسوف كامل . وتحمل حسد الأشرار ومكرهم بكل صبر . وبعد ذلك أدهشهم إذ أخجز أمامهم القصة القديمة التي تحكي عن الإله الذي مات وقام ، تلك القصة التي لم تعد الآن مجرد حكاية خرافية ، بل حقيقة معترف بها . وإذا حقد الناس عليه جوراً ، وحكم عليه بالموت على يد القادة اليهود ، قام هذا الرجل البار الصالح من القبر . لقد أخجز في الواقع كل ما كان الآباء يتصورونه في مخيلتهم . كما كانوا متيقنين بأن التضحية بحياته البريئة لم تكن مجرد حركة تقوى لا جدوى منها ، إذ يمتهن حمل في جسده الحكم الإلهي على خطبة العالم ، وحرر سكانه من عقوبة الموت وجهنم التي كانت تهددهم . ويمد ذلك سباقهم إلى مملكة السماء حيث الحياة الأبدية . وكان

اسم هذا الشخص الفريد الجليل : «الرب يسوع المسيح». لقد كانوا يدعون ساميهم قائلين : «آمنوا به تغيروا جذرياً وتحدوا حكمته العجيبة ونقاوته الروحية في قلوبكم ، وستتركون في نصرته على الموت وتدخلون خلوة الأمجاد».

كان لهذه الأحداث الهامة صدى عميق في إيقاظ الاهتمام الواسع لسكان المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقيا الشمالية . ولكن ، ماذا عن أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية ، والذين لا يعرفون شيئاً عن هذا البحث الفلسفى المتعلق بالخلود وبالحياة الأبدية ، ولا عن المثل الأخلاقية للمفكرين الإغريق ، أولئك الناس البسطاء الذين ظلموا تحت عبودية الأرواح التي كانت تحتل الصخور والينابيع الموجودة حولهم ؟ فماذا تعنى أخبار الأخيل لشل هؤلاء الذين يعيشون في القرى والأرياف ؟

إن الرسالة التي حملها إليهم المسيحيون الأوائل ، كانت حسب اعتقادنا ، الأكثر تأثيراً وتشويقاً . لقد أعلن الزوار الذين جاءوا إلى المنطقة انهم قابلاً المقد المكامل القدرة ، الذي ارسله الله الواحد السامي ، صانع الأرض والسماء وكل الأشياء التي تُرى والتي لا تُرى . وقد بين هذا الشخص السماوي قدرته الكاملة التي تحكم في الرياح العاتية والأمواج الصادبة ، والأمراض والأسمام والموت . لقد كانت تفرّ من أمامه أكثر الأرواح التبغضة جنوناً ، كما كانت سلطته على قوى الظلمة مطلقة . كانت تلتئف حوله الجماعات وتصرخ فرحة كلما حرّرها من قيود الجسد والنفس . ولكن بعد ذلك بدا وكأن قوى الشيطان قد قامت أمامه وأخذته وضررت جسده وعلقته على خشبة تحت أشعة الشمس ليوم . فوضع في قبر يشبه دهليزاً داخل قل صخري ، ودُحرج حجر كبير على المدخل لإغلاقه . إلا أن القوى الشريرة لم تستطع أن تُسْكِن هذا الشخص . وبعد ثلاثة أيام ، قام من الموت ، وخرج من الكهف ، ورأاه مئات من الناس حياً قبل صعوده بجلال ملوكى إلى السماء الزرقاء فوق مديتها .

ماذا يعني كل هذا ؟ انه يعني تحرراً مجيداً رائعاً من عبودية قوى الظلام ، ويعنى أيضاً ان السلام أصبح الآن متوفراً للتوّاقين إليه . ففي حياته ، حرر المسيح الناس من الأمراض والخوف وتأثير الأرواح الشريرة ؛ وفي موته ، حمل المسيح آلام العالم الفاسد والنهار ؛ وبقيامته سحق قوى الشر وهزمها إلى الأبد . والآن ، راح هؤلاء المسافرون الشجعان يصرّحون بأن هذا المقد العظيم هو حي ، وروحه النقيّة القوية لا تسكن الصخور ، او الكهوف ، ولكنها تسكن فيما نحن المؤمنين به . وأضافوا أنه إذا ما دعوتموه طالبين إنقاذه وخلاصه ، وواعضون ثقلكم الكاملة به ، تستطيعون أن تجدوا ملائكة أكباداً لكم ، وتضمنوا حماية كاملة في اهتمامه ورعايته المحبة لكم جميعاً . وفوق كل هذا وذاك ، لا داعي للخوف في ما بعد من الأرواح الشريرة ، ذلك لأن الروح الأكبر هو صالح صلحاً كاملاً وقوس قداة كاملة . وكل من يؤمن به ، يجد أمامه حياة جديدة مفعمة بالرجاء والسلام والحرية . كانت هذه هي الرسالة التي جاءوا بها .

ملاحظات

1- اقتبسها Camps p. 200

2- أعمال 23:17

Laoust pp. 202 - 255 - 3

Moscati pp. 179 - 180 - 4

(Akhmisse pp. 43 - 44) - 5

6- يقدم لنا Coon و Hart، بحثاً أشمل في البيانات الشعبية الحديثة في إفريقيا الشمالية . كذلك يعالج Camps أيضاًشيء من التفصيل عدة أوجه من الوثنية القديمة في إفريقيا الشمالية .

اما Servier (pp. 465 - 468) فيذكر معتقدات تقليدية مماثلة في أوروبا الجنوبية مؤكداً بذلك أن نظاماً دينياً متجانساً هو الذي كان سائداً في القديم في بلاد البحر الأبيض المتوسط . راجع أيضاً :

Rachik; Akhmissé; Laoust;

ed. Camps, *Encyclopédie Berbère* (amulettes, animisme, arbres sacrés etc.)

Frend pp. 77 - 79 ; Camps p. 215 - 7

8- درجت العادة أن يخاطب الأمازيغيون الله إذ يدعونه « ربّي » (Rebbi)، لكن أصل هذه التسمية يبقى غير واضح . وما أن المسلمين العرب يشieren عادة إلى الله بالعبارة « الله »، قد يقود ذلك أحدنا إلى الاعتقاد ان التسمية « ربّي » تعود إلى ما قبل الإسلام . كما أنه من الممكن جداً أن تكون قد نتجت من تأثير يهودي قديم . بالمقابل، إن الكلمة العربية « ربّي » تقدّم معنى « سيدٍ » إلا أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة دائماً بالإشارة إلى الناس، لا إلى الله . وعليه ، قد نحتاج أن نبحث عن أصل « ربّي » في تلك اللغة السامية الأخرى البونية (Punique)، أو إلى عوامل لغوية سامية أقدم ، أشارت في تطوير اللغة الأمازيغية نفسها . وهكذا فإن التسمية « ربّ » بمعنى سيد ، المستخدمة من وقت إلى آخر في القرآن ، قد تعني بالنسبة إلى الأمازيغين أكثر من الكلمة المستحدثة « الله »، الأمر الذي دفعهم إلى تسمية الله بشكل عام « ربّي » .

9- يقترح G. Marcy أن « ياكوش » قد يكون مشتقاً من اسم يسوع .
 (Encyclopédie Berbère p. 431 f). لكن هذا الأمر يبدو قليل الاحتمال إلى حدّ ما . ومن الممكن أيضاً أن يكون « ياكوش » مشتقاً من فعل في اللغة الأمازيغية بمعنى « يعطي » . وعلى هذا الأساس ، يُعرف الله بأنه « المعطي » . ومن الصيغ الأخرى لهذا الاسم نذكر : « يوش » ، « آيوش » ، أو « أغوش » (Aggouch) .

. (Ouahmi Ould Brahim; Aherdan p. 63)
 في القرن التاسع عشر ، كان التوارك (Touareg) ساكني الصحراء ، يدعون الله «أَمَاتَاي» أو «أَمَاتَاي مَقْارَنْ» ، وأحياناً «سَسِي» (Norris p. 228). إلا أن هذه الكلمات كانت مشتقة على الأرجح من جذور لاتينية وعبرانية (سي = المَسِيَّ = المسيح) .

Custance, DP. 34; Richardson pp. 50, 51 - 10

«وبالعودة إلى أقدم الشعوب - اليفاروبيون في إفريقيا ، أو هنود كاليفورنيا الوسطى - لقد كان عندهم جميعهم إله واحد ، إله السماء الأسماى » ، كانوا يأتون بتقدماتهم أمامه . (p. 21 Custance ، اقتبسها Schmidt) « كلما كان من الممكن تعقب المراحل الأولى للإعتقداد بعده الألة ، خذ أنه يتبع من ضمن عددة متقدرات توحيدية بعضها إلى بعض . نفي مصر ، حتى أوزريس (Osiris) ، وإيزيس (Isis) ، وهورس (Horus) ، التي طالما اشتهرت كمجموعة ثلاثة ، كان لها في البداية وجود كوحدات متفصلة في أماكن مختلفة : إيزيس كالإلهة عذراء ، وهورس كإله موجود بحد ذاته . (p. 10 Custance ، اقتبسها Petrie) .

- 11 - Frend pp. 94 - 111 « لا يمكن قهر الأرواح الشريرة إلا بواسطة معرفة سرية يحصل عليها الناس من منفذ برهن أنه أقوى من الموت . إن مفتاح الخلود كما هو معروض . . . في المسيحية ، تسلك به بثبات العديدون من الذين كانوا يشعرون بأن مخاطر شيطانية ، لاسلطة لهم عليها ، كانت تُقتل حياتهم . (Frend pp. 94 - 95) إن موضوع عبادة الأوثان في عهد الرومان ، بتناوله كل من : Bainton pp. 71 - 112 ; Foakes - Jackson pp. 180 - 197 ; Green pp. 134 - 199 .

الفصل الرابع

الأخبار السارة

كان التجار القادمون من الشرق ، يمرون عموماً على موانئ شمالي إفريقيا خلال مراحل أسفارهم البحرية الطويلة ، وهم متوجهون إلى الغرب نزولاً ، بمحاذاة حوض البحر الأبيض المتوسط . غالباً ما تكون مراكب الشحن محمّلة بالبضائع التجارية المستوردة من قبرص وأورشليم ودمشق والاسكندرية ، فضلاً عن نقل عدد كبير من الركاب المسافرين . وقد حدثنا سفر أعمال الرسل ، أحد أسفار الكتاب المقدس ، عن ذلك لدى ذكره رحلات بولس الرسول التبشيرية . ولم يكن المسافرون من التجار فحسب ، بل من المسؤولين الرومان الرسميين وإدارييهم أيضاً . والسبب في وجود هؤلاء الرسميين في سفن الشحن هو أن المرور عبر هذه المعابر الضيقة ، من عاصمة الامبراطورية إلى مدينة قرطاجة ، لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام .

ويعود تاريخ هذه الطرق التجارية البحرية إلى زمن الفينيقيين . وخلال القرنين الأول والثاني للبلاد ، كانت هذه الطرق معروفة وكثيرة الاستعمال . كان ساحل إفريقيا الشمالية المأهول بأجناس متعددة من البشر وأسماء ، وكان في مقدور المسافرين أن يتلقوا بهولة ويسر . وهذا ما شجع مسيحيي فلسطين وجنوب أوروبا على أن يطلبوا الإرشاد الإلهي ، وهم متخصصون لإيمانهم الجديد ، ومتحرقون شوقاً لمشاركته مع هؤلاء الأجناس .

والواقع أنَّ عدداً من الأفارقة الشماليين كانوا هم أيضاً قد وجدوا هذا الطريق المبهج السعيد . فبعض الليبيين الذين تهودوا ، وكذلك بعض المستوطنين اليهود في ليبيا ، كانوا حاضرين يوم الخميس في بداية تأسيس الكنيسة المسيحية ، ووقفوا مع الحشد الذي كان يستمع إلى بطرس الرسول وهو يشير الناس بشارة الخلاص للمرة الأولى . وما لا شك فيه أنَّ بعض الأفارقة الشماليين كانوا في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا باليسوع في تلك الأيام ١ .

وحتى قبل هذا التاريخ ، كنا نلتقي سمعان الذي قدم من كوريني ، وهو مرفاً بلبيبا ، قرب المدينة المعروفة اليوم ببنغازى ، وهو الذي حمل صليب المسيح . ومن المرجح أنه صار من المؤمنين ، إذ إنَّ ولديه الكسندرس وروفوس أصبحا في ما بعد معروفين بين الأصحاب الذين كتب لهم مرسى الأنجليل ٢ .

لقد التقى بعض الكورينيين من « مجتمع الليبرتيين » استفانوس ، وذلك بعد صلب المسيح

بسبعين أسباب ، فكان هذا اللقاء من اللقاءات البارزة ، ذلك لأنهم « لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلّم به ». ³ وبعد أيام قليلة سمعوا استفانوس يشرح بقوة كتابات العهد القديم ، كما عاينوا استشهاده . هذا مع العلم أنه كان من بينهم شاب يُدعى شاول الطرسوسي . وبعد فترة وجيزة ، نقرأ مرة أخرى ، عن أناس من كوريني وفرض آمنوا بال المسيح . وهم لم يكتفوا بصيرورتهم مسيحيين مؤمنين ، بل انطلقوا للتبرير بإدخيل المسيح بين الأمم ، لا بين اليهود فقط . كما ذهبوا إلى « مدينة انطاكيه وتحذثوا هناك مع اليونانيين وبشّرّوهم بالرب يسوع المسيح ». ⁴ كانت كوريني مدينة هؤلاء القوم ، مرفأً نشطاً ومزدهراً ، يلتقي فيه اليهود والفينيقيون والأمازيغيون في بونقة واحدة ، إلى جانب العديد من زوار منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . بما أنّ بواكير المؤمنين الأفارقة كانوا يختلطون مع أناس من خلفيات مختلفة ، فإنّ هذا ساعدتهم كثيراً ، ولا شك ، في تعاطفهم مع كل من كان يُقيم بين ظهرانيهما . وكانوا أول من أوصل رسالة الخلاص إلى أمم تختلف عن أمتهم . وقد وجدت مقابر المسيحيين الأولين في كوريني بين مقابر الجماعات اليهودية ؟ وهذه شهادة أكيدة على أن هؤلاء المؤمنين الليبيين ، عادوا إلى إفريقيا الشمالية من أورشليم ، حاملين معهم إيمانهم الجديد ⁵ .

في هذه الأثناء ، كانت رسالة الخلاص في المسيح تنتشر في كل الاتجاهات . وقد ذكر ترتوبيانوس ، وهو أحد الكتاب المسيحيين ، عن اتصالات قديمة كانت بين الأفارقة ويسوعي روما⁶ . وعليه ، فمن المرجح أن الأخبار السارة قد سافرت إلى كل من الاتجاه الغربي ، من فلسطين والاسكندرية ، والاتجاه الجنوبي ، من إيطاليا ، ولربما وصلت إلى كل الموانئ الرئيسية في إفريقيا ، والتي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وذلك في مدة الخمسين سنة بعد موت المسيح وقيامته .

فالليبيون الذين جاءوا بهذه الأخبار السارة عن يوم الخميس ، لحقت بهم في ما بعد جماعات من المؤمنين ، كانوا قد تخلّفوا في أورشليم لبعض الوقت ، مستفيدين من ملازمة الرسل وغيرهم من المسيحيين . « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات ... وكانت كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة ». ⁷ وبسبب الضيق الذي حصل بعيد استشهاد استفانوس ، فقد تشتّت معظم هؤلاء المؤمنين من رجال ونساء ، وعادوا بالطبع إلى وطنهم في إفريقيا . وبوصولهم ، وصلت معهم أخبار مذهلة عن اختبارات الإيمان المسيحي في أورشليم : فمن إيمان العديد يسوع المسيح ، إلى حادثة إطلاق بطرس الرسول من سجنه بواسطة الملائكة ، إلى حادثة حانيا وأمرأنه سفيرة اللذين لقيا حتفهما بسبب ما صدر عنهم من افتداء ، إلى حوادث شفاء المرضى الرائعة على أيدي الرسل ، ثم شهادة استفانوس البطولية ، وافتداء شاول إلى المسيحية ، ذاك الذي كان ألدّ أعداء الإيمان المسيحي .

وبعد فترة وجيزة ، وصلت أخبار إلى الساحل الليبي عن زيارة بطرس لقائد الملة الرومانية ، وكيف آمن جميع أهل الأمم الذين كانوا في بيته ، وقبلوا خلاص الرب وعطية الروح

القدس ، تماماً كما أعطيت لليهود . وقد استمع أهل الأمم ، من رومان وأمازيغين ، إلى هذه الأخبار بشوق واهتمام كبيرين . كما ارتأحوا كثيراً للترحيب الكبير الذي أبداه الرسل وشيخ الكنيسة في اورشليم بالرجال والنساء أمثالهم في كنيسة المسيح .

كانت حبوبة وحمسة هؤلاء المؤمنين الأوائل مؤثرة إلى أقصى الحدود . فقد ذكر لنا المؤرخ الشهير يُوسَابِيوس ، الذي من قيصرية - فلسطين (Eusèbe de Césarée) (339-263 م) ، ذكر عن القرن الثاني للميلاد يقول : « التهبت قلوب المؤمنين المسيحيين بكلمة الله المقدسة ، وزاد اشتياقهم ليكونوا أكثر نضجاً وكمالاً في الإيمان . وكانت أولى نشاطاتهم في طاعة تعاليم رب المخلص ، أنهم باعوا كل ما يملكون ووزّعوا على الفقراء والمساكين . وبعد ذلك تركوا بيوتهم لينفرزوا للأعمال التبشير ، وكان همهم نشر الكلمة المخلص بين أولئك الذين لم تصلهم هذه الكلمة بعد ، وأن يودعونهم أيضاً كتب الإنجيل المقدس . وقد اكتفوا ببساطة بأن أن يرسوا أنس الآيات بين سكان تلك الدول المتباudeة ؛ من ثمّ قاموا بتعين رحاة آخرين وأوكلوا إليهم مسؤولية تعزيز الذين قبلوا الإيمان حدثاً . هذا ، وقد مرّوا بالبلدان والشعوب الأخرى سائرين بنعمة رب وعنه » .⁸

ويستطيعنا ان نتصور أولئك الرجال والنساء الشجعان الذين كانت قلوبهم مملوءة بالأمل والرجاء وهم يطأون بأقدامهم سواحل إفريقيا . لقد وقف هؤلاء على الأرضي التي تحافي أرصفة الساحل ، وراحوا يحدقون إلى مباني المدينة القليلة الارتفاع وهي تتلاألأ تحت أشعة الشمس الصباحية ، ثم تسأموا حين رأوا الدور الواقعة فوقهم : ترى ؟ أي من هذه البيوت ستشمر فيها الكلمة ويكون لنا فيها أحواة وآخوات بالرب ؟ أو أي من هذه البيوت سيختاره رب ليكون بيته مباركاً تستظل تحته وستمتنع بالشركة الروحية مع مؤمنين جدد ونصلّى معهم بين جدرانه ؟ ولقد أتى هؤلاء المسافرون المسيحيون الأوائل ، ليس فقط باختبارتهم الشخصية عن حياة الرسل وتعليمهم وعن المسيح يسوع نفسه ، بل أحضروا أيضاً نسخاً نادرة وثمينة لبعض أسفار الكتاب المقدس التي نقلوها بأنفسهم عن النسخ الأصلية التي كانت في اورشليم او مدن أخرى . وبات من المؤكد أن هذه المخطوطات التي جاءوا بها ، كان معظمها مكتوبًا باللغة اليونانية ، وهي اللغة المستخدمة لتدوين أولى الكتابات المسيحية في إفريقيا الشمالية .⁹

ولربما اتبعوا أسلوب الرسول بولس في توجيههم إلى المجموعات اليهودية أولاً . فاليهود الذين سكنوا شمالي إفريقيا كانوا يعرفون الله الذي خلق كل شيء ، كما كانوا يتنتظرون «المسيّا» الحقيقي الذي وعدوا به مخلصاً . وكان أغلب ظنهم أنهم سيجدون بين هذه العائلات اليهودية قليلاً مستعدة لقبول المسيح المخلص الذي طال انتظارهم له . وكما علمنا ، فإن بعض اليهود آمن بال المسيح في وقت مبكر في شمال إفريقيا . إلا أن بعضهم الآخر لم يؤمنوا . وكما حصل لبولس الرسول ، فقد توجهوا عنهم إلى الوثنيين ذوي المبادئ الأخلاقية الجوفاء ، وكذلك إلى الذين يعبدون الأصنام الخشبية والحجرية . لقد اهتم كتاب القرن الأول بالرد على أسئلة اليهود

واعتراضاتهم أكثر من اهتمام المدافعين عن الإيمان (apologists) في القرنين الثاني والثالث ، عندما كان قد أصبح المهددون إلى المسيحية من الوثنيين أكثر من الذين جاؤوا من أصل يهودي .

لم يكن في نية مسيحي إفريقيا الأوائل أن يتركوا سجلات عن نشاطاتهم ، ولا هم أنسوا أبنية مميزة . كما أنه لم يظهر بينهم إلى ذلك الحين ، كتاب عظماء ، يدوتون مآثرهم وأعمالهم وإيمانهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نلمس تأثير إيمانهم في الناس الآخرين بشكل فعال ، كما تدل النتائج من خلال اتساع الجماعات المسيحية ونضجها العظيم ، ولا سيما بعدما كشف النقاب عن هذا الأمر بعد مئة سنة¹⁰ . وفي الواقع فإن الشواهد التي بين أيدينا لا تدلنا سوى على واحدة من الجماعات المسيحية التي كانت متواجدة في القرن الأول ، في إفريقيا ، وذلك غرب مصر ، وبالتحديد في مدينة كوريني . لكن ، بحلول العام 200 ميلادية وصلت تقارير تفيد عن إنشاء كنائس مزدهرة في إجزاء عديدة مما ندعوه اليوم تونس والجزائر¹¹ .

وكم كان الأمر سيدورائعاً لوعرفاً تفاصيل أكثر عن المسيحيين الأوائل ، اين وصلت إليهم رسالة الإنجيل لأول مرة ، وكيف بدأوا ينظمون اجتماعاتهم معاً ، وكيف كانوا يعلمون ويشجعون بعضهم بعضاً . ولربما كانوا يجتمعون يوماً في يومهم ليبحثوا محتويات هذا الطريق الجديد للحياة ، وليقرأوا كل ما يصلهم من الكتابات النادرة لكلام الله ، والتي كانت تلفّ منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط برمتها . على أنّ وصول أي مسيحي من آسيا الصغرى أو من فلسطين كان يقابل بالفرح العارم والبهجة . وكانت أخبار وصوله تنتشر من دار إلى دار ، ومن عائلة إلى أخرى ، وكان المؤمنون يدعون إلى الاجتماع بهذه القادم الجديد من الشرق ، فيسألونه عن مدى استيعابه لهذا الإيمان ، واختباراته في الكنائس الموجودة في المناطق الأخرى . وغالباً ما كان يُسأل : هل التقى بطرس ؟ أو ماذا يقول بولس في هذا الأمر ؟ أو ماذا يعني يعقوب بذلك ؟ أو هل أنّ يوحنا لا يزال سجيئاً في بطمس ؟ ولربما جلب مثل هؤلاء الزوار إجزاء من الكتاب المقدس الذي كان يُقرأ على الإخوة للمجتمعين ، أو كانوا يعلّمونهم ترانيم جديدة كانت تُرثَّل في أورشليم أو انطاكيه أو مدن أخرى . وما لا شك فيه أنّ هؤلاء الضيوف كانوا يصفون بكل اهتمام وعطف إلى استفسارات أخوتهم ، ويقدمون لهم وبالتالي النصح والإرشاد ولا سيما في الأمور التي تتعلق بالممارسات اليومية لهذا الإيمان ، خصوصاً بين ذويهم .

انتشرت أخبار البشرة عبر السهول الساحلية لشمال إفريقيا كانتشار النار في الهشيم ، وبالشكل الذي انتشرت في فلسطين . كان عدد الذين يسمعون الإنجيل يزداد أكثر فأكثر ؛ وكانت يقلدون الكلمة « باتهاج وبساطة قلب مسيحي اللهم ولهم نعمة لدى جميع الشعب . »¹² لقد انتقلت رسالة الخلاص من شخص إلى آخر ، ومن جار إلى جار . وبالطبع فقد كانت أخباراً

سارة مفادها : إعلان محبة الله للإنسان ، بياتات وبراهين مقنعة ، ومن دون التزامات سياسية أو تجارية . لقد جعلت الناس احراراً . وجلبت لهم في الواقع حرية لم يعرفوها من قبل أبداً : الانعتاق من الأساطير الكاذبة ، والخلاص من الأخلاق المنسخة المتحلة ، والتحرر من الأرواح المحلية النزوية الدينية . ولقد تمكنا من رفع روؤسهم عالياً بشجاعة واعتداد بالنفس وإيمان ، وهم يفخرن بانتسابهم الى عضوية المجموعة الجديدة المت坦مية التي تبني كيانها على مفاهيم رائعة من مبادئ العدالة والشقة والتزاهة . «لقد فتحت الأبواب المغلقة ، وانبعث النور شرقاً في الظلمة .»¹³ هذا ما كتبه كِيرِيانُوس (Cyprien) الذي كان قد ولد في بيت وثني في قرطاجنة في حدود سنة 200 بعد الميلاد ، ومات بعد مرور نصف قرن . وهو أحد أشهر المسيحيين في كل العصور والأوقات .

نبيل تعاليم المسيح الى توحيد الناس على أساس مبادئ المساواة التي لا تعرف المحاباة . فليس هناك من هوأفضل أوأكتر قدرأ من الآخر . فالجميع قد خلقوا من الله واحد ، وجميعهم سُيّحاسبون على أساس المعايير نفسها . فكل من أصبح على طريق الحياة الأبدية هو محظوظ في عيني الله ، ومرحب به في شعبه . ولا بدَّ من ان تكون المساواة التي جاءت بها المسيحية قد صدمت الكثير من الرجال والنساء وجذبتهم اليها . فمهما كانت خلفيات المؤمن متوضعة ، ومهما كان محتقرًا مبنوًدا ، سواء أفي السوق اوالمدرسة ، فله الحق في أن يأخذ مكانه اللائق كابن من أبناء الله في المجتمعات الكنيسة المحلية ، فيقف هناك جنباً الى جنب مع أغنى الناس وأرفعهم قدرأ على هذه الأرض . كما يستطيع هذا الإنسان ان يتخطى هؤلاء جميعاً ، ويريح تقدير الكنيسة واحترامها بنوعية حياته المقدسة وثبات شهادته في ساعة التجربة ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه في حياة المجتمع . المؤمنون كسيدهم ، لا يتظرون الى المظهر كما يفعل الانسان ، « لأن الانسان ينظر الى العينين ، وأما الرب فإنه ينظر الى القلب .»¹⁴ فاليسجية بحق ، جلبت الشرف والكرامة والثقة في النفس ، الى الكثيرين الذين من دونها ، كانوا سيخطبون ، متشوقين لعيش حياة آمنة في هذا العالم . كان هذا الإيمان الفعال والجلداب ، هو الذي اكتسح شمال افريقيا بفرح عظيم .

لقد كان عمل هذه الجماعات المسيحية فعالاً حتى إن بشارة الانجيل قد عُرفت وفُبلت في كل المدن الساحلية بشمال افريقيا ، بعد جيلين او ثلاثة تقريباً من وصولها للمرة الأولى . لقد انتشر عمل التبشير بالانجيل وتوسيع بنشاط وإقام ، وبفتره لا تزيد على مئة وخمسين عاماً ، أصبحت كنيسة قرطاجنة وكنيسة كوريني وكنائس أخرى في شمال افريقيا ، كأنطاكية وأفسس وفيليبي ذات مكانة مرموقة ، تسير جنباً الى جنب ، مع اعظم المراكز المسيحية الاولى التي يتحدث عنها سفر اعمال الرسل .

وفي العام 198 بعد الميلاد ، عندما خاطب ترتوبيانوس حكام روما دفاعاً عن المسيحية ، ذكر أن الكنائس المحلية كانت مجتمع بانتظام من أجل العبادة والتعليم . فقد أقرت هذه الكنائس تعين قادة لها ، وقدّمت الدعم والمساعدة للأرامل والآيتام . وكانت لهم مدافنهم الخاصة ، وأماكن عبادة خاصة كذلك . ولم يكن المسيحيون ، بأي شكل من الأشكال ، مغمورين ، ولا كانوا أقلية تافهة مهملة . قال ترتوبيانوس : « بدأنا بالأمس فقط ، وسمع ذلك فقد ملأ كل الأماكن الخاصة بكم : المدن والجزر والقلاع والقرى والأسواق وحتى مخيماتكم العسكرية وكذلك قصر الامبراطور والمجلس الأعلى والساحات العامة . »¹⁵ ولم تمض إلا خمس عشرة سنة من هذا الوقت بالذات ، حتى كان غالبية العموم قد ازداد أكثر ، الأمر الذي دفع ترتوبيانوس إلى التصرّف بالقول : « نحن جماهير كبيرة ، ونشكل الأكثريّة تقريباً في كل مدينة . »¹⁶

دخلت البشرة خلال وقت قصير كل طبقات المجتمع ، وشمل تأثيرها كل مجالات الحياة . وقد عُقد مؤتمر في العام 256 ميلادية في قرطاجة ، حضره مئلون عن خمسمائة كنيسة محلية من مقاطعة إفريقيا البروتنقليّة ، هذا فضلاً عن عشرين مئلاً من مقاطعة نوميديا . ولم تمض سوى خمسين سنة أخرى حتى كبر هذا العدد وازداد كثيراً . وقد بيّنت التقارير ان المسيحيين كانوا يشكلون أغلبية السكان في منطقة إفريقيا البروتنقليّة ، ما عدا شبه جزيرة رأس بون بالقرب من تونس المدينة . وكانت المجموعات المسيحية تنمو وتزدهر كذلك في شمال المغرب بالقرب من طنجة ، وفي أماكن كثيرة على امتداد الساحل الليبي إلى الشرق . وهذا النمو الهائل والتسارع ، يشهد على قوة الأنجل وعلى الطاقة الكبيرة التي كان يمتلكها حاملو الرسالة . فالحقول قد ابكيت للحصاد ، والخصادون اندفعوا إلى العمل من دون كلل أو ملل .¹⁷

لقد تسّلّقت الكرمة المسيحية بسرعة على خيمة الحضارة الرومانية . لقد انطلقت أغصانها واختارت القبائل داخل إفريقيا الشمالية الأمازيغية . استفادت المسيحية ، ولا شك ، من السلام الذي ساد جميع الأجناس الخاصة للسيطرة الرومانية ، وقد عُرفت هذه الوضعية تاريخياً بالپاكس رومانا (Pax Romana) . كانت تلك الفترة فترة سلام واستقرار سياسي ، ونمو وازدهار اقتصادي ناتج من الحكم الروماني . وكانت منطقة شمال إفريقيا في ذلك الوقت مزدهرة . ونادرًا ما كان يطالها أي تخريب أو تدمير بسبب الحروب المحلية كذلك التي كانت مشتعلة في جنوبي أوروبا . وقد أصبح الآن بإمكان المسافرين إلى جميع المناطق ، أن يتقدّموا بأمان وسلام نسبين ، وكانت يجدون الوسائل لدعم حياتهم وإعالة أنفسهم بسهولة ويسر . كان الأهالي المحليون منفتحين جداً على تقبّل الأفكار الجديدة ، ولم يكونوا يرزحون تحت طائلة الفقر المدقع ، كما كانوا بعيدين عن الصراعات والمنازعات والخذد ، الأمر الذي وفر عليهم هموم القلق المستمر وانشغال البال . وعلى الرغم من ان الحكومة الرومانية لم تكن قد وافقت بعد على

الدعوة إلى المسيحية والتثمير بالانجيل ، إلا أنه كان يمكن لكل إنسان أن يخضع على الأقل ، لمحاكمة عادلة . وكانت تمنع تعرض المسيحيين للعنف الجماعي والاضطراب الناشئين بسبب دعوتهم هذه .

ولكن ، مع ان هذا السلام الذي كان يسود جميع الاجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية في حدود امبراطوريتها ، قد ساعد كثيراً في نشر تعاليم المسيح ، إلا أن المبشرين لم يتقدموا بهذه الحدود بأي شكل ، فانتشروا إلى مسافات تبعد كثيراً عن حدود هذه الامبراطورية . فالأبطال من المسيحيين واليسوعيين ، لم يعتمدوا على حماية حكومة الامبراطورية ، بل انكلوا على الله الحبي ، ولم يكونوا خدام الحضارة بل خدام المسيح ، كما أنهم لم يكونوا يحملون السلاح ولا البصائر في ترحالهم وتجوالهم ، وإنما حملوا الأخبار السارة والبشرية المفرحة التي تظهر حب الله للإنسان . فتوغلت عملية التثمير بالانجيل إلى بلدان أبعد بكثير من حدود السيطرة الرومانية . وهكذا تحدث ترتوهيانوس بحماسة عن اهتداء عدد كبير من الناس « بين صفوف قبائل الحيثوليين الأمازيغية (Gétules) والمقاطعات الفسيحة الواسعة للسموريين ، التي تعلّر على الرومان بلوغها ، ولكنها خضعت للمسيح »¹⁸ . أمّا أطلال الكنائس فقد وُجِدت في قرى صغيرة نائية حتى إنها لم تُسجّل في المستندات الرومانية¹⁹ . وقد رُفِعت النقوش على قبور الاموات من المزارعين المسيحيين والأمراء المسيحيين ، وكتبت الكلمات القصيرة لإحياء ذكراهم وذلك في أماكن بعيدة عن حدود الإدارة الرومانية . إن محبة الله لا تُقيّد بقبرية ، فهو لاء المؤمنون الملتئمون من حبه تعالى ، نقلوا هذا الحب إلى أقصى المعمرة .

ملاحظات

1 - اعمال 10:2

2 - مرقس 15:21 ؛ رومية 16:13 . يجحب التمييز بين كُورُبِي بلبيسا حالياً ، التي تسمى في بعض الكتابات بالقيروان ، وبين القاعدة التي أسّها السلمون لاحظاً بالقرب من سُوسة بتونس .

3 - اعمال 9:6 و 10:3

4 - اعمال 11:20

Neill p. 37 ؛ Latourette Vol. II pp. 97 ff. - 5

De Praescriptione Haereticorum 36 - 6

7 - اعمال 42:2 و 46،

Historia Eccles. III. 37:2 - 3 (NAPNF Series 2, Vol. I) - 8

Latourette Vol. I p. 92 - 9

ليس هناك أي احتمال بقيني حول ما قبل عن سمعان القانوني ، وهو أحد رسل المسيح الاثني عشر ، أنه قام بالتبشير في أماكن مختلفة من شمال إفريقيا .

ولا تزجد وثائق تذكر هذه الزيارة إلا في القرن الناتس في استنبول . بالإضافة إلى وثيقة أخرى معروفة المصدر تُنسب إلى ناظر كنيسة في فلسطين في القرن الرابع . إلا أن ما يقتضي عدم صحة هذه الرحلة ، هوأن هذه الكتابات أتت من خارج شمال إفريقيا ، كما أنه لم يرد ذكرها إلا بعد سمعان بعده قرون .

ولوأنه فعلاً قد بشّر في شمال إفريقيا ، يكون من المستحبيل الآتي على ذكره الكتاب المسيحيون الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث ، أمثال ترتوثيانوس . هنا على اعتبار أن مؤلّف الكتاب كانوا قد ناقشوا مصدر كتابهم .

(Mc Birnie: The Search for the Twelve Apostles pp. 211 - 213)

١٠- بعد مصر الرسولي ، كان شهداء سكيليون المذكورين في الفصل الناتس ، أول المسيحيين الأفارقة الذين تم تدوين اسمائهم في السجلات التاريخية . كذلك تذكر سجلات أخرى أيضاً اسم فيكتور الذي ولد في إفريقيا البروقنصلية وخدم كناذر للكنيسة روما على مدى ثلاث عشرة سنة (185 - 198 م) . لقد اشتهر فيكتور هذا بشكل خاص في إصراره على أن يتم الاحتفال بذكرى القيمة في يوم أحد كل سنة ، وذلك بعزل عن التاريخ الذي يصادف فيه وقوع هذا اليوم . وهكذا أصبح هذا الترتيب مألوفاً ومعمولاً به في الكنائس في كل أنحاء العالم . لكننا لا نعلم من أية مدينة كان فيكتور ، ولا كيف أصبح مسيحيًا ، ولاية علاقات تربطه بكنائس وطنه .

١١- كانت كنائس القرن الثاني موجودة في قرطاجنة (تونس) ، وفي سيربيوس (سطيف ، الجزائر) ، لامايسيس (تازولت ، الجزائر) ، ماداورا (مداوروش ، الجزائر) ، أشما ، بربوميس ويشيدروس (وجمبها في تونس) ولبيس ماغنا (ليبيا) . (Cooley p. 29).

١٢- اعمال ٤٦: ٢ و ٤٧

Ad Donatum ٤-١٣

١٤- ١ صموئيل ٧: ١٦

Apologeticus ٣٧-١٥

Ad Scapulam ٢-١٦

١٧- بالإشارة إلى بيوتنا ٣٥: ٤

Adversus Judaeos ٧-١٨

Camps p. 175 - 19

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص الكرازة في القرن الأولي ، في إفريقيا الشمالية ، يمكن الرجوع إلى المصادر الثانية التالية :

Neill pp. 37 - 42

. Frend pp. 94 - 111 ; Cooley pp. 28 - 30; Latourette Vol. I pp. 92 - 3, 112

الجزء الثاني

عصر تروليانوس

(أواخر القرن الثاني – أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس

أسلوب الحياة الفاضلة

« الكنيسة المسيحية فريدة في نوعها . فهي أقدم من أية منظمة أو مجموعة منظمات موجودة الآن على كوكبنا . و لم تتمكن أية ديانة أخرى من تكون مؤسسة نظيرها . فالديانة اليهودية التي لها فضل كبير على المسيحية طورت جماعة انتشرت كالكنيسة المسيحية ، في كل أنحاء العالم . و مع ذلك فبُنية الديانة اليهودية هي ببنية عنصرية بقدر ما هي دينية . أما الديانة المسيحية ، فختلف عن اليهودية يكمنها مزيجاً من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم او العرق . »¹ هذا القول هو للمؤرخ لاتورت .

لكن ، ما هو إذاً الرابط الذي يوحد بين هؤلاء الناس المتمادي الأجناس ؟ هل هو خصوصهم لقوانين السلطة الكنسية و احكامها ؟ أم هل هو رباط غير متظور ؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع ؟ و هل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى ؟ أو هل حققت شيئاً ما بمجرور الزمن ؟ هل خسرت شيئاً ؟ هل الكنيسة هي تنظيم معين ، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية ؟

يتحدث المؤرخ لاتورت عن المبادئ العظيمة التي اوحتها الديانة المسيحية في أيامها الأولى : «من بدايتها ثبتت هدفها ، ييدو أنها أخذته مباشرة من مثالها الأعظم يسوع المسيح نفسه ، و هو مثال الراعي . » وقد انتدب أتباع المسيح أنفسهم « للاهتمام بالأفراد من طريق التضحية و المحبة في سبيل ربح النفوس لما تراه المسيحية انه الحياة الاسمي ، ومساعدتهم في النمو على هذا الأساس . »²

فالكنيسة الأولى في اورشليم ، كما يعلمنا سفر اعمال الرسل ، كانت جماعة تقوم بهذه الخدمة . و كعائلة كبيرة ، احتضنت أنساناً من مختلف الأعمار ، يعرفون و يحبون ويساعدون بعضهم بعضاً في النساء و الضراء . و كانوا كل يوم يجتمعون في الهيكل ، و يأكلون سوية في بيتهم ، بفرح و سرور ، وبقلوب كرامة معطاء ، وهم يعلمون و يشجعون بعضهم بعضاً ، و يصلون سوية ، و يشكرون الله على برkatه الواضحة التي منحها لهم .³ و كانوا يرجبون ترحيباً حاراً بكل من اتبع سيدهم الرب يسوع المسيح . ولربما بسبب سموّ معايرهم ، او ربما بسبب العجائب والمعجزات التي صُنعت في وسطهم ، وقع رعبيهم على كل الذين في هذه المدينة ، حتى إن احداً لم يجرؤ على الاختلاط بهم : « أما الآخرون فلم يكن أحد منهم يجرؤ ان يتقصّ بهم . لكن كان الشعب يعظهم . وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر . جماهير من رجال و نساء . »⁴

و عليه ، فقد اضطر هؤلاء المسيحيون المؤمنون المتحدون الى أن يستقلوا هذه الاخبار السارة الى اليهودية والسامرة ، و خلال بضع سنوات الى أقصى الأرض .⁵ وقد قبّلت معظم هذه الأصوات البعيدة رسالتهم بفرح . و نتيجة لذلك ، فقد تكونت جماعات مسيحية جديدة ، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، و في اوروبا و آسيا الصغرى وحتى الى المناطق الأبعد من ذلك . و كانوا يجتمعون معاً ، ليعلموا بعضهم ، و لি�شجع احدهم الآخر ، كما فعلت الكنيسة الأولى في اورشليم .

لقد كانت كل جماعة من المؤمنين تسم بقدر عال من الوحدة . إلا أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسألة نظرية أكثر من كونها أمراً عملياً ، ذلك لأنهم كانوا مبعثرين في مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشكل لا يسمح بالاتصال الكبير بينهم . ولكن ، شيئاً فشيئاً أخذت روابط هذه الجماعات تتصل من مدينة الى مدينة ، حتى اشتد اشتداً وثيقاً وقوياً . فهم عاشوا في البيئة نفسها ، و جابهوا المشاكل و الفروقات فيها . و في الوقت الذي كانوا يلاحقون أعمالهم التجارية و المهنية من مكان الى آخر ، كان من الطبيعي ان يتظارعوا الكلام عن الامور ذات الاهتمام المشترك . و أكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشون للمسيح بكل أمانة و إخلاص وسط عالم وثي فاسد ، و كيف يتتجنبون مغريات و ردائل الحياة المدنية الوثنية ، و كيف يستطيعون ان يربّحوا نفوس اصحابهم و جيرانهم طريق الحق .

عاش المسيحيون مع الوثنين ، و سكنوا معهم في افريقيا الشمالية جنباً الى جنب ، و كان قريهم كما هو عليه الحال في آسيا و اوروبا . و كثيراً ما وجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن الى جانب مزارات الاله مثرا (Mithra) ، او قبلة المسابد الوثنية . و في الأرياف ، قد نجد القبور الحجرية المسيحية ، في الأماكن المخصصة للأرواح . كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزعة بين بيوت جيرانهم الوثنين ، و لم يفكر هؤلاء فقط في الانعزal ، و إقامة احياء خاصة بهم .

لم تميز الجماعات المسيحية عن المجتمع الوثني بواقعها الطبيعية او المادية ، و لكنها تميزت عنها بطبيعة و اسلوب الحياة التي تحياها . كان جلّ همهم ان يكونوا المصباح المنير و الأمل الزاهي لكل اهل المدينة ، و الملحق الجيد الذي يُملأ به . لقد شقوا طريقهم مع جيرانهم الوثنين بجهد و أناة ، و تعاملوا معهم بصدق و إخلاص ، و سعوا ليتجنبوا كل ما من شأنه ان يسبب المواجهة معهم . كما سعوا بكل جدية لتطبيق الوصية القدية : «حب قرببك كنفسك .» و هذه هي المعبة التي كانت تحثّهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما ساحت لهم الفرصة .⁶ لقد أظهر المسيحيون حقيقة ايمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها ، فلم يكونوا يخجلون بسياحتهم ، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي .

يتألف مجتمع شمال إفريقيا من ثلاثة فئات رئيسية ، و هذه جميعها كانت حاضرة في الكنائس المسيحية . و كان الأمازيغيون يشكلون الأغلبية . أما الفينيقيون الذين تزاوج الأفارقة معهم ، فكانوا موجودين في المدن والحواضر و كانوا يمثلون الطبقة الحرفة و التجارية . على أن الطبقة الرومانية كانت الطبقة الاستقراطية الإيطالية ، و كانت تمثل أصحاب الممتلكات الزراعية الواسعة ، وقد شكّل هؤلاء نخبة أهل المدينة و صفوتهم . لكنَّ الكنيسة جمعتهم لخواص وأخوات في عائلة تخطّت حدود العرقية و اللغة و التحوم الاجتماعية الأخرى . أما علاقتهم باليهود ، فكانت علاقة صدقة و لطف . وقد استعاض عن المناظرات الحادة التي دوّنها العهد الجديد مع اليهود ، بالتسامح و الاحترام المتبادل ، على الرغم من أن ذلك لم يجعلهم يستسلمون ، بأي شكل من الأشكال ، أو يتخلّون عن آمالهم في كسب اليهود واستئصالهم إلى الدخول في الإيمان .

ومن البديهي أنَّ علاقاتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشبهونهم في الفكر و المعتقد . فاليسوعيون كانوا في دائرةِهم الخاصة ، يعيشون حياتهم بموجب تعاليم المسيح ، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضاً ، كما خدم المسيح تلاميذه و غسل أرجلهم . ولم تُضع الكنيسة برنامجاً لتغيير المجتمع ، بل كان كلَّ همها ان تأتي بالآفوس إلى مجتمعها و تغير مواقفهم و مبادئهم . وقد شدّدت على أهمية خلاص الإنسان كفرد . لقد كان المسيحيون يتوقون إلى أن يصالحوا الرجال والنساء مع الله ، حتى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام و توافق يومي معه سبحانه وتعالى . إلا أنه كان لا بد لهم في معرض مساعدتهم الفرد على الإيمان ، من أن يتقدّموا الرذائل الاجتماعية التي قد تعيق الناس في هذا المجال . فالعهد الجديد في الواقع ، وبالخصوص ما جاء من آقوال المسيح ، يقدم لنا المثاليات التي لو تقدّمها جميع الناس فعلاً و بالكامل ، لتغيير المجتمع تغييراً جذرياً . وقد رأى عدد من أصحاب السلطة الوثنية أن تعاليم المسيح هذه فيها ما يكفي لإجراء تغيير جذري إذا ما بناها عدد كبير من الناس ، و يامكانتها ان تشق طريقها إلى أعماق جذور المجتمع ، و تصل إلى أساس بنائه .

لم تشجب الكنيسة رسميًّا العرف القائم و المختص بالعبودية والاسترقاق ، كما لم تتصد للصراع الوحشي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لامتناع الناس بقتال بين العبيد ، يستمر حتى الموت . ولكن الكنيسة كانت تتحمّل المسيحيين الذين يملكون عبيداً ، على ضرورة معاملة هؤلاء العبيد بتهذيب و لباقة ، مثلما يرغب مالك العبد أن يعامل من سيده السماوي ؟ كما أنَّ العبد المسيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الأرضي بأمانة و إخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله .⁸ وفي الحقيقة ، اختار الكثير من المسيحيين اعتناق عبيدهم ، على أنه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحةً كونهم عبيداً لسيد مسيحي طيب ، و هو بالمقابل ، كان فرحاً مسروراً لامتلاكه عبيداً ، أميناً صادقاً . « و كم رأينا عبيداً لم يكونوا يفتقرُون إلى شيء ، بينما هناك رجال أحجار تُكرَّهون على التسول ».⁹ هذا ما قاله أغسططينوس بعد مضي مئتي عام .

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال إفريقيا في زمن الرومان ، بالمقارنة بحالة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شمال إفريقيا . فالعبد في الإمبراطورية الرومانية كانوا في غالبيتهم من أصل يوناني أو من شمال أوروبا وليس من إفريقيا . ولم يعان الأمازيغيون العبودية إلا في الظروف الاستثنائية ، و لم تشجع الكنيسة المؤمنين على شجب هذه الظاهرة ، او الوقوف ضد مثل هذا الوضع القانوني الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنذاك . لأن الاهتداء إلى المسيحية لا يجعل الإنسان من تبعيته الشرعية و التقيد بنظام المجتمع الذي يعيش فيه ، على الرغم من آماله في الحصول على حرية من هذه العبودية . و مع ذلك فعلية أن يتقبل قدره هذا بصبر و تؤدة في الوقت الحاضر . « الدعوة التي دُعي فيها كل واحد فديلاً فيها دُعيت و انت عبد فلا يهمك . بل و ان استطعت ان تصير حراً فاستعملها بالحرى . لأن من دُعي في الرب و هو عبد فهو عتيق الرب . كذلك ايضاً الحر المدعاو هو عبد للمسيح . »¹⁰

لم يكن عاراً كون الإنسان عبداً . فكان لدى العديد من العبيد ، وبخاصة اليونانيين ، درجة من الثقافة و التعليم أعلى مما عند أسيادهم . و كان قد سمح لهؤلاء العبيد بأن يتوجهوا في أملاك أسيادهم و في شوارع المدينة بحرية كاملة . و حقاً قال المعلم المسيحي الشهير أمبروزيوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته و أخلاقه ، و حتى أكثر حرية من هذا السيد لأن السيد ، قد يكون عبداً لإيليس و للخطيئة .

لم تسع المسيحية وراء الاضطرابات و المشاكل ، و لا أثارت استياء الناس . بل على تقدير ذلك ، علمت الإنسان كيف يبقى سعيداً في أي ظرف من الظروف او حال من الاحوال .¹¹ المسيحية لم تهاجم غط الحياة الذي كان يمارس الرق و العبودية ، تماماً كما أنها لم تهاجم أيّاً من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني . ذهبت المسيحية إلى أبعد من ذلك ، فقد قدمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها إلى العلاقات الإنسانية : فالآلون آخرون ، والأعظم يكون خادماً للجميع ، و هي تدعو ذلك الذي يجلس في المؤخرة ان يتقدم ليأخذ المقد الأول ، وملائكة السماء يخصّ الأولاد الصغار . لم ينظر المسيحي إلى مصالحة الشخصية فقط ، ولكنه نظر إلى مصالح الآخرين أيضاً . فقد ادار الخد الإبرير الذي لطمته على الخد اليمين ، وذهب ميلين مع الذي سخره ميلاً واحداً ، وصلّى من أجل الذين أساءوا إليه . وجد أن لدى الإنسان المؤمن الكثير من الأمور المشتركة مع عبده المسيحي ، ما لا يجده مع عائلته الوثنية : فهو يتمتع مع عبده بإيمان مشترك ، و يتقاسم المخاطر عليها التي قد تأتي نتيجة لهذا الإيمان المشترك . و لم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة ، لأنه « ليس يهودي ولا يونيسي . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر و انتي لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع . »¹² لقد استدعي المدعاو يوليبيوس (Eusebius) وهو عبد من عبيد آل البيت الإمبراطوري إلى المحكمة في روما في القرن الثاني للميلاد . ولدى سؤاله أجاب : « أنا عبد الإمبراطور ، ولكنني مسيحي في الوقت ذاته ، حيث أنَّ الرب يسوع المسيح قد حرّقني ، وبنعمته العطاية لسي ، امتع بالرجاء نفسه الذي لاخوتى بالرب . »¹³

تبواً بعض العبيد مراكز هامة ، حتى وصل بعضهم إلى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية : بعدهم عينوا نظاراً على مجموعاتهم المحلية . و يعتبر المسيحيون أنه امتياز أن يخدموا عبداً مسجونة أو مُضطهدًا بسبب إيمانه بال المسيح ، و كانوا جميعهم يرغبون في تكريم كل عبد حصل على ناج الشهادة المختوم بالدم . إن إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطالٌ غير مباشر لفمَّا ظلم نظام الرق المذل ، و إيدان بأفول نجمه . فالكنيسة لم تحاول ان تقلل شجرة العبودية - لأن ذلك سيكون عملاً طويلاً و خطيراً - ولكنها بالمقابل ، قشرت لحاء هذه الشجرة و تركتها لتموت موتاً بطيناً .

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة ، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضد العنف والقصوة والانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية . على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرقاً في مثل هذه الأعمال ، ولا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات والميادين العامة لامتناع الناس ، كما أنهم لم يشاركون في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي . فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة ، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك ؛ كان المسيحيون في العالم و لكنهم « ليسوا من العالم » وكانتوا يعلمون هذه الحقيقة . صلوا بعضهم لأجل بعض ، كما فعل سيدهم المسيح لاتباعه عندما قال : « لست أساً ان تأخذهم من العالم بل ان تحفظهم من الشرير . »¹⁴ و هكذا ، فكلما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى ، كلما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات ، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتبروا السبب في انخفاض عدد المترجين ، و قصور شوفهم إلى الألعاب والمسرحيات ، وضعف ولعهم بها .

إلى ذلك ، فإن الكنيسة لم تحاول ان تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدينة والأصقاع الريفية . فقد آمن المسيحيون بأن الله هو الذي يمنع الأرض و الأموال لبعضهم ، تماماً كما يمنع المهارة و القدرات لبعضهم الآخر ، إلى جانب المواهب الأخرى المتعددة ، من فن و قوة شخصية و طلاقة لسان و غيرها . وقد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس أجمع باحترام متساو . فلم يهابوا الأقوياء و لا احترقوا الضعفاء . لقد خافوا الله وحده ، و احبوa جميع الناس . و كانوا يستقبلون الفقير و المتواضع بلطف و يكيلون له بالمعايير الصادقة والأمينة عينها ، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ . ففي المجتمعات الكنيسة ، كانوا يرحبون بالجميع على حد سواء . قال يعقوب أخو المسيح في الجسد : « لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة . فإنه إن دخل إلى مجتمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي و دخل ايضاً فقير بلباس وسخ . فنظرتم إلى اللباس اللباس الباهي و قلتم له أجلس انت هنا حسناً و قلتكم للتفريح قف أنت هناك او اجلس هنا تحت موطئ قدمي . فهل لا ترتباون في أنفسكم و تصيرون قضاة أشكار شريرة ؟ »¹⁵ إن أخلاق الإنسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثراه و مركزه الاجتماعي . فقد كانت النقوش او

الكتابات على قبور المسيحيين ، و المعرفة بهم ، لا تشير الأ نادراً إلى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى . إلا أنهم كانوا ينحتون أحياناً رمزاً تدلّ على حرفة الميت ، أو يرسمون بدقة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة إلى كتابة عبارات تنمّ على المحبة العائلية .

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية ؛ إذ كانت تلمس قلب أيّ إنسان حساس . ولكنَّ المسيحيين لم يكونوا دائمًا موضع استحسان في أعين أعضاء المجتمع الآخرين . فبعض أعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملًا منسداً يسبِّب الخلاف والشقاق الحاصلين بين الناس ، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم . إلى هذا ، فقد كانت طاعة المثاليات الامبراطورية أمراً ملزماً يجب أن يُفرض بثبات في قلوب الناس ، فإذا ما نزع أحد إلى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك ، فإنه يعرض نفسه ليس فقط لتهمة تعكير سلام الامبراطورية الرومانية ، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثلها .

بعد مرور قرن و نصف على صلب المسيح ، كتب كلسوس (Celse) انتقادات عنيفة بحقها المسيحيين برفض خدمة الجيش . وقد قال كلسوس إنَّ عملهم هذا يعرض حياة الامبراطورية للخطر ، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حدا جميع الشعوب حذوهم ؟ لا يؤدي ذلك إلى اكتساح البربر هذه الامبراطورية؟ أما أوريجانوس (Origène) ، فقد دافع عن هذا الموقف اللاعنفي للمسيحيين ، متذرّياً إلى أنَّ المسيحيين لا يطمحون إلى انقسام المجتمع ، ولا إلى مساندة بلد آخر ضدَّ بلدتهم ، وإنما إلى رفع جميع الناس إلى المستوى الأخلاقي الأسنى ، وحتى ، إن امكن ، إلى انتزاع رغبة الناس في اضرام الحروب . وفي هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً إنهم بعيدون كل البعد عن تهمة تمزيق الامبراطورية ، لأنَّ الواقع يثبت أنَّ المسيحيين هم أحسن رعايا الامبراطورية وأفضلهم على الإطلاق . و مبادئهم هذه ، لا تجيز لهم القيام بأيّ عصيان مسلح أو شغب مخلٍّ بالأمن ، و هم لم ولن يتآمروا ضدَّ السلطة ؛ بل على نقىض ذلك ، يقدمون الصلوات إلى الله تعالى ليحفظ الامبراطور ويظليل بعمره وينتهي بحكم ملؤه السلام والاستقرار . انهم لا يهتمون بالسياسة ، وليس لديهم أية طموحات نحو قوة أرضية ، و هم ببساطة يرغبون في أن يُركوا سلام . فقد قال سيدهم : « ملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت ملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون . »¹⁶ كما أعلن ترتوليانوس من شمال إفريقيا بتصريح العبارة ما يلي : « لقد بردَّ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحاً في سبيل المجد الأرضي أو المراكز ، ولسنا مضطربين إلى تشكيل اتحادات مثل هذا الغرض ، وليس ما هو أزيد من العمل السياسي بالنسبة إلينا ، لأنه مغایر لمبادئنا ، و نحن لا نعرف إلا بدولة واحدة ، و هذه الدولة الواحدة هي العالم بأسره . »¹⁷

لم يكن المسيحيون من السذاجة بحيث يفترضون أنَّ المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية و اتباع مقاييسها ، و لا أنَّ شرور تلك الحضارة ، يمكن إلغاؤها بالوسائل

السياسية ، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد و الجور المستشري فيها . كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام الاجتماعي و الاقتصادي الوثني ، بل بالحري ارادوا أن يبيّنوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل : تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود ، جماعة ذات معايير مسيحية يطبقها شعبٌ مسيحيٌ أصيل .

أثبتت المسيحية جدارتها بالأمتداح من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها . هذا ، وقد أرسست لنفسها نسط حياة مغاييرًا ثابتاً لحضارة ذلك الزمان التي عرفت بانحرافاتها الجنسية و فجورها ، و غطرستها المستحللة ، و مبارياتها و العابها الدموية ، و موقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد و العمال و الخدم الذين يخدمونها . و علينا الانتصর أن المسيحيين القدماء كانوا مثاليين كاملين ، و لكنهم كانوا ، على الأقل ، يطمحون إلى الكمال . لقد أقاموا وزنًا كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة و الاستقامة و الحنون و الشفقة ، و قد عقدوا العزم على أن يحبوا جيرانهم كأنفسهم . لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب و نقائص ، لكنهم ، بخلاف باقي الناس ، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم و مواجهتها و محاولة معالجتها . إلا أن هؤلاء المؤمنين الأوائل ، في شمال إفريقيا ، كانوا يعرفون أنه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام و اتباع المسيح عن قرب أكثر من ذي قبل .

كلما اشتدَّ الظلام ، بانت النجوم و ضاءَ لامعة . هكذا ضاءَت محبة المسيحيين و أماناتهم وسط عالم معوج و ملتو . لم يشتكي المسيحيون يوماً و لا تأتفقا . لقد رفضوا أن يتورطوا في المنازعات ، و كانوا مستعدين دائمًا لمساعدة كل محتاج . و عندما كنت تلتقيهم في الشوارع ، كنت تراهم يتحدون ياخذون عن أفرادهم و عن أحزانهم . كانوا يُعزِّزُون بعضاهم بعضًا ، و يصلون بعضهم لأجل بعض . و عندما كانوا يسيرون إلى أعمالهم ، كانوا يترنمون بترانيم روحية محية إلى قلوبهم المشتاقة . كانوا يشكرون الله في كل حين و على كل شيء ، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم . كانوا يشعرون بأنهم شعب الله الخاص و كانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة : « فالبسا كمحترى الله القديسين المحبوبين احساء رفافات و لطفاً و تواضعًا و داعمة و طول أيامه . محتملين ببعضكم بعضًا و مسامحين ببعضكم بعضًا إن كان لأحد على أحد شکوى . كما غفر لكم المسيح هكذا انتم أيضًا . و على جميع هذه البسا المحبة التي هي رباط الكمال . »¹⁸

لقد اهتموا فعلاً أحدهم بالأخر . و كتب الرسول بولس إلى أخ مؤمن بخصوص أحد عباده اللصوص الهاربين قائلاً له إنَّ هذا العبد قد اعتنق المسيحية لسوء ، و حنه على لزوم مسامحته و قوله « لا كعبد في ما بعد بل أفضل من عبد أخًا محبوبًا . »¹⁹ إنَّ هذه النظرية التي كان المؤمنون ينظرون بها إلى الحياة لم تمت أبداً بنهاية العصر الرسولي . فقد كانت كل من پريتوا السيدة ، و فيليستاس خادمتها ، تتقاسم الإيمان المشترك ، فعاشتا و ماتتا سوية ، وكانتا تشجعان و تطمئنان واحدتهما الأخرى ، و ذلك على المدرج الروماني بمدينة

قرطاجة . هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية و التحامها ، إذ كان بإمكان الارامل واليتامى و المسافرين البعيدين عن بيونهم و ذويهم أن يجدوا الدفء و الترحيب الملؤمين محبة و عطفا ، حين تستضيفهم العائلات المسيحية . و حتى الوثنيون و اليهود في الجوار ، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون . ولم يكن أحد يعرف شيئاً كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم .

كان الرزق و الدعاوة و غيرهما من الرذائل القبيحة تفرز القبح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنباً إلى جنب معهم ، و كان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف و شقاء لا يُحتمل . لقد جعل القانون عملية الطلاق امراً سهلاً ، و كان يحصل لأنفه الأسباب ، الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحبة تقريباً . كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك و عدم الثقة ، و كان العديد من الأولاد لا يعرفون أين أبواهم ، و لا يعرفون حتى من هم أبواهم . أما حياة الجماعة المسيحية ، فكانت تختلف اختلافاً جذرياً . فالمسحيون كانوا يحترمون الزواج . و كانوا يتحدثون مطلقاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته ، و التي يشبهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح و الكنيسة : « ايها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ... ايها الرجال احبو نساءكم كما احب المسيح ايضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ». 20

لقد جاءت المسيحية بمبدأ جديد لا و هو مبدأ الإخلاص و الولاء ، إلا أن إخلاص الزوجين أحدهما للأخر ، تجاوز جميع الولاءات الإنسانية الأخرى . لم يكن الطلاق اختيارياً عند المسيحيين ، فلقد قال المسيح : « و يكون الاثنان جسداً واحداً إذا ليسا بعد إثنين بل جسد واحد . فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان ». 21 تعلم القرىنان أن يهتما و يقدراً أحدهما الآخر ، و بذلك قصاري جهدهما ليعيشَا بتألف و انسجام . و آمنا بأن المقصود من القرآن هو المساعدة المتبادلة بين القرىنين ، و التشجيع في الأمور الروحية و العملية . و جداً أنه حينما لا يألو أيٌّ منهما جهداً في حب الآخر و مساعدته ، فإنَّ علاقتهما الزوجية تنسامي باستمرار و تصبح نفيسة و غالية . قال ترتوهيانوس : « يا لروعه الاتحاد الزوجي بين مؤمنين ذوي رجاء واحد ، و عهد واحد ، و تهذيب واحد ، و أسلوب حياة واحد . إنهمَا أخ و أخت ، اثنان من خدم الرب ، روح واحدة و جسد واحد ... يصليان سوية ، و يصومان معاً ، يعلمان و ينصحان و يدعمان واحدهما الآخر . يذهب كلماهما إلى كنيسة الله ، و لماذة الرب . يتقاسمان المحن و الاختهارات مع الآخرين ، و النمو الروحي . فلا يكتم واحدهما شيئاً عن الآخر ، ولا يتجربه ولا يُغضبه . يزوران المرضى بسرور ، و يقدمان الاحتياجات للمعوزين و يتصلقان بسخاء ، و لم يكونا في حاجة الى إخفاء رمز الصليب و لا الى كبح الفرح في المسيح و لا الى إعاقة بركانه ، يرغمان بتسابيح و مزامير معاً ، و المسيح يُسرّ بما يراه و يسمعه منها ، و ينحهما سلامه . و عندما يجتمع اثنان او ثلاثة باسمه ، يكون الرب في وسطهم ، و حينما يكون الرب لا يستطيع إيليس ان يأتي ». 22

فحينما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد ، فهو يعني ضمناً حلَّ الروابط القديمة . فالزوجان كمسافرين يحرمان امتعهما و يودع كل منهما أبويه و البيت الذي نشأ فيه وترعرع . و بالخادهما يتأسس بيت جديد ، و مهما كان هذا البيت متواضعاً ، فإنهم يفتنهان بمحبة المسيح . تقول كلمة الله عن الاتصال والانفصال : « من أجل هذا يترك الرجل أباه و أمه و يتتصق بأمراته . ويكون الاثنان جسداً واحداً ». ²³ إن العادة القديمة في انتقال الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة محفوفة بالصعوبات و المخاطر ، ولكنَّ كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير ، إذ يجب القيام به بطريقة ودية وعاطفية . فالآثارب المسنون يتوجب احترامهم و تقديرهم ، و اذا دعت الحاجة إلى إعادتهم ، ينبغي عندها تقديم مثل هذه الإعالة . و لكن ، على الآباء الآيتين يتوّعوا من أولادهم الذين تزوجوا طاعنة عمياء و إذعانًا كاملاً بعد زواجهم . فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته ، وعن زوجته ، وطبعاً ، عن أولاده في ما بعد . و لا يمكن للزوج في أي حال من الاحوال ، و لأي سبب من الاسباب ، أن يتهاون بمسؤولياته و واجباته . و حال الأولاد كحال والديهم ، فبعد ان يكسروا يتركون هم بدورهم ذويهم و بيوت آبائهم ، و يتزوجون ليبنيوا لأنفسهم عشهم الزوجي المخاص بهم . و هم يعلمون علم اليقين أنَّ بإمكانهم الانكال على إعانة والديهم ووجههم لهم ، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء المحبون لأجلهم ، في وقت احتياجاتهم .

و النساء بشكل خاص ، سُرُرنَ بالتقدير الذي صار من نصيبهنَ في الجماعة المسيحية . كنَّ قبلًا مبعادات تماماً عن العديد من الديانات السرية ، كما أن دورهنَ في ديانات أخرى كان يُشير الشبهات . أما المرأة المسيحية ، فقد كان لها مقامها و امتيازاتها الجديرة بالاحترام ، و كانت موهابتها و أحلامها متنفسات و مخارج مفيدة و نافعة ، خصوصاً في ما يتعلق بالتوجيهات و الارشادات التي كانت تقدمها للشابات و الاطفال . فقد كان هناك دائمًا ارامل ويتام يحتاجون إلى العناية ، فضلاً عما يُقدم للمسافرين من حسن ضيافة و عنابة . و كان الزوج يستطيع أن يترك كثيراً من المهام و المسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة ، و كان يقدر مساعدتها اللطيفة و نصائحها السديدة . وقد أشار أغسطينوس إلى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك أمة له ، و لا أخذت من رأسه لتحكم به و تستعبده ، ولكنها أخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة المحبوبة ²⁴ . فكم هو جميل أن يتذكر الزوجان من أن يصليا معاً لأجل كل ما يهمهما أو يختص بحياتهما ، و يتتهجان معاً عندما يستجيب الله لهذه الصلوات . « امرأة فاضلة من يجدها لأنَّ ثمنها يفوق اللآلئ » ، بها يشق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنية ، تفتح فمها بالحكمة و في لسانها سُنة المعروف . ²⁵ كانت برسكلا نسوجاً مثل تلك النسورة ، وهي وأمثالها مذكورات في صفحات الكتاب المقدس ، و كان هناك كثيرات مثلها في إفريقيا الشمالية ²⁶.

الأولاد أيضًا ، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية . فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم : « دعوا الأولاد يأتون إلىّي و لا تمنعوه لأنّ مثل هؤلاء ملوكوت الله . »²⁷ و غالباً ما كان ايمان الأطفال العادي البريء دافعاً للأبوين ، و حافظاً لهم للعبادة . و عندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس ، كانوا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم « بتأديب الرب و اذاره . »²⁸ كان تيموثاوس واحداً من أولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم ، فكتب له بولس قائلاً : « إذ أذكر الأبناء العديم الرياء الذي فيك الذي سكن اولاً في جدتك لوطيس وأمك أفيكي و لكنني مومن أنه فيك أيضًا . » و يتبع بولس الرسول متحدلاً إلى تيموثاوس : « وإنك منذ الطفولة تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكمك للخلاص بالآيات الذي في المسيح يسوع . »²⁹

كان مثل هؤلاء الأولاد أحراضاً في تكريس شبابهم و بذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملوكوت الله ، مع مباركة ذويهم و تشجيعهم . و بسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالع ، فقد النصقوا بالأول و رفضوا الثاني . لم تكن لهم ذكريات مخجلة عن ماض حافل بالمارسات الشهوانية ، و لا ندموا في يوم عن سين ضائعة . و لم يكتسبوا في يوم من الأيام تلك الأخلاق الإنسانية و النزقة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا يفكرون إلا في أنفسهم . لقد وقروا على أنفسهم ذلك الصراع المريض الذي يعيش كل انسان يأتي إلى المسيح في كهولته راغباً في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة . أمّا أن يولد الإنسان في عائلة مسيحية ، فهذا امتياز مدهش جميل ، و كذلك عودة الإنسان إلى البيت المسيحي الموحد الذي تسوده المحبة و المودة ، بعد يوم شاق في المدرسة او في السوق او في الشارع او في المدينة ، فإن ذلك لا بدّ من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور و الغبطة .

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضاً ، ليعملوا بجد و يبذلو عرق الجبين في كسب أرزاقهم ، و هكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين منّ هم أقل منهم حظاً ، خصوصاً أولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم ، بسبب المرض او العجز .³⁰ و المسيحية تعتبر العمل واجباً طبيعياً على كل اتباعها . كان الرسول بولس يكسب ثقته من طريق عمله اليدوي ، و في صناعة الخياام . و يظهر ان الاعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الاعمال المخربة .³¹ وقد كتب بولس : « إذ انت تعرفون كيف يجب ان تُمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبراً مجاناً من أحد بل كنا نشتغل بتعب و كدّ ليلاً و نهاراً لكي لا نتقل على احد منكم . »³²

في الواقع ، بدأ كثيرون من اعتنقوا المسيحية ، و لأول مرة في حياتهم ، بزاولة عمل شريف و كما يقول الكتاب المقدس : « لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحربي يشعب عاملًا الصالح بيديه ليكون له ان يعطي من له احتياج . »³³ نظرت الكنيسة المسيحية بازدراة و استنكار الى أولئك الاصحاء القادرين على ان يعملوا ، و لكنهم كانوا

مهملون . فكتب بولس الرسول بهذاخصوص قائلاً : « فإننا أيضًا حين كنَا عندكم أوصيَاكم بهذه إن كان أحد لا يرسد ان يستغل فلا يأكل .»³⁴ فالسيحيون هم من يكونون « مستعدين لكل عمل صالح ، »³⁵ وبالاخص اذا كان عليهم إعاقة من يعتمدون على ما يجذونه من معاش . « وإن كان أحد لا يعتني بخاصةه ولا سيما اهل بيته فقد أنكر الآيات و هو شر من غير المؤمن .»³⁶ لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن والقرى والأرياف ، ولكن من لم تتعنّه كبراؤه من ثلوث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة . ولم تكن الأعمال الشاقة والأوضاع الاجتماعية المتدنية تعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد ، أرسل الكثير من الناس إلى المناجم ، وكان المؤمنون الذين يسخرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك ، وهم يجدون رب دائمًا ، ويسخرون على الرغم من انهم في وضع لا يحسدون عليه . وكانوا يؤمّنون بأن الله هو الذي ارسلهم إلى هذا المكان الوضيع ليكونوا نورًا يضيء فيظلمة كرسل المسيح ، وليس كسجيناء للإنسان .

و مع هذا ، فقد كانت هناك أعمال لا يقبل بها المسيحيون . فهم لا يقبلون مثلاً ان يعملا كمجاهدين . و المجالد كما أسلفنا ، هو شخص يقاتل حتى الموت لإماتع الجماهير في الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة في ذلك العصر الذي تميز بالترويع والترهيب ، سواء أكان هذا الترويع والترهيب ضد الإنسان نفسه أو ضد الحيوان على حد سواء . كذلك لم يكن المؤمن يقبل ان يشارك او يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية ، بسبب ما يعرض هناك من مشاهد بذرية ولا أخلاقية - اساطير وخرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تمثل بقوع ديني على رأى الجماهير الفاسدة . والسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية او علم التجيم ، او آية مهنة تربط بعادة الأوثان ، كصناعة المصايح وأكاليل الزهور وغيرها من الزخارف والخليل التي تخص المعابد . ولم يكن ممكناً للمسيحي ان يقبل العمل كمعلم في مدرسة لأن عليه ان يعطي دروساً تتنافي مع مبادئه المسيحية . فجدول الضرب مثلاً لم يكن في ظاهره مؤذياً ، غير ان حروف الهجاء كان يتم استظهارها وحفظها غبياً من طريق انشودة ترقل فيها اسماء الآلهة الوثنية .³⁷ كذلك كان المسيحي يرفض ان يكون قاضياً حيث انه قد يطلب منه ان يحكم بسفك دم . و المسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محامياً حيث انه قد يُطلب منه ان يدافع عن رجل مذنب والترافق لصالحة ، او قد يُطلب منه اتهام رجل بريء يتم تحريره . و لا يستطيع المسيحي ان يكون خطيباً عاماً خصوصاً اذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملق والمداهنة والاطراء والأكاذيب ، و ذلك لتجميد حاكم مجرد من المبادئ الخلقية ، او للثناء على احد المقربين الوثنيين . و قد تخلى رجال كثيرون عن اعمال كانوا قد باشرواها ، لأنهم لا يستطيعون أن يوقفوا بينها وبين ضمائركم او مبادئهم المسيحية ، واكتفوا هؤلاء بأشغال اكثراً تواضعاً . فالغنى ، و الوسيلة التي تؤمن الحصول عليه ، ليسا نهاية

المطاف . فالمواعظ الكنسية التي حُفظت خلال القرون الأربع الأولى للميلاد ، تُخبرنا بأنَّ الكنيسة كانت تتحثَّ المؤمن ذا الإمكانيات المتواضعة على أن يقتتن بدخله المحدود . أمَّا ذوو الدخل الكبير ، فعليهم أن يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين . وقد طلب من التجار أن يتأكدو من ثبات اسعار عادلة ، و ان لا يطلبوا أكثر من هذه الاسعار العادلة من المشترين ، وكذلك الآي قبلوا بأسعار ادنى منها .

وخلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، اعتقاد المسيحيين ان خدمة الجيش تناقض مع اليمان المسيحي . و بالطبع فإن هذه الخدمة توفر لهم في استعمال العنف والاضطرار إلى سفك الدماء ، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح .³⁸ فهل بالأمكان ان تتصور الرب يسوع المسيح بقتل انساناً اذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية ؟ ولا حتى ، يمكن لأتباعه ان ينفذوا أمراً كهذا . قال ترتوبيانوس : « ان تجريد الرب لبطرس من سلاحه ، جرد الجنود من احزمة اسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعداً ». ³⁹ قد أعطى ترتوبيانوس أسباباً أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش . فأولاً : ان مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت أمرة سيد غير سيد المسيح ، و ثانياً ، فإنها تتعارض مع الوفاء بواجباته مع عائلته . و اكثر من ذلك ، فإن أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في ان يشاركون في الدعاءات والابتهاles الدينية المقدمة للألهة ، و ذلك مع كنائسهم . كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود الملتحقين بالجيش ان يتصرفوا أو ان يتسرعوا في معارضه ذوي السلطة . و لم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة ، بل كانت تشجعه على البحث عن عمل آخر حالما يتحرر من قيود عمله السابق . و هذا لم يكن يسبب أيه صعوبة ، إذ إن الدولة يمكنها أن تملأ مرتكزه و رتبته بشكل آخر . و عندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية ، فذلك لن يؤثر سلباً في الدولة ، لأنه بإمكان الولاية ان تملأ مرتكزه و رتبته بشخص آخر من دون أيه صعوبة تذكر . هذا ، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوعين من الوثنيين في القوات الامبراطورية . و من جهة أخرى ، لم يكن المسيحيون يُجندون ضد إرادتهم ، لذلك فإن هذا الأمر لم يُثر أيه إشكالات او بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية ، في شمال افريقيا .

و عليه ، نرى ان المسيحيين بدأوا يشكلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني ، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافع لنبقى ، و هي داخل غلاف هذه الامبراطورية الوثنية القوية . و ما كان المسيحيون أن يتصوروا في تلك الأيام أنّ وقتي سيأتي ، يمكن فيه مسيحي من اعتلاء عرش هذه الامبراطورية ، و من ثم يُسْنَ قوانينا تفرض مقاييس و مبادئ مسيحية على العالم المتحضر بأسره .⁴⁰ و مع ذلك كانت الأجيال المسيحية الأولى ، في صلاحها الديوب و المستقيم ، سبياً في احترام جيرانهم و معارفهم ، وباعثاً على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل .

ملاحظات

Latourette Vol. I. p. 251 - 1

Latourette Vol. I p. 252 - 2

3 - اعمال 42:2 47 -

4 - اعمال 13:5 14 -

5 - اعمال 8:1 8:1

6 - مرقى 12:12 . راجع أيضاً أفسس 4:15 - 2:15 .

كانت المسيحية أول ما تأسس في مكان ما ، تقوم ب نفسها بأفضل عمل إرسالي . كانت تنمو بشكل طبيعي من الداخل . و كان مجرد حضورها يجذب الناس . كانت نوراً يشع في الظلام و ينير هذا الظلام . و مع غياب الجماعيات الإرسالية المتخصصة لهذا العمل المحدث ، كانت كل كنيسة محلية بمثابة جماعة إرسالية ، و كان كل مؤمن مسيحي مرسلأً و صاحب قلب مضمون بمحبة المسيح ، و يسعى جاهداً لردع الناس للطريق نفسه .

(Schaff HOTCC Vol. II p. 20)

ان الامبراطور الوثني يوليان (Julien) (361 - 363 م) عزى شعبية المسيحية مع انتشارها السريع في بدايتها ، الى ثلاثة أسباب : اللطف ، الأمانة ، و الاهتمام بالموتى (تدبر دفن لائق بالنسبة الى الفقراء) .

(Schaff HOTCC Vol II p. 381)

7 - أفسس 9:6

8 - أفسس 8:9 و 10:2

9 - Hamman 134 (Sermon 356:7) - 9

10 - كورنثوس 20:7 - 22

11 - فلبي 4:11 ، 13 - 11 ، 13 - تكوين 39:20 - 23

12 - غالاطية 3:28

Schaff HOTCC (Vol. II p. 351); *Martyrium* 3 (ANF Vol. 1 p. 305) - 13

14 - يوحنا 17:15

15 - يعقوب 1:2 - 4

16 - يوحنا 18:36

17 - Apologeticus 38 - 17

18 - كولوسي 3:12 - 14

19 - فليمون 16 و 17

20 - أفسس 20:25 و 22:5

21 - مرقى 9:8 و 10:10

(HOTCC Vol. II p. 364) راجع ترجمة Schaff *Ad Uxorem* 2:8 - 22

23 - أفسس 31:5

24 - Schaff HOTCC Vol. II p. 363

25 - أمثال 10:31 ، 11:26

26 - أعمال 18:26

- 14:10 - مرقس 27
 4:6 - أنفس 28
 2- تيموثاوس 1: 5، 15:3 - 29
 30 - اعمال 20: 34 و 35
 31 - اعمال 18: 3
 32 - سالونيكي 7: 3 و 8
 33 - أنفس 28: 4
 34 - سالونيكي 2: 10
 35 - تيطس 1: 3
 36 - 1 تيموثاوس 8: 5
 37 - لقد اعتبر ترتوبيانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني ان يلتحقوا بمدارس وثنية : وإلا سيشيشون أميين . بالمقابل ، سيساعدونهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسوه والتمييز بين الحق والباطل . فنفي المدرسة ، يكون الفتى المسيحي « في أمان ، كمن يقبل السمّ من دون أن يشربه » .
 38 - مثلاً ، متن 39:5 ، 44 ، 52:26 *De Idolatria* 19 - 39 : بالإشارة الى متن
 39 - 40 - مثلاً ، لقد أصدر الإمبراطور قسطنطين في العام 315 م قانوناً يحظر فيه وسم العبيد على الوجه . وفي السنة التالية ، سهل عملية الإعناق اذا جعل لها شرطاً واحداً : ان يرُقَّع سيد العبد على شهادة بهذا الخصوص ، وذلك عوضاً عمماً كان يدور من قبل من احتفال بالإعناق في حضور الحاكم ومساعده . كذلك شرع الإمبراطور لمنع الأهل من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم .
 (Schaff HOTCC Vol. II pp 350, 370)

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى ، يمكن الرجوع الى المصادر الثانوية التالية :

- Green pp. 134 - 199, 234 - 285; Bainton pp. 71 - 110
 Neill pp. 43 - 44; Latourette Vol. I pp. 244, 261 - 265, 291
 Schaff HOTCC Vol. II pp. 334 - 386; Foakes - Jackson pp. 236 - 239.

الفصل السادس

الجَمَاعَةُ الْمَسِيحِيَّةُ

بعد أن سمع المسيحيون الجدد بعض الأمور التي تتعلق بحياة المسيح ، واحتبروا بأنفسهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم ، انكبوا بشوق و حماسة شديدين على دراسة ما كتبه أتباع المسيح الأوائل . اولئك الذين رأوا المسيح و سمعوه و عاشروا معه ، ماذا يقولون عنه ؟ و كيف وضع كل من بطرس و يوحنا و يعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسة ، و ذلك في المناطق والأشخاص الأخرى من عالم البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانوا يعيشون و يسكنون ؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون مختلف في الواقع ، عما كان عليه الدرج الملفوف حول القبض او المسلة الخشبية ، و الذي كان يستعمله اليهود ويعلمه معلموهم منذ اجيال طويلة . فالمسيحيون في الحقيقة ، كانوا الرواد في استعمال الكتب المكونة من صفحات مكتوبة باليد و مدمرة بواسطة الحياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها و استعمالها كمرجعية عند الضرورة .

انكبت مجموعة من الرجال و النساء على قراءة ما كتب عن سير المسيح و رسائل الرسل التي اعترضت سبلهم . فالقادرون منهم على القراءة بشكل جيد نسخوا باعتناء شديد ، نسخة من هذه المخطوطات ، او طلبوا من آخرين ان يقوموا بذلك . و في بداية القرن الثالث ، لم تعد اللغة اليونانية اللغة العالمية المستعملة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذا طلب اولئك الذين لم يتمكروا من فهم لغة العهد الجديد الأصيلة تلك ، توضيح معانيه و مفاهيمه . إلا انه كانت هناك ترجمة باللاتينية ، و كانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقفة .

كانت كلمة الله مصدرًا مشجعاً للجماعات . وقد شجع بولس تيموثاوس في أفسس لكي يسير في الاتجاه عينه إذ قال له : « إلى أن أحجز اعكف على القراءة و الوعظ و التعليم . »¹ وكتب يوستينوس الشهيد (Justin Martyr) تقريراً من روما في العام 150 ميلادية مفاده ان «اجتماعات الكنيسة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجله الانبياء من كتابات و ما كتبه الرسل ». ² ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد و الفقرات ، و بعد ذلك يصلى الجميع و يعبدون معاً . وبعد خمسين سنة ، كتب ترتوثيانوس : « كان يطلب من كل عابد ان يقف ظاهراً امام الجماعة و بحسب قدرته يسبح الله ، و ما يرتله او يرثمه يكون إما مأخوذاً من الكتاب المقدس ، و إما من تأليفه الخاص ». ³ و ما استطعنا ان نعرفه من العدد القليل المتواافق لدينا من التراجم التي كانت تُرْتَل في أثناء العبادة ، يُظْهِر أن الإشاد كان مأخوذاً من المزامير المترجمة الى اليونانية او اللاتينية بشكل عام .

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبارين رئيسين ، الأول والأهم هو الاحتفال بعيد القيمة المجد الذي يتذكرون فيه موت مخلصهم وقيامته . أما الاحتفال الثاني فكان يجري في يوم الخميس ، أي الخميس يوماً بعد قيامة المسيح . إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيد القيمة و يوم الخميس ، كانت ترفع بينما يكون المؤمنون وقوفاً عوضاً عن ان يكونوا راكعين⁴ . الى هذا ، كان هناك حدث آخر هام اختلفت به الكنيسة أسبوعياً ، الا وهو يوم الرب . فاستناداً الى ما كتبه ترتوهيانوس ، جُعل اليوم الأول من الأسبوع - أي يوم الأحد - وفي هذا اليوم يرتاح المؤمنون من اعمالهم و مشاغلهم الدينوية . وأصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات المسيحية ، حيث تقام صلوات جماعية و أحاديث للمؤمنين في أمور الله . قال ترتوهيانوس في هذا الصدد : « لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال ، وخصصناه لنفرح فيه » .⁵

وقد اردف ترتوهيانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني . وهم يجتمعون دائماً في مساء أول يوم في الأسبوع ، كما كان يفعل نظاروهم في تراس حيّث وقامت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر⁶ . وببدأ الأحد ، بحسب العادة المتبعة آنذاك ، عند الغسق . وعليه ، فإن الاجتماع كان يعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم « ليلة الأحد » . فكانت القناديل تضاء ، و كانت تستحضر إلى ذهان الحاضرين ، تلك الصورة البهية الرائعة ، وهي صورة العشاء الأخير الذي شارك فيه رب يسوع تلاميذه الاثني عشر ، « في الليلة التي أسلم فيها » .⁷ وفي أيام الاضطهاد ، كان من الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً ، بينما فضّل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قبيل الفجر أو في صباح اليوم التالي .

لم يكن العشاء الرباني اجتماعاً شعبياً عاماً ، ونادرًا ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجهة لغير المسيحيين . فالعشاء الرباني ، في الواقع ، لم يكن معداً إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب ، ليذكروه خلال هذا الاجتماع مجحبة ، و يقتربوا أحدهم من الآخر بإيمان مشترك . الاغنياء والفقراء ومالكو الأرضي والعمال ، السادة والخدم ، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة ، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين ، او في قاعة خاصة فُرِّزَت لها هذا الفرض ، وهم يأخذون أماكنهم بشوق وترقب ، لما سيمنحهم إيه الرب حين يرفعون اليه قلوبهم بالصلوة والدعاء ، و البركات التي سيهبها لهم لينقلوها إلى الآخرين .

كانوا إلى هذا يتذكرون أيضاً ، كيف أنَّ الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ ، جلس وأكل معهم العشاء الأخير . و كانوا يعبدون إلى ذاكرتهم كلمات الرب عندما أخذ خبزاً وبارك وكسر واعطاهم قائلاً : « هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم . اصنعوا هذا لذكرىي » .⁸ لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم ، فكسروا الخبز وأخذ كل واحد منهم قطعة منه . ثم تذكروا أيضاً كيف أخذ سيدهم الكأس و قال : « هذه الكأس هي المهد الجديد بدمي الذي يُسْفك عنكم » .⁹ وعندما نقل المؤمنون الكأس من شخص إلى آخر ، وهكذا ، حتى رشف الجميع

منه رشفة رشفة . و اخيراً فكروا في ما قاله الرب لـ تلاميذه عندما اوشك ان ينهي عشاءه الاخير معهم : « وصية جديدة انا اعطيكم ان تحبوا بعضكم بعضاً . كما أحييكم انا تحبون انت ايضاً بعضكم بعضاً . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذى إن كان لكم حب بعضاً بعضاً .¹⁰ » فشعروا آثنتي في ما بينهم بشعور مفعتم بالنشاط مليء بالحبوبة ، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهم برباط قوي ثابت لا يتزعزع .

خبرنا ترتوهيانوس في اواخر القرن الثاني ، و كذلك اغسططيانوس في القرن الرابع ، ان الزوار الوثيين والمؤمنين غير المعمدين ، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذلك العشاء الريانى . و في جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك ، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة ، حيث ان هناك اسراراً في هذه الطقوس والشعائر لا يمكن اعطاؤها إلا للذين كانوا في سلام مع الله .¹¹ كان المؤمنون يتناولون الخبز و الكأس باحترام و توقير عظيمين ، لأنهما يرمزان الى جسد المسيح و دمه . و يخبرنا ترتوهيانوس ايضاً أن الذين كانوا يشاركون بذلك العشاء الريانى ، اهتموا جداً بألا تسقط كسرة خبز إلى الأرض ، و ألا تراق قطرة واحدة من الشراب . و عند الانتهاء من اجتماعهم ، كانت تؤخذ بعض الكسر من الخبز الى دور أولئك الذين بلغ بهم المرض او الضعف او كبير السن حداً منعهم من حضور الاجتماع .

بعد الانتهاء من كسر الخبز ، كان المؤمنون يدعون الى عشاء مشترك يسمى « وليمة المحبة » (Agapé) . وصف ترتوهيانوس هذه الوليمة هكذا : « عيدنا هذا ، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني المحبة في اللغة اليونانية . و في هذه الوليمة لا يُسمح بأي فساد أو خسارة في التصرف . مجلس لتناول الطعام ، ولكن ليس قبل ان تتدوّق اولاً نكهة الصلوات الى الله ، فنأكل بما فيه كفايتنا ، و نتحدث بعضنا الى بعضنا الآخر ، و نحن نعلم أن الله يستمع الى كل ما نقوله .¹² »

كان المسيحيون يأتون بعطياتها ما أنعم به الله عليهم من خبز و فاكهة و غير ذلك ، كل حسب استطاعته ، و كانت هذه الهبات تشكل أساساً للوليمة العامة . أما الرائد من الطعام ، إضافة الى النقود التي يقدمها الواهبيون ، فقد كانت تُعطى للمحتاجين من اعضاء الكنيسة ، كالآيتام والأرامل الذين ليس لهم من يعيشهم . و كذلك الحال بالنسبة الى الذين يعانون جروحًا أو أمراضًا بالغة الخطورة ولم يعودوا يقوون على العمل ، أو الذين فقدوا موارد الرزق واسباب العيش وسبله ، بسبب إيمانهم بال المسيح ، وهم يجتازون أزمات اذ يبحثون عن عمل آخر . على أن قسماً من المال كان يُدخل لتجهيز متطلبات الضيافة التي تقدم للمسيحيين المسافرين ، أو يُعطى لأولئك الذين سُرقت أموالهم أو نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء . أو لدفع نفقات جنائزات الموتى الفقراء من اعضاء الكنيسة . و احياناً نقرأ عن مال استعمل لافتداء مسيحيين سُجنوا بسبب إيمانهم ، أو أرسلوا في عقوبات تتراوح بين الاشتغال الشاقة والعبوة . و في بعض الأحيان كانت تُرسل مساعدات الى كنائس في أماكن أخرى خلال ايام المجاعات او الضيق و الحرمان . و هذا ما أكدته ترتوهيانوس بقوله : « هذا ، كما يبدو ،

هو مخزوننا و رصيدها من اللطف . فنحن لا نصرف من رصيده هذا المال لإقامة احتفالات الأكل و الشرب ، و لا لإحياء حفلات اللهو المبذلة و الصاخب ، بل لإطعام الفقراء او دفنهما . كما نساعد الأولاد و البنات الایتام المحرومين . و كذلك العجزة المقصدين بسبب المرض ، او أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما لجوا من الموت في رحلتهم البحرية . او ندفعه فدية لأولئك الذين في الناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأنهم مسيحيون) ، او من أبعدوا عن الوطن الى جزر نائية او اودعوا السجون .¹³

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من اعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه ان يتبرع بها ، ولم يكن هذا التبرع إلزامياً ، كما أن هذه التبرعات لم تكون اجرأ او تعويضاً لما يقدمه للمتبرع او المتبرعة من بركات روحية . قال ترتوبيانوس : « ليس لأمور الله أي ثمن . مع ان لنا نوعاً من صندوق المال ، لكنه ليس لجمع أجور او اشتراكات رسمية او دينية ثابتة . كان كلّ منّا يتبرع تبرعاً صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر ، او في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه ، ويتم هذا التبرع حسب إمكاناته المالية ، كما أن هذا التبرع كان اختيارياً »¹⁴ و حيث عرفوا أنه « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ »¹⁵ كان المتبّرون مسؤولين للمساهمة قدر المستطاع ، وذلك بمحض تدبّر الله وإرشاده . كتب بولس الرسول : « كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن او اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله »¹⁶

لقد علم المسيحيون ان الممتلكات والمقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدبّر بالصلة ، و تدار بحكمة و رؤية و تعقل ، للحصول على هدايته تعالى و توجيهاته . وكل ما يحصل عليه الرجل او تحصل عليه المرأة من رب ، يجب استعماله بشرف وأمانة و من دون تناحر او تباہ . إنَّ الإنسان ليس إلا وكيلًا مُشرقاً مسؤولاً ، وسيكون عرضة للمحاسبة أمام كرسي الحكم يوم الحساب . و عليه ، يجب ان يصرف الإنسان عطايا الله بحدّر و تؤدة ، ولمصلحة مملكته جل جلاله .

و حتى الفقراء ، فإنَّ حالهم كحال غيرهم من الأغنياء ، فهم عُرضة ليحاسبوا أمام الله عن كل ما يحوزونه ، مهما كان متواضعاً . فهناك دائمًا من هو بمسيس الحاجة الى المساعدة ، و لم يُحرم أحد من امتياز خدمة المحرومين و من بركة جمع كنوز نفسه في السماء . فكل واحد يساهم « بما تيسر » بحسب طاقته¹⁷ أليست نعتبر من الفلسين اللذين اقتهموا الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع : « الحق أقول لكم ان هذه الأرملة الفقيرة قد ألت أثقل من جميع الذين ألقوا في火زانة . لأن الجميع من فضلتهم ألقوا . أما هذه فمن إعوازها ألت كل ما عندها كل معيشتها »¹⁸ كان هناك الكثير من الارامل في كنائس شمال إفريقيا اللواتي حذّرن حذو هذه الأرملة الفقيرة . لقد كان كنزهن قليلاً في هذه الدنيا ، ولكنها كان كبيرة في الجنة .

على أن مثاليات المسيحيين تخطّت حدود المادة الى ما هو أبعد من ذلك بكثير . فوصلت الى حد تكريس شخصية متفانية للغاية . لقد كرس الأفراد أوقاتهم و قواهم الجسدية و قدراتهم الأخرى للعمل الإلهي . فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن من طريقها ان يخدم الآخرين في

الكنيسة . أوضح العهد الجديد ذلك بالقول : « لتسكن فيكم كلمة المسيح بمعنى وأنتم بكل حكمة معلمون و منذرون بعضمكم بعضاً ». ¹⁹ وليس مرة واحدة فقط في الأسبوع « بل عظوا أنفسكم كل يوم ». ²⁰ كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع ، وكان من بينهم أناس حديثو الإيمان ما زالوا يتخطّبون في شكوك وأسئلة تحتاج إلى حل . كما كان بعض المؤمنين القدامى يُعانون آلاماً مبرحة : سيد فاس غليظ ، زوجة وثنية تتذمر و تشكو باستمرار ، زوج وثنى متبدّل متغطّرس ، و ربما مسرّض مزمن او عمى او شيخوخة . لقد كان على المسيحيين « افتقاد الستانى والأرامل في ضيقتهم ». ²¹ ومهما واجهوا من مشاكل وعقبات في البيت الذي يزورون أصحابه ، فهناك دائماً مصدر لا ينضب ولا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية : إنه محبة الله نفسه . فالله قرّب دائماً من يحتاج إليه ، وقد أوصي الكتاب المقدس المؤمنين قائلاً : « مصلّين بكل صلاة و طيبة كل وقت في الروح و ساهرين لهذا بعينه بكل مواطبة و طيبة لأجل جميع القديسين ». ²² وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلواتهم .

كان بإمكان المرأة ، بشكل خاص ، أن تعمل أموراً كثيرة ، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل ، وفي متطلبات الحياة الأخرى . كانت صديقات النسوة و جاراتهن يرحبن بهن في دورهن . و كُنْ دائمًا ، يترکن خلفهن انطباعاً طيباً للغاية . فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاها الله من زينة روحية عميقه في « زينة الروح الوديع الهداء » الذي هو قدام الله كثير الشمن . ²³ هي لطيفة عطوفة ، تصنّي جيداً و بكل أدب ، وهي إلى ذلك صديقة مخلصة . و مثل تلك النساء يكنّ بركة حيّلها ذهبن . كانت «مشهوداً لها في أعمال صالحة ... رَتَّ الْأَوْلَادَ ... أَضَافَتِ الْغَرِيَّابَ ، غَسَّلَتِ أَرْجُلَ الْقَدِيسِينَ ، سَاعَدَتِ الْمُتَضَبِّقِينَ ، اتَّبَعَتِ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ ». ²⁴ إنّ هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله ، ثُبَّلت و كأنّها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه . « يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمتناك او عطشاناً فسكنيناك . و متى رأيناك غريباً فآويتناك . او عرياناً فكسوناك . و متى رأيناك مريضاً او محبوساً فأتينا اليك ». فيجيب الرب يسوع و يقول لهم : « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر في قولي ». ²⁵

كان المسيحي قبل ان يسافر الى بلدة او مدينة أخرى ، يسأل اصدقائه إن كانوا يعرفون أحداً من تلاميذ المسيح او أتباعه في تلك الديار التي سيزورها . و بعد أن يزوره المؤمنون باسم أحد القادة او النظار في الكنيسة هناك ، أو موقع او مكان عمله ، كان المسافر يقصده حملما يصل الى المكان . فإذا لم يتمكن الناظر شخصياً من الاعتناء بالزائر ، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى . فالنزل او الفندق الصغير في تلك الأيام ، كان مأوى معروفاً للرذيلة والدعارة ، يكثر التردد اليه . لهذا لم يكن المؤمنون يُرسلون اليه . لقد كانت إضافة الغرباء واجباً ضروريّاً و عاملاً أساسياً مطلوباً من المسؤولين في الكنيسة . « لَأَنَّهُ يَجُبُ أَنْ يَكُونَ الْأَسْقُفُ (الناظر) بِلَا لَوْمٍ ... بِلِ مُضِيَّنَا لِلْغَرِيَّابِ ». ²⁶

ولكن ، بنمو الكنيسة ، اعتاد بعض المحايلين ، ان يستغلوا احياناً ، المسيحيين ولطفهم . ولنزع ذلك ، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء ان يتزودوا بكتاب تعريف موقع من أحد شيوخ الكنيسة . و حتى بالنسبة الى النظار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة او غيرها من المدن ، كان لراماً ان يعرف بهم ناظر آخر واحد على الأقل قبل ان يؤذن لهم بالدخول . فقط كبار القادة المشهورين ، لا يحتاجون الى شهادة او تعريف ، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم و سيرتهم عن الآيمان . و الرسول بولس يسأل في هذا المجال مازحاً : « أفتتدى ندح أنفسنا ، أم لعلنا نحتاج كفوم رسائل توصية اليكم او رسائل توصية منكم . أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة و مقروءة من جميع الناس . »²⁷

كان مسيحيو شمال إفريقيا الأولون يعتمدون من يهتدى الى الإيمان ، كما فعل يوحنا المعمدان ، و ذلك بتغطيس المهدى في الماء . و ترمز هذه المعمودية قبل كل شيء ، الى بداية تقىة متعشة حية ؛ أي أنها رمز موت الإنسان القديم و قيامه الإنسان الجديد ، زوال الخاطئ و ظهور الإنسان المبرر . لأنه كما يغسل الماء الجسم ، كذلك يعمل غفران الله على تقىة الضمير . و غالباً ما كان المسيحيون يعتمدون في الجداول و الأنهار و في بعض الأحيان يعتمدون في البحر . لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استُبيطت بعد ، لأنها لم تُعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد ، وقد شيدت خصيصاً لهذا الغرض ، و زُرُدت بدرجات تقود المرشح الى داخل الماء . هذا ، و إن بعض تلك البرك شيد بشكل يمكن اضرام نار تحت ارضيتها لتسخينها .

كانت المعمودية مناسبة عظيمة تُوقع الرهبة في النقوس ، و كان المقلدون على المعمودية يستعدون لها بالصوم و الصلاة . كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع ، ويتبع ذلك ، الابتعاد عن توافق ابليس وإغرائه . بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية الى الماء . وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء ، يُسأل عن مدى إيمانه . فيؤكد فتنه بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص و إصرار . ثم يغطس في الماء ، باسم الآب ، والابن ، والروح القدس . وفي بعض الأحوال ، إذا كان المرشح طاعناً في السن أو عاجزاً واهن القوى ، أو إذا لم يكن هناك مكان ملائم للغطس ، يمكن إجراء المعمودية بسبك الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب وباسم الابن ثانية ، وأخيراً باسم الروح القدس .²⁸

في زمن كتابة العهد الجديد ، كان أولئك الذين آمنوا يُعتمدون فور إعلان إيمانهم ومجاهرتهم به . ومثال على أولئك المؤمنين الوزير الإيسوي و كرنيليوس قائد المائة ، وليديا والمسجدان الفيلبي . فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشرارة ، و آمنوا بالرب يسوع المسيح . لقد قبل هؤلاء الرسالة بصدق و إخلاص و اعتمدوا فور قبولهم لها . كانت البشرارة في عهد الرسل مبشرة ، و عملها سريع و فوري ، و زخم هذا التبشير لا يطيق التأثير أبداً . لم ترفض الكنيسة ان تتحقق أمنية أولئك الذين رغبوا في إعلان إيمانهم أمام الملائكة مفتوح .²⁹ ولكن مع الوقت بات واضحاً ، وللأسف ، انه يمكن للإنسان ان يطلب العماد من دون ان يكون لديه مثل هذه الحواجز التقىة الخلوصة . و حتى في العهد الجديد نفسه ، نجد ان الساحر المشعوذ سيمون ، الذي كان إيمانه بكلمة الله ظاهرياً فقط ،

قد اعتمد كبقية المؤمنين . و لكن ، سرعان ما اتضح أن أغراضه كانت غير نقية ، و فهمه للإيمان كان مضطرباً و باطلاً . و نفهم من كلام بطرس لسيمون انه اذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديراً بها ، فهو وحده يتحمل الذنب و يستحق أن يعاقب على نصرفه .³⁰

كان من الفضول تحبّ مثل هذه الحالات الشاذة ، لذلك وجدت كنائس القرن الثاني للميلاد انه من الحكمة ان تؤجل المعمودية ، على الأقل ، حتى يนาوش كل من يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة ، و يفهمها بعمق . فبدأت الكنيسة تعطي دروساً نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية ، متأكدة في الوقت عيشه من أنهم قد بدأوا يدركون أهمية الخطورة التي يريدون ان يخطوها . و كان لهذا الأمر أهمية كبيرة في تلك الأيام ، حيث كان الإيمان بال المسيح والاعتراف به جهراً ، يكلف صاحبه أحياناً حرفيه أو حياته ؛ كما أن قوله في جماعة المسيحيين قد يكلف الآخرين حرفيتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شفب . قال ترتوهيانوس : « يجب ان يعلم المسؤولون عن المعمودية انه لا يجوز ان يجرروا هذه المعموديات من دون تبصر او رؤية ، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية ، لدرس حالة و شخصية كل مرشح للمعمودية بتأمّل . »³¹ وقد نصّح ترتوهيانوس بعدم تعميد أولئك الذين لم يلغوا سن الرشد بعد ، خشية ان يتعرّض إيمانهم للتجرّبة اذا ما واجهوا تجارب المراهقة و إغراءاتها ، فيجلبوا العار على اسم المسيح . و أضاف ترتوهيانوس يقول : « إنَّ اولئك الذين يستمعون الى كلمة الله ، عليهم ان يكونوا مشتاقين الى الحصول على المعمودية ، لأنَّ يطلبوا المعمودية بسرعة ، و كأنها حق لهم ، فالمشتاقون للمعمودية يشرّفونها ، أما اولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعاً ... إذا ، فالاول يشتق أن يكون مستحقاً لها ، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها و يعتبرها من حقه .³² »

و بحلول القرن الثالث للميلاد ، أصبحت فترة تحضير الأشخاص و تعليمهم و اختبارهم تتدّد إلى ستة أشهر ثم الى سنة ، و في بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار الى ثلاثة سنوات ؛ ان الوقت المفترض للمرشح يختلف من مكان الى آخر . فالكنائس الكبرى كانت تعيّن معلمين مختصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان . و كل من كان يُقدم طلباً ليتعمّد كان يُسأل أولاً لماذا يريد ان يتعمّد . و بعدها يتم الاستفسار عن تجارتة او مهنته ، فإذا كان عمله يُظهر تعارضًا مع الإيمان المسيحي ، كان عليه أولاً ان يتخلّى عن ذلك العمل قبل أن تُجري مراسيم معموديته . و بعد ان يتعمّد ، يمكنه ان يشارك في العشاء الرباني ، و أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة .

منذ البداية الأولى ، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطية خطيرة بعد معموديتهم . و هذا الأمر لم يكن بهم قادة الكنائس وحدهم ، بل ايضاً جميع المهتمين بسعادة اخوتهم و أخواتهم بال المسيح . و قد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يدلّ الآئمة الى طريق التوبة و الرجوع الى الله . كتب الرسول قائلاً : « إن انسين انسان فأخذ في زلة ما فاصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظرًا الى نفسك لثلا تجربت أنت أيضًا . »³³ فإذا ما وجد المسؤولون أية علامة من علامات التوبة الحقيقة و العزم

على الأستكرو المعصية ، عندها يُرسّب بعوده الأئم الى جماعة المؤمنين و الكنيسة . و يجب عندها ان يسامح و يُقبل في الكنيسة من جديد . قال بولس الرسول : « تسامحونه بالحربي و تغزونه لشلا يتسلع مثل هذا من الحزن المفرط .»³⁴ ولكن من ناحية أخرى ، إذا لم تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي ، او رغبة حقيقة في إطاعة كلمة الله ، يجب استثناؤه من عضوية الكنيسة و اجتماعاتها . « أما الآن فكتب اليكم إن كان أحد مدعاً أخاً زانياً او طماعاً او عابداً وثناً او شتاماً او سكيراً او خاططاً ، ان لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا .»³⁵

و الواضح من كل ذلك ، أن المؤمن العمد ، الذي وجد متورطاً بخطية الزنا ، او عبادة الأوثان ، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثاً من هذه الأمور التي لا تزال تأثيرها فيه . أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة المسيحية ، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيانهم ، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف و صبر إذا ما وقعوا في الخطية والرذيلة . فلم يكن أمراً مفاجئاً أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنى او ان يعبدوا الأصنام ، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله و لا اخبروا قوة روحه في قلوبهم .

و قد كتب ترتوبيانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد ، كيف ان المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب و الانضباط ، و كذلك في دعوة بعضهم بعضاً الى المحافظة على نقاوتهم و قداستهم : « نحن جسد متحد بمعتقداتنا الدينية ، و بتهذيبنا المقدس ، ويرباط الرجاء . اتنا نقوم بالوعظ و التنبية و التوبخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم بجدية و رزانة كبيرة ، عالمين في المطلق اتنا تحت نظر الله . و حينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نقصيه عن المشاركة في صلاتنا و اجتماعاتنا ، و من كل شركتنا المقدسة ، فإننا تكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي .»³⁶

فإذا ما استثنى مسيحي ما من العبادة في الكنيسة و من العشاء الرباني ، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعباً ، و في ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات او عشرين ، مع ما يشمل ذلك من الذل و الهوان من أجل إعلان توبية حقيقة صادقة ، و لاستعادة قبوله في شركة الشعب الله . كتب لنا ترتوبيانوس أنه يجب على المؤمن الذي أخطأ إلى الله عمداً ان يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياه ، و أن يتمنع عن كل المللitas ، و أن يصلى بشكل دائم و يصوم ، و أن يناشد الإخوة ان يصلوا من أجله و عندئذ فقط يتأكد انه لن يسقط في الخطية من جديد .³⁷ أما أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفسها ، فقد قال إن المسيحيين الذين سقطوا في خطية شنيعة ، لا يمكن إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما اذا كانت توبتهم توبية حقيقة ، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً او رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق . و قد أضاف ترتوبيانوس الى ذلك قائلاً إن القائد الروحي يُجرّد من وظيفته و مسؤولياته نتيجة زلة او هفوة واحدة ، و لا يمكن ان يعاد الى رتبته مرة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة او الهفوة ، و قال مضيقاً انه لأمر حيوي جداً ، أن يمارس كل المسيحيين ما يعظون به . و يجب بكل وضوح ، أن يُظهروا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، أنه لا يجوز التفاصق و الرياء في الكنيسة و لا يسمح بهما . و لهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلا المستويات العالية من الفضيلة .

أما في المدن الصغيرة والقرى ، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت أو الحقول والغابات . على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد ، وبالرغم من الاضطهادات والضيقات التي ابنتها جماعات المؤمنين ، أفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى . إن أبنية الكنائس في إفريقيا الشمالية تشبه بيوت السكن العادمة التي يعيش فيها عامة الناس ، في ما عدا وجود غرفة مركبة كبيرة . و غالباً ما تكون هذه القاعة مقبة ، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة ، وهي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات . ويُعجز جزء من هذه الغرفة « لائدة الرب » التي يوضع عليها الخبز والشراب في أوقات العبادة . أما زينة القاعة ، فبساطة كبيوت المؤمنين العادمة ، وليس هناك أكثر من رسم بسيط يُبين مشهدًا خاصًا بالكتاب المقدس أو رمزاً للطريق المسيحية ، مثل لوحة جميلة من المرمر تتمثل الراعي الصالح ، وقد وُجدت هذه اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس .

ولكن يظهر أن الرمز المفضل عند المسيحيين الأوائل كان « رمز السمكة » . فإن العبارة اليونانية « إخثوس » (ichthus) ، تشمل على حروف استهلاكية باللغة اليونانية للكلمات الخمس : يسوع المسيح ابن الله المخلص . و يتحدث ترتوهيانوس عن هذا الرمز بشغف ، حيث أن الرمز بحد ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع هو المخلص المنتظر ابن الله المتجسد . ولذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار .

كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون أن يزيّنوا آنيتهم وأدواتهم وكذلك بيسوتهم و مدائحهم بهذا الرمز ، أو يرسمون عليها مرسمة أو عيامة . ولم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال إفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد .³⁸ و الواقع ، أن في ذلك عجبًا ، لأنَّ الصليب كان شيئاً معروفاً و شعبياً في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . ففي هرقلانيوم في جنوب إيطاليا (Herculaneum) ، وُجدت آثار غودج لصلب مدفونة في الحمم اللاوية لثورة البراكين التي وقعت في سنة 79 ميلادية . ولربما لم يستعمل رمز الصليب في شمال إفريقيا إلا قليلاً ، لأنَّه يشبه كثيراً الملائكة ، الذي يرمز إلى الإلهة الفينيقية تانيت .

لم يتبنَّ الوثيون المهددون إلى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث أو الرابع الميلادي . وقد استخدموها أحياناً الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس أو غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استشهدوا بطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين . و من الواضح أنهم كانوا يختارون أسماءهم بعناية . وبعض هذه الأسماء تعبر عن صفات شخصية كالانضاج أو الصبر ، وأخرى تحدث عن السرور والنصر والحياة الأبدية .³⁹ ولكن قبل هذا التاريخ ، وإبان القرنين الأول والثاني ، أبقى المهددون أسماءهم الوثنية بشكل عام ، حتى وإن كانت هذه الأسماء تشير إلى آلهتهم الوثنية التي سبق أن عبدوها . فإذاً غير المهدى اسمه ، فإن ذلك سيكون برهاناً عملياً عن تحوله إلى المسيحية ورفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع . و على أثر ذلك قد يغضب الأهل الوثيون ، كما أنه قد تناج بذلك الفرصة للعديدين لإحياء الضغائن ضد المسيحيين ، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية ، بل بسب أسماء ليس إلا . بدل ذلك ، كان من الأفضل إظهار

حقيقة حب الله العملية ، و ذلك بحياة شريفة غير أنسانية ، و اجتناب الأصدقاء و الجيران الى الإيمان بالرب بهدوء و بملء إرادتهم . لقد نبّى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمية بحدّيّة : « قدّسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدّين دائمًا لجاوية كل من يسألّكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة و خوف . »⁴⁰ لكن ، و بمرور السنوات و بينما كانت جماعة المؤمنين تنموا و تزدهر باطراد ، رفض أعضاؤها ان يخفّوا ضوء الإيمان تحت المكابال ، و بشجاعة كانوا يشهدون ، بالأسماء التي كانوا يحملونها ، للرجاء الذي نذروا أنفسهم لأجله .

ملاحظات

- 1 ١ يموثاوس 13:4
- 2 *Apologia* I:67 (ANF Vol. I)
- 3 *Apologeticus* 39
- 4 إن عبد الميلاد ، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح ، أضيف ابتداء من القرن الرابع ، الى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون .
- 5 *Apologeticus* 16 ؛ *Ad Nationes* 13 - 5
- 6 اعمال 7:20
- 7 ١ كورنثوس 23:11
- 8 لوقا 19:22
- 9 لوقا 20:22
- 10 ٣٤ و ٣٥ يوحنا 13:13
- 11 Hamman p. 239 ؛ Foakes - Jackson p. 230, pp. 229 - 236
- 12 *Apologeticus* 39 - 12
- 13 *Apologeticus* 39 - 13
- 14 *Apologeticus* 39 - 14
- 15 اعمال 35:20
- 16 ٢ كورنثوس 7:9
- 17 ١ كورنثوس 16:2 ؛ ٢ كورنثوس 2:8
- 18 مرقس 12:43 و 44
- 19 كولوسي 16:3
- 20 عبرانيين 13:3
- 21 يعقوب 27:1
- 22 أفسس 18:6

-
- 4:3 - 23
ا بطرس
 - 10:5 - 24
ا تيموثاوس
 - 40-37:25 - 25
منى
 - 8 و 7:1 - 26
تيطس
 - 2 كورنثوس 2:1 و 3 - 27
كورنثوس
 - Foakes -Jackson p. 230 - 231 - 28
 - 33:16، 48:10، 38، 12:8، 41 - 29
اعمال
 - اعمال 9:8 - 30
 - De Baptismo* 18 - 31
 - De Poenitentia* 6 - 32
 - 1:6 - 33
غلاطية 1:6
 - 7:2 - 34
كورنثوس 2
 - 11:5 - 35
كورنثوس 1
 - Apologeticus* 39 - 36
 - De Poenitentia* 9 - 37
 - 38 - كان المسؤولون الإيطاليون الذين كتب إليهم ترتوطيانوس في نحو العام 198 م ، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية . إلا أن ترتوطيانوس كان يشير إلى عادة أوروبية . و ليس بالضرورة إفريقية .
(*Ad Nationes* 1:12؛ *Apologeticus* 16)
 - Latourette Vol. I pp. 261، 283 - 39
 - 15:3 - 40
ا بطرس

الفصل السابع

انتصار الحق

و في حوالي 160 للميلاد ، وفي مدينة قرطاجة ، وكُد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني . وقد دعى هذا الطفل كُونْتُوس سِپِتِيمِيُوس فلورنس ترتوليانوس (Quintus Septimius Florens Tertullianus) . ولم يكن أبواه يُدرِّكَان ان ولدهما هذا سيصبح شخصية رفيعة المقام و النفوذ في أبناء جيله بشمال إفريقيا . لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز ، و تخصص بعلم الفلسفة و القانون . انتمس في شبابه انفاساً متهوراً بالرذيلة المفرطة التي كان يمارسها المجتمع الوثني . كذلك كانت تمارس الطقوس الدينية الوثنية ، ولكنه لم يفكر كثيراً في معانٍ هذه الطقوس او في مغزاها .

و لما بلغ الخامسة و الثلاثين من عمره ، قاده الأحداث الى أزمة شخصية . كانت السلطات الرومانية ، و لفترة من الوقت ، تراقب عن كثب ، ثم الجماعة المسيحية في قرطاجة و تطوره ، بربة و شك متزايدين . فلم يكن المسيحيون يشاركون في التقدمات العامة ، و لا كانوا يحلفون بالعظمة السامية للإمبراطور . فجأة ، ألقى القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين ، و أمروا بأن يخضعوا . وقد تأثر ترتوليانوس جداً من الشجاعة الخارقة التي أبدتها المسيحيون في مواجهة الآلام القاسية التي كانت تصدرها السلطات الوثنية بحقهم . كان يعرف هؤلاء الرجال و النساء المسيحيين جيداً ، و يدرك تماماً أنهم براء من أي فعل سيء . كان المسيحيون قوماً شرفاء أفضل كثيراً في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يسيئون إليهم . و هنا هو الآن ، يشاهد بأمّ عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن يتذكروا لمعتقداتهم و إيمانهم ، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة و شجاعة باسلة ، مؤمنين بأنهم سيقسمون من الموت ثانية . هذا الإيمان الواقع لم يجعله ترتوليانوس في وثبيته السطحبة المبادئ . كان عند المسيحيين ، وبكل وضوح فرح من نوع آخر وأعمق من ذلك الذي كان ينشد الناس في التسليات اللاحلاقية في قرطاجة . كانت وجوه المسيحيين تُشرق إشراقة نبيلة هادئة ، و تسمو بهم فوق مستوى الرعاع ، و فوق مستوى معدبيهم الرومان . و عندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها ، كان يزداد اقناعاً ، بأن هذه الحفنة من الرجال و النساء ، لا بدّ من أنهم يملكون شيئاً جديداً لا يُقدر بشمن . فإذا كان درب المسيح هو الحق ، فليس أمامه إلّا ، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه .

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول ، و قد تكشفت هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية ، حيث كان اندفاعه حماسياً مُستقدماً ، و إيمانه حاداً ، كما كانت مواصفاته عادة . لقد

غيره إيمانه الجديد بشكل جذري . ، فحياته التي كانت بلا أهداف تذكر ، أخذت اتجاهًا ثابتاً وراسخًا ، وشخصيته التي كانت متقلقة صارت ثابتة ، وآفكاره التي كانت متقلبة أصبحت مستقرة على المبدأ الذي عرفه أنه مبدأ قويم وحق . وشعر بأنه إنسان جديد ، ورجل كامل ، وكان شعوره صادقًا . وفي ما بعد ، كتب يقول : «يُصنع المسيحيون ولا يولدون هكذا .»¹ وحقًا كان هذا اختياره الشخصي . هذا ، وإنْ مُخيّله الخصبة كانت تشهد باستمرار إلى طريق المسيح . أخيرًا وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساستة تصرخ باستمرار : إنه الهدف الذي يستحق أن تُكرس له الحياة و الطاقات كلها . لقد وضع يده على المحراث ، و منذ الآن فصاعداً ، لن ينظر ترتوهيانوس إلى الوراء أبداً .

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل ، يبقى أن الرجل كان أيضًا نافعًا للقضية التي تبنّاها . ولم تمض إلا فترة وجيزة على اهتمامه ترتوهيانوس إلى طريق الحق ، حتى باشر التبشير بالإيمان و تعليمه في قرطاجة ، و كانت دعوته هذه ناجحة ، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة و الفصاحة في مهنة المحاماة . فقد خصّص وقته الكامل لخدمة الأخيل ، متوكلاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته . بدأ ترتوهيانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له ، و من هذه البداية أظهر ترتوهيانوس حبه لوطنه إفريقيا الشمالية ، و بالأخص لقرطاجة وطنه الأم .

و كاتب مسيحي مؤمن ، يقف ترتوهيانوس وحيداً تقريباً بينبني جيله . لقد ضاعت بعض كتاباته ، وخصوصاً كتاباته الأولى ، وبعض الكتابات باللغة اليونانية . أمّا ما تبقى له من كتابات ، فهو كثير نسبياً ، على الرغم من أن معظمها قصير و موجز . كانت هذه الكتابات عملية موضوعية ، تعالج التساؤلات الملحة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن ، و كانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع . و هذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في إفريقيا الشمالية إبان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد .

كانت باكورة أعماله الرئيسة بل أعظمها ، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أپولوجيكوس أو أپولوجي (Apologie) . وقد كتب هذا الكتاب في نحو سنة 198 ميلادية ، خلال الحكم الاستبدادي للامبراطور الموحش المدعو سپيسيوس سفيروس . إن هذا الكتاب هو تقديم نهان لليهود المسيحي ؛ لم يكن معالجة أكاديمية موجهة إلى امبراطور مثقف ، ذي ذوق فلسفى وأدبى رفيع ، بل كان تهديداً عنيفاً ، كتب إيان فترة الأضطهاد ، لحكام رفضوا أن يصغوا ، ولو إلى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية ، و حكموا على المتهمين مجرد اعترافهم بأنهم مارسوا ديناً غير مرجح به و هم يرفضون تركه . إن العنوان أپولوجيكوس لم يكن يعني «اعذاراً» أو «أسفًا» او تبرئة من إثم مرتكب ، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث ، بل يمثل على تقدير ذلك ، اثنائًا منطقياً لوجهة نظر معينة ، مقوّناً ببرهان منطقي لصحتها و شرعيتها ، و ببيانات مقنعة ملقوبيتها .

يبدأ ترتوبيانوس دفاعه باظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين و كأنهم مجرمون ، وقد كان القضاة يعتذرونهم ، لا ليعرفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبواها ، بل لإجبارهم على التناحر لإيمان نزهه . قال ترتوبيانوس : « أَمَا الائمنون الآخرون ، فلنهم يُعذّبون من أجل حملهم على الاعتراف . فلماذا يجري تعذيبنا نحن ، فقط لتناحر ما فعله بعلء إرادتنا؟ »² ثم يتساءل عن السبب وراء عداء الناس للمسيح و الموتور ضد المسيحية واليسوعيين . إن التعامل العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي ولا أساس له . إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أن المسيحيين هم أفضل ما يمكن أن يقابلوا من رجال ونساء ، ومع ذلك فهم يحتقرننا . يقولون : « إن الإنسان كأيوس سُوس هو رجل طيب لكنه مسيحي . » و نسمع أيضاً : « أنا أندesh لأن هذا الرجل الفطنة المدعو لوكيوس تيتوس قد اعتنق المسيحية . »³ ثم تحدّاهم ترتوبيانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء و السادة يفضلون أن يبقى أبناؤهم و زوجاتهم و خدمتهم الوشیون مخدعين و متمردين بدلاً أن يصبحوا مسيحيين صادقين و محترمين . هل من العقول أنهم يفضلون العيش مع زوجة وثنية محتالة او ابن او خادم مخادع وثي ، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف؟

لماذا يكون المسيحيون مكرهين هكذا؟ « فإذا ارتفعت نسبة المياه في نهر التiber إلى مستوى ضفافه ، وإذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول إلى الحقول ، وإذا لم تهطل الأمطار ، وإذا حدثت هزة أرضية ، وإذا حدثت مجاعة أو جاء وبأ ، فإن الصرخة الفورية تكون : "خذوا المسيحيين إلى ميدان الأسود . »⁴ لماذا ثالما نحن المسيحيين يسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس؟ هذا بالطبع ليس عدلاً ، وهو مناف لأبسط الأعراف و التقليد الرومانية . كان ترتوبيانوس يعرف ما يقول . « انه يكتب كمحامٍ مشدداً في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضد المسيحيين ، وعلى ان القوانين المنفذة ضدّهم هي إنكار لحقوق الانسان . »⁵ فصرّح حقاً : « ان من الحقوق الأساسية لكل انسان ، و من الامتيازات التي منحتها له الطبيعة ، حقه في العبادة بموجب اقتناعاته . »⁶ فلا يجوز للمواطن الصالح ان يعاني الإجحاف و التعامل بسبب ما يدين له ؛ فعلى القانون ان يكبح جماح السلوك السيء ، لا ان يمنع المعتقدات التزية و الصادقة .

و قد تعلم ترتوبيانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البيانات و الحجج ، و مكتبه من استعمالها على أحسن وجه ، وقد أضفى تكوينه البلاغي و فصاحته المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموهبة الفطرية الأصيلة ، قوة و طاقة نافذة على تعبيره . « كان اسلوبه الأدبي ينسجم مع أنكاره . و كان هذا الاسلوب حيوياً توكيدياً فضيحاً . قاده إيجازه و عدم ترابط أفكاره الى شيء من الغموض أحياناً . و كانت المفردات اللغوية التي يستعملها مذهلة في غناها و مأمورتها من مصادر مختلفة . لا يهمه إن كان المصطلح كثير التقنية او قدماً مهجوراً ، أو إن كان تعبيراً شائعاً كثيراً الابتنال إقليمي الاستعمال ، إذا كانت هذه المصطلحات او التعبيرات تدلّ على المعنى الذي يقصده . فإذا وجد ترتوبيانوس ان ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة او قادرة على استيفاء المعنى المطلوب ، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية ، و إن لم يوجد ما يفي بالغرض ،

كان يبتكر كلمة مناسبة . يحتوي أسلوبه على عناصر السهل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة وتوجيه . فالخشب ، والجحارة ، والأترية ، وأوراق الشجر ، والزهور ، والأشياء تُحرف جميعها معًا ثم تُنْدَفَع لفتح سهل مسدود أو لفهر خصم .⁷ وتنظر كتاباته بوضوح مقدار حماسته ، وهو ينجرف في عدة أحيان وراء قوة اقتاعه ، وشدة حجمه . وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تنفيذ مبادئ الآخرين ، « على المرء أن يتذكر دائمًا أنه يصفي إلى مرافعة خاصة ، أعدّها محام شديد التمسك بدفاعه ، وليس إلى شهادة يدللي بها شاهد مختلف أو حكم أصدره قاضي بعد أخذ جميع الأراء بعين الاعتبار ».⁸

ولكن ، ففي كل هذه الأمور ، سواء بوعي أم لا ، كان يستبطئ لغة جديدة ، أو على الأقل يصوغ لغة قدية في قالب جديد . لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة وقوة أعمق رسالة قد يسمعها إنسان . لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوبيانوس . كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل ، و كان مقصده الأوحد هو التعبير عنها بفعالية . فترتوبيانوس هو أول من ابتكر عبارة « الشالوث الأقدس » ليصف من خلالها طبيعة الله ، ويُقدِّر ما ابتكره من كلمات جديدة بـ 982 كلمة تقريباً .

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جولييان (Julien) في ترتوبيانوس أنه المزاج الأمازيغي الشيط المقد بشارة الحق المسيحي والمشتعل بهمة راسخة لا تقاوم . كان ترتوبيانوس من « المهدتين » البرابرة ، و لكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرية و عنادهم وحدة مراجهم .⁹ « يندب » ترتوبيانوس أحياناً اتقاد طباعه و حدته . و لكنه استمر ، مع ذلك ، متدفعاً إلى الأمام بفداء صير ، واثقاً في نفسه ، مستخدماً كلّمه كسلاح حربي ، مناضلاً ضد مناوئه بلا هواة و لا لين ، منطلقاً وراءهم يقذفهم بكل أنواع أسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم و يخضعهم لطاعته . و ليس من المستغرب أن تتمكن قلة قليلة منهم فقط ، من مناقشته : هذا ، و إن مواهبه الفذة ، لم تبق في الميدان مكاناً لأحد سواه . إن ترتوبيانوس كان بستحيل عليك أن تواقه دائمًا ، و هو يترك عندنا أحياناً آثاراً موجعة ، ولكن مع كل نقاط ضعفه ، فهو رجل يمتلك عبرية فذة عظيمة ، و تُعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنةً و سحرًا في تاريخ الكنيسة المسيحية .

كان لترتوبيانوس قلب مبشر ، وقد خصص كتاباته قبل كل شيء ، ليربع الوثيين واليهود و يهديهم إلى الإيمان بالرب يسوع . انه يقدم كل الأسباب الموجبة للإيمان ، و كل الإجابات المطلوبة للمعارضين . و عندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها ، تكون رغبته العظمى في أن يمكن العالم الوثني من النظر إلى هناك لرؤيا يسوع . يجب ان تسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنوه من تعاليم الأنبياء . و هو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم من خارجها ؟ لماذا يمكنها ان تتحقق اذا لم تُنْظَر فداسة المسيح ؟ و كيف يمكن للوثيين أن ينجذبوا إلى المخلص اذا رأوا اتباعه في حالة شر و خطية هي أسوأ من تلك التي يتغبطون هم فيها ؟ لقد ثنى ترتوبيانوس على الكنيسة ان تكون الشاهد المخلص للعالم . فعندما كان يتحدث إلى شعب قرطاجة ، كان هاجسه أن يتمكن من الإشارة إلى التسحوك الذي

يستطيع الرب عمله في الرجل أو المرأة . و لكن إن لم يكن هناك آية علامة من علامات التحول ، لا بدّ عند ذاك من أن يسقط وعظ الانجيل على آذان صماء . تحدى ترتوهيانوس معتقديه في ان يجدوا ولو مسيحيًا واحدًا متهمًا بالتجديف ، او فساد ، او بقتل ، او بتشيل ، او بسرقة ملابس المستحبين . أمّا اذا وُجد مثل هذا الشخص ، فسيجدون أيضًا انه قد قُتل من شركة الكنيسة . فمثل هذا التصرير كان يحتاج الى ان تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية . ولو كانت هناك خطيبة في الكنيسة ؛ تصدّعَت الأرض من تحت قدمي ترتوهيانوس ، وتحت أقدام كل أولئك الذين يشتدون ربع الآخرين لليهود بالرب يسوع .

طالب ترتوهيانوس زملاءه المسيحيين بأن يتبنّوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية والفعاليات العالمية . قال إن إمبراطوريات العالم تعلو و تهوي ، أمّا الكنيسة فأبدية . إنها مملكة روحية وليس مملكة أرضية او مادية ، ويجب ان تبقى الكنيسة حرة لخدم ، وتتوفر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أيًّا كانوا . وقد تبتهج الكنيسة إذا نظرت اليها السلطات الرومانية نظرة استحسان . ولكن إذا احتقرتها تلك السلطات و كرهتها ، فعلى الكنيسة ان تثبت وتحمل . ولكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخر خدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف والأسباب : عليها ألا تكون أداة بيد الحكام في الإمبراطورية . إن المسيحي مواطن صالح و شريف ، ولكن أمّاله لا تأسّس على آية جمهورية او مملكة بشرية . فهو تابعٌ قبل كل شيء لأولئك الناس المدعون « كنيسة الله » ، و عاهله هو ملك الملوك و رب الأرباب . فهناك يمكن ولاه و إخلاصه . سأله ترتوهيانوس : « أهل هناك أمّة ، داخل حدود جغرافية معينة ، تفوقنا عدداً ؟ فنحن أمّة بلا حدود ، بل حدودنا العالم بأسره ». ¹⁰ إن إخلاص ترتوهيانوس لإيمانه ، كحماسته له ، لم يكوناقط موضوع تساؤل . فهو واقع من موقفه ، وكل وجهات النظر الأخرى ، ليست سوى رمال متحركة . فماذا يامكان الإنسان غير المخلص أن يعرف عن الحق ؟ وماذا يمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القدس ؟ وكيف يمكن لعايد الأصنام ان يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو يعتقدوا ؟ إن هذه الأمور ، كما قال الرسول بولس ، هي مدركة على أساس إعلان من روح الله . « ولكنّ الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنّه عنده جهة وأما الروحي فيحكم في كل شيء ». ¹¹

رأى ترتوهيانوس ان المسيحي الذي ينكر لإيمانه هو جبان و خائن ، و لا عنذر له . فإنّ مثل هذا الشخص قد كذب و جدّف على الله لكي ينجو بنفسه ، و إذا ما عاد هذا الإنسان الى الكنيسة ، فعليها ألا تقبله و كأنّ شيئاً لم يكن : هذا هو السبيل لكي تلاطفوفها بالضالين وبالمرأين . قال ترتوهيانوس إنه لا يمكن للكنيسة المسيح ان تصفح من موقع ضعف عن أولئك الذين يخونون سيدها خيانة تامة أو يخطئون إليه عمداً . لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا عاد الى عبادة الأصنام ، او الى الأعمال الوثنية الفاجرة . ألا يستحق الرب يسوع أجلّ الخدمات ؟ فعلى المسيحي ان ينكر ذاته و يحمل صليبه و يتبع المسيح ، وأقل من التكريس الكامل يُعتبر إهانة لله و لشعبه . يجب التعامل مع الخطية المرتكبة بجهادية و حزم ، تماماً كما كان يفعل رسول المسيح . ¹²

كان سلطان إخراج الشياطين أمراً مأثوراً في الكنائس في عهد ترتوبيانوس . وقد أشار هذا الأخير إلى طرد الأرواح الشريرة ، ليس و كأنها ظاهرة نادرة يعجب التأكيد منها بجهد و بشهادة الآخرين لها ، ولكن باعتبارها حقيقة لا تُنكر ، معروفة لدى الجميع ، و يعتمد عليها بثقة للتحقق من أن رسالته كانت رسالة حق . إنه لا يسأل خصوصه الوثئين أن يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لا تزال موجودة ، و لكنه يطالبهم بقبول رسالة الأخيل التي تأتي هذه القوى لتبهن أصحابها .

كان ترتوبيانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة ، و كان يقتبس باستمرار من الأنجيل ومن الرسائل ، كما من العهد القديم أيضاً . و كان يسير بكل وضوح على خط الآباء الرسولي النقى . و لا يجد في كتاباته إلا القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية ، والتي تسببت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس . و قد احتاج ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال . و لم يعط مريم أم المسيح في الجند مقاماً أعلى من مقام النساء الآخرين و لم يُصل لها . و رفض أيضاً المبدأ القائل بتبدل قادة الكبستة ، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة إلى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعاً . و آمن إيماناً راسخاً بكتبهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم ، و غالباً ما كان يذكر سامييه ، بأنه حيّشما اجتمع أشان أو ثلاثة باسم المسيح ، فهناك يكون المسيح في وسطهم . و قد شدد بحزم على أن الكبستة الحق لا تقاد إلا بالروح القدس ، و ليس من طريق المؤتمرات البشرية . كان ترتوبيانوس يتوقع وائقاً أن يرى خلال حياته على الأرض نهاية العالم و عودة المسيح و بداية الملوك الألفي .

ثم بعد مدة ، جرى على الأرجح تعين ترتوبيانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قسطنطينة ، ولكنه على غرار إفليمندوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوريجانوس (Origène) ، لم يُرق إلى درجة كنسية أعلى . و يبدو أنه كانت لديه تحفظات جدية بالنسبة إلى هذا النوع من البنى الهرمية . امرأة ترتوبيانوس كانت مسيحية ، و قد أهدتها بعثين كتبهما عن الزواج المسيحي ، و أظهر من خلالهما تفانيه لزوجته ، داعيَا إياها برقة و تحب يا أحب رفيقي في خدمة الرب .¹³ و كمعظم الرجال في عصره ، كان من المفترض أن تكون ملابس ترتوبيانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكمامه القصيرة ، و هو عبارة عن قميص طويل يصل إلى الركبتين ، مصنوع من الكتان ، و مشدود حول الخصر بحزام . إلا أن ترتوبيانوس أظهر استقلاليته عن عادات الإمبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا ، اللباس الروماني الفضفاض والمتدلي ، مفضلاً عليه الشملة الإغريقية ، (و هي نوع من اللباس الذي يطرحوه على الكتف الأيسر) او « بليوم » الفيلسوف (و هو رداء رجالى مستطيل) . وقد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس . و حذا حذوه في هذا الزي كثيرون . و عليه ، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس . أما حذاؤه ، فكان الصندل الذي كان يربط برباط يلتف حول الكاحل . و كان يقص شعره قصيراً ، و لربما كانت له لحية قصيرة ، و هي التي كانت وقتناد تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني . فقد أشار أحد الرجال المعاصرين لترتوبيانوس ، و هو أكبر منه سنًا ، و يدعى إفليمندوس الاسكندراني إلى اللحية داعيَا إياها « زهرة الرجولة » . و يقال أن إفليمندوس

أيضاً : « إن الحكمة هي الصفة المميزة التي منحها الله للرجال وللأسود ». ¹⁴ و كان حلق الذقن آنذاك يُعتبر تختّاً ، و تختّاً لله الخالق .

كان ترتوبيانوس في قرطاجنة وقتما حُكمَ على بُريءِها و زملائها بالإعدام عام 203 ميلادية . و يعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألقى قصة استشهادهم أو أعدّها . و في كل حال ، كان ترتوبيانوس نحو هذا الوقت قد انضمَّ إلى فرقة من المسيحيين ، كانت تُعرف بالموتانيين (Montanistes) ، و التي يبدو أن بيريتوا و رفاقها كانوا يتبعون إليها . و في مطلع القرن الثالث ، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط إفريقيا الشمالية . و كان أعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم و يُدعى مونتانوس (Montanus) ، الذي كان قد شرع بالكرزنة نحو العام 170 م ، و ذلك في منطقة فريبورجية (تركيا الحديثة) .

كان مونتانوس يعتقد أن جبله كان يقف على عتبة عصر جديد ، عصر الروح القدس ، الذي خلاله سيكون من نصيب أولاد الله جميعهم ان يحصلوا على رؤى و على إعلانات بحسب ما هو مكتوب : « يقول الله و يكون في الأيام الأخيرة أني أسكب من روحي على كل بشر فيتباً بنوكم و بناتكم و بري شبابكم رؤى و يعلم شيوخكم أحلاماً . و على عبيدي أيضاً و إمامي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتباون » . ¹⁵ فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يرون و يسمعون مثل هذه الأمور . وقد صرّح قائلاً : « إن الروح يحرّك الذهن ، كما ان الموسيقار يحرّك اوتار القيثارة » ، و بهذه الطريقة يستطيع المؤمن ان يحصل على كلمات الله عينها ، و أن ينقلها الى الآخرين .

لقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجد ، و حاولوا ان يعيشوها مهما كلف الأمر . لم يتمكّنا ، كما هي الحال بالنسبة الى الكثيرين سواهم ، من التوفيق بين الخدمة العسكرية و تعاليم يسوع : على المسيحيين الا ينخرطوا في الجيش . كما اعتبروا ان دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي : أنها ستُسلِّه عن الطريق الصحيح ، و تُثْرِي الناس الذين يرون هذا القاريء و يقتدون به . كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلوة و الصوم و قراءة الكتاب المقدس معاً ؛ و كانوا يشجعون بعضهم بعضاً على الارتقاء في حياتهم الى أعلى المبادئ الأخلاقية الروحية . كانوا يتطلعون قدمًا الى مكافأة في السماء و الى حياة أفضل . فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعاً ، و ستراه كل عن و يعترف كل لسان بأنه رب . ¹⁶ و من ثم سوف يجمع شعبه و يأخذهم اليه ليسكنوا معه في مجده الى الأبد . ولا يجوز للسيحي ان تشهدَهُ أمور هذه الحياة الفانية ؛ وإذا ما دُعِيَ ليتألم ، او حتى يستشهدَ من أجل المسيح ، عليه عند ذلك ان يفرج و يتَّهَج لكون الله قد ميّزَ بهذا الشرف العظيم . الخذب ترتوبيانوس الى هذه الفرقة ، وبخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله . كان إخلاصهم القلبي يتلاطم و يتجانس مع إخلاصه هو .

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجهات و النزعات التي ظهرت في كنائس افريقيا الشمالية ، و كذلك في آسيا الصغرى ، و لقد ثمنوا ان يروا قداسة اكثراً و ضوخاً في الجماعة المسيحية . و قالوا إن هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون

طائرين إطاعة صادقة للمسيح . فبعضهم ، كما يبدو ، كان يميل إلى التساهل في الانغماض في نشاطات سيئة السمعة أو إلى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيقة التي يمارسها الوثنيون ؛ فكان يُجذب على اسم المسيح من جراء ما يمارسه هؤلاء المدعون مسيحيين . واعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس . كان من الضوري في نظرهم أن يُعطي الذين من خارج - بهوادا كانوا أم وثنين - فرصة لسماع بشارة الإنجيل . لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً ، أي حتى يتذكروا لذواتهم ، ويحملوا صليبيهم ويتبعوا المسيح .

احتظ المونتانيون عند تامي البنية السلطوية للكنيسة ، و التي قيدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر ، وأعاقت حريةهم في الاجتماعات . إلى هذا ، ظهرت نزعة متamية لدى القادة في المدن الكبيرة للسلط على القطيع حتى إنهم أصدروا قرارات توّقعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تذعن لها . يجب احترام القادة ، قال المونتانيون ، ولكنّ هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال انهم معصومون عن الخطأ . كذلك عليهم هم أيضاً أن يخضعوا لكلمة الله . إن الوحدة في الكنائس ، كما يصرّ المونتانيون ، يجب لأنّه لا تفرض بالقوة الجائزة . فالوحدة الحقيقة هي شرعة النسامع والمحبة ، ولا يمكن أن تتحقق إلا عندما يمتلك الجميع بروح المسيح . يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤساتية ، و يجب أن يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار والأراء والاهتمامات المختلفة . إن المخلص نفسه هو رأس الكنيسة و يجب أن يكون روحه هو القائد ؛ فليس هناك انسان قادر على أن يأخذ مكان يسوع المسيح .

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة ، بدأت هي الأخرى تزداد شكلاً ، وقد حدّت بالتالي من حرية الروح القدس في تحدّثه المباشر إلى أعضاء الكنيسة . وأشار المونتانيون أيضًا ، إلى أنَّ الناظر المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه الإلهي . لأنه بإمكان كل مؤمن أن يصل إلى الله ليعلم مشيته ، وبذلك يساهم في الحياة الكنيسة للخير العام .

فإذا كانت ظهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين ، في أيام المسيحية الأولى ، قد استحقت احتراماً وإعجابنا ، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجاباً تاماً . فهم لم يترددوا قط في بذل حياتهم ، عندما البديل لاستشهادهم كان يعني انكار مخلّصهم . قد نعذرهم على تطرفهم في وضع مستويات الصواب والخطأ ، وكذلك على قلة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل أدنى من المستوى المطلوب ، لأنَّ المبادئ التي كانوا يؤمنونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع و رسالته . إن ما قدّموه كان في معظمِه نصائح و حضنٌ بغيرة على حب أعمق و تكريس أعظم .

إلا أن العديد من الكنائس في القرن الثاني ، كانت تسير في اتجاه مختلف تماماً . فبعضها كان يميل إلى الفكرة القائلة إنَّ التنبؤ قد توقف منذ عصر الرسل . و قيل أيضاً إنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات شخصية ، وإنَّ أيَّ انسان يدعي الشريعة من الله لا يمكن أن يكون إلا من الدجالين . كان المونتانيون قلقين ، ولكنهم ، لم يرغبا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح . فعوضاً من فتح باب الشقاق ، تحملوا بصير سوء الفهم والإجحاف ، و عملوا ما بوسعهم للتاثير في الجماعة المسيحية من الداخل .

مع ذلك ، فقد كان هناك أناس يتمون إلى الكنائس القديمة ، الذين شعرو بالامتعاض من مواقف الموتنانيين ، و شكوا في روح الاستقلال عندهم ، كما سخروا من الوحي الذي أدعوا حلوله عليهم . فتم رفع الشكاوى ضدهم على أعلى المستويات . و في مقاطعة فريجية نفسها ، موطنهم ، قامت بعض الكنائس بادانتهم . كما سافر أحد متأوئتهم المدعو براكسياس (Praxéas) إلى روما ، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة ، بأنَّ الموتنانيين يعملون على إثارة الشقاق والخلاف ، ويهدون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره . فكانت التبيحة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحُرْمَن الكنسي بحق المنشقين الموتنانيين ، واعتبر هذا الحُرْمَن شاملًا لكل الكنائس ، وفي كل الأصقاع ، التي تأثر بأوامر كنيسة روما هذه المجموعة التي عُرِفت في ما بعد « بالكنيسة الكاثوليكية » أو الكنيسة العالمية . لم يكن هذا الرفض والإبعاد بسبب تعاليم زافقة صدرت عن الموتنانيين ، بل ، وبكل بساطة ، لكون هؤلاء عطّلوا نظام الكنائس ، و لرفضهم أيضًا القبول بالمقاييس التي حددتها قادتهم العتدين

لقد أثيرت في ما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه . إن آراءه في لاهوت المسيح و ناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي ، بينما ظلَّ الموتنانيون مستقيمين في هذا المجال . إلا أن التوفيق أضحى مستحيلاً . ربما ، لم يعد أمراً عجيباً ان يُساء لهم الموتنانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي النزعة الكاثوليكية والاسقفية ، الذين ، خلال جيلهم الخاص ، يبنون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضوياً و ظاهرياً بأي ثمن . وكثيراً ما كانوا يكتبون عن الموتنانيين بكلمات من قبيل : « المتحمسون الصارمون » أو « أبطال في يوم الاضطهاد ، متعصبون في زمن السلم »¹⁷ . ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر .

وبالتأكيد ، فإنَّ ما حدث لم يكن نهاية الموتنانيين ، إذ وجد هؤلاء في ترتوبيانوس بطلهم الأعظم . فقد كتب هذا الأخير تفنيداً مسهباً ضمته حججاً دامنة ضد براكسياس . وقد وضع ثقله خلف حركة الموتنانيين التي أشار إليها في تفنيده بالعبارة « التوبة الجديدة » . و لم يجعل ترتوبيانوس الموتنانية جديرة بالاحترام و حسب ، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها و الاعتماد عليها في شمال إفريقيا . و استمرَّ الموتنانيون بالتعليم و مذَّيد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس ، و بباركة الله المُدركَة الظاهر»¹⁸ .

قضى ترتوبيانوس طوال حياته في قرطاجة ، على الرغم من انه زار روما مرة واحدة على الأقل . و لربما خدم أيضاً في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما . و في روما ، أصبح ترتوبيانوس ضليعاً في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تختلف احياناً و إلى حد بعيد عن تلك التي استعملتها كبرياتوس لاحقاً في قرطاجة . و لكن غطروسة قادة الكنيسة في روما و عدائهم للموتنانيين ، تركاً أثراً ثابتاً في ترتوبيانوس مما ساعد ، من دون شك ، في جعله متعاطفاً معهم ومؤيداً لهم . كان متقد الذهن للغاية و حاراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقوله صادرة عن أناس دونه شأنًا . لم يكن ترتوبيانوس يرغب في ان يكون السبب ، او ان يشجع على إحداث شرخ ، و كذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها . آمن ترتوبيانوس ، من كل قلبه ، بمبادئ

الإيمان المسيحي ، و اختلف مع زملائه المؤمنين ، فقط في الاعتقاد أنَّ مستوىهم القدسي لا يزال متذبذباً إلى حدٍ ما . لقد بقى من أعظم مناصري المسيحية الحق . كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد « الغnosticisme » (Gnosticisme) وغيرها من الهرطقات والبدع ، بعد التحاقه بالموتنانيين . ومن اللازم القول ، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعاً حينما تنصبَ ضد جعلة العدو المشترك ، أكثر منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها ، والتي كان قد تركها وقتذاك .

لقد اعتبر ترتوطليانوس دائمًا أن الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة ، ولكن لا يجوز أن نشربها على حساب الحق . ويجب فحص الأفكار الجديدة ، أضاف ترتوطليانوس ، بمقارنتها بكلمة الله ؛ ويجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر ، قبل أن تنتشر و يستفحُل أمرها . قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متعددة ؛ والحق يُعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه ، بينما البدعة هي محلية و محصورة بفئة قليلة . الحق تبدي من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث . الحق يثبته الكتاب المقدس ، بينما البدعة تنصب نفسها ضد الكتاب المقدس و فوقه 19.

وأخيراً ، يظهر أنَّ ترتوطليانوس بدأ يتزعزع من بعض أوهام التطرف التي مال إليها بعض من الموتنانيين . أحياناً ، يُظهر انصار مثل هذه الجماعات السائبة والمشحونة حبوبة ، رغبة مخيفة في قبول إعلانات « آنبيائهم » الذين أدعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس ، و ذلك من دون أي تسؤال . وقد رأى ترتوطليانوس بكل وضوح ، أنَّ الإيمان ممتاز و رائع ، فقط إذا ما كان مبنياً على الحق . فالحرارة الروحية يجب أن تُمارس ب بصيرة متأثرة و متعلقة . و الحق الالهي المعلن من الله والمسجوم مع الكتاب المقدس الموحى به ، يجب قبوله ، ولكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار إنجعالية و متجمدة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية و القصد ولكنهم يقودون الكنيسة وبالتالي ، إلى الضياع و التشتت . قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات : « أيها الأحباء ، لا تصدقُوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأنَّ آنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم ». 20 كما أن الرسول بولس قال ، إن الروح القدس يعطي بعض الناس القدرة على النبوة ، أي أن يلْغوا رسالة الله ، ولكنَّه أيضًا يعطي لآخرين القدرة على « تمييز الأرواح » ، أي أن يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر . 21 وبعد بضع سنوات ، انفصل ترتوطليانوس على ما يبدو عن الموتنانيين جاراً معه عدداً من أقرب أصدقائه . فبالنسبة إليه ، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء .

ولم يكن ترتوطليانوس مثيل في عصره سوى واحد ، وهو أوريجانوس العظيم . وقد ولد أوريجانوس في الاسكندرية و لكنه انتقل في ما بعد إلى قبرصية على ساحل فلسطين . وما يدعو إلى الحيرة و العجب حقاً أن يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه ، ولكنَّهما لم يكونا متشابهين في دروب و مسالك أخرى . فكل منهما له موهبة التخييل ، وهو بارع في التصوير المجازي ، وكل منهما يستخدم هذه الموهبة في كتاباته المتدافعَة المشرّمة ، مدافعاً عن الإيمان ضد الوثنية ، و اليهود و الهراطقة . و كلامهما كانا يعيشان حياة نكران

الذات الشديدة الصارمة ، وكلاهما ، بتعاليمهما و قدوتهما ، ألهما جيلهما كيف يجب ان يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل . و كلاهما كانا على استعداد ان يعانيا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء ، عوضاً عن المساومة على حق الإنجيل . ولكن ، مع ذلك ، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسم الأكبر من الكنيسة المسيحية ، وفي صراع مع كبار قادتها المتقلبين في روما .

على أن هذا التشابه بينهما يبقى سطحياً ، إذا ما علمنا أن هناك اختلافاً جذرياً بينهما في المخواه . و الحقيقة ، أن واحداً منها قد أمضى نصف عمره في حياة وثنية ، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم والثابت للإيمان . و هذا ما يفسر الكثير مما ستأتي على ذكره الآن . و لا شك ان حماسة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه و خلقه ، ولكنها ازدادت حدة بفضل تجديده و رفضه الكامل لماضيه ، بينما « عذوبة و نور » أوريجانوس المحبوب كانا ثمرة ثموه الهدائي بصفاته المسيحية التي ترعرع عليها منذ نعومة أطفاره . وقد انعكست هذه الأشياء في اسلوب كتابة كل منها : فال الأول صارم في عقيدته من دون هواة ، أمّا الثاني ، فيحب الخوض في المعانى الغامضة و معروف بلطفه التأملي الدقيق . يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر ، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام . و يتخـ ترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم تويجاً صارماً و عنقه تعنقاً شديداً ، وسخر من فتوط الناس الفكري . بينما قدم أوريجانوس تعاطفاً شديداً مع كلّيهما ، و شعر في العمق مع أولئك الذين كانوا يتلمسون طريقهم بحثاً عن إدراك سائر هذا الكون المسيح . تعلم ترتوليانوس الفلسفة كوثي و ازدرى بها للغاية : فالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها . و تركت الناس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تلاشى إلا بفعل نور الإنجيل المعلن . أمّا أوريجانوس ، فقد تعلّمها و هو في أحضان المسيحية ، و تعمق في مكنوناتها أكثر كثيراً من ترتوليانوس ، فكان لها كل التقدير عنده ، و اعتبرها استعلاناً جزئياً و تمهدّياً قد لا يزال يعمل خدمة الحق .

على الرغم من أن كلاً من ترتوليانوس و أوريجانوس وجدا نفسهما في نزاع مع المسيحيين الآخرين ، إلا أن سبب هذا النزاع كان يختلف في كل حالة . فانفصال ترتوليانوس كان من عمله هو أمّا انفصال أوريجانوس فسيّه أعداؤه و خصومه . و مع أن أحداً في قرطاجة لم يدُن ترتوليانوس ، فإنه تعمّد ترك الكنيسة التي كان يخدم فيها ، و عقد العزم على تفريغها الى اخطائها . أمّا أوريجانوس الذي حرّم كنسياً في الإسكندرية و روما ، فتحرّك متوجهاً الى الشرق ، و استمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة ، من دون أن ينفرد أحداً . و لربما نستطيع ان نرى هنا ، و ما سيلحق ، كيف ان شخصية الانسان تقرر الى حد بعيد الخدمة التي يتولاها و آرائه و مبادئ الشخصية أيضاً .

يقول بعضهم إن ترتوليانوس بعد انحرافه بعيداً عن تيار المونتانيين ، لم يلبث ان عاد الى مجموعة الكنائس الكاثوليكية التي انتسب إليها غالبية مسيحيي شمال افريقيا في ذلك الوقت . وهذا الرأي مشكوك فيه ، و لكنه قد يبدو جذرياً لأولئك الذين يوّقرن كلاً من الرجل

ترتوبيانوس و البنية الكاثوليكية . في الحقيقة ، وبعد مرور قرنين من الزمن ، بقي هناك مجموعة من المسيحيين يُعرفون بالترتوبيانيين ، « أي اتباع ترتوبيانوس » على الرغم من أنّ عددهم كان قليلاً . ولكن وجودهم ، إن دلّ على شيء ، فهو يدلّ على أنّ ترتوبيانوس بقي بعيداً إلى حدّ ما من الكنيسة التي انتقدتها بشدة²² . و من جهة ثانية ، وبعد مرور قرن على وفاته ، فحتى كيريانوس ، وهو أقوى وأخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية ، قوم كتابات ترتوبيانوس ، و قدّمها على سائر الكتب الأخرى ، حتى إنه كان يخاطب أمين سره قائلاً : « جئني بالاستاذ ناولي المعلم ، كلّما شاء أن يتضمن مجلداً أو كتاباً آلهه ترتوبيانوس . و يبدو أن ترتوبيانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أية مصالحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية ، لأنّه لم يُدن رسمياً ، ولا القادة حرموه كنيسيّاً في كل من قرطاجة و روما . و نعلم أن ترتوبيانوس قد اجتنبه كلّ من كان يشاركه إيماناً ، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أية جماعة تحب المسيح و تخدمه بإخلاص ، و ذلك بعزل عن الكنيسة التي تنتمي إليها .

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jérôme) ، أنّ ترتوبيانوس عاش عمرًا طويلاً . ولم يُعرف كيف أو متى توفي . ولكن ، لا بدّ من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام 220-240 ميلادية . وهذا يُظهر أنّه كان في سنّ الستين على الأقل حين لَيَّ نداء ربه و غادر هذا العالم .

تحدّث ترتوبيانوس إلى كلّ من الكنيسة النامية و العالم المراقب ، معلناً المفارقة الشاسعة القائمة بينهما ، تلك المفارقة التي كانت واضحة جلياً لكل من له عينان تربان : « حق العقيدة المسيحية ، مقابل أكاذيب الوثنية ؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية ؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية و قساوتها ». ²³ لقد محور مواضعه الأساسية حول ثلاثة : الحق ، النقاوة ، و الأخوية . يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي فيها يعرض إقراراً للحق ، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه ²⁴ :

« لا يطلب الحق معرفةً
 او استحساناً لقضيته
 فهو يعلم انه
 غريب في هذه الديار
 وأنه بين الغرباء ، من السهل ان
 يجد لنفسه أعداء
 فولادته ، وداره ، ورجاؤه
 هي في السماوات

ولكن شيئاً واحداً يتمناه
 الحق بشدة ،
 ألا تحصل إداناته
 وهو غير معروف . »

ترتوليانوس

ملاحظات

- Apologeticus* 18-1
Apologeticus 2-2
Apologeticus 3-3
Apologeticus 40-4
Bettenson, *ECF* p. 15-5
Ad Scapulam 2-6
Plummer pp. 114 - 115-7
Plummer p. 115-8
Guernier p. 185 اقتبسها - 9
Apologeticus 37 -10
1 كورنثوس 14:2 و 15 -11
1 كورنثوس 11-9:5 -12
Ad Uxorem 1:1 -13
Paedagogus 3:3 (*ANF* Vol. II) -14
أعمال 17:2 و 18 -15
فيلي 11:2 -16
Foakes - Jackson p. 254 -17
لقد حافظ مونتانيوس آسيا الصغرى على كنائسهم المستقلة حتى فترة متقدمة من القرن السادس (Schaff *HOTCC* Vol. II p. 421)
- راجع 32 -19
1 يوحنا 1:4 -20
10:12 كورنثوس -21
يذكر اغسططينوس كيف انه تمكّن أخيراً بفضل جهوده ، ان يصلح الترتوبيانين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك في القرن الرابع (De Haerisibus 6; Schaff *HOTCC* Vol II p. 421).
Lloyd p. 28 -23
Lloyd p. 23 *Apologeticus* 1 -24
المصادر الثانوية المختصة بحياة ترتوبيانوس هي : Lloyd pp. 21 - 60؛ Barnes : Latourette Vol I pp. 125 - 131 ، Foakes - Jackson pp. 206 - 208 ، 263 - 265 .
Plummer pp. 111 - 119
. Schaff *HOTCC* Vol. II و Freud كذلك يوجد شواهد متعددة في كل من

NAPNF Series 2 Vol. I : Eusebius V, 16 - 18 ، راجع
و فيها ملاحظات كثيرة أدرجها المترجم :

Foakes -Jackson pp. 224 - 225; Wright; Barnes; Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 415-427

الفصل الثامن

الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المسيحيين في القرون الأربعة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الإيمان و أنهملوكوا في الدفاع عنها . فقد شغلتهم الأسئلة التالية : هل كان المسيح إنساناً مثلنا ؟ أو هل كان ملائكة ؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته - كأن يكون ليس بإنسان ولا بملائكة ؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل ؟ أو هل وُجد عندما جلت به العذراء ؟ هل جرّب المسيح حفنا ، كما نجرب نحن ، حيث كان بإمكانه أن يخطيء ؟ أو كان مستحيلاً عليه أن يخطئ ، و بالتالي فإنه لم يتعرض للإغراءات الحقيقة ؟

بحث المسيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهد القديم ، و من مضمون ما كتبه الرسل ، و استناداً إلى ما قاله رب يسوع نفسه . وقد استنتجوا أحياناً استنتاجات شخصية مستندة إلى ما بدا لهم انه منطقى و عقلاني . ولكتهم في النهاية ، كانوا يعودون دائمًا إلى ما يشير إليه العهد القديم ، و إلى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار ان هذه الكتابات موحّي بها من الله . وإذا ما ظهر أي تباس ، فيمكنهم معالجته بالرجوع إلى أقوال رب يسوع ، أو إلى قول لبولس أو بطرس او غيرهما من الرسل الآخرين .

وبانتهاء القرن الأول للميلاد ، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أكملت ، و لكنَّ هذه الكتب ، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة . فيمكن مثلاً أن تملك إحدى الكنائس أنجيل متى ، بينما يكون أنجيل يوحنا في حوزة كنيسة أخرى . أمّا كنيسة ثلاثة فقد يكون عندها أربع رسائل لبولس أو خمس . و من الممكن ان تجد في مكان آخر رسالة بطرس الأولى او سفر الرؤيا . إلى هذا ، فقد وُضعت كتابات مسيحية أخرى باتت مشهورة في الأوساط الشعبية ، الأمر الذي حتم على قادة الكنيسة ان يقرّروا آيا من هذه الكتابات هو صادر عن الرسل أنفسهم . أو أي منها يمكن اعتباره له سلطة ، و ملهمًا بوحى من الله الى خدامه المختارين ، أو أي الكتب يُعتبر من عمل انسان أصدره ، ربما ، عن حسن نية ؟ و في بداية العام 180 ميلادي ، ظهر بين المسيحيين شبه اجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية و معترفًا بها . وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية ، صاغ ماركيون (Marcion) في عام 140 ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه ، و لكنَّ نظرية ماركيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغnosticism ، ومال إلى رفض تلك الكتب التي لا تدعم آرائه . على أنَّ كتاباً آخرین ، من الرعيل الأول ، وافقوا على الكتب المقبولة من ماركيون ، مضيفين إليها كتبًا أخرى ، اعتنادوا ان يستعملوها في كنائسهم . وفي الغرب ، كانَ أنجيل يوحنا أقل شعبية من الأنجليل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين : متى ومرقس

ولوقا ، و التي تُدعى الأنجليل السينوتية . و هناك ايضا ، لم تُقبل الرسالة الى العبرانيين إلا ببطء . أما في الشرق ، من الناحية الأخرى ، فلم يُعرف بسفر الرؤيا باديع ذي بدء . في مستهل القرن الثالث للميلاد ، ألح ترتوليانوس الى كل واحد من الأنجليل الأربع عندما كان يصف حياة المسيح . أما في أواسط القرن الثالث ، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تُولف العهد الجديد الذي عندنا اليوم ، مُعرضاً بأصالتها و سلطتها . على أن رسالة آثانياوس (Athanae) ، ناظر كنيسة الإسكندرية ، و التي كُتبت في سنة 367 م ، تُعتبر عموماً ، أنها الأولى التي تُعرف بلائحة أسفار العهد الجديد القانونية ، و التي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا . وبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، حدد المؤمن الذي انعقد في قرطاجة ، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد ، و هي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم .

و من الطبيعي ، أن قبول هذه الكتب ، يعني رفض غيرها من الكتب ، تلك الكتب التي ندعوها اليوم « الأسفار الأبوكريفية » (Apocryphe) . فإن كتابات الأبوكريفا تتحدث عن خوارق شاذة و غريبة ، و واضح أنها تختلف عن الروايات المتضبطة والزينة التي جاءت في الأنجليل و أعمال الرسل . و على الرغم من ذلك ، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك الذين يستمتعون بالأوهام و التخيّلات ، و لم يعطوا اعتباراً و تحفظاً للتعليم الذي رافق هذه الكتب و الأسفار . و تزعم بعض هذه الكتب أن كاتبها كانوا الرسل عينهم ، ولكن بعد التقصي الدقيق تبين أن هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات و الوثائق التي كان ، و لا شك ، قد خلقها وراءهم هؤلاء الرسل . فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزور ، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن ان يكون بطرس قد علمها . و هناك ما يُدعى « رسالة بربابا » ، التي من الممكن ان تكون قد ألفت و جُمعت في القرن الثاني للميلاد¹ . أما الكتاب الأكثر شهرة ، فهو ذلك المدعو « ديداكى » (Didache) ، أي « تعليم الرسل الثاني عشر » ، و ربما كُتب في نحو عام 100 للميلاد . وقد أشار آثانياوس في القرن الرابع الى كتابات الأبوكريفا هذه بالقول إنها « الكتب التي لا تحمل أيام سلطة ، ولكنها عينت من الميحيين الأوليين لتقرأ على أولئك الذين آمنوا حدثاً »² . إن القصة المجازية المسماة « راعي هرماس » (Le Berger d'Herma) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية ، و هناك رسالة أخرى بعنوان رسالة أقليمندوس (L'Epître de Clément) ، وعدد من النصوص الأخرى كذلك الروايات التي تُدعى التحدث عن طفولة المسيح و الرحلات التي قام بها بطرس و بولس و الرسل الآخرون . لقد أدعى بعض الأشخاص او الكنائس خلال القرون الأربع الأولى للميلاد ، يجب أن يُعرف بقانونية بعض هذه الأسفار و الرسائل الآتقة الذكر ، و حاولوا إنزالها الى جانب الأنجليل و الرسائل التي تكون كتاب العهد الجديد اليوم ، ولكن أغلب الكنائس أجمعـت على رفضها . هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا ، تُظهر ، في كل حال ، عيبـاً في تعاليمها و مبادئها ، وهي تفتقر الى الضبط و التوازن اللذين ييزان الكتب المعترف بها من الكنيسة ، و المعتمدة منذ ذلك الحين على أنها تشكل كلمة الله الموحـى بها و ذات السلطة .

لقد صارت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام و اجلال شديدين . وكان قادتها يرجعون مراراً إلى هذه الكتب عند الوعظ والتعليم ، كما أن علماء الlahوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للإيمان وتوضيحها . فترتوبيانوس مثلاً ، بني فهمه للثالوث الأقدس ، بشكل كامل ، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل . وقال : « كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس ». ³ آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى ، كأسفار موسى و كتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم : « تكلم إنسان الله القديسون مسوقين من الروح القدس ». ⁴ و شمرروا بالحاجة إلى تفخيم الكتاب المقدس ، للوثيق بوعود الله المعلنة على صفحاته ولتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية . وعن هذا أيضاً ، أجاد ترتوبيانوس مرة أخرى بالقول : « نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة ، وذلك لنتستطيع أن نرى ما إذا كان أيّ من أمورنا الحاضرة يحتاج إلى تحسين أو إعادة نظر . وفي كل الحالات ، نحن نعتدّ إيماناً بهذه الأقوال المقدسة ؛ إننا نبعث رجاءنا ، و نؤسس ثقتنا ، وفي الوقت نفسه نحن نقوى تهذيبنا و انبساطنا بالإلتباه الثابت إلى الوصايا ». ⁵

كان المسيحيون الأوائل ملمّين تماماً ، ليس فقط بالعهد الجديد ، بل بالعهد القديم أيضاً . فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية . و النسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربع الأولى ، كانت الترجمة إلى اليونانية ، والتي عُرفت بالترجمة السبعينية (Septante) ، ويرمز إليها أحياناً بالأحرف اللاتينية المختصرة LXX . لقد توالت سبعون أو اثنان و سبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الإسكندرية العمل الترجمي من العبرانية إلى اليونانية ، وذلك في حدود السنة 200 قبل الميلاد . فانفرد كلّ من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة ، كما تذكر القصة ، فجاءت ترجمتهم متطابقة بشكل أعمجوبي رائع . والجدير ذكره أن ترتوبيانوس وأغسطينوس لم يعيروا هذه الأسطورة الشعبية اهتماماً كبيراً ، ولكنهما مع ذلك كانوا يقدران هذه الترجمة .

أبدى المسيحيون الأوائل احتراماً كبيراً للترجمة السبعينية ، خصوصاً في ضوء الأدعاءات عن أصلها المعجزي . و كانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم و مناظراتهم مع اليهود . إلا أن بعض المسائل العقائدية المستمدّة من السبعينية ، كانت مع الأسف تستند إلى ترجمة مغلوطة للآيات موضوع الجدل . ولم يتم التخلّي عن هذه العقائد إلا بعد أن اكتملت الترجم التي أُجريت في ما بعد ، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة « باللغة » (Vulgate) .

لم يُوضع علم الlahوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية . فمثلاً مثل لائحة الأسفار القانونية في العهد الجديد ، أتّباع قطعة ، تجاوياً مع الاحتياجات الجارية ، او استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة . لقد وضع معظم الكتابات اللاحوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيرينيُوس (Iréneé) و ترتوبيانوس و أوريجانوس جواياً عن تحديات اوردها القادة ، او بعض المسيحيين الذين كانت آرائهم و تعاليمهم غير نقية . ففي الواقع ، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا ، لأنّه لو لا تهجمهم ذاك ، لما حُمل أصحاب تلك العقول المتهمة

المعاصرة على الغوص في تفسير أدق المسائل المرتبطة بالخصوص الكتابية الموحى بها . إن هذه التساؤلات الأساسية نفسها تثار من جيل إلى جيل ، والأجوبة التي قدمها لها ترتوثيانوس وغيره منذ أكثر من 1600 سنة ، لا تزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ .

ففي إحدى المناسبات ، سأله بعض الذين دأبهم الخط من قدر الإيمان : لماذا سمح الله ان يقع الإنسان في الخطيئة ؟ لماذا لم يحم الله الإنسان من الإغراء ، أو يعطيه ، على الأقل ، القوة ل抵抗 الإغراء ؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لأدم بأن يقع في الخطيئة ، لا بد من أن الخالق كان يفتقر إما إلى الصلاح وإما إلى المعرفة المسبقة وإما إلى القدرة . و كان قصدهم في الواقع ، أنه لو ان الله موجود حقاً ، لوقعت الملامة عليه بالنسبة إلى الشر الموجود في العالم ، او ربما ألمحوا بشكل مبطن إلى أن الله غير موجود على الأخلاق .

حمل ترتوثيانوس بعنف على هؤلاء النقاد و ذلك بأسلوبه المؤثر المعتمد . قال : « والآن ، جواباً عن تساؤلاتكم ايها الكلاب الذين طردتهم بولس الرسول وأخرجتهم خارج الأبواب ^٦ ، أنت يا من تبحرون على الله ، إله الحق . هذه هي الأسئلة التي ما فتتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام : " فإذا كان الله صالحًا و يعلم الأشياء مسبقاً ، و له القدرة على ردع الشر ، فلماذا يسمح للناس إذا ، بأن يخدعهم إيليس ، و يسقطوا من الطاعة لقوائمه تعالى لكي يموتون ... ؟ فإذا كان الله صالحًا ، فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا ، و إذا كان يعلم الأمور مسبقاً ، فإنه لن يكون غافلاً عمّا سيحدث ؛ و إذا كان قوياً ، فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله . وكل حالة او وضع يتوجب ان يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي ^٧". »

و بعد أن أثار هذه التساؤلات ، شرع ترتوثيانوس في الإعداد للإجابة عنها . وقد آتى في ذلك مثال المسيح ، مشيراً إلى أن صلاح الله ، و معرفته الكلية ، و قدراته المطلقة ، ظاهرة بوضوح ، من خلال أعماله في الخلق ، و كذلك في إرساله الأنبياء الذين تباوا بدقة عما سيحدث في المستقبل . وأخيراً اقترح ترتوثيانوس الآ يُصار إلى البحث عن الشر في طبيعة الله ، بل في طبيعة الإنسان ؛ وأضاف قائلاً : « أجد أن الله خلق الإنسان مخلوقاً حرّاً وأعطاه إمكانية الاختيار . و هذا بالذات ، يُظهر لي شبه الله و صورته التي أوجدها في الإنسان اذا قد ميّزه تعالى بالحرية و إمكانية الاختيار . ثم يأتي الناموس نفسه الذي أَسْسَه الله ليثبت واقع حال الإنسان هذا . فالناموس لا يُعطي إلا لذاك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس ... إذا ، مُسْحِح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح والطالع ، ليكون بذلك سيد نفسه باستمرار ، ملتصقاً بالخير طوعاً ، و نابداً كذلك للشر . لأن حكم الله على الإنسان (و هو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار) ، من الضروري أن يكون عادلاً ، و ناجحاً من اختيار الإنسان الحر . و إلا ، فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالعين ، فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر او الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار ^٨ . »

قال ترتوثيانوس إنه كان بإمكان الله ان يلزم الإنسان باطاعته طاعة دائمة ، لكن مثل هذه الطاعة تمثل العبودية أكثر من تمثيلها حبّ الإنسان لربه . إن الصلاح الحقيقي هو سجية

علينا أن نقبلها طوعاً ، وبشكل حر . فالإنسان غير مرغم أبداً على العيش حياة القداسة أو الشر . فبإمكانه ، باختياره الشخصي ، أن يتلخص بالخير و يقاوم الشر ، وبهذا يصبح على شبه الله نفسه . ولكن إذا كان الإنسان حرًا في اختيار الخير ، فهو حر أيضاً في اختيار الشر : وهذا ما يفعله أحياناً . ان سقوط الإنسان ، و الشر الذي في العالم ، هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله . و حتى في هذه الحال ، يبقى الأمر أفضل من إلزام الإنسان بطاعة قسرية لله ، تُظهر قوته تعالى ، لكنها في الوقت عينه ، تجعل الإنسان عبداً . إن الله ، بمنحه هذه الحرية للبشر ، أظهر بذلك بصيرته و حكمته و صلاحه ، ولم ينكر لها .

لم يكن ترتوبيانوس صبوراً على أولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله . لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة : ديان و فاد . قال ترتوبيانوس : « أنت تدعوه قاضياً ، ومع ذلك فإنك تخسر من قسوة القاضي الذي يتعامل مع كل قضية كما تستوجب او تستحق تماماً . أنت تطلب إليها مطلق الصالح ، وبعد ذلك ، عندما يُظهر الله وداعته و لطفه من خلال تنازله ، ليتلاعِم مع قدرات الإنسان الفقيرة المحدودة ، تتفقص من قدره تعالى متهمًا إياه بالضعف . فلا الإله العظيم يسرّك و لا الإله الوديع ، لا الإله القاضي و لا الصديق . »⁹ ولكن الكثير الانتقاد لا يبني في الواقع أية رغبة في قبول شيء ، فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحة بالحصول على الجواب الشافي ، و نادرًا ما يأبه لاكتشاف الحقيقة .

لم تكن وقائع حياة المسيح و موته و قيمته موضوع نقاش او جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد ، لأنها كانت من المسلمات بالنسبة الى اليهود و الأمم على السواء . فالاهتمام كان بالخرى منصبًا على طبيعة المسيح نفسه . هل كان المسيح انساناً عادياً مسحه الله بقوة خاصة ؟ أو هل كان ملائكاً وذا جسد شبه بشري ؟ هل كان المسيح كائناً خاصاً ، خلقه الله و لكنه ميّزه عن كل من الملائكة والناس ؟ لقد تشبعَت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تُعرف اليوم بالبدعة الغنوسيّة . كانت المذاهب الغنوسيّة متأثرة جداً بالتفكير اليوناني ، و كان أنصارها يدّعون أن لهم إدراكاً أعمق للحقائق مما يغرسهم من ابناء جيلهم ، و ذلك بسبب اطلاعهم ، و معرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة ، و علم الأساطير أو علم التجسيم . وقد فسروا الكتاب المقدس ، و كل الأشياء الأخرى ، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه . كانوا يعتبرون المادة بحملتها شرّاً ، ولم يستطعوا ان يتصوروا ابن الله القدوس آخذاً جسداً بشرياً . فقالوا فيه إنه ينبغي ان يكون إما ملائكاً و إما روحًا .

يقبل ترتوبيانوس التحدى : « لم يهبط ملاك من السماء قط لبُصلب و يختبر الموت ، ثم القيامة من الأسوات ... لم يأت الملائكة ليموتونا ، لذا لم يأتوا ليولدونا أيضًا . ولكن المسيح أرسل ليموت ، لذا كان من الضروري ان يولد حتى يتمكن من ان يموت . »¹⁰ لقد أصبح انساناً حقيقياً من لحم و دم كما نحن .

و في مناسبة أخرى ، يرد ترتوبيانوس على أولئك المعارضين ، مبدداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري فاسد ، و بالتالي غير لائق بين الله . « دعوني الآن أكمل قصدي إذ أبدل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه . » فعندما خلق الله آدم من طين

الأرض ، كان بإمكان آدم «أن يفتخر بأن هذا الطين الحقير قد وجد في يديه تعالى ... وقد سرت هذه اللمسة بما فيه الكفاية ». ¹¹ ولكن الله لم يفكر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا ، وإنما فكر أيضاً في ابن الله الذي سيحصل أخيراً على الشكل نفسه والهيئة نفسها . «فلنفكر في الله وهو مشغول ومهتم تماماً في عمل الإنسان ، فيده تعمل مع مشاعره ، ونشاطه ، وتدبره وعلمه المسبق ، وحكمته وعنايته ، وفوق هذا كله تلك الحبة التي كانت ترسم الخطوط والمعالم في الكائن البشري . لأنه بينما كان الله يقولب كل جزء في الإنسان من الطين ، كان المسيح في فكره تعالى ، باعتباره ذاك الإنسان الذي سيكون في الزمان الآتي . لأنَّ كلمة الله سيصير طيناً وجسداً ... بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف وأبيل من أصلها ... فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن يستخرجه من الأرض ، ولكن بعد تصفيته يتحول إلى ذهب صلب جامد ، ويصبح مادة مختلفة تماماً عما كانت عليه قبلاً ، إذ يكون أكثر اشراقاً وروعة ، ويكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي ابتق منه ». ¹² إن المسيح هو من طينة آدم وجلته ، يبدأ أن مجده هو أعظم مما لا يقاس .

إذاً ، ليس من السخافية في شيء ان يكون المسيح إلهًا وإنسانًا في آن ، فهو يمتلك روحًا إلهيًّا وجسداً بشريًّا . وبضيف ترتوبيانوس قائلاً : «نتعلم اذاً مع نيكوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح ». ¹³ فالجسد لا يصبح روحًا ولا الروح جسداً ، ولكن يمكن لكتليهما ان يوجدا في شخص واحد . كان يسوع يتكون من جسد وروح - من جسد كإنسان ، ومن روح بصفته الله . لقد دعاه الملائكة 'ابن الله' ، وذلك بما أنه روح ، مستقبلاً للجسد اللقب 'ابن الإنسان' . وعلىه فقد أيد الرسول بولس ان للمسيح طبيعتين عندما قال عنه : إنه 'الوسيط بين الله والإنسان ' . ¹⁴

حار الغنوسيون بفكرة الثالوث الأقدس ، و وجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح ان يكون هو الله نفسه ، مع انه يختلف عن الله . لقد علموا ان المسيح هو كائن خاص ، ولكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساوياً لله . أعطى ترتوبيانوس قدرًا كبيراً من التفكير في هذا الأمر . و يبدأ باستعراض ما تعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول : «قبل ان توجد الأشياء كلها ، كان الله وحده . كان هو نفسه الكون الخاص به ، والمكان الخاص به ؛ كان الله كل شيء . كان وحيداً ، يعنى انه لم يكن هناك شيء خارجاً عنه . ومع ذلك ، لم يكن الله وحده ، حيث كان معه ما هو جزء منه ؛ لقد كان معه ذهنه . فالله هو عاقل والذهن موجود معه منذ الأزل ، و منه انتشر إلى كل الأشياء . وهذا الذهن هو وعيه الشخصي للذاته . و اليونانيون يدعونه اللوغوس(Losos) ، والذي هو المصطلح الذي يستعمله للخطاب . وهذا ما يترجمه شعبينا حرفيًّا بالقول : 'في البدء كان الخطاب عند الله'. ¹⁵ وهنا بالطبع ، يشير ترتوبيانوس الى افتتاحية المختل في بوحنا حيث أن «الكلمة» (يعنى الذهن والعقل والخطاب) يمثل المسيح . «في البدء كان الكلمة ، و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ». ¹⁶

وأردف ترتوبيانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدهنا . « ولكي نفهم ذلك بسهولة أكبر ، لاحظ أولاً نفسك (حيث انت ' صورة الله و شبهه ') بأنه عندك أنت أيضًا ذهن ، و ذلك لكونك مخلوقًا عاقلاً ... لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت ، وفي تشغيل ذهنك ، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك ، حيث أنَّ الكلام يعبر عن الذهن ، و ذلك في كل لحظة من لحظات التفكير ، و في كل نشاط للوعي والشعور . فكل فكر تفكّره يُعبّر عنه بحديث و كلام ، و كل لحظة من لحظات الوعي تُعبّر عن نفسها من خلال التفكير ... و عليه ، فالحديث الذي يدور في داخلك ممِيز ، بمعنى من المعاني ، عن ذاتك ». ¹⁸

يفكر الله بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الإنسان ، حيث أنَّ الإنسان صُنع على صورة الله و لكن مع الفارق التالي : أفكار الله لها القدرة الامتناعية لتصبح حقيقة . يامكان الإنسان ان يفكر في أسرور عظيمة و لكن ليس له القدرة على ان يتحقق كل ما يتصوره . الله بالمقابل ، لا يحتاج إلا إلى أن يفكر في شيء ، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً و ذلك فوراً و من العدم . و الكلمة الذي كان دائمًا في فكر الله ولد أو أنجب في اللحظة التي فيها أخجز الله مضمون فكره . « هذا اذاً هو الوقت الذي فيه يظهر الكلمة بظهوره و لباسه الخارجيين ... كانت هذه الولادة الحقيقة للكلمة عندما انبثق من الله ». ¹⁹ فقد لاحظ تلاميذ المسيح ان سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله . « و الكلمة صار جسداً و حلَّ بيننا ورأينا مجده كما لوحيَّد من الآب ملءاً نعمة و حقًا ». ²⁰

قال ترتوبيانوس إن « الكلمة (المسيح) جعل الله أباً له حيث أصبح بابنائه منه ، الابن الأول ، و هو كذلك لأنَّه منيتش قبل كل الأشياء ؛ كذلك هو الابن الوحيد للأب بصفته منيتشاً بشكَلٍ فريدٍ من أحشاء قلبه تعالى ». ²¹ و الكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أنَّ المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله ، من عقله الداخلي . وقد تحدث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم . ²² كذلك تحدث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم ، ²³ وعن الآب الذي أرسله إلى العالم المخلوق . ²⁴ ولكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض ، كان « في الآب ». و هو الذي صرَّح بالقول : « أنا والآب واحد ». ²⁵ وأيضاً : « لست وحدي بل أنا و الآب الذي أرسلني ». ²⁶ لقد جاء المسيح من الآب ، و كان لا يزال واحداً مع الآب . وبعد قيامته عاد إلى الآب . كان دائمًا ويشكل ثابت ، كلمة الله ، والإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته .

بهذا الاسلوب حاول ترتوبيانوس ان يجيب عن أسئلة الغnostيين . ولكن ، كانت هناك جماعات أخرى على تقىض الغnostيين ، تُثبت انَّ المسيح و الآب كانوا متطابقين على نحو مطلق . وقد وجد ترتوبيانوس جواباً لهؤلاء أيضاً . فيسوع نفسه قال : « أبي أعظم مني ، ²⁷ و ذلك ، كما لاحظ ترتوبيانوس ، لأنَّ الآب هو الجوهر الكامل (للألوهية) بينما الاب انبثق منه و هو جزء من كل ... جاء الابن من الآب ، ولكنه لم يكن منفصلأً عنه . لأنَّ الله يتسع الكلمة ... كما الجذر يتسع النبتة ، و النبع النهر ، و الشمس الشعاع ، حيث أنَّ هذه المظاهر

كانت « امتداداً » للجواهر الذي ابشتقت منه . أبا لا أتردد في أن أدعوا النبتة « بنت الجذر » ، وكذلك النهر « ابن الينبوع » ، والشاعع « ابن الشمس » . حيث أن كل مصدر أصلي هو والد أو والدة ، وما يتوجه هو ابنه أو ابنته و هذه الحقيقة تصبح أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم « ابن » كلقبه المناسب . ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر ، والنهر ليس منفصلاً عن الينبوع ، والشاعع غير منفصل عن الشمس ، وهكذا كلمة الله ليس منفصلاً عن الله . وعليه ، واستناداً إلى هذه التساؤرات ، أعرفُ بأنني أتحدث عن اثنين : الله و كلمته ، الآب وابنه . إن الجذر وبناته هما اثنان ، ولكنها متحدان . النبع والنهر اثنان ، ولكنها موحدان ؛ الشمس و شعاعها اثنان و لكنهما متحدان . فإن أي شيء يتبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئاً ثانياً ، ولكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه . وعندما يكون هناك واحد ثان ، فإنهما اثنان ، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة . الروح القدس هو الثالث من الله والابن ، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة ، والقناة من النهر هي الثالثة من الينبوع ، وال نقطة المضاء بالشعاع هي الثالثة من الشمس . ولكن أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمد منه صفاتها الخاصة . وعليه ، فإنَّ الثالث يتبثق من الآب بخطوطات مستمرة و متصلة بعضها ببعضها الآخر . وهذا لا يطعن ، بأي حال من الأحوال ، في وحدته تعالى ، لكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة .²⁷

وبهذا ، ختم ترتوبيانوس حديثه قائلاً إنَّ الآب و الروح القدس ابتدأا من الله نفسه . كانوا موجودين مع الآب منذ الأزل ، ولكن ، في الوقت المعين أرسلوا لإعلان عن الله نفسه . الكلمة هو الله ، ولكن الله هو أكثر من مجرد كلمته . الروح القدس هو الله ، ولكن الله أكثر من مجرد روحه . فالله يشتمل على كل هؤلاء : هو نفسه ، كلمته وروحه . إنَّ الكلمة الله هو إعلانه عن نفسه تعالى . روح الله هو اعلانه عن نفسه أيضاً ، ولكن يبقى هو الله نفسه ، الله الواحد كما كان دائماً و كما سيجيئ إلى الأبد .

ولكن ترتوبيانوس اعترض على بعض الناس الذين يدعون أنه لم يكن هناك فرق او تمييز بين الآب والابن ، ويدهبون في ذلك إلى حد الجزم ان الله الآب مات على الصليب وحمل خطية الإنسان . أجابهم ترتوبيانوس : « إنَّ هذا القول هو تجذيف على الله ، فلتتوقف عنه ، ولنكتفي بالقول إنَّ المسيح ابن الله هو الذي مات . لقد مات ، لأنَّ هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس . . . وعليه ، وبما أنَّ للمسيح طبيعتين ، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية ، وبما انه متفق عليه ان الله لا يموت ، اذا الطبيعة البشرية هي وحدتها المائنة . فمن الواضح انه حين قال الرسول ، إنَّ « المسيح مات » فهو يتحدث عن الجسد والإنسان و ابن الإنسان ، وليس عن الروح والكلمة و ابن الله ».²⁸

للمسيح طبيعتان ، أضاف ترتوبيانوس ، « متحدان في شخص واحد ، يسوع ، الذي هو الله و الإنسان . . . لقد ظل كل جوهر محتفظاً بخصائصه ، بحيث تم

الروح في المسيح نشاطاته الخاصة - القوى والمعجزات والأمارات - بينما جسده أخبر ما يختص بالجسد - الجوع عندما التقى المسيح إيليس ، والعطش في مقابلته مع المرأة السامرية ، والبكاء عند موت العازر ، والكتاب حتى الموت ، وأخيراً موت الجسد .²⁹ لقد جرب المسيح بجسده وفكه ، بالاغراءات نفسها التي تضمنها ³⁰ ، فلم يكن محضًا ضد الاغراءات ، كما لم يكن متأكدًا من النصر الفوري عليها . ولتكن كان يستمد القوة من الروح الإلهي الموجود فيه ، فلم يستسلم قط . تألم ومات بجسده الشري كابن الإنسان ، ومع ذلك فقد بقي روحه الإلهي حيا . ترك روحه الجسد في لحظة الوفاة .³¹ ولكن عاد إليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات .

و هنا نرى الفرق بين الابن والأب . الأب لا يتغير وليس له جسد مادي . فهو لا يموت ولا يقوم من الأموات . الابن هو الذي عانى وتألم ومات بالجسد ، كما يحدث للإنسان فقط . لقد صرخ يسوع : «إلهي إلهي لماذا تركتني .»³² قال ترتوهيانوس : «لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد والنفس ؛ كانت صرخة الإنسان ، لا صرخة الله . وهذا ما عنده الرسول بقوله إنَّ الآب لم يشق على ابنه ³³ ، وقبل هذا ، صرخ اشعاعي النبي قائلاً : «والرب وضع عليه أثم جميعبنا .»³⁴ كان الله الأكيد هو الذي بذل الله الابن من أجلنا . وكان الله الابن وحده من ابتنى من الأكيد ، وتجسد ، وحمل اوزار الخطية . «الأكيد يختلف ويتميز عن (إنسانية) الابن ، مع انه لا يختلف عنه بألوهيته .» و قد قدم ترتوهيانوس الإيضاح هنا بالقول : «إذا كان هناك جدول مياه ملوث ... فهذا لا يسوش في مصدره او منبعه ، مع انه ليس هناك انفصال بين المصدر والجدول .»³⁵ لقد ألمت الابن ، ولكن ليس للأب جسد بشري ، لذا لا يمكن ان يموت . و هنا يمكن الفرق بين أقانيم اللاموت .

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الآيات و نقله الى الأجيال الصاعدة من دون فساد او خطأ . ولكن لا يفترض بالجميع ان يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإثباتات المطقية والتفنيد . و لحسن الحظ نقول إنَّ التماليسم الأساسية للمسيحية كانت واضحة و عملية بشكل عتاز . و كان أبسط المؤمنين يتمكّن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري - لإطاعتها والإيمان بها ، حتى وإن لم يفهمها بالكامل . فالإنسان يستطيع ان يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوهيانوس المعقدة ، او يفهمها تماماً .

منذ البدء راح المبشرون والوعاظ ينادون بالأخيال في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة ، وكانتوا من ثم يعلمون المهددين ، كيفية الحياة كمسحيين . عرف معظم أولئك الرحالة رسالة المسيح بشكل جيد ، و فسروها بوضوح و دقة ، ولكن بعضهم ، مثل أبولوس في أنسس ، وغيره ، كانوا هم أنفسهم في حاجة الى تعلم طريق الرب بأكثر تدقير .³⁶ لقد خلفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا و هناك ليتأضلوا بأنفسهم ، من دون ان يكون لديهم ولو جزء

يسير أسفار الكتاب المقدس . أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً و تعاليم غير صحيحة تماماً ؛ وبعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح ، ان تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل . و المشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجودة هناك ، هي كيف يمكنهم ان يميزوا بين المجموعات التي يجور اعتبارها ككنائس حقيقة للمسيح ، والمجموعات الأخرى المرفوضة . فاقتراح ترتوبيانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما . أولاً ، يُسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الاثني عشر ، أو احد الخدام المافق عليهم ، والذين تم تعينهم من أحد الرسل . ثانياً ، هل الكنيسة تعلم المبادئ نفسها التي علمها المسيح و رسليه؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية ، ويجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح .

وبعد ذلك يضع ترتوبيانوس المبدأ العظيم : اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد . فيعيدنا الى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع : «لقد شهدوا اولاً بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك ، و من ثم ذهبوا الى العالم و هم ينادون للأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه . وبالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة ، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان و بذور العقيدة . . . ولا تزال تقابسها في كل يوم . . . وهكذا فالكنائس ، مهما كثرت و عظمت ، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل ، والتي انشقت منها . . . فكل الكنائس واحدة . وهي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك ، و باللقب "إخوة" ، و برباط الصيافة المتبادلة .³⁷

تحدى ترتوبيانوس كنائس جديدة ، كانت قد عرضت مبادئ و تعاليم غريبة ، لتشتبه بها وأصالتها . فقال : «فليعرضوا أصول كنائسهم ، و ليكشفوا قوانيم بأسماء نظارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية ، بحيث يستطيع اول نظارهم ان يؤكد أن أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة ، و مصدر لسلطته .³⁸

إلا أن ترتوبيانوس أصر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة ، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم . «و الآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس ، أي إعلان المسيح لها ، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسسها الرسل اذا كرزوا لها شخصياً ، و بواسطة رسائلهم في ما بعد . . . نحن في شركة مع الكنائس الرسولية اذا لا اختلاف في العقيدة . و هذا ما يضمن أننا نعلم الحق .³⁹

و قد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلميين المبدعين الذين قدّموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادعوا انها من مخطوطات الرسل . فرد ترتوبيانوس على هذا بالقول : «حتى وإن استنبطت هذه البدع أنساباً كهذه ، فلن يفيدهم ذلك في شيء ، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل ، تُظهر باختلافها و بعدم تشابهها انها لم تصدر لا عن الرسل ، و لا عن أي شخص كان له علاقة برسول . . . يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع

الكتابات اللاحقة التي تُؤسس يومياً . و مع انهم قد لا يستطيعون ان يذكروا رسولاً أو شخصاً له علاقة برسول ، كمؤسس لهم ، إلا أنهم يستطيعون ، إن أخذوا حول الإيمان الواحد ، أن يُحسبوا أيضاً رسولين ، وذلك بسبب التجانس في التعليم .⁴⁰

و حين واجه ترتوبيانوس التكاثر المستمر لكتابات الجديدة ، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجل أصالتها و تُسبّبها خطوة خطوة ، حتى تعود بهذه الأصالة أو النسب إلى أحد الرسل ، ولكن المحك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح ، إمكانية إثبات أن عقيدتها تناسب مع عقيدة الرسل ، كما هي مدونة في الكتاب المقدس ، و كما كانت تعلم الكتابات القديمة . مع ذلك ، لم يعش ترتوبيانوس ليرى حشد القوى المتأخرة ، للمعركة الكبيرة بين « العقيدة » و « النسب والأصالة » التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته .

ملاحظات

- لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة بربنابا وما يسمى « بإنجيل بربنابا » ، إذ لا توجد آية إشارة إلى هذا الخبر في آية وثيقة قبل نهاية القرن الخامس ، حين ذكر كعمل هرطقي متاخر وغير مقبول . وهناك كتاب يرجع إلى القرن الثامن عشر يدعي أنه هو ذلك الإنجيل المفقود . لكنه مكتوب بالإيطالية ، ويحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع ومن « الكوميديا المقدسة » لدىتي في القرن الثالث عشر للملحد . لهذا ، فلاشك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع إلى زمن الرسل . وأخيراً نلاحظ أنه لم يتم العثور على آية وثيقة أخرى عن هذا « الإنجيل » المزيف .

Epistolae Festales 39; Bainton p. 98 -2

Adversus Praxean 11 -3

21:1 -4 بطرس

Apologeticus 39 -5

بالإشارة إلى فيلي 2:3 -6

Bettenson ECF pp. 111 - 112: راجع ترجمة *Adversus Marcionem* 2:5 -7

Adversus Marcionem 2:6 -8

Adversus Marcionem 2:27 -9

De Carne Christi 6 -10

إن المعجزات التي مجّدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده ثيّبَنْ يوضح أنه أعظم من أيّ واحد من الآباء . لذلك ، ومنذ الأزلة الأولى ، نال اللقب الفريد والسامي : « ابن الله » ، بوصفه الشخص الذي مثل الألوهة وأظهرها في الأرض . هذا ، وإنَّ المسيحيين في الماضي ، كما في الحاضر ، يعرفون أنَّ لهذا التعبير مفهوماً رمزياً روحيَاً ، وليس جسديَاً أو ماديَاً .

De Resurrectione Carnis 6 -11

De Resurrectione Carnis 6 -12

بالإشارة إلى بوحننا 6:3 -13

-14 *Adversus Praxean* 27: بالإشارة إلى 1 تموثاوس 5:2

-
- Adversus Praxeans* 5 - 15
 3 - يوحنا 1:16
 17 - بالإشارة الى كورنثوس 11:7
Adversus Praxeans 5 - 18
Adversus Praxeans 7 - 19
Adversus Praxeans 7 - 20
 14:21 - يوحنا 1
 5:17 - يوحنا 2
 24:17 - يوحنا 3
 18:17 - يوحنا 4
 16:8 و 38:30 - يوحنا 5
 28:14 - يوحنا 6
Adversus Praxeans 7 - 27
Adversus Praxeans 29 - 28
Adversus Praxeans 27 - 29
 15:4 - عبرانيين 30
 50:27 - متى 31
 46:27 - متى 32
 32:8 - بالإشارة الى رومية 33
 6:53 - *Adversus Praxeans* 30 - 34
Adversus Praxeans 29 - 35
 26 - اعمال 36
De Praescriptione Haereticorum 20 - 37
De Praescriptione Haereticorum 32 - 38
De Praescriptione Haereticorum 32 - 39
De Praescriptione Haereticorum 32 - 40

- راجع بشأن أمر تثبيت قانونية أسفار المهد الجديد :

Schaff HOTCC Vol. II pp. 516 - 524 ; Bainton pp. 97 - 99
 التي تشكل موضوع جدل ، راجع ANF Vols. III & IV . يعرض ECF Bettenson ترجمة حديثة أكثر
 بالإنجليزية مقاطع مختارة من عمل ترتوليانوس .

الفصل التاسع

معاناة الأبراء

منذ الأيام الأولى لل المسيحية ، عرف اللاهوتيون بالإنجيل وفسروه بكل تأثير ، ودافعوا عنه بالمنطق والذكاء . لكن ، في واقع الحال ، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعلياً ، أقلّ على الأرجح من البرهان المنظور لقوتها كما برب بين معتقدها الأكثر تواضعاً . لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول ومحبوب منطقياً . كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهان صدقه وصحته ، وذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين من كل فئات المجتمع ومرتباته . وقد ظهرت جدارة هذا الإيمان في ما تحلى به المسيحيون الأولون من خلق مستقيم ومحبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم . كما أن هذا الإيمان بان جدائياً في عطفهم على المحترفين والضعفاء من الناس . أما قدرته ، فقد بُرِزَتْ قبل كل شيء في مواجهتهم لاضطهاد بثبات لا يتزعزع . وبالتأكيد ، كان أولئك المسيحيون على اتصال بالكائن الإلهي ذي القوة والسلطان العظيمين . لقد قُدِّرَ لهذا الإيمان الجديد بشكل واضح أن يُبطل تلك الفلسفات المغيبة ، والدِّيانات التي أثبتت أنها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية ، لكي يحل محلها .

وعلى عكس ما يمكن أن تتصوّر ، كان نمو الكنائس يزداد سرعة على قدر ما يعنف لاضطهاد ضدّها . وقد اعتبرت السلطات في شمال إفريقيا أن المسيحية تشكّل تهديداً للاستقرار وأنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون ، وذلك على مدى السنوات الثلاث مئة الأوّل من وجودها . وكان أتباع المسيح ، في الواقع ، يُعتبرون من الخارجين على القانون ، وهم معرّضون في آية لحظة للمطاردة ، وذلك من حكم وولاة القناصل الرومان . كانت تمرّ سنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شيء يعكس نمو الكنيسة الهدىء . ثم فجأة ، حين تجمّع زوجة إمبراطور أو حاكم ما ، كان يصيّبهم اضطهاد عنيف . وكان كل مسيحي مؤمن يعلم ، أنه عاجلاً أم آجلاً ، قد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح وذلك على حساب حياته .

كانت كنائس شمال إفريقيا قد أفتّ كتابات العهد الجديد وما دونه من أعمال الشهادة ، كاستشهاد استفانوس ويعقوب . كما وصلتهم في ما بعد أخبار عن الامبراطور المجنون نيرون (Néron) ، الذي حرّضه غبيظه المتوجّش ضدّ المسيحيين في روما ، وعن ادعائه الكاذب بأنّهم أضرموا النار في روما ما أدى إلى هدم جزء كبير من المدينة . لقد علموا بموت البشيرين بطرس وبولس اللذين من المحتمل أنهما قُتلَا في هذا الوقت . وكانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دوريًا و بين الحين والآخر ، في أجزاء أخرى من

الإمبراطورية الرومانية ، كاستشهاد إغناطيوس (Ignace) ، ناظر الكنيسة في انطاكية ، والذي سبق إلى روما وُقتل هناك سنة 110 م ، واستشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام 165 للميلاد في روما أيضاً . ولكن لم يكن هناك شيء تجاوز أو حتى وصل إلى المشهد المأساوي لاستشهاد بوليكاريروس (Polycarpe) في أيامه الأخيرة ، وهو ناظر كنيسة سميرنا (تركيا) . وهذه الحادثة الأليمة مذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة .

كان بوليكاريروس في أيام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا ، و صديقاً لإغناطيوس . وعندما أصبح شيخاً مسناً كانت كنائس المنطقة تشتد في كثير من الأحيان استشاراته الحكيمية والمحبة . و غالباً ما كان يُدعى حل الخلافات التي قد تجمّع من جراء اختلاف وجهات النظر والأراء . عاش شيخوخة سعيدة و حافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبته وكرمه .

اهتزت الكنيسة في سميرنا بعنف عندما ألقى السلطات الوثنية ، وبشكل مفاجئ ، القبض على عدد من أعضائها ، وجرى إعدامهم بسبب الإيمان . وقد اجتمع كل من اليهود والوثنيين ليستمتعوا بالمشهد . وفي خضم هذه العاصفة الهوجاء ، راح بعض المتردجين يطالعون بقائد الكنيسة هانفين : «فتشوا عن بوليكاريروس .»

و هكذا تابع مؤمنو سميرنا بكل أمانة ، شرح ما حدث بعد ذلك ، فكتبو : «عندما سمع بوليكاريروس ، الرائع للغاية ، بهذا الأمر لأول مرة ، لم يرتعب او يفرز ، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلا أن غالبية المؤمنين حاولوا باللحاج ان يقنعوا بأن يترك المكان ، فانسحب إلى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها . وكان يقضي وقته هناك مع ثغر من رفقاء ، مشغولين ليل نهار بالصلة لأجل الجميع وللKennas في كل أنحاء العالم ، كماً كانت عادته دائمًا .» وبعد بضعة أيام ، انتقل إلى مزرعة أخرى قرية ، رافقاً بثبات الفرار من الجوار . كان يتوقع بالكلية ان تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة ، و كان يتظاهر بهدوء تام .

وفي وقت متاخر من إحدى الليالي المظلمة ، وصل جنود إمبراطوريون إلى المزرعة . وكان بوليكاريروس يرتاح في الغرفة العلوية . وإذا سمع أصواتاً و صخباً في الطابق السفلي ، قال باطمئنان : «لتكن إرادة الله .» ثم نهض و طلب أن يحضر الطعام والشراب المتعش للجنود ، وسألهم أن يمهلوه ساعة واحدة فقط ليصلـي . فعندما رأى الجنود ، تأثروا من شيخوخته و ثباته ، كما دهشوـا من افتعال مثل هذه الجلبة والضجة بسبب هذا الرجل الطاعن في السن . «وقف وصلـي ،» أردف الصحابة المسيحيون في سميرنا قائلين : «كان مكتلـاً من نعمة الله تعالى ، بحيث لم يكـف عن الكلام خلال ساعتي الصلـة ، بينما كان الذين حوله مشدوهـين متعجبـين . لقد أسف الرجال الجنود ، على انهم جاءوا يطلبـون هذا الرجل الخلـيل والعجوز المهيـب .» لقد صـلـي للجمعـيـع ، ولإخـوـته و لأخـوـاته في

المسيح ، ولكل من خطر بياله من الصحابة والأصدقاء ، ذاكراً إياهم بأسمائهم . و من ثم أجلسوه على حمار ، و ساروا به يقصدون المحكمة في سميرنا .

و عندما اقتربوا من المدينة ، لقاء رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفة في الطريق . فأخذوا بوليكاريروس في عربتهما و حاولا ثنيه عن عناده و رفضه القول : « مولاي القيصر » ، و رفضه إنفاذ حياته بتقديم القرابين و التقدمات للألهة الوثنية . و مع ذلك ، فقد أصرَ الشیخ الجليل على الرفض بأدب جم . و أخيراً ، حين يتسوا من شأنه ، و قد نفذ صبرهم ، دفعوه بغضب إلى خارج عربتهم . و قع بوليكاريروس بقوة إلى الأرض فجرحت رجله . وقد استخفَ بجرحه ، و بقي سائراً في الطريق مع حرسه ، حتى وصلوا أخيراً إلى الملعوب ، وهو الميدان الذي تجري فيه المباريات و تُعرض فيه المشاهد .

ثم تابع كاتب الرسالة يقول : « الآن ، و بينما كان يدخل المدرج ، جاءه صوت من السماء يقول له : « تقو يا بوليكاريروس ، و كن رجالاً ». لم ير أحد المتكلم ، ولكن ذلك الصوت سمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك . ». و علا صوت المحشدين حتى أصبح من الصعب سماع ماذا كان يجري . سأله القاضي بوليكاريروس أن يقسم بقوة قيصر الإلهية ، وأن يلعن المسيح . فأجاب بوليكاريروس ، و كان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسيحي : « لقد خدمت المسيح ستة و ثمانين سنة ، ولم يخدعني المسيح أبداً . فكيف تريدني الآن ان أجدّ على اسم مليكي ومخلصي ؟ »

أنذره القاضي ثانية ، فازداد بوليكاريروس صلابة و شدة ، و قال : « إن كنت تتوهم ، أنتي سأقسم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول ، متظاهراً أنك لا تعرف من أنا ، فاسمع جيداً : أنا مسيحي . و إذا كنت مستعداً و راضياً على أن تتلقن التعليم المسيحي ، فامتحني يوماً واحداً واصنع إليـ . ». حينئذ قال الوالي : « إذا أقنع الناس الذين هنا ». فأجاب بوليكاريروس : « لقد حسبتك مستحثقاً أن أتكلم معك ، فإن عقائدنا تعلمنا أن نخضع للسلاطين و للذين هم في منصب ، لأنهم مقامون من الله . أمّا هؤلاء الرعاع ، فلست أجد لهم يستحقون أن أقدم دفاعي أمامهم . ». هنا ، أنذره القاضي ثانية طالباً منه أن يقرب التقدمات للوثن ، مهدداً إياه بالوحش الكاسرة في حال استمر رفضه . فقال بوليكاريروس : « ارسل في طلبها ، إن الارتداد من الأحسن إلى الأسوأ هو أمر مرفوض عندنا ، ولكن التغيير من الباطل إلى الحق هو العمل النبيل . ». عندذاك هدد القاضي بأن يضرم به النيران و هو حي . « أنت تهددني بتار ثشتعل لفترة قصيرة ، » أجاب بوليكاريروس ، « و لكنك لا تعلم شيئاً عن النار الأبدية التي أعدت للأشرار . و الآن لماذا تتوانى ، جيء بما تشاء . »

عندما نطق القاضي بالحكم على بوليكاريروس ، فأعلن المنادي الذي يذيع الأحكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات : « لقد اعترف بوليكاريروس أنه مسيحي ! » فجهز العمود الذي يُشدّ إليه المحكوم بالموت حرقاً ، و كُدست حوله كومة من الخشب . مشى بوليكاريروس بهدوء

ونزدة الى المكان ، ووقف قبالة العمود . وبينما اقترب منفذو الحكم ليسمروه على العمود حتى لا يسقط ، طلب بوليكاربيوس الا يكلفوا أنفسهم كل هذه المشقة بالقول : « ذلك الذي يعطيني القوة لتحمل اللهم ، هو نفسه سيمكّنني من الوقوف ثبات ». لذا فقد رُبط بحبل فقط ، واز اندلعت النيران بشدة حوله ، سمع صوته وهو يقدم الشكر لله الذي سمّح له بأن يعاني الآلام ، كما عانى مخلصه ، من أجل الحق ، ورفع عينه الى السماء قائلاً : « أيها رب القادر على كل شيء ، أشكرك لأنك اعتبرتني مستحقاً ، في هذا اليوم ، وفي هذه الساعة ، أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية ». وبعد هذا غمد أحد العساكر سيفاً في حوله ، من دون ان يظهر على بوليكاربيوس انه يتآذى . عندئذ غمد أحد العساكر سيفاً في جنبه . وللحوق ، اندفع الدم يتدفق من جنبه و كانه جدول من الجداول ، سبب في إطفاء النار . إلا ان الوالي كان قد قرر انه لا يحق للمسيحيين ان يكون لهم الكلمة الفصل ، ولا ان يتسلّموا جنة قائدتهم المؤرّ . لذلك ، أمر بإضرام النار ثانية . وهكذا دخل بوليكاربيوس الى فرح سيده .

لقد اتحد كل من اليهود والوثنيين والجماهير والسلطات ، بقلب واحد و فكر واحد ، لإبادة الجماعة المسيحية . إلا أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن متناول أيديهم . « لم يعلم هؤلاء » ، تقول الرسالة من سميرنا ، « أئنا لا نستطيع ابداً ان نتخلى عن المسيح ، الذي تآلم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العمالق بأسره ، و ائنا لا نتمكن ابداً من عبادة أي شيء آخر ». وبعثت بوليكاربيوس في العام 156 بعد الميلاد ، توقف اضطهاد المسيحيين في سميرنا . لقد فشلت هذه الأساليب القمعية تماماً في إرهاب الكنيسة او ترعيتها . والآن جاء دور بلاد الغال (Gaule) وشمال إفريقيا .

ظهرت أولى بوادر عملية اضطهاد المسيحيين في مناطق الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، في أثناء حكم الامبراطور ماركوس اوريليوس (Marc Aurèle) وابنه كومودوسْ (Commode) في الفترة بين العامين 177 و 192 ميلادية . وفي هذا الوقت أيضاً ، وصلت الأخبار الى كنائس افريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا) ، تلك الحوادث التي سلطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الامبراطورية الوثنية في ذلك الوقت . ففي مدينة ليون (Lyon) وفيان (Vienne) انتشرت شائعات تدعى حصول أشياء بغية في الأوساط المسيحية : زنا المحارم ، قتل و حتى اكل لحوم البشر . و نتيجة لهذه الشائعات الكاذبة ، أبعد المسيحيون عن الأماكن العامة ، والحمامات والأسواق ، و مُنعوا من الظهور علينا . وفي العام 177 ميلادية ، عذّب عدد من الخدام والعبيد العاملين في بيوت المسيحيين ، وذلك بأسلوب بشع في محاولة من المذبّين لتشبيت هذه التهم الكاذبة . وهكذا تكّنوا بحد السيف من انتزاع شهادات و اعترافات رهيبة ، من هؤلاء القوم الضعفاء والخائفين في ساحة المدينة . وقد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضًا الى درجة الجنون والهوس . كان المسيحيون يُجرون الى الساحات العامة ، حيث كانت الحشود تزداد غضباً

لدى سمعها التهم الملفقة على المسيحيين . و لكن ، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة ، لم يجد الحكم دعماً لاتهامهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الامبراطور .

أُجبرت احدى الجواري المدعوة ببلياس (Biblias) ، على الإدلاء بتصرิحات كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها ، ثم سبقت الجاربة ثانية لتدلى بتصرิحات اضافية ضد هذه العائلة . و لكنها في هذه المرة وقفت ضد معتديها و عارضتهم قائلة إنها هي أيضاً مسيحية ، و ان ما أدلت به في السابق ضد هذه العائلة كان ادعاءً لا أساس له من الصحة ، و قالت ، ان هذه العائلة بريئة من آية جريمة . فماتت هذه الجاربة شجاعاً ثابتة الإيمان . كذلك ، فإن أحد المعاونين في مدينة ليون ، وكان يدعى سانكتوس (Sanctus) ، ألقى القبض عليه ، و صُبَّ النحاس الساخن على جسده ، لكنه لم يقل إلا عبارة واحدة رددتها باستمرار ، وهي : « أنا مسيحي . »

وفي مدينة مجاورة ، رفض أحد الشباب الأتقياء ، و يُدعى سيمفورينوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلهة سبلي (Cybèle) ، فحكم عليه بقطع رأسه . و كانت أمه ، هي الأخرى ، مسيحية ، ولم تُظهر آية علامات الخوف أو الفزع . و عندما كان في طريقه إلى منصة الإعدام ، صرخت إليه قائلة : « اثبت يا بني ، و لا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيد إلى الحياة . انظر إلى رب الذي ملكه في السماء . إن حياتك الأرضية لا تؤخذ منك اليوم ، و إنما يحوّلها رب إلى الحياة الأبدية المباركة في السماء . »

توفي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن ، و ذلك من دون إجراءات قضائية أو محاكمة . أما أولئك الذين سلموا و عاشوا ، فقد وضعوا تقريراً لما حصل فتحديثاً بكلمات مؤثرة عن قائد مسن في الكنيسة . « و الآن ، جاء دور پوثينوس (Pothinus) المبارك الذي كان مُؤثراً على خدمة النظارة في ليون ، و كان قد تجاوز التسعين من عمره ، و بات ضعيف الجسم و واهناً جداً ... لقد استدعي إلى كرسى الحكم بحرسه قضاة المدينة و كل أسافل الناس الذين كانوا يصرخون و يصفرون مستهزئين بجلبة كبيرة . و اذا سأله الحاكم من هو إله المسيحيين ؟ أجابه : « إذا كنتَ أهلاً و جديراً فأنت سترى بنفسك ». وعندما تم جره بلا شفقة ، وبدأ المتجمهرون يركلونه و يلطمونه ، و أما الذين كانوا بعيدين عنه ، و لم يتمكنوا من أن تطاله أيديهم او أقدامهم ، فقد كانوا يقتذونه بما عندهم من حاجات او أشياء ، و كان يتفس بচعوبة حين ألقى في السجن ، و لم يمر يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة . »

لقد عذبت جارية أخرى تُدعى بلاندينا (Blandine) ، خلال نهار كامل ، و بوحشية رهيبة أذهلت الجنود : كيف يمكن لهذه الجاربة أن تبقى حية بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروع !؟ من ثم جرى ربطها إلى عمود ، و عُرضت للوحوش الكاسرة ، و كان يُؤتى بها يومياً لترى

العذاب الذي يكابده أصدقاؤها . وكانت ترفع صوتها باستمرار مصلحة من أجلهم جمِيعاً . ثم رُبِطَتْ أخباراً بشبكة و القبَّت امام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج ، رافضة ان تقول كلمة ضد المسيحيين . لم يكن مسماً بأن تُدفن جثث الشهداء ، وإنما كانت تُحرق حتى تصبح رماداً ، وأخيراً تُلقي في نهر الرون (Rhône) .

إنَّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون وفي فيان ، تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها . فلم يُظهر هؤلاء آية علامات المراة او الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم ، ولا ضد أي من أولئك الذين ادعوا عليهم زوراً وبهتان ، بجرائم لم يرتكبوا . لقد كتبوا : « ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي ؛ ولا شيء يؤلم ، ما دام المسيح يشرق علينا بمجدته . » كذلك ، لم يدينوا أخوتهم و أخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمل معاناتهم ، بل استسلموا الى رغبات معدبيهم . بل أظهروا لهم على نقيس ذلك حناناً رائعاً ، مصححوياً باضاع فريد من نوعه . وماذا بعد ، فإن هذه الحوادث كلها تؤكد لشعب بلاد الغال ان المسيحيين لم يكونوا مجرمين . فلم يثبت انهم اذنوا بأي من الأفعال الشائنة ، ولم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتذكرون لإيمانهم الذي يثرون بأنه حق .²

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار ، قاصداً الولاية الرومانية في افريقيا البروقنصلية . حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيو مدينة سكيليو (Scillium) ليعطوا حساباً عن أنفسهم . ولقد كان هناك سبعة رجال و خمس نساء ، تشهد اسماؤهم انهم من خلفية أمازيغية وفينيقية ، و من خلفية بونية . ييرز أحدهم ، و يدعى سبيراتوس (Spératus) في الوثيقة المكتوبة . و لا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون الى الإيمان أم لا . إلا أنه يتبيّن بوضوح انه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعية . كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس ، و يظهر جلياً انهم قرأوها وقرأوا نصوصاً أخرى من الكتاب المقدس بشفف و حرصن بالغين . و قد ألقى القبض عليهم في العام 180 ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سبيطلة في تونس) ، وسيقوا للاستجواب امام حكام قرطاجة .

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحية بوجود جمهور السكيليو مين الاثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة ، و بحضور الوالي ساتوريتوس (Saturninus) . ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجل بتفاصيل صحيحة كاملة . كان الوالي إنساناً لطيفاً و عازماً على ان يقوم بواجبه بالرغم من الاشمئزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق . ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متزن ، و هو رابط الجأش هادئ . و من كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً و ليّناً باسم الامبراطور ، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية و اعتدالاً . و من جهةه ، أكد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة . عندئذ حاول الوالي أن يعيده الى موضوع الأخلاص والولاة للامبراطور ، فأجاب سبيراتوس : « لم نقم بأي عمل شرير ، و لا اشتراكنا في أي

عمل سيء . لكن ، عندما عوملنا بقسوة قدمنا شكراتنا ، وذلك لأننا نحترم الامبراطور الذي نحن له ونجله ». فحاول الوالي سبيلاً آخر ، وقال : « نحن أيضًا متدينون ، وان ديننا مستقيم ، ونحن نأخذ أنسامنا من القدرة الإلهية لسيّدنا الامبراطور ، ونصلّى من أجل سلامته . وعليكم ان تتعلموا الشيء عينه ». تمسّك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي ، وهكذا خاطبه بالقول : « إذا ما أصغيت إلى بصير ، فإنني سأشرح لك اسرار الاستقامة الحقة ». عنذاك اتصب الوالي من مقعده و قال : « ان كل ما تريده هو مهاجمة ديننا ، و أنا لن أصغي إليك . كلّ ما أريده منك هو أن تقسم بالقوة الإلهية لربنا الإمبراطور ». أجاب سبيراتوس : « أنا لا أمجّد امبراطورية هذا العالم ، ولكن عوضًا عن ذلك فأننا أخدمن الإله الذي لم يره أحد ، ولا يمكن ان يراه بالعين المجردة . أنا لم أرتكب أية سرقة . وإذا ما اشتريت أي شيء ، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبة ، لأنّي أمجد ربّي ملك الملوك و امبراطور كل الأُمم ».

عاد الوالي الى هدوئه من جديد . واستدار بوجهه عن هذا الانسان العنيد المستعصي الى أصدقائه ، و حاول الدخول بيتهم وبين قائدتهم آملاً ان يكون انتقامادهم بالأمر الأسهل . فاستحثهم قائلاً : « اتركوا هذا الاعيان ، ولا تشوّشوا انفسكم بهذه الحماقات ». إلا أنه وجد الآخرين ملؤين عزماً وإصراراً كسيدهم . وأخيراً ، اضطرّ ان ينطق بالحكم القانوني ، ولكنه منحهم فرصة ، بياقاف التنفيذ لمدة ثلاثة يوماً عاصمه يرغبون في إعادة النظر . رفضوا قبول التأجيل ، مؤكدين انهم عازمون على ان يبقوا مسيحيين : « نحن لا تخاف أحداً »، قال كتيتونس (Cittinus) « ما دام ربنا وإلها موجوداً في السماء ». وأضافت دوناتا (Donata) : « نحن نخجل قيصر كقيصر ، ولكننا نخاف الله وحده ». وقالت فستينا (Vestina) : « أنا مسيحية ». فأضافت سيكونتا (Secunda) : « و أنا كذلك ، وهذا ما اريد ان أكونه دائمًا ».

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد ، وهكذا حُكم عليهم بالموت . وفي المستندات الحكومية الرسمية ، تم شرح الجريمة التي اتهموا بها ، من دون إدانتهم بإدانة متوجهة عنيفة . وقد سُجلت وقائع الحكم بهدوء وعلى الشكل التالي : « لقد اعترف كل من سبيراتوس و نارتالوس (Nartalus) وكتيتوس و دونا و فستينا و سيكوندا والآخرين بأنهم يعيشون بوجب الممارسة المسيحية . وقد منحوا فرصة ليعودوا الى الديانة الرومانية ، ولكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد . لقد حكمنا عليهم بالإعدام بعد السيف ». فعلّق سبيراتوس بالقول : « نشكر الله ». وأجاب نارتالوس : « في هذا اليوم تكون شهداء في الجنة . الشكر لله ». عندها أعلن النادي الحكم . فهتف المتهمون جمِيعاً : « المجد لله ». وهذا كل ما كان في الأمر . ووصلت القصيدة الى نهايتها بهذا البيان البسيط : « وبهذا تُوج الجمّيع بساج الشهادة ، و هم الآن يملكون مع الآب و الابن و الروح القدس من الآن الى أبد الآبدية أمين ».³

اتسمت هذه الرواية في كل سياقها ، بساطتها الصارخة ، و بدقة التفاصيل التي قدمت وصفاً حنوّاً رقيقاً . لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه ان يقول . و القصة تأخذ مساراً حتمياً ، والنتيجة لا مفرّ منها . ولدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما ، يمكننا ان نرى بعض القوى التحديبة في العمل : نزاع لا يقبل بأي حلّ أو توسيع بين نظرتين متعارضتين الى العالم ، عدم تفاهم أساسى بين مجتمعتين من أصحاب الضمير المخلصين والتزاهاء الذين يحكم الواجب أو الضمير ، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر . فقد وجد كل من خدام المسيح و خدام الامبراطور انفسهم في حالة خلاف ، ومع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائى تجاه الآخر .

لقد أقيمت مبني كنيسة في ما بعد ، في موقع مدافن الشهداء ، و من الممكن ان تكون بقاياه هي التي وُجّدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط . و معروف ان كثيرين غيرهم قد استشهدوا ، خلال هذه المدة عينها ، في بقاع أخرى من إفريقيا الشمالية .

بعد ثلاثين سنة أطلَّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد . و في هذه المرة كان يالهام انسان أمازيغي صرف . إنه الامبراطور سبْتيميوس سفيروُس و هو الإفريقي الوحيد الذي ليس اللباس الارجوانى الامبراطوري . كان سفيروُس مواطننا من مدينة لپتيس ماغنا (Leptis Magna) ، و هي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب . وقد حكم هذا الرجل الغريب روما لشئاني عشرة سنة ، من العام 193 ميلادية و حتى وفاته سنة 211 ميلادية ، بعيداً عن بلده في مدينة يورك (York) الانكليزية . و يصفه الكتاب الرومانيون « بالبربر » الذي تعلم اللاتينية جيداً ، ولكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقيّة . و في سنوات حكم سفيروُس الأولى ، كان يعطف على المسيحيين و يرفق بهم ، لانه كان يعتقد ان شفاءه من مرض خطير ، كان بسبب مسحة من الزيت والصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه بروُكولوس (Proculus) . وقد سلم تعليم أولاده وشقيقهم الى مربيّة مسيحية ، و معلم مسيحي ايضاً . على أي حال ، تزوج سفيروُس من ابنة كاهن إله الشمس ، الذي كان يعبد في مدينة إيميسا (Emèse) في سوريا . وقد مزج بين العبادتين ، العبادة المسيحية و طقوس البيانات الأخرى السرية . لم يكتف هو و زوجته ، ان يكونا حاكمين مطلقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء ، بل اختارا ان يقدمما نفسيهما كجوبيتر (Jupiter) ، كبير الآلهة على كل الأرض ، وكجونو (Junon) ، ملكته . فبعد ان تخلاص من منافسيه على السلطة ، جلس سفيروُس على العرش الامبراطوري و حكم كل العالم المعروف آنذاك ، ثم انكبّ بصراحته و من دون رحمة على إطفاء كل شرارة الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه . إن تاليهه نفسه ، و سلطانه المطلق ، جعلاه يركب متن الغرور . فبدأ يطلب من الناس خضوعاً مطلقاً لنزواته المفترطة التي لا نطاق ، و قد عملكه شكّ عارم في أن المسيحيين لا يمكن الركون إليهم في تحقيق أوامره .

وقد غضب سفيروس ، بصورة خاصة ، بسبب حادث وقع في الشرق ، و لكن أخباره انتشرت في كل أنحاء العالم ، و ترك أثراً عميقاً في كل مكان . فبمناسبة رفع لقب ولديه الاثنين كاركلا (Caracalla) و غيتا (Géta) إلى اللقين الامبراطورين أوغسطس وقيصر ، وزع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشه الذين قدموا لتسليمها لابسين أكاليل من الغار . و لكن واحداً من هؤلاء الجنود بدا مختلفاً عن رفاقه ، إذ كان رأسه عاريًّا وإنكليله في يده . وعندما سُئل عن السبب أجاب قائلاً : « أنا مسيحي ».⁴

اعتبرت مثل هذه الواقعة تحديًّا صاعقاً للكبراء سفيروس . فأصدر مرسوماً في العام 202 يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية واليسوعية ، و ذلك تحت طائلة الموت . و قد جاز الرسميون تعليمات الامبراطور هذه ، ساعين ، كما يفعل أمثالهم ، لإعطاء رؤسائهم انطباعاً بيّناً مقدار كفاءتهم . فبدأوا باقتراح هذا الدين الجديد من الجذور . و كانت پريستوا وزملاؤها في قرطاجة من بين الذين عانوا . كما كان هناك آخرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا .

ظهرت ضرورة هذا المرسوم على أشدّها بعيداً بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الاسكندرية ، حيث جُرّد ليونيدس (Léonides) ، والد العالم اللاهوتي المعروف اوريجانوس ، من جميع ممتلكاته و مقتنياته ، و سبق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسة هناك . كان ليونيدس قد نشأ أولاده السبعة ، و الذين كان اوريجانوس أكبرهم سنًا ، بكثير من الاهتمام العميق بهم والصلة كما علمتهم التمييز بين الصالح والطالع ، حتى يتمسكوا بالأول و يتجرّبوا الثاني . و كان قد علمهم أن يستظهروا جزءاً سيراً من الكتاب المقدس يومياً . وعندما سمع اوريجانوس أنَّ أباًه اعتُقل ، قرر ، وكان حينئذ يبلغ من العمر السابعة عشر ، ان يذهب إلى المدرج ، وإلى الموت مع والده إذا اقتضت الضرورة . و لكن أمه ، وقد آلمها جداً ان تفقد كلاً من زوجها و ابنها في يوم واحد ، خيّأت ثياب اوريجانوس ، الأمر الذي ألمه البقاء معها في البيت . و كل ما استطاع اوريجانوس ان يفعل إذ ذاك ، هو الكتابة لأبيه في السجن متوكلاً عليه لا يخاف على ارمته و أبنائه ، و ليثق بأنَّ الله قادر على ان يعيّلهم ويرعاهم .

وعندما مات ليونيدس ، تركت العائلة بحالة فقر مدقع ، و مع هذا لم يخب إيمان اوريجانوس . فقد أخذته إلى بيتها أرملة مسيحية طيبة ، تملك مالاً و أرزاقاً خاصة . و كان جبه الكلمة الله شديداً ، و حمسه على طريق الله قوية ، بحيث آنه عين معلماً وعميداً لكلية يحضرها الشباب المسيحي في الاسكندرية و لما يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد . وقد عمل

بإخلاص كرئيس لهذه المدرسة لمدة تقرب من الثلاثين عاماً . و كانت محاضراته شعبية ، كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسة تلاميذه . ولم يكن أوريجانوس ، بأي حال من الأحوال شخصاً نظرياً جاماً ، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله ، والسير بهدايتها يوماً فيوماً . وفي قراءاته للعهد الجديد ، تأثر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة : « مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا »⁵ فشعر بأنه إن أراد أن يطبع هذه الكلمات ، يتوجب عليه ألا يتضاد أجرها عن تعليمه للمبادئ المسيحية . وفي سبيل تأمين معيشته ، باع كمية من رقوه المنقوله بخط يده . لكنه عين لنفسه حصة صغيرة يومية من محصول هذا البيع ، والتي كانت بالجهد تسد احتياجاته لأجل قصير ، بالرغم من أن طعامه كان بسيطاً جداً ، وكان لا يمتلك إلا معطفاً واحداً . فكان يعني قسوة الشتاء و زمهريره ، و ينام على الأرض العجردة . وقد فعل ذلك لاشيء ، إلا ليثبت بسيده المسيح الذي قال عن نفسه أن ليس له أين يستند رأسه .⁶

بعد ذلك بوقت قصير ، ألقى القبض على عدد من تلاميذ أوريجانوس ، وأعدموا بسبب إيمانهم . و كان أوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة ، وقد عامله الجماهير الاسكندرانيون المضطربون بقسوة وخشونة ، لأن حياته لم تتعرض لسوء في تلك المناسبة . وبمرور السنين أصبح معلماً مشهوراً في كنائس الاسكندرية ، وبعدها في كنائس قبصية في فلسطين . وقد سافر مراراً بعد ذلك في رحلات خدمة المسيح . كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية ، وقد عدداً من اليهود والوثنيين إلى الإيمان المسيحي . ومع ذلك ، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلسفية و تفاسيره الرمزية للكتاب المقدس ، مثاراً للجدل إلى يومنا هذا .

لم ينسَ أوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس والمثل الصالح الذي أخذه عن والده . لقد بقي ليونيس غير معروف تقريباً ، ولكن تأثيره اعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي انتهى آثاره . الأول دُعى للموت من أجل المسيح ، والآخر دُعى ليحيا له .⁷

استمر الاضطهاد في أجزاء عديدة من الامبراطورية الرومانية ، و كان قاسيّاً جداً لدرجة اعتقاد الكثيرون أن سفيروس هو المقصود في الكتاب المقدس بـ « ضد المسيح » العظيم الذي سيقوم محاولاً أن يبيد كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح ونهاية العالم .⁸ و يبدو أن سفيروس قد ظن أنه بمرسومه الصارم ذاك ، قد يمحق في تحطيم معنويات المسيحيين ، وأن يدمر كنيسة المسيح تماماً . وقد تم تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس ، وحتى خلال أيام خلفائه التاليين .

ثم عرفت الكنائس السلام والحرية من النزاعات ، لما يقارب النصف قرن . و هكذا ازدهرت بهدوء . ولكن ، هنا ، كان يكمن الخطير المهلك . فقد بدأ العديد من

المسيحيين بالتراثي والاشتراك أكثر فأكثر ويزيد من التساهل في ملذات حياة المدينة وفي تسلياتها الملوهنة . و شيئاً فشيئاً بدأ المسيحيون يفقدون ضبط النفس ، و خسروا ذلك الشعور بكونهم شعباً خاصاً ، كما ذهب عنهم ذلك الثبات ، والإيمان السماوي الراسخ الذي قوأهم ودعمهم خلال تلك الأزمة الرهيبة التي عاشوا خلالها بنجاح منقطع النظير خمسين عاماً خلت .

و مع مرور القرن الثالث ، بدأ المسيحيون ينشدون صداقية جيرانهم الوثنيين ورضاهم ، وتركوا أنفسهم ، وللأسف ، غير مستعدين للصمود في وجه الضغوطات الكبرى التي كانت بانتظارهم .

ملاحظات

1- ورد النص المعاصر (*Martyrium Polycarpi ANF Vol. I pp. 37 ff.*)

للحصول على مقاطع من ترجمة أحدث راجع : 12 - Bettenson *DOTCC* pp. 9 -

2- Eusebius *Eccles. Historia* V : chap. 1 (*NAPNF Series 2 Vol. I*)

Bettenson *DOTCC* pp. 12 - 13

Schaff *HOTCC* Vol. II. pp. 55 - 56

أظهر مسيحيو ليون وفيان تعاطفاً واضحاً مع المؤمنين . لقد حثوا كنائس فريجية وروما على عدم إطفاء الروح القدس باتخاذهم إجراء قاس ضد المؤمنين الذين كانوا حاضرين في كنائس الشرق .

3- Monceaux Tome I pp. 61 - 70

4- Lloyd p. 38; Tertullien *De Corona Militis* 1

5- من 8:10

6- لوفا 58:9

7- للاطلاع على حياة اوريجانوس وعمله ، راجع :

؛ Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 785 - 796

Foakes - Jackson pp. 273 - 277

8- 8 - 2 تالونيكي 3:2 و 4: 1 يوحنا 18:2 ، رؤيا 13:5 - 13:8

الفصل العاشر

المحن الحارقة

في العام 249 م بدأت غيم العاصفة تجتمع من جديد . فقد صدر الامبراطور الجديد دكيوس (Décius) و ازداد قلقه باطراد ، بسبب تفسخ الامبراطورية الرومانية ، فضلاً عن تحالفها العسكري . وقد عزا الامبراطور ضعف الامبراطورية و وهنها الى استياء الآلهة . كان يأمل إعادة الازدهار الى الاراضي الخاضعة لسلطانه وسيطرته عندما أصدر مرسوماً دعا فيه جميع المواطنين ، رجالاً و نساء ، الى تقرب الذبائح للآلهة بشكل علني ، و تسلّم شهادة من المسؤولين المحليين ثبت انهم فعلوا ذلك .

و على هذا الأساس أخرج المسيحيون من بيوتهم ، و دُفعوا بخشونة الى الساحات العامة ، و أمروا بتقرب الذبائح . فبعضهم ، ممن رُوع بالتهديد ، أذعن لأوامر الامبراطور ، و لا سيما أولئك الذين كان ولاؤهم المسيحي قد ضعف خلال أيام السلام السابقة المضعة . فأسرعوا الى المعابد استجابة للأمر الامبراطوري ، بينما قام آخرون ، من طريق التآمر مع المسؤولين ، بشراء شهادات من دون ان يكونوا قد قاموا فعلاً بتقديم القرابين المطلوبة . إلا ان عدداً كبيراً منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرسوم فهلك الكثيرون منهم . وكان أوريجانوس من بين الذين ثيروا ، فسُجن و عذّب في مدينة صور . وهكذا استشهد متائراً بجراره من جراء التعذيب الوحشي ، وكان عمره يناهز السبعين . ولكن يلاحظ ان المسيحيين لم يعودوا يتّهمون بعد بالقتل و زنى المحارم و الفساد ، ذلك لأنّ تقاويمهم و أخلاقياتهم الشريفة ، كانت معروفة لدى الجميع . منذ ذلك التاريخ ، أصبح جلياً أن السبب وراء معادتهم هو رفضهم للإذعان لطلبات العبادة الوثنية ، لا التهم بارتكاب اعمالسوء الموجهة ضدهم .

كتب كُبريانوس (Cyprien) ، ناظر كنيسة قرطاجة ، مطولاً عن الاضطهاد الذي تحمله المسيحيون ، و كان الكثيرون بينهم من عرفهم شخصياً . وقد سُجن عدد منهم في قرطاجة نفسها ، بينهم النساء والأطفال ، و مات بعضهم من جراء التعذيب . و حدث أن كان أحد هؤلاء في روما ، و يدعى كلرينيوس (Célérinus) حين صدر مرسوم ديسيوس . وقد تحمل كلرينيوس الأذى والتعذيب هناك ، من دون ان يتراجع . و أخيراً ، استُدعي للمثول أمام الامبراطور نفسه ، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات . وقد كتب عنه كبريانوس قائلاً : « لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا لقد مثّي في مقدمة الصيف ليواجه المحاكم نفسه ، ذلك المحاكم الذي اختلق النزاع . » احتجز كلرينيوس تسعة عشر يوماً في

زنزانة السجن مثقلًا بالسلسل الحديدية . وقد كتب كبريانوس قائلاً : « كان جسمه مصقداً مفخولاً ، أتا روحه فكانت متحررة من الأغلال . لقد ذبل جسده من جراء افتقاره الطويل إلى الطعام والماء ، ولكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته ؛ والله كان يغذيه بالطعام الروحي . ففي مواجهة البلوى ، كان كلرينيوس أقوى منها ؛ وفي سجنه ، كان أثيل من سجينيه ؛ وفي تعدده على الأرض ، كان مارداً يضارع معذبه الواقفين فوقه ؛ وفي الأسفاد ، كان أقوى من أولئك الذين قيدهوه ؛ وفي محاكمةه ، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته ؛ وعلى الرغم من أن قدميه كانتا مقيدتين ، فقد استطاع ان يسحق رأس الأفعى . »

لقد نجا كلرينيوس من محنته ، وعاد إلى إفريقيا الشمالية ، حيث استمر يخدم كفارى (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجة . هذا ، وأن ثدباته وأثار جراحه الكثيرة كانت موضوع اعجاب المؤمنين هناك ، إذ أدهشهم ان يصمد انسان من اجل اليمان ، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار ، غير خاضع او مستسلم ، لا للموت ولا لللاكاذيب . وأشار كبريانوس إلى أنه « إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (ان يؤمن بما سمع عن المسيح) ، فعلذئذ لا بد من ان يصدق شهادة ما يراه بأم عينيه ، إذ يرى البرهان الحي على صحة ما نقول . »^١

شاب آخر يُدعى أوريليوس (Aurélius) ، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجة . وقد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى ، حيث عوكل بخشونة ، وقد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة . ولم تمض الأفترة وجيزة ، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل أمام الوالي ، وقد عوكل ثانية معاملة أكثر وحشية وعنفاً وقوساً . وكتب عنه كبريانوس قائلاً : « إن هذا الشاب ناضل في معركتين ، واعترف باليسوع مرتين ، وفي المرتين خرج بمجد الاعتراف المتصر : بعد انتصاره الاول نُفي إلى خارج البلاد . ثم دخل المعركة مجددًا ، لكي يواجه نزاعاً أعنف هذه المرة ، و هكذا انتصر من جديد . لقد خرج من معركة الشهيد متصرًا . ففي كل مرة يحاول عدو الله تحرير عبيده على فعل الشر ، إن جندي الله الذي هو أبداً مستعد و أبداً شجاع ، يصمد في وجهه ، و هكذا يحرز الانتصار . لم يكتف هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالتفويت ؛ لقد استحق ان يقاتل في الساحة العامة ، حيث رأى الجميع شجاعته وإقدامه . وبعد القضاة ، كان عليه أن يقهر الوالي ، وبعد التفويت ، كان يحتاج أن يتتصر على التعذيب والتنكيل . » و قد نجا أوريليوس بنفسه ، كما نجا سلفه كلرينيوس ، وأصبح هو الآخر قارئاً في كنيسة قرطاجة .^٢

وفي الوقت نفسه تقريباً ، أصبح اسم نوميديكوس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية ، كمن رأى أمتعة وقد حرقت ، ولكنه نجا « كما بنار ». ^٣ كان نوميديكوس عضواً محبوبنا جداً في كنيسة قرطاجة . و كان مصدراً عظيماً لتحقق زملائه هناك و ذلك بفضل

قدوته أمامهم وتشجيعه لهم . في تلك الأيام ، سخط رعاع قرطاجة على المسيحيين متهمينهم بجلب سوء الحظ . لذا ، كانوا يقذفونهم بالحجارة ، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم . كان نوميديكوس وزوجته من بين أولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة ، فأخذوهما بعيداً . رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكونة وهي تحترق بجانبه بلهب النيران المستمرة . أمّا هو فكان مشخناً بالجراح والمحروق البالغة ، فظنوه ميتاً وبالنالي تركوه . إلا أن ابنته التي حضرت إلى المكان تفتش عن جثة أبيها بين الأنقاض المحترقة ، وجده ، وهو لا يزال حياً ، فتمكّنت من إعادة العافية إليه . وبعد شفائه التام ، عاد إلى الكنيسة في قرطاجة ، حيث أصبح مساعدًا مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة .⁴

لقد نجا كل من كلرينيوس وأوريليوس ونوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدّهم ديسيوس ، ولكن كثيرين خروا صرعي . لقد تسلّم كلرينيوس كتاباً من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus) ، مرسلاً له أخبار زملائه في الأسر والمعاناة . علم من الرسالة ، أنّ اثنين عشر من المؤمنين في السجون ، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع والعطش ، وأن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل ، وهما بولس (Paulus) ومايابليكوس (Mappalicus) . وقد أضيّف اسماهما بكل حرص إلى هذه اللائحة المتامية من الشهداء .⁵

وفي ذلك الوقت ، جُرد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من أملاكهم ، وأبعدوا من الأصقاع الرومانية . لقد وجدوا سبيّلهم إلى القرى الداخلية ، بعيداً عن المدينة ، وعن متناول أيدي الرسميين الإمبراطوريين . فأسسوا هناك جذوراً ، وبدأوا حياة جديدة . قد يتحمّرون على رفاهية الحضارة ، ويشعرُون بافتقارهم إلى المداخل المعيشية الثابتة ، ولكن ، لا بدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحرية العبادة بالشكل الذي يريدون . واضح ، فوق ذلك ، أنهم لم يستطعوا الاحتفاظ بآياتهم لأنفسهم ، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون ؛ ما حدث لهم بالتفصيل ، ولماذا أجبروا على ترك ديارهم وأملاكهم ومقتنياتهم ، والحافز الذي رسمّ فيهم مثل هذا الإيمان والفرح ، الإيمان الذي كانوا على استعداد دائم ليبذلوه في سبيله كل شيء .⁶

كان الإمبراطور ديسيوس ، بغير قصد منه ، سبباً لكثير من الناس ، ليستمعوا إلى بشارة الإنجيل للمرة الأولى ، ولا سيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية . لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا فقط . وبخلان آلهته له ، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطين في العام 251 ميلادية ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات . بعد موته ، تنفسَت الكنائس المسيحية الصُّداء ، وبجردة لحسابها ، وجدت نفسها تخرج من وطيس المعركة قوية وأكثر صلابة بفعل نيران المعاناة . لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعة لأولئك المسيحيين الاسميين الذين كانوا يعيشون في وسطها . كما ابتهجت ببطالها الجدد ، وبثانهم

المجيد . أمّا الناجون ، فقد ازدادوا جميعهم عزماً على اتباع المسيح في السراء والضراء ، في الضيق والفرج ، في الموت أو الحياة ، وهم مصممون أن يبقوا مخلصين له ، مهما حدث .

* * * * *

ولكن ، لماذا شارك المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل ؟ وأيّ أذى لحق مواطني قرطاجة وروما على أيدي هذا الشعب السالم ؟ وكيف أساءوا إليهم ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال ، يكفي أن نواجه حقيقة أنَّ المسيحيين مختلفون عن غيرهم . فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديَّين ، وهكذا كان الغموض يلفُّهم في نظر بقية الناس . ولأنَّ تصرفاتهم لم تكن عادية ، لهذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها . وعليه ، فهم يدعون إلى الرببة والشك ، سواء بالنسبة إلى الحكام والمسؤولين ، أم إلى جيرانهم من المواطنين .

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين : ثُرى ، ماذا يهيءُ المسيحيون في اجتماعاتهم السرية ؟ لمَ لا يسمحون ، إلا لأولئك العارفين أسرارهم ، بحضور وجبات طعامهم الخاصة ؟ ولأنَّ اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة ، ولا يُسمح بالدخول إلا لأولئك الأعضاء المعترف بهم ، نتج من ذلك شتى أنواع الافتراضات والشكوك . فهل المسيحيون يدبرُون للقيام بثورة أو عصيان ضد الإمبراطور ؟ أم أنَّهم يتآمرون لتهديم معابد الآلهة ؟ وماذا يفعلون في أثناء ما يسمونه « ولائم المحبة » ؟ هنا تصدى ترتوبيانوس و زملاؤه لهذه التلميحات ، مؤكدين براءة المسيحيين . انه يصف الشركة المسيحية المقدسة والخالية من آية أذية . ويدرك كيف انهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة ، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة ، وإنما على نقبيض ذلك إذ يعبدون الله ، الذي كانوا يجتمعون باسمه . « و كان هذا الاحتمال ينتهي كما ابتدأ ، بالصلوة . » ثم يسأل ترتوبيانوس قائلاً : « منْ منَ الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا ؟ فنحن مجتمعين ، لا نفرق في شيءٍ عنا و نحن متفرقين أحدهنا عن الآخر . إننا كمجموعة ، تماماً كما نحن كأفراد . نحن لا نؤذي أحداً ، ولا نجلب الحزن والأسى لأحد . لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح والخون يلتقي الظاهر فلا يجوز أن يُدعى ذلك جماعة متمرة ، وإنما شركة جديرة بالاحترام والشرف . »⁷

على أنَّ السبب الأهم للكراهة الشعبية الموجهة ضد المسيحيين ، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسليات العامة - في بهرجات الأيام المقدسة الوثنية - و لأنهم مختلفون عن حضور الخفارات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية . إن ما حير ، بل أغضب معاصرיהם من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله . وقد اتبرى ترتوبيانوس مرة أخرى ، يدافع عن المسيحيين ، محاولاً شرح الأسباب . فقال : « نحن لا شأن لنا بصخابة المباريات ، ولا بزيادة المسرح ، ولا بوحشية الميدان . »⁸ وقد أقرَّ ترتوبيانوس بأنَّ المسيحيين لا يشترون أكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية ، ولكنهم لا يريدون أن يكونون عند أحد انطباع بأنَّ

المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم . فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل - في الدكاكين وفي الأسواق ، في الساحة العامة وفي كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف . وال المسيحيون كانوا يعملون في الحقوق والورش نفسها ، وهم يأكلون في المطاعم نفسها ، وهم يلبسون الشباب نفسها ، ويطبخون أنواع الأطعمة نفسها ، وستعملون الآثار نفسه ، و هم محترمون وأصدقاء للجميع . ولم يُدرِّس المسيحيون ظهورهم لغيرائهم فقط ، ولا أساءوا ولا أهانوا الأمور المثلثة عندهم .⁹

إلا أنه كان في مدن الامبراطورية الرومانية و قرها أناس ذوو نفوذ استفادوا شخصياً من الواقع القائم . وقد بدأوا يشعرون بأنهم مهددون جداً بسبب النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها . ولم يستطع الكهنة الوثنيون ان يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلص في نفوذ آلهتهم ، و تراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها . فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تنسغ باطراد . و راح صناع الصور وأكاليل الغار يتذمرون مهددين ، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصانع و صناعه في أفسس عندما بدأت عظمة الالاهة أرطاميس بالانخفاض من جراء كرازة الرسول بولس .¹⁰ فجتمع بائعي أدوات التزيين وأصحاب الحفلات الترفية التي كانت رائجة آنذاك ، و المصيفين - من صانعي المجوهرات ، و الموسيقيين و الراقصين ، وكل المحترفين في المسرح ، و اللاعبي الرياضيين و المجالدين - كل هؤلاء وغيرهم ، صاروا يتظرون إلى المسيحيين نظرتهم إلى الأعداء ، لأنهم لم يحضروا معارضهم ولم يشتروا بضائعهم ، بل تسربوا في انسحاب زبائنهم . كما أن بعضًا من المونتانيين الأكثر تطرقاً ، وبخوا أحياناً أيضاً بشكل ساخر عبد الأوثان هؤلاء على تفاهة تجاراتهم الدينية ، فسببوا بذلك اساءة ، و جروا على الأحكام منهم من إخوتهم المسيحيين عاراً لم يكن ضروريًا .

كان الولاء للامبراطورية من القيم التي تمسكت بها بحزم و دافعت عنها بحماسة ، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب ، بل غالبية المواطنين أيضاً . لذا ، فقد أسيء جداً فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظراً لقدمها ، و هكذا أصبحوا مكرهين كرهاً شديداً ، و باتوا في نظر القوم و كأنهم يحاولون تقويض أسس الحضارة الرومانية نفسها . فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية ، وهم لا يقرّبون التقدّمات ليضمنوا بذلك السلام والازدهار للأرض ، ولا يطربون البخور في المخربة كعلامة الولاء للامبراطور و آلهته التي جعلت الامبراطورية تحت رعايتها . و هكذا بدا المسيحيون و كأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع ، يتمتعون بنعمة ، و لكنهم في الوقت ذاته ، يتخلصون من مسؤولياتهم . وقد وجد أعضاء الكنيسة الذين يمتلكون العقارات ، صعوبة في تحبّب المشاركة في عبادة الأوثان : ف المالكو الأرضي و المنازل ، كان يُنتظر منهم ان يساهموا الى حد كبير بكلفة التقدّمات العامة و المشاهد المسرحية . و العائلات المسيحية الموسرة ، كانت بشكل خاص عرضة لخبيث الحساد ، إضافة الى الجوايس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم . ففي

الواقع ، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين ، باتت مجهولة هوية أصحابها . فإذا ما جاء شخص معروف بادعاء تافه أو كاذب ، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة ، و لكن مني كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها ، فإنه يمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة . وبهذا الأسلوب ، تمكن أعداء الإيمان من ارتکاب اشنع الانتفاءات اللامسؤولة . وأحياناً كان اليهود في غيرتهم على مركزهم المميز كمتدين إلى ديانة مسموح لها ، يقفون في طليعة المهاجمين : مثلاً ، كان لهم دور رئيسي في استشهاد بوليكاريوس .

إضافة إلى ذلك ، يخبرنا ترطوليانيوس ، انه استناداً إلى خبرته ، كان المسيحيون مكرهين غالباً فقط بسبب محبتهم بعضهم البعض . لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضاً كإخوة و أخوات ، مساعدين أحدهم الآخر ، و داعمين أراملهم و أيتامهم والذين كانوا في ضيق و عوز . «إن مارستنا لهذا العطف المحب و تفريحه عملياً هو الذي ، بشكل رئيس ، يسمينا بالعار في نظر بعض الناس». يقولون : «أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضاً». ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضاً . ويقولون أيضاً : «أنظروا كيف ان المسيحيين مستعدون ليموتونا بعضهم لأجل بعض». ذلك لأنهم هم أنفسهم أكثر استعداداً لقتل أحدهم الآخر . إنهم يجدون خطأ فيما يفعلونه لأننا نطلق على بعضنا التسمية «أخ». أشعر أنني متتأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي : كل تسمية صداقتنا عندهم ليست سوى مجرد أدباء مزعومون وروخيص ١١.

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الامبراطور ، و على إطاعة القوانين ، و دفع كل ما يتربّط عليهم من ضرائب . فكلمة الله تقول : «لتختضع كل نفس للسلطانين الفاشلة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله و السلطان الكائنة هي مرتبة من الله». ١٢ وقد أسرع ترطوليانيوس بالإشارة إلى أنَّ المسيحيين لم يكن لديهم أية دوافع أو أطماع سياسية ، و هم ليسوا بالخالي شواراً ضد الحكومة و الدولة . كانوا مسلمين شرفاء ، و ذوي احترام ووقار . فإنَّ أفضل الأبطال و أحكم المسؤولين ، أضاف ترطوليانيوس ، كانوا يعلمون ذلك جيداً : لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم . الأبطال الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة ، ثابع ترطوليانيوس ، و ذلك إما لكونهم ضعفاء او و راغبين في تملق الوثنيين المطربين ، و إما لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم مزاجهم بدل الحكم السليم . و ترطوليانيوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجياً منهم التساهل مع المسيحيين واعداً بتقديم الولاء بال مقابل .

إلا أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنَّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات . فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر ، كان عليهم أيضاً ان يعطوا ما لله لله . ١٣ و حتى سلطنة الامبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء . وبعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن «يطيعوا الله أكثر من الناس». ١٤ فهم لا يمكنهم ان يقتربوا التقدمات

للأصنام ، مثلاً ، حتى ولو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل ؛ و لا كانوا يستطيعون أن يسفهوا اسم المسيح أو يلعنوه وبعضهم رفض القسم القانوني ، معتقدين أنه من الخطأ ان يقسم المسيحي بمثل هذا القسم ، فقد علمتهم الرب : « لا تحلفوا بالسنة ، لا بالسماء ... ، ولا بالأرض ... لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر ان تجعل شعرة واحدة بيضاء او سوداء . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير ». ¹⁵ ولم يستطع آخرون من المسيحيين ان يوقفوا بين خدمة الجندي وضمائرهم المسيحية . ان مواقف رافضة بهذه ، صبت ولا شك الزيت على نيران الحقد .

كانت الطبقات العليا من الرومان ، وعلى الأخص كبار الملائكة ، ينظرون بحذر الى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن ، و يعرض غناهم و مراكزهم للخطر . فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة ، لم يكن محبباً لدى الأوساط الاستقراطية الوثنية الغنية . وهكذا حصل توتر ، خصوصاً في أيام الجفاف و ندرة الماء . شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم متزمتون إلى حد قبيل جداً بالموافقة على تلك الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء . وبخاصة عندما كان أصحابهم و جيرانهم يعلنون الجوع و الشردة . ثم راحوا ، على غرار المسيح نفسه ، يبحثون أصحاب الكنوز على كنزها في السماء لا على الأرض ، مستوحين مما يذكره العهد الجديد بشأن أشراث الغنى والبركات المعلنة للمحتاجين والمسحوقين . وقد لاقت هذه الأفكار آذاناً صاغية لدى الفقراء ، و لكنها لم تلق شعبية عند المسؤولين الرومان . إن الرسميين المحليين ، و كانوا في غالبيتهم من الطبقات الاستقراطية ، لم يترددوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم امبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها و تخربيها .

من الضروري ان نذكر أيضاً انه الى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية ، و عداوة الرعاع التي لا يمكن التنبؤ عنها ، كان المؤمنون معرضين لمحاكمة عائلية يرأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية . لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت . و معروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث ، و أنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبادهم اذا اعترفوا بالإيمان المسيحي .

كانت القوات المجتدة ضد الكنائس متعددة و ثقيلة . و معظم الصعوبة تكمن في أن السلطات الرومانية لم تكن تعرف بالدين المسيحي رسمياً ، لذا لم يكن يحق للمسيحي ان يدافع عن نفسه قانوناً او شرعاً . و يذكر ترتوبيانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحياناً يوبخون المسيحيين و بشكل ساخر قائلين : « بموجب القانون ، أنتم لستم حتى موجودين » . و لكنه ، أي ترتوبيانوس يرد بالقول إن المسيحيين موجودون حقاً ، سواء أشاء الوثنيون ذلك ، أم أبوا . و إذا كان الأمر كذلك ، فمن إدّا من الاثنين يكون بخلاف الحق : المسيحيون ام القانون ؟ ¹⁶

و قد يُسأل لماذا لم تسع الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها ، خصوصاً وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الإعتراف . العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أن الديانة هي مسألة عرقية ، لا مسألة افتتاح شخصي . فاليونانيون كان لهم آلهتهم ، وكذا بالنسبة إلى الرومان . وقال كلسوس (Celes) في معرض انتقاده للمسيحيين : « أَسَا اليهود ، فلا يمكن ان يلاموا ، لأنَّ على كُلِّ انسان ان يعيش بوجوب عادات بلده ، بينما المسيحيون قد تخلوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح . »¹⁷ على أن المشترين الرومان اعتبروا أن ولاء الإنسان الأول ليس لضميره ولا لآلهته ، بل للدولة . و الامبراطورية ادعت نفسها الحق بأن تقرر لرعاياها آية آلهة يجب أن يعبدوا . ولم تكتف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الإنسان ، ولكنها فرضت عليه ، بشدة وحزم ، ان يتلزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة ، و أن يُظهر بشكل واضح خصوصه و امثاله . هذا ، و إن إيماناً جديداً يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له ان يصطدم بنظام كهذا .

لا يمكن لحكومة كليانية أن تفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص يتميّز إلى دين مستقل . إلا أن ترتوبيانوس ترافع أمام الحكماء الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل الذي ينحوهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم . فإذا حاولت السلطات ، ولو فقط ان تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون ، فإنها ستتوقف عن صب جام غضبها عليهم . و في الواقع ، أضاف يقول ، لن يجد المسؤولون شيئاً يلام المسيحيون عليه . يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف ان يدافعوا عن أنفسهم وليس هذا فحسب ، بل ان يعينوا محامين محترفين للدفاع عنهم . « عندهم فرصة كاملة للرد كما أيضاً لاستجواب الشاهد او الخصم اثناء دحض شهادته ، ذلك لأنه ، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهادتهم او قبول دفاعهم . أمّا المسيحيون ، فهم وحدهم غير مسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لترئمة ساحتهم ، وللدفاع عن الحق ، و لإنقاذ القاضي من الظلم . فالقاضي همه الوحيد إرضاء الجمورو الحائد - أي الاعتراف باسم المسيح ، لا استقصاء تهمة أعمال السوء . »¹⁸

و استطرد ترتوبيانوس قائلاً إنَّ كل هذا العداء ، هو نتيجة التصub الأعمى عن جهل . فإذا ما توقف الناس للحظة فقط ، للتبيّن والنظر في حقائق هذه القضية ، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تماماً . « فكل الذين كرهوا ، بسبب عدم معرفتهمحقيقة الأشياء التي كرهوها او حقدوا عليها ، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكتشفون عن جهلهم هذا الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بال المسيحيين . فال المسيحيون في القرى والأرياف وفي الجزر أيضاً ؛ و الناس من الجنسين ، و من كل الأعمار ، و في كل الأوضاع ، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا يتقلون الى المجتمع المسيحي . يولدون و يندبون بسبب هذه الأمور ، كما لو أن هناك نكبة أو كارثة . لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبداً للتفتيش عن بعض المحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم . »¹⁹

أشار ترتوبيانوس باستمرار الى استعداد المسيحيين للموت عوضاً عن أن ينكروا إيمانهم ؛ كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته . لقد تأيدت حقائق التعليم المسيحي من خلال الموقف الشابّة لأولئك الذين تبنّواها : « اسألوا أنفسكم إذا ، » قال ترتوبيانوس « عمّا إذا كانت الورثة المسيح معتقداً حقاً أم لا . فإذا كان قبول مثل هذا الإيمان يؤدي الى تغيير الآسان فعلاً الى الأحسن ، يعني ذلك أن كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض . » وقد أشار ترتوبيانوس الى الصمود وضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في أثناء المحاكمة . فإنهما لم يلجأوا الى السلاح ، ولا هربوا من السلطة الامبراطورية . « كم مرة صبيتكم جام غضبكم على المسيحيين ، أحيايّاً بسبب ميلكم الى هذا وأيضاً بسبب امتحالكم للقانون . وكم مرة ايضاً لم يعركم رعاع الشعب التعرّض انتباها ، بل هاجمونا بالمحاجرة و بالشيران ، وقد تجاوزوا القانون نفسه . . . ولكن ، مع كوننا متّسّكين ومتّحدين جداً لمواجهة الموت ، هل لاحظتم ابداً عندنا أي انقام على الإساءة ؟ »²⁰

شعر معظم الولاة الرومان ، أمثال بليني الأصغر (Pline le Jeune) بعدم تأكّدهم من الطريقة التي يجب أن يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون إمامهم للمحاكمة . كتب بليني من منطقة بيشينية (Bithynie) ، في شمال تركيا المعاصرة في العام 112 ميلادي الى الامبراطور ترايان (Trajan) يسأله النصّح والارشاد . قال بليني : « إنها قاعدة عندي يا سيدى ، أن أرجع الى مقامكم في القضايا التي أشك فيها . لم احضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط ، لذا ، لا أعرف ما هي العقوبات العادلة المترتبة ، او ما هي التحرّيات ، و إلى أي مدى يجري التقيد بها . لقد ترددتُ كثيراً في ما اذا كان يجب ان آخذ أعمار المتّهمين بعين الاعتبار أم لا ؛ و ما اذا كان الضّعفاء يُعاملون بالطريقة نفسها التي يُعامل بها الأقوى ؛ او اذا كان عليّ ان اسمح اولئك الذين يتخلىون علّنا عن معتقدهم المسيحي ، او ما اذا كان عليّ أن أعقّب من كان مسيحيّاً ، حتى ولو فرّ التخلّي عن ذلك ؛ وما اذا كان مجرد الاسم « مسيحي » كافياً ليُنزل العقاب بصاحبها ، حتى ولو كان بريئاً من أية جريمة أخرى ، أم الجرائم المتعلقة بهذا الاسم فقط ». و التساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه ، كان مستمدّاً من الاعتقاد العام السائد بين الوثنين ، على الأقل في الأيام الأولى ، أن المسيحيين كانوا يتورّطون في جرائم قتل الأطفال ، و أكل لحوم بشريّة ، و زنى المحارم . و تساؤل بليني ما إذا كان اعتراف المتّهم بسيحيّته يعني تلقائيّاً أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفًا ، أم لا ؟

و أكثر ما يصادمنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده ، هو أنّ الولاة والقضاة ، أمثال بليني ، و الذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشّى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي أمام الملأ ، لم يكونوا سوى مجرّد مأمورين مواظبين على القيام بواجبهم ، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تفزيذ مهمة ادارية إطاعة تعليمات محددة . كان كل همّهم تأمّن خضوع الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة . و صحيح

أنه غالباً ما كانت تعوزهم الشفقة والرحمة ، لكنَّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تولد عندهم . كانوا بالتأكيد ، يفتقرُون في معظم الأحيان ، إلى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة ، إلا أنهم ، عموماً ، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسبّون لهم هذه الألام المفرزة والرهيبة . كانوا مجرد مثليين غير جذابين عن نظام سياسي متواхش ولا إنساني ، في عالم رُخّصت فيه الحياة ، وباتت البلوى الدموية التي يعانيها الآخرون ، الستار الخلفي للحياة اليومية ، وَلَتَقْلُ اِيضاً ، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلبيات العامة .

أوجز بليني الاجراءات التي كان يستخدمها في استجواب أولئك الذين يمثلون امامه قائلًا : « أَسْأَلُهُمْ إِنْ كَانُوا مُسِيحِيِّينَ ». وفي حال أقرُوا بذلك ، اكرر سؤاله مرة ثانية وثالثة مهدداً إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم . فإذا أصرُوا ، أحكم عليهم بالموت ، لأنني لا أشك مطلقاً في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها ، فإن مشاكتهم و عنادهم المتصلب ، وحدهما ، كافيان للعقاب لا محالة . لقد كان بليني غوذاً لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبيرة تكمن في تحديهم للسلطة ، وفي رفضهم الانصياع لأوامر الدولة ، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عما إذا كان الإيمان حسناً أو سيئاً .

أخبر بليني الامبراطور عن أوراق كاتبها مجھول ووصلت إلى يده ، و فيه مدون العديد من أسماء المسيحيين . وقد استدعي هؤلاء للمثول امامه ، قال : « و كل من انكر كونه مسيحيًا ، وجدت انه يجدر بي ان اطلق سراحه ، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم الالهتنا عندما أمرهم بذلك ، و هم ، بالبخور والخمر ، ي يجعلون تماثيلك و يوقرونهما حيث كنت أحضر صورتك (صورة الامبراطور) بالإضافة الى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعيته ؛ و بالأخص لأنهم لعنوا المسيح ، ذلك الأمر الذي يقال إن المسيحيين لا يمكن افناعهم بالإقدام عليه وآخرون ذكر المخبر اسماءهم قالوا اولاً انهم مسيحيون ثم ما ليثوا أن انكروا ذلك ، اذ صرّحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي ، ولكنهم الآن لم يعودوا كذلك لقد سجد الجميع وتعبدوا لصورتكم و تماثيل الالهتنا ، و لعنوا المسيح ». ولكن ، حتى بليني نفسه كان يعلم أن هؤلاء القسم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين ، لأن سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجدية كانت معروفة بخلاف ذلك . وقد لاحظ بليني بالاختبار ، أن لا شيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلّصهم .

انتزع بليني الاعترافات انتزاعاً من بعض هؤلاء ، إلا أن هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروعة التي كان يأمل أن يسمع عنها . لم تكن اساءاتهم ، في الواقع ، ممتعة و لا مشوقة على الاطلاق . « لكنهم أعلناوا ان مجموع أخطائهم هو التالي : إنهم في يوم معين ، كانوا قد اعتادوا ان يجتمعوا قبل الفجر ، و يرثّلوا تراتيل إيقاعية لل المسيح ، باعتباره إلهًا ، و أن يربطوا أنفسهم

بعهد مقدس جليل - لا للتعهد بالتورط في جريمة معينة أو أخرى ، بل بالحري للامتناع عن السرقة والسلب والزنى والإخلال بالوعود ، أو التنكر لوعدة وقت المطالبة بها . و بعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا أن يفترقا على أن يجتمعوا ثانية إلى مائدة الطعام ، لكنه كان مجرد طعام عادي ولا يشكل أي أذى .

لقد وجد بليني أن هذا البيان البسيط من الحقائق غير واف ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الإمبراطوري : « لهذا وجدت أنه من الضروري ، أن الحري مدى صحة كل هذا ، وذلك بتعديل خادمتين كانتا تدعian مساعدتين . ومع ذلك لم أجده شيئاً سوى خرافات فاسدة و متمادية في الوهم . وهكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص و التحقيق هذه ، وقررت استشارتكم .»²¹

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين ، وإنما كانت ترغب في إعادتهم إلى عبادة الآلهة الرومانية . ولم يكن في نية السياسة الإمبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها ، بل إعادة ملء المعابد الوثنية . ولم تكن تنوى تغيير المعتقدات الدينية عند الناس ، بل ضممان طاعتهم و لبيوتهم . كان الأباطرة يعلمون دائمًا في قرارنة نفوسهم ، أن إفريقيا هي جزء غير مستقر من الإمبراطورية الرومانية . وفيها المثلث من القبائل ، و جميعهم أعداء محتملون ، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد ، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكرياً ضد مهاجمين محددين . عاش الحكم في قلق مستمر ، إذ كان عليهم التعامل مع آية مؤشرات بعيدة لفوضى أو فتن ، وأدتها في مهدها في هذه المقاطعات الصعبة قبل ان تشكل خطراً سباسياً جدياً .

إن آية أمة هي متماسكة معًا بفضل وحدتها الدينية ، و تسيطر على شعبها بواسطة كهنوتها الرسمي ، لا بد من ان تشعر بهديد مباشر من أقليات قررت ان تخرج عن الدين الوطني . فإنّ بقيت هذه الأقلية متوارية عن الأنظار ، و تمثل من الخارج لطلبات حفظ الشعائر الدينية ، فإنّها غالباً ما تُترك في سلام . ولكن حالما تعرف هذه الأقلية جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية ، فإنّ الدولة عندئذ ، تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب . و ما ان تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرف أنها تقدم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة ، تبدأ تهديد إذ تجذب عدداً كبيراً إلى صفّها . و هكذا تحولّ أقليّة شجاعة و متمامة إلى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها .

هذه كانت من جملة الأسباب الموجة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول باستئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا . لكنّها لم تدرك إلا القليل أي فشل ذريع سيصيبها . فقد كتب لكتائس إفريقيا الشمالية ان تصمد الى ما بعد زوال أعظم امبراطورية كانت مقتدرة عسكرياً ولم ير العالم لها مثيلاً .

ملاحظات

Cyprien *Epître* 33 : Monceaux Tome II p. 137 -1

Cyprien *Epître* 32 : Monceaux Tome II p. 137 -2

كورنوس 15:3 -3

Cyprien *Epître* 34 : Monceaux Tome II p. 138 -4

Cyprien *Epître* 8 -5

نيلبي 8:3 -6

Apologeticus 39 -7

Apologeticus 39 -8

Apologeticus 42 -9

- أعمال 27 - 23:19 -10

Apologeticus 39 -11

- رومية 1:13 -12

- بالإشارة إلى مرسى 17:12 -13

- أعمال 29:5 -14

مني 37 - 34:5 -15

Apologeticus 4 -16

(Foakes - Jackson p. 45) (اقتبسها) : Origène *Contra Celsum* 5:25 -17

Apologeticus 2 -18

Apologeticus 1 -19

Apologeticus 37 -20

Epître 10 (*Ad Trajan*) : 96 (Bettenson *DOTCC* pp. 3 - 4) -21

، يستعرض بعض الأسباب وراء الاضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية الوثنية .

الفصل الحادي عشر

المُعذّبون المبتهجون

القى مسيحيو شمال إفريقيا أنفسهم في أتون المحن والبلاء، غير آبهين بشكل مذهل للعواقب. وارتفع عددهم إلى المئات، بل إلى الآلاف، أولئك الذين ثبت أنهم يعانون الأمرين بسبب التزامهم بالإيمان بال المسيح. لقد أعلنا سرورهم وغضطتهم ليكونوا هكذا و ما توا مبتهجين فرحين جداً . رفضوا بصرامة، وبشكل قاطع، أن يقرّبوا التقى لآلهة روما ، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يُقسموا بقدرة الامبراطور الإلهية. ليس من السهل على جيلنا الحالي أن يتفهم هذه الحماسة أو يدرك مثل هذه التصرفات ، لأننا لم نعتد عليها. وقد تعجب متسائلين : ما الذي يقف وراء هذا العناد الذي لا يقبل المساومة؟ ولماذا حسّم المسيحيون أن يعترفوا ببيانهم المسيحي مجاهرة حتى ولو أدى بهم ذلك إلى التضحية بحياتهم؟

علينا أولاً أن نذكر أنهم كانوا واقين من المبدأ الذي أرسوا عليه أقدامهم . فقد آمنوا تماماً، وبشكل راسخ ، بأنهم اكتشفوا الحق . كما افتعلوا بشكل أكيد أن المسيح هو بالحقيقة الله المنجس الذي جاء من السماء ليكون « نور العالم »¹. إنهم آمنوا بما قاله لهم سيدهم ، ووثقوا بأن طريق المسيح هو الأفضل ؛ لقد رأوا الفرق بأم أعينهم . كانوا يفتخرن بمسيحيتهم ، كما ان إخلاصهم لم يسمح لهم بأن يغلوّوا بالكذبة العظيمة المطلوبة منهم و لم يكن لهم أبداً أن يعبدوا الامبراطور الروماني ربياً وإلهها . لقد شعروا بمحنة الإله الحقيقي الذي خلق كل شيء ، و اختبروا دفع الجماعة المسيحية و لطفها ، و كان اختبارهم لهذه البركات بمثابة تذوق مبدئي للسماء في وسط عالم قاس و شرس . كان إيمانهم ينبعهم بهجة عظيمة . فهذا الإيمان حول حياتهم كلها ، و لم يبقَ عندهم أدنى شك بحقiqته وبصحته . و لا شيء كان بإمكانه ان يتزعزع منهم هذا الإيمان او يجعلهم يتذكرون له .

وأكثر من ذلك ، فقد كانوا متحابين بشعور شخصي غامر من العرفان بالجميل والإقرار بالفضل لخلّصهم الذي أحبهم عندما لم يكونوا يفكرون فيه . لقد فتش عنهم كما يفترش الراعي عن خرافه الضالة . و اعتنى بهم عندما كانوا في حالة بؤس وشقاء وانحدار . ثم أصدعهم من طين الحمأة ، و ثبت على صخرة أرجلهم² . فكيف لهم ان ينكروا ربهم وهو الذي منحهم كل شيء حسناً ، و هو من أعطاهم كل هذا الفرح و الخبرـor الذي أصبحوا الآن يتمتعون به؟ لقد وهبـهم كل ما يجعل هذه الحياة جديـرة بالاهتمام و ذات شأن رفيع - لقد منحـهم الصحة و العافية و الصداقة و المحبـة ، و احـترام الذـات و المـسامحة ، و القـبول

والرجاء العظيم بالحياة الأبدية الخالدة . فكيف لهم ان يلعنوا ذاك الذي خلصهم و أعادهم وأحجهم الى المتهي ؟ ! كما أعطى كل ما لديه من أجلهم ، و هو الذي ناضل بكفاح مضني تحت وطأة صليب ثقيل ، وأخيراً مات معلقاً عليه من أجلهم هم .

كذلك ، لم ينقص عن ذلك مقدار تأثرهم بالشرف العظيم الذي شعروا بأنّ الرب أنعم به عليهم : أن يكونوا شعبه المخاص ، أولئك الذين سوف يقومون من القبر لكي يملكون معه الى أبد الأبدية . أمّا الامتياز الأكبر والأروع ، فهو من نصيب من أفرزهم الرب شخصياً ليعلنوا اسمه جهراً أمام هذا العالم المتربّ المتضرر . لقد كانوا في أشد الاشتياق لخدمة المسيح بأي شكل من الأشكال . فكيف إذا ظهرون ولا هم و حبهم له ؟ و كيف سيعظمونه على كل صلاحه من تحومه ؟ إلا باختصار الانزعاج بفرح من أجله على مدى عدة أيام ، و بشهادة مخلصة ، و إعلان ثابت وطيد لإيمانهم اسام الجماهير المتحشدة للاستماع الى حكم الموت الذي سيصدر بحقهم ، ثم وعيض السيف ، و من ثم الحياة الأبدية . و من بين هذه الجماهير المتحشدة المتربّة في السجون او في الساحة العامة ، قد يُقبل بعضهم الى معرفة الحق في اللحظة عينها لانتقال المؤمنين من هذا العالم . و مع ان تلاميذ الرب الأولين تخلوا عنه و هربوا ، إلا أن هؤلاء سيفرون معه و يحصلون بشجاعة و إباء ؛ و إذا كان بطرس قد أنكره ، فهم ، على الأقل ، لم ولن يخجلوا من ان يكونوا أصدقاءه . فمثلهم مثل شاول الطرسوسي ، إذ شعروا بأنّهم مُفرزين ليحملوا اسمه امام الحكماء و الملوك .³ إنّهم سوف يعترفون الاعتراف الحسن امام ولاة عصرهم وحكامهم ، كما فعل المسيح امام بيلاطس البنطي .⁴

لم تفاجهم تحديات الاضطهاد . هذا لأن سيدهم دعاهم إلى هذا العمل العظيم الجبار ، وهو الذي وعد بأن يدعهم و يقول لهم . « فانظروا الى نفوسكم . لأنّهم سيسسلمونكم الى مجالس وتجلسون في مجتمع و توقفون امام ولاة و ملوك من أجلي شهادة لهم . و ينبغي ان يُكرز أولاً بالاخيل في جميع الأمم . فمتن ساقوكم ليسلموكم فلا تنتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا . بل مهما أعطيتم في تلك الساعة بذلك تكلموا . لأنّ لست انت المتكلمين بل الروح القدس . . . و تكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي . و لكن الذي يصير الى المتهي فهذا يخلاص . »⁵ كان ذلك حقاً ، هذا لأن هؤلاء الرجال و النساء وجدوا في ساعة المحن الحرية المجيدة التي دفعتهم إلى التحدث عن يسوع المسيح بسرور و بفصاحة انسكبا عليهم من فوق . لقد شعروا بمحنة السعادة لكونهم مسيحيين ، و هم اكثر الناس امتيازاً في العالم بأسره . لم يكن لديهم شيء يرغبون في إخفائه ، او يخجلون منه ، فسيدهم لم يرتكب أية جريمة ، و كذلك الأمر بالنسبة اليهم . كانوا فخورين بحمل اسم المسيح . وقد عبر ترتوهيانوس عن هذا الشعور العام بالولاء للمسيح : « نقول امام جميع الناس ، و حينما تُمزق اجسادنا و تدمي من جراء تعذيباتكم ، فإننا جميعاً نصرخ بأعلى ما أوتينا من قوة : " تحن نعبد الله من خلال المسيح " . يحق لكم أن تعتقدوا أن المسيح ليس سوى إنسان ، و لكن اعلموا انه من خلالة ، و به فقط قد شاء الله ان يُعرف و يُعبد . »⁶

تشدد المسيحيون المفطهدون و نقووا في معاناتهم هذه ، باقتناعهم التام المطلق بأن هناك حياة أفضل تتظرهم . و ليس المطلوب منهم إلا أن يعبروا عنية الموت الضيقة ليدخلوا بعد ذلك إلى دارهم الأبدية السرمدية ، فيكونوا دائمًا وأبدًا في حضرة الله المبارك حيث لا دموع ولا أحزان . فإذا سيعودون للاجتماع من جديد بفرح بأحبابهم ، في ذلك المكان المثالي ، كانوا يستيقون إلى أن يُرحب بهم هناك ، لا كعمال بطالين ، بل كخدم صالحين و أمناء يرضي عنهم ربهم . إن إقراراً جريئاً بالإيمان بال المسيح سوف لن يضيع أجره . يقول المسيح « فكل من يعترف بي قدام الناس أعرف أنا أيضًا به قدام أبي الذي في السماوات ». ⁷ كما ان الأقدم عهدًا بين التراجم جميعها تقول : « إن كنا قد متنا معه فستحيانا أيضًا معه ; وإن كنا نصبر معه فستملكنا أيضًا معه ». ⁸

كان هناك الكثيرون من يرغبون في ان يملكون مع الربَّ سبعَ ، كانوا يستيقون بإخلاص الى ان يتوّجوا بنجاح الشهادة . و في يقينهم بإحراز النصر المبين على قوى الظلام ، كانوا قد حلوا أنفسهم من رباطات هذا العالم الكاذب والمخدّر . فُتّر لهذا العالم ان يزول عن قريب ، و هم لم يعودوا يرغبون في ان يبقوا مستعبدين لادعاءاته التافهة ، و لا لفساده المستشري . تكلم ترتوبيانوس بلسانهم جميعهم عندما قال : « نحن نرحب التعجيل في امر حصولنا على الملك ، لا ان نطيل زمان عبوديتنا . . . نعم ، ليأت ملوكتك ايها الرب سریعاً ، و سریعاً جداً . وسيكون هذا تحقیقاً لأشواق المسيحيين ، و إریاكاً للألم ، و غبطه للملائكة . هذا ما نصلى من أجله مبتلهين ». ⁹

كانوا يتوقعون باستمرار رجوع المسيح . لذلك كانوا امام كل أزمة او مصيبة جديدة يتذكرون تحذير السيد و وعده : « نعم ، أنا آتي سریعاً ». ¹⁰ « اسهروا إذا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم ». ¹¹ سيأتي الرب كمخلص لشعبه ، و كديان للعالم . يقول الكتاب أيضًا : « هوذا الديان وقف قدام الباب ». ¹² « يوم الرب كلصٌ في الليل هكذا يجيء . لأنه حينما يقولون سلام و أمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتةً كالمخاض للحبلبي فلا ينجون ». ¹³

ها إن أيام العز و القوة ، قد زالت فعلاً من الامبراطورية الرومانية ، و حيث بدأت تتدحرج و تضمحل ، برزت حينذاك بوادر شؤم و تعاشرة تذبذب بالسوء ، و كان العالم يسرع الخطى اقتراباً إلى نهايته : أوينة و حروب و هزّات أرضية ، و انهيار الحكومات الثابتة ، و خيبة أمل بالنسبة إلى ما كانت الامبراطورية تمثله . لقد قال المسيح : « فإذا سمعتم بحروب و بأخبار حروب فلا ترتعوا . لأنها لا بد ان تكون . ولكن ليس المنتهي بعد . لأنه تقوم أمّة على أمّة و مملكة على مملكة ، و تكون زلزال في أماكن و تكون مجاعات و اضطرابات . هذه مبدأ الأوجاع . . . لأنه يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله الى الآن و لن يكون ». ¹⁴

كان كل شيء في انحدار ، و فقد كل أمل في معالجة حالة الإنسانية و لم يعد بإمكانها سوى التقهقر و الانحدار إلى الأسوا . و ليس غير أولئك المتفائلين جداً كان بإمكانهم ان يفكروا في غير ذلك . و المسيحي الذي كان قد أخذ من هذا العالم ، قبل حلول هذه الأيام الأخيرة المرعبة ، كان بوسمه ان يُعد نفسه مباركاً فعلاً . قال ترتوبيانوس : « يبقى المؤمن متظراً ذلك اليوم . . . وهو قلق يومياً على ما يرجوه كل يوم ». ¹⁵ إن رغبة الكثيرين من المؤمنين في ترك هذا العالم

قبل أن يشبّ فيه الحريق الهائل الأخير ، قطع في الواقع ما تبقى لهم من صلات به ، وهكذا شدّهم لواجهة ساعة المحنّة ، لحظة المغادرة والانطلاق .

كان بإمكان أتباع المسيح ان يبقوا واثقين بانتصارهم النهائي مهما كانت معاناتهم . و سبق لكلمة الله الحية ان تبأّت بخصوص هياج الوثنيين الجنون على ابن الانسان . « هؤلاء سبحاريون (المسيح) و (المسيح) يغلّبهم لأنّه رب الأرباب و ملك الملوك »¹⁶ كان ترتوليانوس يقطّع الى اليوم الذي فيه ستُقلب ممالك العالم و ستحشو كل ركبة باسم الرب يسوع .¹⁷ لقد أسرعت مخيّلته و استبَّقت مجيء المسيح ، يوم الدينونة العظيم و تدمير المعدّب . فلسوف يجرف الانتصار الأخير معه ذكريات الذلّ و الخزي ، هذه التي لحقت بشعب الله ، و كل ما عانوه على أيدي أولئك الظالمين الأشّرار . كتب يقول : « ولكن ... يا للمشهد الآتي ! ظهور الرب ، معترقاً به ، مجدًا و متصرّا . فكم سيكون عندذاك جذل الملائكة و ابتهاجهم ، و كم سيشرق مجد القديسين حين يقومون و يظهرون ! و بعد ذلك ، سناء عهد مُلك القديسين الرائع ، و مدينة اورشليم الجديدة ! و لكن ، هناك مشاهد أخرى الى جانب كل ما نقدمّ ! إنه يوم الدينونة الأخير ، اليوم الذي لم تكن تتوقّعه الأمّ ، ذلك اليوم الذي ضحّكوا عند سماعهم عنه ... فعلى مَ سأتعجب عندذاك واندهش؟ ... سوف أرى جميع أولئك الملوك الجبارية الذين أُعلن عنهم جهراً بأنّهم قد مُجذّدوا في السماء ، و هم يتّلون و يتّلّوون جميعاً في الظلمات العميقـة السـاحـيـة ، و سأرى ... الحكم ، و مضطهدي اسم الرب ، و هم يذوبون في نيران هي أشدّ ضراوة و أعنف قسوة من تلك التي هاجوا ماجوا بها ضدّ المسيحيـن المؤمنـين ... فلاـسـفـة ... شـعـراء ... كـتابـ المـأسـي ... كـلـمـاتـ سـيـدـهـمـ : « و متى ابتدأت هذه تكون فانصبوا و ارفعوا رؤوسكم لأنّ مجـانـكـمـ فـقـرـبـ »¹⁸ عندذاك سلاحـظـ مـصـيرـ أولـئـكـ الـذـيـنـ بـصـقـواـ عـلـىـ الـرـبـ يـسـوعـ وـ ضـحـكـواـ فـيـ وـجـهـهـ ، وـ جـلـدـهـ وـ صـلـبـهـ . فإذا ما جاء الاضطهاد ، فـلاـ بدـ أنـ يـكـونـ وـرـاءـ الـخـلاـصـ . لقد تشجّع المسيحيـون بكلـمـاتـ سـيـدـهـمـ : « و متى ابتدأت هذه تكون فانصبوا و ارفعوا رؤوسكم لأنّ مجـانـكـمـ فـقـرـبـ »¹⁹ كان يوم رجوع الرب يقترب اكـثـرـ فـأـكـثـرـ ، فـمـاـ هيـ عـلامـاتـ دـنـوـ مجـيـئـهـ ياـ تـرـىـ؟ـ قال المسيح : « الشـمـسـ تـظـلـمـ وـ الـقـمـرـ لاـ يـعـطـيـ ضـوءـ ، وـ نـجـومـ السـمـاءـ تـسـاقـطـ وـ الـقـوـاتـ الـتـيـ فـيـ السـمـوـاتـ تـزـعـزـعـ .ـ وـ حـيـثـنـ يـبـصـرـونـ اـبـنـ الـإـنـسـانـ آـتـيـاـ فـيـ سـحـابـ بـقـوـةـ كـثـيرـ وـ مـجـدـ .ـ فيـرـسـلـ حـيـثـنـ مـلـاـئـكـتـهـ وـ يـجـمـعـ مـخـتـارـهـ مـنـ الـأـرـضـ رـيـاحـ مـنـ أـقـصـاءـ الـأـرـضـ إـلـىـ أـقـصـاءـ السـمـاءـ .ـ »²⁰ كان المسيحيـون يـتـظـرـونـ هـذـهـ الـعـلامـاتـ بـتـوـقـعـ .ـ فـهـمـ سـيـكـونـوـنـ بـيـنـ أولـئـكـ الـخـتـارـيـنـ الـذـيـنـ جاءـ المـسـيـحـ مـنـ أـجـلـهـمـ .ـ وـ إـذـ يـعـلـمـوـنـ ذـلـكـ ،ـ لـمـ يـهـابـواـ السـيفـ الـخـاطـفـ وـ لـاـ التـهـدـيدـ الـبـشـريـ الـمـؤـقـتـ .ـ

وـ إـذـ كـانـوـ يـتـظـرـونـ هـذـهـ الـحـدـثـ الـعـظـيمـ ،ـ كـانـوـ يـجـدـونـ تـعـزـيـةـ خـصـوصـاـ فـيـ السـفـرـ الـذـيـ كـمـلـ قـانـونـ الـعـهـدـ الـجـدـيدـ ،ـ سـفـرـ الرـؤـيـاـ الـذـيـ كـبـهـ الرـسـوـلـ يـوـحـنـاـ الشـيـخـ مـنـ مـنـفـاهـ فـيـ جـزـيـرـةـ بـطـمـسـ .ـ وـ تـصـفـ فـقـرـاتـهـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ بـتـفـاصـيلـ رـائـعةـ ،ـ اـنـصـارـ الـمـسـيـحـ فـيـ النـهاـيـةـ ،ـ إـلـىـ جـانـبـ أـمـجـادـ الـمـدـيـنـةـ الـمـقـدـسـةـ .ـ »²¹ رـأـيـ يـوـحـنـاـ مـاـ سـوـفـ يـحـدـثـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ ،ـ وـ بـيـنـ مـاـ رـأـهـ .ـ لـقـدـ أـفـرـزـ

الشهداء لكي يحصلوا على تكريم خاص . فهم حملوا اسم المسيح حتى نهاية المطاف ، رافقين أية تسوية مع هذا العالم ، و مع حكامه المجدفين . « و رأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع و من أجل كلمة الله و الذين لم يسجدوا للوحش و لا لصورته ولم يتسلوا السمة على جيابهم وعلى أيديهم فعاشوا و ملكوا مع المسيح ألف سنة ». ²²

كان الشهداء يتظرون حقاً إحراز مكافأة عظيمة ، إذ ما وجدوا مخلصين حتى الموت . وأولئك الذين هلكوا في سبيل ملكتوت الله ، سيرفعون فسورة الى المجد بصفتهم « كهنة الله والمسيح » ²³ ، بينما اخوتهم العاديين ، الذين ماتوا بسبب العجز او المرض ، كانوا لا يزالون في عالم الأموات (Hadès) حيث يتظرون نهاية العالم و يوم الدينونة قبل ان يدخلوا بيتهم الأبدي . وأما بقية الأموات ، بحسب رؤيا يوحنا ، فلن يعودوا الى الحياة إلا بعد مضي ألف سنة . ²⁴ و متى تمت الألف السنة الأولى ، يُحل الشيطان من سجنه مرة أخرى ، « لُضِلَّ الْأَمْ » و « لِجَمِعِهِمْ لِلْحَرْبِ » ²⁵ ، قبل اندلاع الحريق النهائي الهائل و خلق «سماء جديدة وأرض جديدة » ²⁶ .

النبوة القائلة إن الشهداء يصدعون بحكموا مع المسيح على مدى ألف سنة ، استأثرت بعقل المسيحيين في جميع أنحاء العالم آنذاك . وقد ذكر الحكم الأنفي هذا في ما كتبه پوليكاربيوس في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) ، و إيريناتيوس في بلاد الغال (فرنسا حالياً) ، ويوستينيوس الشهيد في روما ، و بين الموتانيين في فريجيا و في إفريقيا الشمالية . وقد اعتبر معظم هؤلاء الكتاب ، ان هذه الفقرات من سفر الرؤيا تشير الى مملكة أرضية حقيقة سوف يتم تدشينها ، والتي سيحكم فيها المسيح مع قدسيه على مدى ألف سنة فعلية . أما غيرهم ، و من جملتهم إفليميندوس و أوريجانوس في الاسكندرية ، ومن ثم اغسططينوس في إفريقيا ، فقد علموا ان هذا الحكم الأنفي قد بدأ فعلاً عند مجيء المسيح الأول ، والذي يصعدوه الى السماء ، بدأ بحكم هناك مع الشهداء . ²⁷ ولكن ، بعزل عن أيٍ من هذه التفاسير هو المفضل ، فإن هذه المقاطع الكتابية ولدت عند المسيحيين تعزية عظيمة و اطمئناناً ثابتاً و قوياً في ما كانوا يواجهونه من صراعات .

وهناك أيضاً سبب آخر وراء إخلاص المسيحيين العنيد لإيمانهم : لقد كانوا على علم بالنتائج الحتمية التي سوف تترتب على البذائل . و أدركوا انهم انخرطوا ، لا في صراع الأفكار والمبادئ الأخلاقية فحسب ، بل في معركة بين القوى الروحية أيضاً . كان رفضهم للأوثان ، وامتناعهم عن المشاركة في أيٍ شكل من أشكال العبادة الوثنية ، ينبع من اقتناعهم بأن الأصنام ليست مجموعة من الاخشاب و الاحجار الباطلة التي لا نفع منها و حسب ، لكنها أيضاً مساكن نقطنها قوات شريرة و مقتدرة جداً ، تلك القوات التي قد تتمكن من إتلاف الصحة و الخلق و سبل العيش عند الناس ، رجالاً و نساءً ، و تسبب لهم الجنون ، و حتى الموت .

كانت القوة التميزة لهذه الأرواح معروفة جدًا : فالذين يتبعدون لها كانوا قادرين على تقديم براهين على حصول أحداث خارقة لا يمكن تفسيرها إلا بقدرة تلك الأرواح . كان الكهنة الوثنيون ومستحضرو الأرواح يفتخرن بالأمور الخارقة للطبيعة . لكن مصدر عرافتهم وسحرهم هو شيطاني بحت . وما إن يتولّ المبعوث والمرؤ الذي كان قد التجأ إليه طالبًا عنده . لم تُخدع الجماعة المسيحية بالفكرة القائلة إن تقرير التقدمات للأصنام ، أو القسم بقدرة الامبراطور الإلهية ليست إلا أعمالاً أديية فارغة و من دون معنى . لكنهم عرفوا أن تيارات شريرة شديدة الخطورة تكمن وراء هذه الديانات الكاذبة و البطلاء ، وأن كل من يقترب منها يعرض نفسه لخطر الإغراق في شقاوة لا يُعبر عنها . لم يكونوا يجترئون على أن يرتکوا مجددًا بغير عودية .²⁸ لقد حذرتهم كلمة الله بوضوح كاف من أن يكون لهم صلة ما أو أية علاقة بهذه القوى الشيطانية : « بل إن ما ينبحه الأسم فَإِنَّمَا يَنْبَحُونَ لِلشَّيَاطِينِ لَا لِلَّهِ . فَلَسْتُ أَرِيدُ أَنْ تَكُونُوا إِنْتُمْ شُرَكَاءَ الشَّيَاطِينِ . لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْرِبُوا كَأسَ الرَّبِّ وَ كَأسَ شَيَاطِينٍ . لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْتَرِكُوا فِي مائِدَةِ الرَّبِّ وَ فِي مائِدَةِ شَيَاطِينٍ . »²⁹

إلا أن معرفة القوى الخارقة و الفوق الطبيعية لم تكن مقتصرة على عبادة الأوثان وحدهم . و بالطبع فإن أسمى القوى الروحية جميعها هو الله الكلّي القدرة نفسه ، و هو يمنح من في علاقة حميمة به قدرات فذّة و رائعة . و كثيراً ما كان المسيحيون في القرنين الثاني و الثالث للميلاد يطردون الأرواح الشريرة باسم يسوع ، و ذلك على غرار نظرائهم في العهد الجديد ؛ كما أن معجزات الشفاء لم تكن نادرة ، أو غير شائعة آنذاك . و الشهداء كانوا يشهدون لأحلام ورؤى إلهية المصدر وذات معان روحية عميقه ، كما فعل أيضًا العديد من إخوتهم العاديين . وقد أدى ذلك إلى انضمام عدد غير قليل من الناس إلى مسيرة الإيمان بال المسيح . و في كثير من الأحوال ، كانت حماسة المسيحيين وغيرتهم المذهبة قد نشأت بكل تأكيد من خبرتهم الشخصية القوية بكل من قوة الشيطان و قوة الله . و لم يكن عندهم أي شك في الجهة التي كانوا يرغبون في الوقوف إلى جانبها .³⁰

لم ينظر المسيحيون إلى ساعة المحنّة كأنها إذلال يجب احتماله ، بل اعتبروها فرصة يجرب انتهازها . فحينما كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على أن يكونوا محظوظين الأنوار في الأماكن العامة ، كانوا يجدون في ذلك فرصتهم لبسطيتوا هناك مجحة الله . إن كنا نحن في أيامنا ، نحاول أن نتحاشى ، أو أن نتجاهل ببساطة ، التعذيب الموضوع أمامنا في العوزة على الجبل ، فقد قبلوه هم بالمقابل ، كما انهم افتخروا به . لقد غفروا لأعدائهم و باركوه أيضًا ، و أداروا الخد الآخر ، تماماً كما اوصاهم سيدهم : « لكتي أقول لكم إنها الساعون أحبو أعداءكم . احسنوا إلى مبغضيكم . باركوا لاعنيكم . و صلوا لأجل الذين يسيرون اليكم . من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضًا ، و من أخذ رداءك فلا تمنعه ثوابك أيضًا . »³¹ لقد صلّى المسيحيون من أجل الذين كانوا يعبدونهم ، و ساروا الميل الثاني الرمزي بفرح إطاعة لربهم .³² كانوا يعلمون أنهم سيفكافئون على إخلاصهم . فالمسيح صرّح بالقول : « طوبى للمطرودين من أجل البر . لأن

لهم ملوك السموات . طوبي لكم إذا عبّروكم وطردوكم و قالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلِي كاذبين . افرحوا و تهللوا . لأنَّ أجركم عظيم في السموات . »³³

لقد اخترعوا التعزية في أحزانهم و أوجاعهم . و ملأ روح الله قلوبهم بالبهجة و بالسرور المتقد الملهيب الذي أحطاهم الجرأة و الثقة . كما انهم اكتشفوا في أوقات الحاجة و العوز كيف انَّ الرب يسوع ، العبد المتألم ، يقترب أكثر من عبده المتألمين . هذا و انهم لم يذكروا في تبشيرهم عن قوة الله التي لا تقاوم ، على قدر ما نكلموا عن تعزياته الدافئة ، و عن محبته الثابتة و حنانه من نحو الضعف والمسحق . لقد كانوا على حق . هذا لأنَّ المسيحية لا تذكر ياله بعيد ، يكتفي بفرض مراسيم باردة ناشفة و إصدار أحكام صائبة ، لكنها تقدم آباً محبًا يبحث عن الحظة لكي يخلصهم . فالإنجيل لا يتحدث عن الله الذي يُلْبِسُ الأقواء مجدًا ، بل عن الله الذي يملأ قلوب المتواضعين بالفرح والسرور . «أنزل الأعزاء عن الكراسي و رفع المتضعين ؛ أشيع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين . »³⁴

كان تصرف المسيحيين في قاعة المحكمة و في الميدان مدعاة باستمرار لاندهاش الجموع المحتشنة . و حتى لو جنُبوا الموت ، يبقى أن شهادتهم المخلصة كانت إيجاراً مقتدرًا و انتصاراً بعدَ ذاتها . كان الاعتراف العلني بالإيمان باليسوع بال المسيح جزءاً من دعوة الله للكنيسة في كرازتها بالإنجيل للعالم ، و فرصة يجب انتهازها بأي ثمن . كان الوثيون يسجنون المسيحيين في السرائرات ، و يعرضونهم للوحوش الكاسرة ، و يأتون بهم مقيدين بالسلسل و الحديد ليقفوا أمام الحكماء و الولاة ؛ و بالرغم من كل هذا ، لم يكن المسيحيون يتصرفون بعدم لياقة ، او يُظهرون سخطهم على الحكماء ، و نادرًا جدًا ما كانوا يخافون او يرتعبون . بل عوضًا عن ذلك ، كانت جلسات المحاكمة هذه تسم بوقف الشكر الهدىء لله ، و بتعبير راسخ عن النقمة به تعالى كمن يمسك بيده زمام كل شيء . لقد علموا ان القضاة ، ليسوا إلا أدوات يحرّكها الله الأزلية بيده الحكيمية بموجب ارادته . ألم يخاطب رب يسوع بيلاطس البططي بالقول : «لم يكن لك على سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق؟»³⁵ كان هذا الوثيق المطلق بالله تعالى وبحكمه بجميع الأشياء ، هو الذي أهّم المؤمنين الصبر و السلوان ، و منعهم التصرف الجليل الوقور الذي كان مؤثراً للغاية و مثيراً للإعجاب حقاً ، كما ورد في السجلات و محاضر الدعاوى القضائية ؛ لقد كانوا شجاعاً في وجه التهديد و الوعيد ، لطفاء مع أعنف معدّاتهم و أشرسهم ، وقد تقبلوا المعاناة و الآلام بفرح عظيم ، على اعتبار انها الطريق الذي عينه لهم الرب لقادتهم الى المجد في ملوكه السماوي العتيق .

لقد تأثر المشاهدون تأثراً عميقاً بكل ما تقدّم . و لدينا شواهد صحيحة و متحقّق منها عن وثيين ادركوا حقيقة الانجيل ، و صمّموا على اتباع المسيح في اللحظة نفسها التي كانوا يشاهدون فيها المسيحيين ، رجالاً و نساء ، يدانون و يموتون من أجل القضية المسيحية . كذلك كان هناك بكل تأكيد عدد أكبر من الناس ، من وثيين و يهود ، تحركت مشاعرهم في العمق بما رأوا و ما سمعوا ، و قد حصلوا من جراء ذلك على انطباعات مفعمة بالживوية ، قادتهم مع مرور

الوقت الى الإيمان عينه . كتب ترتوبيانوس الى الحكام الرومان : « لا تفعكم شراسنكم شيئاً ، مع انكم تزدادون براعة وابداعاً في التعبير عنها ، إنها لمن الأمور التي تجذب الناس الى جماعتنا . لأنه كلما أمعتم في قهرنا وسحقنا ، ازداد عدتنا ». وبعد هذا ينطق ترتوبيانوس بذلك التحدي الرائع الممتاز ، الذي دخل تراثنا المسيحي عندما قال : « إن دماء المسيحيين هي بذار . يبحث الكثير من فلاسفتك الناس على التحليل بالصبر لاحتمال الآلام والموت ... ومع ذلك فإن كلماتهم هذه قد استقطبت حولهم عدداً من التلاميذ أقل من أولئك الذين علمهم المسيحيون بقدوة أعمالهم . هذا العناد نفسه الذي تغيروننا به ، هو الذي يُظهر لكم وجه الحق . فمن ذا الذي لا يتحرّك للبحث عن السبب الذي يقف وراء صمودنا العيني بعد أن يراه ، ومن ذا الذي لا يتضمن الى إيماناً بعد تقصيه له ، و من ذا الذي لا يرغب في المعاشرة بعد انضمامه اليها ، حتى يتمنى له أن يرجع نعمة الله كلها؟ ... من أجل هذا ، نحن نشكرونكم على حكمكم علينا في الوقت عينه الذي فيه يصدر هذا الحكم . ثمة تباين كبير بين ما للله و ما للإنسان ، حتى إنه عندما تدينوننا ، يقوم الله بتبريرنا . »³⁷

لقد كانت دماء الشهداء بذار الكنيسة فعلاً . فأبواب السجون كانت محاطة بمحشود الصحابة والأصدقاء ، و جميعهم ملحوظون غيره لزيارة إخوتهم وأخواتهم المقيدين بين جدرانها . كانت الاستجوبات العمومية في المحاكم الرومانية ناجحة ، بشكل ليس له مثيل ، في نشر رسالة الإنجيل بشمال إفريقيا . كما أن مقابر الشهداء أصبحت موقع منضلة لعقد الاجتماعات المسيحية . والكنائس استفت ايضًا قوتها و تشددوا من القدوة الملهمة لأبطالها و بواسطتها . لقد كانوا يحتفلون كل سنة بذكرى اليوم الذي فيه تالم هؤلاء الأبطال على اعتبار ان هذا اليوم هو يوم مجدهم . كان المسيحيون يشجعون الكنائس من السجون و يقدمون لها نصائح عديدة ، وكانت أقوالهم تُعتبر كأنها إلهامات أوحى بها اليهم الله ذاته . وقد رحّب كثير من الناس بما كان يحصل عليه هؤلاء المؤمنون السجناء من أحلام ورؤى ، واعتبروها صادرة من عند الله . كانت روايات الشهداء المكتوبة ، أكثر المؤلفات شعبية عند الكنائس الأولى . لقد ازدهرت الجماعات المسيحية وغنت بقوة ، من جراء الأحزان والأوجاع عينها التي كان الفصد منها تحطيم هذه الجماعات .

فما هي الخلاصة التي نستطيع ان نستخرجها من هذا التصرف الرائع عند مواجهة الاضطهاد؟ إن القسوة والضراوة التي تعامل بها الحكام الرومان مع الإيمان المسيحي لم تستطعا سحقه ، بل جعلته أكثر شعبية . لم تُمعن الكنائس او تُزال من الوجود لكنها نشطة وتعزّزت . فلم حصل ذلك ؟ علينا أولاً ان نتذكر أنه ، مع حلول القرن الثالث للميلاد ، كان المسيحيون قد أصبحوا يشكلون أقلية عددها محترم في المدن في إفريقيا الشمالية ، كما انهم كانوا الأقلية في بعض المناطق . كانت هذه المقاومة الجريئة للسلطات أسهل حينما يكثر عدد المسيحيين جداً . ولم يكن بإمكانه احتفاظه بالقبح عليهم جميعاً وبيدهم : لم تكون السجون تكفي لاستيعاب هذه الجماهير الغفيرة ، ولو فعلت الحكومة ذلك ، لتوقفت نشاطات الحياة العامة في البلاد وجمدت تماماً . كان على نسبة معينة من الذين احتشدوا لتقديم الإكرام علينا للشهداء ، ان يكافدوا

عقاباً على فعلهم هذا ، إلا أن الكنيسة ، ككل ، كانت في أمان من الإيادة . و مقابل كل مسيحي يقع سجوناً في داخل زنزاته ، هناك مئة آخرون خارج السجن ، و جميع هؤلاء متشوقون إلى موازرته و مساندته في ساعة الشهادة والمجاد ، وأيضاً إلى تكريمه ذكره بعد ذلك .

ولا ريب في أن النمو الراسخ لجماعة المسيحيين في السنوات التي سبقت الأزمة ، يشكل المفتاح لتفسير جرأة هذه الجماعة و قدرتها على الصمود و البقاء حين نزلت بها النوايا . لقد استفادت الكنائس من السلام و الحرية المتوفرين لها ، إذ اشتغلت جدياً ما دام ضوء النهار مشرقاً . وقد أصبح لديها الآن ، كما كان حال يوسف في مصر ، مصادر فسيحة واسعة من المختزنان الروحية ، تكفيها لسنوات التقطيع و الجوع . كذلك كان عند المسيحيين ، و على غرار العذاري الخمس الحكيمات ، مقدار كافٍ من الزينة لإثارة مصابحهم³⁸ ، و هذه المصايبع كانت مضيئة ، و مجهرة أفضل تجهيز وأكمله لتشعّ بلمعانها في أحلك الميالى .

و عليه ، فإن التاريخ نفسه يُظهر لنا ، و حتى من وجهة النظر البشرية ، كيف ان القوى العاملة لصالح الكنيسة كانت أعظم من القوى المنظمة ضدها . و المسيحيون كانوا يتمتعون بتأكد راسخ بالانتصار ، و ذلك بفضل اقتناعهم بصحة الأخيل و ببطلان الوثنية . بالمقابل ، لم يكن عند الوثنين أية ثقة مماثلة بديانتهم . كان الوثنيون يخجلون من سخافات ديانتهم و من فسادها الخلقي ؛ و أما تمسكهم بها فهو لأنهم قد تعودوا عليها و لأنها كانت أساس علاقتهم . إن سلاح الافتراء الذي طالما استعمله الوثنيون ضد المسيحيين في الأيام الأولى ، سقط عاجزاً ضعيفاً على أرض المعركة ، عندما أظهر الشهداء ، و على مرأى من الجميع ، أي نوع من الإيجان كان عندهم . لم تستطع الوثنية أن توحي بمثل هذه الاستقامة الخلقية او الإقدام و الصبر و العزيمة الشخصية . و أكثر من هذا ، فقد كانت تعجز عن إلهام معتقداتها بالرجاء العظيم ، و بتأكيد الخلاص و الحياة الأبدية ، الوعود التي كانت تؤازر المسيحيين و تثبتهم إلى آخر ساعات حياتهم . لم يكن يوسع الوثنية أيضاً ان تصاهي المسيحية بجهة شركة المحبة ، علامتها المميزة ، من خطية بذلك التمييز البغيض بين الناس ، على أساس الطبقة الاجتماعية و الثقافة و المنصر ، العوامل التي كانت تُفسد الجماعات الوثنية .

و بالطبع ، لقد عمل الاضطهاد على ضم الجماعات المسيحية بعضها إلى بعض ، و أصبحت الفروقات القديمة طيَّ النسيان خلال فترات الحرمان المشتركة . و كلما كان يُلْنى اي مرسوم من المراسيم الامبراطورية ، كان يعني ذلك ان الضربة قد تسقط على أي واحد من أعضاء الكنيسة من دون اي تمييز . عندذاك كان المؤمنون يسارعون فوراً لزيارة بعضهم بعضاً للتشجيع ، والاخت على الصمود . و ما إن يعلموا بخبر إلقاء السلطات القبض على أي من أعضاء الكنيسة ، حتى كانوا يقومون بحشد طاقاتهم ، و ململة شملهم لأجل تنظيم زيارات دورية إلى السجن ، لسد أي نوع من احتياجات زميلهم ، و لمؤازرته و شد عزيمته في الأيام . كانوا يفسرون له الكتاب المقدس مادحين إيمانه ، و مجذدين مدى عظمة مهمته الإلهية ، و هم يبنلون كل ما في وسعهم لمساعدته على اكمال النصر على طول أرض المعركة الممتدة أمامه . كانوا يصلون لأجله بحرارة ،

كما ان غيرتهم هذه لم تكون أقل عندما كانوا يصلون معه . و في يوم المحاكمة كانوا يحتشدون بعدد كبير ، مالئين قاعة المحاكمة ، او في الساحة العامة ، لكي يقدموا لأخيهم دعماً معنوياً ، ويصلوا لأجله أيضاً ، وللاستماع الى آخر كلماته ، ولكي يحفظ شجاعته وإقدامه ولا يضعف . إن أولئك الذين اختيروا للوقوف امام الجماهير المحشدة ، كان يُنظر اليهم كجنود المسيح ، وكأبطال الجماعة المسيحية . و إذ كانوا يشهدون لحق الإنجيل ، كانوا في الواقع يقرّون ايضاً ب مدى قوّة مجموعتهم المسيحية وإيمانها . فالشهيد كان يمثل الكنيسة التي ينتمي اليها ؛ وبطولة الواحد كانت تعكس ايجاباً كشرف للجمع.

لم يكن الأبطال الحقيقيون في الكنيسة الأولى في إفريقيا الشمالية من وعاظها العظام ، او من صفوف علماء اللاهوت الألائين فيها . إن الرجال والنساء الذين كانوا يذكرون بحب عميق والذين يتحدث دائمًا عن مآثرهم بولاء مفعم بالمحبة ، كانوا في الواقع فقراء بأمور هذا العالم ، ولكنهم كانوا أغنياء بإيمانهم . قال صموئيل برنكل (Samuel Brengle) : « إن إحدى كبرى مفارقات التاريخ ، هو التجاهل والاستخفاف اللذان بالرتب والألقاب في الأحكام النهائية التي يمرّرها الناس بعضهم على بعض . ان التقدير النهائي للرجال يُظهر بأن التاريخ لا يهتم ، ولا حتى بقدار ذرة واحدة ، بالرتب والألقاب التي يحملها المرء ، و لا يأبه حتى للمناصب التي كان يتبوّأها ، ولكنه يهتم فقط بنوعية أعماله و طبيعة عقله و قلبه . نحن لا نزال نذكر حتى اليوم فيليستاس وسبيراتوس وكلرينيوس بأطيب الذكريات وأحبابها ، بينما أسماء الاستقراطيين المتغطرسين الذين نطقوا على هؤلاء القديسين بحكم الموت ، أصبحت في طي النسيان . وقد قال المسيح بحق : « ولكن ، كثيرون أولئك يكونون آخرين و الآخرون أولئن ».³⁹

ملاحظات

- 12:8 يومنا
- 2:40 بالإشارة الى المزמור
- 3:16 و 15:9 اعمال
- 4:6 تيموثاوس 13:1
- 5:13 - 13:9 مرقس
- 6:21 Apologeticus
- 7:10 مني 32:10
- 8:12 و 2:11 تيموثاوس 2:12
- 9:5 De Oratione
- 10:22 رؤيا 20:22

- 11- متى 42:24
 12- يعقوب 9:5
 13- سالونيكي 2:5 و 3
 14- مرقس 13:7 و 8
 15- *De Anima* 33
 16- رؤيا 17
 17- فلبي 10:2
 18- *De Spectaculis* 30
 19- لوقا 21:28
 20- مرقس 13:13 و 24:27
 21- رؤيا 20:4 يعتبر بعض العلماء أن سفر الرؤيا قد كتبه «يوحنا آخر» ، إلا أن البرهان على صحة هذا الرأي غير متوافق .
 22- رؤيا 6:20 . راجع Schaff *HOTCC* Vol. II p. 83
 23- رؤيا 5:20
 24- رؤيا 2:20 و 7:8
 25- بطرس 7:3 - 13
 26- (Schaff *HOTCC* Vol. II pp 589 - 620) يبحث الأنكار المتنوعة التي كانت عند اللاهوتيين المسيحيين الأوليائين بشأن علم الأمور الأخيرة
 27- غالاطية 8:4 و 9:1
 28- 1 كورنثوس 10:20 و 21
 29- Frend pp. 94-95
 30- لوقا 27:6
 31- بالإشارة إلى متى 5:41
 32- متى 10:5
 33- لوقا 1:53 و 52
 34- يوحنا 11:19
 35- Neill pp. 43-44
 36- *Apologeticus* 50
 37- بالإشارة إلى تكويرن 41:46 و 57 - متى 1:25
 38- مقتبسة (Oswald Sanders *Spiritual Leadership* p. 13)
 39- مرقس 31:10

الجزء الثالث

عصر كُبْرِيَانُوسْ

(القرن الثالث)

الفصل الثاني عشر

الزعيم الرصين

عند نهاية القرن الثاني ، و بداية القرن الثالث للميلاد - نحو الوقت الذي فيه انضمَّ قرثوليانوس إلى المؤمنين - ولُد في مدينة قرطاجة شخص كاد يعادله شهرة . . . ولربما فاقه نفوذاً . لقد تشاَّس كايكيليوس كبريانوس (Thascius Caecilius Cyprianus) في بيت وثني متوازف فيه جميع وسائل الراحة ، و ذلك على غرار سلفه الشهير . لكنه أحجم ، خلائقاً له ، عن الفسق وعن الانفصال في الملذات التي كان يمارسها المجتمع الوثني ؛ وقد ظهرت عليه باكراً علامات الطبيعة الحساسة والنفقة .

كان كبريانوس في قرارة نفسه أفريقياً أكثر منه رومانياً ، و قد أثبت المستقبل و كشف لنا مدى إخلاصه في الدفاع عن شعبه و مصالح وطنه . لكنه كان على الرغم من هذا ، يتفاعل بارتياح تام مع بيته الفكر اللاتيني في المدينة ، و كان يتحرك بحرية في ما بين ارستقراطي هذه المدينة . كان ينبع بمستقبل باهر ، و قد استطاع بسرعة أن ينشئ لنفسه سمعة حسنة كعضو قيادي في المجتمع القرطاجي ، و لا سيما في مجالات القانون و الشرع . و كان شاباً غنياً موسراً ، ذا منزلة اجتماعية رفيعة .

اعتنق كبريانوس المسيحية في الخامسة والأربعين من عمره . و حصل ذلك في العام 245 م ، من خلال صداقته لأحد شيوخ الكنيسة القرطاجية الذي أمنه بالمشورة الطيبة . وكان اسم هذا الشيَّخ كايكيليوس (Caecilius) . وبعد اكتشافه للإيمان ، نظر كبريانوس من موقعه الجديد هذا إلى أعياء حياته الماضية و أتقاليها . لعل الآخرين كانوا يرون فيه عضواً متفوِّقاً ناجحاً في المجتمع القرطاجي ، لكنَّ المظاهر قد تكون خداعاً . لقد صرَّح بالقول : « كنت في حياتي الماضية مرتبكاً للغاية ومحصوراً بعدد كبير من الأخطاء ، كما ان استعبادي للنقاء و الذنوب الملتخصة بي بلغ حدَّاً لم أعد أصدق معه أنه في استطاعتي أن أتخلص منها . حتى إنني في يأسٍ من إحراز أي تقدُّم من هذا القبيل ، رحت أدلل شروري و أتعلق بها ، و كأنها من الممتلكات الحبية إلى نفسي ». و أخيراً ، إذ اعتقد من تحت وطأة ضمير مثقل بالذنوب ، دخل في سلام مع الله ، من جراء الإيمان بال المسيح . إنه يخبرنا عن الفرج العظيم الذي ناله على إثر ذلك : « ولكن حين اغتنست من اللطخات التي كانت قد علقت بي من حياتي السابقة . . . و بعد أن انسكب في قلبي نور من الأعلى . . . و عندما سقطت روح الله الذي من السماء و حيث بعمل الولادة الثانية التي صيررتني رجلاً جديداً . . . عندئذ بدأت الشكوك على الفور تتبدَّد

من حياتي بطريقة ملهمة و رائعة . فتشرّعت أمامي الأبواب التي كانت مغلقة ، و أشرق نور في الظلمة . و ما كان يبدو صعباً في السابق أصبح ميسوراً و سهلاً الآن . و ما ظنته مستحيلًا ، أ Rossi الآن من الممكن إنجازه و تحقيقه .¹

كان كبريانوس يملك آنذاك داراً فاخراً مع حدائق في قرطاجة . فيعد تجديده باعها لصالح الفقراء و المساكين ، الأمر الذي أدهش أصحابه . و إذ أرادوا أن يعبروا له عن تقديرهم و احترامهم ، حادوا فاستروا ممتلكاته هذه و أعادوها إليه . كان يملك دائمًا المقدرة على الظفر بحسب من حوله و بولائهم ، و أن يحافظ على ذلك . و إذ كان لا يزال حديثاً في الأيام ، عُرف عنه أنه انسان ذو أخلاق عالية ، كريم و لبق . و قد كانت لديه مقدرة غريبة طبيعية على اتخاذ المواقف و القرارات الحاسمة الحكيمة . كما انه تكون يفضل اسلوبه اللطيف و الكريسم ان يكسب نفسه ثقة الآخرين به . و مع أنه تخلى عن عمله القانوني ، إلا أن ما اكتسبه من تدريب و خبرة ساعده كثيراً على تطور خصاله وصفاته العالية ، تلك التي جعلت منه في ما بعد ، رجلاً فعالاً في إدارة الكنيسة .

و مذكور عنه انه كان صاحب ذاكرة ممتازة ؛ إن وفرة الاقتباسات في كتاباته هي التي ثبتت صحة ذلك . كانت المعرفة الدقيقة لكلمة الله المكتوبة مفيدة جداً في تلك الأيام ، حيث كانت الكتب ضخمة و ثقيلة الوزن و منسوجة يدوياً ، و لم تكون الآيات في الكتاب المقدس قد رُجمت بعد . و هكذا لم يكن من السهل التفتيش عن آية معينة في منتصف الحديث او المناقشة . لكن كبريانوس كان قبل كل شيء يسعى نحو الكمال ، و هو يجاهد بعنم و طيد للعيش على أعلى مستوى من مستويات الأيامان والقداسة . كان أقصى مشتهاه ان يعيش كما عاش رب يسوع المسيح ، و ذلك حرصاً منه على عدم استغلال محبة الله الشديدة من نحوه . لقد كتب : «لتكن مخافة الله هي الحارس و الوصي على البراءة ، لكي يكون الرب ، و هو الذي قد فاض في عقولنا برحمته السماوية ، يبقى يرغب من خلال تصرفنا البار في ان يستمر ضيقاً على النفس التي تُسرّ به . و علينا ان ننتبه و نحذر لثلا يقودنا ما نحصل عليه من ضمادات الى الاعمال ، فيزحف إلينا ثانية عدونا القديم (الخطية) و ذلك على حين غرة .² لم يتزوج كبريانوس نهط : لقد نذر حياته لخدمة عائلة الله ، لا عائلته الخاصة .

و تكشف لنا كتاباته ما كان يتحلى به هو شخصياً من صبر و اضباط ، الفضليتين اللتين كان يرغب في ان يراهما داخل الكنيسة . و هو يظهر اتزاناً رائعاً في كل من رسائله و بحوثه ، كما ان حججه تتصف بالوضوح . لقد كان يفضل دائماً ان يسلك السُّبُل الطيبة التي تؤدي الى الاقناع ، على أن يسير في الطريق الخشنة ، طريق الإكراه . إنه يعبر التفاصيل انتباهاً خاصاً ، و بالأخص الاسلوب . فهو يزن كل عبارة من عباراته بعناية فائقة ؛ فالحقائق التي يوردها هي صحيحة تماماً ، كما ان استنتاجاته هي دقيقة للغاية . لقد كان افريقياً ولادة و منشأ ، مع كونه في الوقت عيه واحداً من مدرسة الثقافة الرومانية .

كان لكبريانوس ، على الأرجح ، شعر قصير و لحية مهذبة ، على غرار سائر الرجال في جيله . و كان يلبس زي ذلك العصر ، وهو عبارة عن رداء بقياس الجسم و مصنوع من الكتان ، يصل إلى الركبتين ، وهو مزتر على الرأس ، له أكمام و ياقة مزينة بصفائح مزركشة . إنه لباس يفوق في أناقته الرداء البسيط الأبيض الذي كان يلبسه الجليل السابق . أما في الشتاء ، فكان يقي نفسه من البرد بواسطة مرنس من الصوف الخشن .³

بعد مضي نحو الستين على تجديد كبريانوس ، مات ناظر كنيسة قرطاجة ، فطلب أعضاء هذه الكنيسة باللحاح من كبريانوس أن يحل محله : و هكذا تم تنصيبه بعد ذلك بفترة قصيرة . إن هذا الترفع السريع يشهد لسمعته و صيته ، لكنه لم يضمن أن يحجب شيخ الكنيسة به ، هؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم القادة الطبيعيينملئوا هذا المنصب . و بالفعل ، فإن خمسة منهم بتوجيه من المدعوه نوفاتوس (Novatus) قاوموه منذ البداية ، و اعتبروا بعنف على ترفع شخص حديث في الإيمان إلى مثل هذا المركز القيادي .

وفي الواقع ، لم يكن كبريانوس نفسه يرغب في ذلك الوقت في الحصول على مثل هذا الامتياز ، كما أنه كان يشعر بأنه غير جدير به . لذا فقد ارتى بجدية و إخلاص ان يغادر قرطاجة لينعم بحياة أهداً وأكثر استقراراً في مكان آخر ، لكنه افتتن أخيراً بضرورة البقاء . ففي لحظات كهذه ، تكون الحياة في الميزان : إما الارتخاء و إما الانحدار . إن قراراً يتتخذه انسان معين ما ، قد يؤثر في مصير أمة بأكملها ، او في مستقبل كنيسة ما . و غالباً ما تأثر تطور تاريخ المسيحية بال موقف الذي اتخذه رجل واحد او امرأة واحدة في الساعات الخامسة لاتخاذ القرار . كان جمهور المؤمنين العاديين في كنيسة قرطاجة هم الذين توسلوا إلى كبريانوس ليقبل بأن يقودهم ، كما انهم استمروا في دعمهم و في تقديم ولائهم له طوال فترة خدمته الملتبة بالاضطرابات . لقد واجه ، بكل تأكيد ، معارضة عنيفة و كان مصدرها الشيوخ ، لا الكنيسة ككل .

لم يدم «شهر عسل» كبريانوس القصير هذا بصفته ناظر كنيسة قرطاجة ، أكثر من ثمانية عشر شهراً ، حيث كانت فترة الأربعين سنة من السلام التي كانت قد نعمت بها الكنيسة ، قد شارت على الاتهاء ، و باتت تنتظرها ظروف صعبة . إن تلك الفترة الحالية من الاضطهادات كانت تبدو حسنة ، لكنها كانت تُخفي سيئات كثيرة . فالإيمان كان قد امتدَّ فعلاً و انتشر ، إلا انه أصبح يجمع بين انصاره العديد من الضعفاء و غير المؤهلين . و ظهرت بعض الفضائح الشنيعة بين صفوف الكنيسة ، و شمل الأمر في بعض الأحيان قادتها . فقد اتهم بعض المسيحيين : بقضائياً و ادعاءات خادعة ، والاسراف المفرط و المباهاة بالترف . و تبيّن ان بعض الذين رفعوا إلى درجات قيادية لم يكونوا يعرفون الا القليل عن الإيمان الذي يبشرُون به ، او عن الكتاب المقدس الذي يفسرونَه للملأ في بعض الأماكن . فتحدّث الناس عن بعض المسيحيين الذين ساوموا على الحق بعبادتهم الأوثان . كانت المواجهة ملحمة إلى علاج شديد و فعال . وكان كبريانوس يؤمن بأن الله هو الذي نبهه إلى أن العلاج سيأتي سريعاً . لقد تحدث إلى رعيته عن

أوقات الامتحان المقبلة ، داعياً اياهم الى إعداد النفس لها . لذا فعلتهم ان يصلحوا طرقهم قبل فوات الأوان ، و هكذا يتخلوا عن جشعهم و كبرياتهم ، و يتركوا القسم الكاذب والخصم مع ولعهم بالرفاهية والترف والتنعم ، هذه الأمور التي أدت الى إضعاف ايمانهم وقوهيه .

و حين أشرف العام 249 م على الانتهاء ، اعتلى دكسيوس (Decius) العرش الامبراطوري . و بدأت مطرقة الأوجاع القاسية المؤلمة تسقط ثقيلة على الكنيسة في قرطاجة . في بينما كان بعض المؤمنين يعلون ايمانهم جهاراً في الساحات العامة ، و يقبلون ببسالة و شجاعة سفك دمائهم ، توارى كبريانوس عن الأنظار واختباً . لكنه استمر يكتب الى الرعية على مدى ستة من الزمن ، لكي يشجعهم على التمسك الراسخ بالإيمان ، طالباً منهم ان يتعلموا الأمور و يتضرروها بروية ، فيتجذبوا كل ما من شأنه ان يؤدي الى إساءة غير ضرورية . و مع انتهاء ساعة الامتحان هذه ، عاد كبريانوس الى قرطاجة . لكنه كان عليه منذ تلك الساعة ان يواجه اهانات توافتاؤس وغيره من الذين اتهموه بأنه هرب على نسق الأجير الذي يفرّ مرتاعاً عندما يرى الذئب قادماً ، فيتخلى بذلك عن قضية المسيح لكي ينجو بنفسه .⁴

و قد تولى الكتاب منذ ذلك الحين الدفاع عن موقف كبريانوس الخير هذا ، فاستشهد بعضهم بما قاله المسيح : «و متى طردوكم في هذه المدينة ، فاهرعوا الى الأخرى ».⁵ و آخرون أكدوا ان بقاء كبريانوس سالماً كان من قبيل العناية الإلهية ، كما حدث للمسيح نفسه : «لم يمسكه أحد ، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد ».⁶ و لربما كبريانوس نفسه كان يشعر بأن وجوده في المدينة سوف يوجه الآثار الى الجماعة المسيحية ، فضلاً عن انه سيسبب لها أوجاعاً و آلاماً غير ضرورية و لا داعي لها . كما ان الحاجة اليه آنذاك لم تكن ليموت في لحظة من المجد ، بل ليعيش ويتحمل مهمته الطويلة لتأسيس الكنيسة ، و بناها على أسس منتظمة صلبة و قوية . لم يكن كبريانوس من صنف الذين يتراجعون امام المخاطر و الصعاب ، لكنه لم يكن في الوقت عينه من الذين يندفعون اليها و يلقون بأنفسهم فيها . لم يكن في شخصيته ، يستمتع بالاضطهاد ، او يحصل و يتراجع عندما تقضي الحال الثبات و الجلد . كان ربياً من الذين يُظهرون أنفسهم بأنهم حكماء أكثر منهم أبطالاً ، الذين يتمسكون بالمثل القديم القائل : «ذاك الذي يحارب ثم ينكحه هاريما ، سيعيش ليحارب يوماً آخر ايضاً ». و لم غمض إلا ثمانى سنوات من حينه ، حتى أثبت كبريانوس انه لم يكن جيائماً ، بحيث استشهاده بهدوء واطمئنان كامل ، مكملاً ، في ذلك الوقت ، العمل الذي لم يباشره إلا عند بداية الأزمة الأولى .

أظهرت النتائج انه كان يوجد حسب الظاهر مبررات لهرمه ، كما كانت الحال بالنسبة الى تعبينه ايضاً . هذا لأن الثمانية عشر شهراً من الاضطهاد العنيف على الكنيسة ، تركتها و هي تعاني صعوبات جمة ، تحتاج الى معاملة موضوعية عملية بعقلية حكيمة . ففور عودة كبريانوس الى قرطاجة ، تم وضع خصائصه القيادية موضع التجربة بشكل مباشر ، من خلال قضيبيين برزتا هناك و في كنائس اخرى من المنطقة في آن . أولاً كان هناك العديد من الرجال

والنساء الذين ثبتو على الحق بعزيمة قوية خلال فترة الاضطهاد . فاعترفوا بإيمانهم المسيحي ببسالة وشجاعة غير آبهين لما قد يتبع من ذلك - تعذيب ، سجون ، ثم موت - وقد تحملوا كل هذه العواقب من دون أن يضعفوا ويتراجعوا أمامها . وعندما عبرت الأزمة ، أكرمت الجماعة المسيحية أولئك الذين نجوا إكراماً عظيماً . وإذا أفرزوا من بقية الرعية ، تم اعتبارهم شلة فريدة من نوعها من «المُعترفين» . إن شهادتهم العلنية التي لا تعرف الخوف جعلت منهم أبطال إيمان . كان يُنظر إليهم كرجال ونساء الروح القدس مخلوّتين نعمة من الله . كان المؤمنون يجلّون كل كلمة نطق بها أولئك ، كما أنه كان لهم تأثير عظيم في أذهان المسيحيين وفي قلوبهم . لقد أصبح واضحًا الآن أنهم باتوا يستمتعون باحترام يفوق كثيراً الاحترام لنظر الكنائس الرسميين ، هؤلاء الذين أظهروا في بعض الظروف عزماً أقلَّ ونضيئاً أضعف . و هكذا بدأ العديد من المسيحيين يتسلّعون عندهم قادتهم الحقيقيون ، هل هم أولئك الذين عينهم الناس ، أم انهم أولئك الذين انتصروا بقوّة الله و قدرته ؟

نظر كبريانوس إلى هذه القضية ببعض الاهتمام . فقد احرزت صلوات هؤلاء «المُعترفين» و آرائهم أهمية مبالغًا فيها في أذهان العديدين ، أكثر بكثير مما للإخوة العادين الآخرين ، حتى إن بعض الناس بدأوا ينسبون إليهم قوى إلهية خاصة . و هكذا ظهرت نزعة مشوشة ، بعد أن ركّز هؤلاء المُعترفون اهتمامهم ، لإبعادهم عن المقاييس العادية المختصة بالانضباط والتواضع ، والتي يليق بتلاميذ المسيح جميعهم أن يخضعوا لها . و يبدو أن تقدير المعاناة الواقية من أجل اسم المسيح ، كان في نظر الكنيسة أهم من تقدير الحصول الأول إثارة و التي تدخل في تكوين شخصية ناضجة روحياً . فاليهود يثبت الإيمان بشكل أفضل : مجاهرة سريعة بالولاء للمسيح من على المنصات العامة ، أم سنوات من التكريس الدؤوب من أجل قضيته ؟ أيهما له قيمة أعظم في نظر الله : موتٌ مسيحيٌّ مجيدٌ رائع ، أم حياة مسيحية جميلة و مباركة ؟

كانت المسألة الأخرى تتعلق بكيفية التعامل مع أولئك الذين لم يستطيعوا أن يصدموا ، بل تراجعوا أمام ضغط الاضطهاد ؛ أولئك الذين قربوا التقدّمات للأوثان و أنكروا إيمانهم . لقد اعتبروا أنفسهم أنهم سقطوا في غفلة من الزمن ، كما حدث لطرس في دار رئيس الكهنة ، والآن يريدون أن يُعاد قبولهم كبطرس أيضاً . وإذا ظهورون درجات متباينة من التوبة والندم ، يسألون إن كان قبولهم من جديد ممكناً في صفوف الكنيسة . كما أن بعضهم قد حصل من أحد «المُعترفين» على «شهادة سلام» تحوّله العودة او تطالب له بها . هذا لأن عدداً كبيراً من الناس كانوا يعتقدون أن «المُعترفين» قد ضمنوا لأنفسهم الدخول إلى ملكوت الله بشرف عظيم ، حتى إنه أصبح بوسعهم أن يعملوا كوسطاء لحماية أخوتهم الضعفاء ، و لقيادتهم إلى الأمان الروحي . و هكذا راحوا يتحمّلون شهادات متنوعة في مضمونها ، الأمر الذي ولد شكوكاً . فبعضها كانت غامضة في شموليتها : «يسْمح لهذا الإنسان و أتباعه بالاشراك في العشاء الرباني » . أما بعض الشهادات الأخرى ، فكانت أكثر تحديداً و حصرأ .

واجه قادة الكنائس مأزقاً حرجاً : كان عليهم إماً أن يقرّوا بهذه الشيكات المضحية على حساب مصرف «المترفّين» الروحي ، وإماً أن يرفضوها . فإذا ما قبلوها فإن ذلك قد يعني أنهم لم يستنكفوا من التجديفات التي يتغوه بها هؤلاء الذين ييرزون الآن الشهادات . أما في حال رفضها ، فقد يُعتبر ذلك طبعاً بالمعترفين الذين كانوا مكرّبين عند الجميع .

لم تكن هذه القضية هي الأولى من نوعها . فقد سبق لتروبليانوس ان عالج ، بأسلوبه الذي لا يقبل المساومة ، أوضاعاً مشابهة ، و ذلك على اثر الاضطهادات السابقة . لقد اعتبر تروبليانوس أنه لا يحق للمعترفين ان يغافروا ذنوب الناس ، ولا ان يتدخلوا في التأديب الكنيسي . فبعض معاصريه ، من الذين طردهم قادة الكنيسة ، قصدوا الزنزانات ليطلبوا السماح والمغفرة من المعترفين . فرداً تروبليانوس على هذا بهم : « ان أولئك المתחمّسين جداً للاتصال بالسجون ، هم أولئك الذين فقدوا حقهم في الدخول الى الكنيسة »⁸ . ولكن ، « حتى ولو كان الشهيد متأكداً من استشهاده الوشيك ، ولو كان السيف مسلطاً على رأسه ، وحتى لو ثُمّت عملية مذجده على الصليب ، أو رُبط الى عارضة ليكون فريسة سهلة للأسود ، او الى دولاب تستعر تحته النيران ، فعلى الرغم من هذا كلّه ، فمن يسمع لمجرد إنسان ان يسامح عن خطية ، وحده الله يقدر على ان يغفرها »⁹ .

إن بعض المعترفين ، كانوا في الواقع قد أودعوا السجون لفترة قصيرة جداً . كانت معاناتهم أقلّ تسبباً من معاناة إخوتهم الذين خدموا الله ليل نهار بأخلاص كبير خارج جدران السجون . « أما بالنسبة اليكم ، فقد منحتم هذه القوة كاملة لشهادتكم »، ثم أردف تروبليانوس يقول مؤنباً : « ما إن "يعرف" أي واحد منكم ، ويتحمّل من جراء ذلك قيوده الخفيفة بهذا الشكل الجديـد من الوصـاية ، حتـى يستـقطـبـ حـولـهـ لـلـوقـتـ جـمـهـورـاًـ كـبـيرـاًـ منـ الزـنـاـ وـ الفـاسـقـينـ »¹⁰ .

وُجد في كنيسة قرطاجة بعض الناس الذين وسعوا نطاق حجّة تروبليانوس هذه ، فجادلوا ضدّ قبول اي من قرب التقدّمات للأصنام ، ضدّ جميع الذين لعنوا المسيح . و هكذا اعتبروا ان التأديب كما ينصّ عنه العهد الجديد ، يقتضي إبعاد هؤلاء عن الكنيسة بشكل ثابت و دائم .¹¹ أما غيرهم فأصرّوا على أن تُعتمد سياسة سمحنة ونبيلة لتسوية هذا الخلاف . كان يقود هؤلاء القوم نوفاتوس ، وهو الشيخ الذي كان قد اعترض بشدة على كبريانوس في منصبه كناظر . و بعد أن أعلن رأيه في قرطاجة ، حزم نوفاتوس حقائبه ، و مضى لاستشارة كنيسة روما في الأمر . و لدى وصوله الى روما ، وجد انه لم يكن يتوافق هناك أيضاً إجماع على الرأي بشأن هذه المسألة . إلا ان الناظر هناك لم يكن مؤيداً له . عندئذ نظم نوفاتوس حملة لتعيين ناظر آخر في روما : هو نوفاتيان (Novatien) . صحيح ان نوفاتيان كان يحمل ، على سبيل الصدف ، اسمًا مشابهًا ل نوفاتوس ، لكنه أثبت في النهاية انه أشدّ تصلباً في مواقفه تجاه أولئك الذين ضعفوا امام التجارب و لم يستطيعوا مقاومتها . لقد فشل نوفاتوس في ان يضمّن لنفسه في روما تأييداً ثابتاً كان يأمل بالحصول عليه .

كان كبريانوس نفسه يعيش في بادئ الأمر إلى اتخاذ موقف صارم من أولئك الذين كانوا قد ساوموا على إيمانهم . و على غرار ترتوبيانيوس في قرطاجة ، و الآن نوفاتيان في روما ، رفض كبريانوس حتى أولئك الذين توسلوا إليه طلباً للمصالحة و هم على فراش الموت . ولكن ، كان من الصعب التوفيق بين هذه الضرورة ، و اقتناعه الخاص بأنه لا يوجد خلاص خارج عن نطاق شرعة الكنيسة . كان يؤمن بأنه يوجد عند الله مغفرة من خلال كفارة المسيح لأي مسيحي يتوب فعلًا عن انحرافه . فإن كان قد حصل من الله على المغفرة ، هل يبقى بإمكان الكنيسة أن تمنع هذه المغفرة عنه ؟ طبعًا هذا لا يجوز . إلى ذلك ، لقد كان عدد المسيحيين ارتدا ، و الذين يرغبون فعلاً في العودة إلى كنائسهم كبيراً جدًا ، حتى إن إقصاءهم جميعهم عنها ، قد يدفعهم إلى أن يقوموا بتأسيس كنيسة خاصة بهم ؛ وإذا فعلوا هذا فإن حالتهم الأخيرة ستكون أسوأ في نظر كبريانوس من الحالة الأولى .

و جد قلب كبريانوس الشفوق في هذا ، سبباً كافياً يدعوه إلىأخذ موقف متساهل و أكثر اعتدالاً من غيره معهم . كما ان قراره هذا أصبح حاسماً أكثر ، و ازداد صلابة ، عندما عاد فتواجه مع بعض الذين كانوا ، وهم على فراش الموت ، يطلبون المصالحة و البركة من لدنـه و ذلك قبل فوات الأوان . لقد قبل كبريانوس عودة هؤلاء إلى جماعة الكنيسة . وقد حدث أن بعضهم شفروا من أمراضهم فوجدوا أنفسهم الآن أعضاء في الكنيسة من جديد : سقطوا ، ثم تابوا ، و أخيراً أعيدوا إلى الكنيسة . و مع وجود مثل هؤلاء في وسط الكنيسة ، بات من المستحيل إقصاء آخرين من سقطوا مثلهم من دون أن يكونوا مرضى .

و في هذه الأثناء ، أعلن نوفاتوس و صحبه انهم يرفضون الاعتراف بسلطة كبريانوس على الكنيسة ، و صرّحوا بأنهم قد عيّنا واحداً منهم بدليلاً له . و لمدة قصيرة ، فقد ثارت المشاعر وارتفعت حتى إنه لم يقبل بهذا الناظر الجديد إلا عدد قليل جداً من الجماعة المسيحية . وهكذا اخفق الهجوم في عزل كبريانوس من منصبه القيادي . و هكذا ظهرت نتائج هذه المواجهة بسرعة ، ولكن الحملة استمرت على جبهة أوسع ، و بدأت تُعني الآن بمسألة قضايا ، لا بمسألة شخصيات .

وفي العام 251 ميلادي دبر كبريانوس المؤتمر يعقد في قرطاجة لبحث المسألة . و قد طلب من كل كنيسة في المنطقة ان ترسل مندوبياً واحداً عنها . و بعد مداولات طويلة ، قرر المؤمنون انه بالإمكان إعادة أولئك الذين اكتفوا بالاستحسان على شهادات من السلطات الرومانية تدعى أنهم قرّبوا التقدّمات للأوثان ، او عمدوا إلى استخدام اساليب أخرى من أجل استرضاء السلطات . أما أولئك الذين قرّبوا فعلاً التقدّمات للأصنام ، فعليهم ان يخضعوا لعقاب طويل الأمد . كما أن المجتمعين ميزوا بين أولئك الذين قرّبوا التقدّمات بقليل اراداتهم ، و أولئك الذين فعلوا ذلك تحت تأثير التعذيب والإكراه . وكذلك بين أولئك الذين ورطوا عائلاتهم في عملية الارتداد عن الحق ، و أولئك الذين ارتدوا عن الإيمان لكيفما ينقدوا عائلاتهم . أما بالنسبة إلى المعتدين ، فقد

دعاهم كبريانوس إلى تحديد أسماء الأشخاص الذين يوصون بإعادتهم إلى الكنيسة ، مع الحرص على أن يقتصر ذلك على الذين برهنوا توبتهم الصادقة ، و الذين عزموا على اتخاذ مواقف حازمة إذا ما عادت مثل هذه الظروف إلى الظهور من جديد . وفي الحقيقة ، كان كبريانوس يميل إلى اهتمال أمر الشهادات هذه بشكل كلي ، على أن تعالج كل حالة بمفردها وعلى حدة ، إذ يقوم ناظر الكنيسة بالبحث عن علامات للثبوتية و الندم الخلص قبل السماح بإعادة قبول المسيحي . أمّا قادة الكنيسة الذين سقطوا ، فلم يكن يُسمح لهم بأن يعودوا ويتحملوا أيّ مركز أو مسؤولية في الكنيسة .

و بعد سنة من ذلك ، اي في العام 252 م ، عُقد مؤتمر آخر في قرطاجة . كان آنذاك الامبراطور الجديد غالوس (Gallus) يهدّد و يتوعّد بأنه سيجدد الإاضطهادات واللاحقات ضدّ المسيحيين . وأمام هذا الخبر ، اضطرب العديدون من أولئك الذين كانوا قد ارتدوا عن المسيحية في الماسبقة ، و جاءوا إلى كبريانوس مذعورين ، و سأله كيف سيكون يوسعهم ان يقفوا صامدين و يشتتوا كمسيحيين مؤمنين بعد أن حُرموا من شركة الكنيسة ، و من بركة العشاء الرياني . لذا قرر المؤمنون ان يكونوا أكثر مرونة و تساهلاً فأقرّوا ما يلي : إعادة جميع الثنائيين إلى الكنيسة فوراً مع الحيث على المزيد من الثبات في المستقبل . و لكن الامبراطور غالوس هذا ، مات قبل ان يتمكّن من وضع تهدياته موضع التنفيذ .

و هكذا يتبيّن لنا ان هذه المسألة ، التي هي موضوع الجدل ، لم تقتصر على إفريقيا وحدها . ففي روما ، رفض التوفاتيون الاشتراك في العبادة هناك مع مسيحيين كانوا قد أنكروا رب ، وبالتالي اقتفوا ، في ظنهم ، الخطية التي لا تغفر .¹² و عليه ، فقد شرعوا في تأسيس كنائس جديدة خاصة بهم . ثم «راح التوفاتيون يلقبون أنفسهم "بالأطهار" . وقد ترابط موقفهم هذا مع توقير عظيم خاص للكتاب المقدس . كما ادعوا انهم الكنيسة "الإنجيلية" ».¹³ و بعد وفاة نوفاتيان بفترة طويلة ، بقيت هناك في روما كنيسة منفصلة ، تخصّ المجموعة التي تحمل اسمه . و قد توسمت هذه الكنيسة الخاصة بال توفاتيين ، و شملت اجزاء كبيرة من الامبراطورية ، و من ضمنها إفريقيا الشمالية حيث من المحتمل ان يكونوا قد اندمجوا و توحدوا مع من يقي من المونتانيين .¹⁴ و هم ، كالمونتانيين ، لم يقبلوا في كنائسهم سوى أولئك الذين يمكن اعتبارهم تلاميذ جديين للمسيح .

إذا ، من الواضح انه أصبح يوجد الآن في إفريقيا الشمالية مجموعات كثيرة من المسيحيين ، يشرّون و يعلمون باسم يسوع من دون ان يكون عندهم اي ولاء للكنيسة الكاثوليكية الرسمية في قرطاجة ، تلك الكنيسة التي كان كبريانوس ناظرها . إن أقدم نص مكتوب استعمل فيه المصطلح «الكنيسة الكاثوليكية» ورد في الرسائل التي كتبها إغناطيوس قائد كنيسة انطاكيه نحو العام 115 م . كان إغناطيوس يقصد بهذا المصطلح الكنيسة العامة التي تشتمل على كل المسيحيين في جميع أنحاء العالم . كما انه كان يسلم جدلاً بأن أعضاء الكنائس المحلية هم

مشمولون فيها . إلا أن كبريانوس ، واجه بعد قرن و نصف القرن من هذا التاريخ ، حالة مؤللة وأكثر تعقيداً ، ب بحيث ان الرابطة القدية التي كانت تجمع بين الكنائس ، و التي عبر عنها باسم «كاثوليكية» ، لم يعد يضم جميع الذين يعتبرون انفسهم مسيحيين . و هكذا ، لم تعد الكنيسة الكاثوليكية ، كاثوليكية في الواقع¹⁵ . لقد تحوّلت في عصر كبريانوس ، و بالرغم من أسفه الشديد على ذلك ، الى واحدة من مجموعة من الطوائف المتعددة ، على انها كانت الأكبر بينها .

ذلك كان السبب وراء المشكلة الثانية التي واجهته : إن كان يجوز قبول أعضاء من مجموعات مسيحية أخرى و اعتبارهم إخوة في المسيح . هذا لأن كثيرين كانوا قد اعتمدوا في ذلك الوقت على أيدي المونتانيين او النوفاتيين او آخرين سواهم من كانوا خارج نطاق الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و قد بز السؤال التالي : هل ان معمودية هؤلاء مقبولة ام لا ؟ هل هم مسيحيون حقيقيون أم لا ؟ رفض كبريانوس القبول بأن المسيحي المخلص يقدر ان يطلب الانفصال عن جسم الكنيسة الكاثوليكية العالمية القدية . إن مثل هذا العمل لا يمكن ان يكون إلا انتحراراً روحيًا . و هكذا اعتبر ان جميع الذين ليسوا اعضاء في الكنيسة الكاثوليكية ، ليسوا بمسحيين على الإطلاق ؛ لقد عزلوا انفسهم عن مواعيد المسيح ، كما انه لا يمكنهم أبداً ان يرثوا الحياة الأبدية .

استحوذت هاتين المناظرتين العظيمتين على اهتمام كبريانوس في أثناء فترة العشر سنوات التي قضتها كناظر لكنيسة قرطاجة . و هكذا تمكن في معرض معالجتها من تطوير نظريته حول الكنيسة وخدمتها . يوجد من آيدوا تصوّر كبريانوس هذا ، بينما حاول آخرون ان يتقددوه ، لكن لا يستطيع احد ان ينكر اي تأثير كان له في كل جيل منذ ذلك الحين .

* * * * *

لكن كبريانوس لم يُتع له ان يتمثل في هذه القضايا و المسائل في جوٌ من العزلة الأكاديمية . هذا لأن خطراً عظيماً من نوع آخر كان يرافق و يتقدم بسرعة نحو حدود إفريقيا الشمالية . فالطاعون الذي كان قد شق طريقه عبر اثيوبيا و أجزاء من مصر ، وصل أخيراً الى قرطاجة في العام 252 م .

ألفى معظم الوشين باللائمة على المسيحيين ، و اعتبروهم مسؤولين عن ابتلائهم بهذا الوباء الويل ، الذي هو في نظرهم عقاب الآلهة الغاضبة ، و تأديب سيبه سياسة التسامح الديني العام مع الإيمان المسيحي الذي حلَّ الى حدٍ كبير محل الآلهة الأفريقية و الرومانية . وقد بدأ الوثنيون ينظرون بغضب شديد الى تلك الجماعة التي كانت تنمو بسرعة في وسطهم ، و التي دارت ظهرها للسبل القدية في العبادة ، و قاومت بازدراء القوى القدية . و عليه ، فقد بات على الكنائس ان تتحمل ، فضلاً عن مأساة الطاعون ، تهديدات اولئك الذين حملوهم مسؤولية ذلك . احتمل المسيحيون مأساة المرض و الموت التي تجابت من هذا الوباء ، و فوق هذا كله كان عليهم ان يواجهوا الشغب والآدمي و الدمار و سفك الدماء على أيدي غوغائيين رعاع جهنّم جنونهم بسبب الكارثة التي حلّت بهم .

و في هذه الأثناء ، صارت شوارع قرطاجنة الغربة ميداناً آخر لإظهار المحبة المسيحية . كان المؤمنون يهتمون بكل حنان ياخوتهم و أخواتهم الذين كانوا قد شارفوا على الموت . و هكذا بذلوا قصارى جهودهم لتسهيل معاناتهم و تخفيفها في أيامهم الأخيرة ، غير آبهين لأن يشاركونه مصيرهم ، بل ناظرين إلى الأمام وقت اللقاء مما في حضرة المسيح . إن مثل هذا الرجاء ، لم يكن موجوداً عند الوثنيين من حولهم . كان هؤلاء ينكشون حيال ما كان يلحق بالموسى والمائتين أمامهم من تعفن و فساد . كما انهم كانوا يرتدون إلى الوراء و يتراجعون مذعورين إذ يرون أولئك المعلقين يصرخون عند أبوابهم الخارجية . و عبّا كانوا يرجون من ذلك أن يتوجّبوا هذا التلوّث الخطير ، عسى أن يتستّر لهم أن يعيشوا ، ولو لبضعة سنين أخرى في عالمهم المفترى ، إذ ليس لهم رجاء في عالم آخر أفضل من هذا .

في الواقع ، إن الصورة التي نُقلت إلينا عن الوثنيين هي صورة مرعبة للغاية . إنهم يتشارعون مذعورين و يركضون من هنا إلى هناك بباس متھور ، لا يعلمون ماذا يفعلون أو إلى أين يذهبون . انهم أشبه بوكر ثل ثم تخريبه ، فاضطرّب جميع من فيه اضطراباً هستيرياً شديداً ، و باتوا عاجزين تماماً عن السيطرة على أفعالهم و تصرفاتهم . كان كل واحد لا يفكّر إلا في نفسه فقط ، غير آبه لأصحابه المتألين أو المصاين ، او بخشى الأموات من أفراد عائلته . كانت الجثث مطروحة في الشوارع والأرقة ، وقد تركت لتنتن ، و هي تجتمع حولها سحابة متنامية من الذباب ؛ وهناك الجرذان و الحيوانات الطفيليّة الأخرى التي راحت تفرض و تقضم لحوم الجثث المتتفحّمة التنتة . و هكذا كانت العدوى تستشرى و تنتشر في كل مكان . و الطاعون بات هو المنتصر و سيد الموقف و المستبد الطاغي ، فهو يسحق العظام و صغّر القوم على حد سواء . و هو يدمر الاستقرارات كما الفقراء و الشحاذين ، و رائحة الموت التنتة التي تفوق الوصف ، كانت أشبه بمحجّب قاتم كثيف معلق فوق مدينة قرطاجنة المنكوبة .¹⁶

دعا كبريانوس المسيحيين إلى الاجتماع معه . فوصف لهم عوارض الطاعون ، و أخبرهم أنه عليهم لا يتوقعوا لأنفسهم آلية مناعة إلهية ضده . كما انه حثّهم على الثقة و الإيمان بالله عندما يكونون في وسط العاصفة ، و أكد لهم من جديد ان أولئك الذين سقطوا من وسطهم لم يهلكوا وإنما أطلق سراحهم من أصفاد هذه الدنيا الصعبة . لقد دخل هؤلاء ، كما قال ، إلى سعادة الحياة الأبديّة و بهجتها . نحن لسنا كالاشرار من دون رجاء . إن هذا الموت الجماعي هو حقاً طاعون فتاک بالنسبة إلى اليهود و الوثنيين و أعداء المسيح ، أمّا بالنسبة إلى عبيد الله ، فهو خروج من العالم و انطلاق إلى الخلاص الأبدي .¹⁷ و الآن ، و حتى في هذه الساعة بالذات ، قد يدعونا الله إليه لكي ندخل إلى محضره و نحصل على الإرث المبارك الذي وعدنا به . و هكذا يوحي كبريانوس على عدم الانسجام مع النفس الذي يتبع من اعتماد اللباس الأسود و اعتباره عالمة الحزن على الموتى . فقال : «هل يجوز لنا ان نلبس ثياب الحداد السود هنا ، بينما هم يلبسون هناك في السماوات الثياب البيضاء الناصعة ؟ أفلا يلومنا الوثنيون عن حق ، إذا ما نحن على أولئك الذين نصرّ بأنهم أحبياء عند الله ، و كأنهم فنوا وهلكوا ؟»¹⁸

فعندهما يكون جيراننا في احتياج ، يقول كيريانوس ، فحينذاك تُتاح لنا الفرصة العظيمة لُتَظْهِرُ لهم محبة المسيح . فالوثنيون ، في خوفهم الأناني ، لا يعود يبقى عندهم متسع للتفكير في جيرانهم الذين يذوقون سكرات الموت . ولكن ، يُتوقع من المسيحيين أن يتصرفوا بشكل مغاير تماماً . ليس بالأمر المدهش اذا حضرنا لمساندة اصدقائنا ، ولكن ربنا يهدى بنا ان نحسن الى الخطأ و العشارين ، وأن نحب اعداءنا ايضاً . و ماذا إن كان الوثنيون يلوموننا على ما يصيبهم من بؤس و كرب فيضيفون بذلك على أحزانا وعلى ضيقنا ؟ لقد صلَّى المسيح من أجل مضطهديه ، وإن كنَّا تلاميذه ، ينبغي علينا ان نحنُو حذوه .

ثم تابع كيريانوس حديثه ، فاقتصر على الحاضرين بعض الأساليب و الطرق العملية التي يستطيعون بها ان يقدموا يد المساعدة للآخرين ، كلّ واحد على مقدار طاقته . فالذين عندهم أموال عليهم أولاً ان يشتروا الطعام و آية ضروريات معيشية أخرى يحتاج اليها المنكوبون ، و أن يقوموا أيضاً بأي عمل آخر قد يخففون به على الآخرين معاناتهم و ضيقهم . أمّا أولئك الذين لا يملكون المال ، فقد يكون باستطاعتهم ان يخصصوا كل وقتهم لخدمة المحتاجين ، و ذلك بروح المحبة . و عليه ، ابتدأت الجماعة المسيحية في قرطاجة بالعمل عن طيب خاطر . فاعتنتوا بالمرضى ، و دفنوا الموتى ، سواء أكانوا من الوثنيين او من المسيحيين ، و ذلك بلاطف مؤثر ، كما لو انهم يخدمون المسيح نفسه . و لربما كانت هذه من أفضل ساعات كيريانوس و أروتها . ولا يمكننا فعلاً إلا ان نشهد و نتعجب من قدرة هذا الإنسان على إلهام الآخرين ، و تحثهم على العمل . لقد انتهت أيام المناظرات الجدلية والخلافات الشخصية و الانقسامات التجزوية . فأمام الاحتياجات البشرية ، نرى رجلاً مسيحيًّا طيبًا جدًا و عطوفًا للغاية ، عنده موهبة عالية في القيادة الروحية ، كما ان بركة الله كانت حالة عليه .

استمر الطاعون منتشرًا في أنحاء مختلفة من العالم على مدى عشرين سنة . و على مدار الشهور الكثيبة المتواصلة ، كان الوثنيون يشهدون باستمرار أعمال المسيحيين التي تمّ عن العطف والمحبة العميقه ، بالإضافة ايضاً الى ما كانوا يتمتعون به من سلام و اطمئنان عند موتهم . و هكذا بدأ الكثير من الناس يتساءلون عن السبب الكامن وراء هذا التصرف المدهش . فكيف يستطيعون ان يكونوا طيبين و محاسين بهذا الشكل مع الفقراء والأرامل و العجزة ؟ وما الذي يجعلهم يتواضعون للدرجة الاهتمام باليتامي ، لابسى الثياب المرقعة ، و بالعيid أيضًا ؟ وكيف يوسعهم ان يظهروا كل هذه المحبة لأولئك القوم الذين أساووا اليهم و عاملوهم معاملة قاسية ظالمة ؟ و كيف لم يكن الموت يرعبهم ؟ لم ينس شعب قرطاجة بسرعة خدمات المحبة هذه ، و الإيمان العظيم الذي زرعه كيريانوس في قلوب الجماعة المسيحية ، و هذا ما سوف ندركه لاحقًا .

لم يكن كيريانوس حاكماً متعرضاً يحب أن يسلط على الآخرين . بل يظهر انه كان صاحب قلب واسع ، يثير محبة الآخرين له . لقد كتب الى الشيوخ و المعاونين في كنيسة

بفratage يقول لهم : « منذ اللحظة الأولى التي قبلت فيها ان أقوم بهم ناظر الكنيسة ، قررت الأأ فعل أي شيء من دون استشارتكم وأخذ موافقة الرعية أولاً ». ¹⁹ لقد أذعن كبريانوس على الفور للقرارات التي اتخذت خلال المؤتمرات الأربعية التي عُقدت في فرطاجة ، و هو الذي عمل أكثر من غيره لإعطائها الإنطلاقة . كما أنه حظي بولاء كيسنته له ، إذ جعلهم يشتكون معه في صنع القرارات والخططات . وقد كتب أغسطينوس في ما بعد قائلاً : « أنا لا أخاف من سلطة كبريانوس لأنه يطمئن بتواضعه ». ²⁰ وتُظهر معاملته لمناويه الذين جاؤوا اليه طالبين المصالحة ، رحابة صدره ، وقدرته على نسيان الصراعات والمشاحنات الماضية . فهو لا يحفظ في قلبه أية ضغينة ، كما انه لا ينزعج بسرعة من إساءات الناس له . فعندما وصلته رسالة انتقاد من كيسنة روما في أثناء فراره من قرطاجة ، أعادها اليهم و هو يدعوهם بكل لطف و كياسة إلى أن يتضامنوا الأمر لينأوكدا من أنها قد صدرت فعلًا عنهم . لقد ظنَّ أنه يوجد جهة معينة عبشت بمحتوى هذه الرسالة بطريقة غير مشروعة . كذلك أرسل بيانًا مفصلاً يشرح فيه تصرفه . ²¹

أظهرت كتاباته ، كما رأينا ، أنه كان يدين كثيراً لترتوليانوس . «ناولني المعلم »، بهذه العبارة كان يخاطب أمين سره لكي يسلمه أحد مؤلفات ترتوليانوس . كان كبريانوس يوافق معلميه ترتوليانوس الرأي بأن لا خلاص خارج عن نطاق الكنيسة ، ولكن ذهب إلى أبعد من ذلك في جعله كنيسة المسيح العالمية تعادل الجسم الكاثوليكي الرسمي . و من هذا المنطلق ، كانت نظريته في الكنيسة تختلف بشكل ملحوظ عن تلك التي لسلفة العظيم . و إذا ما اعتبرنا خلاصتها المنطقية ، فهي في الواقع تستثنى حتى ترتوليانوس نفسه من عضوية الكنيسة و لربما من الخلاص أيضاً . لم يُشر كبريانوس قط في كتاباته إلى ترتوليانوس بالاسم ، أمّا الأفكار والإيضاحات التي تبناها عنه ، فقد خففت من وطأتها و لتبها ، تازعاً عنها كل ما قد يسيء إليها الآخرين . من الممكن أن الرجلين كانوا يعرفان أحدهما الآخر ، إلا أن هذا الأمر غير مؤكّد . فقد عاشا في المدينة ذاتها ، لكن كبريانوس كان لا يزال محامياً وثيّاً عند وفاة ترتوليانوس .

و في العام 257 ميلادية ، أصدر الإمبراطور فاليريان (Valérien) مرسوماً يحظر فيه على المسيحيين أن يجتمعوا معاً ، مهدداً بإنزال أشد العقوبات بأيٍّ من زعماء الكنيسة الذين لا يعملون بمقتضى هذا المرسوم . فألقى القبض على كبريانوس فور صدور هذا المرسوم ، و أحضر للاستجواب أمام حاكم مقاطعة إفريقيا . و إذ طلب منه أن يعطي بياناً عن نفسه ، قال بثبات : « أنا مسيحي و ناظر في الكنيسة . و أنا لا أعرف بالله غير الله الحقيقي الذي صنع السماوات والأرض ، و البحر و كل ما فيها . و هذا هو الإله الذي نخدمه نحن المسيحيون ، و إليه تتضرع نهاراً و ليلاً ، من أجل أنفسنا و من أجل البشرية أجمع ، و من أجل صالح الأباطرة أنفسهم و سعادتهم ». ثم سأله الحاكم عن بقية القادة في كنيسته . فأجابه كبريانوس بلطف : « إن مبادتنا تمنعهم من أن يعرضوا أنفسهم لكم ، و أنا لا يمكنني أن أشي بهم ». « لكن » أردف كبريانوس يقول ، « إذا ما فتشتم عنهم ، ستجدون كلَّ واحد منهم في مكان خاص ».

قرأ الحكم أمامه نصّ المرسوم الإمبراطوري الجديد ، ثم أصدر الحكم بحقه : كان يجب عزل كبريانوس عن رعيته ونفيه من قرطاجة . فاتَّفِيدَ كبريانوس إلى مكان قرب يدعى كوروبيس (Curubis) . كانت هذه المدينة الصغيرة والجميلة تقع على ساحل البحر ، ويفتَّضح أنَّ كبريانوس قد عُوْمِلَ هناك باحترام وقدير كبيرين . وغالباً ما كان يأتي إليه أصدقاؤه لزيارته ، كما أنه كتب من هناك رسائل رائعة ضمَّنَها مشواراته وتشجيعه لهم . لم ينسَ أولئك المسيحيون الذين أخذوا في الوقت عينه إلى أمكانة أخرى أكثر صعوبة ، أو أرسلوا للعمل في المناجم الراهية والمرعية . لقد بذل كل ما في وسعه للتخفيف من عنتهم ، فكان يرسل إليهم ، كلما سُنحت له الفرصة ، المال وأموراً أخرى من شأنها أن تريحهم .

ثم بعد مرور سنة ، دُعِيَ كبريانوس مجدداً إلى قرطاجة ، حيث وجد أنه تمَّ تعيين حاكم جديد عليها . فالإمبراطور فاليريان ، إذ لاحظ أنَّ مرسومه الأول ضدَّ المسيحيين لم يعطِ النتيجة المطلوبة ، ألحَّه بمرسوم آخر أقوى بكثير جداً من سابقه . لقد جاءت بنوده متصلة للغاية ، ولا مجال للمساومة عليها . إنه يحكم بالموت على النثار ، وعلى سائر قادة الكنائس أجمعين . ويعوجب هذا المرسوم ، تُصادر جميع بيوت المسيحيين وحقولهم و كل ممتلكاتهم ، و من ثم يُعدون من بلادهم أو يُعدمون . لقد علمَ كبريانوس أنَّ هذا المرسوم يعني انتهاء حياته على هذه الأرض . فألجَّ عليه أصحابه أن يجد لنفسه فرصة للهرب لكي ينجو بحياته ، لكنه رفض . عندئذ سبقَ كبريانوس إلى قصر الحكم الذي يبعد نحو عشرة كيلومترات عن قرطاجة ، حيث سُمِحَ له بأن يتناول طعام العشاء مع بعض أصدقائه المقربين . كما أنَّ العديد من المسيحيين خرجنوا من قرطاجة عندما علموا المكان الذي اتَّفِيدَ إليه كبريانوس ، وراحوا يراقبون القصر ويحرسونه الليل كله خشية أن يُعدَم ناظرهم المحبوب أو يُنفي بعيداً من دون علمهم .

ثم في اليوم التالي ، سبقَ كبريانوس إلى مكان المحاكمة الذي يبعد قليلاً عن قصر الحكم . كان متعباً و منهوك القوى بسبب سيره تحت أشعة الشمس المحرقة . وبينما كان يتَّنَظر وصول الحكم إلى المكان ، عرض عليه أحد الحراس بلطف أن يغير ثيابه . شكرَه كبريانوس ، لكنه رفض . ثم قال : «لماذا نهتم بمعالجة الأمور التي ربما تكون نهايتها في هذا اليوم؟» جلس الحكم على مقعده ، وأمرَ كبريانوس أن يقترب التقدمات لل kakha . رفضَ كبريانوس ذلك . عندئذ أثذَرَه الحكم و دعا إلى أن يعيد النظر في قراره هذا الذي يعرضه للمخاطر . فأجابه كبريانوس : «لا داعي في مثل هذه القضية العادلة لإعادة النظر في الأمر». وعلى أثر ذلك أصدر الحكم حكمه بقطع رأس كبريانوس . هتفَ كبريانوس : «شكراً لله!». ثم صرخ المسيحيون الحاضرون : «التقدَّمُ جمِيعاً و لِتُقطَّعَ رؤوسنا معه». ولكنَّ العسكر متوجهون من الاقتراب .

و مع اقتراب النساء ، اقتاد الجندي كبريانوس إلى الساحة العامة . فاحتشد جمع غفير ليحيوا ذلك الرجل الذي استحوذ على احترامهم و على محبتهم . كما أنَّ الكثيرين من اتباعه

سلقاً الاشجار ليشاهدو ما سيحدث باكثر وضوح . صلى كبريانوس ، و نزع عباءته ، و امر ان يُمنح العسكري الذي سيفقد في الحكم خمسة وعشرين قطعة من الذهب . ربط الوشاح حول عينيه ثم قام اثنان من اصحابه بربط يديه . و بعد قتله ، وُضعت جثته أمام الملا . و في تلك الليلة ، عاد مسيحيو قرطاجة وأخذوها بانتصار حاملين مشاعل موقدة ، و دفونوه في مقبرتهم . لقد كانوا يتجمعون باستمرار حول قبره ، لكي يصلوا معًا ، حائين بعضهم بعضاً على عدم تبيان حياة وقدوة هذا الرجل الشجاع والكريم ، وهو الذي لم يكن يكتفى قط عن الصلاة لأجلهم ، والاهتمام بهم .

وهكذا قضى كبريانوس في العام 258 ميلادي عن عمر يناهز 58 سنة . قاد كنيسة قرطاجة لمدة عشر سنوات فقط ، ولكن ما أهم تلك السنوات العشر وأعظم شأنها ! لقد هبَّت المدينة الافريقية بحملتها لتحفل باستشهاد ابنها العظيم المميز . في العام 250 م ، كانت الجموع قد هتفت «ارموا بکريانوس للاسود» . و الآن ، و بعد ثمانى سنوات فقط على ذلك ، صاروا يشفقون عليه و يوغرؤنه . كان سلوكه خلال أشهر انتشار الطاعون سبباً في كسب ود الجماهير و محبيهم . فهو حتى آخر لحظات حياته لم يلق أية اهانة او تحقر من احد . وفي هذا الوقت ، لم يعد المسيحيون مكرهين بسبب الانتقادات الكاذبة التي أثارت الشعب ضدهم في القرن السابق . شعب قرطاجة ، من مسيحيين ووثنيين على السواء ، وجدوا في كبريانوس الرجل ذا المكانة الرفيعة ، الذي قد تميز بالحكمة واللطف ، و هو الذي كان يفضل السلام على النزاع . إنَّ الزعيم الذي يستطيع ان يحظى بحب مناوئيه واحترامهم يستحق بذلك ان تكون له مكانة رفيعة في التاريخ . إنَّ الذين يجلون امثال هؤلاء الرجال في حياتهم ، اثنا يستيقن بذلك حكم الأجيال القادمة .

و بعد مرور قرنين من الزمن تماماً ، نجد اخسطينوس ، و في مناسبة احياء ذكرى استشهاد كبريانوس ، يعظ الجماهير الغفيرة التي احتشدت في مبنى فخم كان قد تم إنشاؤه في الموقع الذي استشهد فيه كبريانوس . والآن ، ها قد انهارت الامبراطورية الرومانية و تقوضت ، و أصبح حكامها الوثنيون في طي النسيان . اما كبريانوس نفسه ، فيبقى نجماً متالقاً في تاج افريقيا الشمالية . لم يكن كبريانوس ليفتقر الى الشرف والى اساليب الراحة حتى في آخر أيام حياته ، لكنه كان مستعداً بكل ارادته ليتخلى عن هذه الامور الحقيقة ، لكي يحصل من يد مخلصه على مكافأة اعظم وأسمى .

ملاحظات

Epître 1 : Ad Donatum 4 (ANF Vol. V p. 275) -1
Epître 1 -2

- راجع بشأن موضوع اللباس والثياب Hamman pp. 67 ff.

- 4 يوحنا 10:12 و 13

- 5 متى 23:10

- 6 يوحنا 20:8

- 7 يامكانك ان تحصل على نص لاحدي هذه الشهادات في (Bettenson *DOTCC* p. 13)

Ad Martyres 1 -8

De Pudicita 22 -9

De Pudicita 22 -10

- 1 كورنوس 13-9:5 و 9:6 و 10

- 12 مرقس 8:12 و 29 ، المقا

Monceaux Tome. II pp. 34 - 35 : Frend p. 128 -13 . راجع أيضًا Frend p. 319

- 14 معروف عن الحركتين انهما رصان الصنوف في فريجية (تركيا حالياً)
(Schaff *HOTCC* Vol. II p. 197)

- 15 ان العبارة «كاثوليكي» تعني طبعاً «كلي» أو «عمومي» .

Vita Cypriani 9 (ANF Vol. V pp. 270 - 271) -16

(ANF Vol. V pp. 469 ff) *De Mortalitate 15 -17*

De Mortalitate 20 -18

Epître 5 (ANF Vol. V p. 283)-19

(TCOSC p. 55) Walker -20 اقتبسها

Epîtres 2 & 3, (ANF Vol. V pp. 280 - 282) -21

ان المصادر الرئيسية لحياة كبريانوس و عمله هي *Vita Cypriani* بقلم أحد أصدقائه و معاصريه و يدعىPontius (Pontius) (الترجمة الانكليزية متواجدة في ANF Vol. V) ، بالإضافة أيضًا إلى رسائل كبريانوس وأبحاثه (في المجلد نفسه) . أما المصادر الثانوية فتشمل :

Foakes - Jackson, pp. 265 - 269; Plummer pp. 119 - 128

Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 843 - 849

كما أن Frend يذكر أيضًا مراجع عديدة .

الفصل الثالث عشر

قيادة الكنائس

ان حياة كلّ من ترتوبيانوس و كبريانوس تتداخلان معًا على مدى نحو ثلاثة سنّة ، إلا انه ياماًكانتا أن نرى في هذين الرجلين الشهيرين تحسيدين حقبتين من تاريخ الكنيسة متاليتين و مختلفتين تماماً . فقد عاش ترتوبيانوس في ظروف شبيهة بالعصر الرسولي ، في وقت كان المسيحيون ضمن مجموعات مرتنة و ذات اكتفاء ذاتي ، على شاكلة الكنائس المذكورة في العهد الجديد . بالمقابل ، كان كبريانوس أول نصیر عظيم للمثال الكاثوليكي الجديد للإدراة الكنيسية و الذي أصبح متداولًا خلال الأجيال التالية . رأى ترتوبيانوس في الكنيسة اخوية عالمية شاملة تضم كل المؤمنين بال المسيح من دون تمييز . أما في مفهوم كبريانوس ، فالكنيسة أصبحت مجتمعاً منظماً يتكون من مجموعات معتمدة ، و تخضع لسلطة تنظيمية مركزية .

اذًا ، شهد القرن الثالث نقطة تحويل الكنائس المستقلة الى « الكنيسة الكاثوليكية » ، وإدماج الجماعات المسيحية المحلية في مؤسسة منظمة عالمياً . و في هذا الوقت أيضًا ، تخلّت العبادة المسيحية عن عقوبتها الجماعية الأصلية ، حيث باتت القيادة في كل كنيسة محصورة ببناظر واحد فقط . و كبريانوس نفسه ، كما سنرى لاحقًا ، كان نبراس هذه التطورات في إفريقيا .

عاشت الكنائس الصغيرة و المشتتة هنا و هناك ، في زمن الرسل و القرن التالي ، وهي تتضرر وتتوقّع بثبات رجوع الرب يسوع و نهاية العالم . كانوا يعالجون بسرعة اية مشكلة كانت نظراً ، وكل قضية بحسب استحقاقاتها و بوجوب مبادئ الكتاب المقدس البسيطة التي تسادي بالمحبة والحق . لم يكن التنظيم الخارجي بالأمر الهام في ذلك الوقت ، لأنّه كان لكل كنيسة قادتها المعترف بهم ، و هكذا لم تكن تحتاج الى اية سلطة أخرى أو سلطة عليا عليها . و من الناحية العملية ، بقي التعليم المسيحي و اسلوب العبادة وطريقتها في كنائس آسيا و أوروبا وإفريقيا متشابهين جداً . و هذا يرجع بكل بساطة الى كون كل كنيسة تستند توجيهاتها من الكتاب المقدس نفسه و من التقاليد و الاعراف المعروفة عند كل واحد التي تسلموها من الرسل ، وليس لأنّهم قرروا عنوة العمل بشكل متطابق .

إلا انه مع نهاية القرن الأول ، ظهرت قوى جديدة راحت تعمل و تضغط بشدة على الكنائس في جميع انحاء العالم . و هكذا برع خصمان مشتركان ساعدوا كثيراً على جذب

الكنائس بعضها الى بعض : الاضطهاد من الخارج و التعاليم المضلة من الداخل . ان ما نتج من جراء ذلك من توترات و هواجس ، حتم على الجماعات المسيحية ان تكون على اتصال وثيق بعضها ببعض . فإذا ما بدأ احد الاخوة مثلاً ، في كنيسة ما ، بعرض تعاليم يعتبرها الاخرون مضلة ، سيكون من الطبيعي أن يلجلوا الى اصدقائهم في المدينة المجاورة للاستعامة بشورائهم . وإن بات من الضروري فصل احد الاخوة المتبدعين عن عضوية الكنيسة ، فقد كان من الحكمة تحذير بقية مسيحيي المدن المجاورة حتى يكونوا على علم بالأمر ، وحتى يمكنهم اتخاذ أية خطوات يجدونها مناسبة في هذه الحال . وبصورة عامة ، فالقرار الذي تتخذه احدي الكنائس ، يكون مدعاوماً و مؤيداً من بقية الكنائس المجاورة ايضاً . و مع مرور الوقت ، و مع تزايد الاتصال بين الجماعات المسيحية ، بدأت الكنائس ذات النفوذ الأكبر - كنائس قرطاجة و روما مثلاً - تعتمد على خضوع و قبول الكنائس الأخرى لها بالنسبة الى اية قرارات قد ترتقي اتخاذها . و هكذا نرى العلامات الاولى للقيادة الهرمية التي تطورت أخيراً تحت شكل الكنيسة الكاثوليكية .

وفي ساعات المحن والمضائق ، و اذا ما ظهرت بوادر الاضطهاد في مدينة ما ، وجد بعض المسيحيين أنه من المناسب الانتقال الى مناطق اخرى لفترة زمنية معينة ريثما تزول هذه الجلبة وتلاشى رويداً رويداً . لذا نجد ان المؤمنين في افريقيا الشمالية كانوا يدفعون دفعاً للاتصال من مكان الى آخر ، تماماً كما حصل في فلسطين عندما تشتت المسيحيون بعد حادثة استشهاد استفانوس¹ . كانوا يقصدون بيوت الاخوة و الأخوات في الأماكن الأكثر اماناً ، لكي يجدوا هناك التغذية والتشجيع .اما اولئك الذين استحسنوا البقاء في اماكنهم ، معرضين انفسهم بذلك لفقدان املاكهم و مصادر معيشتهم ، فكانوا أحياناً يحصلون ايضاً على العطايا والهبات من مأكل وملبس ، مصدرها الجماعة المسيحية في المدينة أو القرية المجاورة ، او حتى من اماكن بعيدة ايضاً . فالمؤمنون الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد في ليون و فيان ، في فرنسا ، ارسلوا بيساناً بمعاناتهم وعلبائهم ، حتى الى حدود المناطق الشرقية البعيدة في آسيا و فربوجية ، هذا على اعتبار أن الكنائس هناك ستهم بأمورهم ، كما أنها ستهب لمساعدتهم ضمن امكانياتها . و هكذا راحت مثل هذه الضغوطات - من الخارج و من الداخل - تجذب الكنائس بعضها الى بعض من أجل مزيد من التعاون المتبادل في سنوات السلم ، كما في أزمنة الضيق .

ومع هذا ، كانت الكنائس المحلية لا تزال مجموعات مستقلة من المؤمنين ، تربطها روابط المحبة والاحترام المتبادل . كانت الجماعات المسيحية تستمتع بجو من البساطة و الارسمية نفسها التي كانت مقبولة و حسنة في أعين الرسل في القرن السابق ، و في نظر الروح القدس الذي كانوا دائماً يسترشدونه . كانت الكنائس الأولى تتمتع حقاً بحرية روحية مميزة و رائعة : كان الجميع يجدون الفرصة و المناسبات ، بحسب قيادة الروح القدس ، ليشاركون في حياة المجموعة المسيحية و في اجتماعاتها . و يخبرنا الرسول بولس عن الجماعات المسيحية التي يعرفها قائلاً : « و لكنه لكل واحد يعطي اظهار الروح للمتفقة فإنه لواحد يعطي بالروح كلام حكمة . ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد . و لآخر ايمان بالروح الواحد . و لآخر

مواهب شفاء بالروح الواحد . و الآخر عمل قوات و الآخر نبوة و الآخر تغيير الأرواح و الآخر انواع السنة . و الآخر ترجمة السنة . و لكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه فاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء .²

ولكن كيف يتم هذا عملياً؟ كيف تقدر هذه المواهب الإلهية و القدرات المتعددة و المختلفة على أن تساهم في عقد اجتماع منظم؟ يوضح بولس ذلك بالقول : « متى اجتمعتم فكل واحد منكم له مزמור له تعليم له اعلان له ترجمة . فليكن كل شيء للبيان . . . لأنكم تقدرون جميعكم أن تتباوا واحداً واحداً ليتعلّم الجميع ويتعزّى الجميع .³ لقد جعل هذا الأسلوب الرائع من الحرية و عدم التكفل عبء المسؤولية على كل عضو من أعضاء الكنيسة للسعى الشخصي وراء الله ، وللمساهمة من كل القلب لفائدة الجميع . لقد اتيحت الفرصة أيام كل واحد للمشاركة ، وفوق هذا فقد كان من يشجعه ويحثه على ذلك . كانوا يتحملون معاً مسؤولية حياة الكنيسة ، ويتوقع منهم أن يطبعوا التوصية الصريحة : « بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً ». كذلك خاطبهم الرسول بالقول : « ولنلاحظ بعضنا بعضاً للتحرير على المحبة والأعمال الحسنة »؛ على الأقل يتضرر ذلك على مرة واحدة في الأسبوع فقط ، بل بالحرى « شجعوا بعضكم بعضاً كل يوم .⁴

بالطبع ، كان بين صفوف الجماعة المسيحية أناس زودهم الله بهارات و عقدرات روحية واضحة . فآمثال هؤلاء الرجال و النساء هم هبة المسيح للكنيسة . « و هو اعطى البعض ، ان يكونوا رسلاً والبعض أنبياء و البعض مبشرين و البعض رعاة و معلمين . لأجل تكملة القديسين لعمل الخدمة لبيان جسد المسيح .⁵ يامكان اي من المؤمنين المسيحيين ان يصبو الى القيام بهذه الخدمة ، و لكن القصد من ذلك ليس تمجيد المهوبيين و الشخصيات المسلطة و ترفيعهم الى مستوى أعلى من إخوتهم المؤمنين الآخرين ، بل على تقدير ذلك ، كما يقول بولس ، لأن الهدف هو تدريب كل أعضاء الكنيسة بحملتهم لكي يصبحوا نافعين و فعالين في عمل الله .

و بالإضافة الى العاملين بموهيبهم الروحية ، كان هناك رجال معينون « شيوخ و مدبرون » أتيط بهم تحمل المسؤوليات العامة المتعلقة بنمو الكنيسة و خيرها ، و وخاصة في مجال الإدارة والتأديب فيها . كان دورهم حيوياً للغاية . و في معرض اختيار مثل هؤلاء الرجال ، لم يكن يُنظر الى مواهيبهم المبدعة ، بقدر ما كان التشديد بالأولى على شخصياتهم التقة . و يظهر هذا بكل وضوح من لائحة المواصفات التي جعلها الرسول بولس لمن يرغب في أن يكون شيخاً أو مدبراً⁶ عليهم ان يشهدوا على ان تكون احتياجات كل فرد من أفراد الكنيسة مؤتمة ، سواء أكانت روحية او مادية . كان عليهم ايضاً ان يتخدوا قرارات تتعلق بخدمة الكنيسة ، و بأوقات اجتماعاتها وأسلوبها . كذلك كانوا يُشرفون على الاحتفالات المختصة بالزواج و الموت . كما انه يترتب عليهم أن يشجعوا اصحاب المواهب الروحية لكي يُحسنوا استخدامها و يبقوا متواضعين . كان منوطاً بهم ايضاً أن يمارسو التأديب عندما يسقط احد أفراد الكنيسة في خطية ما . وبصفة عامة كانت على عاتقهم مهمة الحرص على إبقاء كل من تعليم الكنيسة والمارسة على أساس مبادئ الكلمة الله . وفي ما بعد تحملوا مسؤولية المباني التي تستعملها الكنيسة .

يجب أن يكون عند الشيخ معرفة عملية كافية بالكتاب المقدس . و بدبيهي أن الجماعات التي تسمع بالمشاركة الحرة لأعضائها ، تعرض نفسها بذلك لخطر دخول التعاليم الكاذبة بين صفوفها . ولهذا وجب على كل شيخ ان يكون « صالحًا للتعليم » ، و أن « يعظ بالتعليم الصحيح ويوين المناقضين ». ⁷ قد يتميز واحد أو اثنين من الشيوخ في المهارة لتوضيع الكلمة الله وتفسيرها ، بينما يمكن للأخرين ان يتضروا وقتًا أكثر في خدمة الكنيسة من نواح أخرى . فقد يسهل على أحدهم ان يعمل عمل المبشر ، إذ يتوجه بين الناس في الأسواق والأماكن العامة لكي يقودهم الى المسيح . وقد يكون لأحد هم موهبة الإيمان العظيم ، أو الحكمة ، أو المقدرة على شفاء الأمراض . أما شخص آخر فقد يحسن فن تعزية الخائفين والمحزونين و تشجيعهم ، إذ يقوم بزيارتهم في بيوتهم . كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ ، و بمعدل عن مساهمته الخاصة ، معروفاً عنه أنه بالحقيقة أحد رجالات الله ، وأنه يستحق وبالتالي احترام جميع الناس .

يشير العهد الجديد الى هؤلاء القادة أحياناً كشيوخ ، و أحياناً أخرى كنطار . لقد استخدمت هذه التسمية الأخيرة بشكل رئيس في كنائس الأمم بينما كانت التسمية الأخرى رائجة في اواسط الكنائس التي كان اعضاؤها من أصل يهودي في غالبيتهم . وبالطبع ، فمن الممكن استبدال كلا التسميتين بما انها تشيران الى المنصب عليه الذي كان يشغله الأشخاص أنفسهم ⁸ . كانوا شيوخاً بسبب أندميتهم في الجماعة المسيحية ، كما انهم كانوا ايضاً نظاراً بصفتهم كانوا يراقبون الجماعة المسيحية ويسهرون عليها لأجل سد احتياجاتها الروحية . ان التسمية «شيخ» تحدث عن سلطتهم في الكنيسة ، بينما العبارة «ناظر» تبين وظيفتهم و ما يقومون به من مهام .

كان النظار في غالبيتهم يعانون من امتهانهم للتجارة و الحرف او الوظيفة ، و كان هذا يستحوذ على معظم أوقاتهم . و حتى في أوقات فراغهم ايضاً ، كان من الضروري أن يهتموا بتأمين مستلزمات عائلاتهم بالإضافة الى احتياجات الكنيسة . كانوا رجالاً مشغولين ، و بالتالي كان يناسبهم جداً ان يتعاونوا في تحمل المسؤوليات لخير الجماعة المسيحية . وكان كل واحد منهم يجد الفرصة ليساهم بحسب قدراته و كفاءاته الشخصية ، حتى إذا ما غاب بسبب من الأسباب ، ناب عنه شيخ آخر . لقد عين يولي وبرنابا عددًا من الشيوخ في كل كنيسة ، فيما كانوا يسافران عبر ليكونية و بيسيدية ⁹ كما ان تيتسس ايضاً حصل على توصيات بضرورة تعيين مجموعة شيوخ في كل كنيسة في جزيرة كريت ¹⁰ . كانت مثل هذه القيادة الجماعية مسلمةً بها جدلاً في العهد الجديد . اتنا نجد العديد من الشيوخ في فيليبي ¹¹ كما انه تم إرسال مساعدة الى الشيوخ المسؤولين عن كنيسة اورشليم ¹² كذلك نجد ان كلاً من يعقوب وبطرس اشارا الى مجموعة من الشيوخ في الكنائس التي وجها اليها رسائلهما ¹³ .

كان الشيوخ ، في زمن العهد الجديد ، ينمون تدريجياً من بين أفرادهم الى أن يبلغوا مستوى من النضج يؤهلهم لقيادة الكنيسة التي كان قبلًا عضواً فيها ¹⁴ . وهذا يعني ان اولئك الذين تم تعيينهم كشيوخ ، كانوا ذوي اطلاع حسن بالاوضاع المحلية و الظروف الشخصية التي عُهد إليهم

مسؤولية الاعتناء بها . كانوا يعرفون جيداً شعبهم كما ان شعبهم كان يعرفهم ايضاً . كانوا يعملون معًا في الحقول ، ويتقللون في الأسواق عندها ؛ كانوا يتكلمون اللغة ذاتها ، ويواجهون المشاكل والصعاب نفسها . ولم يكن يؤمن برجل من مكان آخر ليتحمل المسؤولية في كنيسة لا يعرفها . فعندما كان يذهب الرسل والخدم المتجولون الآخرون أمثال بولس وتيمناؤس وبيطس لتأسيس او لمساعدة كنيسة ما في مدينة بعيدة ، لم يكونوا ليصبحوا القادة الدائمين في هذه الكنائس ، بل على تقىض ذلك ، كانوا يعيثون شيئاً من بين اعضائها فيعلمونهم ويشجعونهم ، ثم يغادرون من عندهم بعد عدة أشهر من اقامتهم معهم أو بضع سنوات على أكثر تقدير .

كان يتم اختيار الشيوخ بناء على حكمتهم و على مستواهم الروحي . كان على جميع الذين يرغبون في تولي القيادة الروحية أن يكونوا « مخلوقين من الروح القدس و من الحكمة ». ¹⁵ وفي ما يخص المؤهلات الأخرى المطلوبة في القائد بحسب العهد الجديد ، فليس هناك أي ذكر للمستوى العلمي او للاصل العرقي . ¹⁶ ولم يكن أحد ما يقصى عن المسؤوليات الروحية بسبب خلفيته الاجتماعية الحفيرة ، ولا كان يحتاج الرجل او المرأة الى ميزات اكاديمية لكي تكتنفهم من خدمة الله : فالرسل بطرس ويعقوب ويوحنا لم يكونوا على كل حال سوي صيادي سمك عاديين . ولم يكن احدهم يعتبر أنه غير مؤهل للخدمة بسبب عرقه او مكان مولده ، شرط ان يكون عضوا دائمًا في الكنيسة التي يرعب في الخدمة فيها . ففي كنيسة انطاكيه مثلاً ، نجد خمسة قادة ، من الواضح ان اصل كل واحد منهم يرجع الى بلد مختلف : برنبايا من قبرص ، وسمعان ربما من إفريقيا السوداء ، ولوكيوس من كوريني الذي يبدو أنه كان أمازيغياً ، و مناين من فلسطين ؛ وأخيراً شاول و هو يهودي من طرسوس . ¹⁷ ولكن ، كانوا كلهم مقبولين كرجال من انطاكيه ، بحيث انهم كانوا قد استقرروا في هذه المدينة ، وشاركوا في حياتها و في تجارتها ، ويتكلمون لغة شعيبها . ¹⁸

ليس هناك في العهد الجديد اية إشارة الى ان واحداً ، او اكثر ، من الشيوخ كان يشغل منصباً أعلى من بقية الشيوخ . بل على تقىض ذلك ، إذ كانوا يشاركون جميعهم في اتخاذ القرارات . وحتى الرسول بطرس لم يعتبر نفسه أنه أعلى مقاماً من القادة الآخرين في الكنيسة . وعندما يكتب اليهم يكتفي بالإشارة الى نفسه ببساطة على كونه الشيخ رفيقهم ، فلا نجد أنه يأمرهم ، لكنه ينادهم بصفتهم مساوين له . ¹⁹ يعود تقدير قيمة القرارات الجماعية المشتركة الى زمن بعيد ، لأجل ضمان صحة القرار ولضمان تطبيقه وتنفيذها بشكل طوعي . « مقاصد بغیر مشورة بتطل و بكثرة التشریین تقوم . » ²⁰ وهذا الأمر يصح على الكنيسة كما على سائر المجالات والميادين الأخرى ايضاً . لقد كان القادة في كل مدينة يجتمعون للصلة ، و لطلب المشورة من أجل إتمام مسؤولياتهم المشتركة . ففي انطاكيه مثلاً ، « بينما هم يخدمون رب و يصومون قال الروح القدس : ”افزروا لي برنبايا و شاول للعمل الذي دعوتهما اليه . ” » ²¹ حيث وضعوا جميعهم عليهما الأيدي ثم اطلقواهما للتبشر بالانجيل في ديار أخرى .

كان يساعد الشيوخ مجموعة من المدربين و يطلق عليهم احياناً التسمية « شمامسة » . في العصر الرسولي ، كان المدربون يهتمون بشؤون عملية توزيع الطعام للأرامل . ثم راحوا

في ما بعد يعنون بصياغة المباني والاثاث والكتب التي تخص الكنيسة ، و كذلك مقبرتها . وقد يضم هؤلاء المدبرون بين صفوفهم نساء ايضاً مثل فيبي التي خدمت الكنيسة في مدينة كنخريا القريبة من كورنثوس ،²² كما ان نساء آخريات أمثال بريسكلا كان لهن قدر عظيم وكن مباركات في عمل الرب من دون ان يكون لهن بحسب الظاهر ، أي مركز رسمي في الكنيسة .

وعليه ، فمن الواضح ان القيادة الروحية في زمن العهد الجديد ، كانت تتطور في داخل كل كنيسة محلية ، متحركة كل الحواجز العرقية والحضارية والثقافية . كانت كل مجموعة محلية يقودها عدد من النظار او الشيوخ ، الذين كانوا يشاركون معًا في مجالات اتخاذ القرارات والادارة و عمليات التأديب فيها . ولكن الخدمة المسيحية لم تكن محصورة بهم وحدهم ، لم يكونوا بأي حال من الأحوال هم الوحيدين الذين يشاركون في اجتماعات الكنيسة . هذا لأنه يوجد متسع من الحرية امام كل مؤمن حقيقي للمساهمة في الخدمة و لتنمية مواهبه الروحية التي يمنحه ايها الله لفائدة الجميع . لقد عمل هذا النظام بشكل فعال ، و هكذا باتت كنائس القرن الأول ناجحة للغاية ، و كان تعليم المؤمنين و كرازتهم حبيبين و مشرعين ، و هكذا تكونوا ، بفضل ما اتصفوا به من مرونة منطلقة ، من أن يحملوا بسرعة الأخبار السارة عبر عالم البحر الأبيض المتوسط آنذاك .

كان الاتجاه نحو هيكلية أكثر صرامة ، و ترسيخ أحد الشيوخ او النظار الى مرتبة أعلى من زملائه الآخرين ، يتضوران ببطء في البداية . ففي الرسالة التي كتبها اقلمندوس في العام 96 بعد الميلاد الى كنيسة كورنثوس ، لم يتحدث بشكل بارز عن الماءب الروحية ، كما هو الحال في رسالة بولس الى هذه الكنيسة عنها . إلا أن حديث اقلمندوس عن قيادة الكنيسة يبين أنه لم يطرأ عليها أية تغيرات أساسية في الوقت الذي كتب فيه مع نهاية القرن الأول . فهو يتكلّم عن مدبرين ، كما هو متوقع ؛ و في اشارته الى النظار و الشيوخ ، يلفتنا كونه لا يجعل أي فارق بينهما ، كما هو الحال في طريقة استخدام العهد الجديد لهاتين العبارتين . كتب اقلمندوس باسم كنيسة روما لكنه لم يضمن رسالته اي تلميح على أن هناك من يعتبره الناظر الوحيد او الرئيس في تلك المدينة ، كما انه لم يشر قط الى اي ناظر معين ومحدد في كورنثوس . ان الكتاب المسمى « ديداككي » (Didache) ، و الذي يدعى تقديم عرض لتعليم الرسل الاثني عشر ، كانت كتابته قد نُحت في مصر او في سوريا على الرجح ، وذلك نحو عشر سنوات او عشرين سنة بعد رسالة اقلمندوس . يتحدث هذا المستند بوضوح عن القيادة الجماعية التي كانت سائدة في الكنائس خلال تلك الحقبة ، كما انه يوجه المسيحيين قائلاً : « اختاروا لأنفسكم نظاراً ومدبرين كما يحق للرب ». ²³

إلا أنه ، و منذ ذلك الوقت ، بدأ شيء من التغيير يظهر أكثر فأكثر . و كان تقدمه أسرع في بعض المناطق أكثر من سواها . لقد كتب إغناطيوس الذي من اقطاكيه في نحو العام 115 ميلادي بحث كنائس آسيا الصغرى (تركيا) على اطاعة « الناظر الوحيد » الذي كان قد تم تعيينه في كل مدينة .²⁴ قد تستكشف من تكراره لهذه التوصية لهم ، احتمال وجود بعض المقاومة من جانبهم لهذا النموذج او الشكل الجديد من القيادة الكنيسة ، الا ان هذا ليس بالأمر

الواضح والمؤكد . إلى ذلك ، يبدو أن هذا الأسلوب لم تعمق جذوره بهذه السرعة في كل مكان ، حتى و لا في آسيا الصغرى نفسها . و نحو عام 150 م ، كتب بوليكاريوس من مدينة سميرنا ، و هي إحدى المدن الرئيسية في المنطقة ، مثيراً إلى نفسه كأحد الشيوخ . و لم يشر قط إلى الناظر الأول ، لا في مديته و لا في كتبه فيلبي التي وجه إليها رسالته .²⁵

وفي العام 138 يخبرنا يوستينوس الشهيد ، عن شخص قاد اجتماع العشاء الرباني في كنيسة روما ، لكن لا نعرف إن كان هو نفسه المسؤول عن إدارة الكنيسة . كما انه لا يتضح لنا من كلام يوستينوس ان كان الشخص نفسه هو الذي يقود باستمرار خدمة العشاء الرباني في .²⁶

ولكن في أواخر القرن الثاني ، بدأ الشكل الأصلي الأول للقيادة المسيحية يتظاهر في معظم الأماكن . فنجد تروليانوس يشير في ذلك الوقت إلى نظام خدمة ثلاثي قائم في كنائس إفريقيا : نظار ، شيخ ، و مدربين . أما في الكنائس الكبيرة في أماكن أخرى ، فنجد تقسيمات إضافية من صنف «مساعدي المدربين » ، و « القراء » ، و هكذا نبدأ نشهد تحولاً واضحاً نحو تطور نظام هرمي . ويخبرنا المؤرخ الكتسي الشهير يوسابيوس أنه كان في روما ، قربة العام 250 م ما لا يقل عن ستة واربعين شيخاً ، و سبعة مدربين ، و سبعة مساعدي مدربين ، واثنين وأربعين خادماً ، و اثنين وخمسين خادماً لطرد الأرواح الشريرة ، بالإضافة إلى مجموعة من القراء و البوابين ، و جميع هؤلاء كانوا يتلقون أجورهم من الكنيسة . كما ان كنيسة روما آنذاك ، كانت تقدم المساعدات لأكثر من ألف و خمس مئة ارملة و محتاج . كان عدد المؤمنين في روما يقدر بما مجموعه 50 000 مؤمن ، كانوا يجتمعون على الأرجح في عدة أماكن مختلفة .²⁷

فليس من الصعب ان تصور ضخامة العمل الإداري المطلوب لتنسيق كل هذا النشاط . وهكذا نجد كيف ان الكنيسة راحت توالي بشكل متزايد أكثر الرجال افتاداراً من قادتها ، على مهمة مراقبة هذه الشؤون الإدارية المعقدة . فأخذ هذا الرجل رويداً رويداً دور الناظر الرئيسي في الكنيسة ، الأمر الذي حتم عليه ان يتخلى عن تجارة او وظيفته ، ليخصص وقته الكامل لعمله الكنسي .

قد يكون القانون الروماني هو الذي شجع الأئباء إلى حصر القيادة الكنيسة في رجل واحد ، بحيث أن هذا القانون كان يتطلب من كل هيئة او جماعة ان يكون لها ناطق باسمها مسجل رسمياً في الدولة . ان الشيخ المختار الذي يكون مثل الكنيسة الرسمي ، سيكتسب بالطبع أهمية خاصة داخل الكنيسة . و مع حلول منتصف القرن الثالث للميلاد ، بات لدى العديد من كنائس إفريقيا الشمالية قائد من هذا الصنف .

إن التزعة لترفيع شخص واحد في كل كنيسة ، تم ترسيختها أخيراً بشكل رسمي خلال النصف الأخير من القرن الثالث . و في هذه الفترة بالذات ، نظم كبريانوس وأعد لسلسلة المؤتمرات التي كان لها تأثير فعال في تطور الكنيسة في المستقبل . لقد وفرت هذه المؤتمرات الفرصة أمام قادة جميع الكنائس ، ومن مناطق مختلفة ، للاجتماع معًا لبحث القضايا التي تهمهم جميعهم والاتفاق حولها . كانت هذه المؤتمرات تعقد في موقع مركزي ؛ و بالنسبة إلى إفريقيا ، غالباً ما كان يحصل ذلك في قرطاجة . كان على كل كنيسة محلية ان ترسل مشلاً خاصاً عنها ، وبعد ان تخذل أحد شيوخها لهذه المهمة الحيوية ، كانت تنتظر عودته بشوق ليتقل إليها مقررات المؤتمر . أما التالية

الختمة لذلك ، فكانت ترفع ذلك الشیغ واعتباره أعلى مكانة من زملائه في الكنيسة ، هذا لأنه كان بإمكانه وحده ان يؤثر في القرارات التي تصدر عن المؤتمر ، كما انه وحده كان ينقل الى كنيسته وجهات نظر القيادة وآراءهم من أماكن أخرى . و على هذا الأساس تم ترسیخ رجل واحد كالقائد الفعال في الكنيسة ويشكل دائم ؛ وبات معروفاً بأنه ناظر الكنيسة او «اسقفها ». و منذ ذلك الوقت نجد اکثر فأکثر كيف ان التعليم و الامور الادارية في الكنائس المحلية قد جعلت في عهدة هذا الرجل الواحد . و بذلك بدأنا نجد بخطى سريعة عن بساطة العهد الجديد في القيادة المشتركة و المساهمة العامة في الخدمة .

كان كيريانوس في الواقع ، هو المحامي الأعظم عن « خدمة الرجل الواحد » ضمن بيئة إفريقيا الشمالية . و هكذا نجده يستند الى شبكات خيالية لدعم موقفه هذا من الكتاب المقدس . كان يزعم مثلاً انه حيث يوجد كنيسة واحدة ، واعان واحد ، و معمودية واحدة ، لهذا وجب ان يكون هناك ناظر واحد لكل كنيسة . وقد رسم متوازنات صارمة بين الكنيسة وبين شعب الله في المهد القديم . كما ان كيريانوس غالباً ما يشير الى الناظر في كل كنيسة بصفته « كاهناً ». فالناظر في نظره يتشابه كثيراً من حيث المصب مع الكاهن اليهودي الذي كان يقف وسيطاً بين الله و شعبه ، ويقدم الى الله صلوات وتقديمات من اجلهم . كان الناظر هو « القاضي » بين شعبه ، ويستحق ان يطاع بشكل مطلق . و المؤمنون يبدأون يستفيدون من العهد الجديد عندما يعتمدون الناظر ، تماماً كما سبق للعبرانيين قدماً ان دخلوا في العهد القديم من خلال فريضة الختان . و المؤمن الذي يخطيء ثم يتوب ، لا يحصل على المغفرة الا اذا وضع الناظر يديه على رأس هذا الخططي مصرحاً له بأن خططيته قد غفرت . كان يُنظر الى العشاء الرياتي بصفته ذبيحة مقدسة يقربها الناظر لله على مذبح ، تماماً كما كان رئيس الكهنة في العهد القديم يقدم الذبائح بالنيابة عن العابدين .²⁸

لقد اعتمد نظام كيريانوس كلّاً على الخدمة الرسمية التي يقوم بها الناظر المعين او الأسقف ، بالنيابة عن المسيح نفسه ، و ذلك بصفته صاحب سلطة إلهية . و الحقوق التي خصّها الكتاب المقدس بال المسيح وحده ، أصبحت الآن تقدّم بواسطة كهنة الكاثوليكية . و بالمقابل ، نجد برّكات جعلتها كلمة الله من نصيب جميع المؤمنين ، أصبحت الآن حكراً على نظار نظام كيريانوس وحدهم من دون سواهم . كان ترتوليانوس قد صرّح قدماً بأن ابسط رداء يرتديه الفلسوف غير المُسرف ، يصلح ككساء للمعلم المسيحي ؛ الا ان كهنة كيريانوس كان ينبغي ان يكون لهم ثياب غالية تناسب منزلتهم الرفيعة .

نظر كيريانوس الى المدبرين او « الشمامسة » كخلفاء للإلهي العهد القديم ، إذ يساعدون الكاهن في عمل العبادة الروتيني . كان كلّ من النظار و المدبرين ، يستحقون ان يحصلوا على دعم مادي من الجماعة ، و ذلك على غرار نظرائهم في العهد القديم . و المدبرون ، في الواقع ، كانوا يصبحون رسميين ذوي شأن عظيم . و كانوا يعنون بالأمور و القضايا المالية والإدارية المختلفة ، و ذلك تحت اشراف الناظر . و كان عددهم عادة يبلغ سبعة ، تيمّناً بالمدبرين

السبعة الذين كان قد انتخبوهم المؤمنون الأولون في كنيسة اورشليم لمساعدة الرسل .²⁹ لقد قصد كبريانوس ان يقلل من قيمة دور الشيوخ ، إذ جرّد هم تقريرًا من كل الأعمال المهمة في الحياة الكنسية .

كان ترتوبيانوس قد قبل في البداية النزعة الجديدة التي حكم من فوق ، مع التمييز المتزايد بين القائد والمتقادين . كان يرتدي بعض الشيء في مثل هذا الأمر ، ولكن رأى ، أنه لو بما كان ضروريًا في ضوء التعقيدات الإدارية المتباينة آنذاك . إلا أنه في السنوات التالية ، وبعد ازدياد تعاطفه مع المؤمنين ، صار يقيم كثيراً مشاركة كل عضو في جسد المسيح . إن الروح القدس ، كما علم ، هو الذي ينبغي أن يقود الاجتماعات الكنسية ، متخدلاً من خلال كل عضو من أعضائها لتشجيع الجميع وتعزيتهم . آمن ترتوبيانوس بشكل واضح بكونهت جميع المؤمنين ، وغالبًا ما كان يذكر صاحبه بأن المسيح « قد جعلنا ملوكاً و كهنة لله إيه ». ³⁰ صان حق كل رجل مسيحي ، إذا ما وجد في مكان بعيد عن كنيسة قائمة ، أن يعمد المؤمنين بالماء ، ويحتفل بالعشاء الرباني ، و أن يتولى أي عمل مخصص للقادة . لقد صرّح قائلاً : « حيث يكون هناك ثلاثة أشخاص ، حتى ولو كانوا مؤمنين عاديين ، يوجد هناك كنيسة ». ³¹

لاحظ ترتوبيانوس كيف ان امر الرب بإجراء العمودية أعطي لكل من يحمل اسم تلميذ .³² ومع ذلك ، فلا يجوز للمؤمن ان يأخذ على عاتقه مثل هذه الهمم بطيش واستهتار : « (بما ان فضليتي الاحترام والتواضع يليقان بالقيادة) ، كم بالحرى إذا يجدر بالمؤمنين العاديين ان يتحلوا بهما حتى لا يتولوا بكمبياء الخدمة التي تخصل النظار ... فاكتفوا إذا بممارسة حكمكم هذا في حالات الضرورة فقط ، و عندما يضطركم الى ذلك ظرف معين ، او طبيعة مكان خاصة ، او الشخص موضوع الاهتمام . » ثم يضيف ترتوبيانوس بأنه علينا ان نفحص نفوسنا . هذا لأنه يجب على المسيحي ان يكون يومياً في حالة من القداسة و نقاوة القلب امام الله ، و مستعداً لكل عمل صالح : « و هذه هي مشيئة الله ان تكون جميعنا في حالة تؤهّلنا لممارسة الطقوس الكنسية في اي وقت و في اي مكان ». ³³ فترتوبيانوس إذا ، على الأقل ، لم تنب عن رؤية المثال الأعلى في العهد الجديد .

وبالعودة الى العهد الجديد ، نجد أنه لا يوجد إشارة الى اية كنيسة عندها ناظر واحد وحيد ؛ ومع حلول القرن الرابع ، بالجهاد كان يوجد في افريقيا الشمالية كنيسة من دون ناظر . وكان الناظر مسؤولاً عن ادارة الكنيسة و عن عبادتها الى حد كبير ، بالإضافة ايضاً الى شؤون التعليم والبشرة فيها . ربما يُطبق كل هذا بشكل مُرضٍ عندما يكون في مركز القيادة رجال ذوو مهارة و تقوى حقيقة ، وقدرون على توزيع المهام بحكمة و فطنة ، امثال كبريانوس وافسطينوس . ولكن ما الذي يحدث اذا ما رحل الانسان العظيم ، و حل مكانه من هو اقل مستوى منه ؟ فالنتائج قد تبرهن انها مشؤومة ، مصحوبة بكوارث ، كما سُتُّظر ذلك بسرعة الأحداث القادمة .

ملاحظات

- 1- اعمال 1:8 ، 4:1 .
 2- 1كورنثوس 12:7 .
 3- 1كورنثوس 14:26 و 31 .
 4- غلاطية 5:13 ؛ هبرانيين 10:13 - 23 ؛ 13:3 .
 5- افسس 4:11 و 12 .
 6- 1تيموثاوس 1:3 - 13 .
 7- 1تيموثاوس 1:1 .
 8- في اعمال 20:17 و 28 حيث الكلام عن مقابلة بولس مع قادة كنيسة افسس ، نجد أن الوحي يستخدم العبارتين بشكل قابل للتبادل ، كما هو الحال أيضًا في تيطس 1:5 - 7 .
 9- اعمال 14:23 .
 10- تيطس 1:5 .
 11- فيليبي 1:1 .
 12- اعمال 11:30 .
 13- يعقوب 5:14 ؛ بطرس 5:1 (راجع أيضًا 1تيموثاوس 4:14) .
 14- اعمال 14:23 ؛ تيطس 1:5 .
 15- اعمال 6:3 ، بالإضافة إلى الرجال السبعة الذين اختيروا لخدمة الكنيسة في أورشليم . لا يذكر الكتاب في أي مكان ان هؤلاء السبعة هم « مدربون أو شمامسة » . في الواقع ، من المحتمل أكثر أن هؤلاء السبعة كانوا يشكلون مجموعة الرجال الذين يطلق عليهم سفر الأعمال التسمية « مشائخ أو شيوخ » (اعمال 11:30 ؛ 15:4) . هؤلاء كانوا يعنون بقيادة كنيسة أورشليم في وقت كان الرسل يهتمون بإرساء القاعدة المقايدية للإيمان وبالكرامة بالإنجيل في كل أنحاء العالم .
- (NAPNF Series 2, Vol. I : Eusebius *Historia Ecclesiae* II, 1:1; note p. 103)
- 16- 1تيموثاوس 3:7 - 9 ؛ تيطس 1:6 .
 17- اعمال 13:1 .
 18- ييدو أن برنابا و شاول قدماً أن يستقران في إنطاكية لأجل المساعدة على تأسيس الكنيسة هناك (اعمال 11:19 - 26) . وبعد أن أخذوا هذه المهمة ، انتقلا من هناك تاركين الكنيسة في عهدة القيادة المحليين (اعمال 13:1 و 2) .
 19- بطرس 5:1 . عند زيارته بولس لأورشليم ، تشاور مع « المعترفين » بين فيهم بطرس ، ويوحنا ويعقوب أخي الرب (غلاطية 2:9 و 2:2) . اقترح بعضهم أن يعقوب كان قائداً للكنيسة في أورشليم ، لكن لا يوجد أي برهان على ذلك : فهو محمد حديثاً ، ولم يكن حتى من شلة الآئمـة عشر رسولـاً الذين كانوا لا يزالون في ذلك الوقت يخدمون هناك .
 كان يعقوب على الأرجح ينتسب إلى مجموعة الشيوخ الذين التقوا الرسل في مناسبة مشهورة ، وذلك لبحث أمر قبول المؤمنين من الأئمـة . لقد لقيت مساهمته في هذا النقاش ترحيباً ، لكن « الرسل والمشائخ » هم الذين اتخذوا القرار . كما أن الرسالة التي تتضمن التوصيات أرسلها « الرسل والمشائخ » ، لا يعقوب وحده
 (اعمال 15:22 و 23) .

22: امثال 15 - 20

2: اعمال 13 - 21

3 - 1: رؤية 16 - 22

Didache (The Teaching of the Twelve Apostles) 15 - 23

(ANF Vol. I, Staniforth pp. 72 - 82)

(ANF Vol. VII; Staniforth p. 197) Aux Magnésiens 6, 7; Aux Tralliens 3, 7, 13 etc. -24

ANF Vol. I p. 33; Staniforth pp. 119 - 132 -25

Apologia I: 65 (ANF Vol. I p. 185) 65 - 26

Schaff *HOTCC* Vol. II p. 850: Eusebius *Historia Ecclesia* VI, 43:11-27

Epîtres 9:2 ; 62:14 ; 64:1; 65:1 - 2; 67:2 etc. -28

6 - 3: اعمال 6 - 29

6: رؤيا 1 - 30

De Exhortatione Castitatis 7-31

بالإشارة إلى متى 18:28 - 20 . كان على الأحد عشر أن يعمدوا آخرين ويتلذذوهم ، ومن ثم يعلموهم كيف
يمكّنهم بذلك أن يعمدوا و يتلذذوا ، وهكذا دواليك .

De Exhortatione Castitatis 7-33

للحصول على بحث يتناول مسألة تطور أنظمة القيادة ، رجاء مراجعة :

Foakes - Jackson pp. 212 - 213 : Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 124 - 151

. Strauch pp. 205 - 207: Norbie, *NTCO* pp. 39 - 40

الفصل الرابع عشر

تأخي المكّلين

جاء اباطرة وولى اباطرة ، فكان بعضهم ساسة ماهرين دهاء ، وآخرون سعوا في إثر المللات والشهوات . كان قسم منهم من همكيين ومهتمين بإدارة شؤون ولاياتهم الواسعة والشاسعة ، و بالمقابل كان عدد آخر منهم ضعفاء أو أشراراً على كل حال . بعضهم من اتبه إلى أتباع المسيح ، وبعضهم من لم يكتثر . « كان أحياناً يتم تجاهل المسيحيين ، وأحياناً أخرى ملاطفتهم ، أو اضطهادهم ، وذلك بحسب هوئ ذلك العسكري الذي كان ناجحاً مؤقتاً في القبض على زمام الحكم في الإمبراطورية . »^١

في العام 253 م ، جلس الإمبراطور فاليريان (Valérien) على كرسي الإمبراطورية خلفاً لدكوس (Décius) المتوفى ، وللوقت وضع حداً لاضطهاد المسيحيين . إلا أن فاليريان سرعان ما ظهر عليه أنه مدمن على استخدام السحر والتنجيم . ومع تسلمه مقاليد الحكم ، راح يقع أكثر فأكثر تحت تأثير المشيرين الذين كانوا يتعاطون أمثال هذه الفنون الشيطانية . ولم تمض سوى أربع سنوات ، حتى أصدر مرسوماً يحظر فيه على المسيحيين أن يجتمعوا ، مهدداً بإزالة عقوبة الموت بأي من القادة الذي يشجع على ذلك . وفي هذا الوقت تم اعتقال ونفي عدد من النظار ، و من بينهم كبريانوس في إفريقيا الشمالية .

و بعد مرور سنة على ذلك ، أي في العام 258 م ، عاد فاليريان فأصدر مرسوماً آخر أكثر ضراوة وصرامة من الأول ، سجل مرحلة جديدة هامة في تاريخ الاضطهادات الأولى ضد الكنيسة المسيحية . فقد تم إعداد جدول موسوع لا يقبل التغيير بأنواع العقوبات التي ستلحق بكل مشابيع للمسيحية أو موال لها . كان حكم الموت من نصيب القادة ، ولا مجال للتهرب لأي احتجاج . أما بالنسبة إلى المسيحيين أصحاب المراكز الاجتماعية - ملائكون أعضاء في مجلس التواب ، أو آية شخصيات بارزة أخرى - فكانوا يجردون من رتبهم الرسمية ، وتصادر ممتلكاتهم . فان استمرروا في إيمانهم ، وجوب عند ذلك قتلهم . كذلك يتحتم على النساء اللواتي يملكن أراضي أو ممتلكات ان يفقدنها ، وبعد ذلك يتم إقصاؤهن عن الإمبراطورية . أما رجال الدولة الرسميون أو الموظفون الحكوميون الذين اعترفوا ، في أي وقت من الأوقات بمعتقداتهم ، فكانوا يُرسلون مقيدين للعمل في ممتلكات الدولة .

في ذلك الوقت ، عانت الكنيسة في روما الأمرتين في ظل العرش الإمبراطوري ، إلا أن ذلك لم يثبّط عزم المسيحيين قط . فبعد أن كان بعضهم قد قبعوا مدة سنة كاملة داخل الزنزانات

الرومانية ، كتبوا يامان متقد الى كبريانوس في قرطاجة يقولون له : « اي نصيب هو مجيد و مبارك أكثر من ذاك الذي يمنحه الله بنعمته للإنسان أن يعرف بواسطة جسده الممزق و روحه التي تعاني سكرات الموت ، وعلى الرغم من شئ انواع التعذيب و من هول الموت نفسه ، بأن المسيح هو ابن الله ؛ فيشارك الإنسان في آلام المسيح باسم المسيح »²

ان هذا التعبير عن الفرح في وسط الضيق ، وجد له دعماً في تصميمهم الراسخ على الصمود مهما كلف الثمن . « فإذا لم ترق دمائنا حتى الآن ، فنحن مستعدون لإراقتها في أي وقت من الأوقات . صل لأجلنا ليها الحبيب كبريانوس ، لكي يثبت الرب كل واحد منا يوماً ويقولنا اكثراً في شدة قوته ؛ ولكي يقودنا ، وهو الأعظم بين القادة ، الى ساحة المعركة الروحية الم موضوعة أمامنا ، نحن جنود الحاملين الأسلحة الإلهية التي لا تُنْهَى ، بعد ان يكون قد دربنا و امتحنا في معسكرات المخاطر . » لقد صمدت كنيسة روما بثبات مقطوع النظير خلال هذه المحنة العصبية ، كما ان قادتها كانوا أثلة حية رائعة في استبسالهم و شجاعتهم . و يظهر ان نظاراً متوالين خمسة قد استشهدوا بالتتابع في روما خلال ستة السنوات ، في الفترة ما بين العام 250 و 256 م . 3. كما ان الكنائس عبر البحر نحو الجنوب ، لم تكن من جهتها أقل عزماً و تصميماً من كنيسة روما .

عانياً عدد كبير من الرجال و النساء في إفريقيا الشمالية مصادر أموالهم و أرزاقهم ، مع الطرد والتشريد من أراضيهم ، بالإضافة إلى السجن و التعذيب و الموت . و قد آثروا كل هذا على ان ينكروا المسيح بالقول او بالفعل . ان التهديدات و المضايقات لحمل المسيحيين على ترك الطريق الذي اختاروه و علموا انه حق ، ياءت جميعها بالفشل . و في آخر الطاف ، قد تذعن اقلية ضئيلة لأجل إنقاذ نفسها ، ولكن عدد الذين صدوا رافضين الإذعان ، كان كبيراً جداً بحيث ان كل تصميم على تدمير الكنيسة و القضاء عليها كان محكمًا عليه بالفشل منذ البداية . كان بالإمكان تهديد المسيحيين وحتى قتلهم ايضاً ، ولكن كل هذا لم يتم لهم من البقاء مسيحيين . حتى ولو انكر بعضهم الإيمان ، سرعان ما اكتشف قضاياهم في ما بعد أن نكراهم هذا جاء فارغاً ، مجرد موقف ضعف آتي أكثر مما هو تغيير قلبي . إن المواجهة تحت تأثير التعذيب ، على تقرير التقدمات لللوشن ، لم تكون تبرهن فقط التحول إلى الوثنية . و على كل حال ، رفض معظم المسيحيين بشجاعة نادرة ان يقدموا على فعل مثل هذا . بل كانوا على تقدير ذلك ، يفتخرؤن و يعتزون باعترافهم العلني بال المسيح . كانوا ينشدون الترانيم و يكرزون بكلمة الله للحشود الذين كانوا يراقبونهم و هم يخطون بانتخار الى موقع تنفيذ حكم الإعدام بهم . كان يحق للسلطات الرومانية ان تتساءل عن الهدف من وراء مطاردة شعب كانوا يتهللون فرحاً عند إلقاء القبض عليهم . فما المتفق من قتل من كانوا يموتون مبتسمين ؟ وما الذي كانوا يجذبونه من تدمير و تحطيم أولئك الذين كانوا من خلال موتهم يريحون عدداً أكبر من المناصرين مما لو كانوا يقووا على قيد الحياة ؟

و ردًا على هذه القوانين الجديدة ، دعا كبريانوس المسيحيين إلى أن يتحلوا بالحكمة وبالاعتدال . و نصّحهم أن يكونوا حكماء عندما يقومون بزيارة المؤمنين في سجونهم : لقد كان من المهم عدم الإساءة إلى السلطات أو إلى سواهم من الوثنيين ، و عدم استفزازهم بلا سبب . هذا لأنه كان هناك قسم من المسيحيين ، وبخاصة أولئك المتأثرين بالموتنانيين ، الذين قادتهم رغبتهم في نوال المجد الشخصي إلى السعي للإشهاد و إلى أن يسخروا جهاراً باللهة الوثن ، و يهينوا الإداريين الذين كانوا لا يزالون يدعون نفوذها المتضائل . كان هؤلاء الغيورون يأملون أن يؤكدوا لمعديهم أن سياسة الامبراطورية هي سياسة فاشلة ، و لكن كبريانوس رأى أنه لا يمكن تحقيق هذه التسديدة الإيجابية إلا عندما تكون الشجاعة مقرونة بالمحبة وبالKİاسة .

قدّم كبريانوس النصائح لأولئك الذين كانوا يخضعون للاستجواب : يتوجب عليهم أن يجيئوا بحكمة و بوقار ، و أن يشقوا بأن الله سوف يقوّيهم في أثناء المحاكمة ساعات المحن . عليهم أن يعملوا بتعليمات المسيح حين قال : « فمتي ساقوك لم يسلموكم فلا تعتقلا من قبل بما تكلمون ولا تنهضوا . بل مهما أخطبتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا . لأن لستم انت المتكلمين بل الروح القدس ». ⁴ لقد أصرّ كبريانوس على ضرورة عدم كشف اسماء المسيحيين الآخرين للسلطات ، مهما كانت الظروف . فبإمكان المؤمن ان يعترف بإيمانه بالمسيح بفرح و من دون خجل ، و لكن لا يحق له ابداً ان يخون اخاه . كان هذا مبدأ قديم من مباديء الجماعة المسيحية ، وقد طبق هذا عملياً في حالة يوستينوس الشهيد الذي كان قد استدعي قبل قرن من الزمن للممثل امام القضاء ، فأعترف بإيمانه بالله الواحد الحق وبالخلاص يسوع المسيح ، لكنه قال لمستجوبه بلطف إنه غير قادر على أن يذكر أي شيء عن إيمان الآخرين ، او عن المكان الذي يجتمعون فيه ، و ذلك على الرغم من تهديده بالجلد و التعذيب و القتل ، تلك التهديدات التي ثُقِّلت فيه بعد ذلك بقليل .

لقد كانت افكار كبريانوس في هذا الصدد مشابهة لأفكار يوستينوس و الرسول بولس من قبله ، إذ راح يشجع اخوته في بلواهم بفكرة أن أيام هذا العالم هي عابرة ، بينما أمجاد العالم الآتي هي أزلية وتدوم إلى الأبد ؛ هناك مكافأة سماوية لن يثبت و يتحمل تحارب هذا العالم . « لأن خفة ضيقتنا الواقتية تشنى لنا أكثر فأكثر نقل مجد أبدياً . و نحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى . لأن التي تُرى وقتنية و أمّا التي لا تُرى فآبدية . فإنني أحسب أن أيام الزمان الحاضر لا تُفاس بالسجد العتيق ان يُستعملن فينا ». ⁵

و بعد مرسم فاليريان الأول ، أخذ كبريانوس إلى كوروبيس حيث أُبقي تحت الحراسة . وهناك انتهت إليه أثياء محزنة و مقلقة عمّا فعلته الضيقات الرهيبة التي حلّت بالإخوة في نوميديا . عندئذ كتب إليهم بشجعهم و يعزّهم . فبسبب إيمانهم بالمسيح ، كان قد صدر بحقهم الحكم بالأشغال الشاقة في مناجم الفضة و الذهب في نوميديا ؛ و هذه العقوبة تنبع بكثير ما قد يعانونه من ازعاجات بسيطة في السجن . كان كبريانوس يعرف شخصياً العديد

من هؤلاء . و كان تسعه منهم من النظار الذين حضروا المؤتمر الذي عُقد في قرطاجة في السنة الماضية ، اي في العام 256 م . كما كان معهم ايضاً قادة مسيحيون آخرون و اعضاء في كنائسهم ، و من ضمنهم النساء والأولاد .

فبعد ضربهم ضرباً مبرحاً ، يتم سمهما على جيابهم بواسطة كثيئم بالحديد الساخن ، كما يوسم المجرمون المدانون او العبيد الهاريون ؛ ثم تكبل كواحدتهم و اقديهم بالقيود الحديدية و تنقل بالسلاسل الثقيلة . كذلك تُحلق رؤوسهم حلقة نصفية و تُترك أجسادهم شبه عارية . لم يكن يقدّم لهم الا شيء القليل من الطعام ، ما يكفي فقط لايقادهم على قيد الحياة . كان عليهم وهم في هذه الحالة ان يعملوا ، في النهار ، تحت الأرض في مكان مظلم خانق بفعل المشاعل المدختنة التي كانت تضيء المناجم القذرة . وفي الليل كانوا يتهددون منهكين متعبين للنوم على الأرض الباردة . لقد تجاوبيوا مع كل هذا بإيمان ثابت و طيد و بروح مرحة لا تُنهر . كتب أحد هم يقول : «إتنا هنا أيها الحبيب كبريانوس ، نبعث إليك المدانون التشكيرات الجزيلة أمام الله . لقد رفعت برسائلك قلوبنا المريضة ، لقد أثراً أثراً أطراقنا المسحوقة ، و أطلقتَ أقدامنا من قيودها ، كما أثرك أعدت حتى إنبات شعور رؤوسنا الخلقة حلقة نصفية . لقد أضافت لنا ظلمات سجننا ، و حولت انحدارات المناجم و منحنياتها الصعبة الى سهل مفتوح على مصراعيه ، كما أثرك وضعنا امامنا زهوراً يانعة بروائحها العطرة ، و بذلك بددت عنا الواقع التستة العفة التي تصبّع من دخان المناجم ». ⁷ لعل كاتب هذه الرسالة أراد أن يخفّف من آلامه و معاناته من طريق الاستهزاء بها . لكنه ظل يُظهر بالرغم من كل شيء ظروف مروعه و قاسية كانوا يعيشونها .

لم يستطع معظم التوميديين الذين اعترفوا بإيمانهم ان يعمروا طويلاً في ظلّ مثل هذا النظام القاسي . كانت هذه الوضاع الصعبة أكثر مما يمكن للجسم البشري ان يتحمله ، و هكذا قضى الكثيرون منهم قبل ان تستنى لكبريانوس ان يوجه اليهم خطابه الجنوبي ؛ و آخرون ماتوا ايضاً خلال الستين التاليين . اما اولئك الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من الموت حتى صدور مرسوم فاليرياني الثاني في العام 258 م ، و الذي اتسم بقساوة بالغة ، فلعلهم جميعهم أخذوا من المناجم و قُطّمت رؤوسهم بحدّ السيف كما حدث لكبريانوس نفسه . وقد كان من بين هؤلاء نيميثائوس (Némésianus) ، و يادوس (Jadus) . و هكذا اضفت اسماؤهم الى لائحة الشهداء ؛ لقد أعقبوا من العبودية لكي يدخلوا الى فرح سيدهم . ⁸

و قبل بضعة اسابيع من موت كبريانوس ، وقعت حادثة أحبطت بالغموص و الكتمان ، إلا أنها غالباً ما أشير إليها في الكتابات اللاحقة المتعلقة بالكنائس في شمال إفريقيا ، لأنها تركت تأثيراً عميقاً فيها . ففي منطقة أوتيكا (Utique) ، بالقرب من قرطاجة ، حصلت مذبحة للمسيحيين مرعوبة راح ضحيتها أكثر من ثلاثة مئة رجل و امرأة و طفل من جميع الأعمار . و قد كان الحاكم البارد الطبع نفسه الذي كان قد حكم على كبريانوس بالموت ، هو المسؤول عن ذلك . ولكن احداث أوتيكا أخذت منعطضاً أكثر مأساوية . فقد قبل انه عندما خُتُر المؤمنون بين إنكار المسيح وبين طرحهم في حفرة مملوءة بالكلس غير المطفأ ، وثب الشهداء معًا في الحفرة ، ففنوا

جميعاً . و هكذا حصلوا « حرفيًا » على الشهادتين التي كان القديسون المتصررون قد وعدوا بها بشكل مجازي و رمزي في سفر الرؤيا .⁹ و لهذا السبب عُرِفوا في ما بعد « بالمجموعة البيضاء » (Massa Candida) .

من المرجح أن تكون هذه الخفرة المملوءة بالكلس غير المطفل قد وجّدت فعلاً ، لكن هناك احتمال ألا يكون القديسون الأحياء هم الذين وثبوا اليها بل أجسادهم هي التي أقيمت فيها . فالكتاب الحديثيون يقترحون فكرة أن يكون هؤلاء الثلاثة قد وضعوا في هذه الخفرة بعد ان دُفِّعَت اعناقهم بحد السيف ، وذلك لتجنب اتحالاتهم و تهربهم في العراء . هذا لأن الرومان كانوا قد اعتادوا على استعمال خفرة الجير الحي او الكلس غير المطفل للتخلص من الذين يسقطون في المعارك الكبرى . كذلك نجد أن مرسوم فاليريان كان قد حدد تفاصيل العقاب من طريق قطع الرأس . كما ان أغسططينوس ذكر في احدى عظاته بمناسبة ذكرى « المجموعة البيضاء » ما يمكن ان يدلّ على ان هؤلاء الشهداء قد قضوا حقاً بحد السيف . و نحن لا نعرف إلا القليل جداً عن هذه المجموعة ، سوى أنه قد تم تشييد نصب تذكاري لهم في أوتيكا و في كالاما (فاللة ، الجزائر) ، وعلى الأرجح في مناطق أخرى ايضاً . وكذلك وردت عدة صيغ لحكاياتهم انتشرت في جميع أنحاء الامبراطورية . و من جملة هذه الحكايات هناك واحدة كتبت بشكل شعري و جاءت زاخرة بالأعمال البطولية .¹⁰

و في ربيع العام 259 م ، وبعد بضعة اشهر من استشهاد كبريانوس ، كان ثلاثة أصدقاء يسافرون معًا عبر جبال نوميديا . أحدهم ، يُدعى ماريانوس (Marianus) ، وهو قاريء في أحدى الكنائس ، و المدير ياكوبوس (Jacobus) الذي سبق له ان عانى بسبب ايمانه في زمن الامبراطور ديكيوس ، وأما الثالث ، فهو رفيق لم يُعرف اسمه ، و هو الذي نقل وقائع ما حصل لهؤلاء الثلاثة . كان هؤلاء الشبان الثلاثة يجلسون سوية في غرفة قديمة متداشة و هم يسيرون في إحدى الطرق الجبلية المترعرعة ، والتي تحيط بها من كلا الجانين صخور خشنة و وحاد ضيقة شديدة الانحدار . و نحو الظهيرة ، شعر ياكوبوس بالتعاس : و بينما كان نائماً ، رأى رؤيا رواها في ما بعد لأصدقائه : لقد ظهر له شاب فارع ذو طول استثنائي و أعلن له انه سوف يستشهد قريباً . أخيراً وصل الثلاثة الى مكان يدعى موغانس (Mugas) قرب سيرتا (Cirta) ، (و هو مكان لا يبعد كثيراً عن مدينة قسطنطينة الحالية في الجزائر) .

توقفوا هناك في احدى المزارع حيث وجدوا بعض المؤمنين المسيحيين ، وسمعوا منهم عن الاختطهاد المروع الذي كان قد حصل في ذلك الأسبوع بالذات في مدينة سيرتا القرية . فالفرق العسكرية تم استدعاءها لمساعدة الحكام المحليين على مطاردة القادة المسيحيين الذين سبق لهم ان طردوا من المدن الامبراطورية . لقد تحركت هذه الفرق من إلقاء القبض على الناظرين آغاپيوس (Agapius) و سكودينوس (Secundinus) ، و أحضروهما من طريق موغاس لمواجهة كرسي القضاء في سيرتا . و في المزرعة تم استضافة هذين الناظرين ، فسر الجميع بشجاعتهم و بتوجيهاتهم الروحية . إلا ان الترحيب الذي قدمه شعب تلك المنطقة لهذين الناظرين أثار شكوك الحامية العسكرية . و بعد يومين عاد قائد مئة مع جنده الى موغاس . ففاجأوا المسيحيين في المزرعة و أخذوهم جميعاً الى سيرتا ، و من جملتهم المسافرون الثلاثة .

في المدينة ، وبعد استجواب قصير أطلقوا سراح بعضهم ، ولكن أولئك الذين كانوا يشغلون مناصب قيادية في الكنيسة ، أودعوهم سجن المدينة . ثم احضروهم لمزيد من الاستجواب والتعذيب ، وبخاصة ماريانوس الذي ظن فيه المسؤولون أنه كان يخفى الحقيقة . لم يصدق الحكم ادعاه بأنه مجرد قاريء في الكنيسة ، وليس مدبرًا كما كان زميلاً . وهكذا اعتبر المسؤول أن ماريانوس كان يناور بقصد تحبس العقاب الذي ينص عليه المرسوم الامبراطوري بشأن القادة الرئيسيين في الكنيسة وحدهم . فعلى ماريانوس من ابهامه وضرر ضرباً مبرحاً ، وذلك لوقت طويل ، كما حصل لآخرين أيضًا ، ولكن من دون جدوى . وأخيراً أعيد إلى الزنزانة حيث وجد صحبه . كان ما يحصل عليه المساجين من أحلام ورؤى ، يخفف من وطأة ما يعانونه من ضيقات في السجن ، كما أنه كان يملأ قلوبهم بالعزاء : لقد حصلوا على العديد من الوعود بالخلاص ، ورأوا نماذج من البركة الإلهية . ففي إحدى المناسبات ، شعر ماريانوس بنفسه أنه قد انتقل إلى الجنة . وهناك وجد أمام كرسى القضاء السماوي ، حيث تعرف عن بين القاضي الإلهي بكريانوس الذي قدم له التحية .

و بعد مضي أيام قرر الحكم إحالة القضية على الوالي . وهكذا أمر بإرسال السجناء إلى داخل البلاد إلى لاميسيس (تارولت) . وإذا كان الموكب بهم بالانطلاق ، تحركت مشاعر أحد المترجين ، وامتلاً فرحاً لدى التفكير في ما كان يتظر هؤلاء المسافرين من استشهاد ، حتى إنه لم يقوَ على إخفاء إيمانه : فانضم إلى الموكب . ولدى وصولهم إلى لاميسيس ، أودعوهم السجن ، ثم قسموهم بحدار إلى فريقين : القادة الذين كانوا سياحًا كمون بوجب المرسوم الثاني الذي أصدره فاليريان ، والآخرون الذين ، بحضورهم الاجتماعات ، خالفوا المرسوم الأول . أرجأ الوالي أمر القادة لبضعة أيام ريثما حاكم الآخرين . وخلال ذلك الوقت ، حصل ياكوبوس على رؤيا : لقد وجد نفسه في الجنة ، وهناك رأى مأدبة تضم مجموعة من المعترفين الأمناء ، وقد أخبروه أنه في اليوم التالي سيشاركونه هو نفسه في هذا الاحتفال السماوي .

و في اليوم التالي تم استدعاءه إلى المثول أمام الوالي ، و معه ماريانوس و القادة الآخرون . ثم صدر الحكم بقطع رؤوسهم جميعهم . فاقتربوا إلى خارج المدينة ، إلى مكان قريب من جدول سريع الجريان ، وأوقفهم المساعدون متراصين لتسهيل عمل الجلاد الذي سينفذ الحكم . و بينما كانوا يتظرون ، وعيونهم مربوطة بوشاحات ، صارت مناظر رائعة تمر أمامهم : مواكب فرسان متألقين بلمعان خلاب ، و مواكب لشباب يلبسون الثياب البيضاء ، و هم ينتظرون أحصنة بيضاء كالثلج . وقد سمع بعضهم أصوات الأحصنة المجتازة . و ماريانوس نفسه رفع صوته و تباً أنه عن قريب ، سينتقم الله للدماء الشهداء الأبرار . كان يتكلّم بشقة و عزم و قوة : لقد تبا عن حصول أوثلة و اشكال من السي ، و مجاعات ، و هزات أرضية ، و غيرها من الكوارث المأساوية التي كانت على وشك أن تعم العالم بأسره . إن أولئك الذين كانوا يتظرون قطع عناقهم بالسيف ، تشجعوا جداً بهذه الإقرارات ، التي لا تعرف الخوف ، عن قدرة الله اللامتناهية و عن سلطاته ، كما شددوا بإيمان ماريانوس الجريء و بتحديه لقوى الشر . وأخيراً أكمل الجلاد مهمته الشنيعة ، ثم دُحرجت رؤوس الشهداء و جثثهم إلى الجدول .

ان رحلة عادية انطلقت من جبال نوميديا ، حملت المسافرين و اوصلتهم الى المدينة السماوية . لقد سرّوا كثيراً بيلوغهم هذا المكان ، و حصلوا على ترحيب اصدقائهم كثيرون هناك «حيث سيسمح الله كل دمعة من عيونهم و الموت لا يكون في ما بعد و لا يكون حزن و لا صرخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت ... لن يجعلونا بعد ولن يعطشوا بعد و لا تقع عليهم الشمس و لا شيء من الحر .»¹¹ ثم يضيف كاتب هذه القصة انه كان هناك بين المشاهدين امرأة مسيحية اتسمت بالبطولة والإقدام إذ راحت تشكر الله جهراً ؛ هذه المرأة كانت ام ماريانوس . وقد ذكرها اغسطينوس باحترام بالغ و عطف كبير بعد مرور قرن و نصف على هذا الحادث .¹²

لقد تقابل مسيحيون كثيرون معّاً للمرة الأولى في السجون ، و الصدقة التي ثُمت بينهم في محنتهم المشتركة ، على الرغم من كونها قصيرة الأمد ، كانت تصدر من قلوب مفعمة بالمحبة و الاخلاص . و نحن نقرأ عن مونتانوس¹³ و فلافيانوس (Flavianus) ، و رينوس (Rénus) ، و عن عدد آخر من المؤمنين الذين رُجح بهم في غياب السجنون في قرطاجة في العام 259 م . و هناك تقابلوا مع سيدة مسيحية تدعى كوارتيلوسا (Quartillosa) كان قد أُقي القبض عليها قبلًا ، والتي عند سماعها باستشهاد زوجها و ابنتها حصلت على رؤيا تحققت بواسطتها من انها لن تبقى على قيد الحياة لأكثر من بضعة أيام بعد موتها أفراد عائلتها . كانت زيارة بعض الأصحاب المسيحيين الذين كان عليهم أحياناً ان يقعنوا الحراس بالسماح لهم بدخول السجن ، تخفّف كثيراً مما كان يعانيه هؤلاء الرجال و النساء في السجن من الجوع والعطش والماسي الأخرى . كذلك كان للأحلام و الرؤى التي كانوا يحصلون عليها باستمرار ، التأثير المبارك عليه . كان لأحد هذه الإعلانات نتيجة عملية ، إذ حلّت مشكلة كانت قد ظهرت بين اثنين من الشباب المتنازعين . فقد رأى مونتانوس في حلم الحراس يدخلون إلى الزنزانة ، و يأخذون السجناء إلى سهل واسع فسيح حيث قابلوا كبريانوس ولوسيوس خليفه في نظارة الكنيسة في قرطاجة . لقد كان جميع المسيحيين متسرّعين باللباس الأبيض ، ولكن عندما نظر مونتانوس إلى أسفل وجد أن رداءه كان وسخاً للغاية و ملطخاً جداً . كان يعلم بما تشير إليه هذه الناطخات ؛ وما أن استفاق ، حتى ذهب مباشرة إلى أخيه المؤمن الذي كان قد تшاجر معه ، ليطلب منه السماح والمغفرة . و عليه عادت صداقتهما إلى سابق عهدهما ، وهكذا استمرّا منذ ذلك الحين يصليان معًا يومياً ، و يعزّزان أحدهما الآخر برجائهما المشتركة .

مرّت شهور طويلة ؛ كان الحكم قد مات ، و تأخر أمر تعين خليفة له . و مجددًا تم استجواب بعض أعضاء هذه «الكنيسة المكبلة» الصغيرة ، ثم اقتيدوا إلى الموت . و بعد بضعة أيام ، عاد الحراس للمرة الثانية ؛ كانوا ينقلون السجناء واحدًا واحدًا أو اثنين اثنين ، و لا يعود أحد يرافقهم بعد ذلك . كانت هذه المجموعة تقلّ في عددها ، و لكن ليس في أيّانها . و في الطريق إلى موقع الإعدام ، كان بعضهم يعظون الجموع المحشدة بكل حماسة ؛ بينما آثر آخرون ان يلزموا الصمت الجليل ، مكتفين باقتباس بعض الآيات من الكتاب المقدس لتشديدهم أنفسهم و تنفيتها في هذا الصراع المرير . و عليه ، انتهت مونتانوس هذه الفرصة ليخاطب حشود الناس .

فروعظهم ضد الوثنية ، و ضد اولئك الذين شقّوا الكنيسة بسبب غطرستهم و غرورهم ، و ضد اولئك الذين ، بترددتهم الشائنة المخزي ، انكروا الإيمان . لقد حث المؤمنين الصادقين على الطاعة ، و دعا قادة الكنيسة الى الاتحاد . كان واقفا امام جلاده ، وهو على وشك ان يموت عندما فكر في فلافيانوس ، وهو واحد منهم كان قد اقتيد معهم للمحاكمة ، ولكنه أعيد الى الزنزانة لأسباب مجهولة . فصلّى مونتاناوس بحرارة لكي يتمكن فلافيانوس من الانضمام اليهم خلال ثلاثة ايام . وإذا كان واثقا بأن الله قد استجاب صلاته ، نزع الوشاح عن عينيه وشطره الى شطرين ، وترك واحداً من النصفين مع اصدقائه الذين كانوا يراقبون الشهد هناك ، وطلب منهم ان يعطوا هذا النصف إلى فلافيانوس . كما انه سألهم ايضاً ان يدعوا قبراً لفلافيانوس الى جانب قبور بقية المؤمنين .

و في اليوم التالي حصل شيء غريب . فقد جاء بفلافيانوس ليمثل امام كرسى القضاء . ولكن من دون علم منه ، كان القاضي قد قرر بالاتفاق مع بعض المواطنين ذوي النفوذ ، ان يطلق سراحه . و كان فلافيانوس نفسه خطيباً وأستاذًا عاماً لسنوات عديدة ، وقد اهتدى الى المسيحية حديثاً ، واصبح مدرباً في كنيسة قرطاجة . كان تلامذته القدامى والمعجبون به ، قد جاءوا الى السلطات مراراً عديدة متسللين اليهم ان يطلقوا سراحه ، مصرّين على انه لم يكن من المدبرين فعلاً ، كما سبق وادعى فلافيانوس نفسه ، ولذا ، فلا يقع العقاب عليه بموجب المرسوم الامبراطوري . لقد تجاججو مع الحكام ومع فلافيانوس نفسه : « تخلص من عنادك هذا ». خاطبوه بتوصّل ، « قرب الت Cedمات الآن فقط يا فلافيانوس ، و بعد ذلك يمكنك ان تفعل ما تشاء . إنه ضرب من الجنون أن تلاطف الموت وتتأي بنفسك عن الحياة ». إن هذه الكلمات ، بمقاصدها المخلصة التي استمع اليها فلافيانوس من اصدقائه الوثنيين القدامى و تلامذته ، لا بدّ من أنها أيقظت في فؤاده عواطف متنازعة و مشاعر متضاربة . فشكرهم على عطفهم تجاهه ، و لكنه أراد على الفور ان يريحهم لإيمانه الجديد ، إذ شرع يعلّمهم في السجن اموراً لم يسبق لهم ان سمعوها منه في قاعة الدرس . فأجابهم : « إن الموت بعد انقاد حرية الضمير ، هو أفضل من عبادة الحجارة . هناك إله واحد ، وهو الذي صنع كل الاشياء و وحده يجب ان نعبد ». كان فلافيانوس متيناً بأنه قد وجد طريق الحق و طريق الحياة الأبدية . كذلك قال : « حتى ولو قتلتنا ، نحن نعيش ، فليس الموت هو الذي يقهّرنا ، بل نحن الذين نقهّر الموت ». و أردف فلافيانوس يقول : « وأنتم أيضاً ، اذا أردتم أن تبلغوا معرفة الحق يصبح لزاماً عليكم ان تهتّقوا المسيحية ».

وفي اليوم الذي رأى فيه فلافيانوس مونتاناوس و المؤمنين الآخرين يساقون الى الموت ، بينما أُعدّ هو الى الزنزانة ، شعر بخيبة امل كبيرة لأن القاضي غير رأيه بخصوص الحكم الذي كان قد صدر بحقه . إلا أنه في تلك اللحظة عليها ، تذكر آية من آيات سفر الأمثال : « قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء بيده ». ¹⁴ لذا فكر في نفسه : « إذاً لماذا أفلق وأضطرب ؟ و لماذا أشعر بحرارة نحو انسان مُسير من فوق ». و عندما وصل ثانية الى زنزانته المعهودة ، وجد الحراس أن الباب كان ثابتاً و صعب التحريل ، و لم يستطيعوا فتحه إلاّ بعد عناء كبير . فاعتبر فلافيانوس أن هذه علامة تشير الى أنه لن يبقى في زنزانته هذه لوقت طويل .

و عندما استدعي ثانية إلى المثول أمام القضاء ، وجد فلافيانوس نفسه وجهًا لوجه أمام مخطط جديد لإيقاده : لقد تواطأ أحد الجنود مع القاضي ، و هكذا بربت وثيقة تشهد على أن فلافيانوس لم يكن مدبرًا في الكنيسة ، لذا يجب ان يطلق سراحه . و لكن الأحداث أخذت منحى غريباً . سأله الوالي فلافيانوس عن سبب ادعائه كذلك وبهتاناً بأنه يعمل كمدبر في الكنيسة . فأجابه فلافيانوس : « لأن هذا ما أنا عليه في الواقع ! » و عندما قدموا له الوثيقة ليراهما ، قال غاضباً : « هل تصدقون فعلاً اني خدعتكم ، و ان مؤلف هذه الوثيقة المزورة قد قال الحق ؟ » عندئذ صرخ المحشدون : « انت تكذب يا فلافيانوس ! » فرداً عليهم بالقول : « و ما الذي يدعوني إلى الكذب ؟ » أخيراً صعق الوالي لرفض فلافيانوس اتهامه بهذه الفرصة للنجاة من الموت ، و هكذا رأى نفسه مضطراً إلى أن يعلن الحكم بإعدامه . عندئذ ارتسمت على وجه فلافيانوس ملامح البهجة والسعادة ، ثم استدار باتجاه منصة الإعدام .

فتداعف الحشد حوله ، و راح يتبادل كلمات التشجيع والتعمير مع من حوله من المسيحيين . كما أخبرهم أيضاً عن الرؤى التي حصل عليها في السجن : كيف ظهر له كبريانوس الشهيد ، و سأله فلافيانوس عمّا إذا كانت عملية قطع الرأس و انفصاله عن الجسد مؤلمة . فأجابه كبريانوس : « أجسادنا لا تتالم عندما تكون أرواحنا في السماء . » ثم تولت الرؤى حتى ظهر له أخيراً رجل خطابه بالقول : « لماذا انت مضطرب ؟ لقد اعترفت بالله مرتين حتى الآن ، و غداً ستستشهد بحد السيف . » ثم ازداد تداعف جموع الفضoliين حواليه لاستماع أقواله بوضوح أكبر . و في تلك اللحظة بدأت الأمطار تساقط بغزارة . فهبَّ غير المسيحيين بينهم للاختباء من المطر ، ولم يبقَ بقرب فلافيانوس سوى المؤمنين الصادقين فقط . فانتهز هذه الفرصة ليودعهم و يسلم عليهم السلام الأخير . قبلهم فلافيانوس قبلة السلام ، ثم صعد إلى مكان عال حتى يسمعه الجميع ، و شرع يحتفهم جميعاً على الاتحاد والطاعة والمحبة . قال لهم : « يا إخوتي الأعزاء جداً ، سيكون لكم سلام في انفسكم اذا احترتم سلام الكنيسة وقدرت فهو ، و اذا بقيتم متدينين بالمحبة . لا تفكروا ان كلماتي هذه هي جوفاء فارغة ، لأن ربنا يسوع المسيح نفسه قال قبيل نائله : « هذه هي وصيتي ان تحبوا بعضكم بعضاً . » وبعد هذا نزل فلافيانوس إلى مكان الإعدام ، فربط عينيه بالمشديل الذي كان قد تركه له مونتاناوس ، ثم رکع و صلّى و هو يتضرر ضربة السيف الفاتحة . و أخيراً أتهد من جديد مع صحبه وأصدقائه . كانوا قد صلوا لأجله ليتحقق بهم سريعاً ، و الآن نالوا استجابة صلاتهم : و بهذا تكون الجماعة بكاملها قد نالت ما كان يطمح إليه الرسول : « فتشق و تُسرّ بالأولى ان تغرب عن الجسد و تستوطن عند رب . »¹⁵

و مرّت السنون ، و تعاقب الأباطرة ، و كان الاهتمام بالجماعات المسيحية قليلاً . و التقارير الوحيدة التي لدينا عن اضطهادات حصلت في ذلك الوقت ، تفيد أن الذي حدث لم يتعدّ كونه مشاغبات فردية و أحداثاً معزولة وقعت في صفوف الجيش الروماني . ففي العام 295 م ، وفي مدينة ثيست (Théveste) - تبسة الجزائر ، كان هناك شاب يدعى مكسيميليانوس (Maximilien) أحضره أبوه لتسجيله جندياً في صفوف القوات العسكرية الامبراطورية . إلا أن

مكسيميليانوس الذي كان يقف أمام الوالي لإكمال إجراءات التسجيل ، أعلن له أنه مسيحي ، وبالتالي لا يقدر على أن يحمل السلاح . لكن المسؤول لم يكرر لها . فأنجزوا قياس طوله و كانوا على وشك أن يطقوها عنقه بكرة رصاصية تحتوي على الختم المقدس للقسم العسكري ، عندما قاطعهم مكسيميليانوس مرة أخرى قائلاً : « لا أقدر على أن أقبل الختم ، لقد سبق لي أن خُتم بختم المسيح إلهي . »

ثم حاولوا اتباعه بشتى أساليب التناش والمحااجحة ، لكنه أصرَّ بعناد على الرفض . و إذ تصور الوالي أن الشاب كان يعني هوَّا عابرًا ، طلب من أبيه أن يُنذر ولده بعد ان ذكره ، هو نفسه ، بالعواقب الوحيدة التي تترتب على تصرف مهووس كهذا . لكن مكسيميليانوس أجاب بعبارات متصلبة لا تعرف التسوية ، قائلاً : « أنا في خدمة إلهي ، و لا استطيع خدمة العالم . وكما سبق ان قلت لكم ، فأنا مسيحي . » فأجاب الوالي إجابةً صائبة إذ قال إن هناك جنوداً مسيحيين حتى بين الحرس الامبراطوري نفسه ، و هم لا يترددون في حمل السلاح . لم يتمكن مكسيميليانوس من ان يتذكر ذلك ، و قال : « هؤلاء يعرفون ما يجب ان يفعلوا ، اما بالنسبة اليَّ ، فأنا مسيحي ، و لا أتمكن من ان اعمل ما هو سيء . » عندئذ سأله الحاكم : « اي سوء يرتكبه اولئك الذين يعملون في القوات المسلحة؟ » فأجابه مكسيميليانوس : « انت تعلم ماذا يفعلون! » و اخيراً اضطرَّ الوالي المحتار إلى ان يصدر حكم العقاب القانوني بحق هذا العاصي التمرد .

قبل مكسيميليانوس قرار القاضي باتهام و مرح ، و بكلمات أصبحت عبارات مألوفة : «شكراً لله! » و في مكان تنفيذ حكم الإعدام به ، راح يشجع المؤمنين الصادقين على التصرف مثله . ثم التفت بهدوء إلى والده ، طالباً منه ان يسلم الجلاد الملابس الجديدة التي كان قد تم شراؤها لدخول الجيش . ثم عبر عن أمله بأن ينضم إليه أبوه سريعاً ، و بعد هذا وداعه . كان هذا الشاب في الحادي والعشرين من عمره . و قد تأسف لأنه لم يستطع إطاعة الأوامر ، كما أسف أيضاً الحاكم لفقدان جندي جيد . وقد يبدو لنا ان في الأمر خسارة مأساوية لحياة في سن الشباب ، لكن مكسيميليانوس كان قد أخذ قراره و هو يعلم علم اليقين ما هي العواقب . فالموت لم يكن لييخيفه فقط ؛ كان متاكداً من أن هناك شيئاً أفضل بكثير يتنتظره خلف تلك التخوم . على كل حال ، ما المفعة من ايمان و رجاء في المسيح مقتصران على هذه الحياة وحدها؟ « إن كان لنا ، في هذه الحياة فقط ، رجاء في المسيح فإننا أشقي جميع الناس . »¹⁶

لقد كان موقف الأب مؤثراً للغاية على طول المدى . فهو كان قد انجز المقتضيات القانونية كلها ، و ذلك بإحضار ولده إلى مكتب التجنيد ، كما انه جهز ابنه الشاب ، إذ اشتري له لباساً عسكرياً جديداً ؛ ولكنه توقف عند هذا الحد . و عندما سأله الوالي ان يتدخل لدى ابنه ، أجابه الأب ببساطة : « إن ولدي يعرف جيداً ما يجب فعله . » كان الرجل العجوز يستمع بانتباه تام إلى ما كان يحصل أمامه في المحكمة ، لكنه لم يتبين بيت شفقة ؛ و قد وقف إلى جانب ولده حتى النهاية . ثم تحدثنا هذه الرواية في نهايتها كيف ان الأب « عاد إلى بيته بفرح عظيم ، وشكر لله على هذه الفرحة التي أعطاه ليبعث أمامه هذه الهدية للرب ، إذ كان هو نفسه سيتعين ابنه عن قريب . » ومهما كان أمر الوالد ، سواء أستشهد أم لا ، يبقى انه سار في ركب الأبطال العظام .¹⁷

لدينا ، في هذه الفترة ، أولى الوثائق المكتوبة عن حوادث استشهاد في المناطق الغربية لموريتانيا تججيتانا (شمال المغرب) . ففي العام 298 م ، وفي المدينة العاصمة تنجيس (طنجة حالياً) ، كانت تقام الاحتفالات في ذكرى مكسيميان (Maximien) ، قائد النصف الغربي من الامبراطورية في عهد الامبراطور ديوكلطيانوس (Dioclétien) . وفجأة ، وفي متصرف المأدبة و احتفالات تقرير التقدمات للألهة الوثنية ، قام أحد قواد المئة المدعو مارسلوس (Marcellus) ، و اخذ حزامه العظيم ، و نزعه عن بدلة العسكرية الرومانية ، وألقاه ارضًا أمام الاوية و رايات فرقة الجيش التي يتنمي اليها ، ثم أعلن : « اني اخدم يسوع المسيح ، الملك الأزلية ! » ثم القى بسلاحه و صوبخان مسؤوليته العسكرية ارضًا : « من الان فصاعداً لن اعود اخدم اباطركم ! فأنا اشمئز من عبادة آلهتكم الحجرية والخثبية التي هي أصنام صماء وبكماء . ليس لائقاً بسيحي يحترم المسيح الرب أن يحارب من أجل هموم هذا العالم ». و ما ان استفاق الجنود الآخرون من هول الصدمة ، حتى القوا القبض على مارسلوس ، واقتادوه الى القاضي العسكري الذي أودعه السجن فوراً . ثم احضروه بعد ثلاثة اشهر واستجبوه بدقة ، و من ثم أعدمهوا .

ولكن ، لهذه القضية مضاعفات و تطورات اخرى . فقد تأثر الكاتب العسكري المدعو كاسيانوس (Cassianus) ، وهو المسؤول عن تسجيل وقائع عملية استجواب مارسلوس ، تأثر كثيراً و في العمق بوجهة نظر هذا الشاب الشجاع ، و بالأسباب و الحجج التي عرضها . و فيما كان القاضي يصدر حكم الموت بحق مارسلوس - قذف هذا الكاتب فجأة باللحوح و بلوازم الكتابة التي كانت في حوزته الى الارض ، فأباكم تصرفه هذا الموظفين العسكريين . اما مارسلوس ، فراح يتسم و هو مقيد بالسلاسل . عندئذ نهض القاضي غاضباً يطلب مزيداً من الإيضاح . « في الواقع ، لقد اصدرت ايها القاضي حكماً غير عادل ، » اجايه كاسيانوس . ولم يُسمح بعد ذلك للكاتب بأن يقول المزيد او بأن يسترسل في حديثه ، ولكن دفع بقوه و عنف الى زنزانة السجن .

و بعد شهر من الزمان ، جاء دوره ليحاكم ، فاحضره العسكري ليمثل امام القاضي ، و إذ رد صدى المشاعر نفسها التي كان قد عبر عنها مارسلوس قبلأ ، دين كمدنب ثم أعدم . تلك كانت قوة اليقين المسيحي ، و الى هذا الحد بلغت فعالية آثار الشهادة الجريئة خلال ساعة الامتحان . لقد أصبح كاسيانوس بطلاً شعبياً ، كما أنه تم كتابة ترنيمة فيها مدح لإيمانه ، و تحدث عنه كشهيد طنجة الشجاع .¹⁸

كلّما سحقتمونا
 نبُتُ أكثر
 فدماءُ المسيحيين بذار
 منْ يرى صمودنا العتيد
 يبحث عن السبب
 منْ يتقصّى إيماننا
 يؤمن ، فيصيرُ مثلنا
 ومنْ ينضمُ إلينا
 يفرح حين يعاني
 كي يربح نعمةَ اللهِ كلّها .

ترنوليانوس¹⁹

ملاحظات

- Foakes - Jackson p. 48 -1
Epître 25 (ANF Vol. V p. 303) -2
 Foakes - Jackson p. 261 -3
 11:13 -4
Martyrium (ANF Vol. I pp. 305-306) -5
 18:8 كورنثوس 17:4 و 18: رومية -6
Epître 77, (ANF Vol. V p. 404) -7
 Monceaux Tome II pp. 139 - 141 ; *Epîtres* 76 & 77 (ANF Vol. V) -8
 بالإضافة إلى متى 21:25 -9
 13، 9:7 و 5: روما 3:4 -10
 Monceaux Tome II pp. 141 - 147 -11
 17، 16:7 و 4:21 روما -12
 Monceaux Tome II pp. 153 - 157 -13
 إن الاشارة هنا ، ليست طبعاً إلى مونتانوس الفريجي ، قائد حركة المونتانيين .
 14 - بالإضافة إلى أعمال 1:21
 8:5 كورنثوس 2: Monceaux Tome II pp. 166 - 178 -15
 19:15 كورنثوس 1: Monceaux Tome III pp. 114 - 117 -17
 Monceaux Tome III pp. 118 - 121 -18
Apologeticus 50 -19

الفصل الخامس عشر

تنسيق الكنائس

في عصر الرسل ، كل جماعة مسيحية محلية تتطلب الإرشاد من قادتها ، و هؤلاء كانوا بدورهم يطلبون هداية الله و مشورته . كان باستطاعة الكنائس المحلية ان تسأل المشورة و النصيحة من أماكن اخرى ، و من الزوار ذوي الخبرة و الاقتدار امثال بولس أو تيموثاوس . ولكنها لم تكن تحكم من انتفافية او اورشليم أو من آية مدينة اخرى . ولم يكن لأية كنيسة ، في اي مكان آخر الحق في توجيهها او في تأدبيها .

كانت الاتصالات بين الكنائس ، غير مقيدة وغير رسمية ، و كانت تقتصر على الزيارات العقوبة ، وعلى الرسائل الدورية التي تُنقل بالبريد من مدينة الى اخرى . ولم تكن الكنائس تهتم كثيراً في امر تنظيمها بشكل منسق ، او في مسألة إنشاء حلقات وصل إدارية و منهجية بين بعضها بعضًا . لا يذكر كتاب العهد الجديد اي شيء بشأن إدارة عالمية للتنسيق بين المسيحيين في آسيا ، وفي اوروبا ، او في افريقيا . انهم يشيرون فقط الى الكنائس المحلية الفردية : « كنائس المسيح كلها »¹ الكنائس في سوريا و كيليكيا »² و كنائس غلاطية »³ و الكنائس في مقاطعة آسيا »⁴ ، و « كنائس اليهودية »⁵ و نادرًا ما كانوا يشيرون الى « الكنيسة » كمفهوم أشمل ، و لا يستخدمون في هذه الحال إلا الألفاظ الأكثر تحريرية للتعمير عنها ؛ لم لكن يوجد بعد ، حتى ذلك الحين ، آية مؤسسة يُطلق عليها هذا الاسم . كان للعبارة « جسد المسيح » مفهومها الروحي ، و لم يكن لها اي معنى وظيفي او إداري .

إلا اننا نجد في نهاية القرن الثاني للميلاد كيف ان مسيحيي افريقيا الشمالية بدأوا يبحثون ، بشيء من التفصيل ، شؤوناً تتعلق بتنظيم كنائسهم . ففكروا كثيراً في مسألة طبيعة الوحدة المسيحية . بأي معنى كانت الكنائس المحلية جزءاً من الكنيسة النظرية الشاملة ، و ما هي استلزمات العضوية في جسد المسيح في العالم ؟ هل يتوجب عليهما جميعها ان تتخذه الموقف عينه من القضايا و المسائل موضوع الجدل ، ام ثمة مجال لاختلاف في الرأي ؟ هل القرار الذي تخذه كنيسة واحدة ، يجب ان تدعمه وتتفقده الكنائس الأخرى دائمًا ؟ و إن كان الأمر كذلك ، فلما من الكنائس يحق لها اتخاذ مثل هذه القرارات ؟ هل يجب عقد المؤتمرات للوصول الى اتفاق على القضايا ذات الاهتمام المشترك ؟ و إن كان الأمر كذلك ، فلما سلطة لهذه المؤتمرات في فرض تنفيذ هذه القرارات ؟ ام يحق لكل جماعة مسيحية ان تقرر لنفسها بشأن العقيدة والممارسة ، و ذلك بعد استرشاد الله نفسه بخصوصها من خلال الصلوات و الدراسة الجدية للكتاب المقدس ؟

كان عند الكنائس وجهتا نظر متعارضتان ، و هذا ناتج من الأجوية المختلفة عن السؤال الأساس المطروح : ما هي الكنيسة ؟ كان لـ كبريانوس رأيه المحدد والدقيق في هذا المجال ، إذ اعتبر أن الكنيسة هي منظمة أنسها الرب يسوع ، ويحكمها الرسل و خلفاؤهم ؛ وهي تضم الكنائس المحلية كلها التي أنسها الرسل أنفسهم ، أو من عينهم هؤلاء الرسل . كان كبريانوس يحب أن يرجع بأذكاره إلى أصل الكنيسة العالمية و إلى نفسها ، معتبراً أن الكنائس المحلية التي أنسها مثلوها ما هي إلا فروع لذلك الجسم القديم . إلا أن آخرين كالمونتانيين ، مثلاً ، رأوا الأمور بانتظار آخر مختلف . فالكنيسة بالنسبة إليهم ، لم تكن مؤسسة ، بل أخوية يتميّز بها تلقائياً كل الذين يحبون الرب . إن العلامة على اصالة أي مجموعة محلية من المسيحيين ، لا تكمن في زمن او في طريقة تكوينها في الأساس ، بل في صحة تعاليّمها الحالية وعتقداتها .⁶

والكنيسة ، بالنسبة إلى كبريانوس ، تشتمل على جميع الذين يخضعون للناظار المعتمدين ، اي الناظار الذين يقدرون على أن يرجعوا بتعيينهم إلى رسول ، أو إلى أي شخص آخر عليه رسول او أحد خلفائه ، و الذين كانوا هم أنفسهم مخلصين و مواليين لقيادة أقدم الكنائس في المدن الرئيسة مثل روما او قرطاجة . لقد أطلق على هذا التجمع من المسيحيين التسمية « الكنيسة الكاثوليكية العالمية ». إلا أن خصومه حاججوه معتبرين أنه من المستحيل ردّ أصل كل مجموعة من المؤمنين ، أسمًا باسم ، إلى الرسل . فالآهمن من ذلك بالنسبة إليهم هو التأكيد من ان تعليمهم ومارساتهم تتفق مع تلك التي للرسل . كذلك قالوا إن الكنيسة الشاملة ، على كل حال ، ليست منظمة تدين بالولاء و الطاعة لرجال من آية مدينة كانوا ، بل لله وحده . كما ان الكنيسة الشاملة في نظرهم تشتمل على جميع الذين يتّسّعون إلى المسيح ، بغضّ النظر عن المجموعة التي يشّاعونها . فقد جاء تشديدهم على أهمية الحياة الروحية في الكنيسة المحلية - علاقتها الحية مع الله الآن - لا على أساس التشبه او الاحتفاظ بصلات وصل رسمية مع الكنائس القديمة في الأماكن الأخرى .⁷

كان لهماين النظريتين المتباثتين لطبيعة الكنيسة الشاملة ، انعكاسات بالغة الخطورة . إن كان اظهار الولاء للقيادة المسيحيين المعتبرين ، هو الأساس ، يمكن في هذه الحال قبول ، بموجة ، جميع الذين يتبعون هؤلاء القادة و يشاركون في الكنائس التي أنسوها ، مهما بلغت ضعفاتهـم و خطـاياـهم . أمـا إذا عـولـنا علىـ السـلـوكـ المـقدـسـ و عـلـىـ الإـيمـانـ الشـخصـيـ ، فـيـصـبـحـ منـ الضـرـوريـ عـندـئـذـ عـلـىـ الـكـنـائـسـ الـمـحلـيةـ أـلـاـ تـقـبـلـ فـيـ عـدـادـهاـ إـلـاـ الـذـينـ يـظـهـرـونـ أـنـهـ اـتـابـعـ حـقـيقـيـوـنـ للـمـسـيـحـ . لـقـدـ تـرـكـتـ مـبـاحـثـاتـ كـثـيرـةـ ، وـ طـوـيـلةـ حـوـلـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ . وـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ : هلـ يـدـعـيـ اـلـجـمـيعـ ، مـنـ دـوـنـ اـسـتـثـاءـ ، إـلـىـ حـضـورـ عـبـادـةـ الـجـمـوعـةـ الـمـسـيـحـيـةـ ، إـمـ يـجـبـ أـنـ يـقـصـرـ ذـلـكـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ الـمـخـلـصـيـنـ فـقـطـ ؟ وـ مـنـ اـوـلـئـكـ الـذـينـ لـهـمـ عـلـاقـةـ بـالـكـنـائـسـ الـشـامـلـةـ ، يـجـبـ اـعـتـبارـهـمـ مـنـ اـعـضـائـهـاـ ، وـ يـحقـ لـهـمـ بـالـتـالـيـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ اـتـخـاذـ قـرـاراتـهـاـ ، وـ فـيـ الـاـسـتـفـادـةـ مـسـاعـدـاهـاـ الـمـادـيـةـ وـ الـمـالـيـةـ ؟ هلـ الـكـنـائـسـ الـشـامـلـةـ تـشـتـملـ فـيـ الـوـاقـعـ جـمـيعـ الـذـينـ يـدـعـونـ بـأـنـهـمـ

مسيحيون ، او فقط اولئك الذين يطعون وصايا المسيح و تعاليمه ؟ هل تشمل على المؤمنين وحدهم ، او إنها تضم ايضاً من لم يؤمنوا بعد ، ولكن قد يؤمنون في المستقبل ؟ هل تشمل الكنيسة الشاملة كل من يحضر اجتماعاتها ، او يقتصر اعضاؤها على الذين اعتمدوا فقط ؟ ولكن ، ماذَا شأن اولئك الذين اعتمدوا ، ولنفهم كانوا يتقاعسون عن حضور الاجتماعات ؟

كان الجسم الكاثوليكي الذي ينتهي اليه كيريانوس ، ينظر الى الكنيسة كحقل ينبت فيه الحنطة والزوان معاً . ويجب الاعتناء بهذا الحقل بحيث تنمو الحنطة فيه و تكبر ، على انه يجب عدم قلع الزوان خوفاً من إلحاق الضرر بالحنطة الجيدة . ولربما كانوا يأملون ان يتحول اخيراً بعض هذا الزوان الرديء الى حنطة جيدة . إلا أن المؤمنين الآخرين كالموتانيين والنوفاتيين ، كانوا على تقدير ذلك ، ينظرون الى الكنيسة الشاملة كمروض المسيح ، المدعومة لتكون مقدسة ، وأمينة ، ولا فحة بعريضها الإلهي من كل التواحي . وهكذا جاءت الانعكاسات بعيدة النطاق . فالفريق الكاثوليكي كان يرغب في ان يتمي اليه اكبر عدد ممكن ، سواء كانوا صالحين ام طالحين ؛ إذ يدخلون ابواب الكنيسة ، ويستمعون الى تعاليمها ويستفهبون من مراضيها وأسرارها . انها لا تنبع من الانضمام اليها ايّاً من الذين يعترفون بكنيسة أصغر ، شريطة ان تشيع بتورها النقى في هذا العالم فقد كان خصومها يكتفون بكنيسة أصغر ، شريطة ان تشيع بتورها النقى في هذا العالم المظلم ، جماعة من التلاميذ المخلصين البعيدين عن كل شبّهات الفجور او الغش او الكفر . كان الكاثولييك ينزعون الى التساهل الديني في قضایا المعتقد والليونة في ما يخص التهذيب ، بينما كان الموتانيون والنوفاتيون بالمقابل ، يتوقفون الى إعلاء شأن الحق والى العيش بطاعة مشددة له : كانوا يتعاملون بقسوة مع اي شخص كان يساوم على حساب مقاييسهم العالية . وكانت بعض الكنائس المحلية تميل الى هذا الرأي ، بينما كانت غيرها تميل الى الآخر ؛ و حتى في الكنيسة الواحدة ، كان يوجد احياناً مناصرون لكلتا النظريتين .

فالوحدة كانت الشعار الأعظم للفرق الكاثوليكي ، والتي يجب الحفاظ عليها بواسطة المحبة والتسلّل مع القصيف والساقط . لقد كانوا يشددون على مقاطع ونصوص من الكتاب المقدس ، من نوع صلاة المسيح لأجل تلاميذه : « ليكونوا واحداً كما نحن ... ولست أسدّ من أجل هؤلاء فقط بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً ، ايهما الآب ... ليكونوا مكمّلين الى واحد و ليعلم العالم انك ارسلتني و احبيتهم كما احبيتني »⁸ . ولا يمكن الحصول على مثل هذه الوحدة الا بتقدیم الولاء الشامل للكنيسة المسيح الرسمية ، وبالخضوع لنظائر الكنيسة الذين منحهم المسيح السلطة . ان ترك الكنيسة الكاثوليكية ، قال كيريانوس ، للانضمام الى جماعة مسيحية اخرى ، يشبه رجلاً يترك امرأته من أجل عشيقته . « فكل من يفصل عن الكنيسة الرسمية وينضم الى زانية ، يُعتبر خارج نطاق الوعد الإلهية المنشورة للكنيسة ، وإذا ما

ترك الإنسان كنيسة المسيح ، سوف لن يفوز بكافآت المسيح . انه بالنسبة ، اينا ، غريب ودخليل وعدو . » و من ثم يصرّح كيريانوس بقوله المأثور الذي طالما اقتبسه في ما بعد كل من مؤيديه و مناوئيه : « ان من لم تكن الكنيسة انه ، لا يمكن لله ان يكون اباه . ٩ « و هكذا في نظره ، ان الإنسان الذي يترك الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، يكون بذلك قد فصل نفسه عن المسيح .

لقد كان المونتانيون والنوفاتيون يقدرون قيمة الوحدة ، ولكنهم كانوا أكثر حذرًا في وحدة تمييز مضمونها . لقد شددوا على الوحدة في الروح ، وحدة كل الذين يتمسكون بالحق ، وحدة المعتقد والإيمان ، لا وحدة التنظيم . إنها الوحدة المنبثقة من الولاء للمسيح نفسه ، والمحض لروح القدس وكلمة الله الحية واللوحي بها . قال ترتوطيانوس : « ان مجموع الذين انضموا الى هذا الإيمان يشكلون معًا الكنيسة ، هذا في نظر رئيس الكنيسة و مكرسوها . ستكون كنيسة الروح القدس . . . لا الكنيسة كمهد من النظار . ١٠ و كما أعلم الرسول بولس بوجود جسد واحد « جسد واحد » و روح واحد كما دعيتكم أيضًا في رجاء دعونكم الواحد . رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة . إله واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم . ١١ و هكذا آمن المونتانيون بأن كل من يتمسك بهذا الإيمان الواحد ، ويخدم هذا رب الواحد ، هو في طبيعة الحال جزء من هذا الجسد الواحد . وهذا الأمر يتخطى في نظرهم جميع الحدود الجغرافية والإدارية والحزبية .

في بينما كان الكاثوليك يتحدثون كثيراً عن « المحبة » التي تضمّ القديس والخاطيء معًا ، كان تشديد المونتانيين على « الحق » يميل الى الفصل بين القديس والخاطيء . كانت المحبة بالنسبة الى الكاثوليك تعني التساهل مع الخطية والضلالة . أما الحق بالنسبة الى المونتاني ، كترتوطيانوس ، فكان يعني فضح هذه الأمور والتخلّي عنها . إلا أن المونتانيين ، في اهتمامهم الصارم بالطهارة والتقاوة ، لم يكونوا قط غير محبين . كانوا يؤمّنون بأن في محبة المسيحي لأخيه ، خير شهادة للتعاليم : ان ما يُرى من لطف و حنان داخل الجماعات المسيحية ، يعكس صحة الآب نفسه . و كما ان الله قد احب العالم إذ ارسل ابنه الوحيد ليموت بدليلاً عنه ، هكذا يجدر بالمسيحي ان يحب جاره الوثني و يبذل قصارى جهده للإتيان به الى سبيل الخلاص . ولكن المحبة التي لا تستند الى الحق و تتأسس عليه ، قال ترتوطيانوس ، لا تستحق ان تحمل هذا الاسم . ان الوحدة المسيحية لا تبني إلا على أساس الحق المسيحي .

اما كيريانوس ، فرأى الأمور بمنظار مختلف . فالوحدة ، بحسب مقاييسه الروحية ، هي اهم من الحق دائمًا . كما ان الإنسان الذي يسيء الى وحدة الكنيسة ، لا يعني في نظر كيريانوس اية فائدة من ايمانه بالعقيدة الصحيحة او من تعليمه اياماً : « ان الإنسان الذي لا يحافظ على هذه الوحدة لا يحافظ بذلك على شريعة الله ، ولا على الإيمان بالآب والابن ، ولا حتى على الحياة نفسها وعلى الخلاص . » ١٢ إنه ليس مسيحيًا على الإطلاق ، مهما كانت معتقداته

مستقيمة و سليمة . ان عقيدة كيريانوس هذه ، تقود بكل تأكيد الى التبيحة بأن الانسان بحال الخلاص ، لا بإيمانه الشخصي بال المسيح ، بل بانتمائه الى الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، و بالتالي فإن إنساناً مثل نوفاتيان ، قد ترك الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، لا يمكن اعتباره مسيحيًا في ما بعد . «عليكم ان تعرفوا منذ البداية أنه ليس من الضروري ان نطلع على تعاليم نوفاتيان ، لأنه يعلم في الخارج . فمهما كان الانسان او كانت عليه صفاته و ميزاته ، فلا يمكن اعتباره مسيحيًا اذا لم يكن متمنياً الى كنيسة المسيح الرسمية ». ¹³ ان انشاء كنيسة مفصلة ، كان حقاً بالنسبة اليه ، اسوأ و ابشع تعدّ قد يرتكبه الانسان ، فهي خطية اعظم بكثير من خطية المسيحيين الذين أنكروا المسيح ومن ثم عادوا الى حظيرة الكاثوليكية . « فالمترد أخطأ مرّة واحدة »، قال كيريانوس ، « ولكن (الافتراضي) يخطئ يومياً . كما ان المرتد قد يحصل في حال استشهاده على الوعد بالملائكة ، في الوقت الذي لا يمكن لافتراضي ، في حال قتل خارج الكنيسة الرسمية ، ان يحصل على مكافآت الكنيسة الرسمية ». ¹⁴

وفي معرض برهان كل هذا كتابياً ، يجد كيريانوس نفسه مرة أخرى ، مضطراً إلى ان يستند إلى بعض التشابهات الجزئية التي تثير التساؤلات . فهو يتناول مقاطع من الكتاب المقدس و يستخدمها خارج نطاق سياقها ، لكي يستخرج منها معانٍ لم يقصدها قط كتابتها . ¹⁵ وفي اقتناعه الكامل و التام ب موقفه ، راح يتمسك بأية آية من الكتاب المقدس قد تدعم رأيه هذا - و هي ممارسة مشؤومة لا تزال متبعة و معروفة حتى في أيامنا هذه . فالخلاص ، بحسب حجمه ، غير متوافر إلا داخل الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، ذلك لأن الذين التجأوا إلى داخل فلك نوح ، كانوا هم وحدهم الذين نجوا من الطوفان . ثم يؤكد على ضرورة ان تكون الكنيسة الرسمية منظمة واحدة ، و ذلك لأن رداء المسيح لم يكن مخيطاً ، الأمر الذي حال دون إمكانية تقطيعه . كذلك هو يقتبس قول المسيح : « ولا يقدر احد ان يخطف من يد أبي . أنا والأب واحد »، ¹⁶ لدعم زعمه أن الذين انتما إلى الكنيسة الكاثوليكية العالمية قد ضمّنوا حصولهم على الخلاص . كما انه يشير ايضاً إلى كلمات المسيح : « من ليس معه فهو على ، ومن لا يجمع معه فهو يفرق ، »¹⁷ جازماً بذلك ان كل الذين ليسوا « مع » الكنيسة الكاثوليكية العالمية هم « اصداد » للمسيح .

ان تطبيق هذه الآيات المحددة لدعم موقف الأساس التنظيمي للكنيسة الشاملة ، يفتقر في كثير من جوانبه الى حجج الإقناع و أدلة . هذا لأن خلاص الله لم يكن قط حكراً على الكنيسة الكاثوليكية العالمية وحدها ، أو على آية كنيسة اخرى . كان الرسول بولس يصرخ في سجنه بأن الانجيل ينادي به ، سواء حصل ذلك من طريق الأصحاب أو المخصوص . ¹⁸ كان احدهم مرة يطرد الشياطين و الأرواح الشريرة باسم يسوع ، على الرغم من انه لم يكن يتنبئ الى مجموعة التلاميذ المعتمدين . فهل يعني هذا الانسان او يوحي أنه كان يسعى خدمة المسيح من دون تقويض رسمي بذلك ؟ لا ، إطلاقاً . قال يسوع : « لا تمنعوه . لأنه ليس احد يصنع قوة باسمي و يستطيع

سريعاً ان يقول على شرّاً . لأن من ليس علينا فهو معنا .¹⁹ فيسوع ، كما يبدو ، لم يكن ضيقاً ككباريانوس في تقرير من هو مؤهل لخدمته . فكنيسة كباريانوس كانت اذاً أضيق بكثير من كنيسة يسوع المسيح .

اعترف كباريانوس بأن معظم التعاليم التوفانية كانت صحيحة تماماً . فأثار اعترافه السؤال المزعج التالي : إن استطعنا أن نجد الحقيقة خارج الكنسية الكاثوليكية الرسمية ، لا يمكن إذاً أن نجد أيضاً الأخطاء في داخلها ؟ فإن ضمانة استمرار الكنسية مستقيمة في آرائها تكمن ، في نظر كباريانوس ، في المحافظة على البنية الإدارية القاسية التي طالما أيدها هو شخصياً . فالقيادة الجدد كان يعيثون القادة الحاليون ، وهكذا باتت مهام التعليم الكنسي محصورة في أيدي الناظار المعتمدين والمواقف رسمياً على استقامة تعليمهم ، و على انسجامه مع أعراف الكنسية الرسمية . كان يؤمن بأنه إن كان كلّ ناظر يعيث الناظر الآخرون ، وإن كانت كل جماعة تعمل بمحنة أوامر ناظرها ، فسيكون كل شيء على ما يرام .²⁰ ولكن ، قد تتساءل إن كان هذا كله لا يدلّ على بعض السذاجة ؟ كانت ثقته بقدرة الناس على نقل ما تعلموه ، بشكل تام و من دون زيادة او نقصان - مع استعدادهم لتطبيق ما يعلّمونه - تعكس المستويات السامية التي كرس كباريانوس نفسه لأجلها ، أكثر مما تعكس حقيقة الطبيعة البشرية .

كان يسع كباريانوس ان يبني على أرضية أكثر صلابة ، لو انه رستخ سلطته على كلمة الله ، لا على تسلسل هرمي من صنع البشر . و إذ شدّ بهذا الشكل على ضرورة التزام مقررات الناظار والمؤشرات ، كان لا بدّ من ان تحلّ إطاعة الناس محلّ الإذعان لكتمة الله ، كمقاييس لصحة التعليم والممارسة . إن الخيار الأول هو الأسهل ، بحيث انه يراعي رغبة الإنسان العامة في نوال تقدير أفراده ورؤسائه . فهناك فريسيون في كل الأجيال من يهودون مجده الناس أكثر من مجده الله .²¹ وجاء نظام كباريانوس ليضمّن إضرام النار في هذا اللهب الخادع الغادر .

و قد نجد اعذاراً لكباريانوس ، نظراً لكونه كتب من وحي زمانه . فإنه لم يكن ينعم بالخبرة الطويلة التي عندنا ، و ذلك على مدى سبعة عشر قرناً ، و التي شاهد خلالها أسلامنا الأخطاء والفساد داخل الكنسية . ولربما لم يتسرّ له ان يتعرف بأية جماعات مستقيمة و مسلمة من المؤمنين الورعين والمحين خارج نطاق سلطة النظام الكنسي الذي كان هو نفسه جزءاً منه . ففي أيامه ، كان بعض أولئك الذين انفصلوا ، قد اتجهوا الى التعاليم الجديدة غير المألوفة ، او الى الممارسات المُنكّرة و التي ادت حتماً الى تشويه سمعتهم ، و الى رفضهم من أولئك الذين كانوا ضدهم أحكاماً مسبقة . لقد تأثر كباريانوس سلباً بأولئك الذين انفصلوا عن الكنسية ، ليكونوا مجموعاتهم المسيحية الخاصة ، و بما نتج من جراء ذلك من مجادلات و من مرارة ، و قد تعاطف نحن ايضاً معه في ذلك . كان صعباً على من التزم التساهل المبني على المحبة و آمن بالوحدة ، أن يرى الجماعات المسيحية تشرذم بهذا الشكل المؤسف .

فبالنسبة الى كبريانوس ، كانت المحبة والتساهل وجهين لعملة واحدة ، ولكن شريطة ان يطبق ذلك ضمن نطاق الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و من المؤسف حقاً انه لم يتمكن من الذهاب في كرمه هذا الى ابعد من هذه الحدود . و نحن نجد انه يصعب علينا ان نتعاطف معه في وجهة نظره ، والتي طالما كررها : ان الذين انفصلوا عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية قد حكموا بذلك على انفسهم بالهلاك البدني المحترم . و في احدى المناسبات ، أشار كبريانوس الى آية من الآيات التي يهوها او لئلذ الذين انشأوا لأنفسهم جماعات مسيحية متفرقة ، و طرح السؤال البياني التالي : « كيف يمكن لاثنين او ثلاثة ان يجتمعوا باسم المسيح ، إن كان قد سبق وفصلوا أنفسهم بشكل ظاهر عن المسيح وعن انجيله ؟ »²² فلربما كان هذا الأمر واضحاً عند كبريانوس ، إلا انه لم يكن واضحاً عند اولئك الذين تحدث عنهم ، وقد لا يكون واضحاً عندنا نحن ايضاً . كانوا يؤمدون بال المسيح ايامًا راسخًا لا يقلّ عن أيام كبريانوس نفسه ؛ كما ان انفصالهم لم يكن عن مخلصهم ، بل بالحرى عن ذلك النظام الكنسي ، اذ شعروا بأنه قد اخفق في تتميم مشيّة المسيح . و بالطبع ، لم يكن باستطاعة كبريانوس ان يرى المستقبل المحزن والمحظّ ، او يتباًع عنه . و لربما لم يكن متوقعاً منه ان يدرك كيف ان هذين الاثنين او الثلاثة ، قد يصبحون بانفصالهم عن منظمة منحطّة فاسدة ، من اتباع المسيح المخلصين والأكثر إرضاء له من الباقين الذين لم يخشوا ان يجعلوا العار على اسم الرب بسبب خطاياهم وتعلقهم بفاسد العالم .

ان نظرية كبريانوس عن المعمودية ، جاءت تابعة لمفهومه العام للكنيسة . و هي تمثل ابعاداً هاماً آخر عن ممارسة هذه الفريضة في زمن العهد الجديد . فالرسل كانوا قد عمدوا جميع الذين اعلنوا ايمانهم بالرب يسوع المسيح ، و ذلك اياماً كانوا . فالاثيوبي اعتمد على يد فيليب ، في بركة في العراء ؛ اما سجتان فيليبي ، فيبدو انه اعتمد في بيته ؛ و ليديا في النهر . و لم يكن اي من هؤلاء جميعهم على علم بوجود كنيسة منتظمة . كانت عملية التغطيس في الماء ترمز ببساطة الى ما كان قد حصل عليه المؤمن من غسل خطایاه من طريق الإيمان الشخصي بال المسيح . اما المراسيم نفسها فلم تكن تخلصه او تحرير فيه اي تغيير . ففي نزوله تحت الماء ، ثم صعوده منه ، يُعطى المؤمن تذكاراً مرئياً بأن حياته السابقة المخاطئة قد انتهت ، و بأنه بدأ حياة جديدة في المسيح . فهو اعتمد ، لا للكنيسة بل للمسيح ، كما انه اصبح مقبولاً ، لا لدى اية مجموعة من الناس ، بل لدى الله²³ الكنيسة ليست مذكورة في اي من حوادث المعمودية المدونة في العهد الجديد .

اما بالنسبة الى كبريانوس الذي كانت العضوية في الكنيسة الرسمية في غاية الأهمية في نظره ، فكان يعتبر ان المعمودية التي ينعتها الناظر الكهنوتي ، هي السبيل إلى القبول في عداد شعب الله وإلى الحصول بالتالي على الخلاص البدني . و هكذا فإننا نجده يتحدث لا عن « المعمودية للمسيح » ، بل عن « المعمودية للكنيسة »²⁴ ، كما اعتبر أن هذه الممارسة

تكون باطلة اذا قام بها اي شخص من خارج الكنيسة الكاثوليكية العالمية . لذلك يقول : « لا يمكننا ان نخلص الا من طريق المعمودية الفريدة التي تقوم بها الكنيسة الوحيدة الحقيقة .²⁵ فمعمودية المونتانيين او النوفاتيين في نظره غير فعالة و خالية من البركة الإلهية . و نتيجة لذلك ، فأن انسان اعتمد خارج الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، تعاد معموديته عند قبوله في هذه الكنيسة .

كانت المعمودية ، على غرار العشاء الرباني ، يُنظر اليها بصفتها « سر » - ممارسة شعائرية خارجية تحدث تغيراً معجزياً في الداخل . فمياه المعمودية تغسل الخطية ، و تختم على القبول في الكنيسة . و كبريانوس ، في الواقع ، اطلق على هذه المراسيم التسمية « المعمودية المخلصة » ، وقد اشار اليها ايضاً على أنها « حمام يهب الحياة » .²⁶ كان يؤمن بأن معجزة ما ستحصل عندما يقوم الناظر بتعطيس الشخص في الماء : انه في تلك اللحظة يولد من جديد . كما ان معجزة ثانية تحدث ، إذ يضع الناظر بيده على المعتمد بعد خروجه من الماء ، فيقبل الروح القدس . « ان الذين يعتمدون للكنيسة ، يوثق بهم الى كهنة الكنيسة ، وبفضل صلواتنا و وضع ايدينا ، يحصلون على الروح القدس ثم يكملون بختم الرب .»²⁷ و من هذه الكلام نلاحظ أن عطيه الروح القدس لم تَعُد من امتيازات المسيح الذي يهبه مجانية لجميع الذين يخصونه .²⁸ فالروح القدس ، كما الخلاص نفسه ، اصبح تحت تصرف الكنيسة الكاثوليكية ، وهي تتحمّل بواسطة الخدمات الكهنوتجية التي كلفت بها نظارها المعتمدين . و مرة اخرى نجد كيف ان كبريانوس ينسب الى الكنيسة قوات لا يذكرها الكتاب المقدس الا بشأن المسيح وحده .²⁹

و في ذلك الوقت ، تطورت عادة تعميد الأطفال ، و ذلك قبل فهمهم الایمان المسيحي . ثم يُثبّتون لهم بعدئذ أنهم قد أصبحوا مسيحيين ، و ذلك بحكم اعتمادهم للكنيسة . لكن الحياة التالية للمعتمدين من هؤلاء الأطفال برّهنت ان المعمودية لم تحدث فيهم اية معجزة ، و لم تتحقق اى شيء بخصوص الخلاص .

لم يطور كبريانوس أفكاره و معتقداته هذه تدريجياً ، فهو يشرحها في اولى رسائله التي كتبها بصفته ناظر قرطاجة . و في ذلك الوقت ، لم يكن هو نفسه قد اعتنق المسيحية إلا منذ ثلاث سنوات فقط . و مع هذا ، فإن أفكاره عن الكنيسة كانت تلقى رواجاً كبيراً في شمال افريقيا . و مع نهاية القرن الثالث ، بات في الواقع لكل مدينة ، بل لكل قرية تقريباً ، ناظرها الخاص ؛ و مع نهاية القرن الرابع ، كان هناك في كثير من الأحيان كنستان مع ناظرين يمثلان وجهات نظر مختلفة ومتباينة .

عبر كبريانوس عن مفهومه هذا للكنيسة من خلال سعيه الدؤوب ، من الناحية الإدارية ، لترسيخ سلطة الناظر الواحد في كل كنيسة محلية . وبحسب نظام كبريانوس هذا ، لا يجوز تعين او « رسمة » ناظر معين لكنيسة إلا بواسطة ناظر الكنائس المحلية الأخرى . فهؤلاء أتيّطت مسؤولية التأكيد من ان تعليميه و خلقه يوافقان كلاً من التقاليد الكتابية و التقاليد الرسولية .

وقد سمح كيريانوس لأعضاء الكنيسة المحلية وشيوخها بالتعبير عن رغباتهم وأفضلياتهم ، كما حصل في امر تعينه هو شخصياً ، ولكن من دون ان يكون لهم الحق في إضفاء الشرعية على ترشيحهم . فإذا ما استاء نظار الكنائس المحلية الأخرى من ناظر ما ، يمكنهم بسهولة إصدار حرم كنسي بحقه ، وبحق كنيسته المحلية أيضاً في حال ناصرته . إدماً ، ان مجرد جرة قلم تكفي لفصلهم عن الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، وبال التالي عن الخلاص المحصر فيها وحدها بحسب اعتقادهم . وعليه ، بات على الكنائس المحلية جميعها ان تكون في خضوع حازم لسلطة « الكنيسة الرسمية » ، كما يتوجب على الشعب ان يكون تحت سلطة الناظر .

كذلك اعتبر كيريانوس أن نظار الكنائس الكاثوليكية هم جميمهم على قدم المساواة . لا أحد فيهم يحق له أن يكون أعلى مرتبة من الآخرين ، بما انهم جميعهم كهنة . وال المسيح هو رئيس الكهنة ، لذا فلا ناظر في روما ولا ناظر كنيسة قرطاجة أو في اي مكان آخر ، يملك أي حق للسلطان على الكنائس المحلية الأخرى . فالسلطنة على تقىض ذلك ، كانت محصورة بمؤتمرات الناظر . و كما ان كيريانوس كان يشدد باستمرار على ضرورة اقرار سلطة الناظر الواحد في كل كنيسة محلية ، كذلك كان يؤكّد دائمًا على سلطة المؤتمرات التي كانت تعقد لتقرير شؤون كنيسة ذات الاهتمام المشترك . ولم يكن كيريانوس أول من دعا إلى مؤتمرات الناظر - كان قد عُقد مؤتمر في شمال إفريقيا ، قبل ان يتم تعينه ناظرًا - لكن زمانه شهد ازيداداً ملحوظاً في عددها ، وفي عدد الذين حضروا . فهو يخبرنا كيف أنه في العام 220 م ، حضر سبعون ناظرًا إلى مؤتمر قرطاجة ، وهم يمثلون سبعين كنيسة محلية من المقاطعات الأفريقية والتوميدية . وبعد عشرين سنة ، ارتفع العدد ليصبح تسعين وثمانين ناظرًا . ومنذ ذلك الحين ازداد عدد المؤتمرات - عُقد مؤتمر في العام 252 ، وآخر في العام 253 ، وكذلك في العام 254 ، ومؤخرًا في العام 256 - وكان عدد الحاضرين يزداد باطراد خلال هذه الفترات . كان في هذه المؤتمرات يصار إلى مناقشة تقاليد الكنيسة وجمعها وتنسيقها بشكل قوائين . كما ان هذه المؤتمرات كانت تُصدر بيانات رسمية بخصوص العقائد والمارسات ، و كان من الضروري على الكنائس المحلية ان تلتزم هذه المقررات .

ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، كان المسيحيون المتسمون الى المذهب « الكاثوليكية » و«الارثوذكسية » قد تعودوا على استرداد مقررات هذه المؤتمرات التي تعبّر عن التقاليد المعتمدة في الماضي ، وفي مناسبات أخرى كانوا يتطلعون الى البيان الرسمي الصادر عن ناظر كنيسة روما او مدينة معينة أخرى ، و الذي كان يعبر عن رأي الكنيسة السائدة في ذلك الوقت . كان بعض من هذه التقاليد والأراء يقف منذ البداية على ارضية مهزوزة غير صلبة ، بحيث أنها جنحت الى حد ما عن تعاليم المسيح والرسل . إلا ان التشكيك بها او التساؤل بشأنها ، كان سبب مشاكل واضطرابات . فعندما يكون التنظيم معقداً ، يكون من الصعب إيجاد مكان لرجال

ونساء ينكرنون فكيراً حراً ، ويفتشون الكتب المقدسة بدهن مفتوح . فإن نظاماً كهذا يخشى الفوضى أكثر من أي شيء آخر ؛ من أجل هذا باتت الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، منذ زمن كيريانوس فصاعداً ، تفضل غالباً الحلول الاسترخائية على أي محاولة لتقديم تعريف دقيق للعقيدة.³⁰ لقد كان الحفاظ على الكنيسة أكثر أهمية لديها من اظهار الحقائق و كشفها . وبالطبع ، هذه هي طبيعة البشر : فغالباً ما يهتم الناس و يقدرون التقليد أكثر من الحق .

لم يكن ترتوليانوس ليتمثل بشكل أعمى لهذا التموج او لأي تموج آخر . وهو الذي كان قد صرّح وبالتالي : « قال ربنا المسيح عن نفسه ، إنه الحق ولم يقل إنه التقليد . »³¹ لقد أدرك حقيقة ان التقليد قد نشأ من الفضلات او من الضعف البشري او من الخطبة . و حتى كيريانوس نفسه اعتبر ان كل تقليد لا يستند الى الحق ما هو الا ضلالة قديمة³² . الم يظهر الفريسيون انفسهم في زمن المسيح هذا الميل عليه لإعلاء شأن التقليد فوق كلمة الله ؟ « هذا الشعب ، » قال الله ، « يكرمني بشفتيه و أما قلبه فمبعد عن بيدها . وباطلاً يعبدونني و هم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس . لأنكم تركتم وصبة الله وتتمسكون ب التقليد الناس . » ثم اردف يسوع يقول : « حسناً رفضتم وصبة الله لتمحفظوا تقليدكم . »³³ في القرن الثالث ، و من الواضح أن الكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا ، راحت ، منذ القرن الثالث ، تتطور في اتجاه خطير .

كان المؤمنين قبل خمسين سنة قد قالوا الأمر عبته . كانوا يتحرقون شوّقاً إلى أن يكون لهم اتصال مباشر مع الله نفسه ، ان يعرفوه ، لا ان يكتفوا بالمعرفة عنه . لقد حاولوا ان يعيدوا الى الكنيسة عقوتها و حريتها التي خبت و ذوقت تدريجياً منذ عهد الرسل . فبالنسبة إليهم ، يجب ان تكون السلطة البشرية خاضعة لروح الله . وقد رفضوا القبول بأن المواهب الروحية ثُمنها بموجب تعين رسمي للإنسان من آناس آخرين . فالله وحده هو مصدر المواهب الروحية و القيادة الروحية ، و هو يمنحها من يشاء ، داخل التنظيمات التي يديرها الناس او خارجها . لم يكن نظام كيريانوس الكنيسي يروم لمثل هؤلاء ؛ لم يكونوا يرغبون في ان يتقيدوا به .

ملاحظات

1- رومية 16:16؛ 1 كورنثوس 7:7؛ 17:7؛ 16:11؛ 16:14؛ 33:14؛ 2 كورنثوس 8:8؛ 28:11؛ 23:8؛

2 تسلونيكي 4:1؛ رؤيا 7:2؛ 16:22؛

2- اعمال 41:15

3- 1 كورنثوس 16:1

4- 1 كورنثوس 16:19

5- خلاطية 22:1 ؛ 1 سالونيكي 14:2

6- ان النصوص الوحيدة الصريحة المختصة بالموتانية ، والتي بقيت في إفريقيا الشمالية ، هي التي كتبها ترتوبيانوس . من هنا يات من الصعب تحديد عدد المسيحيين الذين انتما في ما بعد الى هذه الحركة وأماكن تواجدهم . إلا أن العديد من الوثائق المتعلقة بشهداء إفريقيا الشمالية ، تُظهر الإيمان القوي والحيوي نفسه والتركيز المقاومي عليه اللذين كانوا قد تميّز بهما كل من ترتوبيانوس والموتنانيين في آسيا . وطبعاً ، ترتوبيانوس نفسه ، كان له تقدير عظيم في زمن حياته وبعدها : فانتشرت أعماله على نطاق واسع ، في داخل الكنيسة الكاثوليكية كما في خارجها . وقد تستنتج من هذه المخالق ان نفوذ المورتانية تخطى الى حد بعيد حدود اسمها ، وأنه بالإضافة الى المجموعات المورتانية المنفصلة ، كان هناك على الأرجح العديد داخل الكنائس الكاثوليكية في إفريقيا الشمالية (وأيضاً في أوساط النيوفاتيين) ممن كان لهم سبب شديدة الى المورتانية .

أما بالنسبة الى معتقدات الموتنانيين ، فتعاليم ترتوبيانوس هي واضحة ومميزة ، وهكذا نستطيع من كتاباته (ومن الأقوال المنسوبة الى موتنانيوس نفسه) أن نستخرج آراء الموتنانيين في إفريقيا الشمالية في القرن الثالث .

7- راجع القسم الأخير من الفصل الثامن حول رأي ترتوبيانوس في الكنائس الأكثر حداة : « أنها تحسب أيضاً رسولة إن كانت تتحد في اعتناق الحق فيه ، وذلك بسبب الشارب في التعليم » .

8- يوحنا 23, 21, 20 ; 11:17

De Catholicae Ecclesiae Unitate 6 - 9*De Pudicitia* 21 - 10

6-4:4 - 11 انسس

Walker TCOSC p. 53 - 12

Epître 51:24 - 13

14- اقتبسها Walker TCOSC p. 52

15- مثلاً ، راجع عن *De Catholicae Ecclesiae Unitate* 7*Epîtres* 73:11; 74:15 (ANF Vol. V)

16- يوحنا 10:29 و 30

17- متى 30:12

18- فيلبي 18-15:1

19- مرقس 40 و 39

20- *Epîtres* 26:1; 67:5; 68:8

21- يوحنا 43:12

22- Walker TCOSC p. 53

23- رومية 3:6 - 5 ؛ خلاطية 27:3 . يقال احياناً إن الإشارة في 1 كورنثوس 12:13 هي الى المعمودية للكنيسة بواسطة الماء . إلا أن مفسرين آخرين يعتبرون على أساس آيات أخرى من نحو مرقس 1:18 مثلاً ، أن موضوع 1 كورنثوس 12 هو عمل الروح القدس ، إذ يجذب أناساً مختلفين الى جسد واحد وينحهم مواهب متعددة . إذا ، لا يشير هذا النص الى قادة الكنيسة الذين يعمدون بالماء ، بل الى الله الذي يعمد بروح القدس ؛ لا إلى احتفال علني ، بل الى تعزيز بالقوة الإلهية ؛ لا الى معمودية بالماء التي ترمي الى نوالنا الغفران ، بل الى المعمودية بالروح القدس الذي يعيّنا للخدمة .

- وحتى لو فضّلنا أن نرى في هذا ، إشارة إلى المعمودية بالماء ، يبقى أن الجسد الذي اعتمد الكورنثيون كان جسداً روحياً ، وليس هبة مؤسستية يتعلّق بتنظيم معين : كان جسد المسيح الروحاني الذي يشمل كل الفروق الكبيرة .
- Epître 72:9, 22 etc. - 24
- Epître 73:11-25
- Epîtres 72:3 ; 73:5 ; 75:11 - 26 . يُظهر المفهوم الكاثوليكي « للأسرار » شيئاً مفاجئاً بينه وبين مبادئ « الشعور الأسود » في مذهب حبوبة المادة التقليدي (راجع الفصل 3) .
- Epîtres 62:8; 72:9 - 27
- رومية 9:8 - 28
- 29- إن المعتقد أن الروح القدس يتم قبوله فقط من طريق وضع بيدي الناظر ، كان بدعة في الكنيسة ، لا عقيدة كتابية .
تفى العهد الجديد ، الروح القدس هو خطبة الله لجميع الذين يؤمنون باليسوع (رومية 9:8 ؛ غلاطية 2:3) . يظهر في الكتاب المقدس أن الروح القدس لم يُمنع من طريق وضع الأيدي إلا في حال السامريين ، وشاول الطرسوني ، وتلاميذه يوحنا المعمدان ، الذين لولا ذلك ، كان سيسألكم بأسم قبولهم كمسيحيين حقيقيين (أعمال 17:8 و 17:18 ؛ 17:9 و 17:19) . أمّا آخرون ، من فيهم من « الدخلاء » والأثرين ، فقد قبلوا الروح القدس من دون هذا النوع من المراسيم ، مع أن علامات أخرى جاءت تشهد لقبولهم الأولي في مملكت الله (أعمال 10:44) .
- Foakes - Jackson p. 254 - 30
- 31- أتبها 113 : Plummer p. 6 ; بالإشارة إلى يوحنا 14:6
- Epître 73:9; Schaff HOTCC Vol. II p. 527 - 32
- 33- مرقس 9:6-7

للحصول على ترجمة بالإنكليزية لكتابات كبريانوس الكبيرة ، راجع ECF Vol. V ANF . كذلك Bettenson يدّلنا أيضاً بجموعة مختارة من النصوص . كما أن لا هوت كبريانوس المختص بالكتابات الكبيرة كل من :
Walker TCOSC pp. 49 - 60
Foakes - Jackson pp. 222 - 224, 265 - 269
. Schaff HOTCC Vol. II pp. 150 - 151

الفصل السادس عشر

العلاقات البعيدة

غالباً ما نعتقد أن العلاقات بين الشرق والغرب أمر يبعث على الدهشة ، و لكننا نحتاج ان نتحلى بالصبر و الحكمة لكي تستفيد من ثمر تلاقيهما . و في الواقع ، لقد حصل أول أعظم انتشار للإنجيل في جميع ارجاء عالم البحر الأبيض المتوسط ، بعد ان تم تلبيس الإيمان الشرقي السامي ، رداء المنطق الغربي بواقعيته العملية . كان شاول الطرسوسي التصير الأعظم للإنجيل و محاميه الدفاعي الكبير ، وهو رجل شرقي بعقلية غربية ؛ صوفي ، لكنه في الوقت عينه عملي و منهجي . و هنا يمكن سرّ تجاهله ، فغالباً ما يبرهن هذا الأمر أنه السبيل الأكيد للتقدّم والازدهار . الشرق الصوفي و الغرب الواقعي العملي ، هذان الاثنان معًا يفوقان على مجموع جزئيهما ، لو انهمما يتمكّنان فقط من تفهم احدهما الآخر ، حتى يتعاونوا و يسيراً معًا في الاتجاه نفسه لا اتجاهين معاكسين . كانت كنيسة قرطاجة تبعد ستة كيلومتر فقط عبر البحر عن روما ، عاصمة الغرب ، و على مسافة سفر عشرة أيام عبر الشاطئ المصري عن الإسكندرية ، المدينة الشرقية . و هكذا وجدت نفسها و قد ورثت كلا التراثين ، و بإمكانها استخراج العسل من الحضارتين الغربية و الشرقية ، لو انها تقدر فقط على الامساك بهما بمحبة و انسجام .¹

كانت كل من قرطاجة و الإسكندرية و روما أعظم ثلاثة مراكز للمسيحية بعد العصر الرسولي مباشرة . ان التأمل في ما كانت عليه العلاقة الثلاثية بين كنائس هذه المدن الشهيرة يشكّل دراسة رائعة ، و ذات مغزى عميق . كانت ميزاتها المتباينة تتفاعل باستمرار ، كما كان يحصل مذ وجذر بالنسبة الى ما كانت تشدد عليه كل كنيسة . و كل هذا يجد له تعبير في كنائسنا اليوم . كانت علاقاتهم دافئة احياناً ، واحياناً أخرى ساخنة ، و لكنها كانت مبنية دائمًا على الاحترام .

و على الرغم من أنه كانت لهذه الكنائس الأسلام أسلاف أنفسهم ، و كانت ذات مستويات متقاربة في زمن الرومان ، إلا أن مصيرها جاء في ما بعد مختلفاً للغاية . فكنيسة روما على الرغم من شططها و ضلالتها ، استمرت في ازدهارها و في هيمنتها كنقطة الارتكاز في منظمة عالية رئيسيّة ، و ذلك على مدى خمسة عشر قرناً ، و على الرغم من تجاوزاتها و ضلالتها . و من جهة أخرى لم يبقَ من كنيسة قرطاجة سوى الحكايات و البيانات الخاصة بشهدائها الأبرار بالإضافة إلى كتابات لاهوتيتها العظيمة . هذا ، وقد تُرجمت هذه المستندات إلى لغات لا تُعدّ ولا تحصى ، وهي لا تزال تُلهم المسيحيين في كل جيل و مكان ، كما أنها تأسِّر أبناءهم . وبطريقة مائلة ، كفت كنيسة الإسكندرية عن ان تكون قوة في العالم المسيحي ، مع أنها ندين

للاموتى هذه الكنيسة بالكثير . فهم الذين يقفون بشكل خاص وراء قانون الإياع النيقوي الذي قام بتشكيل إيمان ملايين لا تُحصى من البشر و بشيئه ؛ بالإضافة إلى مناهج تفسير الكتاب المقدس التي كان لها في ما بعد التأثير العميق في تطوير الدراسات اللاهوتية المسيحية .

إن مناشيء الكنيسة في الإسكندرية و أصولها هي غامضة و مبهمة . و يقال إن مرقس ابن اخت بربابا ، هو مؤسس هذه الكنيسة . ثمة تقليد بأنه بعدما أنهى البشير مرقس كتابة قصة حياة المسيح ، أودع مخطوطته كنيسة روما الفتية ، ثم سافر إلى مصر حيث نجح هناك في تأسيس عدد من الجماعات المسيحية.² و نحن نعلم أن الرجل الفصيح أبولوس الذي استفاد من تأييب أكيللا و بريسكلا اللطيف له ، كان أصله من الإسكندرية .³ لا يوجد ما يشير إلى أنه عاد إلى هناك ليساعد في عمل الإنجيل . كانت الإسكندرية مركزاً ثقافياً يونانياً ، و تُظهر الكنيسة هناك أنها مدربة ليس فقط لأساليب الفكر السامي بل للفكر اليوناني أيضاً . كان لا هوتيوها ، و من جملتهم إقليمنوس وأوريجانوس ، يتأملون ملياً في العهد القديم ، و يفتخرون في الوقت عينه بحفظهم الأساليب الفلسفية اليونانية ، و تطبيقهم لها في تفسيرهم لهذه الأسفار .

يوجد تباين كبير بين لاموتى الإسكندرية و جيرانهم عند ساحل البحر الأبيض المتوسط : كانوا يستمتعون بالغوص في دقائق الأمور الفكرية و المنطقية . و بينما كان لاموتى شمال إفريقيا يركزون على الحقائق العملية للحياة المسيحية ، كان الإسكندرانيون يجولون و يطوفون قلقين في أروقة الأفكار الفلسفية . لقد أخذ الأفارقة الشماليون الكتاب المقدس بمعناه الظاهري ، بينما قام الإسكندرانيون بنسجه بشكل قصص رمزية معقدة . و بينما كان الكتاب الأفارقة الشماليون الأوائل يلحجون إلى كلمة الله لتساعدهم على حل مشاكل الحياة اليومية و استغلال فرصها ، كان زملاؤهم الإسكندرانيون يحاولون درس الكلمة الإلهية بغية التعمق في مكنوناتها اللاهوتية . إن المسائل ، كما الفرق التي استأثرت باهتمام الأفارقة الشماليين - المونتانية ، التوفاتية و الدوناتية - كانت في جوهرها أخلاقية أكثر منها عقائدية . و إن تأمل الإفريقي الشمالي ، كان يدور حول نفسه ، لا حول الكون أو خالقه . فطبعية الإنسان او علاقته بالله تعالى ، كانت أموراً تستحق مناقشتها و بحثها ؛ أمّا اسرار الكائن الإلهي او طبيعة المسيح ، و هي المواضيع التي سحرت الإسكندرانيين وأسرت أبابهم ، فهي مسائل يجب قبولها و التسليم لها من دون مجادلة . لم تتشاجر كنائس إفريقيا الشمالية مع كنائس الإسكندرية . كانت ترى الأمور بمختار مختلف ؛ إلا أنها لم تسع للتدخل في شؤون الفريق الآخر ، كما أنها لم تكن تخشى هذا النوع من التدخل .

كانت العلاقات بين كنيسة قرطاجة و اختها كنيسة روما عاصفة أكثر جداً . فروما كانت طبعاً عاصمة الامبراطورية ، و نقطة الارتكاز ل معظم الأعمال التجارية و الإدارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ و الرومان كانوا بطيئتهم إداريين أكثر منهم مفكرين . كما ان كنيسة روما كانت قد تأسست في وقت مبكر ، و كانت تتفاخر بالرسالة التي خصّها بها الرسول بولس ، و التي تعتبر الأكثر أهمية ربما بين كتاباته جميعها . أدعّت كنيسة روما بأن الرسولين بطرس و بولس كانوا بين قادتها الأولين ؛ وقد تبعهما لينوس (Linus) و أناكليتوس (Anacletus) ، ثم إقلمنتوس (Clément) ، الذي يجب ألا يُظن بأنه إقليمنوس الإسكندراني في نحو العام 90 م .

لقد كان « الرابع من الرسل »، كما يقولون ، و هو وارث سلطتهم الرسولية . و كان إقليمنتوس نفسه قد شدد على أهمية الطاعة والانتظام . فإذا كان الجدل اللاهوتي يُقرّر على أساس المنطق في الاسكندرية ، كان تقريره في روما يتمّ على أساس السلطة .

إلا أن إقليمنتوس هذا ، كان رجلاً متواضعاً ، و لم يُظهر أية رغبة في التسلط على سائر الكنائس ، كما هو الحال مع الكثيرين من خلفائه . لقد ظهرت الإشارات الأولى لهذه الادعاءات الاستبدادية نحو العام 195 م عندما قرر الناظر فكتور (Victor) انه ينبغي على كنائس العالم أجمع أن تُذعن لحكمه الخاص في ما يتعلق بتاريخ الاحتفال بعيد القيامه . و قد هدّ بقطع جميع العلاقات بالكنائس في آسيا الصغرى لرفضها التخلّي عن تاريخ آخر لهذا العيد ، ادعوا أنهم حصلوا عليه من الرسول يوحنا نفسه . كتب إيريناؤس من مدينة ليون للإشارة إلى عدم صواب تصرف فكتور هذا ، و عليه ، تحلى الناظر الروماني بحكمة ، إذ سحب تهديده بإنزال عقوبة الحرمان . إلا أن فكتور رفض أيضًا الدعوة من أجل المزيد من القلاوة في داخل الكنيسة . فأخذ يأراء پرکسیاس صاحب الأفكار غير المستقيمة ، إلا أنه كان مواليًا لروما كما أشرنا من قبل ، فدان فكتور المؤمنين الذين كانت تعاليمهم مستقيمة و صالحة ، غير انهم لم يكونوا يخضعون لكنيسة روما .

كان فكتور أول نظار كنيسة روما ، لكنه لم يكن ، بأي شكل من الأشكال ، الأخير بينهم ، في السعي للبروز على الآخرين . كان هؤلاء النظار يرون في كنيسة روما القائد العام الطبيعي للنظام العالمي النامي ، و الذي اطلقوا عليه التسمية « الكنيسة الكاثوليكية » معتبرين انه ينبغي على سينيخي العالم جميعهم ان يتعمدوا اليها . ولكن إصرارهم على حفظ الوحدة التنظيمية و الخضوع لهم في ممارسة الدين ، لم يستمر إلا على أساس منحهم المزيد من الحرية في قضايا المعتقد . فالنظار الذين تعاقبوا في روما ، اظهروا بطنًا شديداً في مجال تصحيح الانحرافات العقائدية او التأديب عليها . و لم يكن ذلك يعود الى الافتقار الى الشجاعة الأخلاقية ، او الى الإخلاص الروحي فحسب . فروما كانت في الواقع تفتقر الى علماء لاهوتيين مؤهلين فكريًا للمناقشة بفعالية مع دعاة الأفكار الجديدة ، و المروجين للبدع الماكرة . لقد فشل نظار روما باستمرار ، وعلى فترة قرون عديدة ، في مواجهة حقيقة الأمر في ما يختص بالمشاكل اللاهوتية ، معتمدين بالآخر على ضغط التصويت لفرض القبول بموقفهم . و قد أظهرت الأزمات المتكررة و المتلاحقة اهتمامهم الدؤوب ، لا بالتعريف بانجيل المسيح او بالدفاع عنه ، بل بالتعريف بالكنيسة الكاثوليكية العالمية و بالدفاع عنها . فالإساءة العظمى في نظرهم لا تكمن في عمل الضلال بل في العمل للانفصال ؛ انهم في هذا على اتفاق قام مع كيريانوس في قرطاجة .

لكن كيريانوس اختلف مع نظراته في روما بشأن مسألة أخرى . كان يؤمن ، كما رأينا سابقاً ، بأن العمودية تكون باطلة في حال أجريت خارج نطاق الكنيسة الكاثوليكية العالمية : فـأـيـ إـنـسانـ قدـ اـعـتـمـدـ «ـ خـارـجـ الـكـنـيـسـةـ الرـسـوـلـيـةـ »ـ ،ـ يـجـبـ انـ تـعـادـ مـعـمـودـيـتـهـ عـنـ قـبـوـلـهـ فـيـ هـيـاـهـ .ـ لـقـدـ

عارض استفانوس ، ناظر كنيسة روما ، وجهة النظر هذه ، ورفض نهائياً وبشكل قاطع ، قبول الشركاء مع المنادين بهذه الفكرة أو المناصرين لها . هذا لأنّه اعتبر أن المعمودية باسم الثالوث الأقدس هي نافذة المعمول بغضّ النظر عن هوية الذي اجراها او عن تعاليمه و حتى ايضاً عن خلقه الأبي . لقد كان من الأنصار الأوائل لفكرة ان المعمودية هي « سرّ » له فائدته ، و ذلك بعزل عن ايام او خلق الذين يتقبلونه او يجررونه . و في العصور الوسطى ، جعلت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية العالمية لتوكييدات كهذه ، ابعاداً غربية في نوعها .

إلا أن عملية مقاومة قرار استفانوس ، لم تقتصر على إفريقيا وحدها . هذا لأنّ المسيحيين التوفاتين في روما نفسها ، قاوموه ايضاً ، ولكن على أساس مختلف إلى حدّ ما . كانوا يشتددون بشكل رئيس على نقاوة الحياة والعقيدة ، كما انهم انكروا على الكنيسة حقّها في الحال من الخطيبة أولئك الذين تعمّدوا كسر وصيّة الله بتقريب التقدّمات للأوثان ، او بإنكارهم الإيمان . فاعتبروا أنه لا يمكن بالنسبة إلى هؤلاء القوم منفّرة خطاياهم او إعادة قبولهم كأعضاء في الكنيسة بهذه البساطة استناداً إلى سلطة الناظر ، بحيث يجب عليهم ان يُظهروا علامات توبّة عميقّة ، فيها الدلالة على أنّهم قد طلبوا حقّاً مغفرة الله و قبوله لهم . أمّا كيريانوس في إفريقيا ، فوجد نفسه الآن على خلاف مع كلا الفريقيين في العاصمة الإيطالية : ضدّ استفانوس ، إذ أصرّ على استقلالية كنائس إفريقيا الشمالية ، و ضدّ التوفاتين في دفاعه عن حق الناظر في إعادة قبول المسيحيين الذين سقطوا ، إلى عضوية الكنيسة .

و بدوره ، بذلك استفانوس قصارى جهوده لفرض احكامه و قوانينه على كنائس إفريقيا . فأجابه كيريانوس بقوة و رزانة بأنه يامكانه ان يشرع قوانين و احكاماً لكتسيته في روما ، و لكن لا سلطة له على الكنائس الموجودة في مناطق أخرى . فالناظر في روما ، أضاف يقول ، ليس بأي حال من الأحوال ، اسمى مقاماً من ناظر الكنائس في المدن الأخرى ، او رئيساً عليهم ؛ فكل ناظر هو كاهن ، و لكن المسيح وحده هو رئيس كهنة . إلا ان استفانوس و خلفاءه في روما ، اشاروا إلى كلمات المسيح لبطرس : « على هذه الصخرة ابني كنيستي ». و هكذا ادعوا أنه ، حيث ان بطرس كان اول ناظر في روما ، يأتوا هم انفسهم خلفاء و ورثة سلطته . كما انه لهم ايضاً ، مثله ، سلطان الحال و الرابط ، مهما كان عليه معنى هذه العبارة . و كان سبق لترتيبيانوس أن اشار الى ان الرب لم يمنع سلطان الحال و الرابط هذا للكنيسة ، وللمقادير المستقبليين في الكنيسة ، بل لبطرس وحده و ذلك في مناسبة معينة واحدة⁴ ، للرسل اجمعين في مناسبة أخرى⁵ . قال لهم : «كم انت سخفاء ، في سعيكم لقلب مقصد الرب الواضح و تغييره اذ منع ذلك (السلطان) لبطرس كفرد .»⁶ قد يكون بطرس او ايمن بطرس هو الصخرة التي بُنيت عليها الكنيسة ، و لكن ذلك لا يتضمّن بأي شكل من الأشكال ، نقل السلطان الكسي الى الذين شاءت الصدف ان يعيشوا في المدينة نفسها التي قضى فيها بطرس أيامه الأخيرة . كذلك اشتراك اوريجانيوس من قبصية في هذه الماذرة : « لكن ، ان كنتم تعتقدون أن الكنيسة كلها قد بُنيت على بطرس وحده ، فماذا

تقولون عن يوحنا او عن كل واحد من الرسل الآخرين ؟ ⁷ و وافق معه كيريانوس ، مشيراً الى أن حتى بطرس نفسه ، لم يتجرأ ليفترض أن يامكانه إصدار الأوامر الى بقية الرسل : و هو بالتأكيد قبل التوبيخ على يد واحد منهم . ⁸

إلا ان كنيسة روما لم تقتنع بكل هذا . و بعضهم بلغ (بهم الأمر الى ان يطلقوا على ناظر روما التسمية «الحبر الأعظم» ، او الحاكم الأعلى ، ناسين إليه السلطة او الحق في مغفرة الخطايا . توقف ترطوليانيوس عند هذه التسمية المبالغ فيها كثيراً ، و علق عليها بتهكم و سخرية : «هذا الحبر الأعظم او ناظر النظار يصدر بياناً يقول فيه : " أنا اغفر خطايا الزنى و الدعاارة لأولئك الذين كفروا عن ذنبهم ! " ... ابن يعلن كل هذا الكرم و السخاء ؟ هل على أبواب بيوت الرذيلة ، و تحت لافتات تجارتهم ؟ هذا " التكبير عن الذنب " يجب إعلانه في مكان اقتراف الخطية عينه ! ... لكن هذا البيان يُقرأ في الكنائس ؛ و يُعلن عنه في الكنيسة ، الكنيسة التي هي عذراء ! ليتنا تبعد هذا التصریح عن عروس المسيح ! » ⁹ فالكنيسة ، جماعة القديسين ، ليست المكان للإعلان عن مثل هذه الأمور : « و أما الزنى و كل خجالة او طمع فلا يُسمّ بينكم كما يلقي بقديسين ... فإنكم تعلمون هذا ان كل زان او نجس ... ليس له ميراث في مملكت المسيح والله . » ¹⁰ تلك كانت كلمات الرسول بولس . إلا ان ناظر روما كان بتصریحه ذلك قد ناقصها بشكل مباشر . إذاً ابن هي سلطنه الرسولية ؟ لكن ادعاءات ناظر روما و جماعته بشأن مغفرة الخطايا سوف تستمر و تبلغ حداً لا يطاق من السخافة خلال القرون اللاحقة .

بني استفانوس على اصراره على ضرورة ان تلتزم كنائس افريقيا احكامه ، و أعلن اخيراً أنه لن يحافظ على اية شركة مع الكنائس التي تعمد ، للمرة الثانية ، أولئك الذين سبق لهم ان اعتمدوا قبلًا . فقال إنه سوف يحرمهم من الكنيسة الكاثوليكية العالمية في حال لم يخضعوا له . و في ضوء هذا التهديد ، قرر كيريانوس ان يجمع اكبر عدد ممكن من القادة المسيحيين المتغاضفين معه في مؤتمر ، يستطيع من خلاله ان يوحد الآثارقة في معارضتهم لتلك الأوسار المتعجرفة التي يصدرها رجال روما الطموحون . و عليه ، فقد اجتمع 87 ناظراً في قرطاجة في العام 256 م . فأكيد المجتمعون في هذا المؤتمر استقلالية الكنائس الإفريقية عن كنيسة روما ، و طرحوا أزمة ادارة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، و كيف يتوجب عليها ان تمارس سلطتها . و هذا حتم الاختيار بين نظام كيريانوس ، أي الحكم بواسطة مؤشرات النظار ، و نظام القوانين البابوية الذي يطلب نظار روما . ¹¹

سارت كنائس اوروبا في ركاب استفانوس لبعض الوقت ، بينما عارضته كنائس إفريقيا والشرق الأوسط . و أخيراً ، في العام 314 م ، انعقد مؤتمر للناظار في آرل (Arles) في جنوبي فرنسا ، و قرر ما هو لصالح استفانوس ؛ و هكذا أصبح رأيه بشأن عدم إعادة المعمودية مفروضاً على الجميع . و لم يعش كيريانوس طويلاً ليرى هذا الفشل النهائي ل موقفه الذي عَسَّك به طوال حياته . ثم عادت العلاقات الودية بين كنيستي قرطاجة و روما بعد موته

استفانوس في العام 258 م . ولكن المسألة موضوع الجدل لم تنتهِ بأي حال من الأحوال ، كما سرى لاحقاً .¹²

* * * * *

و في المؤشرات ، و النظار يناقشون هذه القضايا و الأمور في قرطاجة و روما ، استمر الإخيل في انتشاره بثبات إلى المناطق الداخلية ، يحمله أشخاص أكثر تواضعاً ، و لعلهم أيضاً أكثر أهمية . وفي الواقع ، شهد القرن الثالث حركة دخول بعدد كبير من النساء و الرجال إلى ملوكوت الله . ففي ذلك الوقت ، استمع الآلاف من الناس ، في السهول و التلال الساحلية لشمال إفريقيا ، إلى الشارة ، و تجاوبيوا معها . ولربما كانت موجة الاضطراب و القلق التي كانت تعم في تلك الأيام هي التي قادت الكثيرين إلى طلب العزاء و الاطمئنان ، او حتى أيضاً المساعدة العملية من المسيحيين الذين برهنوا انهم أصدقاء مخلصون للفقراء و المحتاجين . و لربما ايضاً التجأوا إلى هذا الإيمان الجديد للالتحامء من الأرواح التي طلما عذبت أسلفهم . أو قد يكون الإخيل قد استقطب حوله جميع الذين كانوا يصبون إلى التحرر من العبودية على أنواعها . ولكن ، مهما كان السبب ، فقد بارك الرب إفريقيا الشمالية برجله جديد و بشمور بالهدف جديد ، وهكذا بدأ الشعب يتذوقون ثمار الصدق و اللطف و المحبة .

كانت كنائس جديدة تنشأ باستمرار . كذلك كان يصار إلى تشجيع أصحاب العقارات والمزارعين في الأرياف على بناء قاعات لاجتماع المؤمنين على اراضيهم ، و أن يعطوا لإعالة الخدام المسلمين و لدعهم . و مع نهاية القرن الثالث ، كان هناك عشرون مكاناً للاجتماعات في قرطاجة ، وثمانية في هيبو و عدد كبير غيرها في الأرياف .¹³ و بإمكاننا ان نتفقى فعلاً آثار انتشار المسيحية من قائمة النظار الذين كانوا يحضرون المؤشرات ، كالمؤتر الذي عُقد في قرطاجة عام 256 م . ففي تلك السنة ، تواجد مئلون عن كنائس المدن الرئيسة كلها ، امتداداً إلى الداخل حتى مسافة ثلاثة كيلومتر من قرطاجة ، بالإضافة إلى نوميديا ، المنطقة المجاورة لناحية الغرب . ويخبرنا البيان الصادر في ذلك الوقت ، أن المؤتر اشتَمل على « عدد كبير جداً من نظار مقاطعات إفريقيا البروتنقلية ، نوميديا و موريتانيا بالإضافة إلى الشيوخ والمدربين . »¹⁴

إن ما يذكره هذا المستند بشأن الزوار الواقدين من مقاطعة موريتانيا الرومانية ، يؤكّد لنا كيف ان الإخيل كان في ذلك الوقت قد امتد ، و انتشر نفوذه إلى مسافة لا يستهان بها نحو الغرب . إلا ان هوية هؤلاء المؤمنين الموريتانيين ليست واضحة كل الواضح . و بموجب البيان الصادر في ذلك الوقت ، لم يوجد بين صفوف النظار الذين شاركوا في المناقشات الرسمية اي واحد من مدينة معروفة في موريتانيا . فمن إذاً كانوا أولئك المؤمنين الذين توافدوا من الغرب بعيد ؟ أعلمهم كانوا قوماً من المشربين ارسلتهم كنائس نوميديا او إفريقيا البروتنقليه للعمل في موريتانيا ؟ او هل كانوا موريتانيين قد اهتدوا إلى المسيحية حديثاً ، و لم يكن قد اعترف بهم بعد كنظار ؟ لقد تم تقديم هذين الاقتراحين ، و لكن لا نعلم أياً منهما هو الصحيح . و هناك احتمال أيضاً ان تكون

كنائس موريتانيا قد قررت ، لسبب ما ، ان تكتفي بإرسال مراسلين ، لا ممثلين رسميين عنها . وقد يكون السبب هو عدم رضاهن على منهج كبريانوس التقطيعي ؛ او لربما انهم كانوا يعارضون ميدانياً ، إقامة مثل هذه المؤشرات لفرض أنظمة وقوانين معينة على الكنائس البعيدة . او ربما لم يكونوا يوافقون على الهدف المحدد لهذا المؤتمر بالذات . وقد يكون ايضاً ان منطقة موريتانيا كانت تحفظ بصلاتها الرسمية بكنائس اسبانيا من دون كنائس افريقيا ، في ذلك الوقت ، او حتى قد تكون موريتانيا منطقة مستقلة ادارياً ، ويحق لنظرارها ان يحضروا المؤتمر من دون ان يكون لهم الحق في المشاركة في اتخاذ قراراته .¹⁵

ومهما كان السبب وراء هذا التمثيل المتواضع والصامت ظاهرياً في هذه المناسبة ، هناك مؤشرات على أن كنائس موريتانيا لم تكن اقل نشاطاً واندفاعاً من الكنائس الموجودة في الشرق ، على الرغم من كونها اصغر منها واحدها . كانت هذه الكنائس تنمو بالسرعة نفسها التي كانت تنمو بها كنائس مقاطعات افريقيا ونوميديا . فالتقارير عن الشهداء تتحدث عن جماعات مسيحية ناشطة في تيپاسا ، و قبصية (شرشال) ، و تنجيس (طنجة) ، و ليكسوس (العرائش) في أقصى الغرب . كما ان الجماعة المسيحية في فولويليس (وليلي) في شمالي المغرب ، تأسست بشكل واضح ، حتى انها استمرت و عمرت اكثر من كنيستي قرطاجة وكوزني .

و هكذا نرى كيف ان الاختيال انتشر غرباً ، كما أنه كان يتحرك باتجاه الجنوب نحو التلال والسهول الداخلية . هذا لأن الحياة الروحية كانت في ذلك الوقت قد امتدت متخطية بكثير حدود نفوذ الامبراطورية . وقد قيل احياناً إن بداية المسيحية في إفريقيا الشمالية كانت تقتصر على الرومان او على الارستقراطية الرومنة ، وإن الأمازيغين لم يعتنقوا المسيحية إلا بعد ان أصبحوا اولاً رومانين . ان مثل هذا الكلام ليس صحيحاً على الاطلاق . ففي افريقيا ، كما في سائر مناطق حوض المتوسط ، لم تكن « رومنة » الشعوب ، ونصرتهم وتحولهم الى المسيحية ، يسيراً جنباً الى جنب دائمًا . ثمة قبائل ادعت أنها مسيحية مع أنها تقطن المناطق الداخلية بعيداً عن النفوذ الروماني . ففي القرن الخامس مثلاً ، تواجه مع ملك أوكتوستاني (Ukutameni) - و سُئِرَفَ هذه القبيلة في ما بعد « بالكتامة » من المذهب الشيعي الذي تسلط ، في ما بعد ، في داخل الجزائر ، وقد اطلق على نفسه جهاراً التسمية « خادم الله ». ¹⁶ و كان هناك الكثير غيرهم ، بعدهم و قبلهم ، أمراء مسيحيون يحكمون العشائر ، ومجتمعات واسعة اخرى من الذين اعترفوا بiamائهم المسيحي و أعلنوه جهراً . وقد عبرت هذه العشائر عن ولائها للمسيح اكثر جداً من ولائها للرومان .

فإن لم تكن المسيحية مقتصرة على التخوم الامبراطورية ، لم تكن في الوقت عينه محصورة في المدن الرومانية . هذا لأن عدداً كبيراً من المتنين واللاجئين الهاربين من اضطهاد الوثنين ، وجدوا لأنفسهم طريقاً الى مناطق داخلية مختلفة من افريقيا الشمالية ؛ و لا تزال آثار مبانיהם ومدافنهم موجودة في أماكن عديدة . و من جملتها دار لل المجتمعات في شمال تاموغادي (تيمقاد - الجزائر) حيث لا يزال هناك صخرة مدون عليها اسماء المسيحيين المحليين بالإضافة الى اسمى الناظر والمدبر . ¹⁷ لقد برهنت كل القرى التي اكتشفت أثرياً في المناطق الجنوبية لنوميديا أنها كانت قادرة على بناء كنيسة واحدة على الأقل .

لقد كانت الكنائس المدنية كوزموبوليتانية أي عالمية ؛ كان أعضاؤها من الأمازيغين المسيحيين ومن المهاجرين من كل أجزاء الإمبراطورية ، تاهيك بالمؤمنين من أصل يهودي أو فينيقي . كان المثقفون الناطقون بالإفريقية واليونانية هم ، من دون شك ، الأعضاء الأكثر تعبيراً و فصاحةً في كنائس المدن ؛ و من صنوفهم برب مسامير الكتاب واللامهرين المسيحيين في إفريقيا الشمالية . ولكنهم كانوا بالتأكيد أقلية قليلة . كما انه نادراً ما تذكر السجلات التاريخية لأي بلد اي شيء بخصوص الحياة الناشطة للأمينين بين السكان : فالراعي ، و صياد السمك ، و الفلاح البسيط لا يذوون منجزاتهم ، كما انه من السهل على المؤرخ ان يتتجاهلهم . و مع هذا ، قد تلمح هنا و هناك الشيء البسيط عن بعض المسيحيين المعمورين ، والذين غالباً ما تبقى اسماؤهم مجهرة و ذلك بواسطة ما يتوافر عندها من سجلات و نقوش . فحكليات الشهداء مثلاً ، تشمل على تجار صغار و جنود في الجيش ، و نساء كنَّ يعتنن بعائلتهنَّ ، و عمال زراعيين و عبيد ، فضلاً عن محامين ، و خطباء ، و أصحاب اسلامك و عقارات و غيرهم من مجتمع الطبقات الراقية . اما خارج المدن ، فقد كان وجود الأجانب نادراً ، لأن الفاللية العظمى كانت من المسيحيين الأمازيغين . إن الكثير من النقوش الريفية هو مكتوب بلغة لاتينية ركيكة ، و بخلاف قواعد الصرف والنحو . و من المحتمل ان يكون العضو الأكثر ثقافة في الكنيسة هو الذي كان قد اختير لهذا الواجب . و مع هذا ، فقد جاءت محاولاته ضعيفة وركيكة ؛ حيث كان معظم اخوته في الكنيسة من الأميين على الأرجح . لقد اخترق الإنجيل الى ما بعد حدود المدارس او قاعات المحاكم الرومانية ، و هكذا امست الجماعات المسيحية تضم اعضاء من شتى الصنوف والأجناس في مجتمع افريقيا الشمالية .

و مع حلول القرن الثالث للمياد ، حلت اللاتينية الى حدٍ كبير محل اليونانية ، بصفتها لغة العبادة و التعليم الروحي في افريقيا الشمالية . ولكن ، ماذا عن اولئك الذين لم يكونوا يفهون لغة من هاتين اللغتين الأجنبيةن ؟ فهل كانوا يعبدون و يعلمون باللغة الأمازيغية ؟ يظهر ان الامر كان كذلك ، فخلال تلك الحقبة من الزمن ، كانت اللغات المحلية مستخدمة في اجزاء أخرى من الإمبراطورية . اما الأمازيغية ، فنادرًا ما كانت لغة مكتوبة ، و عليه ، فإنه يوجد أدلة قليلة على استخدامها ؛ قد تفع هذه اللغة في مجال الصلاة و الوعظ ، لكن النقوش و الوثائق غالباً ما كانت تحصل باللاتينية ، وهي وحدتها الباقية حتى الآن .

هل عرض المسيحيون الألوان استعمال اللغات المحلية في عمل الله ؟ ظن بعضهم كذلك ، على الرغم من حقيقة ان يوم الخميس شهد الكرازة بالإنجيل بواسطة اكثر من عشر لغات مختلفة . لماذا ، إذًا ، ليس هناك ما يدل على أن الرسل حاولوا التكلم بلغات الشعوب الذين خدموا في وسطهم في ما بعد ؟ كان باستطاعة بولس و برنابا أن يوقرا على نفسيهما الكثيز من الارتكاك و من المخاطر في لسترة لو كان بإمكانهما مخاطبة الشعب بلغتهم الليكاؤنية .¹⁸ و لا بد من ان ذلك يعود الى المناخ الاجتماعي الخاص لعالم البحر الایض المتوسط في زمن الرسل ، ولطبيعة الخدمة التي اخلوا على عاتقهم القيام بها . لقد كانوا يتحركون بسرعة في محيط فريد في

نوعه ، حيث كانت فيه الغالية الساحقة لسكان المدن في كل العالم المعروف آنذاك ، يتكلمون اليونانية بطلاقة . لقد اقتصرت خدمة بولس و صحبه على المدن التي فيها يعرف الجميع اليونانية ؛ كما ان خدمتهم كانت تتعلق بالمدن بشكل غير مميز . و ما ان كانوا ينتهيون من تأسيس كنيسة في مدينة رئيسة معينة ، حتى يصبح من مسؤولية المؤمنين هناك ان ينقلوا الإنجيل ، ويشروه في الأرياف المجاورة . و يخبرنا اوريجانوس كيف ان كنائس المدن في القرن الثالث للميلاد كانت تبحث باستمرار و انتظام مرسلتها الى الارياف و القرى .¹⁹ و كانت الجماعات المسيحية المحلية مجاهزة بشكل افضل من الرسل انفسهم للقيام بهذا العمل ، لأن معظمهم كانوا بالطبيعة يتحدثون اللغة المحلية للمنطقة التي يعيشون فيها .

و تُظهر الرسائل التي دونها المسيحيون الأولون في اجزاء مختلفة من الامبراطورية ، خلال الفترة التي تلت زمن الرسل مباشرة ، انه بينما كانت تستعمل لغة المثقفين و المتعلمين في كنائس المدن ، كان هناك توقع واضح ان يصار الى تفسير الإنجيل لسكان الارياف في لغتهم العامة الخاصة بهم . لقد تحدث ايرينابوس من ليون (نحو 130 - 200) كيف انه لم يستخدم اللغة الكلامية اقل من اللغة اليونانية في مجال خدمته في جنوب فرنسا .²⁰ إلا أن اسبانيا تزودنا بأعظم مثال على ذلك . و في الواقع ، يظهر ان الإنجيل قد ازدهر في القرى و الارياف التي تتحدث الإسبانية ، اكثر منه في المدن التي تتحدث اللاتينية .²¹ و هذا شيء يعني ، ان الكنائس الإسبانية في بدايتها ، لم تأخذ إلا دوراً ثانوياً على المسرح العالمي ، و ذلك لأنها لم تقدم من وسطها قادة بارزين او كتابات مشهورة . و كان هذا ثمن استخدامهم لغتهم الخاصة ، ولكن هذا الثمن برهن ، على المدى البعيد ، أنه في محله ، إذ ضمن استمرار الكنائس الإسبانية حتى بعد سقوط روما . و لكن ، إن كان مسيحيو افريقيا لم يستعملوا اللغة المحلية بالقدر نفسه ، فإنهم بالتأكيد استعملوها اكثر مما ظن بعضهم و اقترح .

و في مصر ، و نحو منتصف القرن الثالث للميلاد ، بطالعنا بعض المؤمنين المعزولين من سكان المناطق الصحراوية البعيدة ، الذين كانوا قد بدأوا بترجمة الكتاب المقدس الى اللهجات العامية المختلفة للغة التي تُعرف الآن بالقبطية .²² و ترتوبيوس ، كتب من افريقيا الشمالية في تلك الحقبة عينها من الزمن ، يخبرنا عن قبائل في المقاطعة الرومانية المعروفة ببوريتانيا كانوا يعرفون الأنجيل . و هذا يشير الى انهم كانوا يتعلمون الأنجيل و يناقشون مضمونها بلغتهم المحلية حتى لو لم يكن بمقدورهم ان يقرأوها بها . و في مدينة هيبو في القرن الرابع ، اشار افسطينوس بشكل واضح الى تقدم عمل الإنجيل بلغة دعاها « اللغة اليونية » (Punique) ، الشيء من المحتمل أنها اللغة الأمازيغية .²³ و في بعض المناطق في ذلك الوقت ، يبدو انه كان من الامور المستحبة ، و ربما ايضاً من الشرط الضروري ، ان يكون قائد الكنيسة ملماً باللهجة المحكية محلياً . فاغسطينوس كتب الى كرسين (Crispin)، و هو قائد مسيحي محلي في كالاما (قالمة الحديثة) ، التي تبعد نحو سبعين كيلومتراً من هيبو نحو الداخل ، يشجعه على التجوال بين قطبيمه ليتحقق من طبيعة إيمانهم ، حتى وإن اضطر الى ان يصطحب معه مترجماً .

هناك أدلة أيضاً على أن الإنجيل قد وصل إلى أعمق المناطق الداخلية من إفريقيا الشمالية ؛ ومع ذلك ، فالحق يقال ، إن تقدمه هناك كان أبطأ ، و كذلك تأثيره أخف وطأة مما كان عليه في مصر نحو الشرق ، أو في أوروبا نحو الشمال . فلمسافرون في أوروبا طالما استفادوا من شبكات الطرقات البحرية والهيرية المتوافرة في تلك القارة . كما ان المبشرين المصريين انتفعوا أيضاً بشكل كبير جداً من سهولة التنقل في نهر النيل ، و هكذا بات بوس الشهادة المسيحية ان تبع مجراً أعمال التجارة العادلة ، عبر ما يزيد على الألفي كيلومتر من الطريق المائي . اتنا نلمس حتى في أيامنا هذه ، اي تأثير فعال كان لهؤلاء المسافرين ، و ذلك من الكيفية التي فيها لا يزال المصريون الأقباط و سكان جنوب السودان يتمسكون بسيحيتهم بعناد . ولربما تكون الترجمة المبكرة للأسفار المقدسة إلى اللغة القبطية والإبوبية هي السبب للاستمرار في استعمال هاتين اللغتين للعبادة خلال ستة عشر قرناً من السيطرة الأجنبية . فلو ان مبشرى شمال إفريقيا كانوا قد تحركوا نحو الداخل بأعداد اكبر ، ولو انهم ترجموا الكتابات المسيحية باكراً إلى اللغة الأمازيغية ، لربما كنا قد وجدنا كنيسة أمازيغية مزدهرة حتى في أيامنا هذه .

ولعل الطبيعة الوحشية الجبلية الوعرة للبلاد و المحافظة بكل أنواع الأخطار ، هي التي منعهم عن ذلك . كان يلزم أغسطنيوس ان يسافر مدة اسبوع كامل على صهوة حصانه لكي يقطع مسافة مئة و خمسين كيلومتراً من ساحل هيبو إلى الكنائس الداخلية المجاورة في سيروتا (قسطنطينة) او ملفيس (المليلة)²⁴ و لم يكن بالأمر المستهجن و غير المألوف ان يقوم قطاع الطرق بخطف المسيحيين وباحتيازهم مقابل المطالبة بفدية لإطلاق سراحهم . لم تكن طرق القوافل الآتية بالملح ، و المواد الصناعية ، و العبيد و الذهب من القصى الجنوب ، تسهل على المسيحيين امر توصيل الإنجيل إلى الداخل . وقد كانت هذه الطرق تحت سيطرة تجار أشداء و قساة القلب يستلكون عصابات وأتباعاً مسلحين . كانوا يستبدلون بشيخ القبائل ، و في بعض الأحيان يتآمرون معهم ليتقلوا البضائع و الغنائم عبر تخومهم . كان الأمر يحتاج إلى مبشر شجاع مستعد لپيورط في مثل هذه الدروب المحفوفة بالمخاطر ، و هذا يفسر عدم ذهاب الكثيرين من المبشرين إلى المناطق الداخلية . و لكن عدم ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية ، هي مسألة يصعب تفسيرها .

ملاحظات

١- إن ألمع شرارات الاختراع قد تجت من تلاقي الحضارات ، ومن صراع الأشكال المتشاربة بعضها مع بعض . وحيثما كان الخرس ، لوقت طويق ، على تحسب هذا النوع من الاحتكاك ، آل ذلك إلى ركود فكري ؛ وهذا الركود يميز دائمًا كل مجتمع يعيش فيعزلة ١ .

انها لظاهرة مألوفة يلاحظها المؤرخون انه غالباً ما يكتنرا رد اعظم الاختراعات (كالايجادية مثلًا) الى المناطق الحدودية بين ثقافة وثقافة أخرى ؛ وبخاصة الى المناطق الحدودية بين الشرق والغرب .

(Parkinson pp. 7 - 8 , 94)

Eusebius *Historia Ecclesia II*, 16:1 -2

- أعمال 18:14 - 26

- متى 19:16

- متى 18:18

De Pudicita 21 -6

Walker *TCOSC* -7

- غلطبة 14 - 11:2

- 9 . الشيطان هو صاحب اللقب « الخير الأعظم » في كتابات ترقوبيانوس (مثلًا) :
De Pudicita 1 . اذا ، لا بدّ من أنه كان لأمر ساخر في نظره أن يقوم ناظر روما بإطلاق هذا اللقب على نفسه .

- افسس 5 - 3:5

١١- لم يكن المؤمنانيون طبعًا يقبلون بأن تكون هناك سلطة كنسية من هذا النوع . فواضح من العهد الجديد ان الرسل انفسهم لم يكن لديهم أية سلطة تأدية رسمية على الكنيس . كانوا يواجهون صعوبات مستمرة مع المعلمين الذين أرادوا أن يفرضوا عادات يهودية ومع أولئك الذين يراغون ميلًا غnostistic ، يشكلون تجربة مستمرة لهؤلاء الرسل . لأننا لا نقرأ فقط في أي وقت من الأوقات عن رسول ما يُصدر قراراً الحرمان بحق كنيسة قامت بدعم هؤلاء الرجال أو تبنّت آراءهم . فالرسل عندما يكتبون الى الكنيس ، يفعلون ذلك لأجل مناشدتها ووعظها وتأذيرها . إلا انهم لم يكونوا يلزمونها فقط بالحضور ، ولا حتى يعاقبونها على عدم حجاوتها مع النصيحة المسداة إليها .

السلطة في العهد الجديد ، تكمن بالكلية بين أيدي الشيوخ في كل كنيسة محلية ، وعليهم وحدهم تقع مسؤولية تأديب أعضاء كنيستهم . فالرسول بولس مثلًا ، ينصح كنيسة كورنثوس بأن تؤدب المضط الضال فيها ، لكنه لا يقوم بنفسه بمعاقبة هذا المضط (١ كورنثوس 2:5 - 5) .

وفي الواقع ، إن مجموعة الرسل والمشائخ الذين اجتمعوا في أورشليم لبحث مسألة قبول الأمم (اعمال 15) ، لم يكن في حوزتهم أي أسلوب عملي لفرض فراهم . لكنهم اكتفوا بالاعتماد على قوة الإقناع النطيف البني على مبادئ كنائية سليبة ، والعزز بصلاة صادقة حتى يقوم الروح القدس بإرشاد القادة المحليين ليتدبروا انفسهم لاعتناق الحق عن طيب خاطر ، وهكذا يوجّهون كنائسهم على أساسه .

- 12 - رابع الفصل 28

Hamman p. 289 - 13

Septième Concile de Carthage, ANF Tome V p. 565 -14

15- 181 . Février Tome I p . 178 . يعتبر الترجم في *ANF* أن أربعة من النظار الذين حضروا مؤتمر 256 م كانوا في الحقيقة من موريتانيا تيبريانيس . قد يصبح هذا الاحتمال ، لكن يبقى من الصعب جداً تحديد المدن التي جاءوا منها . إن مدن موريتانيا الرئيسة (سيبيتيانس ، تيبريانس ، قصبة ، تنجيس ، و فولوبيليس) ، غير مذكورة قط في الوثيقة المعاصرة حول هذا المؤتمر ، في وقت يتوقع أحدنا حضور نظرار من هذه المراكز ، إنَّ كان الموريتانيون مذكرون رسميًا فيه .

Camps p. 175 -16

17- 184 ; Raven p. 179 . Février Tome I p. 179 . يلزم إجراء المزيد من الأبحاث حول هذه البقايا . تشير بعض الأدلة إلى أنه كان هناك في فترة قبل الإسلام ، مسيحيون في عمق البلاد الداخلية ، وذلك أكثر جدًا مما يُظن على العموم . وفي أماكن عدة ، من المسافرون الأوروبيون الأثوقيون بانتقاض أبيته يعود تاريخها بكل وضوح إلى ما قبل حقبة الاستعمار ، والتي يذكر السكان المحليون بأنها كانت تخص « المسيحيين » . ولهذه البقايا المسيحية وجود في المناطق الجنوبية البعيدة كوادي سوس وفكيك في المغرب .

راجع مثلاً :

Montagne *Un Magasin Collectif*, Hesperis, 1929 (fig. 22);

Doutté *En Tribu*, Paris , Paul Geuthner, 1914 (fig. 56, p. 260);

Campbell *With the Bible in North Africa*, Kilmarnock, 1944 (pp. 27, 105 - 106);

Meakin (pp. 309 - 311).

لا يمكن اعتبار هذه الشهادة نهائية وقاطعة ، إلا أنها مبشرة للاهتمام في الوقت عينه .

18- اعمال 14:8-20

Schaff *HOTCC Vol. II* p. 21 -19

Neill p. 34 -20

Latourette Vol. I pp. 96-97-21

Neill p. 36 -22

23- في الماضي ، لقد ارتليك كثيرون من الناس بالكلمة « بونية » التي استعملها اغسطينوس للإشارة إلى اللغة المحكية في الأرياف ... و على مدى الأزمنة التاريخية جميعها ، كانت اللغة الأم للشعوب سهول نوميديا هي الليبية (أي الأمازيغية) ، لا السامية (أي الپونية) أو اللاتينية ... وإذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة كون الأمازيغية المدنية محظوظة على عدد الكلمات المستعارة من اللاتينية مع خلوها تمامًا من آية لفظات من أصل بوني ، يلزم القبول بأن القرى التي تعامل معها اغسطينوس كانت تتكلم الليبية . وبما أن الليبية كانت لغة " لا يمكن لفظها " في نظر الرومان ، بات من السهل ضم اللهجات المحلية جميعها تحت التسمية " الپونية " .

* مما لا يرقى إليه الشك الآن أن اللغة التي تحدث بها سكان نوميديا القدماء ، كما أيضًا في المناطق الجبلية للمقاطعة البروتوصلية ... كانت الليبية ، وليس الپونية . (Freud pp. 57 - 58, 335)

* كان اغسطينوس يطلق ، بشكل عفو ، هذه العبارة العامة التقليدية ، (أي الپونية) ، على آية لغة محكية ، غير اللاتينية ، في شمال إفريقيا . (Brown p. 22)

Brown p. 193 -24

الفصل السابع عشر

اشتهر الشهداء

لقد تغيرت السلطات الرومانية حال موقف المسيحيين الثابت والعنيد امام الاضطهاد . وحتى تلك الساعة ، لم يعمل السيف إلا على تزويدهم بنبر شعبي عام لنشر الاخبار ، ويقائمة مت坦مية كُتب عليها اسماء ابطالهم و صناديدهم الذين كانت كلماتهم وأعمالهم مصادر للإلهام وللسورر التام . و إذ لاحظت هذه السلطات كيف ان التأثير الذي كان يخلفه وراءهم أولئك الذين استشهدوا بات عظيماً بل اعظم من تأثير أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ، راحت تبذل قصارى جهودها لقمع أعمال تكريم الشهداء . ان الوالي الذي حكم على كيريانوس بالموت هو نفسه الذي كان قد منع المسيحيين من زيارة قبور أولئك الذين سقطوا بسبب ايمانهم . و لكن ، مثل هذا الحظر كان مصيره الفشل : فقد استمر المؤمنون في زيارة مثوى احبائهم ، حيث كانوا يعقدون هناك اجتماعات عبادة بشكل علني .

كانت اسماء الشهداء تحفظ في « كتاب ذكريات » كل كنيسة ، كما ان الوعاظ والمعلمين غالباً ما كانوا يستشهدون بالنصوص المكتوبة عن كلماتهم وعن اعمالهم . كذلك كان يحتفل سنوياً بذكرى موتهم ، و ذلك بقراءة عامة للنص المتعلق بأيامهم الأخيرة . كتب كيريانوس من مفاه ، في أوج اضطهاد عارم حصل في منتصف القرن الثالث ، يشجع كل كنيسة على تسجيل تواريخ مصر شهادتها بالإضافة الى موقع قبورهم ، حتى يتسمى الاحتفال بذكرى وفاتهم السنوية بالشكل اللائق والمناسب .

لقد رغب الرجال والنساء الموجودون في السجن ، في ان تكون شهاداتهم مصدر قوة وتشجيع دائم للجماعة المسيحية . و هكذا عاشوا ايامهم الأخيرة و هم يعون تماماً انه سيصار بكل محبة الى تدوين ادق التفاصيل حولها ، و ذلك لمنفعة الأجيال اللاحقة . و على هذا الأساس عينه ، شعر ايضاً أصدقاء أولئك الذين عانوا الأمرين انه من واجبهم ان يكتبوا وقائع هذه الأحداث . و هكذا تجد كيف راجح الذي دون قصة ماريانوس و ياكوبوس ، ينقل الى قراءه شعوره قائلاً إن « شهود الله الشرفاء جداً قد اشتروني على مهمة نشر اخبار مجدهم : انا اقصد ماريانوس ، احد احب الاخوة على قلوبنا ، و ياكوبوس . » و وأضاف قائلاً : « فهم سألوني ان احيط اخواتنا علمًا بأخبار صراعهم . »¹

راح عدد الشهداء يزد مع تعاقب اجيال اولئك الذين كانوا مستعدين ان يدفعوا الثمن ، حتى بات كل يوم من ايام السنة هو تذكار لواحد من هؤلاء الشهداء او ربما اكثر . و هكذا أصبحت قراءة اللائحة اليومية بالاسماء و بالقصص المتعلقة بها ، امراً يستغرق وقتاً طويلاً . كذلك ظهرت محاولات لاختصار قصص اولئك الشهداء الذين قضوا منذ فترة طويلة و في اماكن بعيدة ، ولإضافة تعليقات عن الدروس والعبر الرئيسة التي يجدر تعلمها من هذه الأحداث . وقد ادى احياناً عمل اختصار الواقع هذا ، مع اعادة تحرير النصوص ، الى ظهور عدة نسخ متنوعة تتعلق بالشهيد نفسه كانت تُستعمل في كنائس مختلفة . كانت المراجع الأصلية والآقدم ، هي عادة الاكثر هدوءاً و رزانة . فالحقائق البسيطة كانت ، في جميع الأحوال ، ذات طابع مؤثر ، تعجز عن البلوغ إليه اية محاولة لصياغة الأحداث من جديد بشكل دراميكي . لم تكن هناك ضرورة لإبراز جمالها ، لأنها جاءت في متهى الجمال والروعة .

إن ما وصل إلينا من نصوص للأحداث يتميز ببساطته المؤثرة و يخلصه الواضح . و لهذه القصص طابع الصدق ، و هي تحمل سمة الأحداث التي وقعت فعلاً . لقد اظهر المشركون فيها انهم بشر حقيقيون فعلاً . كانوا مثلنا فريسة للمخاوف ، كما انهم كانوا يحتاجون احياناً الى من يطمئنهم ويشجعهم . و في الواقع ، كلّما قرأتنا عن هؤلاء الشباب و الشابات ، تجد انفسنا و قد اخذلنا اليهم ، لأن ايمانهم لا يختلف عن ايماننا . و هكذا ، إذ تُسيّب بمحبّتهم بعضهم البعض وللمخلص ، تشعر بأن فارق الألفي سنة الذي يفصلنا عنهم ، قد زال من الوجود . فنحن نشاركونهم رجاءهم الأكيد بالحياة الأبدية ، و قد نتمتّ ان نقف معهم على المنصة العامة ، لكي ننظر الى ما بعد تجارب هذا العالم الزائل ، الى سعادة الشركة في عالم الخلود . و ذات يوم ، وبكل تأكيد ، سوف نلتقيهم هناك ، و نعرفهم كأناس و ليس ك مجردة أسماء .

كانوا سعداء و فرحين بظروفهم تلك . فالمبادرة أتت منهم ، و لم يحسوا قط أنهم كانوا مظلومين او أشقياء . كان باستطاعتهم في معظم الأحوال ان يحافظوا على حياتهم ، لو انهم رضوا فقط بأن يلعنوا المسيح ، و بأن يقربوا التقدمات المطلوبة . و لكن هذا ما لم يكونوا مستعدين ليعلمه . لقد علموا علم اليقين القرار الواجب اتخاذه ، و لم يكن هناك اية معارضة من جانبهم : اختاروا ان يضعوا حياتهم الأرضية لأجل ما يؤمّنون بأنه الحق . ربما تجد في ايماناً الحاضرة انه من الصعب علينا ان نفهم كل هذا التكريس ، و قد يدلّ هذا على ضعف شخصياتنا الروحية و ايماننا أكثر مما يدل على أي نقص فيهم .

و لكن ، كان الشرف المتزايد لحساب الشهداء يصلح في بعض الأماكن درجات قصوى . فقد أصبحت آثارهم المقدسة ، من ملابس و عظام و كتب و سواها ، محطة توقير خرافي ، و حتى عبادة . ففي وقت تفتيذ حكم الإعدام بكريانوس ، جاءوا المتاديل و الشاب ، و جعلوها حوله عندما رفع متظراً متى يهوي السيف على عنقه ، و ذلك لتلقّي كل قطرة من دمائه ، بغية الاحتفاظ بها . وكان هذا الأمر غارسة مألوفة . كان الناس يأتون من اماكن بعيدة ، قاصدين مزارات الشهداء ،

حيث تحفظ آثارهم المقدسة . كانوا يُقبلون لأجل الصلاة و طلباً للإرشاد الإلهي ، يساعدهم على ذلك ما يحتويه المكان من روابط مقدسة ، بالإضافة إلى مثال الشهيد و قدوته . كذلك كان من المؤلوف أن يطلب المسيحيون دفتهم على مقربة من مشي الشهيد ، و ذلك لكي يتمنى لهم أن يقوموا معه في قيمة الأموات في اليوم الأخير .

و قد نتبين من توقير آثار الشهيد هذا ، بقياساً تأثيرات قديمة و رواسب من مذهب حبوبية المادة – العبادة القديمة للأشجار المقدسة و للحجارة السحرية ، و لكن الآن بزني مسيحي – على الرغم من أن المؤمنين انفسهم لم يروا هذه الأمور فقط بمثل هذا المنظار . كما ان قادة الكنيسة كثيراً ما تكلموا ضد هذه التزارات الوثنية ؛ فتكلّم من كيريانوس نفسه و ترتوبيانوس ، و تخا المسيحيين على مثل هذه الممارسات الخرافية ، كما حذراهم من مغبة الانكال على استحقاقات الشهداء عوضاً عن الانكال على كفارة المسيح و على فدائه . كذلك كان على اغسططينوس ان يذكر بعض سامعيه بأن الاجتماعات العقودة عند مقابر الشهداء ، لا يقصد منها عبادة الشهداء بل عبادة الله . و مع ذلك ، فيمكنتنا ان ندرك الشعور الذي كان سائداً في بعض أوساط الجماعة المسيحية . ان ما حققه الشهداء من انتصار واثق على قوى الظلم و الموت قد ضرب ، و لا شك ، على وتر خفي في قلوب اولئك الذين ناضل اسلامهم يأس ضد هذه القوى الغاشمة .

و قد نشعر بأن المسيحيين منحوا شهداءهم شرفاً عظيماً وافراً . لكن هذا بعيد كل البعد عنما شهدته بعض المذاهب الشرقية التي تغير أتباعها بالتعصب المطلق و المتهور الذي كان يجعلهم في نوبة لدى معاينة مشهد الدم السائل من جروح يحدوثها بأنفسهم في أجسادهم . لا توجد آية اشارة إلى مثل هذا في قصص الشهداء المسيحيين . لقد ساروا بملء اختيارهم ، و بهدوء ، نحو موتهما يرجّبون به . لقد سلكوا هذا الطريق بكل بروزانية و رباطة جأش . و كل هذا كان ينمّ عندهم عن محنة حكيمة و صادقة من نحو الله و الإنسان ، حتى النهاية . لقد كانت كلماتهم الأخيرة توجيهات يقدّمونها لأخواتهم لا لعنات ضد قضاهم .

و ماذا بشأن الجموع الذين سمعوهم و رأوهم في الساحات العامة و في ميادين الإعدام ؟ إذ نقرأ قصص الشهداء ، قد نندهش من حقيقة ان حشود الوثنين كانوا في نهاية القرن الثالث يُقبلون لمشاهدة المسيحيين ، و ذلك بدافع الفضول و حب الاستطلاع ، لا بدافع الغضب . لقد انتهى الزمان الذي كان فيه اتباع المسيح هدفاً للامتحانات المتقدة ، و ضحية للشائعات المغرضة . ربما بدأ الناس الآن يشفقون عليهم ، لكنهم كانوا أيضاً يحترمونهم . لقد تمكنوا بفضل إيمانهم الثابت ، و بهجتهم القلبية ، من رفع الكثرين إلى جانب قضيتهم . و هكذا استمرت هذه الشمار إلى ما بعد مخاض الموت النهائي لوثنية محكوم عليها بالهلاك .

* * * * *

كانت آخر محنة كبيرة عانتها الكنائس ، هي تلك التي ارتبطت باسم الامبراطور ديوكتليانوس (Dioclétien) . نشأ هذا الامبراطور من أصل متواضع ، و كان والداه عبيداً في

خدمة أحد الشيوخ الرومان . باينته الفرق العسكرية امبراطوراً في اليوم عينه الذي غمد فيه سيفه في جسم أمير الجيش ، بعد ان اعتبره ، و من دون تحقيق او محاكمة ، أنه هو الذي قتل أمير الجندي السابق . و يشهد ترفيعه الاستثنائي هذا لدى قساوته ، كما يشهد لقدراته الشخصية . و سرعان ما انكبَ ديوقلطيانوس على ترسیخ السلطة الرومانية ، و على إصلاح الأمور الإدارية في الامبراطورية .

انها من المتناقضات الغريبة حقاً ان يكون التصر الامبراطوري ، في عصر ديوقلطيانوس ، كما في فترات سابقة اخرى ، هو نفسه ، في الواقع ، حصنًا للمسيحية.² هذا لأنَّ كلَّا من زوجة ديوقلطيانوس بريسكا (Prisca) ، و ابنته فاليريا (Valéria) ، قد عرَّفتا بِإيمانهما باليسوع ، كما كان ايضاً حال اثنين من افضل مستشاريه نفوذاً في البلات . كان الشعب قد نعم ببعض الحرية الدينية على مدى عدة سنوات قبل ان تبوأ ديوقلطيانوس العرش ، كما ان سياسة التساهل الديني هذه استمررت لثمانية عشرة سنة اخرى بعد تسلُّم هذا الامبراطور السلطة . كانت ترد بين الفينة والأخرى أخبار عن قضايا افرادية تتعلق بمعاملات سيئة و ظالمه على ايدي بعض الإداريين والسلطين ، غير انه لم يكن هناك ضيق عام على الكنائس خلال هذه الفترة . و في الواقع ، كان هناك شعور سائد بأنَّ قوانين التساهل الديني التي كان قد اقرَّها بعض الاباطرة الخديفي العهد - وبشكل رئيس الامبراطور غاليليوس (Gallienus) الذي كان في العام 261 م قد سمح للكنائس باقتناص املاك خاصة - جعلت المسيحية تُعتبر من الأديان المواقف عليها رسمياً في الامبراطورية .

كانت كنائس إفريقيا الشمالية مزدهرة على مدى فترة الأربعين سنة الفائنة . فبنيوا قاعات و موقع لل الاجتماعات في المدن . كما ان عدداً كبيراً من الناس انضموا إلى الإيمان ، وهكذا برزت إلى الوجود مجموعات مسيحية جديدة في أماكن لم يكونوا يتواجدون فيها من قبل . ولكن في حالات كثيرة ، كان هذا النمو ، كما سيظهر لاحقاً ، كشجرة بأوراق ولكن من دون ثمار . لقد كانت حشود الذين دخلوا الكنائس يتمتعون بالحياة ، و يقربون الشكر و الامتنان على ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون حتى ذلك التاريخ ، الا الشيء القليل عن تحديات الإيمان أو صراعاته ؛ لم يكن ايمانهم قد وضع على المحك بعد . وبالنسبة إلى الجيل الأقدم ، لم تعد محن الماضي سوى مجرد حنين إلى ذكريات ذهبية . لقد ازدادوا رخاؤه ، كما ان همتهم الروحية بردت بفعل حياة الترفه والكسل ، حتى انهم لم يعودوا مستعدين إطلاقاً لخوض المعارك الروحية العنيفة .

فالامبراطور ديوقلطيانوس ، و بالرغم عن نفسه ، اقتنع اخيراً بأراء الفلسفه الوثنين الذين كانوا يرتدون بلاطه ، و هكذا قرر اتخاذ خطوات من شأنها ان تکبح غو الكنيسة العظيم . لقد جاء مرسومه الأول الذي اصدره في العام 303 م كإعادة تبييت لقرار فاليريان الذي كان قد اتخذه في العام 258 م ، غير انه حذف منه ما يتعلق بعقوبة الإعدام ، و بالعقوبات المتعلقة بالنساء المسيحيات من الطبقة الأرستقراطية في المجتمع . و بالرغم من كل هذا ، فقد جاء هذا التشريع الجديد شاملاً و صارماً : كان من الضروري هجر بنيات الكنائس و التخلُّ عنها . كذلك

امر بحرق المطبوعات المسيحية كلها ، وان يصار الى تحرير المسيحيين من املاكهم و منازلهم . لقد اصبح محظوراً عليهم ان يجتمعوا . و اخيراً كان جميع الرجال الاحرار الذين اعترفوا بالإيمان يُحظر من قدرهم ، ليصبحوا في مرتبة العبيد الذين لا يتمتعون بأية حقوق قانونية او مدنية .

عم الاضطراب شمال افريقيا بعد هذا الإعلان الامپاطوري . و عليه ، فالذين ادعوا قبلًا بأنهم مسيحيون ، أعلنا انهم ليسوا مسيحيين . إلا أن آخرين ، بالمقابل ، اكتشفوا في قرارة نفوسهم شيئاً من النشاط الروحي والجرأة المقدسة ؛ فكان هذا الشعور جديداً تماماً عليهم . هذا لأن اعترافهم العلني الأول الذي جاء خجولاً إلى حد ما ، عاد فأحيا فيهم ايمانهم الذي كان يقع في كسل بليد حتى ذلك الوقت ، كما انه اوحى اليهم بعزم جديد للوقوف مع المسيح ومع شعبه . وبالطبع ، فإن محاولاتهم الخجولة الأولى لإعلان هويتهم على حقيقتها ، غالباً ما كانت تبعث فيهم الطمأنينة و تمنحهم فرحة ، الأمر الذي شجّعهم على الاستمرار في المجاهرة بال المسيح في كلّ مناسبة ، في داخل جدران السجن ، او خارجها .

و في أبيتيما (شاوود) وحدها ، و هي مدينة صغيرة تقع بالقرب من قرطاجة ، ألقى القبض على تسعه وأربعين شخصاً : ثلاثة رجال و تسعة امرأة ، اعترفوا بعقد اجتماعات مسيحية كانت محظورة عليهم . و بعد إحضارهم الى قرطاجة ، استمرا يجتمعون في السجن نفسه ، يعبدون ويصلون و يتلون ما تيسر من فقرات من الكتاب المقدس كانوا قد حفظوها غيّاً . كان معظم هؤلاء الرجال من الطبقات السفلية في المجتمع ، من الصناع والحرفيين ، على الرغم من ان واحداً منهم كان عضواً في المجلس البلدي .

و قبل توقيفهم ، كانوا قد درجوا على الاجتماع لقراءة الكتاب المقدس في بيت احدهم و يدعى إميريوس (Emeritus) . فتمّ احضار هذا الرجل لأجل استجوابه ، فسألته القاضي : «لماذا سمحت لهؤلاء القوم بأن يدخلوا بيتك؟» فاجابه إميريوس : «لأنهم اخوتي وأخواتي ، ولم أتمكن بالتأني من منعهم من الدخول الى داري .» «لكن ،» خاطبه القاضي بياصرار ، «كان يتوجب عليك ان تمنعهم .» فردّ عليه إميريوس : «بالطبع لا ، إذ لستنا صاحبين ما دمنا لا نعلم ربّ معنا .» فأجابه القاضي : «ان أوامر الاباطرة والقياصرة هي التي يجب ان تأتي في المرتبة الاولى .» عند ذلك قال له إميريوس : «الله هو اعظم من الامپاطور .» و عندما عاد القاضي و سأله : «هل لديك اي كتابات مسيحية في دارك؟» اجابه إميريوس : «انها في داخل قلبي .» ثم تخبرنا هذه الرواية كيف ان القاضي ، بعد ان شعر بأنه لم يحرز اي تقدم ، امر بإعادة المجموعة المسيحية الى السجن من جديد ، حيث استُقروا هناك لفترة طويلة من الزمن .

في المراحل الأولى من الأزمة ، حاول المدعو فندانوس (Fundanus) ، و هو ناظر كنيسة أبيتيما ، ان يتوصّل الى تفاهم مع السلطات ، إذ سلمهم الكتاب المقدس الخاص بكنيسة أبيتيما ، مبيّنا بذلك ، ولو ظاهرياً على الأقلّ اذعانه للقانون . إلا انه ، وعلى اثر عملية احتجاز مسيحيي مدينة

أبيتنا في قرطاجة ، سعى مُنْصُوريُوس (Mensurius) ، و هو ناظر كنيسة قرطاجة ، و بمساعدة معاونه كايكيليان (Caecilian) ، إلى نزع القتيل اذ حاولا ان يثبتا الحشود الغفيرة عن التجمهـر حول السجن . وهكذا راح الشق ينسـع اكـثر فـاـكـثـر بين المؤمنين المـحـسـبـين من الأفارقة ، و نـظـارـهـمـ الـحـفـظـيـنـ وـ الـحـذـرـيـنـ . و سـرعـانـ ماـ أـدـىـ هـذـاـ ، كـماـ سـرـىـ لـاحـقـاـ ، إـلـىـ ظـهـورـ أـكـبـرـ جـدـلـ وـاجـهـتـهـ كـنـائـسـ إـفـرـيقـيـاـ الشـمـالـيـةـ .

لقد صدرت الأوامر الى منصوريوس نفسه ، و هو الناظر الثالث في كنيسة قرطاجة بعد كبريانوس ، لتسلیم ما في حوزته من نسخ الكتاب المقدس المكتوبة باليد الى السلطات الرومانية ، ليصار الى حرقها و إتلافها . لكنه اخفى هذه النسخ بجرأة جديرة بالثناء و الإطراء ، و سلم السلطات بعض الكتب الهرطوقية عوضاً عنها . و لكن الآخرين كانوا أقل منه فطنة او جرأة . وفي حوزتنا التقرير الرسمي عمـاـ حدـثـ فيـ كـنـيـسـةـ سـيـرـتاـ (ـقـسـطـنـطـيـنــ -ـجـزـائـرـ)ـ ،ـ وـ ذـلـكـ اـسـتـادـاـ الىـ السـجـلـاتـ الشـرـعـيـةـ لـلـسـلـطـاتـ الرـوـمـانـيـةـ .ـ فـقـدـ أـقـبـلـ الـحـاـكـمـ الـمـحـلـيـ فـجـأـةـ ،ـ وـ بـرـفـقـتـهـ بـعـضـ الـرـجـالـ ،ـ إـلـىـ «ـالـبـيـتـ الـذـيـ كـانـ يـجـتـمـعـ فـيـ الـمـسـيـحـيـوـنـ»ـ .ـ فـالـقـيـ هـنـاكـ بـالـنـاظـرـ بـولـسـ ،ـ وـ مـعـهـ قـادـةـ الـكـنـيـسـةـ جـمـيعـهـمـ تـقـرـيـباـ .ـ وـ بـمـوجـبـ ماـ يـنـصـ عـلـيـ الرـسـوـمـ الـإـسـبـاطـوـرـيـ وـ الـتـعـلـيمـاتـ الـتـيـ أـعـطـيـتـ لـهـ ،ـ أـمـ الـحـاـكـمـ الـمـسـيـحـيـوـنـ بـتـسـلـیـمـ كـلـ الـكـتـبـ الـمـقـدـسـةـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ سـائـرـ الـأـشـيـاءـ الـدـينـيـةـ .ـ وـ مـنـ هـوـلـ المـفـاجـأـةـ ،ـ صـمـتـ الـجـمـيعـ إـذـ لـمـ يـعـرـفـواـ مـاـذـاـ يـقـولـونـ ؛ـ كـمـاـ اـنـ أـحـدـاـ مـنـهـمـ لـمـ يـظـهـرـ أـيـةـ مـعـارـضـةـ .ـ أـمـاـ النـاظـرـ بـولـسـ ،ـ فـأـعـلـمـ الـمـسـؤـولـ ،ـ وـ بـيـرـوـدـةـ أـعـصـابـ ،ـ أـنـ الـكـتـبـ كـانـتـ فـيـ حـوـزـةـ قـرـاءـ الـكـنـيـسـةـ .ـ ثـمـ جـلـسـ بـعـدـ ذـلـكـ لـاـ يـنـبـسـ بـيـنـتـ شـفـةـ ،ـ فـيـمـاـ رـاحـ الـمـسـؤـولـوـنـ يـفـشـلـونـ غـرـفةـ الـاـجـتـمـاعـ ،ـ وـ الـمـخـازـنـ ،ـ وـ الـمـكـبـةـ ،ـ وـ الـحـجـرـةـ الـتـيـ يـتـنـاـولـ فـيـهـاـ الـمـؤـمـنـوـنـ وـ جـبـةـ طـعـامـهـمـ الـمـشـرـكـةـ ،ـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ سـائـرـ اـرـجـاءـ الـمـبـنـيـ .ـ ثـمـ قـامـوـاـ بـإـعـدـادـ قـائـمـةـ بـالـمـوـادـ الـتـيـ ضـبـطـتـ ،ـ وـ لـمـ يـحـدـثـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ عـدـاـ ذـلـكـ .ـ كـانـ اـكـتـشـافـ بـعـضـ الـمـوـادـ الـمـخـفـيـ يـحـدـثـ بـعـضـ الـضـجـجـةـ ؛ـ فـالـحـاـكـمـ الـرـوـمـانـيـ كـانـ يـفـتـ بـتـهـدـيـاتـهـ الـرـهـيـةـ وـ الـمـرـعـبـهـ ضـدـ أيـ فـردـ يـخـفـيـ أيـ شـيـءـ عـنـ السـلـطـاتـ .ـ وـ عـلـىـ اـثـرـ ذـلـكـ ،ـ رـاحـ عـدـدـ مـنـ الـمـسـيـحـيـوـنـ يـنـطـلـقـونـ بـسـرـعـةـ هـنـاكـ ،ـ وـ هـمـ يـأـتـونـ بـالـكـتـبـ اـمـ الـحـاـكـمـ ،ـ لـعـلـهـمـ كـانـواـ يـأـمـلـوـنـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ مـلـقـهـ وـ كـسـبـ رـضـاهـ .ـ وـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ ،ـ وـقـفـ اـثـنـانـ مـنـ الـمـدـبـرـيـنـ بـخـجلـ ،ـ مـنـتـضـيـنـ عـلـىـ هـذـاـ الشـكـلـ مـنـ الـاسـتـسـلـامـ الـمـذـلـلـ ؛ـ وـ رـفـضـاـ أـنـ يـجـيـبـاـ عـنـ الـأـسـلـةـ الـتـيـ وـجـهـتـ إـلـيـهـمـاـ .ـ وـلـلـحـالـ تـمـ تـكـبـلـهـمـاـ بـالـقـيـودـ .ـ ثـمـ غـادـ الـحـاـكـمـ الـمـكـانـ وـ تـوـجـهـ فـيـ جـوـلـةـ عـلـىـ بـيـوـتـ الـقـرـاءـ الـمـرـتـبـيـنـ بـالـكـنـيـسـةـ .ـ وـ فـيـ كـلـ مـكـانـ كـانـ يـتـمـ تـسـلـیـمـ الـكـتـبـ وـ الـأـورـاقـ .ـ وـ إـنـ لـمـ يـكـنـ الـرـزـوـقـ مـوـجـوـدـاـ فـيـ الدـارـ ،ـ كـانـ زـوـجـهـ الـمـرـتـبـيـةـ تـفـشـلـ الـبـيـتـ عـلـىـ عـجـلـ ،ـ وـ تـسـلـیـمـ كـلـ مـاـ تـقـعـ عـلـيـهـ يـداـهـاـ مـنـ اـورـاقـ وـ كـتـبـ إـلـىـ الـحـاـكـمـ .ـ

بـهـذـهـ الطـرـيـقـ تـخـتـمـ الـوـثـيقـةـ الـشـرـعـيـةـ .ـ فـالـنـصـ طـبـعـاـ ،ـ كـانـ قـدـ كـتـبـ يـأـيـعـازـ مـنـ اـولـثـكـ الـذـينـ كـانـواـ يـحـقـرـونـ الـمـسـيـحـيـوـنـ وـ يـحـطـوـنـ مـنـ قـدـرـهـمـ .ـ لـمـ يـكـنـ يـقـصـدـ اـظـهـارـهـمـ بـظـهـرـ لـاقـ .ـ لـكـنـ قـيـمةـ هـذـهـ الـوـثـيقـةـ تـضـاعـفـتـ لـهـذـاـ السـبـبـ عـيـنهـ ،ـ بـعـثـيـتـ أـنـ يـلـقـيـ الـأـصـوـاءـ عـلـىـ الـوـجـهـ الـأـكـرـ لـلـحـقـيقـةـ ،ـ هـذـاـ

الوجه الذي يختلف عن الذي طالما ظهر بوضوح في القصص البطولية عن الشهداء . اتنا نرى في هذا المستند البارد بعض الأطيف لأمور قلما يؤتى على ذكرها في خلفيات النصوص التي تعنى أكثر بالبطولات . يكشف لنا هذا التقرير الشرعي عن الإذعان الضعيف الواهن عند أولئك القادة الشاثقين في كنيسة سيرتا . ولربما كان عددهم كبيراً . ولكن ، بعد مرور عدة أشهر ، تجد أناساً مثل هؤلاء وقد اصطحبوا بإيمان متجدد ، و امتلاقاً حماسة ، حتى انه أصبح يوسعهم ، و بملء ارادتهم ، ان ينضموا طوعاً إلى صفوف الشهداء . تلك كانت الطبيعة المعجزية للمسيحية في إفريقيا الشمالية : فالخشب كان يظهر في بعض الأوقات أنه جاف جداً ، لكنه لم يكن يحتاج في الواقع إلى شرارة صغيرة لإضرامه و جعله يلتهب بقوة .⁴

و بعد هذا بوقت قليل ، شبّ حريق حقيقي في قصر ديوقلطيانوس في مدينة نيكوميديا (شمال غربي تركيا) . و على اثر ذلك ، تم تعذيب عبيد بيته في محاولة لعرفة هوية الفاعلة . ولم تمض إلا بضعة أيام ، حتى شبّ حريق آخر . فتسبب هذه المرة في الاصابة الشديدة إلى المسيحيين المقيمين داخل القصر . فأرغمت كلّ من زوجة الامبراطور و ابنته على تقرب التقدمات للآلهة الوثنية ، كما أعدم مستشاراه المسيحيان مع ناظر كنيسة نيكوميديا أيضاً . لذلك اجتمع المسيحيون معتبرين انهم ابراء . إلا انه حدث ان هذين الحرفيين تزاماً مع تبني المملكة الأرمنية المسيحية ، و اختيارها لها كدينه الرسمي ، و هي التي تقع عند الحدود الشرقية للامبراطورية . كذلك وقعت ثورات داخل الاجزاء الرومانية المتأخرة و المحاذية للمناطق الخاضعة للدولة الأرمنية . و هذا ما دفعه إلى إصدار مرسومه الثاني ، بأمر فيه بـالقاء القبض على القادة المسيحيين جميعهم .

كان دكبيوس ، قبل نحو اربعين سنة ، قد حاول ان يسحق الكنيسة ، و ذلك بارهاب المسيحيين لحملهم على تركها . إلا ان اسلوب ديوقلطيانوس جاء مختلفاً : لقد خطط لتدمير الكنيسة من طريق محق قيادتها و أدبياتها . كانت محاولة دكبيوس استئصال المسيحية بالقوة من الامبراطورية ، غير مجده بشكل واضح ، اما خلفه ، فكان يأمل بأنه بإمكانه ، على الأقل ، ان يسبب في تداعي ادارتها و نظامها . و ربما ، اذ تجرد الخراف من رعاتها ، تيه عن الكنيسة طوعاً و من دون إكراه . و هكذا استمر الاختطهاد شهراً مشؤوماً تلو الآخر خلال العام 303 م .

و في شهر دجمبر ، كان ديوقلطيانوس قد اكمل عامه العشرين في الحكم ؛ و في هذه المناسبة ، اعلن عن عفو عام . و على اثر ذلك تم منح قادة الكنائس الذين كانوا قد اعتُقلوا حديثاً فرصة للحصول على الحرية مقابل انكارهم للإيمان المسيحي ، و تقويمهم التقدمات للآلهة الوثنية ؛ اما البديل ، فهو مكافحة التعذيب الشديد . و عليه ، فرغت السجون بسرعة ، و لرعا كان السبب يعود جزئياً الى كون حكام السجون قد اغتنموا هذه الفرصة لإطلاق سراح المسيحيين الذين اظهروا براءتهم خلال احتجازهم ، كما كانوا كذلك من قبل .

و في ربيع السنة التالية ، ألم بديوقليانوس مرض عossal ، و يبدو أنه فقد من جراء ذلك عقله لبعض الوقت . و على أثر مرض الامبراطور هذا الذي تسبب له بتنازله عن العرش ، قررت الزمر الوثنية القوية التي كانت تهيمن على مجلس الشيوخ الروماني ، ان تتحرك من جديد لقمع المسيحية واستئصالها بالكامل . فأصدروا في العام 304 م أقصى و أعنف مرسم اشتراعي ، يقتضي قتل كل المسيحيين الذين يرفضون تقريب التقدمات للأوثان . ثم قام الامبراطور غاليريوس (Galérius) بتطبيق هذا القرار الوحشي ، فبلغت المذابح آنذاك اوجها في سنة 308 م . التي كانت أرعب السنوات على الأطلاق . و في السنة التالية ، كان غاليريوس نفسه مستلقياً على فراش الموت يعذبه ذلك المرض الكريه نفسه الذي كان الله تعالى قد جلبه في حكمه قدبياً على هيرودس اغريباس .⁵ و قبل موته في العام 311 م ، اصدر غاليريوس مرسموماً غريباً في نوعه ، يقتضي إعادة المسيحيين الى جميع امتيازاتهم . وهو يختتم بطلب حزين مثير للشفقة ، يدعوه فيه المسيحيين الى ان يذكروا ، في صلواتهم ، امبراطورهم الذي يعاني سكرات الموت .

و بعد ستين من هذا ، انتهى الاضطهاد . و أعلنت المسيحية الدين الرسمي في الامبراطورية الرومانية . إن تبوء فُسْطَطِنْ (Constantine) سدة الحكم ، بالإضافة الى مرسم ميلانو الصادر في العام 313 م ، وضع حداً لتلك الآلام البطولية التي عانتها الكنيسة المسيحية على مدى قرنين ونصف من الزمن .

ثمة ايضاً قصة واحدة نرحب في سردها قبل ان نترك روایات الشهداء . و يظهر انها وقعت بعد فترة الاضطهاد الكبير ، حيث قيل إن معابد الآلهة كانت منهدمة . إلا ان المسيحيين كانوا لا يزالون أقلية في تلك المدينة التي وقع فيها الحادث ، فامتصوا الوضوء بشدة و قاموا معاً لمناصرة صنفهم . والقصة تتعلق بفتاة شابة تعيش في المدينة الساحلية تيپاسا (الجزائر) . كانت في الرابعة عشر من عمرها و اسمها سالسا (Salsa) . لقد اختارت طريق المسيح ، و اعتنقت باسمه ، مع ان ابوها كانا وثنيين . ثم جاء اليوم الذي احتشد فيه اهل تيپاسا للاحتفال بعيد الاثنين ، وهو إله محلّي ممثل بصنم بهيئة حية برونزية ، رأسها من ذهب . كان معبد هذا الإله يقع على صخرة بارزة فوق البحر .

كانت سالسا غير راغبة في اصطحاب ابوها الى هذه الاحتفالات في معبود الإله الاثنين ، إلا أنها ذهبت معهم اخيراً شعوراً منها ان ذلك هو من واجبها كابنة . راحت تراقب مرتحفة الطقوس الفاحشة التي كانوا يقومون بها ، ثم حاولت عبثاً ان تتبأ ابوها و من حولها من الناس الى الاشمئزاز الشديد الذي شعرت به آنذاك . لكنهم ضحكوا عليها وسخروا منها . ثم خُتم الاحتفال ، كما درجت العادة ، ب楣ادبة تلامها احساء وافر من المشروب الذي سُكّب منه لأجل الإله ، و بعد ذلك جاء وقت القليلة الطويلة . فانهارت سالسا فرصة نوم الجميع ، و انسلت الى

الحرم المقدس لهذا الصنم ، ففصلت رأس الصنم الذهبي عن بقية جسمه و رمته عبر المنحدر الى البحر . و ليس صعباً ان تتصور غضب الرعاع الشديد عندما صعوا من غفوتهم ليجدوا ما حلّ بضمهم . و انتظروا يراقبونه عسى ان يعود المذنب الذي ارتكب هذه الفعلة فيطالونه و هو متلبس بجرئته . و من دون اي تردد ، صمت الفتاة ان تلتحق جسم الصنم برأسه . و نجحت للمرة الثانية في دخول المعبد و في ازاحة الجسم البرونزي لهذه الحياة من مكانه . و هكذا ألت ما تبقى منه لكي يهشم على الجرف الصخري ثم يستقط في البحر . لكن سالسا قُبض عليها هذه المرة . فهجم عليها العابدون الساخطون و الماحقون ، و مرقوا جسدها شرّ تمزق ، و قدفوا به من على قمة المنحدر الصخري الشاهق . فهرع المسيحيون و المموما جثتها من الماء ، ثم دفونها قرب الميناء . و لا تزال بقايا ضريحها المزین بالفسيفساء و النقوشات ، موجودة حتى ايامنا .

و بمرور الوقت ، انتشرت الأساطير حول هذه الرواية البسيطة . و ذكرت احدى هذه الروايات عن جثمانها ، كيف تناقلته امواج البحر الى ان علق ببرسة احدى السفن التجارية . وعلى اثر ذلك عصفت رياح عاتية في المكان استمرت على مدى ثلاثة ايام ، و لم تتوقف الا بعد إصعاد الجثة من الماء ، إذ جرى تبييه قبطان السفينة و انداره من طريق أحلام متلاحمقة . و بعد عدة سنوات ، اي في العام 372 م ، ثار رئيس قبيلة افريقيبة على القوى الحاكمة في روما ، و بعد ان عاث فساداً في مدن الولاية ، عانى تجربة تسلّر بشرّ ، و ذلك عند دخوله ضريح سالسا خارج جدران تيباسا . لقد تحكم سكان المدينة من دحره بسرعة ، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير .

والفضل يعود ، كما قيل ، الى تدخل الشهيدة في هذه القضية .

فإن الإضافات التي رافقت القصة الحقيقة لسالسا ، يجب الا تستعينا اخلاصها البسيط في اصرارها على تسديد ضربة فعالة على اباطيل الوثنية . ان هذه الشابة البربرية ، التي احبت الحق اكثر من الحياة ، اسرت أباب ابناء جيلها . لقد أصبحت اكثر من مجرد بطلة محلية . و الضريح الذي شيد فوق مدفنهما ، جذب المسيحيين من كل ارجاء الولاية و من اماكن بعيدة كمنطقة حتى الى بلاد الغال و إلى سوريا . و كانت كنائس افريقيا الشمالية و لا سيما كنائس اسبانيا و إيطاليا تحتفل سنوياً بيوم استشهادها . و يحيط بقبرها مدفن كبير لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا . و يختار كثيرون من المسيحيين الراشدين ، و ذوي الاختبار المسيحي الواسع ، ان يُدفنوا قرب النقطة التي ترقد فيها هذه الفتاة الشابة . وهم بذلك يتشبهون ، في شيخوختهم ، بذلك القضية التي ناضلت من اجلها سالسا بشكل عفوي ساذج ، عندما كانت في ريعان شبابها .⁶

عَذَّبُوا بِشَدَّةٍ
 وَاضْطُهَّدُوا بِعُنْفٍ
 لِكُنَّهُمْ تَمْسَكُوا بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ
 بِأَنَّ الْمَسِيحَ قَدْ قَامَ
 وَبِأَنَّ النَّاسَ سَيَقُومُونَ
 فِي الدَّهْرِ الْآتِي
 وَبِأَنَّ الْجَسَدَ سَيَحْيَا إِلَى الْأَبْدِ .
 إِيمَانُهُمْ الْمُعْلَنَ
 كَانَ بِلَا خَوْفٍ
 فَأَنْتَجَ غَلَّةً فِي كُلِّ مَكَانٍ
 إِذْ كَانَ دُمُّ الشُّهُدَاءِ
 هُوَ الْبِذَارُ الَّذِي زُرِعَ .
١

اغسطينوس⁷

ملاحظات

Monceaux Tome II p. 157 -1

2- بولس نقل تحيات الى كنيسة فيلبي من «جميع القديسين ولا سيما الذين من بيت قيصر». /
(فيلبي 4: 22)

Monceaux Tome III pp. 96 - 101; Frend pp. 8 - 10 -3

Monceaux Tome III pp. 93 - 95 -4

5- أعمال 22:12 و 23

Monceaux Tome III pp. 164 - 167 -6

De Civitate Dei 22:7 -7

الفصل الثامن عشر

نداء المسيح

ان الفترة التي تفصل بين موت كبريانوس في قرطاجة وتعيين اغسططينوس في العام 395 م ناظر الكنيسة في المدينة المجاورة هيبو (Hippone)، تزيد على المئة سنة. و خلال هذه الفترة بالذات نطالعنا شخصية ارنوبيوس (Arnobius) الغامضة. فإن لم يكن ارنوبيوس في المستوى الروحي والعقلي نفسه لترتيlianوس و اغسططينوس فإنه يعادلهما، ولا شك، في حبه لسقط رأسه ولشعبه.

ولد ارنوبيوس في العام 260 م. كان في شبابه معلماً مشهوراً ناجحاً في علم البلاغة و فن الخطابة في المدينة الصغيرة سكاكا (Sicca) (حالياً تدعى الكاف بتونس). كانت محاضراته مفعمة بالحيوية ، نظراً لاستخدامه الإيضاحات و الصور البينية المستقاة من معرفته الواسعة بالمسرحيات اليونانية واللاتينية الشهيرة ، بالإضافة إلى سائر الكتب الأدبية الأخرى المعروفة في عصره . و هو يصوغ الكل معًا بأسلوب دافئ و حي في آن . كان يحقّ لبني قومه في سكاناً يعتزوا مفتخرین بابن بلد़هم المثقف اللامع ؛ كما انه لا بدّ لتلמידيه من انهم أخذوا بولائهم العميق وبغيرته للمدينة الإفريقية حيث ولدوا جميعهم . تزخر كتاباته بالإشارات إلى الريف الذي طالما عرفه في صباه . فإذا ذكر الكوارث و الفوائع ، فإنه يشير إلى ما شهده من أيام الحفاف ، و القحط الذي حلّ بالبلاد بسبب الجراد . أمّا إذا تحدث عن غنى هذا الريف ، فإنه يتحدث عنه مشيراً إلى قطعان الأغنام ، و إلى الزيتون و الكرم . انه يحكى عن الجمل الذي إذا أُتْيَخ ، توضع على ظهره الأحمال . كما انه يعود بالذاكرة إلى سنة معينة حين كانت الأضياع الداخلية لأراضي الجيتوليين (Gétules) جافة و مقرفة ، فيما نشط الحصاد بشكل رائع في السهول الساحلية التي تخصّ جماعة الموريين (Maures) و النوميديين (Numidiens) .

كان ارنوبيوس أمازيغياً ولادة و منشاً ، و هو يفتخر بهذا الانتفاء . و قليلاً ما كان يجد السلطة الرومانية . و هو يتحدث عن آلية الوثن القديمة في إفريقيا الشمالية من منطلق معرفته الشخصية بها ، ساخراً بالألهة الرومانية المستوردة و التي تبدو رديئة و في أدنى منزلة من تلك . يسره إعادة رواية القصص عن إفريقيا و أمجادها القديمة ، كما يهوى أيضاً تذكر ان هنَيَّعْل (Hannibal) القرطاجي ، استطاع في وقت من الأوقات ان يجعل اساسات روما نفسها ترتجف . وهو ينظر إلى الغزو الروماني بصفته من المحن التي رزح تحتها بنو جنسه .

لكن ، و في مجال المذاخرات الدينية ، كان أرتوبيوس يقف دائمًا موقفًا معارضًا من جماعة المسيحيين في سقط رأسه . و يبدو أن عددهم كان كبيراً : لقد اشترك ناظر من سكان في مؤتمر كيريانوس المعتقد في العام 256 م ، و لا تزال خرائب امكانة اجتماعاتهم موجودة حتى اليوم . و لا بدّ من ان يكونوا قد وجدوا في مدرّس البلاغة المتضلّع من المادة ، و الخطيب الوثني الواسع الاطلاع ، خصوصاً مربعاً ، سواء أحصل ذلك في المباحثات الشعبية العامة أو الخاصة . و من جهةه ، لا بدّ من انه استساغ هذه المفارعة واستمتع بها . كان في محاججته أقوى من معظم المسيحيين إذ لم يكونوا يحظون مثله بدرجة عالية من الثقافة . و لكن بالرغم من كل هذا ، فقد كان متاثراً بمقدار و لأنهم العين لعتقداتهم ، و بتصوّرهم الرائع في زمن المرسوم الوحشي الذي اصدره ديموقليطيانوس .

إن اهتمام أرتوبيوس العميق بشتى المسائل الأدبية و الأخلاقية ، دفعه إلى البحث في كل ما يصادفه من فلسفات و ديانات . و لكن ، يظهر انه لم يجد الجواب الوافي في اي منها . كان عنده شوق داخلي غريب إلى الإيمان ، و كان هذا الشوق يؤثّله . كان يرغب في ان يكتشف الحق لكي يبدأ على هذا الأساس يبعد لأية آلهة أو أرواح قد يعلّنها له هذا الحق . وبينما كان يمارس الشعائر و الطقوس الوثنية كلها ، مهتماً بمراعاة أدقّ تفاصيلها ، لم تتمكن لا عبادة الأصنام و لا حكمة الفلاسفة من اشباع غليله . لقد اعترف بعد مرور بضع سنوات و بشيء من التجل قاتلاً : « كنت أعبد ، و يحيى كم كنت اعمى في عبادي ! لقد كنت أعبد التماثيل المعدنية التي يصنّها الخداد في دكانه ، و هي آلهة مطروقة على السدانة بضربيات من مطرقه ، كنت أعبد انباب الفيلة ، و الرسوم ، و الشرائط المربوطة إلى الأشجار القديمة . فإذا ما رأيت حجرًا مصقولاً و مرسوحاً بزينة الزيتون ، كنت أتوقع أن أجده فيه قوة إلهية ، فأركع أمامه و استجده به و انصرّع إليه صارخًا . كنت اطلب المعروف و الخستة من حجر أصمّ لا يحسّ و لا يتفاعل ». ١

لكن الاحساس بالخزيان بدأ يدبُّ في نفسه شيئاً فشيئاً . و لم يعد يرى في عبادة هذه الأصنام ، صنعة ايدي البشر ، سوى أوهام حمقاء . كذلك ازدرى بأساطير الآلهة الرومانية وبخرافات الأديان السرية . كثيراً ما كان موطن أرتوبيوس يدعى سكان مدينة فينيوس (Vénus) ، لأنها كانت مركز العبادة القذرة للإلهة الشهوة . ففي معابدها ، كانت العذاري يضخّنن بعفهنّ . من هنا ، كان أرتوبيوس صارماً للغاية في إدانة خواصات الآلهة الوثنية ، و التي يتتصدرها جوبيتر نفسه في شتى أشكال الرذيلة . ٢

لکنه كان ينظر إلى السحر نظرة مختلفة . لم يكن يشكّ أبداً في أن قوى حقيقة (اعتبرها في ما بعد قوى شيطانية) تكنّ وراء اعمال السحر الاسود التي طالما مارسها اسلامه و اجداده ، وعلى مدى أجيال طويلة ، قبل ان أقبل الرومان الى افريقيا الشمالية . لقد رأى بأم عينيه عمل هذه القوى . و بعد اهتدائه الى الدين المسيحي ، راح يتحدى المنشعوذين و السحرة الوثنين بأن ينجزوا الأعمال العجائبة التي صنعواها الرب يسوع ، مع وثوقه التام بأنهم عاجزون عن فعل ذلك .

ولكنه اعترف في الوقت عينه بقدرتهم على التنبؤ عن المستقبل ، فيبيون بواسطة رؤياتهم الجنون والخجل و حتى الموت لضحاياهم . و عندهم ايضاً السلطان بأن يدمروا ما يكتن افراد العائلة من محنة و عطف بعضهم لبعض . و يوسعهم ايضاً اطلاق العنوان لقوى من المحنة او الكراوية . كذلك يامكانهم ان يضمنوا فوز اخسارة الحيوان التي تتسابق في الميدان ، ويستطيعهم ان يسبوا الصنم او الخرس ، و ان يفتحوا ايضاً الأبواب من دون مفاتيح .

لقد ادرك أن الوثنية هي ، و لا شك ، واقع روحي ، لكنه وجدها بكل أسف خالية من المبادئ الأخلاقية والأدبية . و عندما بحث في مكان آخر ، أعجب بعض الشيء في المستويات الأخلاقية عند الفلاسفة ، لكنه لم يجد فيها أية علامات للقوة الروحية . فحكم على كل من الوثنية التي تدين بمذهب حيوية المادة ، و على الفلسفة النظرية المجردة : كان لكل واحد منهما نقصه الأساسي الخاص . ولكن هل من الممكن توحيدهما معًا حتى تساهم الحقائق الموجودة في كل منهما ، في بروز الحق الأكمل ، و ذلك بعد طرح عيوب و اخطاء كليهما جانبًا ؟ لقد حاول ارتوبيوس ان يقرنهما ، ولكن عاد خائباً من سعيه الحديث هذا . إن أصحاب القوى هم خلو من الآداب ، كما ان أصحاب الآداب خلو من القوة ؛ فلا مجال إذا للتفريق بينهما . و هكذا غاص لفترة من الزمن في شكل من اشكال التشكيك البائس ، فلم يعد يعرف بماذا يؤمن ؛ كما وجد نفسه أنه لا يؤمن بشيء . إلا ان فؤاده ظل متربقاً الحقيقة و متشائماً اليها ؛ فإذا ما استطاع ان يجد هذه الحقيقة ، فسيتلر نفسه من اجلها ، و سيقضى أيامه ساعياً لكشفها للأخرين الذين يعاونون حالة البوس هذه عينها .

و بينما هو يتفكير في هذه الأمور أثارت انتباذه بعض الخصائص في المسيحية ، و التي لم تكن تسترعي انتباذه سابقاً : معجزات المسيح التي تشهد لقوة روحية تفوق بكثير ما رأه من قوة في الوثنية ، المستويات و القيم الأخلاقية التي تتجاوز إلى حد بعيد حتى اخلاقيات الفلاسفة . واكثر من ذلك ، كان عند المسيحيين رجاء يقين الخلود ، الأمر الذي لم يكن سوى مجرد حلم عند المفكرين اليونان . كذلك كانت البطولات التي اظهروا المسيحيون تحت الاضطهاد تفوق بكثير وتسمو على اي ولاء يقدمه اي انسان وثني لصمته او للروح الذي يعبد له . فماذا يا ترى كانت تعني هذه الأشياء والأمور ؟ و في نهاية المطاف ، هل المسيحية هي التي توحد حقاً بين القوى الروحية و الفضائل الأخلاقية ؟ و إن كان الجيل المسيح هو الحق ، هل يقدر شخص معروف في المجتمع نظيره ، كان قد قاوم المسيحيين بعنف و ببراعة ، ان يقرّ اخيراً ، ببساطة ، أنه قد غير فكره و اصبح مسيحيًا ؟ ألن يفقد من جراء ذلك احترام أولئك الذين كانوا يجلسونه قبله و يقتلونه ، لكونه معلم بلاحقة و صاحب ثقافة واسعة ؟ وفي تلك الآونة بالذات ، حصل ارتوبيوس على سلسلة من الأحلام المدهشة التي اعتبرها كثبيت إلهي للاقاتناعات المتنامية في ذهنه .

لقد دُمِّش مسيحيو سكان ، و ارتكروا بعض الشيء ، حيال الإعلان المفاجيء في العام 295 او 296م ، عن اهتداء ارتوبيوس الى إيمانهم ؛ لم يصدقوا ذلك في باديء الأمر . لقد اعتنقو ان الأمر

ينطوي على مناورة مخادعة يهدف من خلالها إلى التسلل إلى داخل المجموعة المسيحية بغية تخريبها . كما رفض ناظر الكنيسة أن يعمد ، باسم المسيح ، ذلك الشخص الذي اشتهر بمناؤاته له . ولكن أرنوبيوس كان مخلصاً من دون أي شك . ولإثبات ذلك ، بدأ بكتابه « دفاعه » المطرّك . كان عنوان هذا الكتاب « ضد الوثنين » . لقد كان الهدف من الكتاب إقتحام الوثنين بشأن اختيائهم ، لكن ربما قصد أيضاً أن يؤكد للمسيحيين حقيقة اهتدائه . أو لعله كان يبغى ببساطة أن يخلص من ذلك الانفعال الحبيس في داخله بعد أن وجد أخيراً الاعتقال الفعلى بفضل إيمانه الجديد . و الرسول بولس كان قد اكتشف أيضاً قبله بنحو ثلاثة قرون كيف أن الكنيسة لم تصدق بسهولة فكرة أن المضطهد قد اهتدى فعلاً . لقد توجه الرسول بولس إلى الصحراء العربية للتفكير والتأمل والصلوة قبل أنبدأ بالكتابة .³ كان أرنوبيوس قد فعل حسناً لو أنه تبع مثال بولس في هذا الأمر . و يخبرنا جيرروم أن أرنوبيوس كتب دفاعه هذا عندما كان لا يزال حديث الإياع ، ولعلنا نجد في هذا تفسيراً للمظاهر الغريبة التي يتسم بها هذا الكتاب .

أنهى أرنوبيوس كتابه هذا في نحو العام 304 م ، و ذلك في وجه الاضطهاد العنف الأخير الذي حصل تحت حكم ديوقلطيانوس . يتحدث هذا الكتاب عن المضايقات المختلفة التي كان يتعرض لها المسيحيون : من حرق كتبهم المقدسة ، و تحرير قاعات اجتماعاتهم ، و ما شابه ذلك . لم يكن هذا الكتاب ، بأي شكل من الأشكال ، من نوع الرسائل العلمية المنستقة المترنة التي قد توقعها من لأهونها ناضج . لكنه أشبه بياقة من التصريحات التي تم جمعها على عجلة . كان مؤلفها ، و لا شك ، يؤمن بها ، إلا أنه كان باستطاعته ان يطورها و يصلحها لو انه كتبها بعد اختبار واسع في ميدان التعليم المسيحي ، و على اثر فترة اطول من التأمل . انه في الواقع يدافع عن إيمان بالجهد ادركه و فهمه آنذاك . ان ثقته في وصف الوثنية التي رفضها وتخلى عنها ، جاءت أكبر من ثقته في الكلام عن المسيحية التي اعتنقها . وهو يظهر سيد الموقف في ما يتعلق باليشلوجيا الوثنية ، في الوقت الذي لم يقتبس في كتابه اي شيء من الكتاب المقدس بعهديه ، ما عدا آية فريدة واحدة من المهد الجديد .

و مع كل هذا ، فقد ادرك بسرعة جوهر الحياة المسيحية . لقد كتب ما يلي : « نحن فهمنا من تعليم المسيح و مبادئه ، انه علينا لا مقابل الشر بالشر ، كما أنه من الأفضل ان نقبل الإساءة علينا ، عوضاً من ان نسيء نحن الى الآخرين ؛ و ان نقبل بالحربي ان تهرق دمائنا ، على ان تتسلط ايديتنا وضمائرنا بدماء الآخرين . ان العالم غير الشكور ، قد صار له الآن مدة طويلة يمتنع بنعم المسيح ... ولو ان الجميع يصفون فقط الى مبادئه التي تدعو الى الصلاح و السلام ، لحول العالم استعمال الفولاذ للأغراض السلمية ، و لصار الناس في العالم أجمع يعيشون في إلفة مباركة ».⁴ سأل أرنوبيوس الوثنين بنقاوة و سخط : « لماذا استحقت كتاباتنا أن تُحرق بالثيران ، و تم تدمير اجتماعاتنا شر تدمير ؟ ففيها نرفع الصلوات الى الله السامي المتعالي متضرعين لأجل جميع ذوي السلطة لكي ينحهم الرب السلام و الغفران ... ان كل ما

نقوله فيها يفضي الى جعل الناس رحماء ، ودمثين ، ومتواضعين ، ومستقيمين ، وضاربطن لأنفسهم ، وكرماء في التعامل مع أسلاكهم ، ومتحددين من غير انفصال بأعضاء أخيوتنا جميعهم ٥٤.

لابد من ان يكون كتاب ارتوبيوس قد استغرق معه أشهر عديدة قبل اتمامه . و واضح من اسلوبه أنه كان عالماً . كما كان واسع المعرفة والخيال ، وله فكر استطلاعي وكانت عقليته كثيرة التساؤلات مما دفعه الى اكتساب قناعات راسخة . فهو يكتب ببهجة وانشراح ، وبخلاص وعدم تحيز ، لكنه يفيض ، في الوقت عينه ، بعاطفة جياشة بحيث تهدى احباباً ياغراق حجته . وهو يتنهج بالحكم والأمثال البلية مثل : « ان المعتقد هو الذي يصنع الدين . » كذلك يرسم تشابهات من نسج خياله . فهو مثلاً يعتبر الاختطهاد بركرة للمسيحي ، إذ يفعل فعل مجموعة من الوحوش البرية التي إذ تثور على سجين ، تكتشف اخيراً أنها هدمت السجن ، ف تكون بذلك ، عن غير قصد منها ، قد حلّته من قيوده ، واطلقته حرّاً طليقاً .

انه يكتب بفصاحة وبلاغة عن جلال عظمة الله ، وعن ضعف جهل الإنسان وعن الحاجة الى الإيمان . وهو يرفع قلبه بالعبادة نحو الله الذي لم يكتشفه إلا حديثاً ، وهذه الفقرة هي من أجمل ما كتب :

آه ايها الخالق الأسمى والأعظم لكل ما لا يُرى !

آه ايها الرب غير المنظور وغير المدرك عند أي كائن .

انت مستحق ! حقاً انت مستحق - إن كان يحق للسان قائل أن يخاطبك هكذا -

أن تحصل بلا انقطاع وبحرارة على تشكيرات كل كائن يتنفس ،

إذ نخر على ركبنا أمامك ونركع كل أيام حياتنا مصلين ومبتهلين بلا انقطاع .

فأنت من يحرك كل ما هو موجود ، وأنت من يعاشر كل الاشياء ، وأنت الأساس لكل شيء .

غير محدود ، لا بداية لك ، خالد ، لا نهاية لك ، فريد .

لست مجسداً بيئة مادية ، ولا حدود او تخوم تقيدك .

كما أن لا حدود لكمالك ولعظمنتك .

ليس لك مكان محصور ولا اتجاه معين ولا شكل محدود .

لا يمكن تقاديم تعريف كامل لأي شيء يخصك أو تحديده بواسطة كلمات بشرية .

و اذا ابتغينا ان نفهمك ، علينا أن نصمت ،

ولكي نبحث عنك في الدجى ، ينبغي ان نطلق العنوان لعله من دون ان ننسى بنت شفـة .

رجاء يا ملك الملوك أن تعم بالغفران على الذين يضطهدون خدامك ،

وبحسب كثرة رأفك سامح أولئك الذين يتجلبون عبادة اسمك .⁶

بعد ان نقول كل شيء ، تجد ، في الواقع ، أنت لا نعرف الا القليل عن أرنوبيوس ، عدا ما يذكره في كتابه الوحيد الذي تركه لنا و كما يلاحظ المؤرخ مونسو (Monceaux) بحكمة فائلاً إنه « لا يوجد ، عند بعض الكتاب شبه كبير بينهم وبين ما يكتبه ».⁷ أمّا بقية حياة أرنوبيوس ، فهي غامضة وغير واضحة . فنحن لا نعلم عمّا إذا استمر في تعليم البلاغة و فن الخطابة في سكان ، و عمّا إذا كان قد تزوج . كذلك نجهل كيف تصرف إيان الأضطهاد الأخير ، او كيف عاش خلال أيام السلام التي تلت هذا الأضطهاد . و ليس واضحًا إن كان قد أصبح عضواً في كنيسة سكان ، او اذا كانت معرفته الواسعة او سمعته الرفيعة قد أعادته عن شغل المكان الوضيع كمبتدئ في الكنيسة ، بخضع للتعليمات والإرشادات التي تأنّه من المزارعين والتجار ، أولئك الذين كانوا يشكلون الجماعة المسيحية آنذاك .

إلا أنها نعلم كيف أثر في أحد تلاميذه ، و يُدعى لاكتانيوس (Lactantius) الذي عُين معلماً لابن الامبراطور ، و قد كتب بدوره عدداً من المقالات العقائدية عن مواضيع كثيرة متنوعة مثل : العناية الإلهية ، العقاب الإلهي الذي سيكون من نصيب مضطهدي الكنيسة ، و اخبراً بالمجلدات السبعة لكتابه «المبادىء الإلهية »⁸ . أشار المترجم الشهير جيرروم إلى أرنوبيوس باختصار في العام 327 م ، و لعل الإشارة حصلت في وقت وفاته .

و يبقى الكثير مهماً و غير واضح في حياة أرنوبيوس ، و لكن ما نعرفه عنه كاف لجعله يتبوأ مركزاً رفيعاً في تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية . لقد كان أمازيغياً بكل ما للكلمة من معنى ، رجلاً موهوياً وصادقاً ، كرّس وقته و مواهيه العظيمة لتمثيل كتابه الذي يتأضل فيه من أجل الإنجيل ، و الذي خاطر طوعاً و اختياراً بعهده و بعيانه من أجل المسيح .⁹

* * * * *

و بينما كان أرنوبيوس ، و من حذا حذوه ، يتمتعون بغلال مساقط رؤوسهم و بمحاصيلها ، وهم يعيشون سعداء بين قومهم و خلائقهم ، كان هناك آخرون غيرهم من قطعوا هذه الصلات ، واتجهوا نحو الصحاري و القفار من دون اي ارتياح او خوف . لقد كان من الصعب جداً على بعض المسيحيين مقاومة اغراءات العيش المدينى ، فبات الحل الوحـدـبـالـنـسـبـةـ اليـهـمـ تركـالمـدـنـةـ

ككل ، و الانطلاق في بداية جديدة بعيداً عن شبح المناطق الفاسدة التي كانوا يرتادونها قبل اهتدائهم إلى الإيمان .

و كما أن بعض المؤمنين تولد عندهم قنوط من جراء الحياة في المدن ، كذلك أيضاً خذل مؤمنون آخرون من مستوى الحياة في وسط الكنائس . هذا لأنه قام منذ البداية بعض التفوس الغيورة داخل المجموعات المسيحية ، و راحوا يتشكون أن المسيحيين في غالبيتهم لم يكونوا يعيشون على مستوى المقاييس العالية التي جعلوها لأنفسهم . لقد وجد بعض هؤلاء في كسل الكنائس التقليدية و فتورها عائقاً في طريق تقديمهم الروحي ، أكثر منه مساعدًا . شمر الكثيرون منهم عن سواعدهم ، و اخذوا على عاتقهم أمر المساعدة في رفع مستوى الكنائس ، فيما كان يفتقر غيرهم إلى الموهبة الروحية او الإيمان المطلوب مثل هذه المهمة ، خصوصاً عندما وجدوا ان قادة الكنائس كانوا ، كأبناء ربّياتهم ، راضين عن حالة الكنائس . و هكذا قرر العديدون من هؤلاء المخلصين ترك المجموعات المسيحية نهائياً ، سعياً وراء شركة أعمق مع الله من طريق الصلاة - منفردين او مع غيرهم من يوافقونهم الرأي - و ذلك في أماكن ثانية بعيداً عن كل ما يمكن ان يلهيهم .

كان المدعو أنطونيوس (Antoine) من أوائل من فعلوا ذلك . و يرجح ان آثناسيوس (Athanaise) ، ناظر الكنيسة في الاسكندرية ، هو الذي دون قصة حياته . ولد أنطونيوس نحو نهاية القرن الثالث ، و هو من عائلة ثرية ميسورة ، و كان له اخت واحدة . و في يوم من الأيام ، كان أنطونيوس في قاعة اجتماع كنيسة قريته ، حيث كان المؤمنون يقرأون الخيل متى ، و فيما كان يصلي و يتأمل ، وصل القارئ الى قصة الشاب الغني الذي تقدم الى المسيح يسأله عمّا يجب عمله لكي تكون له الحياة الأبديّة . كان أنطونيوس شاباً غنياً هو ايضاً ، الأمر الذي جعله يشعر بأن هذا الكلام هو موجه إليه شخصياً . تأثر أنطونيوس كثيراً بجواب يسوع لهذا الشاب ، حيث قال له بالحرف الواحد : « إن أردت أن تكون كاماً ، فاذهب وبيع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء و تعال أتعيني ». ¹⁰ لقد أصابت هذه الكلمات أنطونيوس في الصميم ، و كأنه حصل على هذا الأمر مباشرة من الله . . . و كان هذا النص قد أعدّ له شخصياً . غادر أنطونيوس الكنيسة فوراً ، وأعطى كل الأملاك التي كان قد ورثها من والديه لأهل القرية ، حتى لا يعود يعاني مع أخيه ثانية متابعته . ثم باع كل ما تبقى له من أملاك و وزعها على الفقراء ، مبقياً على الشيء القليل منها لأخته . و بعد ذلك اعتزل أنطونيوس في كهف بين الصخور ، قبل انتقاله بعد هذا بقليل الى عمق الصحراء المصرية ، شرقى نهر النيل . ¹¹

كان الكثيرون من امثال أنطونيوس يختارون الإقامة في الصحراء لاعتقادهم أن الأصقاع الحالية من الماء هي مقر للشياطين ، و بالتالي المكان المناسب للالتحاق بالمعركة . لقد مكث أنطونيوس هناك ، كناسك يعيش وحده - في شركة مع الله تعالى ، و يصنع المعجزات و يطرد الشياطين - و ذلك على مدى عشرين سنة . ثم عاد الى الحضارة لفترة قصيرة في عام 338 م

لبلقي بثقله في الماظرة ضد الآريوسين الذين كانوا ينكرون الوهبة المسيح ، لكنه سرعان ما عاد الى مكان تسكه . لقد أصبحت قصة حياة أنطونيوس جزءاً من الأدب الذي كان متشاراً في الإمبراطورية ، ومع حلول العام 386 م ، كان تأثيره قد انتشر في كل ارجاء حوض البحر الأبيض المتوسط ، كما كان له تأثيرٌ مهم في أغنطيوس في شبابه كما سرى لاحقاً .

اختار أنطونيوس و غيره من المؤمنين حياة الوحدة ، ولكن آخرين أثروا الفرار من العالم ، و ذلك بإنشاء مجتمعات رهبانية ، حيث بإمكان الرجال ان يعيشوا معاً ، و في بعض الأحيان النساء ، متبعين نظام سلوك صارم ، و قد نذروا انفسهم ليقضوا ساعات طوال في رفع الصلوات و ممارسة الفرائض الروحية الأخرى . لقد قام هؤلاء القوم بالعناية بمناطق شاسعة من الأرضي القاحلة ، فخرثوها و زرعواها ، حيث كانوا يرون أنه يتربّ عليهم أن يجعلوا القفر يتهدّج و يزهر كالترجس .¹² كانت فكرة الرهبة هذه هي مشتقة بشكل رئيس من الديانة الشرقية التي حملت اسم المانوية (Manichéisme) ، و لا يوجد اي ذكر لها في الكتاب المقدس .

يظهر أن أول الأديرة المسيحية كان قد انشأها رجل مصرى يدعى باخوميوس (Pachomius) ، وذلك في نحو العام 318 م . لقد نذر اعضاء هذه الجماعات المعزلة ، سواء أكانتوا رجالاً أم نساء ، أنفسهم للالتزام التبتل والعزوبية ، و ذلك رغبة منهم في تكريس انفسهم لخدمة الله بشكل افضل ، ولربما ايضاً بسبب معارضتهم لفكرة إنجاب الأطفال في هذا العالم الهالك المائت . و تشتمل احبائنا المثالية الرهبانية على بعض الأفكار و المفاهيم الغريبة من نحو التعذيب الثاني الذي يراد منه إخضاع الرغبات والميول الجسدية ، هذا بالإضافة الى كونهم فرضوا على أنفسهم امتحانات ، لإثبات قوة الروح على الجسد . و هكذا واحدٌ من مشاهيرهم كان سمعان العمودي (390 - 459) الذي يقي بعيش وحيداً على رأس دعامة عالية ، و ذلك مدة ثلاثة عشر سنة ، و لم يكن ينزل من هناك إلا لوعظ الجماهير المحتشدة في الأسفل . و قد قضى آخرهم أوقاتهم في نسخ أو ترجمة الكتاب المقدس ، او أعمال لاهوتية أخرى . و علينا ان نتذكر انه كان ينبغي استنساخ الكتب ، و ذلك على مدى اثنى عشر قرناً آخر ، الى ان تم اختراع آلة الطباعة في زمن الاصلاح الديني الأوروبي .

فشل النظام الرهباني في جذب اهتمام الناس بشكل واسع ، او في مساندتهم له إبان سنوات الاضطهاد . إلا أن مرسوم ميلانو الصادر في العام 313 م ، أعتقد الكنيسة فجأة من قيود القانون الإمبراطوري ، جاذباً بذلك الى كتف الكنيسة مجموعة كبيرة من الناس الهائجين من كل من المدن و القرى . كما ان هذا البيان أفقد المسيحيين ، الأكثر غيرة من سواهم ، فرصة التعبير عن خبرتهم هذه باعترافات عامة شعبية ، او بالاستشهاد . و قد وجدت الكنيسة نفسها مليئة بالمشود التي لا تحسن الانضباط . و إذ دخل هؤلاء الكنيسة من بابها الأمامي ، قام بعض من اعضائها الخالصين و الصادقين بالخروج منها من الباب الخلفي ، و إذ لم يعد

بالإمكان التعبير عن الغيرة بالاعتراف بالإيمان أمام القضاة الوثسين ، او بالاستشهاد ، فقد بدأوا يلتجاؤن إلى الأذية و الكهوف ، او يدعون ، في حالات أخرى ، الحركات الطائفية الأكثر شعبية.¹³ و كما لاحظ المؤرخ بائتون (Bainton) : « عندما دخلت الجماهير إلى الكنيسة ، مرضى الرهبان إلى الصحراء ». ¹⁴

كان الكاتب العظيم جيروم (340 - 420 م) قد باشر عمله الرهباني كنسك في البراري والقفار السورية . إلا أنه وجد أخيراً أن مصاحب الدراسة الفكرية في روما هي أكثر فعالية وتأثيراً لأجل اخضاع الشهوات الجنسيّة من معاناة المشقة في الصحراء . فشرع عملاً عظيماً إذ أخذ على عاتقه ترجمة المهددين القديم و الجديد من الكتاب المقدس من لغاته الأصلية إلى اللاتينية العامية . و كانت النتيجة ما يدعى الآن بالفُلْغَاتَة (Vulgata) التي لا تزال الصيغة المعتمدة في أوساط الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

لقد دعم أغسططينوس ممارسة الرهبنة ، و مع حلول العام 400 ميلادي ، وُجد عدد من بيوت الرهبنة في شمال إفريقيا . فهو عاش معظم حياته بين جماعة من هذا النوع في مدينة هيبو ، كما ان أخيه الأرمليه عاشت مع مجموعة أخرى . و في بداية القرن الخامس ، تخلت السيدة الأرستقراطية ميلاني (Mélanie) عن أملاكها ، و حررت ثمانية آلاف عبد من عبدها ، ثم أست ديرين رهبانين ، يضمّان ثمانين راهباً و مئة و ثلاثين راهبة ، و ذلك على مقربة من مدينة تاغاست (Thagaste) ، مسقط رأس أغسططينوس . و قد بقىت هناك بقية أيام حياتها .

و على الرغم من أن النظام الرهباني لم يكن يوماً من المعالم المميزة لسجية شمالي إفريقيا ، إلا أن ما ادخلته من مثال للتبنّل أثر في العديد من القادة المسيحيين - و من بينهم أغسططينوس نفسه - حيث أدى ذلك إلى انعكاسات هامة على نمط الحياة في الكنائس .

ملاحظات

Adversus Nationes 1:39 (ANF Vol. VI) -1

Schaff HOTCC Vol. II p. 857-2

3- غلطة 17:1

Adversus Nationes 1:4 -4

Adversus Nationes 4:36 -5

Adversus Nationes 1:31 -6

Monceaux Tome IV p. 245 -7

8- كتب لاكتانثيوس في معرض حديثه عن حرية المعتقد : « لا يمكن فرض الديانة بالقوة . يتغى على المباحثة ، لكن تؤثر في الإرادة ، أن تتمّ بواسطة الكلام ، لا بواسطة الضربات . لا يمكن للتعذيب والنتيجة أن يستجما . لا يمكن للحق أن يتحدد

مع العنف ، أو للعدل مع القساوة . فليس شيء مرتبطة بالحرية أكثر من الدين ». (*Institutionum Divinarum* 5:20. Schaff *HOTCC* Vol. II p. 36)

9- للحصول على بحث عن حياة أرنوبيوس وعن « دفاعه » راجع :

Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 856 - 861

Monceaux Tome IV pp. 242 - 286

. Plummer pp. 129 - 130

21:19 - 10 مني

(p. 47) Cooley - 11 اقتبسها

1:35 - 12 اشعياء

13- لعل نجاح الحركة الدوناتية في بدايتها ، يرجع إلى هذا النوع من المشاعر .

Bainton p. 126-14

الجزء الرابع

عصر أُغْسْطِينُوس

(القرن الرابع وأوائل القرن الخامس)

الفصل التاسع عشر

الحركة الشعبية الدوناتية

مع تطبيق مرسوم ميلاتو الذي كان قد أقره قسطنطين ، استيقظت فجأة كنيسة الشهداء المسيحيين المنهوبة القوى ، لتجد نفسها محظوظة ترحب على أعلى المستويات في الامبراطورية ، و الامبراطور نفسه أصبح من بين اعضائها . وبعد مرور عشر سنوات ، كان الشعور بالهبة والدهشة لا يزال مسيطرًا عندما دعا قسطنطين مجموعة من الناظار إلى تناول طعام العشاء على مائدة الملكية في قصره . و فيما كان هؤلاء الذين سلما من الأضطهاد ، وبعضهم من المعاقين والعديمان ، يسيرون بين صفوف من العسكري الرومان ، في طريقهم نحو مائدة الامبراطور ، تسأله ، أحدهم على الأقل ، مستغرباً عما إذا كان ملكوت الله قد حضر فعلاً على الأرض ، أم هو في حلم !

وللوهلة الأولى ، لم يغير هذا المرسوم بشكل جذري طبيعة الحكم الامبراطوري . إنه لا يعلن أي شيء جديد ، كما أنه لم يدن أي شيء قديم ، و كل ما فعله هذا المرسوم هو أنه منح كل فرد حق العبادة الحرة بالطريقة التي يراها مناسبة له ، كما أنه رخص للكنائس أن تسترّة الممتلكات والأراضي التي صودرت منها . ولكن ، كانت لهذا المرسوم البسيط ، الذي يرجع إلى سنة 313 م ، نتائجتان بعيدتا الأثر والنطاق : لقد وضع حدًا لاضطهاد المسيحيين في كل أرجاء الامبراطورية بما في ذلك إفريقيا الشمالية ، كما أنه أدى بسرعة فائقة إلى تحالف دائم بين الكنيسة والدولة الرومانية . وهكذا ، لم يعد المسيحيون يحتاجون إلى الاجتماع ليلاً وراء الأبواب المغلقة وفي الغرف الداخلية من دورهم ، أو تحت الأرض في وسط مقابر أسلافهم المظلمة . أصبح يامكانهم أن يجتمعوا حيث يشاءون من دون خوف أو وجع ؛ كما أنه تم تعيين بعضهم في مناصب عالية في الإدارة الامبراطورية . كان المستقبل يبدو مشرقاً وضاءً ، و هكذا راحت كنائس شمال إفريقيا تتطلع قدمًا بكل ثقاؤ إلى حلول عصرها الذهبي .

ولكن بدأت في هذه الفترة تظهر مؤشرات مقلقة إلى أن هذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء قد دخلت في الآونة الأخيرة مرحلة تدهورها البطيء . كما أنه بات من الواضح ان الكتبسة التي ارتبطت بهذه الامبراطورية الدنبوبية ، أصبحت الآن مهددة بأن تشارك في هذا السقوط والانهيار . ويدو أن كبريانوس كان قد تنبأ بحصول ذلك . فقبل استشهاده في عام 258 م ، قال لأصدقائه في قرطاجة : « حذار ، فإن هذا العصر قد دخل مرحلة شيخوخته ، ولم يعد لديه الآن العافية التي

كانت تخلوّه الصمود ، و لا النشاط الذي كان يساعده على ان يكون قويًا . . . وهذا هو حكم الله الذي يطال العالم بأسره ، إنه قانونه عزّ و جلّ ، فالذى يعيش لا بدّ له من أن يموت ، و الذى ينمو و يكبر ، لا بدّ له من أن يشيخ ». ²

ان الأزمة الاقتصادية و المالية التي اكتسحت الامبراطورية بعد نحو عام 250 ميلادية ، لم تستثن إفريقيا الشمالية . فقد انخفض احتياطي الذهب في الامبراطورية الى حدود التلاشي والزوال ، وازدادت صعوبة عملية البيع و الشراء في البلاد . إن المحاصيل التي كانت من قبل تُكسب أصحابها أرباحاً ، ثُرّكت الآن لنفسه . ولم يعد بالإمكان الحصول على البضائع المستوردة . ولم تعد حسّنات وجود السلطة الرومانية في إفريقيا توازي سيّئاته . كذلك بدأت قوة الشرطة الأمنية للفيلق الثالث في الجيش الروماني ، و الذي كان قد أُسسَ الامبراطور الإسكندر سيفيريوس (Alexandre Sévère) ، بدأت تضعف و تخسّر . و ما ان شعرت القبائل القاطنة في السهول والجبال بنية الادارة الامبراطورية ، حتى بدأت تقوم بعروات تهديدية استكشافية ضدّ قوات المخافر الأمنية في نقاط الحدود . ثم راح رؤساء القبائل في نوميديا و موريتانيا قيصر يانسيس ، يتخلّون ، واحداً تلو الآخر ، عن تعاونهم السطحي مع الرومان . فجمعوا معّا الرجال و السلاح للقيام بعصيان مسلح ضدّ الامبراطورية . و هكذا تطايرت شرارات الثورة ، و اشتعلت في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية ، ما عدا في منطقة إفريقيا البروقنسية (تونس) ، حيث كان تمّ الحياة المدنية و التجارة و انتشارهما ، يرتبط عند السكان الريفيين بازدهار الامبراطورية بشكل عام ، بحيث لم تُغّيرْهم قطّ فكرة الثورة هذه .

أما في مناطق أخرى ، فكان الناس الذين يعملون في الأرضي ينعمون بأقل قدر من الفوائد . فضلاً عن الضرائب الباهظة و الاعتباطية حسب الظاهر التي تركت الكثير من العمال الكادحين الفقراء و غيرهم من الحرفيين يتذمّرون و يتبنون . و هناك أماكن معينة أخرى صودرت فيها أملاك بعض المستعمرين الرومان ، و كان كبريانوس نفسه مضطراً إلى أن يرسل مبلغ منه ألف سكُوبيشترا (séquestras) ، كان جمعها من الكنيسة في قرطاجة ليعطّيها فدية عن بعض المسيحيين الذين كان الثوار المسلحين قد ألقوا القبض عليهم في نوميديا . كان الامبراطور الأمازيغي ستيّميروس سيفيريوس قد نصّب ابنه قبل عدة سنوات بهذه الكلمات : « ادفع بسخاء للجند يا بني ، ثم انسّ ما تبقى ». هذا لأنّ الادارة الرومانية كانت تعتمد فعلاً على قوة الجيش ، وعلى التهديد باستعمال القوة الذي يتقدّم الى ذهن المواطن كلّما شاهد جندياً .

و غالباً ما كان مالكو الأرض الكبار يُعيّنون قضاة محلين ، و لكن لم تكن نزاهتهم دائمة على مستوى سلطتهم هذه . لقد أدعى معاصروهم أنّهم كانوا يقتربون الظلم والجحود ، و لا يخلو هذا التصرّف من بعض الحق . و لا كانت الأجور التي كان هؤلاء المالكون يدفعونها إلى عمالهم عادلة او سريعة كما كان عمالهم يرجون . لقد كانت عملية جمع الضرائب و فرضها في يد هؤلاء القضاة . و إذ كانوا يقومون بعمل المتهم و القاضي في آن ،

كان يحق لهم أن يحكموا بسجن العبيد ، و كذا بإعدام العمال الأحرار . و عندما ترددت الأوضاع أكثر فأكثر ، و شعر سكان الريف بالضيق بشكل متزايد ، بدأ الضعفاء يتلمسون حماية الأقوياء ، و الأقوياء يتلمسون بدورهم حماية من كانوا أقوى منهم . كانت الأوضاع صعبة على الجميع . و حتى المالكون المسيحيون الأكثر نزاهة واستقامة ، و جدوا أنفسهم هدفاً سهلاً لهذا الامتعاض الذي أزدادت مراته مع أن لا أساس له .

و في العام 330 م ، نقل قسطنطين عاصمة الإمبراطورية شرقاً ، من روما إلى القسطنطينية ، إسطنبول . وقد أفسر تدبيره هذا عن تعقيد المشاكل التي كان يواجهها فيربط الشؤون الإدارية المختصة بالمناطق الإفريقية البعيدة الواقعة تحت هيمنته ، و في التنسيق بينها . كذلك كانت عملية حفظ الأمن والنظام في الشواطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط تزداد صعوبة . فبعد أن كان قسطنطين قد اطمأن إلى مساندة الكنيسة له ، ثمنى أن تساعده على هذا الأمر . وبعد أن مُنحت حرية العبادة والمعتقدات الدينية للمواطنين ، كان باستطاعة قادة الكنيسة تشجيع الناس على التعاون السلمي لصلحة الجميع على السواء : كان هذا ما يهدف إليه إمبراطور مسيحي صادق ، إلا أن آمنيته جاءت ساذجة بشكل محزن .

و بينما كانت الكنائس الأوروپية والآسيوية غارقة في أذغال المازاعات اللاهوتية المتعلقة بالأريوسية والغنوستية و مجموعة من البدع الأخرى ، كانت كنائس إفريقيا الشمالية منشغلة بمشاكلها الخاصة . إن ما كان يحصل من مباحثات في الجزء الآخر من الإمبراطورية - الأمر الذي كان يحتم عقد مؤتمرات دورية للنظر - لم يكن يعنيهم إلا من بعيد . لقد تأثروا شديداً بحركة خرجت من عندهم ، و باتت معروفة « بالدوناتية » (Donatisme) ، و قد تسببت فعلياً ب التقسيم الجماعي المسيحي في إفريقيا الشمالية إلى فريقين متنازعين .

يبدو أن المسألة الدوناتية بدأت ، في الأصل ، من جراء العدد الكبير من المسيحيين الذين تخاذلوا إيان الأضطهاد العنيف في عهد الإمبراطور ديوクليتيانوس . لم يكن واضحاً تماماً ماذا يبغى أن يعمل لهم ، إذ كانوا كالخشب الذي يعمق على وجه المياه بعد هبوب عاصفة ، كانوا بشعين وفي غير محلهم ، و لا أحد يعلم تماماً ماذا يبغى أن يعمل لهم . إنها المسألة نفسها التي كانت قد افلقت كبريانوس وغيره بعد الأضطهادات السابقة ، إلا أنه وجد هذه المرة بين عدد الذين خانوا المسيحية ، بعض النظار المعروفين ، وغيرهم من القادة المسيحيين الآخرين . كان السؤال المطروح هو الآتي : هل يُعاد قبولهم كأعضاء في الكنيسة ، أو يجب اجتنابهم على اعتبار أنهم خونة؟ ولكن خلف هذه المسألة حول ما افترضه بعض الأفراد ، و مقدار أهمية ذلك تكمن الآراء المضاربة الأساسية نفسها التي كانت قد برزت خلال القرن السابق بشأن طبيعة الكنيسة والقصد من وجودها . هل كان يجب على كنيسة المسيح أن تكون مؤسسة دولية ، تستقبل و تعلم كل من يستدعاها محاولة بذلك أن « تفهمهم تدريجياً » عن ارتکاب الأخطاء و الزلات؟ أو هل يجب اعتبار الكنيسة أخوية جامعية من المؤمنين الصادقين الذين دعوا وانعزلا عن العالم لكي

يعيشوا كعبيد أمناء ليسوع ، وافضين أن يهادنوا الفجّار ؟ هذه المسألة هي إذا قدّمة ، ولكن الدرجة العالية من الزخم التي رافقت عملية مواجهتها ، بالإضافة إلى قوى التفسخ والانحلال التي كانت قد تسلّكت من الامبراطورية في هذه المرحلة بالذات ، تعني أن هذه المسألة ستنتهي بأساً .

كان الامبراطور قسطنطين يرغب في أن يعمّ السلام والإلقاء في أرجاء امبراطوريته الواسعة الاشتراك ، كما أنه كان حريصاً على تأسيس كنيسة موحدة وثابتة ، تساعده على إدارة البلاد . من أجل هذا ، بدأ حكمه بإصدار قوانين من وحي التساهل الديني ، و هكذا شجّع الكثائس المحلية على إعادة المتخاذلين إلى صفوتها . لقد شعر بأن قيام امبراطور مسيحي سيعطي فرصة لبداية جديدة لجميع رعاياه . لكن ، سرعان ما اكتشف قسطنطين أن قادة الكثائس التوميدية ، بالإضافة إلى جزء كبير من الجماعة المسيحية في قرطاجة وفي أماكن أخرى ، لم يروا الأمور بهذه البساطة . فقد وقّعوا موقفاً صلباً حيال ضرورة التمييز بين أولئك المسيحيين الذين صمدوا بقوّة وعزيمة إيان الأضطهاد ، وأولئك الذين انهاروا أمامه . فقد أعدّوا قوائم بأسماء النظار الذين قيل إنهم خانوا إذ سلموا الكتب المقدسة إلى المسؤولين الوثنيين ، و هكذا رفضوا بعناد قبول أمثال هؤلاء كقادة في كنائسهم . لقد اجتذبوا كل من لعن اسم المسيح و قرب التقدّمات للأوثان ، داعمين موقفهم هذا ببعض الآيات من مثل كلمات الرسول بولس : «إن كان أحد مدعاً اخًا زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شاماً أو سكريًّا أو خاطفًا ، لا تختلطوا ولا تزاكلوا مثل هذا» .³

كان منصوريوس (Mensurius) ناظر كنيسة قرطاجة ، قد توفّاه الله قبل ستين من تسلّم قسطنطين عرش الامبراطورية . فاختير أحد المديرين في الكنيسة ، و يدعى كايكليليان (Caecilius) ليحل محله . لم يرض العديدون في الكنيسة بهذا الاختيار ، على اعتبار أن سلوك كايكليليان و تصرفاته خلال الأضطهاد ، أظهرت أنه لا يستحقَ أبداً أن يتبوأ مثل هذا المركز . لقد عارضوا هذا التعيين ، ثاماً كما حدث قبل ستين سنة ، عندما قاوم نوماقتوس و مناصروه اختيار كيريانوس مثل هذا المنصب . لقد قالوا إن هذا التنصيب هو باطل في نظر الله ، ذلك لأن كايكليليان هو خائن ، كما أن أحد أولئك الذين أقرّوا تنصيبه ، وهو الناظر فيلكس ، كان أيضاً من بنائة سلم كنيسة إلى السلطة الوثنية . وقد افترضوا بديلاً له ، إلا وهو ماجورينوس (Majorinus) الذي عينه رسميًّا سبعون ناظراً من نوميديا كانوا قد اجتمعوا سراً في قرطاجة . كما عقدت اجتماعات في بيوت عديدة للتأمر لأجل إسقاط الفريق المعارض . و بعد بضع سنوات ، عندما مات الناظر المنافس ماجورينوس ، تم اختيار دوناتوس ذي الشخصية القوية ، خلفاً له ، و منذ ذلك الحين سُميَ اتباعه الذين يمثلهم باسمه .

عنف الصراع الدائر بين الأفرقاء الذين يؤيدون هذين الناظرين المتنافسين . فادعى الدوناتيون أن كايكليليان ، و سلفه منصوريوس ، قد استخفّا بشهداء كنيسة أبيتنا الذين كانوا مسجّونين في قرطاجة ، وقد متّا أصحابهم من زيارتهم و من دعمهم في معاناتهم .⁴ و اكتنوا باستمرار أن كايكليليان ، عندما كان لا يزال « مدبرًا » ، كان اذ سلم الوثنيين الكتب المقدسة العائدة إلى كنيسة

قرطاجة . فإن كان تغيير حرف واحد من الكتاب المقدس ، يُعتبر جريمة ، فكم بالحرى يكون تسليم كلمة الله بأكملها لكي يتم إتلافها . إنه إنم لا سبيل لإصلاحه أبداً . وبدورهم ، راح أكثر المحسنين للدفاع عن كايكليليان ، يؤكّدون أن الدوناتيين خلال فترة الاضطهاد ، قد ابرزوا تعصباً مخزيّاً ، إذ أثاروا غضب المسؤولين الإمبراطوريين عن سابق قصد و تصميم ليتخذوا إجراءات قانونية ضدّهم ؛ لقد احتالوا إذ نجحوا في الحصول على شهادة متّألفين من جماعة المشعوذين الفجّار . والى هذا الحدّ ، كان النزاع يدور حول مسألة من يمكن اعتقاده كناظر لكنسيّة قرطاجة . ولسken ، كانت هناك عوامل أخرى تعمل في الخفاء ، و بدأت كنائس المدن والقرى والأرياف المجاورة تتحزّب ، و ينقد كل منها الى أحد هذين التيارين ، و ذلك لأسباب لم يكن لها علاقة وثيقة بالشكلة الأساسية .

وإذ تحقق قسطنطين من صعوبة حلّ هذا النزاع ، قرر طلب مساعدة كنائس إيطاليا و بلاد الغال (فرنسا) . فعين بلجنة قوامها خمسة عشر ناظراً إيطالياً و ثلاثة نظار غالين ، و ذلك برئاسة ناظر كنيسة روما . و دعاها الى الاجتماع في العام 313 م في روما . كان على المجتمعين أن يستمعوا الى كل من الجانبين المتناحرتين ، وأن يتأكدوا من حقائق هذه القضية ، و يحاولوا التوصل الى تسوية . فكانت النتيجة أنهم رسخوا براءة كايكليليان ، و هكذا تم إرسال مبعوثين الى إفريقيا ل الإعلام الكنائس هناك بأن الكنيسة الكاثوليكية العالمية تدعم كايكليليان . و لكن عندما وصل هذان المبعوثان الى قرطاجة ، اضطرباً كثيراً عندما وجدوا أن الفريق الذي يعارض كايكليليان لم يرتبك على الإطلاق تجاه ما قد تم تفراه ، بل على تقبيض ذلك ، إذ في رفضهم الرجوع عن موقفهم ، طالبوا بأن يتدخل الإمبراطور شخصياً في الأمر . أمّا قسطنطين ، فأظهر صبراً لا ينفد ، إذ أمر بإنشاء لجنة على نطاق أوسع من السابقة ، و طلب اليها أن تجتمع في العام 314 م في آرل (Arles) التي تقع في المنطقة الجنوبيّة من بلاد الغال . و هكذا اجتمع ما لا يقلّ عن ثلاثة و ثلاثين ناظراً ، فتمت للمرة الثانية تبرئة ساحة كايكليليان ، و اعترفوا به ناظراً لكتسيّة قرطاجة . فاعتبر المجتمعون أنه لم يتمّ تسليم الكتاب المقدس الى السلطات الرومانية بواسطة كايكليليان او فيلكس . لكن قسطنطين كان يتحاشى إصدار أي بيان عام في هذا الخصوص ، و ذلك على مدى ثلاث سنوات . كما ان كايكليليان نفسه مكث في روما للقيام ببعض الأمور الخاصة .

تضخّمت الأوضاع في إفريقيا من جراء هذه المسألة ، و وصلت الى حدّ اضطرّ معه قسطنطين الى أن يتحرّك بحزم . ففي العام 316 م ، اتّخذ خطوات قانونية لوضع قرار آرل موضع التنفيذ . وهكذا تم تهديد الدوناتيين بإزالة عقوبات بحقّهم إذا واصلوا تعنتهم و عنادهم ، كما طلب اليهم أن يتوقفوا عن اجتماعاتهم لثلاثة يعرضوا أنفسهم للمقاب . لكن ذلك لم يؤدّ إلا الى تعزيز شعورهم بأنّهم مظلومون ، فازدادت شعوبتهم و ترسّخ عزّهم على إنشاء كنائسهم المستقلة بهم و تميّتها . وقد بات موقفهم واضحاً للغاية : إنّهم يرفضون جميع أشكال الخضوع او القبول بتسوية مع أولئك الذين أنكروا المسيح جهراً ، و لم يظهروا قط أية علامة للندم

على ما فعلوه . رفض الكثير من الدوناتيين أن يخضعوا لهذا المرسوم الإمبراطوري ، مفضّلين بالحربي أن يعانون العذاب على أيدي السلطات الرومانية . فكابدوا المصايف المستمرة والإكراه بالتهديد والاعتقال . و هكذا من جديد عمّ كنائسهم المستحدثة ذلك الجو المحرك للحماسة الحيوية والتحدي الشجاع ، الجو الذي تميزت به سنوياً اضطهاد الكنيسة على أيدي الوثنيين ، و الذي لم يكن قد مضى إلا وقت قصير على انتهائه .

و بمرور الوقت ، اذ تصلب الدوناتيون في قرارهم هذا ، وجدوا أن عدداً كبيراً من الناس قد تواردوا إلى كنائسهم : قوم من الفقراء الذين يضمرون الضيقية العميقية لغير انتم الأغنياء ، و أهل الريف الذين يحسدون الازدهار عند سكان المدن ، فضلاً عن غير المتعلمين الذين كانوا يتلوّعون بما كان يلحن بهم من ذلة و عار على أيدي الأرستوقراطين المثقفين ، ناهيك بالأمازيغين المستائين من العسكرية والانضمام إلى الدوناتيين . و لرعايا أيضاً وجدوا تعاطفاً وديماً بين صفوف الباقي من الموتنانيين و التوفاتيين .⁵ كذلك تعاطف مع الدوناتيين بعض كبار المالكي الأراضي من أمثال المدعو كريسيس من مدينة كالاما (قائلة حالياً) ، الذي أعاد عمودية ثمانين من عمالة الكاثوليك سابقاً . و قد أدى دعم هؤلاء الرجال ذوي النفوذ الكبير إلى تشجيع الأعضاء الأقل شأناً على اتباع هذا التهجّج أيضاً ، كما أنه زودهم بعض الحماية .

شعر القادة الدوناتيون بأن الجماهير الغيرة من الناس كانت تدعمهم و تسرّوراهم . ووصلت أخبار مقاومتهم للبيانات الصادرة في قرطاجة و روما إلى تلك العشائر الساخطة والعدوانية التي كانت تقطن الأصقاع الداخلية من البلاد ، فأنصتوا إليها بشغف . لقد تحقق الدوناتيون من أن قضيتهم قد ازدادت شعيبتها بسرعة كبيرة . إلا أن المانع الوحيد في الأمر هو أن أولئك المتحمسين الذين يدعونهم ، لم يكونوا في الواقع يعرفون إلا القليل عن الدافع الحقيقي الذي تقف وراء هذه الحركة : حسيبهم أنها تعارض روما ليس إلا .

كيف كان بإمكان قادة الكنائس أولئك أن يعلموا بذلك الحشد الكبير عقائد الإيمان المسيحي ؟ و كيف كان بإمكانهم أن يشعروا في شرح إنجيل الخلاص من خلال الإيمان بال المسيح الفادي ، لهذا العدد الغفير ؟ أو أن يتحذّلوا إلى كل واحد من الواقفين الجدد للتحقق من أنه قد أدرك مغزى ما سمع ؟ وعلى الأرجح أن محاولاتهم للتثبيّر برسالة المسيح ، لم تُثر كثيراً اهتمام الناس . هذا لأن الناس لم يقدّموا هذه الكنائس بحثاً عن مغفرة الله لخطاياهم ؛ لقد أرادوا فقط أن يجعلوا السبل الكفيلة بتحرير أرضهم من الفرق العسكرية الإمبراطورية و من المسؤولين الرومان . إن شهرة أولئك الوهاظ الذين تحذّلوا إلى الجماهير بسلامة و من دون خوف ضد السلطات ، قد نمت وتفاعلـت مع مشاعر الغضب و النقمة العارمة التي كانت تعمّ سكان أودية إفريقيا الشمالية و سهولها . إن الكنائس التي شجّعت على الاستقلال عن سيطرة روما ، استقطّبت حولها الجماهير الساخطة على النظام في كل مدينة و في كل قرية ، بالإضافة إلى جميع أولئك الذين كانوا يسعون لتجنّب دفعضرائب المترتبة عليهم .

و مما يدعو ربما إلى السخرية أن يكون أعمق اختراق للإخيل إلى داخل إفريقيا الشمالية ، قد حدث في هذا الوقت بالذات ، وبهذه الطريقة . و المأساة في ذلك هو أن الناس تعلموا مما رأوه في إخيل يختلف تماماً عن جوهر الإخيل الحقيقي . فقد اشتغلت هذه الشارة المزيفة على القليل جداً من الحديث عن الحبة للأعداء ، أو البركات الموعودة لصانعي السلام . و هكذا وجد الدوناتيون أنفسهم ينحبطون في هذا المقدار من الشعبية التي لم يسبق لها مثيل ، إضافة إلى الفوضى العارمة .

ولم تمض فترة طويلة ، حتى اكتشفوا أنهم باتوا مرغمين على أن يكونوا أبطالاً في عصابات من القوم غير المنضبطين الذين لقبهم خصومهم بـ « الدوارين » (Circumcellions) بمعنى « المتسكعين حول المزارع »⁶ . إن المعارك الكلامية اللطيفة نسبياً في قاعات قرطاجة سرعان ما تحولت في المناطق الريفية إلى معركة شديدة وبأسلحة أعنف . لقد كانت تُعد العدة لثورة عارمة تضم أعداداً كبيرة من العمال الذين لا أرض لهم ، والزارعين الذين يستغلون الأرض لصلحة المالك مقابل جزء من المحصول ، و الفلاحين الموسمين . و قد قام الدواريون بتحريض كل هؤلاء الناس . لقد كانوا ساخطين على الضرائب المستمرة الارتفاع المفروضة على الفقراء ، حيث كان يجد الأغنياء ، بطريقة او بأخرى ، وسائل للهروب و الاستفهام من هذه الضرائب . لقد اهتاجوا ثائرين عبر القرى والأرياف وهم يتسلّعون بهراوات ثقيلة ، مدّعين بأنهم جند المسيح ، و هم يطلقون شعارات دوناتية ، زارعين الرعب في قلوب السكان . فنهبوا دور العبادة الكاثوليكية ، و هاجموا قادة كنائسها ، و قتلوا ناظراً واحداً ، على الأقل . كما تدخلوا في التزاعات الشخصية ، فطالبو هنا بدفع دين مستحق ، و هددوا هناك أحد مالكي الأراضي الذي كان قد أتبّعه .

لم يكن بوسع قادة الدوناتيين كبح جماح جماعة « الدوارين » . لقد وجدوا أنفسهم ، ولو سوء حظهم ، وجدوا أنفسهم معهم في القارب نفسه يتمايلون و يترجحون في بحر هائج من دون ربان ولا دفة . لقد هجم العديد من هؤلاء « الدوارين » ، و اندفعوا نحو الأخطار ، غير آبهين لما قد يصيبهم من أثني ، و لا حتى من الموت . فانغمسو في محارسات سكر و عربدة و رقص أهوج حول أصرحة الشهداء . و يخبرنا أغسطسنيوس كيف أن صرخة المعركة التي كانوا يطلقونها « المجد لله »، كانت أكثر رعباً للناس من زئير الأسود . و أخيراً تجمع « الدواريون » في ضواحي بعض المدن ، و بدأوا في عملية تدمير المنازل و ذبح السكان ، إلى أن أرسلت أخيراً الفرق العسكرية لصد هؤلاء المشاغبين وإحلال الأمن و النظام .

كان المديد من الدوناتيين غير راضين عن حلقاتهم الجدد هؤلاء . و حقاً ، كان الدوناتيون و « الدواريون » متصلين رسميًا حتى سنة 347 م . و غالباً ما كانوا قبل ذلك ، على اختلاف بعضهم مع بعض . فقد بقي الدوناتيون لفترة طويلة يرفضون أن يدفن موتي الدواريون في المقابر التابعة لكتائسهم . و لكن رؤساء الدوناتيين في نوميديا ، أعلناوا تأييدهم

«اللدوارين» في تلك المنطقة ، و أخيراً أيدهم نظرائهم في قرطاجة ، ر بما خوفاً من إحداث أي شرخ في صفوفهم . ومنذ ذلك الوقت أصبح مصير الحركتين موحداً ؛ فإما الوقوف سوية ، وإما السقوط سوية .

كان قسطنطين كرجل سياسي ، ملتزماً العمل لمصلحة الكاثوليك ، هذا لأنهم الجماعة المحافظة ، والذين يؤيدون النظام ، ويؤمنون بالوحدة وبالطاعة لأنظمة السلطة . فضلاً عن أن نظارهم كانوا متقيين ، و يتحدون اللاتينية ، و يحميهم أصحاب الأموال الموسرين والأستوادطيين الذين كانوا يديرون الإمبراطورية . فالكاثوليك (على الرغم من معارضة كبريانوس) ، قد اعتادوا أن ينظروا أكثر فأكثر إلى روما ، طلباً لإرشاداتها الروحية . و في تأكيدهم على وحدة العالم ، بات مركز اهتمامهم هو صالح الإمبراطورية وخبرها بكل ، أكثر من انتباهم إلى متطلبات إفريقيا أو مصالحها الخاصة . و من جهة ثانية ، كان الدوناتيون يُظهرون دائمًا شتى حلقات العصيان و القلائل . فإن ميلهم إلى حرية التفكير و التعبير من دون أي وازع ، يُشبه حركة الموناتيين و النوفاتيين الأولى التي كان من الصعب الصعب إخضاعها و ضبطها . و بالإضافة إلى هذا ، فقد كان لسوء حظ الدوناتيين ، أنهم قد جذبوا وراءهم تلك الجماعة من الغوغائيين و الرعاع الذين كانوا يرعبون الأرياف . طبعاً ، بات من الواضح إلى أية جهة سينحاز قسطنطين . و لكنه حاول ، على الرغم من كل شيء ، أن يبقى صبوراً و عادلاً .

لقد ظهر أن مساعيه الحميدة السابقة لمبالغة هذه المشكلة وحلها ، قد فشلت تماماً . و هكذا بات الإمبراطور متغيراً جدًّا من هذا الوضع ككل . ففي العام 317 م ، كتب ثانية إلى نظار الكنائس الكاثوليكية في إفريقيا الشمالية ، داعياً إياهم إلى أن يتحلوا بالصبر على أقصى الحدود الممكنة ، فلا يحاولون أن يشارروا للإساءات التي أسمت بهم على أيدي «اللدوارين» . وفي العام 321 م ، أصل الإمبراطور أنه ، حيث فشلت الأوامر الشديدة الصارمة ، قد ينبع أسلوب الاقناع العذب . من أجل هذا ، منح الدوناتيين الحرية في التصرف ليعملوا بموجب ما تغليه عليهم ضمائهم ، كما توسل إليهم بأن يكونوا متعقلين و أن يسعوا للصلح . لكنهم اغتنموا هذه الفرصة لترسيخ مواقفهم . و هكذا تأسست كنائسهم بشكل جيد حيثناك ، كما ازدادت عدداً و نفوذاً . و في الواقع ، خلال الثمانين سنة التالية ، كان باستطاعة الدوناتيين أن يدعوا أن أكثرية المسيحيين في شمال إفريقيا باتت تباهيهم بولاء وإخلاص .

كيف بإمكاننا تعليل كل هذه الحيوية و الشعية اللتين امتازت بهما هذه الحركة ؟ فعلى الرغم من جججهم الضعيفة التي بناها رؤاؤهم الأولون ، بالإضافة إلى الوحشية غير المنضبطة التي برزت عند بعض أسوأ مشايخهم ، كان هناك ، بين صفوف مسيحيي إفريقيا ، عدد كبير من هؤلاء الذين يمارضون بشكل مبدئي نظام الكنيسة الكاثوليكية العالمية و الميثاق الواضح الذي قطعته مع الحكم الرومان . و بينما كان الكاثوليك يتكلمون اللغة اللاتينية التي يتحدث بها الجنود

والحكام ، كان الدوناتيون يتحدثون في غالبيتهم اللغة الأمازيغية . لقد كانوا يعتبرون انفسهم أفارقة أكثر منهم رومانين .⁷ إن هذا القدر العظيم من الاعتزاز الوطني أضاف زخماً لهذا الجدل المتسامي ، حتى بين أولئك الذين كان ولاؤهم الأول للمسيح . لقد كانت صيحة الدوناتيين «ما للإمبراطور بالكنيسة؟» تعبّر عن مشاعر الكثيرين الذين لم يحصلوا من الأباطرة الوثنيين قبلًا إلا على البلاء والظلم . و الآن يرغبون في إدارة كنائسهم بعيداً عن اليد القاسية الثقيلة للهيئة الكنسية التابعة للإمبراطور . إن مؤتمرات الناظار الكاثوليك ، بعاراتها اللاذعة الرفيعة الطنانة ، لم يكن لها أي وقع في قلوب الرجال والنساء الذين يعيشون قربين من الأرض . أما الدوناتيون بالمقابل ، وعلى أثر إقصائهم عن المدن ، فقد انتشروا في القرى والأرياف ، و هم يتكلمون لغة من حولهم من الأقوام ، و يشاركونهم أشواقهم إلى الحرية ، و هكذا استطاعوا أن يستحوذوا على تطلعات و تعاطف المزارعين والحرفيين الذين وجدوا الملاجأ في ما بينهم .⁸

كان الدوناتيون يرغبون في بدء الأمر ، أن يحكم لهم الإمبراطور ضد مناوئيهم ، لكنهم وجدوا أن الأمر قد انقلب عليهم . لذلك بدأوا يعتبرون بشكل واضح أن الدولة هي خصمهم اللدود ، كما أن الكنيسة التابعة لهذه الدولة هي الأداة الرئيسة لاضطهادهم و التضيق عليهم . فتحولوا بشدة متزايدة ضد البنية الكاثوليكية ، مصرّين على أنها مؤسسة فاسدة و قد تحولت عن المسيح . فانقسم الكثير من الجماعات المسيحية المحلية بعضها على بعض بسبب هذه المسألة . وهكذا وجدت المدن والقرى نفسها و خلال فترة وجيزة ، أمام كنيستين : واحدة للدوناتيين و أخرى للكاثوليك . و كان لكل كنيسة ناظرها الخاص . ثم راح أولئك الذين انحازوا إلى الدوناتيين يعتبرون أنفسهم كنيسة الله الحقيقة ، و البقية التقية التي لم تخل عن طريق الحق . لقد كانوا يناشدون بعضهم بعضاً أن يشجبوا من يعتبرونهم مرتدين و عبدة أصنام . فكانوا يقتبسون آيات من الكتاب المقدس من نحو : «الذلّك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا ، يقول رب ، و لا تمسوا نجساً فائقكم» .⁹ أما الكاثوليك ، من جهتهم ، فاعتبروا أنفسهم دائمًا الكنيسة الحق الوحيدة .

و إذا ما وصل أحد المسافرين الغرباء إلى إفريقيا ، فإنه كان بالجهد يستطيع أن يميز أو يفرق بين تينك الكنبستين ، حيث غالباً ما كان بناء كل منها يقع في محاذاة الآخر . كان عندهم الكتاب المقدس عينه ، كما انهما يتشابهان في كل من نمط العبادة و قيادة الاجتماع . علق أسطنطينوس على هذا الأمر بالقول : «نحن أخوة ، نصلّى إلى الله نفسه ؛ نحن نؤمن باليسوع عينه ، كما نسمع إلى الإنجيل الواحد ، و نرثى المزامير ذاتها ، و نردد الأمانين عينها ، و نسمع الهللويا ذاتها ، و نحن نحتفل بعيد القيمة عينه . فلماذا اتّم خارج الكنيسة ، بينما أنا في داخليها؟»¹⁰

حيرت هذه المسألة قسطنطين مثلما أدهشت غيره أيضاً . كما ان المشكلة ازدادت تعقيداً ، بحيث إن كلاً من الكاثوليك و الدوناتيين راحوا يطالبون بالمتلكات عينها ؛ هذا لأن عملية مصادرة المتلكات وإعادتها ، كانت قد ثُتَّت أكثر من مرة ، و ذلك بحسب ما كانت تشرطه البلاغات السابقة المتقدمة للسلطات الإمبراطورية . و قد حاول قسطنطين في البداية ان يُرهب الدوناتيين

بواسطة المراسيم ؛ و من ثم حاول اقناعهم بواسطة رسالة مقتنة وجهها إليهم ؛ و أخيراً قرر ، ببساطة ، أن يتجاهلهم تماماً . وقد أمل خلفه كونستانس (Constans) أن يرشوهم لأجل إخضاعهم . و لكن دوناتوس ، عندما رأى دراهم هذا الامبراطور ، أطلق كلماته المشهورة التي أصبحت شعار الدوناتيين الذي يلخص إصرارهم على ضرورة نصل الكنيسة عن الدولة : « ما للأمبراطور بالكنيسة؟ » ثم انتقل شعارهم هذا إلى جميع أنحاء إفريقيا الشمالية ، كما أنه أذيع في كل مكان ضرورة الانفصال عن كنيسة الامبراطور ، الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و قد انتهز « الدواريون » هذه الفرصة ليقتربوا فظائع و اعمالاً وحشية وهمجية ، الأمر الذي دفع دوناتوس نفسه إلى أن يطلب تدخل القوى المدنية في هذه المسألة . و لكن لسوء الحظ ، فإن المسؤول العسكري الذي أخمد الأضطرابات ، لم يفرق بين الدوناتيين **الأبرار** و « الدوارين » الذين كانوا مذنبين بشكل واضح . لقد قرر الجيش أن يقتل جنود الأضطراب ، و يجعل عبرة لمن اعتبر من هؤلاء الذين تأسوا الفتنة ، و ذلك من دون تقصي الأمور عن قرب للتحقق من هوية الفاعلين . فتم على أثر ذلك نفي دوناتوس مع آخرين من القادة ، على الرغم من الجهد الشيق الذي بذلها الكاثوليك لمنع ذلك ، و هكذا أصبحوا محتجزين تحت وصاية الامبراطور في روما .

توفي دوناتوس في المنفى في العام 355 م . و قد كان ، على مدى أربعين سنة ، مصدر إلهام هذه الحركة . كان هذا الرجل منظماً عظيماً ، و خطيباً و كاتباً بارعاً و انساناً مستقيماً . كان فخوراً ، و ملوءاً غيرة ، ويرفض اية تسوية . لقد فرض على نفسه و على أتباعه أن يعيشوا في أسمى المستويات المسيحية . و قد أظهر أغسطسنيوس دائمًا احتراماً و تقديرًا عظيمين لمناؤه دوناتوس ، جاعلاً إياه مستوى كبريانوس ، إذ نظر إليه « كجوهرة ثمينة نادرة » في كنيسة المسيح . ثم خلفه في منصبه المدعو پارميانيان (Parménien) ، أحد أكثر المساندين و الداعمين لكتابه و قدرة . و پارميانيان هذا كان أجنبياً ، إما إسبانياً و إما غالياً . و كان بدوره خطيباً بارعاً و كاتباً وافر الإنتاج لكراريس تبحث مواضيع جدلية و خلال مباحثاته مع أحد أنصار الكنيسة الكاثوليكية ، أبواتوس من ملقيس (المليلة في الجزائر) (Optate de Méleve) ، ثجد أن وجهات نظرهما كانت متفقة بشأن أمور كثيرة . إلا أن آيا منهما لم يتوصل إلى تقديم رؤية توفيقية نهاية على هذا الأساس الهش .

و عندما تسلم الوثني يوليان (Julien) العرش خلفاً لأسلافه المسيحيين ، عام 361 م ، ناشدته الدوناتيون الذين كانوا متدينين أن يسمح لهم بالرجوع إلى إفريقيا . و يُعرف الامبراطور يوليان أحياناً « بالمرتد » ، و لم يكن يحترم الكنيسة الكاثوليكية كثيراً ، وقد أثارها لأنها تخلت عن مثاليات المسيح البسيطة . و إذ لاحظ أن الدوناتية هي المفضلة بين كل رعاياه الأفارقة ، لم يرَ سبباً يدعوه إلى صدهم . و سرعان ما استعاد النظار الدوناتيون العديد من أملاكيهم المختصة بكتائبهم ، و راحوا ينظفون أبنائهم بالماء و الملح بشكل علني ، و يبيضون جدرانها بطبقة مطلية بماء الكلس الأبيض . فاعتبر الكاثوليك هذا العمل إهانة في حقهم ، خصوصاً عندما أعيدت معهودية الكثريين منهم مجدداً ليصيروا دوناتيين ، فضلاً عن أن العديد من النظار الكاثوليك أصبحوا من الدوناتيين . لقد استعاد الدوناتيون بسرعة ما فقدوه من قبل .

و حتى ذلك الحين ، لم يظهر الدواريون على أنهم أكثر من مجردة مشاغبين خبيثاء و غوضائين . إلا أن داخل البلاد كان يشهد بعض التحرّكات التي تتبّع بالتدريج لثورة مسلحة منظمة . ففي العام 365 م ، تعاهد عدد كبير من العشائر على القيام بثورة عامة عارمة ، أقل ما كانت تهدف إليه هو إخراج القوة الرومانية و طردها من إفريقيا الشمالية . و كان من بين المتمردين العديد من « الدواريين » الذين أضافوا إلى هراواتهم الخشبية ، كل أنواع السكاكين و الرماح و الفؤوس . و استمرت هذه البلبلة على مدى الثلاثين السنة التالية . و في ظل حكم القائد الأمازيغي المعروف فيرمُوس (Firmus) ، و الذي نصب نفسه «إمبراطوراً لإفريقيا» ، استولى الثوار على مدن قيصرية (شرشال حالياً) ، و ايوكسيوم (الجزائر حالياً) . إلا أنه تمَّ أخيراً توقيف فيرمُوس و قتله في العام 375 م ، و ذلك في مدينة تياسا الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وقد حصل ذلك ، كما قيل ، بتدخل روحي قامت به الشابة التي تدعى سالسا ، على أثر دخول فيرمُوس ضريحها ، و التي كانت قد استشهدت قبل بضع سنوات . ثم بعد ستين ، انتفضت القبائل للمرة الثانية بقيادة رجل يدعى غيلدو (Gildo) أخو فيرمُوس ، و الذي يعتقد بعضهم أنه قد خانه . فقطع غيلدو اسدادات الطعام عن الإمبراطورية ، و هدد بأنه مزمع أن يجعلها ترکع له . و في هذه الأثناء ، أعلن تأييده لكافح الدوناتيين ضد الكنيسة الكاثوليكية . و بالطبع لقد أساء هذا التصريح إلى الدوناتيين أكثر مما نفعهم . عززت القوات الرومانية صفوفها ، و زحفت إلى معسكرات المتمردين . فقتل من جراء ذلك غيلدو و العديد من مسانديه . و هكذا انتهى التمرد .

كانت النصرة من نصيب القوة العسكرية ؛ فتّمت مطاردة المتمردين الذين أخضعوا و هكذا استسلموا في جميع ولايات إفريقيا البروفونسلية و موريطانيا . إلا أن الدوناتية ، مع الذين آيدوها من عامة الناس المتعلمين ، ظلت مهيمنة بقوّة في مناطق أخرى ، و لا سيّما في المناطق الوعرة من نوميديا . و في معظم بقاع إفريقيا الشمالية ، كان المتعاطفون مع الدوناتيين ما زالوا متقدّفين كثيراً على الكاثوليك من حيث العدد . قال جيروم الذي كان معاصرًا لهذه الأحداث ، إن الدوناتية كانت « ديانة إفريقيا كلها تقريباً » .

كانت تلك الأيام محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يحاولون حكم الأقصان الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، و إدارتها . لقد قرر الإمبراطور الجديد هوئوريوس (Honorius) أن يتّخذ الخطوات اللازمة التي تؤدي إلى استقرار الوضع بشكل دائم . فأصدر المراسيم التي تفرض عقاب الموت على كل من يوجد مذنباً في إثارة الفتن و القلاقل . و هكذا أضيف على أولئك الذين قتلوا خلال الأضطرابات المسلحة ، آخرون تم إعدامهم بوجب المرسوم الإمبراطوري . و في أيام قسطنطين ، رجل المشائليات ، لم يُعدم أي واحد من الدوناتيين ؛ لقد ظلَّ هذا الإمبراطور يأمل باستمرار أن يصل إلى صلح دائم و إلى تسوية ، لكنّهم الآن ، بدأوا يقدمون الشهداء لقضيتهم الخاصة . لقد انحازت الدولة إلى مسيحي ضد مسيحي أيضاً ، و ساندت كنيسة ضد كنيسة أخرى . المؤمنون كانوا يموتون ، لا من أجل المسيح ، بل من أجل مجتمعاتهم الخاصة . ولم تظهر علامة على أن سفك الدماء سيتوقف قريباً .

وفي هذه المرحلة بالذات عند انتهاء القرن الرابع و مع حلول القرن الخامس ، دخل أسطنطينوس مسرح الأحداث بكل حذر ، و بعد تفكير عميق . كان قد تبع سير الأحداث باهتمام بالغ . لقد كان له قریب من الدوناتيين ، كما ان المسيحين ، في مسقط رأسه هيبو ، كانوا في غالبيتهم من الدوناتيين . لقد وضع جانباً كل المشاكل الثانوية المترتبة المتعلقة بالفضائح والأنبية والشخصيات ، وأخذ على عاته تأليف كتابين تصويرين كشف فيما للملأ جوهر المشكلة . وقد ضمن هذين الكتيبين آراءه و أفكاره حول طبيعة الكنيسة .

جاءت أفكاره بشأن هذا الموضوع متطابقة الى حد كبير مع أفكار برايانوس ، إلا أنها كانت تحتوي على بعض الفروقات . و هذا ما يميز أسطنطينوس . كان رفض أن يقدم تعريفاً سريعاً للأشياء ، أو أن يستعجل الاستنتاجات . ففي الواقع ، لاحظ المؤرخ باينتون (Bainton) « أنه لم يكن يملك أي جواب بسيط عن أي شيء ». ولكن قدرته العظيمة تكمن في استعداده للتتحدث بصبر و أناة و على مستوى الصدقة مع مناوئيه . كان ، بفضل ذهنه النافذ و المتوفّق يستطيع أن يكشف التناقضات في آية حجة تُعرض كان يوقف أي خصم يسيء استعمال آية آية من الكتاب المقدس لتبرير أمر لم يقصده الكاتب الأصلي فقط . و في المناظرات السابقة ، كان صبره و انتباذه الى تفاصيل الأمور يصلان الى الحد الذي يجعل خصومه المرتكبين و المتحرّرين يفشلون بسبب الإحباط الذي يصيبهم . و هذا ما ألت إليه ايضاً مباحثاته الأولى مع قادة الدوناتيين . كان الخزي حليفهم ، إذ عجزوا عن إظهار حسنات موقفهم .

و منذ البداية ، كان مناوئوه متربدين في مناقشته علناً . كان أسطنطينوس يجد صعوبة بالغة في إلزام مناوئيه بتحديد الزمان و المكان حيث يكون باستطاعتهم مناقشة المسائل موضوع البحث بشكل عادل . لقد أعلن بعض أعضائهم ، و من بينهم كرسكونيوس (Crésconius) ، أن مهارة أسطنطينوس في المنطق و علم البيان ، تحمله أفضل شخصية بينهم . أمّا آخرون ، فكانوا يكتفون بالرجوع الى الأسس الأولى التي سبّبت الشقاق ، و هكذا يرددون ببساطة : « ليس لأنباء الشهداء ما يقولونه لأنباء الخونة ».

ها قد مضى أكثر من ثمانين عاماً على اختيار ماجورينوس كمنافس لكايكيليان في قرطاجة . ان الناس الأحياء الذين كانوا لا يزالون يتذكرون تلك الأيام ، باتوا قليلين . و ربما كان ، أقل من ذلك ، عدد من كانوا يتذكرون أيام الاضطهادات ، عندما قام بعض المسيحيين بخيانته مبادئهم ، إذ سلموا الكتب المقدسة الى السلطات الوثنية . ثم حلّ دوناتوس محل ماجورينوس ، و بعد وفاته تولى شخص آخر القيادة الدوناتية و أعقبه قائد رابع . كذلك ارتباك الدوناتيون ايضاً عندما أقدم بعض أنصارهم على الانشقاق عنهم ، و تعين ناظر آخر في قرطاجة . و هذا يعني أنه بات هناك ثلاثة رجال يطالبون بهذا المركز . كما ازداد التشتويش ، و تفاقم اكثر عندما أعلنت كنائس الدوناتيين في ولاية موريتانيا انفصالها عن الدوناتيين في بقية الأقصاع .

على الرغم من حصول الانقسام في داخل صفوف الدوناتيين ، فإن ذلك لم يُحمد قط حماستهم لقضيتهم . فقد واصلوا تذكرة حرواث الأضطهاد و كأنها جرت حديثاً . و كل ما حدث منذ ذلك الحين ، كان بالنسبة إليهم مجرّد تفاقم لتلك الإساءة الأولى . إن اعتلاء قسطنطين إلى الحكم ، لم يكن في نظرهم يمثل عصر التغيير و انتصار الكنيسة ، كما كان يعتبرها المسيحيون في سائر أنحاء العالم . هذا لأن قسطنطين نفسه قام ضدّهم ، كما ان خلفاءه لم يكونوا أفضل ، في تقديراتهم ، من الأباطرة الوثنين في الماضي .

في هذه الأثناء ، كان الدوناتيون قد ورّطوا أنفسهم في مأزق ، لم يكن من السهل عليهم قط التخلص منه . و موقفهم هذا ، لم يكن بواسع أي مسيحي أن يدافع عنه . و قد وعى الكثيرون من الدوناتيين حقيقة هذا الأمر . فقد ارتكب قادتهم الأولون خطأين فادحين : أولاً انهم بتناقضهم وأسسواها على رجل واحد ، كابيكيليان ، و ما يدعى بعضهم أن هذا الرجل قد عمل ؛ و ثانياً ، كونهم قبلوا في صفوفهم عدداً كبيراً من الناس الذين كانت بوعائهم سياسية أكثر منها روحية ، فانخرطوا بذلك في صراع مرير يتعلق بأشخاص ، و بعد ذلك توّرّطوا في ضرب من الفوضى السياسية التي لم يكن لديهم القدرة و القوة على التحكم بها . و فشلوا في التوصل إلى اتفاقية ودية تتناول مبادئ الحرية و القدسية في الكنائس ، فوجدوا أنفسهم و قد أصبحوا مرغمين على أن يبرزوا بصفتهم مسؤولين عمّا أدى إلى تردّي الاقتصادي و الاجتماعي لم يكونوا هم أصلاً طرفاً فيه .

هل كان ساعد لو أن دوناتوس ، بالإضافة إلى سائر القادة الأولين ، أعلناً جهراً ذلك ارتباطهم بجماعة « الدواريين » ، معتبرين بوضوح عن أنهم يعارضون العنف و يشجعونه ؟ فلربما كان ذلك سينفعهم حقاً و لكن قد يكون أن قادة الكنائس الدوناتية كانوا يخشون أن يولّدوا مشاعر الحقد و الضغينة بينهم وبين الجماهير الغوغائية ، الذين قد ينقلبون في آية لحظة من داعمين متّحدين إلى متّقدين حقودين . لقد عرف الدوناتيون أنهم كانوا يجلسون على برمبل من البارود السياسي ، الذي كان منذ البداية و لا يزال عرضة للاتساع في آية لحظة .

و مع ذلك ، فقد وجد بين صورف الدوناتيين بعض الذين كانوا ، ولا شك ، لا يرتابون إلى الوضع العدائي الذي ازتلق اليه زملاؤهم . كان يمثل هؤلاء المعلم الموهوب **تيكونيوس** (Tyconius) . لم يكونوا يحبون الخشونة التي استخدمها قادتهم في مخاطبة متأوّلتهم . لقد وافقوا على ضرورة أن يتّلزم الجميع بالجيمع الإخلاص و الاستقامة . و لكن الحب كان ، او يحب أن يكون في نظرهم ، تاج الفضائل و العلامة المميزة للمسيحيين . « و عبد رب لا يجب ان يخاصم بل يكون مترافقاً بالجميع صالحًا للتعليم صبوراً على المشقات مؤدياً بالوداعة المقاومين ». 11 ألم يكن بعض مشايعيهم قد أصبحوا مشايعين للفريسيين في نضالهم من أجل حرفة الناموس ، و بشراسة ينكرون معها روح الناموس ؟ لقد كان من الصعب قبول كيف أن حركة كانت تؤكد على الثقاوة و القدسية في الكنيسة ، تسمح لنفسها بهذه السهولة بأن تخوض الطرف عن العنف و المخاصم في تعاملها مع الخارجين عنها .

ومنذ بداية المسألة ، كان بين الكاثوليك انطباط أوفر مما عند مناوئيهم ، بالإضافة إلى المزيد من روح المحبة . كما ان الكثيرين من الدوناتيين كانوا متزعجين في العمق من النجاح الذي أتى اليه الامور . فقد سألا أنفسهم : ما الذي حدث ؟ هل ان قضية الرب يسوع تحرز اي تقدم من طريق قرقة الأسلحة وصيحات المعاشر في التمرادات العنيفة ؟ فلأين هو إنجيل السلام في كل هذا الاضطراب والاحتياج العظيم ؟ وكما تقول كلمة الله : « إن كنت اتكلم بألفة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطنّ او صنجاً يرنّ . وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً . وإن أطعنت كل أموالي وإن سلمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا انفع شيئاً ». ¹² ولكن تلك الأصوات القليلة التي ارتفعت متحججة ، سرعان ما ضاعت بين طنين النحاس ورنين الصنوج . لم تكن هذه الأصوات منسجمة مع المشاعر الملحة العارمة التي كانت عند الجماهير المضطربة . و هكذا راحوا ، واحداً تلو الآخر ، ينسحبون بهدوء ، هاجرين أولئك الذين لم يعد يامكانهم دعمهم .

ذكر أغسطينوس في أنه قد حان الوقت للوصول إلى تسوية ما أو تفاهم . ففي العام 393م ، رتب لعقد مؤتمر أول في هيبيو . وفي الواقع ، عُقد ما مجموعه ثمانية عشر مؤتمراً في الفترة الممتدة بين سنة 393 م وسنة 419 م ، حيث بُحثت تقريراً كل النقاط المتعلقة بالتعليم والتأديب ولم يُستثنَ منها شيء . ومنذ البداية حتى النهاية ، كان أغسطينوس يشدد على نقاطه الخاصة بحزم ودماثة . وهو كان لا يزال يأمل التوصل إلى اتفاقية أو معاهدة سلمية مع قادة الدوناتيين . كان راضياً بتقديم التنازلات ، مثل الاعتراف بنظار كنيستهم وبالنظم التأديبية المفروضة على أعضاء كنيستهم . كما ألحَّ على السلطات الرومانية ألا تعاملهم بقسوة وعنف . كذلك رحب بأي منهم رغب في الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . إن هذا التسامح اللطيف المقبول ، والذى يات مقرروناً بالمزيد من التقوا و الطهارة في الكنيسة الكاثوليكية ، بدأ يستميل إليه بعض أولئك الذين وافقوا على تعاليم ادعاءات الدوناتية في بدايتها ، إلا أنهم امتنعوا من الوحشية الفظة التي يرزت ، في ما بعد ، عند بعض الشابعين اللاحقين .

كان الدوناتيون ، في بداية الجدل ، مدعاومين بوجهات نظرهم العقولة ذات الأصلة الضاربة في القدم . كانوا مشابهين للموتانيين أو التوفانيين في اعتبارهم أن كنيسة المسيح هي شعب الله الذين يتشارون في هذا العالم ، ولكنهم تميزون عنه . لقد اعتقدوا أن عضوية الكثائب المحلية يجب أن تبقى محصورة بالمبشرين المخلصين والحقيقةين من دون سواهم . كانوا يرحبون بأولئك الذين هم خارج هذه الكنيسة ويرغبون في الانضمام إليهم ، ولكنهم يصررون على أن يظهر الواحدون الجدد حقيقة إيمانهم ، مع عزمهم الأكيد على أن يقفوا إلى جانب هذا الإيمان إبان الاضطهادات ، وذلك قبل أن يشاركون تماماً وبالكامل في حياة الجماعة المسيحية وفي عبادتها . أما المبدأ الثاني ، الذي كانوا يتمسكون به باعتزاز ، فهو الاستقلالية ؛ كانوا يرغبون في أن تبقى

كنسيتهم غير مرتبطة بالدولة ، متحورة من قبودها و من قبود هيبة الإدارة الهرمية الكاثوليكية التي كانت تزيد أكثر فأكثر من تركيز إدارتها في روما .¹³

و من الواضح أن هذه النقاط كانت نقاطاً عادلة و من الممكن الدفاع عنها ، و طالما تمسّك بها ترتوليانوس و كبريانوس أيضاً . و يجب كذلك أن تذكر أن الدوناتيين ، كما المونتانيين و التوفاتيين ، كانوا بالكلية على حق ، و ذلك في ما يخص تعاملهم عن الوهبة المسيح و نذاته ، تلك التعاليم و العقائد التي وقعت تحت هجوم خطير و طويل الأمد في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . كذلك رفضوا الأمور التي استحدثناها الكاثوليك ، و التي لا أساس لها في الكتاب المقدس ، كالرهبنة مثلاً . كان الدوناتيون ، بكل تأكيد ، يعيشون في بذاتهم حياة انجيلية صحيحة . إلا أنهم أصبحوا ضحايا الطغيان الكاثوليكي ، كما سقطوا على متى منطلبات السياسية المشتدة في الإمبراطورية ، فأصبحوا ، منذ ذلك الحين ، محظ استخفاف مصحف كبير .¹⁴ و لسوء الحظ ، لم يستطع قادتهم الأولون أن يتحكموا في طبيعة و تطور تحركهم و نشاطهم ، وهكذا كُتب لتصيرفات مشاعيهم المتواضعين وأعمالهم أن تخالف بصمات شائنة على ما بدأ كردهم لائق و نظيف . و انه لأمر مؤسف كون تلك البقع و اللطخات العمياء لا يمكن إزالتها ، فالرداء قد أصبح وسحاً ، و لا مجال لإعادة تنظيفه .

ملاحظات

-1 Eusebius *Vita Constantini* III,15; Bainton p.122

-2 *Traité 5: A Démétrianus* (ANF Vol. V p. 458)

(p. 34) Cooley أتبهها أيضاً

-3 11:5 كورنثوس

-4 17 راجع الفصل

5- بالنسبة إلى الرأي القائل إن ترتوليانوس هو سبق للدوناتيين في مبادئهم ، راجع pp.118-124 Frend . إلا أنه كانت هناك اختلافات هامة بين الدوناتيين في زمن أغسطسنيوس من جهة ، و المونتانيين في زمن ترتوليانوس من جهة أخرى . إن اوضاع خلاف هو تبني الدوناتيين الشامل لنظام كبريانوس الكنسي ، و الذي على أساسه يعيّنون نظارهم الانفراديين و يديرون مؤشراتهم الخاصة . من جهة أخرى ، ان قدرتهم علىبقاء قد تسبب جزئياً إلى أسلوبهم في إشراك أعضاء كنائسهم في الحياة بالروح ، مانحين لهم إحساساً قوياً بالاتمام إلى الجماعة و بالمشاركة الشخصية . كان هذا الشكل من التركيز مونتاني للغاية .¹⁵ (Frend p. 319)

6- أو ربما « أولئك الذين كانوا يسكنون حول الأضرحة » - مدفن الشهداء - حيث كانوا يحصلون على تقدمات من الطعام .

7- « إن العثور في توبيديا على عدد كبير من النقوش الليبية و الرومانوليبية ، حسم المسألة بشأن اللغة التي كانت محكمة بين أوساط التوبيديين المحليين في زمن القديس أغسطسنيوس ، و ذلك لصالح الليبية أي الأمازيغية الأصلية ». كان الدوناتيون ، بكل تأكيد ، يستخدمون اللاتينية في مؤشراتهم و كتاباتهم اللاهوتية . لكن Frend يلاحظ ما يلي : «نعم إن التقوش جاءت باللغة اللاتينية ، فليس هناك شك ، على ما ييلو ، في أن الدوناتيين كانوا يستخدمون اللغة الأمازيغية في اجتماعاتهم في الماء الماء ». (Frend pp. xiv; 335)

-8 يبدو أن بعض المشاعر اللغوية والمرقية كانت من بين العوامل وفدت وراء الشقاق الدوناتي الذي أرهق الكنيسة في إفريقيا الشمالية ، جيلاً بعد جيل ، وتركها ضعيفة وبائسة في وجه أعدائها عندما حضر يوم إدانتها .^٤

(Neill p. 38)

لقد اتاحت الطبقتان السقليتان في المجتمع أي الأمازغ واليونيون لدعم الدوناتيين ، وذلك بالتحديد لأن الإرستوراطية المحلية اللاتينية واللاتين في روما ، كانوا قد تبنوا السياسة المعاكسة أي الكاثوليكية . كان الأمازغ ضد الرومان بشكل بارز . لقد أصبحوا مسيحيين حين كانت روما تغض النظر المسيحيين ؛ والآن راحوا يدعون الفتنة المسيحية التي لا توافق عليها روما .^٥ (Bainton p. 120)

2 كورنثوس 17:6 - 9

Ennarrationes in Psalmos 54:16 (Hamman p. 297) - 10

2 تيموثاوس 25, 24:2 - 11

1 كورنثوس 3 - 1:13 - 12

13 «كان الدوناتيون يعتبرون أنفسهم فريقاً للمحافظة على بديل للمجتمع حولهم ، ولحماية ، كانوا يশمرون بأن هويتهم هي مهددة باستمرار : في البداية من خلال الاضطهاد ، ثم في ما بعد من خلال المساومة ... وبالمقارنة معهم ، إن كاثوليكية أغسطينوس تعكس موقف فريق واثق من قدرته على استيعاب العالم من دون فقدانه لهويته ومستعدة ل لتحقيق ما اعتبر أنه مهمته التاريخية بجهة التسلط على امبراطورية بأكملها ، واستيعابها وقيادتها ». (Brown p. 214)

-14 (راجع 319, 129 - 128 Frend pp.) . وحتى أغسطينوس ، عندما كانت تلوح أمامه الفرصة للتحدث شخصياً إلى مئاريه ، كان يجد أن بعضهم يستحقون أن يكون لهم احترامه الشخصي . وفي إحدى المناسبات ، في 397 م ، شُكّن بصحبة صديقه اليبيوس (Alypius) من زيارة ثورثونيوس (Fortunius) ، الناظر الدوناتي العجوز في ثيرسبوك بور (Thubursicum Bure) ، حالياً تبرسق (Tebourouk) . «فرحب بهما حشداً من الناس متدينين للأخر ، وهكذا اتفق الخصمان متفقين ». ثم اعترف أغسطينوس بالقول : «برأيي ، انه من الصعب ان نجدوا بين نظاركم من يوازي هذا الرجل العجوز بجهة استقامته حكمه على الأمور و مشاعره ». (Brown p. 230)

للحصول على وثائق تتعلق بالمسألة الدوناتية ، راجع :

NAPNF Series 1, Vol. IV . ومن جملة المصادر الثانوية ذكر : Frend (عدة مراجع) ;

Lloyd pp. 206 - 223 (و وخاصة الفصلين 19 & 28) ; Brown

Schaff HOTCC Vol. III (عدة اقتباسات)

Foakes - Jackson pp. 288 - 295, 496 - 502

الفصل العشرون

المناظرة الخامسة

يبدو أن المسألة الدوناتية ستستمر طوال بقية القرن و ما بعده . و من المستحيل على الفريقين ان يتوصلا الى أي اتفاق حقيقي . فالدوناتيون لم يرغبوا في أن يكونوا جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، كما ان الكاثوليك لم يقبلوا بانفصالهم عنهم . لم يرض الدوناتيون بأولئك الذين هم خونة في نظرهم ، كما ان الكاثوليك رفضوا بالمقابل ان يتذكروا لهم .

كانت الحكومة الامبراطورية متشتلة بمشاكلها الخاصة ، و ذلك على أثر أحداث نهب مدينة روما في عام 410 م . و في هذه الأوقات كانت الأمور تتطور بسرعة على الساحة الإقريقية ، آخذة هذه المرة أبعاداً مأساوية ، هذا لأن الناظر الكاثوليك هناك ، أرسلوا بعثة رفيعة المستوى الى الامبراطور هونوريوس (Honorius) ، جاءت تشकّيًّا لديه بمرارة من الحريات المنوحة للدوناتيين في إفريقيا . و في العام 411 م ، وافق الامبراطور على دعوة مثليين الى مؤتمر خاص لإيجاد حلّ نهائي لهذه المشكلة . و كانت جلسات هذا المؤتمر ستنعقد برئاسة مارسيليوس ، والي إفريقيا ، و هو رجل ذو مناقب و فضائل مسيحية شهد لها كل من أغسططينوس و جيرروم في كتابتهما . جاء الوعود للدوناتيين بتعليق جميع العقوبات و الإجراءات القانونية المتتخذة بحقهم من قبل خلال هذه المؤتمر . كما ضمنوا لهم عودتهم الى اوطانهم سالمين ، مهما كانت النتائج . ولكنهم أثذروا بأن رفضهم المشاركة في هذا المؤتمر سيؤدي حتماً الى اتخاذ خطوات قانونية بحقهم ، لاجبارهم على الطاعة و الإذعان .

و بالطبع ، شعر الدوناتيون حيال كل ذلك بأنهم مرغمون على حضور هذا المؤتمر ، سواء أشاءوا أم أبوا . و هكذا ، في نهاية شهر مايو من تلك السنة ، دخلت المدينة مجموعة من 279 ناظراً دوناتياً ، وانضم اليها في ما بعد مجموعة أخرى تتألف من 286 ناظراً كاثوليكيًا . لقد أتوا قرطاً من أماكن بعيدة جداً ، و كان هناك من جاء حتى من طنجة في الغرب ومن طرابلس في الشرق . و في الأول من شهر يونيو ، أخذوا أماكنهم في القاعة الكبيرة التي كانت قد خُصصت لهذه المناسبة ، و هكذا بدأ المؤتمر الأعظم والأضخم من نوعه في إفريقيا . كان لدى الدوناتيين قائد كفوه هو پيتيليان (Pétilian) ، ناظر سيرينا (Cisnitina) ، و الذي كان ، من قبل ، محامياً قديراً متفوقاً . وقف ضده الناظر الكاثوليكي أغسططينوس ، ناظر كنيسة هيبو . كان أغسططينوس آنذاك في الثامنة و الخمسين من عمره وفي أوج عفوانه ، و هو خطيب متعرّس و خصم لدود .

بدأ المؤقر بجتو مشؤوم بالنسبة إلى الدوناتيين ، فافتتح الوالي مارسيلينوس محضر الجلسة بقراءة بيان امبراطوري طويلاً . و هذا البيان حدد القصد من هذا المؤقر : «تأكيد الإيمان الكاثوليكي وتبنته» ، و فيه وصف للدوناتيين «كمن أفسدوا إفريقيا و لطخوها بصلاتهم الباطلة العقيمة ، ويشقاقاتهم الخرافية». بعد ذلك هدر وقت طويل في الشاشة بشأن الاتفاق على شروط الماظرة . فهل كان ذلك اجتماعاً للنثار لبحث القضايا اللاهوتية ، أم هو محكمة قانونية عقدت لسماع الاتهامات الكاثوليكية ضد الدوناتيين و اقرارها ، و من ثم اصدار الحكم بحقهم ؟ كذلك دار بحث مطول حول التفاوت العددي القليل بين الممثلين عن كلا الفريقين : فالكاثوليك أحضروا عشرين ناظراً إضافياً حتى لا يكونوا من الأقلية ، و ادعى الدوناتيون أنهم لا يزالون الأكثرية إذا ما أحصي أعضاؤهم الغائبين . بعد ذلك وجوب تبنته هوية كل المشاركين ، وسط موجة من الاتهامات والاتهامات المضادة . و أخيراً تم اختيار سبعة نثار عن كل جانب ليمثلوا جماعتهم .

إلا أن كلا الفريقين استمرا في تقديم اعتراضاتهم . فاقتراح مارسيلينوس ، بأن يقوم الدوناتيون بتعيين قاض آخر برتبة مائة لرتبته لكي يشاركه في الحكم ، و ذلك في حال لم يرتاحوا في الاختمام إليه . إلا أن الدوناتيين رفضوا الاستفادة من هذا العرض ، معلنين أنهم لم يطلبوا أساساً الحكم الأول ، و لا هم سيبطّلون الحكم الثاني . و عندما طلب مارسيلينوس من الدوناتيين أن يجلسوا ، رفضوا ذلك قائلين إن الكتاب المقدس يعندهم من الجلوس مع الآئمة والفحجار . و إذ ذلك أمر مارسيلينوس بنقل كرسيه ويقي واقفاً هو أيضاً . و عندما تحدث أسطينوس بلطف و دماثة داعياً الدوناتيين «بالإخوة» ، لم يقبلوا هذه المبادرة اللطيفة ، معلنين أنه لا يوجد أية اخوة بينهم وبين الآشرار . و على الرغم من هذه التأثيرات ومشاعرها ، التي دامت على مدى اليومين الأولين ، بدأ المؤقر فعلياً في يومه الثالث ، فكان المتحدثان الرئيسان أسطينوس عن الجانب الكاثوليكي ، و بييليان عن الجانب الدوناتي .

و اهتاجت المشاعر جداً . بييليان ، في الواقع ، هو الذي رفع الجولات الأولى . كان حريصاً على توجيه المباحثات بعيداً عن قضية كايكليان التي كان قد جرى إقرارها ضد جماعته من قبل قسطنطين . كان يعلم أن الوالي مارسيلينوس ملزم بدعم التشريعات الامبراطورية السابقة . و عوضاً عن ذلك ، تصرف بييليان بحكمة إذ سحب البساط من تحت أقدام مجموعة من الحجاج والدعاعي المؤثرة ، حتى إذا أرادوا ان يصدروا الأحكام باسم الامبراطور بحق الدوناتيين ، عليهم أولاً أن يبرهنو أنهم الكنيسة الحقيقة في إفريقيا ، و التي لها الحق في إدانة أصدادها و مناوئتها . دو فجأة تحوك المؤقر إلى مناقشة عامة حول طبيعة كنيسة المسيح الحق : و كان الدوناتيون قد أعدوا لأجل هذا الغرض بياناً رسمياً مؤثراً¹⁴ . و هكذا استمرت المباحثات خلال ثلاثة جلسات عبر ثلاثة أيام متصلة . و خلال يومين و نصف من هذه الجلسات ، تم اجتناب الحديث عن قضية كايكليان . أما في ما يتعلق بموضوع الكنيسة ، فقد أظهر الدوناتيون تفوقاً واضحاً على منافسيهم . أما بالنسبة إلى طرق تحديد التعاليم المسيحية و ممارساتها ، فقد تجلى مؤقر عام 411 م منذ بدايته ، في تحقيق إنجاز عظيم : لقد أكد قبول كلا الطرفين المتنازعين بسلطة الكتاب المقدس

المطلقة ، واعتباره المرشد الجازم لقضايا معتقدات الكنائس و ممارساتها . كان يتم الاقتباس من الكتاب المقدس على نطاق واسع خلال المناقشات و الماناظرات السابقة ، لكنه جرى هذه المرة التمييز الخامس بين الكتب القانونية للعهد الجديد ، كما هي متوافرة لدينا اليوم ، و سائر الكتابات المسيحية الأولى . و هكذا نجد أن كلاً من أغسطنطيوس و پتيليان رجعاً إلى العهد الجديد ، كما هو محدد هكذا بوضوح ، لدعم موقفهما . كان الدوناتيونين يربضون في الاستعامة بمقررات مؤتمراتهم الخاصة ، بالإضافة إلى الررقى والأقوال المأثورة - المدعومة بما يعتبرونه معجزات - التي تخصّ أنبياءهم و شهداءهم . وقد كان للكاثوليكين أيضاً بيانات و تصريحات من مؤتمراتهم الخاصة ، بالإضافة إلى مواقف نظارتهم في اتجاه أخرى من العالم . و لكن لم يكن من السهل التوصل إلى اتفاق على أساس هذه المصادر المزعومة والمشكوك فيها . و على الرغم من بعض المعارضات قرّ الرأي أخيراً أن تُبحث هذه المسألة في ضوء شهادة الكتاب المقدس وحده .

لقد وافق الطرفان على وصف كنيسة المسيح «بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة» . إلا أن الدوناتيين أصرّوا على ضرورة أن تكون بشكل رئيس «مقدسة» ، فيما شدّ الكاثوليك على فكرة أنها «كاثوليكية» أي جامعة و عامّة ، غير آبهين كثيراً إلى القداسة المنظورة و الظاهرة . لقد كانت الحجة الأساسية عند الكاثوليك ، تلك الحقيقة التي لا يمكن إنكارها ، أن الدوناتيين فصلوا أنفسهم عن المسيحيين الآخرين . فاليسوع ، كما قالوا ، يرغب في أن تكون كنيسته موحدة . نعم بالطبع ، أجاب الدوناتيون ، ولكن يجب أن تكون كنيسة المسيح مقدسة كما أنه هو قدوس . إن الصيحة التي كانت بمثابة شعائرهم ، كانت التوصية الرسولية «فاعزّلوا الخبيث من بينكم !² و التي كانوا يطبقونها على كايكليان و على كل من كان يدعمه . عندئذ أشار أغسطنطيوس إلى أن مثل هذا العمل التأديبي هو من مسؤولية قادة الكنيسة المعتمدين رسمياً ، و ليس من مهمة فرق داخلية منشقة عنها . فرّ الدوناتيون بالقول إنه كان ينبغي في هذه الحال طرح من هم على طراز كايكليان خارج الكنيسة عوضاً عن تعينهم نظاراً . و هكذا اعتبروا أن الكنيسة الكاثوليكية فشلت في تطبيق التعليم بشأن التأديب الكنسي الذي تحدث عنه بولس الرسول . وإذا قصرت الكنيسة الكاثوليكية في القيام بمسؤوليتها الإلهية هذه ، و عصت وبالتالي كلمة الله ، فقدت بذلك احترام المسيحيين الحقيقيين وولاءهم لها . لذلك اقتبسوا كلمات المسيح : «انا الكرمة الحقيقة و ابي الكرام . كل غصن في لا يأنى بشعر ينزعه . . . إن كان احد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف»³ . و هكذا اعتبروا أن كايكليان مع جميع الذين ساندوه ، كان الغصن الذي قُطع من المسيح . أما بالنسبة إليهم ، فقد بقوا في الكرمة ، كنيسة بطرس الحية ، لا كنيسة يهودا الساقطة .

لقد أدعى الدوناتيون أن جماعتهم ، و ليس جماعة الكاثوليك ، هم في الواقع ورثة كبريانوس الحقيقيين . ألم يقبل كبريانوس الاستشهاد مفضلاً ذلك على القبول بتسوية مع العالم ؟ لقد قالوا إن الكنيسة الحقيقة هي التي ثبتت في الاضطهاد ، لا الكنيسة التي تضطهد الآخرين . فالدوناتيون كانوا في الواقع يعتبرون أنفسهم دائمًا المشلين الأفارقة الشرعين للكنيسة

الجامعة العالمية . عندئذ سأله أغسطينوس عمّا إذا كان يجوز اعتبار الدوناتيين ، الذين يقتصر وجودهم على قارة واحدة ، أنهم كنيسة المسيح الحقيقة في إفريقيا ، في الوقت الذي يعترف العالم بأسره بأن هذه الصفة هي من حق ملوكهم . فرد عليه الدوناتيون بالقول إن الحدود الجغرافية لا تعني شيئاً : لقد جاء ابن الله إلى هذه الأرض و سكن في مدينة صغيرة ، كما كان له خلال خدمته ، عدد من الأتباع أقل بكثير من عدد أتباعهم . ثم أرددوا فائلين ، إنه في مجال القضايا الأخلاقية ، يكون الحق عادة إلى جانب الأليلة ، حيث أن الأكثرية الصائمة هي حتماً من تسلك الطريق الواسع المؤدي إلى الهلاك .

كان الدوناتيون يعتبرون أنفسهم البقية الندية ، و الكنيسة الندية الصافية التي لم تطفئ روح الله ، والتي يسمع الله صلواتها . و هي الكنيسة الوحيدة التي كانت تهتم بالقداسة ، كما أنهم وحدهم من رفضوا الخطايا و التعذيبات التي تُبعد الإنسان عن الله . و هكذا انتسب بيتيليان من نبوات العهد القديم ، مبيناً كيف أن الله غالباً ما صمم ذاته و لم يستمع إلى طلبات شعبه المختار وذلك بسبب شرورهم ، كما وعدهم بفتح الخلاص لبقية ندية فصلت نفسها عن جماعة الأشرار .⁴ فاقتبس بهذا الصدد كلمات المسيح حين قال : «ما أضيق الباب و أكب الطريق الذي يؤدي إلى الخلاص ، و قتيلون هم الذين يجدونه» .⁵ أما أغسطينوس ، فأنكر إمكانية تطبيق هذه الآيات على الأمور التي كان يحيثها المؤمنون .

و أغسطينوس من جهة ، كان مستعداً لأن يذهب إلى أبعد الحدود من أجل إصلاح الإسلام و الوصول إلى تسوية ، و لكنه لا يقبل التنازل عن المبادئ التي يعتبرها عزيزة و غالبة .⁶ لقد اعتبر أن مفهوم الدوناتيين للكنيسة هو مغلوط ، إذ خلطوا بين الكنيسة المنظورة والعاملة في هذه الدنيا والكنيسة غير المنظورة و الممجدة في السماء . ففي نظره ، أن الكنيسة على الأرض تشبه دائماً فلك نوح ، و هي ملجأ للضعفاء و الساقطين . و لن تكون ظاهرة وبلا عيب إلا في السماء . فما دام الكون باقياً ، لا بد للكنيسة من أن تحتوي على أعضاء غير مستحقين ، لن يتم عرلتهم إلا في الدينونة الأخيرة . و إلى أن يحين ذلك الوقت ، لا يحق لأي إنسان أن يحكم على أخيه الإنسان . و كل من تخلى عن الكنيسة و هجرها لأنه وجد أن أعضاءها غير مستحقين ، بات هو نفسه ملانيا ، و خطيبه أعظم من خطيبهم ، لأنها خطيبة الانقسام التي هي إساءة إلى المحبة .

كل ذلك أشار أغسطينوس إلى المثل الشهير عن الخنطة و الزوان . فالكنيسة ، قال أغسطينوس ، ستبقي تحتوي على كلّ من الخنطة و الزوان ، أي الناس الصالحين و الأشرار معاً . «أتريد أن تذهب و نقشع الزوان؟» سأله العمال في المثل ، «كلاً» ، أجابهم السيد ، «دعوهما ينمين كلّاهما معاً إلى الحصاد» .⁷ فالحصاد لن يحصل إلا في يوم الدينونة العظيم ؛ و هكذا لن يتم فصل الأبرار عن الأشرار إلى أن يحين ذلك الوقت . و بعد ذلك أشار أغسطينوس أيضاً إلى مثل الشبكة المطروحة في البحر ؛ و هكذا اعتبر أن الكنيسة هي أشبه بشبكة طرحتها الصيادون في البحر ، فأمسكوا بواسطتها سمكاً ، بعضه صالح و بعضه رديء . و لكن عملية فرز هذه الأسماك لا تحصل إلا «في انقضاء العالم» ، عندما «يخرج الملائكة و يفرزون الأشرار من بين الأبرار» .⁸

فالكنيسة ، قال أسطينوس ، لا بد من ان تحتوي على الزوان في وسط الخنطة ، والسمك الرديء مع السمك الجيد . و ليس من واجب الكنيسة ان تحكم بين هذا و ذاك ، بل ان تعلم وتشجع الجميع ، و تعمل على تحسين اوضاع الضعيف والضال والجاهل .

لكن هذه الأمثال لم تكون ، في نظر الدوناتيين ، تصف الكنيسة على الاطلاق . فبموجب التفسير الذي عرضه المسيح نفسه ، إن الخنطة والزوان ينموان ، لا في الكنيسة بل في العالم ؛ كما أن صيد السمك لم يحصل من داخل الكنيسة بل من العالم . «الحقل هو العالم» ، هذا ما قاله المسيح بوضوح وبصراحة . إن الزرع الجيد والروان ينموان سوية في المدن والقرى ، وليس داخل الجماعات المسيحية . و كذلك السمك الجيد والرديء ، فلا يتم جمعها من كنائس ، بل من الشوارع والأسواق حيث يختلط الاثنان معًا حتى القضاء العالم . إنه لا يصح أبدًا اعتبار أن هذين المثلين يشيران إلى الصالحين والطالحين المحتلتين من غير تغيير في الكنيسة ، حيث لم يكن هناك بعد أيام كنيسة عندما تقوه المسيح بهذين المثلين . فهذا المثلان ، إذا ، هما وصف مملكت الله . ولا يصح إطلاقاً أن نعتبر هذا الأخير مساوياً للكنيسة المسيحية . أما جواب أسطينوس ، فجاء ليؤكد ببساطة أن هذين المثلين يشيران إلى الكنيسة .

كان أسطينوس قد كتب من قبل تشنيدا دقيقاً موقف الدوناتيين من الأسرار الكنيسة . فهم يعتقدون أن شعائر المعمودية او العشاء الرباني التي تقام بواسطة انسان غير مستحق ، هي في الواقع خالية من البركة الإلهية . إن الناظر الكاذب هو في نظرهم أشبه بالنبي الكاذب او المعلم الكاذب ، ولا يمكنه أن يقود شعب الله إلا إلى الضلال ؛ وهكذا ليس بمقدوره أن يكون سبب بركة لهم .⁹ لم يوافق أسطينوس على ذلك ، هذا لأنه اعتبر أن المسيح نفسه هو الذي يقدم الأسرار بشكل فعلي ، و هكذا لا يكون الناظر سوى مجرد وكيل يختاره المسيح ليعمل من خلاله . إن شرعية الأسرار و صحتها لا يمكن إيطالها بسبب خلق من يخدمها ، تماماً كما ان أشعة الشمس لا يمكن ان تنتجان اذا ما اشرقت من خلال مجرى المياه المفتوحة .¹⁰ و بموجب هذا المبدأ ، حتى ولو ثبت أن كابكيليان قد خان الكتاب المقدس ، إذ سلمه الى أيدي الملحدين و الكفار ، و حتى لو اترف إساءات أفظع ، تبقى الأسرار التي يحصل عليها الشعب بواسطته فعالة تماماً و نافذة ، لأنه الشخص الذي اختاره الكنيسة الكاثوليكية العالمية - و بالتالي المسيح - ليكون ناظراً في قرطاجة . و لكن ، أضاف أسطينوس ، لا تنفع هذه الأسرار إلا للمسيحي الذي يتمنى الى عضوية الكنيسة الحقيقة ، اي الكنيسة الكاثوليكية . فإذا ما انفصل عن الكنيسة الحقيقة ، لا يعود بإمكانه الحصول على بركة المسيح . و بالطبع ، لم يكن الدوناتيون ليوافقوا على فكرة أن الكنيسة الكاثوليكية هي وحدها الكنيسة الحقيقة ، ولا على كون أسراؤها هي فعالة بشكل اوتوماتيكي . فلم يكتنعوا بتفسير أسطينوس هذا للكتاب المقدس .

ولم يصبح أسطينوس سيد الموقف إلا في الجلسة الأخيرة . كان مزمعاً ان يفرض على اخصامه اخذ قرار بشأن قضية إدانة كابكيليان ، هل خان هذا الناظر الإيمان و أفسد الكنيسة الكاثوليكية في إفريقيا أم لا ؟ و في ما يتعلق بمسألة خطأه كابكيليان ، وجد الدوناتيون أنفسهم على ارضية مهزوزة . و هنا شعر پتيليان بالإراج الشديد ، الأمر الذي دفعه أخيراً الى أن

ينحدر الى الحد الذي فيه شرع يعتقد اسطينوس على فترة المجنون التي عاشها في أيام شبابه ، مع تلميغ مبطّن على أنه كان لا يزال ، قليلاً ، يتمتع الى طائفة الماتوين . فاعترف اسطينوس بالخطايا التي اقترفها قبل اهتدائه الى اليمان المسيحي ، مصراً أنه لولا نعمة الله ، لظل بلا رجاء . إن سمعته الأدبية غير الملوّنة ، مع كتاباته اللاهوتية المشهورة ، كانت كافية لرد جميع هذه الاتهامات المرجحة اليه .

من ثمّ سأله بيتيليان السؤال الأكثر صلة بالموضوع فقال : «لماذا يستعمل الكاثوليك القوة القسرية لإخضاع أولئك الذين يخالفونهم الرأي او يقاومون سلطتهم ؟ في نحو العام 408 م ، كانت وجهات نظر أسطينوس بشأن مسألة الإرغام القانوني ، قد تغيرت . ففي السابق كان يرغب في الاعتماد فقط على تأثيرات الإقناع . قال قائلاً : «أنا لا أريد أن أجبر أي إنسان على أن يؤمّن ضد ارادته »¹¹ و لكن الدوناتيين ، في رفضهم المستمر أن يقتعنوا ، استندوا أخيراً صبر أسطينوس و طول أناه . بالإضافة الى هذا ، كان أسطينوس قد رأى بنفسه مؤخراً أن كثيرين عادوا الى الكف الكاثوليكي ، وذلك من طريق التهديد بالعقاب . ففي مدحه هبتو ، تحولت الأقلية الكاثوليكية الى الأكثريّة بواسطة هذه الأساليب ، و هكذا بدأ يشعر أن الهدف يزداد الوسيلة في مجال استخدام القوة القسرية هنا . وقد حاول أن يجد مبرراً لعمله هذا من الانجيل ، فرد على بيتيليان مقتبساً كلمات من مثل قوله يسوع : لكن المعنى المعروض لهذه الكلمات جاء مخالفاً سياقها : «الزموهم بالدخول »¹² لم يكن فقط من الدعاة الى استخدام العنف ، لكنه بدأ يؤكد تقييد حريات الدوناتيين و مصادرة أملاكهم كوسائل فعالة لجهة دفعهم الى الرجوع الى الكنيسة الكاثوليكية . كذلك أشار الى القوانين التي سنت حدinya ، و التي تفرض عقوبة الموت على كل من يمارس السحر الأسود و الشعوذة و عبادة الأصنام . و يبدو أن الدوناتيين أنفسهم لم يكونوا ليفكروا قط في معارضته هذه القوانين . فإن كان يحق فرض الخضوع والامتثال بالقوة خارج نطاق الجماعة المسيحية ، أفالا يجوز تبرير استخدام هذه الأساليب داخلها ؟

في الواقع ، لم يكن أسطينوس رجلاً قاسياً او حقداً . كان يعارض بشدة اي استخدام لأسلوب التعذيب في عملية محاكمة المجرمين : إنها تدفع الأبرياء الى الاعتراف بأعمال لم يقترفوها فقط ، ثم تتركهم مشوّهين . كذلك لم يكن ، يؤكد فكرة إزالة حقوقية الموت بالهراطقة الأمر الذي كان يدعو اليه بعض الكاثوليك أمثال أپياتوس من ملفيس . كان باستطاعته ان يتعرّف فوق الوسائل القانونية المتّبعة ، إلا أنه ، كان هو نفسه قد أصبح مرهقاً من جراء الصراعات المزمنة . بات لا يرى طريراً آخر لإعادة النظام . و إذ كان قد قطع الأمل من امكانية الانتصار على الدوناتيين بقوة المطلق ، تحول الى استخدام قوة القانون . لقد أدرك ، على مضض ، الحقيقة الممزوجة أن كنيسة الدولة - أو آية ديانة تابعة للدولة - لا تستطيع أن تضمن امتثال الناس لممارستها و إذعانهم لموظفيها إلا من طريق التهديدات الرسمية ، و اذا اقتضى الأمر استعمال الإكراه المادي .

و اذا ما نظرنا الى الوراء ، فإننا نرى بوضوح كيف أن روح الامبراطورية الرومانية قد زحف الى قلب الكنيسة الكاثوليكية : لقد رضى الصنوف بقصد السيطرة على العالم . الامبراطورية الرومانية و الكنيسة الكاثوليكية ، السلطة الدينية و السلطة الدينية ، الكرمتان تشابكتا لكي يدعم

أحدهما الآخر ؛ و نحن نرى في المؤتمر الذي عُقد في العام 411 م ، باكورات اتحادهما هذا . إنه لأمر مؤسف أن يُصار إلى استعمال القوة السياسية لفرض الطاعة والإذعان . و هذا المنهج عينه هو الذي أتبّعه الكنيسة الكاثوليكية ، في كل مكان من العالم ، و على مدى القرون المتعددة . لقد عملت قادتها إلى تبرير سياسة القهر والإكراه هذه ، مستخدمن لأجل ذلك الحرج عينها التي قدّمتها أسطنطينوس في هذا المؤتمر . إنه لأمر مأساوي أن يكون هذا الرجل المحب بهذا المقدار هو أول من حرك تاريخاً مظلماً ومخزياً كهذا . و لكن قوى الطبيعة البشرية ، و متطلبات السياسات الدينية ، كانت قوية جداً حتى على أسطنطينوس نفسه .¹³

اما الوالي مارسيلينوس ، الذي كان حتى ذلك الوقت بعيداً عن هذه المباحثات ، فقرر أن يتدخل . لقد أهمل طلبات بخصوص تنظيم الكنيسة ، ثم أصدر حكمه ضدّ الدوناتيين في ما يتعلّق بقضية كابيكليان . لقد تأثّر بانضباط أسطنطينوس و بلطفه و كياسته المقنعة . و حتى لو لم يكن مارسيلينوس قد جاء إلى هذا المؤتمر باقتناع مسبق بأنه من صالح الامبراطورية أن تنصر الفرق الكاثوليكي ، كان لا بدّ له من ان يتوصّل إلى هذه النتيجة عينها ، و ذلك من جراء التصرفات الفظة لممثلي الدوناتيين الذين تزايد شعورهم بخيبة الأمل مع مرور الوقت . هذا و قد سمع لهؤلاء بالعودة إلى ديارهم آمنين ، و قد أعطيت لهم فرصة لتفكيروا مليئاً في الشروط البسيطة المعروضة عليهم . فيما كانونم الاحتفاظ بكنائسهم و أبنائهم و نظارهم إذا عادوا و التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، و قبلوا تعاليمها ، و أذعنوا لمراسيمها . و لكن إذا ما رفضوا ذلك ، فيكابدون أقصى العقوبات بموجب القانون .

و عند مغادرتهم المؤتمر ، أدعى الدوناتيون ، بتفاؤل مثير للشفقة ، بأن المعاشرة كانت لصالحهم . ثم عادوا و رفعوا قضيّتهم ثانية إلى الامبراطور ، و لكن من دون جدوى . و في السنة التالية ، 412 م ، صدر مرسوم اشتراعي يفرض غرامة باهظة على كل من يرتبط بنشاطات مسيحية خارج الكنيسة الرسمية الكاثوليكية العالمية . أمّا الفقراء الذين لا يتمكّنون من دفع هذه الغرامة ، فسيجري ضربهم ضرباً مبرحاً . لقد أعطيت الأوامر للسادة بضرورة إجبار عبادهم بالإذعان لهذا القانون . كذلك قضى المرسوم بإقصاء النظار الدوناتيين عن أوطنهم ، و بمصادرة أراضيهم و دور عبادتهم . و كان العقاب الصارم من نصيب كل من تسوّله نفسه أن يحميهم أو يقدم لهم اللنجا . و كان كل هذه الإجراءات لم تكن قاسية و عنيفة بما فيه الكفاية ، حتى انه تمّ ، بعد ستين ، سن القوانين التي تحرمهم من حقوقهم المدنية .

هل كان انكسار الدوناتيين انتصاراً شخصياً لأسطنطينوس ؟ و هل كان نفوذه في المعاشرة حاسماً؟ على الأرجح لا . فقد كانت هزيمتهم محتممة منذ المرحلة الأولى . و هكذا ، كل ما فعله أسطنطينوس هو أنه أمال قليلاً كفة الميزان الذي كان أصلاً راجحاً ضدهم . و منذ ذلك الوقت ، راحت الدوناتية تضعف بسرعة ، ليس بسبب المراسيم الاشتراكية الامبراطورية ضدهم فحسب ، بل لأن الحركة بحملتها كانت قد فقدت نفوذها ، و لم يعد من الممكن معالجة الأمر . كان الكثير من المتعاطفين مع هذه الحركة قد عادوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية حتى قبل انعقاد المؤتمر عام 411 م . أمّا بالنسبة إلى الآخرين ، فقد حملتهم هذه الإجراءات الامبراطورية على اتخاذ القرار

الذي كان ، على كل حال ، في بهم منذ وقت طويل . أما أولئك الذين كانوا بين صفوف الدوناتيين والذين هم أحكم من سواهم وأكثر تشبهاً بال المسيح ، فقد ازدادت خيبة أملهم بجهة إخساق قادتهم ، إما في ضبط جماعات « الدوارين » ، وإما من خلال الانفصال والاعتزال عن هؤلاء الرعاع . إذ لم يعد هناك مسيحيون يأمدونهم أن يتحملوا شناختهم .

تم تطبيق هذه القوانين الجديدة بصرامة ، و هكذا حلّت الضربة القاضية بتلك الأقلية الباقة من الحركة التي كانت تشكل غالبية المسيحيين في إفريقيا الشمالية . كما أن الاعلال الذي اصاب الامبراطورية بعد نهب روما الذي حصل سنة 410 م ، لم يسبّ اي انتعاش في الدوناتية او اي بعث لهذه الحركة . لقد اشترك أغسطينوس بمناظرة علنية أخرى مع من بقى من نظارهم . وقد حصل ذلك في العام 418 م في قيصرية (شرشال حالياً) ، ولم تسفر هذه المناظرة عن آلة نتائج إيجابية ، وأصبح جلياً أن هذه الحركة قد ماتت و انتهت . ليست قضية الدوناتيين من القصص التي تبني المؤمن أو تشجعه ؛ إنها ، من وجوه عديدة ، محنة للغابة . إلا أنها تقدم لنا دروساً قيمة و عبراً ، و هنا تكمن قيمتها الحقيقية .

اما الكاثوليكيون ، من جهتهم ، فلم يستمروا طويلاً بنصرهم . هذا لأن كنائسهم ، مع ما نقى من الجماعات الدوناتية القليلة ، رضخوا بعد هذا الوقت بفترة قصيرة ، للهجاجين الونداليين (Vandals) . ولم نعد نسمع شيئاً عن هذه الحركة سوى أنها قد انتعشت لمدة قصيرة بعد مائتي عام اي في القرن السادس ، علمًا أنهم لم يكسبوا اي أتباع في اي جزء آخر من العالم . لقد قاومت الدوناتية كل عروض الجماعات الهرطوقية الموجودة في اوروبا و آسيا الصغرى ، و انتهت أخيراً كما بدأت : حركة محلية مقتصرة على إفريقيا ، و لكنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنهوض الراهن و السقوط المأساوي اللذان اخبرتهما كنيسة المسيح عند السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . إنهم يمثلون آخر و أعظم تحسيس لذلك النموذج المتكرر الذي تميز به تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية : تفسخ الجماعات المسيحية و انحلالها في فترات السلام ، تلك الجماعات التي كانت مزدهرة و متعمسة في أيام الاضطهاد . إن المنازعات التي تحصل بعد الاضطهاد كانت دائمًا تسبب الأذى للكنيسة أكثر من الاضطهادات نفسها .

لم يحظ الدوناتيون بشعبية بين مؤرخي الكنيسة . و ربما كان السبب في ذلك هو عدم حوزتنا سوى التأريخ البسيط من الكتابات الدوناتية . كانوا يفوقون الكاثوليك عدداً ، و ذلك على طول الفترة منذ بداية الأزمة حتى نهايتها ، ولكن لعلهم لم يكتسبوا إلا الشيء القليل عن مسألتهم ، أو أنه لم يُحفظ لنا سوى شيء القليل منها . و بالجهاد يمكننا أن نشكّن بشأن أهداف أعضائها الأكثر اعتدالاً و اتزاناً وأمالهم : فإن معظم هؤلاء لم يكونوا من الكتاب البارعين ، و لا من الخطباء الفصيحين ، كما أن زملاءهم المشاغبين سرعان ما حجبوهم عن الأنظار . وهذا هو غالباً قدر الإنسان العاقل والصيف ، إذ إنه يُداس ويُسحق تحت أقدام المتطفين : لا يوجد عنده ميل نحو الصراعات و المباحثات ، و هكذا ينسحب من المعركة في آخر المطاف ، به حزن أعمق ، لكنه يخرج بكل تأكيد أحكم من قبل . و المستدارات التي وصلتنا من هذه الحقبة ، كان قد كتبها بعض المسؤولين الرسميين الامبراطوريين ، أو مؤيدين للفريق الكاثوليكي . إن معظم الشروحات الحديثة

الأخرى في ما يختص بهذه المسألة هي أيضاً ثمرة عمل مؤرخين ذوي النزعات والبول الكاثوليكيه أو الأسقفية . و نادرًا ما يُفكّر في هذا الموضوع من وجهة النظر الأخرى ، أي من وجهة نظر الفريق الدوناتي .

إلى ذلك ، فقد ظهر الدوناتيون منذ ذلك الحين بسمعة تزداد سوءاً ، حيث نجدهم معارضين و مقاومين ، بشكل واضح ، فكرة اشتراكهم في المؤترات ؛ إنهم يرفضون آية تسوية و ينتحقظون على شتى عروض الصدقة الحبية . ينبغي علينا ألا ننسى في إدانتنا لهم على هذا ، حيث إننا نتعرّض بذلك إلى تجاهل حقيقة أن سلاح المؤترات والتسوية و الصدقة ، كان الأسلوب الذي أراد الكاثوليك انتهاجه بهدف إقرار المصالحة و الوحدة التنظيمية . أما الدوناتيون ، فكان اهتمامهم أن يُتركوا و شأنهم ليستطيعوا إنشاء كنائسهم الخاصة بموجب الباديء التي رسموها لأنفسهم . كانوا يعرفون أنهم لن يكتبوا أي شيء من المؤترات او من التسويات . لم يكن عندهم آية أطماع لفرض نفوذهم على الكنيسة الكاثوليكيه او للتلطّط عليها . كل ما كانوا يريدونه هو التحرّر منها . لقد وافقوا على المشاركة في المؤترات المتكررة التي كان ينظمها الكاثوليك ، على الرغم من علمهم المسبق بأن أغسطينوس ، خصمهم اللدود ، يتفوق عليهم بقدراته الخطابية و الفكرية ، حتى إنهم لا يستطيعون مجاراته . إن هذا القبول يدل على إيجابية محدودة عندهم . كانوا يأتون إلى هذه المؤترات ، ربما لإظهار عدد أتباعهم وقوتهم ، و ربما أيضًا لأجل عرض قضيتهم ، و بالتالي كسب تعاطف الناس ، أو ربما أيضًا بسبب اضطرارهم قانونياً إلى أن يشاركوا في هذه المؤترات . ولكن من المؤكّد أنهم لم يشاركوا رغبة منهم في إكراه الكاثوليك و إجبارهم على الطاعة ، كما كان الكاثوليك يريدون ان يفعلوا معهم .

إن الانتقادات التي وجهت إلى الدوناتيين تبثّت بشكل رئيس من كونهم يعتبرون أنفسهم منفصلين عن الكنيسة الكاثوليكيه الرسمية . وعلى ضوء كل ما حدث في ذلك الوقت ، نجد انه ليس بإمكاننا اعتبار هذا الأمر خطأ فادحًا ، هذا إن كان خطأ على آية حال . كما أن هذا الأمر يجب ألا يعمي أبصارنا عن حقيقة أن هؤلاء القوم لم يكونوا يرغبون في البداية في شق المجتمع المسيحي ، بل بالحربي في دفعه إلى الارتفاع إلى أعلى مستويات الإيمان و القدانة . و عندما لم يتمتعوا أحد معهم ، و لا وجدوا عند الآخرين آية رغبة في الإصلاح ، لم يبقَ أنفسهم إنشاء كنائسهم الخاصة ، و بموجب إيمانات ضميرهم و توجيهاته . إنهم في هذا يتشابهون مع الحسينيين (Hussites) ، والوالديسين (Owaldensiens) ، و اللوثريين في أوروبا . وإن كان يوجد آية أوجه شبه بين الدوناتيين واللوثررين ، فهي إنما كلاماً قد أرغما على ترك الكنيسة التي حاولوا إصلاحها . ولربما وجد تشابه بين كل من أغسطينوس و إراسموس (Erasme) ، حيث أراد كل منهما أن يُحدث الإصلاحات من داخل الكنيسة الكاثوليكيه العالمية ، بالقيام «بإصلاح مقابل» لأجل التخلص من الاحترافات التي تقف وراء الانقسامات الحاصلة في الكنيسة . و لوثر أيضاً أثر كدوناتوس ترك الكنيسة الكاثوليكيه ، لأن مبدأ القدانة الظاهرة كان في نظره أكثر أهمية من الوحدة الشكلية الظاهرة . أمّا أغسطينوس ، فمثل إراسموس ، حاول بصير ، أن يعالج الصدع و الشرخ في الكنيسة ، إذ شعر بأن مبدأ الوحدة الظاهرة الشكلية كان قد طفى على مبدأ القدانة الظاهرة للجميع .

ريح أغسطينوس الماظرة الرسمية ، و لكنه لم يستطع ، بأي شكل من الأشكال ، أن يفوز بقلوب الشعب الإفريقي الشمالي . إن الانتصار الذي أحرز في المؤخر ، كان من الضروري تشريعه على أساس القوة و الإكراه . فالمطلق ، على العموم ، ليس هو الذي يقنن الجماهير ، وبالاخص شعب إفريقيا الشمالية . إن قوة التأثير الشخصي (كاريزما) ، أي « البركة » الظاهرة في حياة بطل معين يعيش بين ظهرانيهم ، هي التي تدفعهم إلى السير في هذا الاتجاه أو ذاك . يعود اخفاق الدوناتيين بشكل رئيس إلى حقيقة أنهم كانوا يفتقرن إلى قائد قادر على إيقاعهم ضمن حدود المحبة و الصبر ، اللذين يشكلان العلامة المميزة للمسيحي الحقيقي ، والتي تضمن بركة الله . وبعد موت دوناتوس ، لم يوجد بين اتباعه أحد قادر على أن يمارس ذلك النوع من النفوذ الفاتح على زملائه لأجل الخير . لم يكن بينهم أي قائد يملك الكفاءة الأخلاقية و الفكرية على مستوى ترتوبيانوس مثلاً . لو عاش ذلك الرجل الإفريقي العظيم في زمن لاحق ، لتعاطف مع الأهداف التي جعلها الدوناتيون نصب أعينهم . لكنه كان ، ولا شك ، سيحثهم على الابتعاد عن تورطهم الأرعن في الزمر السياسية . وقد لا يكون ترتوبيانوس على مستوى مجاهدة أغسطينوس في مهاراته في البحث و الجدال ، لكن فكره المدرك النافذ بإمكانه ، على الأقل ، أن يرى مسبقاً بعض الأخطار التي تتطلّبها في المستقبل . لقد كان سيحثّ الدوناتيين على ضرورة التصرف بروزانة وأنّة ، مع الحرص على تصرف يُكسيّهم احترام الآخرين ، ثم بعد ذلك يعلم العالم أنهم كانوا جديرين بهذا الاحترام . كان ترتوبيانوس يشير دائمًا إلى التصرف غير المعلوم عند الرجال و النساء المسيحيين في عصره ، و كان يستطيعه أن يشدد كثيراً على أن هؤلاء الناس لا ي يريدون أن يلحقوا الأذى بأي كان ، وإنما يريدون ببساطة في أن يعبدوا الله و ينظموا كنائسهم المستقلة بعيداً عن الإكراه الامبراطوري او الديني . ولم يكن ترتوبيانوس ليُرحب في أن يعيد اللحمة بين الدوناتيين و الكاثوليكين - فإن نظرته إلى الكنيسة العالمية و الكنائس المحلية لا تتطلب الإذعان لأية منظمة - و لكنه كان سيحثّ جميع الذين يبحرون المسيح على أن يبحروا بعضهم بعضًا أيضًا . و لكنه أزدرى أيضًا بأي احتمال حصول اتحاد مع العتقاء و الدنسين . إن الوحدة التي تفرض بالقوة و العنف تكون دائمًا غير شعبية و محفوفة بالمخاطر . كان موقف ترتوبيانوس واضحًا : إن كان أحد يؤمن بالمسيح ، فهو أخ محبوب و عزيز ؛ و إلا ، فهو جار أو قريب في حاجة إلى مساعدة . إن كان يعرف الإغتييل فهو مزارع ؛ و إلا ، فهو إذاً حقل يحتاج إلى من يبذله . هذه الخطبة البسيطة تختلف كل الاختلاف عن قضية « مسيحية » يبنوها و تثبيتون رعاع .

وعا نفهم كيف ان الدوناتيين استمتعوا بشعبيتهم الأولى و استساغوها ، على الرغم من أنهن كانوا ، في وقت من الأوقات ، يقفون فرحين على قمة الشوّة ، لا يعرفون الا الشيء القليل عن الأسباب التي تكمن وراء هذه الشعبيّة . و كان مناصروهم يُعدون بالآلاف ، بينما كان عدد الكاثوليك يُعدُّ فقط بالمئات . ولكن ذلك الشرك السياسي المُقسّم بقلة التبصّر و التمييز ، كان السبب الأساس لسقوطهم . لقد أصبح الدوناتيون ، في نظر السلطات والجماهير ، مشتبهين « بالدوارين » ، حتى انهم فقدوا في النهاية كل أمل بالبقاء على قيد الحياة و الاستمرار ، بعد تلك الكراهية الشاملة التي أصبحت عند الجميع من نحو اولئك الذين اشعلوا النيران في المزارع و سلّبوا

البيوت و الممتلكات الكنسية . فالتورط في ثورة شعبية هو دائمًا محفوف بأصعب المخاطر . إن العداوة المغبر عنها ببرارة ، خصوصاً إذا كانت مقترنة بأعمال عنف ، لا يمكنها أبداً أن توافق أو تسجم مع تعاليم الرب يسوع المسيح الذي أضاف إلى المبدأ الأساسي «أحبّ قريبك كما تحبّ نفسك» مبدأً مثاليًا أعلى وهو «أحبوا أعداءكم» يضاف إليه مبدأ إنجيلي أشمل وهو «نعملي الخير للجميع».¹⁴

على الكنيسة ألا تكون آلة في يد الحكومة ، كما لا تكون شوكة في جنبها . فعلى المسيحيين أن يكونوا أعضاء في المجتمع مسالمين و محترمين . إنهم لا يحاربون لكسب اي شيء على هذه الأرض ، إنهم نزلاء و غرباء ، يتظرون أن يرثوا عالمًا أفضل في الآخرة . و دأبهم ان يصنعوا كل ما هو خير و حسن خلال الفترة القصيرة الممنوحة لهم ، قبل انتلاظهم من هذه الدنيا الفانية . قال يسوع : «ملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون». ¹⁵ على تلاميذ المسيح ان يبقوا بعيدين عن الزمر العدوانية و التحزيزات السياسية . سيسهرون و يصلون ، فيما تشتعل الخلافات و النزاعات لسيطر الإنسان على أخيه الإنسان ، و لكي يحصل على أقصى الامتيازات . ثم بعد هدوء العاصفة ، سيسألون الى ساحة المعركة المهجورة لكي يصوبوا جراح الذين سقطوا . إن خدام المسيح سوف يأتون بخلافات الحريق ، و يجمعونها ضمن إطار الكنيسة ، ثم ينفحون فيها حياة جديدة . يحتاج انتهاء هذا السبيل الى المزيد من الشجاعة و الصبر ، و الى قدر أكبر من المحبة ، من القفر بتسوغ الى نفع العدوان الذي غالباً ما ينتهي الى مستنقع من الدماء و المذابح ، و الحقد والموت .

ولكنَّ أعظم خطأ اقترفه الدوناتيون ، هو أنهما بنوا قضيتهم منذ البداية على أساس ضعيف . لقد أصرّوا على إدانة كايكيليان ، و عندما لم يجدوا الأدلة الكافية لأجل ذلك ، راحوا يتحجّطون في حال من الفوضى التي لا أمل من الخروج منها . و كل ذلك لم يكن ليشكّل جوهر المسألة ؛ هذا لأنه لا يهمّ كثيراً ما فعله انسان معين أو لم يفعله . إن السؤال الأساس كان أكبر وأوسع بكثير من هذه القضية : هل من الضروري على الكنائس ان تخضع لقوانين المنظمة الكاثوليكية في تساهلها وتغاضيها عن الأشخاص الذين زلوا و سقطوا في خطايا كبيرة ؟ أم هل للكنائس الحق في أن تتحرر لكي تنظم نفسها بالشكل الذي تريد ، و ذلك كمجموعات مستقلة من المؤمنين ؟ لقد حاول پتيليان في مؤتمر 411 م ان ينقل تركيز البحث الى هذا الاتجاه ، و لكنَّ بعد فوات الأوان .

عاد هذا الموضوع ليظهر من جديد بعد نحو اثني عشر قرناً من zaman ، و ذلك في الصراع الطويل الذي دار بين كنائس الدولة و الكنائس المستقلة في أوروبا . لكن النتائج الأخيرة في أوروبا جاءت أفضل و أحسن بكثير . فقد دلت التجارب على أن السلام لا يأتي إلا من طريق الحرية . و بمرور الزمن ، ظهر جلياً لجميع الفرق الدينية ، أن الاحترام المتبادل الذي يجب أن يوليه الجميع بعضهم البعض ، سوف لن يزدهر إلا عندما يوافق الجميع على أن يُسمح لكل انسان باختيار العبادة التي يرتديها لنفسه ، كما يُفتح في المجال أمام كل كيبة بأن تقوم بتنظيم نفسها وفقَ تصورها و إدرايتها لارشاد الله .¹⁶

في المسألة الدوناتية ، كما نجد غالباً في التاريخ ، تفاعل الأحداث ببطء ، لكن بشكل أكيد نحو نتائجها الحتمية . فقد كانت هناك ظروف خاصة تجع منها ما يلي : امبراطور كان ، وللأسف ، ساذجاً وعديم الخبرة ، على الرغم من إيمانه الشخصي المخلص ، و كنيسة تابعة للدولة تحاول فلقة أن تثبت وجودها ، و جماهير مضطربة . بالإضافة إلى صرخة العوق إلى الحرية ، تطلقها الجماعات المسيحية والوثنية على حد سواء . في مثل هذه الظروف ، تكون القوى التي تدعوا إلى الخلاف والشقاق ، هائلةً و عظيمة . إلى ذلك ، كان جميع المنافسين في السباق ، يركضون كالعميان ؛ لم يسبق لأي واحد منهم أن عالج مسألة مشابهة من قبل . لم تتوافر لديهم فرص التعلم والاستفادة من القرون المتالية من التاريخ الطويل . لقد جرفتهم قوى بشرية أعظم وأقدر من أفضالهم ، وابتلعتهم تعقيدات هي أبعد من أن يدركها حتى أحكم الناس بين صفوفهم . لقد استاء بعضهم من بعض ، و دان بعضهم ببعضًا . إلا انهم كانوا جميعهم في نهاية المطاف ، كما يبدو ، تحت حكم الله الذي وقع بحق على حرفة ضلت الطريق وعلى كنيسة شاكلت هذا العالم .

أما بالنسبة إلى أغسطينوس ، فهو يتحرك عبر هذه القصة بكىاسة و روعة - ربما محققاً في أمور ، و مخططاً في أخرى - ولكن نجده في كل هذا يسمو مقاماً على معاصريه جميعهم . ونحن نؤمن بأن الله كان يجعل كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبونه فعلاً ، الذين هم مدعوون حسب قوله .¹⁷

ملاحظات

1- Brown p. 332

2- كورنثوس 13:5

3- يوحنا 1:15

4- Brown p. 218

5- متى 14:7

6- إن العبارتين «المسيحية» و «الكاثوليكية» كانتا على الأرجح مرادتين بالنسبة إلى أغسطينوس . لقد شبَّ في المدينة الصغيرة ثاغاستُ التي كانت ، خلافاً لقرى كثيرة غيرها ، موالية إلى حدٍ كبير للقضية الكاثوليكية . كانت أمَّه ، بكل تأكيد ، من أنصار الكنيسة الكاثوليكية . وبعد اهتدائه في أوروبا ، قضى وقته في أوساط الطبقات الرفيعة للباطل الامبراطوري والكنيسة الرسمية في فيينا حيث ازدهرت المسيحية الكاثوليكية ، و حيث كانت الكنيسة متعددة بوضوح ضد الملاوئين الوثنيين من مفكرين لاتين ، و فلاسفة من دعوة الأقلاطونية المحدثة ، و طائفه المانويين في أوروبا . وفي عودته إلى إفريقيا في 388 م ، كان يجهل ، بشكل أساسى ، أمر الدوناتية الإفريقية . لقد اندلش ، على الأرجح ، من قوة مسانديها ، كما استغرب أن يكون الكاثوليكيون في ميسور ، مجردة أقلية ضعيفة و في طريقها إلى الانحدار . كانت خلفيته تحول دون أن ينبع إلى ذهنه يوماً من الأيام أن يصبح هو نفسه دوناتياً .

- 7- متى 24:13 - 30
 8- متى 13:50 - 8
- 9- كان كيريانوس ، من قبل ، قد قال الأمر عينه . كما أنه كان لأسطينوس الموقف عينه الذي لاستفانوس حول هذه المسألة ،
 إذا اعتبر أن «السر» يبقى فضلاً ، وذلك بعزل عن خلق من يقدمه أو يحصل عليه . راجع الفصل 15 .
- De Baptismo 4:16-18 - 10
- 10- Foakes - Jackson p. 500
 11- اقتبسها
 12- لوقا 14:23
 13- كان أسطينوس سُمِّعَ بالمسارات الوحشية التي أقدمت عليها محاكم التفتيش والصلبيون
 إبان العصور الوسطى . لقد كان ، كمارينا سابقاً ، يفتَّ أعمال العنف على أشكالها وسفك الدم .
- 14- متى 22:39 ؛ لوقا 27:6 ؛ غلاطية 6:10
 15- يوحنا 18:36
- 16- كان أمبروزيوس الميلاني (Ambroise, c. 340 - 397) قد وعى هذه الحقيقة ، وذلك بقوله بأن المكناش المحلية
 الفردية الحق في الاحتفاظ بعاداتها الخاصة ، شرط لا تتناقض هذه العادات مع المبادئ الكتابية . ففي روما مثلاً ، كان
 المسيحيون يصومون أيام السبت ، مع أن هذا الأمر لم يكن براحتي في ميلانو التي تفصل بينها وبين روما مسافة أقل من
 500 كلم . قال أمبروزيوس : «عند ذهابي إلى روما ، أنا أيضًا أصوم يوم السبت : عندما تكون هنا ، لا
 أصوم كانت نصيحة الرقيقة : إذا قصدت أية كنيسة ، احرص على مراعاة المُرْفَ المحلي ». (Brown p. 87)
 كان بوليكاربوس (نحو 150 م) قد زار روما قبل هذا بعده سنوات ، فوجد أن الاختلافات بعد القيمة كانت
 تُقام هناك في يوم يختلف عن اليوم المعمول به في سميرنا . فبحث الأمر مع أنسينوس (Anicetus) ، ناظر روما ،
 لكن إيريناؤس ، وهو أحد تلاميذ بوليكاربوس ، كتب بقوله : «إنهم توصلوا سريعاً إلى تناهى سلمي حول هذه
 المسألة ، إذ لم يكونوا يهويان المنازعات المتبادلة ». على المؤرخ الشافعي سردار إيريناؤس لهذه الأحداث بالقول :
 «هذه الرسالة تبرهن أن المسيحيين في أيام بوليكاربوس ، عرموا كيف يحافظون على وحدانية الروح من دون أن يتوافقون
 هناك تمايز في المفهوم والاختلافات ». (Schaff HOTCC Vol. II pp. 213 - 214)
 17- بالإشارة إلى رومية 28:8

الفصل الحادي والعشرون

الاهتداء الخارق

«في حياة أغسطينوس جاذبية خاصة ، لأنّه كان رجلاً خاطئاً جداً ، ثم تحول إلى قديس عظيم جداً ، و العظمة تُعلو قيمتها اذا كانت الظروف تمنع تميمها و تحقيقها¹». لقد أظهر أغسطينوس في شبابه مؤشرات قليلة على عظمة فكرية ، و لا شيء عن الجذارة الروحية . ففي كتاب «الاعترافات» ، هذا الكتاب الأكثر رواجاً بين الكتب القديمة ، لا يُظهر خطابه الماضية وحسب ، بل ايضاً مواقفه وأفكاره الخاطئة التي ادّت إليها ، و التي سيطرت على خلقه و سلوكه حتى بلغ سن الثانية و الثالثين . وحتى بعد أن افتح بصدق الإيمان المسيحي ، كان تعلقه غير المقدس بخليلته يحول دون التزام هذا الإيمان . و لكن هذه الأمور لم تكون معروفة عند عامة الشعب . هذا لأنّه في الوقت الذي كتب كتابه «الاعترافات» ، و هو في سن الثالثة والأربعين ، كانت الجماعة المسيحية تعتبره رجلاً عظيماً و طيباً . إن أحد أهم الأسباب التي دفعته إلى كتابة سيرة حياته الذاتية هذه ، كان لاقتناع محبيه و المعجبين به بأن كل صفاته الحميدة ، و شيءه الأخلاقية ، ما هي إلا من نعمة الله تعالى ، الذي أنقذه في العديد من المرات من ذاته . ويخبرنا أغسطينوس الكبير عن أفكاره و مشاعره الخاصة ، و لكنه إذ يتطلع إلى داخليته ، لا يرى سوى انكاله الكامل و النام على الله الذي خلقه ، ثم بحث عنه و خلصه .

كان أوريليوس أغسطينوس صبياً بدرياً . ولد في العام 354 م ، في مدينة صغيرة جبلية تدعى ثاغاست² (و تُسمى الآن سوق أهراس) . و هي سوق تجاري يقع على مفترق طرق في مقاطعة نوميديا إلى الجنوب من مدينة عنابة الحديثة . و كان عنده على الأقل أخ واحد وأختان . كان أبوه باتريكيوس (Patricius) من مالكي الأرض الصغار ، و يشغل وظيفة رسمية في الحكومة المحلية . كان وثيقاً ، ولكنه متساهل مع الإيمان المسيحي الذي كانت ثارسه زوجته . ويدوّ أنه لم يكن يمانع في أن يتعلم ابنه ، في صغره ، المعتقدات المسيحية . و في الواقع ، ظلَّ أغسطينوس ستين طويلاً يواكب على حضور الدروس المعلقة للصبيان في ثاغاست ، و لكنه لم يُعط في ذلك الوقت أية دلائل عما سيكون عليه في ما بعد . إن أيام الدراسة ، كما يخبرنا لاحقاً ، كانت بالنسبة إليه ثجوية بائسة و مشؤومة ، غير نافعة لشيء إلا لتدريبه على الصراعات ، و المظالم و خيارات الأمل التي سيواجهها عندما يبلغ سن الرشد². ولم يكن يحب الكド و العمل الشاق المطلوب في الدراسة ، و بخاصة في ما يتعلق بدراسة اللغات الأجنبية مثل اللغة اليونانية . و لكن أغسطينوس الشاب ، كان صبياً ذكيَاً

حساماً و شديد الميل الى مطالعة جميع الكتب التي تطالها يدها . كان يعرف اللاتينية منذ حداثته ، حيث أنها كانت اللغة المحكمة في البيت .

أضاع الكثير من الوقت في البطالة والكسل . و إذ لم يكن لأبيه آية سيطرة كافية عليه ، استرسل أغسططينوس في فعل ما يسره . فكان يتسلّى هنا وهناك مع اولاد جبله ، و قادوه ، كما قال لنا ، الى سرقة ثمار الإياض الفجحة من احد البساتين . لكنه سأل نفسه «لماذا فعلت هذا؟» فهو لم يكن ليسرق مثل هذه الفاكهة العديمة الفن . لو أنه كان وحده . وإنما الاتحراف الطبيعي الكامن في طبيعته الإنسانية ، هو الذي جعله يزبح هكذا . كذلك كان ييفي من ذلك أن يتبعج امام هذه الزمرة . كان صبياً ذا شعبية في أوساط زملائه ، لكنه غالباً ما اساء الى نفسه من خلال رغبته في ترك انتساب جيد عند أصحابه . و في سن المراهقة ، راح يفتخر و يتعزّز بخطايا لم يقتربها قط ، وذلك حتى يفوز باعجاب أصحابه و خالاته . ويرجح أنه تأثر سلباً بهؤلاء الأصدقاء ، حتى إنه أصبح من المواظبين على حضور المسارح التي تُعرض عليها البرامج الفدرالية ، كما تعلم ايضاً أن يتمتع بالرياضيات المتوجّحة التي كانت تقام في الميادين العامة . كان هناك صراع في قلب أغسططينوس بين تأثيرات صحبه عليه ، و تأثيرات أمه مونيكا (Monique) من جهة أخرى .

كانت أم أغسططينوس امرأة مسيحية . قضت معظم فترة صباها بصحبة خادمة و فية للمعائدة ، امرأة طاعنة في السن عاشت طوال حياتها مع ذوي مونيكا ؛ لقد لقنت الفتاة اموراً كثيرة عن سهل المسيح . إلا أن أهل مونيكا اختاروا لها زوجاً وثيناً . ولم تكف مونيكا يوماً عن الصلاة من أجل خلاص زوجها پاتريكيوس . و على الرغم من أنه لم يكن مخلصاً و فياً لها ، حاولت جاهدة من خلال حبها له و ولائها العطوف ، أن تقويه الى الحق . كانت تعرف قيمة نصيحة الرسول بطرس عندما قال : «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطعون الكلمة ، يُرجحون بسيرة النساء بدون كلمة ، ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف». ³ تحدثت مونيكا القليل عن سهل المسيح مع زوجها ، و لكنها أظهرت له الكثير عنه من طريق حياتها الطاهرة المسيحية . و يخبرنا أغسططينوس أن والده كان رجلاً طيباً ، لكنه حاد الطبع : «كانت أمي تعرف جيداً ضرورة الآتنفة بأي كلام ، او تعمل أي فعل لمقاومةه عندما يكون في حال غضب . و هكذا ، إذا كان غضبه في غير محله كانت في عادتها تحرصن على أن تتذكر حتى يهدأ و يصبح رايسط الجأش ، قبل أن تنهز الفرصة لترشح له ما فعلت ». ⁴ ولم تكن لتسمع للنساء الآخريات بالثرثرة على أزواجهن أو الشكّي منهم في حضورها . و هكذا كانت تتمكن ، بلطفها و دعائة خلقها ، من وضع حد للصراعات التي كانت تنشأ بين النساء أنفسهن ؛ وكانت تبذل قصارى جهدها لتساعد كل واحدة منهن على تفهم وجهة نظر الأخرى .

توفي والد أغسططينوس عندما كان هذا الأخير في السابعة عشر من عمره ، و لكن الوالدة تمكّنت ، بفضل مثابرتها الدؤوب و تحليها بالصبر ، من تخفيف وطأة آلام الفراق هذا . كان

پاتريكيوس قد أصبح مسيحيًا ، و طلب أن يعتمد ، و ذلك «في أواخر أيامه على الأرض ». لقد كان طوال أيام حياته يقدم أفضل ما عنده إلى ابنه ، مستعداً ليذل الغالي والنفيس لأجل تشققه . كان هذا كل ما بوسعه عمله لأجل ولده ، خصوصاً وأن الأب كان في ذلك الوقت لا يزال وثيأ .

في تاريخ العالم ، كما في تاريخ الكنيسة ، يظهر أن الكثيرين من الرجال البارزين ، يدينون بصفاتهم الفذة الممتازة لأم عظيمة ؛ وعدد قليل منهم فقط يدينون لأب موهوب . إن تأثير الأم غالباً ما يكون الأقوى ، و لعله من الأصعب على الابن أن يظهر و يبرز عندما يكون تحت ظل أبي موهوب . وعلى كل حال ، إن بعض اعظم المقاطع في كتاب «الاعترافات »، هي تلك التي يكتب فيها أغسططينوس عن أمه . من الواضح أنه كان يكن لأمه احتراماً عظيمًا جداً ، كما أنه كان دائمًا ابناً صالحًا و عطوفاً معها ، مع أنه لم يكن يقدّر أمه حق قدرها حتى اهتمى إلى المسيحية . لقد قالت له وهي على فراش الموت ، إنها لم تسمع يوماً يذكر أي شيء في اعترافاته عن فظاظة . و هذا الأمر ، يسهل تصديقه ، ذلك لأن أغسططينوس لم يذكر أي شيء في اعترافاته عن معاملته الآخرين بفظاظة ، في الوقت الذي شعر بضرورة الاعتراف بخطايا أخرى .

تركت سونيكا بحال يُرثى لها بعد موتها ، إلا أن امرأة ثانية كانت تعرف العائلة ، عرضت بسخاء مساهمتها في نفقات تعليم أغسططينوس . وفي سن السابعة عشر ، ترك أغسططينوس بيته في ثاغاست ، و انطلق قاصداً قرطاجة ، التي تبعد نحو 240 كيلومتراً عن بلده ، لكي يكمل دراسته في مدرستها هناك . و كانت المرأة الأولى التي يرى فيها أغسططينوس البحر ، فافتتحته روعة جمال المياه الزرقاء وهي تتألّأ تحت أشعة الشمس . و حين كان يجول عبر شوارع هذه المدينة العظيمة ، عاصمة إفريقيا ، شعر في نفسه بأنه أصبح أخيراً متحرراً من جميع القيود والالتزامات : كان كل العالم أمامه . و في حجرة الدراسة ، بدأت مقدرات هذا الشاب و مهاراته ، تظهر إلى العلن . لكن مع بروز قواه الفكرية ، كانت اخلاقه تردد بالمقابل . هذا لأنه وقع في شرك علاقة غرامية مع امرأة لم يكن يستطيع ، بوجب أعراف ذلك العصر ، الاقتران بها ، ذلك لأنها كانت أثقل منه قدرًا من الناحية الاجتماعية . و هكذا استمرت علاقته بها على مدى الأثنتي عشرة سنة التالية ، وقد أتاحت منه طفلاً دعاه أديوداتوس (Adéodatus) . كانت هذه العلاقة مسرة ، إلا أنها تركته مضطرباً ، كما ان نهايتها كانت مفجعة . ثم بعد مضي عدة سنوات ، كتب أغسططينوس في كتابه «الاعترافات »، الذي جاء كصلة طويلة رفعها إلى الله خالقه ، يقول :

«لقد صليت إليك ربِّي ، لتحلّبني بالعفة بهذه الكلمات ، "امنحني يا الله عفة و ضبط نفس ، ولكن ليس الآن ! "»⁵ - هذه صرخة رجل يشتاق إلى أمر مثالى يعجز عن الوصول إليه ، لكنه يتمسّك برذيلة يعتقها و تشتمز منها نفسه .

خلال هذه السنوات التي قضتها في قرطاجة ، اختبر أغسططينوس اضطرابات روحية هائلة . ففي دراسته ، استوقفته كتابات شيشرون . لقد استحوذت على مخيّله التماس هذا الفيلسوف

العظيم للحكمة ؛ فأنشأ ذلك فيه رغبة عارمة في البحث عن الحق . و من حيث التغاير الفصيحة والأدب الرفيع ، بدا الكتاب المقدس لأغسطينوس أنه فقير و دكيم إذا ما قورن بنشر شبّشرون المصقول والمنمق . و كان أغسطينوس يعتقد في تلك الأيام ، أن الكتاب المقدس لا يناسب إلا ذوي العقول البسيطة الساذجة . لقد قبل ، من دون تسائل أن الكتاب المقدس معلوم بالتناقضات ، ولم يكن غروره ليسمح له بأن يقرأ هذا الكتاب بنفسه ، وبذهنه مفتوح .

ولكن ، مع مرور الأسابيع ، أثبت النماسه الشخصي للحكمة بأنه أمر مخيب للأمال ، أكثر مما كان يتوقعه . إن مساعديه و محاولاته هذه ، ولدت عنده من الشكوك أكثر مما ولدته من التأكيدات . فلم يستطع ان يفسّر وجود كل هذه الشرور في عالم خلقه وأوجده إليه صالح ، كما انه عجز عن إدراك كيف يمكن خالق هذا العالم المادي أن يكون روحًا غير منظور . وأخيراً تعرف بجماعة دينية كانوا يُعرفون بالمانوئين (Manichéens) . كان نظام إيمان هؤلاء القوم يقتضي تسبيراً وتعليلًا لوجود الشر ، الأمر الذي بدأ معقولاً بالنسبة إلى الشاب أغسطينوس ، كما انه في الوقت عينه كان يسمع للخطاطي بأن يلقي الملامة على قوى خارجية في ما يتعلق بشروره .

كانت المانوية قد انتشرت بسرعة بين الوثنيين في القرنين الثالث والرابع ، كما أغرت بعض الأفراد من هواشن الجماعات المسيحية . كان مؤسّسها ، و يُدعى مانس (Manès) ، قد وُلد في العام 216 م في جنوب بابل . وأخيراً ، وبعد حياة متدينة ملؤة غيرة و نقشاً ، تم سلخ جلده عنه وهو حي ، و ذلك في مدينة غانديشـاپور (Gandishapur) بایران في العام 276 م . و كان مانس يطلق على نفسه اسم «البارقلطي» و «خاتم الأنبياء» و «رسول الجيل الأخير»⁶ .

و مانس هنا ، مثل الزرادشتيين في فارس القديمة ، علم بأن الحياة هي صراع أبيدي بين النور والظلمة ، بين الله والشيطان ، بين الخير والشر ، بين الروح والجسد . ان العالم نفسه ، كما قال ، و كل الخليقة المادية أيضًا ، هو مظلم و شرير . لذلك فإن الصالح والنور يسعين بشبات إلى الهرب من هذا العالم . و حيث أن المانويين رأوا أن الجسد ليس إلا سجناً للروح ، فقد اعتبروا أنه من الإجرام إخاب الأولاد والإثيان بهم إلى هذا العالم ، كما انهم حكموا على العلاقات الجنسية ككل ، و اعتبروها شرًّا عظيمًا . إلى ذلك ، فالخلاص لا يتحقق من طريق كفاراة المسيح ، ولكن عبر رزد مستمر يفرضه المرء على نفسه ، على أن يقوم يسوع بدور «المساعد نحو النور» . و في كل من قرطاجة و هيبو ، كان هناك مجموعات من المانويين تضم رهباناً قد عزموا على اتباع سياسة التقشف الصارم ، و نظام العزوية الذي يختص بأولئك الذين يطلبون «الكمال» ، و آخرون كانوا قد درسوا الكتابات الضرورية ، ولكنهم لم يكونوا يرغبون بعد في الخضوع للشروط القاسية و الصارمة ، المختصة بالوصول إلى «الكمال» . و كان هؤلاء يخدمون حاجات أولئك الرهبان الذين كان محظوراً عليهم أن يقتلونوا

أي حي ، حيواناً كان أم نباتاً . لقد قوبل المانويون بكراهية مريرة و بعداء كبير في كثير من الأماكن والأصقاع ، كما انهم عانوا الاضطهادات أكثر من المسيحيين .

رأى مونيكا كيف كان ابنها ينزلق أكثر فأكثر في هذه الممارسات الشاذة الفريدة المختصة بالجماعة المانوية ، و انسياقه في الوقت عينه وراء مغريات الجسد ، لذا صرحت أن تذهب لتنتصح من ناظر عجوز ، كان هو نفسه قد اعتنق المانوية قبلًا ، و بات بإمكانه وبالتالي أن يعرض و يبين أخطاء هذه الطائفة ، و ان يشرح طريق الخلاص لمن علق في براثها . تمكن هذا الناظر الحكيم من استيعاب حالة أغسطينوس جيداً ، فأخبر والده أنه لا جدوى من التحدث اليه في حالته الراهنة : وبالطبع فان ذلك لن يدفعه إلا إلى محاولة تبرير نفسه و ثبيت موقعه هذا . و كما يقول المثل المأثور : من أقنع قسراً بقى على رأيه دهرًا . اوصى الناظر الشيخ أم أغسطينوس بضرورة تركه و شأنه في الوقت الحاضر ، على ان تصلّى من أجله ، و الله هو الكفيل برده إلى رشده . إلا أن مونيكا لم ترض بمثل هذا الحل . فاستمرت تتولّ اليه بدمع كثيرة أن يتحددت إلى ولدها بشأن هذا الموضوع ليقنه بأن الطريق الذي يسلكه هو طريق خاطئ . وأخيراً قال لها الناظر الشيخ : «ادهبي الآن إلى بيتك ، و ليارك الله ، لأنّه من المستحيل أن يهلك ابن هذه الدموع الكثيرة ». ⁷ ثم يُقال إن مونيكا قبلت كلماته كأنها صوت من السماء ، و تعلقت بالأمل التي ولده فيها .

وبعد أن أتم أغسطينوس دراسته في قرطاجة ، عاد إلى ثاغاست في العام 375 م و راح يعمل كمدرس لعلم البلاغة ، معلّماً تلاميذه مبادئ اللغة اللاتينية و أدابها ، بالإضافة إلى فن الخطابة . ولم تمض فترة طويلة حتى اجتاز اختباراً جعله يفكّر في العمق . لقد قابل حديثاً أحد أصدقائه الذين كان يعرفهم منذ حداثته ، و وجد أنه ، على الرغم من مرور السنوات الطويلة ، لا يزال هناك الكثير من الأسرور المشتركة بينهما ؛ و هكذا راح الاثنان يقضيان معظم ساعات فراغهما سوية . كتب أغسطينوس عن هذا الصديق بعد بضع سنوات قائلاً : «عندما كان صبياً ، لم يكن يتمسّك تمسكاً ثابتاً و راسخاً بالإيمان الحقيقي ، و قد سعيت جاهداً لأبعده عنه ، لكي يتبنّى بالمقابل الخرافات عينها و الأكاذيب المدمرة للنفس ، تلك الأكاذيب التي جعلت أمري تذرف دموعاً غزيرة على ». ثم مرض صديق أغسطينوس هذا ، و انتابه حمى شديدة الخطورة جعلته يفقد وعيه . و إذ كان يحضر ، جاء قادة الكنيسة و عمدوه . و لشدة دهشة أغسطينوس و فرحة العارم ، بعدما عاد صديقه إلى وعيه ، و حملما استطاع أن يتكلّم ، بدأ أغسطينوس يداعبه بشأن المعمودية التي اجريت له من دون علم منه . ثم كتب أغسطينوس : «لقد نظر إلي صاحبي بارتياح و كأني أحد ألدّ أعدائه ... ثم تبّهني ، إلى ضرورة عدم التحدث اليه بمثل هذا الأسلوب إذا كنت أريد أن أحافظ على صداقتي معه ». عاودته الحمى ، و بعد أيام ، مات هذا الصديق . و كم كان حزن أغسطينوس شديداً على فراقه ! «اكتأب قلبي بالحزن العميق ،

وحيثما وجهت ناظري ، كنت أرى الموت ». ⁸ لقد وجد أغسطينوس نفسه في وحشه هذه ، وجهاً لوجه أمام حقيقة القبر ، وقد ساورته من جراء ذلك ظنون و هواجس و تساؤلات كثيرة .

وبعد هذا الحادث بوقت قصير ، انتقل أغسطينوس عائداً إلى قرطاجة ، حيث حصل على وظيفة تعليمية أخرى . و خلال عشر سنوات ، بقي هناك مع جماعة المانويين ، وهو يمارس الوظائف التي تُعطى عادة للأعضاء الجدد . إلا أن شكوكاً خطيرة كانت قد بدأت تصاحبه ، بالإضافة إلى ما لمسه من أدلة فاضحة على الرباء الموجود عند هذه المجموعة من الناس . فالتجأ إلى أصحابه المانويين مستجدًا بهم لمساعدته على حل هذه المشكلات . وإذا لم يتمكنوا من إعانته ، نصحوه بأن يستشير أحد شيوخهم المتقدمين ، و اسمه فاوستوس (Faustus) . جاءت خيبة أمل أغسطينوس شديدة للغاية على أثر مقابلته فاوستوس ، في العام 383 م . هذا لأنّه لم يقدر على أن يجيئه عن تساؤلاته ، و هكذا قرر أغسطينوس على أثر ذلك أن يبقى مانويًا بالاسم فقط ، ريشما يجد شيئاً أفضل يتحول إليه .

و مع ذلك ، لم تكن حياة أغسطينوس جدية تماماً . كان يهوى دائمًا البقاء في صحبة آخرين ، وكانت تحبّط به مجموعة كبيرة من الأصدقاء والصحابات ، من أولئك الذين كانت اذواقهم تتناسب مع ذوقه . كان ينتهج كثيراً في التحدث إليهم ، تلك الأحاديث التي كانت مفعمة بالخيالية والنشاط . و كان يستمتع بالأفكار والأراء الحية التي كان يديها له أولئك الشباب . لقد ذكر في كتاباته بحرارة عن «الحوار ، والضحك ، والاحترام اللطيف والتبادل ، و دراستهم المشتركة لأئمة الفصاحة والبلاغة ، و عن الصداقات التي تظهر أحياناً جدية و أحياناً أخرى مرحة ، وعن الفروقات التي لم تترك أي أثر للمراارة ، تماماً كالرجل الذي يتعارض مع نفسه ، و كذلك عن حلاوة الاختلاف ، هذه التي تطيب رتابة الموافقة ». ⁹ كان يطور قدراته الفكرية ، و كان ذلك متعناً للغاية بالنسبة إليه .

لكنه أخيراً ، و بعد أن وجد أن قلة انبساط تلاميذه في قرطاجة لا تتحمل ، ذهب إلى روما متسللاً إليها تحت جنح الظلام ، خلائلاً لإرادة أمه . و بعد مدة من التدريس هناك ، و إذا وجد صعوبة كبيرة في تقاضي أتعابه ، عرضت عليه فرصة الانتقال إلى ميلاتو ، المدينة الإيطالية التي تقع في الشمال . كان الوالي على روما يدعى سمّاخوس (Symmachus) ، و كان يُعرف بدعمه الوثنية ، وقد شغل من قبل منصب والي قرطاجة . و إذا كان يعرف أغسطينوس من جراء إقامته سابقاً هناك ، قدم توصية بخصوص هذا الشاب الوهوب ليشغل وظيفة أستاذ علم البلاغة في المحكمة الإمبراطورية التي كان مقرها آنذاك في ميلاتو . كان هذا الرجل يدرك معرفة أغسطينوس بال المسيحية ، و مقدار مقاومته لها ، ولربما كان ولـي نعمته يتمنى منه أن ينصره و يدعمه خلال المناظرات الشعبية العامة التي كانت تُعقد بينه وبين أمبروزيوس ، ناظر كنيسة ميلاتو . و هكذا فتحت الأبواب فجأة أمام أغسطينوس ليأخذ مكانه بين أعلى وأعظم رجالات الإمبراطورية ، و ذلك تحت رعاية قائد الفكر الوثني في أيامه .

و الى ميلاده لحقت به والدته مع بعض تلامذته الأفارقة الشماليين السابقين ايضاً . وبعد أن كان في ذلك الوقت قد تخلّى تماماً عن العقيدة المانوية ، بات فكر أسطينوس مفتوحاً على آية مؤشرات أخرى . وهكذا شرع يقرأ كتابات الفلسفة الإغريق من جماعة الأقلاطونيين المُحَدِّثِين ، والتي كانت كتاباتهم قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية بواسطة أحد أشهر معلميهما فكتوريانوس (Victorianus) الأفريقي الشمالي ، والذي ستحدث عنه لاحقاً . لقد ساعدت هذه الكتابات أسطينوس على إدراك طبيعة الله الروحية ، و إمكانية أن يحصل الشر من جراء إساءة الإنسان لاستخدام إرادته الحرة . كان هذا كنقطة تحول بالنسبة إلى أسطينوس . فقد أدرك أن هذين المبدئين ، اللذين قبلهما ، كانوا في الحقيقة الأساس ، ليس للأقلاطونية المحدثة فحسب ، بل للمسيحية أيضاً .

أنعمت مونيكا ولدتها بالحضور إلى الكنيسة للاستماع إلى أمبروزيوس المشهور ، و الذي عُرف بقدرته و فصاحته في الوعظ ، و بروعة الترتائي التي كان يؤلفها و يعدّها . و بدأ أسطينوس يحضر إلى الكنيسة أسبوعياً ، لتلبية حاجاته المهنية في اكتساب الأساليب الخطابية التي كان يستخدمها هذا الواقع العظيم . ولكن ، في استماعه إليه ، وجد نفسه أخيراً مدفوعاً إلى التأمل في محتوى ما كان يقوله أمبروزيوس في مواضعه ، حيث كان هذا الرجل يقدم الأسباب الموجبة المنطقية للإيمان . كان أمبروزيوس يعالج تلك المسائل عينها التي كانت تقلق أسطينوس - السؤالات التي كانت تُربك العديدين من الناس في جيله - وقد نجح أمبروزيوس في تبيان أن الإنسان يستطيع أن يكون مسيحيًا و مفكراً في آن . دعت مونيكا ولدتها إلى زيارة أمبروزيوس ليجري معه حديثاً شخصياً ، ولكن أسطينوس كان يتحفظ تجاه ازتعاج رجل مرموق رفيع المقام نظيره ، حيث كان الناس يزورونه بأعداد غفيرة دائمة ، فضلاً عن مسؤولياته الكثيرة الأخرى كناظر للكنيسة .

لكن أسطينوس ، و بينما كان يستمع إلى أمبروزيوس كل أسبوع ، أدرك أنه كان قد أساء فهم الموقف المسيحي . لقد كان حتى ذلك الحين يهاجم لا المسيحية ، بل انطباعه الخاص المخاطي عنها . فقال : «لقد تعودت أن اتقندهم (المسيحيين) على تمسكهم بمعتقدات لم يكونوا يتمسكون بها قط ... كنت أشنّ حملة ، لا على الإيمان (المسيحي) ، بل على أمور خيالية كنت أستبطها من بنات أفكاري . و بدأت أشعر بالخجل من نفسي ، لأنني كنت بكل تأكيد ، متسرعاً و عائداً في إدانتي لقضية ، كان حري بي أن أكلّف نفسي عتاء استقصاء الحقائق بشأنها أولاً». ¹⁰ وأخيراً ، ذهب أسطينوس لمقابلة أمبروزيوس ؛ ويخبرنا أن الناظر احتفى به أيام احتفاء ، و عامله كأب . و قد شجعه أمبروزيوس على التأمل في رسائل المفكّر العظيم بولس ، ليرى ما يذكره عن مقاصد الله .

كان أمبروزيوس رجلاً رائعاً ، و هو من نواحٍ كثيرة يخالف أسطينوس تماماً . فحيث كان أسطينوس يتراجع حيال الظروف المركبة ، كان أمبروزيوس يواجهها بشكل مباشر ؛ و بينما كان أسطينوس يحلل ما في داخل الإنسان ، كان أمبروزيوس يعالج مباشرة أفعاله الخارجية

الظاهرية ؛ و حيث كان أغسططينوس يبحث عن مصالحة و حلول و سطبة ، كان امبروزيوس يتمسك بثبات و صمود بالموقع الذي يشعر بأنه حق . ففي إحدى المناسبات المشهورة ، تحدث أمبروزيوس الإمبراطور ثيودوسيوس (Théodosius) نفسه . كان هذا الإمبراطور قد ذبح مؤخراً سبعة آلاف إنسان في مدينة تساولونيكى ، وذلك انتقاماً لقتل أحد الضباط الإمبراطوريين خلال ثورة واضطرابات قام بها أهل هذه المدينة . و عندما جاء ثيودوسيوس إلى الكنيسة ليشارك في العبادة ، رفض أمبروزيوس أن يحتفل بالعشاء الرباني ، حتى يتنازل الإمبراطور ليسأل مغفرة الله و يتوب . لقد تمكّن أمبروزيوس من دون أي شكل من أشكال الخوف بالمبلاط المزدوج القائل بضرورة تطبيق مقاييس الله بنزاهة و تجرد على جميع الناس ، و يكون سلطة المسيح هي فوق سلطة الحاكم . و بذلك فاز أمبروزيوس بإعجاب أغسططينوس الشاب .

و في ميلاتو ، المدينة الأوروبيّة المثقفة ، كان أغسططينوس أقل ثقة بنفسه مما كان عليه في موطنه الأُم . فقد كان يعي أكثر من اللزوم لكتبه الأثريّة الريفية . على أن فرجه تقلّل على أثر تجديد الأقلاطوني المحدث الشهير فكتوريانوس ، هذا الذي كتب و ترجم العديد من الكتب الفلسفية التي طالما استأثرت باهتمام أغسططينوس كشاب يافع . و يخبرنا أغسططينوس أن فكتوريانوس كان معلماً خصوصياً لكثير من الأعضاء المميزين في مجلس الشيوخ الروماني . و لتشويه مقدّره هذه كمعلم ، فقد شيد له نصب تذكاري في الساحة العامة الرومانية . و أخيراً ، هنا هو في شيخوخته يعرّف علينا ب أيامه المسيحي . كان فكتوريانوس دائمًا عابداً للأوثان ، حيث كانت هذه العبادة رائجة بين الطبقات الأرستوقراتية الرومانية والإفريقية ، و «لم يتوقف فقط عن الدفاع عن هذه الممارسات بكل ما أوتي من قوة حماسته الخطابية النارية». إلا أن فكتوريانوس كان يحتاج ، خلال دراسته ، إلى أن يدرس الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، بالإضافة إلى كتابات مسيحية أخرى .

و يخبرنا أغسططينوس قصته بهذه الكلمات : لقد اعتناد أن يقول لصديقه المسيحي سيمپلیکیانوس (Simplicianus) : «أريد أن تعلم أنني قد أصبحت الآن مسيحيًا». ولكنه كان يقولَ هذا سرّاً بشقة الصدقة ، ولم يسمح لنفسه قط أن يعلن عنه في محضر الآخرين . و كان سيمپلیکیانوس يجيبه : «لن أصدق ذلك ، و لن أعادك من المسيحيين حتى أراك في كنيسة المسيح». عند ذلك يرد عليه فكتوريانوس ضاحكاً بالقول : «إذا ، هل جدران الكنيسة هي التي تحمل المرأة مسيحيًا؟» كان بين الفتنة والأخرى يكرر أدعاهه هذا بأنه مسيحي ، و في كل مرة كان سيمپلیکیانوس يعرض عليه الجواب نفسه ، لكنه يعود فيحصل على الردة عليه بشأن الجدران . ثم يذكر لنا أغسططينوس بشأن فكتوريانوس كيف أنه «كان يخشى أن يسيء إلى أصحابه المشايخين الذي يتبعيدون للألهة الوثنية». و لكنه واظب على قراءة الكتاب المقدس . و ذات يوم ، «عملَّكه خوف من أن يقوم المسيح بإنكاره أمام الملائكة القديسين إذا ما استمر يتقاعس بقلب خائر عن الاعتراف بال المسيح أمام الناس ، وهكذا شعر بأنه مذنب في اقتراف جريمة فظيعة ، لخجله الله من المجاهرة ب أيامه الله». إذذاك ، و من دون سابق إعلام ،

خاطب سفيانوس بالقول : «لذهب معًا إلى الكنيسة . فأنا أريد أن أكون مسيحيًا ». أراد قادة الكنيسة أن يجذبوا الفيلسوف المشهور عناء الارتباط أمام الشعب ، إذ عرضوا عليه امتياز تقديم اعترافه سرًا ، وذلك من طريق سرد صيغة معينة معدة مثل هذه المناسبات . «ولكن فكتوريانوس فضل أن يعلن خلاصه جهراً أمام جمهور الأقباء ». ورفض أن يستعمل آلة صيغة كلامية قام شخص آخر بإعدادها . «لذا ، فعندما احتلى المنصة لأجل إعلان إيمانه ، راح كل من يعرفه بهمس اسمه بفرح لجيئ لهم لقد أسرعوا في التعبير عن ابتهاجهم ببرؤيته ، وبالسرعة نفسها سكتوا أيضًا متظربين أن يسمعوه يتكلم . عندئذ أعلن فكتوريانوس قبوله للإيمان الحقيقي بشجاعة ».¹¹ ثم تم الترحيب به بحرارة في الجماعة المسيحية . وقد تأثر أغسطينوس تأثيراً عميقاً من جراء كل ذلك .

و في تلك الأثناء ، حملت موتيكا ابنها على ترك تلك التي كان يكتفي بأن يدعوها «أم اديودانس». و اعادت له وارثة كانت تلك مهراً يسهل له عملية تقدمه في مجال عمله ؛ ولكن هذه الفتاة كانت لا تزال صغيرة تحتاج إلى سنتين أخرىتين حتى تبلغ سن الزواج الرسمي . اعترض أغسطينوس على ذلك ، لكنه لم يكن ليستطيع مقاومة رغبات أمه . عندئذ رد صديقه المخلص في طريق العودة إلى إفريقيا . لكنه لم يكن في ذلك الوقت يستطيع أن يواجه إمكانية الإقدام على الزواج ، مع ما ينطوي عليه من مسؤوليات عائلية ؛ كذلك كان يصعب عليه أكثر أن يواجه مستقبل العزوّة على مدى سنتين . وبينما كان يتذكر انتفاضاء هذه المهلة ، ارتبط ارتباطاً آخر غير شرعي . ولكن ذلك لم يُسعده قط . لقد ذكر في كتابه «الاعترافات» : «استمررت في حبّي الاعتيادي ، إلا أن اضطرابي كان يزداد أكثر فأكثر ، و يوماً بعد يوم كنت أسكب قلبي أمامك ».

في هذا الوقت ، كان يسكن في ميلاتو مع شاب يدعى أليبيوس (Alypius) . و ذات يوم ، زارهما أحد الأصدقاء الأنارقة الشماليين ، و يدعى بونتيكيانوس (Ponticianus) ، كان يعمل في البلاط الإمبراطوري في ميلاتو . وقد صادف أن رأى هذا الرزائر كتاباً كان قد تركه أغسطينوس على طاولة . «فاللتقطه و فتحه »، كتب أغسطينوس ، «و قد اندهش جدًا لاكتشافه بأنه يحتوي على رسائل بولس الرسول ، حيث كان يتوقع أن يكون هذا الكتاب أحد الكتب التي كانت تُنقل كاهلي كمعلم وأستاذ . ثم ابتسم و نظر إليّ و عبر لي عن مقدار سروره و اندهشه لوجود هذا الكتاب ، من دون غيره على طاولتي . كان هذا الصديق بالطبع مسيحيًا و خادمًا مطيمًا لك يا إلهنا ... و عندما أخبرته كيف درست رسائل بولس الرسول باتباه كبير وزائد ، بدأ يخبرنا قصة أنطونيوس ، الناسك المصري ، الذي كان مكرّماً جدًا بين خدامك ، مع كوني أنا وأليبيوس ، لم نكن قد سمعنا به قط من قبل ». ثم يذكر أغسطينوس ماذا كان عليه انطباعهما عندما كان هذا الصديق يروي لهما قصة أنطونيوس : «في الواقع ، لقد دهشتانا أنا وأليبيوس لأن القصة التي سمعناها كانت رائعة ؛ أما بونتيكيانوس فدهش لكوننا لم نسمع هذه القصة من قبل ».

ثم أخبرهما بونتيكينوس عن التأثير الذي أحدثه هذه القصة في أحد أصحابه الآخرين في المحكمة الإمبراطورية . لقد صادف نسخة من الكتاب الذي يتحدث عن أنطونيوس ، و بعد أن قرأه ، سلمه إلى صاحبه و خاطبه ، وهو نائم على نفسه و ملءه ندامة ، بالقول : «ما الذي نأمل ربحه أو الحصول عليه من كل هذه المساعي والجهود التي نبذلها هنا ؟ ماذا نرجو ؟ ما هو الهدف الذي تتوخاه من خدمة الدولة ؟ هل تتوقع جزاءً من البلاط أعظم من أن تُعتبر أصحاباً للإمبراطور ؟ و حتى في مثل هذه الحال ، يبقى موقفنا متقلقاً و محفوفاً بالمخاطر . فالخطر يتظمننا عند كل منعطف ، وقد يكون في كل مرة أحضر من ذي قبل . و كم تحتاج إلى الوقت لتحقيق هذا الهدف الذي نسعى له ؟ ولكن في استطاعتي إن أردت أن أكون في هذه اللحظة عيناً صديقاً لله تعالى ». استمر في القراءة ، ثم انفجر أخيراً قائلاً : «انا مزعج أن أتحرر من كل قيود طموحاتنا . لقد قررت أن أخدم الله . و منذ هذه اللحظة سأبدأ هنا بخدمته . فإن كنت لا ترغب في أن تخدو حذوي ، فرجائي الآتى في طريقك ». وهكذا قسر الآشان ، على غرار أنطونيوس ، أن يتخليا عن الوظيفة ، و الزواج ، و المجتمع ، و ذلك لخدمة الله حيثما يدعوهما .¹²

و بينما كان بونتيكينوس يخبرهما عن هؤلاء الذين خرجن ليؤسسوا جماعة من المسيحيين غير المتزوجين في الصحراء المصرية ، اندفع أسطينوس بأولئك الرجال الأمينين الذين استطاعوا أن يسيطرؤا على عواطفهم و شهوتهم . و فكر بمرارة في ضعف الشخصي ، و شعر بالتجاذب : « كانت نفسي من الداخل هي بينما منقسمة على ذاته . و في نيران الصراع المزير القاسي الذي تحرك فيّ على روحي . . . التفت إلى أليبيوس . كان مظهري يعبر عن الثورة المختلجة في ذهني ، ثم قلت بتعجب : " ما بالنا نحن ؟ و ماذا تعنى هذه القصة ؟ فهؤلاء الرجال لم يحصلوا على تعليمنا و لا على ثقافتنا ، و مع ذلك فهم ينهضون ليفتحوا أبواب السماء و يدخلوا إليها ، بينما نحن ، مع كل ثقافتنا و علومنا ، نقىع هنا مذلين و مغفري الوجه في دنيا اللحم و الدم ! . . . " أنا لا أستطيع أن أذكر الكلمات كلها التي تفوهت بها آنذاك . لقد قلت شيئاً بهذا المعنى ، وكانت مشاعري أقوى مني . ثم توقفت فجأة و انتصرت ، تاركاً إيه و هو يحدق إلى من دون أن ينبع بنيت شفة ، و هو مندهش مذهول مما رأى و سمع ». كان أسطينوس في حاجة إلى الانفراد بنفسه . «لقد كان هناك حدائق صغيرة بجانب الدار حيث كنا نسكن ،» كتب يقول ، «كان عندنا ملة الحرية لاستخدام هذا المكان . . . و قد وجدت نفسي الآن مقاداً بفعل الاضطراب في قلبي إلى هذه الحديقة ، حيث لا يموقني فيها أحد و أنا في صراعي الوطيد مع نفسي ، حتى وصلت إلى التبيعة الفاصلة في هذا الأمر ». تبعه أليبيوس : «لربما يكون قد أدرك ما كان يحتاج في فوادي آنذاك . فأنا أظن أنني قد قلت شيئاً ، و قد أدرك من نبرات صوتي أنني كدت انفجر باكيًا . . . و لا أدرى كيف أقيت بنفسي على

الأرض تحت شجرة تين و أطلقت العنان للدموي التي انهمرت بقوة من عيني ... حيث شعرت بأنني ما زلت مقيداً بخطبائي ، و اسيراً لها ، و في بؤسي و شقائي هذا ، استحوذت التساؤلات التالية على قلبي و زعزعته : «الى متى سأبقى أوجل الى الغد ، ثم الى الغد الآخر ؟ لماذا لا أقوم بما يبغى عليّ أن أقوم به الآن ؟ لماذا لا أضع حداً لخطبائي البشعة في هذه اللحظة بالذات ؟ كنت أطرح على نفسي كل هذه الأسئلة و أنا أذرف الدموع باكياً كل الوقت ، و كان يملأ قلبي الحزن العميق والأسى الكبير ، عندما سمعت فجأة صوت طفل يتشد في بيت قرب من الحديقة . ولم أميز ان كان الصوت صوت فتى او فتاة ، إلا أنه يقى يكرر الكلمات التالية مرتاً تلو الأخرى : «خذله و اقرأه ، خذه و اقرأه . » و عند ذاك ، نظرت الى فوق متسائلاً ما إذا كانت هناك لعبة يتشد الأطفال كلمات كهذه ، و لكنني لم أكن أتذكر أني سمعت مثل هذا من قبل . أوقفت فيض بكائي ، ثم وقفت على قدمي ، قائلًا لنفسي إن الذي حدث ليس إلا أمراً صادرًا من الله يدعوني فيه الى فتح نسختي من الكتابات المسيحية ، و قراءة الفقرة التي ستقع عليها عيني . . . لذا اسرعت عائداً الى المكان حيث كان يجلس فيه أليبيوس ، لأنني كنت تركت هناك الكتاب الذي يحتوي على رسائل بولس الرسول . فامسته بيدي ، ثم فتحته ، و قرأت بصمت الفقرة الأولى التي صادفتها : « . . . لا بالبطر و السكر ، لا بالمضاجع و العهر ، لا بالخصم و الحسد . بل البساوا الرب يسوع المسيح و لا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات . »¹³ لم أكن أرغب في أن أقرأ المزيد ، كما أني لم أكن أحتاج الى ذلك . هذا لأنه في لحظة ، و عندما وصلت الى نهاية الجملة التي كنت اقرأها ، شعرت بنور الإيمان بفيض في قلبي ، و يهدى الظلمات و الشكوك التي كانت تكتنفه . »

شعر أغسطينوس بأنه مملوء بشعور غريب بالسلام مع نفسه . فأخبر صاحبه ما حدث له . طلب أليبيوس أن يرى الفقرة التي كان قد قرأها أغسطينوس في تلك الساعة ، و عندما تمعنا معاً في هذه الآيات ، بالإضافة الى تلك التي تلتها ، وجد أليبيوس نفسه محصوراً بالتأكيدات القائلة إنه يوجد قبول في المسيح حتى لرجل مثله ، و هو الذي كان يحب و يكره في آن إراقة الدماء ، هذه العملية الرهيبة و المفجعة التي كانت تمارس في المدرج الروماني ، و الذي كان يجد نفسه دائم الاضطراب ، شاعراً بالذنب الذي كان يوخر ضميره الحساس . قال أغسطينوس : «عندئذ دخلنا البيت ، وأخبرنا والدتي التي امتلأت بالبهجة و الخبرور . »¹⁴

بالنسبة الى أغسطينوس ، لقد انتهى صراعه المزبور . ولم يكن يتخيّل حجم الصراعات الهائلة التي يعيشها له المستقبل . ولكن كان على أغسطينوس كالكثيرين غيره من الناس ، أن يجد ، من خلال خبراته الخاصة ، أن الحياة المسيحية ، مهما كانت صعبة ، لا يمكن أبداً أن تكون أصعب من الحياة من دون المسيح . وفي حمده لربه السماوي قال : «لقد صنعتنا لك ، و لا يمكن لتقوينا أن تجد السلام إلا عندما ترتاح فيك . »¹⁵

ملاحظات

Pine-Coffin, St. Augustine - *Confessions* p. 11 -1

Chadwick p. 7 -2

1 بطرس 3: و 2 -3

Confessiones 9:9 -4

Confessiones 7:7 -5

6- لم يكن مائى آخر من خصص لنفسه هذه الألقاب . لكن قراءة دقيقة للنص من بوحنا 16:7-15 تُظهر أن «البارقليط» الموعود به أي «المعنى» ، أو «المعنى» ليس ، بأي شكل من الأشكال ، إنساناً ، لكنه روح الله القدس الذي نزل على التلاميذ في يوم الحسين .

Confessiones 3:12 -7

Confessiones 4:4 -8

Confessiones 4:8 -9

Confessiones 6:3,4 -10

Confessiones 7:2 -11

Confessiones 8:6 -12

13- روبية 13:13 و 14

Confessiones 8:8,12 -14

Confessiones 1:1 -15

طالما رُويت قصة مداية أسطنطينوس ، لكن قد يبقى ما ذكره هو شخصياً في «الاعتراضات» هو الأفضل بين هذه

الروايات جيئها . للحصول على تعليلات حول هذه الأحداث راجع : Bonner pp. 1 - 103 :

Chadwick pp. 1 - 29 ، ومن وجهة النظر الفلسفية : Foakes - Jackson pp. 490 - 496

الفصل الثاني والعشرون

طريق التحدّي

في العام 386 م ، وعندما كان في الثانية والثلاثين من عمره ، صمم أغسطنطينوس أن يصبح مسيحيًا . كان يعلم أن هذه الخطوة تعني ، بالنسبة إليه ، تكريس حياته بالكلية لخدمة الله . كما أن هذا يعني أيضًا التخلّي عن وظيفته كمعلم ، و العدول عن زواجه المترقب . كذلك يتوجّب عليه أن يثق بالرب يسوع ليحرره من طغيان رغباته الجنسية ، و يشدد عزمه على البقاء حازمًا . لقد كان على أهبة الاستعداد ليخصّص حياته بالكلية لخدمة الرب ، بعيداً عن شتى أنواع الارتكاكات العالمية ، تماماً كما كان الرسول بولس قد فعل قبل ثلاثة قرون و نصف .

كانت الأمور الجنسية في ذلك الوقت ، تستحوذ على عقول الناس في المجتمع الوثنى ، الأمر الذي دفع الكثيرين في أيام أغسطنطينوس إلى اعتبار العزوّة أسمى علامات التكريس المسيحي . وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، حتى انهم شجعوا الزواج و انتقدوه ، كما انتقدوا أيضاً أولئك الذين اختاروا هذا الطريق . أما أغسطنطينوس ، فلم يتبّع قط هذا الموقف . لقد تكلّم باسمه ورفعه عن الزواج المسيحي ، مصراً على أنه ترتيب إلهي لخير الإنسانية و بركتها . كان ولا يزال العديد من المسيحيين البارزين يستمتعون بالشركة الزوجية و الحياة العائلية ، مظهرين في بيوتهم مثل الزواج المسيحي و تطبيقه العملي . وكان ترتوبيانوس في أيامه ، واحداً من هؤلاء المسيحيين . أما أغسطنطينوس ، فقد اختار طريقاً أكثر تقدّماً ، مع أن الطريق الآخر قد يتطلّب من الإنسان أعظم مناقب الشخصية المسيحية . كان يرغب في أن يكون متّحراً من القيد الأرضي حتى يتسنى له أن يرتبط أكثر بالقيود السماوية .

استمرّ أغسطنطينوس يعلم البلاغة و الخطابة على مدى ستين آخرین في ميلاتو ، و لكنه راح يفكّر جدياً في ضرورة أن يترك عمله هذا الآخرين قد يكونون ربما أكفاء منه ، لكنه يتسنى له أن يتخصّص هو للمهمة التي قد لا يحسن أحد سواه القيام بها : إيجاد الأجوية الشافية عن الأسئلة الصعبة العويصة التي كانت تقلق جيله . ولأنه كان يعاشر المثقفين من الناس في البلاط الامبراطوري ، شعر في نفسه أن الله يدعوه إلى شرح حق الإنجيل و إثباته إلى صفوّة القوم في الامبراطورية . و في غضون ذلك ، انكبّ مع ابنه اديودانوس ، و صديقه البيوس ، على دراسة العقائد الأساسية للإيمان المسيحي ، و ذلك في الأقسام الدراسية التي كانت الكنيسة قد أعدّتها في ميلاتو لأولئك الذين يطلبون المعمودية . و بعد أن أنهوا سلسلة دراستهم هذه بال تمام ، جرت

معموديتهم على يد الناظر أمبروزيوس في جو من الفرح العارم ، ثم سافروا بعد ذلك بقليل مع والدته مونيكا عائدين إلى إفريقيا الشمالية .

و بعد سفر بريء متعب و طويل ، وجد أغسططينوس وأمه أنهما قابعان وحدهما في ميناء أوستيا (Ostia) ، متظرين المركب الذي سوف يقللما عبر البحر الأبيض المتوسط إلى إفريقيا . وبينما كانوا يحدقان من خلال النافذة التي تشرف إلى الخديقة الموجودة ببناء البيت حيث كانوا يقطنان ، راح أغسططينوس وأمه يتظارحان الحديث عن بهجة الشركة مع الله و فرحة التعرف به ، و عن اليوم الذي فيه سيكونان في محضره السماوي متحررين من محدودية هذه الأرض و من الخطابات . فقد شعرا في تلك اللحظات بحضور رب الجلي معهما ، حتى ان أمور هذه الدنيا باتت تافهة في نظرهما . و بعد سنوات ، كتب أغسططينوس عن كل ما تحدث به مع أمه في ذلك اليوم : « في تلك اللحظة القصيرة ، ارتقينا أنا و أمي بأذكارنا عالياً ، حتى لامستنا الحكمة الأبدية التي تبقى و ثبتت فوق كل الأشياء . » و بدا ذلك وكأنه تذوق مسبق للسماء : « للففترض أن هذه الحالة هي الدائمة و المستمرة ، و قد زالت من الوجود كل المناظر السفلية الأخرى ، فتملك هذا المنظر الذي رأه ، غامراً إيه بأفراح داخلية عارمة . . . أفلأ يجسم ذلك مغزى الكلمات : « ادخل الى فرح سيدك ! » ١ و بينما كانت تتحدث في ذلك اليوم ، ظهر لنا العالم ، بكل متعه و مبهجه ، و كأنه مكان تافه حقير ، بالمقارنة مع تلك الحياة التي تحدثنا عنها . ثم خاطبني أمي بالقول : « يا بني ، أنت من جهتي ، فلم أعد أجد أية متعة بعد في هذه الحياة . فلم يبق لي اي عمل أعمله ، ولم يعد لي شيء أرجوه في هذا العالم . كان هناك سبب واحد ، وواحد فقط ، يرغبني في أن أبقى لفترة قصيرة بعد على قيد الحياة ، وهو أن أراك مسيحيًا حقيقىً قبل أن اموت . لقد حقق لي الله أمنيتي هذه و أعطاني أكثر مما ثمنت ، حيث أراك الآن خادماً للمسيح ، يزدرى بكل ما يعرضه عليك هذا العالم من سعادة مؤقتة . فماذا علي بعد أن أعمله في هذا العالم ؟ » ٢

و لم تمض سوى خمسة أيام على هذا الحديث ، حتى أصبحت مونيكا محمومة ، و ساءت حالتها الصحية ، فتكلمت إلى الشباب الذين كانوا يحيطون بها على فراش الموت . و إذ كانوا يعلمون أنها كانت راغبة في أن تُدفن بجانب زوجها في إفريقيا ، سألوها إن كان سيقلّقها ترك جثمانها بعيداً عن موطنها في إفريقيا . فأجابت مونيكا : « لا يوجد شيء بعيد عن الله ، ولا حاجة إلى القلق من أنه سوف لن يجدني عندما يأتي ليقيني إلى الحياة عند نهاية هذا العالم . » وفي اليوم التاسع من مرضها ، ماتت مونيكا عن عمر يناهز السادسة والخمسين . و هكذا انتهت عملها على هذه الأرض ، بينما كان عمل ابنها قد بدأ لتوه .

و في خريف عام 388 م ، وصل أغسططينوس إلى قرطاجة . و لم يكن قد مضى إلا خمس سنوات على مغادرته قرطاجة سعياً وراء تلاميذ أكثر هدوءاً ، بالإضافة إلى شهرة أكاديمية . كان

سعياً بأن يكون بين بني قومه من جديدو في المدينة التي يعرفها جيداً ، و هو الإفريقي المتحدر بشكل مؤكد تقريباً من أصل أمازيغي .³ و إذ كان أغسطينوس و أليبيوس نزيلين في بيت مسيحي يدعى إنوسنت (Innocent) ، بعثا من الشفاء العجزي من داء البواسير المؤلم الذي ناله مضيقهما . وبعد إسحاقات غير مجده قدماها له عدة أطباء ، شفي هذا الرجل من دائه ، ببساطة ، بواسطة صلوات رفعها إلى الله من أجله قادة الكنيسة الذين اجتمعوا في بيته . و لكن الإقامة في قرطاجة لم تدم سوى أيام قليلة . فهذه المدينة ، كانت ، و لاشك ، تبعد إلى ذهن أغسطينوس ذكريات كثيرة عن أيام الأضطراب النفسي التي عاشها كتلميذ ، و عن خليلته السابقة ، و قراره التوجه إلى روما خلافاً لإرادة أمه . كانت هذه الذكريات مؤللة أكثر منها مفرحة ، و بات مشارقاً إلى العودة إلى موطنه في تاغاست .

و في قراءته سفر أعمال الرسل ، تأثر أغسطينوس كثيراً بما فعله قديماً المسيحيون في أورشليم ، حيث أنهم باعوا أملاكهم ، و كانوا يشاركون الممتلكات . و إذ تأثر أيضاً بالمجموعات الرهبانية التي كان قد رأها في إيطاليا ، مع تلك التي سمع عنها في مصر ، قرر أن يبيع أملاك العائلة في شاغست . و بعد ذلك ، بدأ يعيش بصحبة أليبيوس و ابنه أديبوداتس و عدد آخر من الشبان الذين كانوا هم أيضاً قد نذروا نفوسهم ليعيشوا عزباء ، و ليخدموا القضية المسيحية . كانوا يقضون معظم أوقاتهم في دراسة الكتاب المقدس و في المناظرات الفلسفية . و هكذا استمرت هذه المجموعة الصغيرة ، على مدى ستين و نصف ، و كأنها مدرسة لكتاب المقدس أكثر منها ديراً للرهبان . و هناك ، و مع الأسف الشديد ، توفي أديبوداتس عن عمر يناهز السابعة عشر . لقد أظهر هذا الشاب دلائل تبشر بالذكاء والفتنة ، توأزي تلك التي كان يتحلى بها أبوه ، إلا أن هذا الأمل لم يكتب له أن يتمحق أبداً .

و بعد أن استقرَّ أغسطينوس ، شرع في كتابة أربع مقالات فلسفية ، يبين فيها أن معرفة الحق ليس بالأمر المستحيل . و منذ ذلك الوقت ، لم يكتُّ عن الكتابة . و كان أول كتاب ضخم له يتمحور حول موضوع النفس البشرية ، و خصوصاً حول عظمتها و خلودها . كذلك كتب بإسهاب ضد المانوية ، مؤكداً صدق الكتاب المقدس ، و مظهراً أن لا تعارض بين العهدين القدميين والجديدين .

و بصفته رئيساً لكلية الفلسفة المسيحية هذه ، و مؤلفاً لكتب انتشرت في ذلك الحين على نطاق واسع ، راح الكثيرون يقصدون أغسطينوس لاستشارته بشأن مواضيع شتى . كان يغير كل سؤال اهتماماً تاماً ، محاولاً أن يعالجه في ضوء الوحي الإلهي ، و ذلك من دون أي تحيز بشري أو افتراضات مسبقة . لقد رغب في أن يكرس نفسه بالكامل لدراسة الأمور التي حيرت المفكرين المسيحيين الآخرين ، و بذلك رسم مستقبله كمعلم و عالم لاهوتي . كان يعلم جيداً أن كنائس كثيرة تشعر بأنها في حاجة ماسة إلى رجل يقود القطيع و يعلمه ، لكنه كان ينفر من مسؤوليات اجتماعية كهذه . كان يعتمد اجتناب الكنائس التي يعلم أنها في تلك الحالة ، خشية أن تقنعه بالتخلي عن أعماله الأكادémie ، مستحيضاً عنها بخدمة راعوية .

إلا أن صديقاً له دعاه في العام 391 م إلى زيارة مدينة هيبو ريجيُوس الساحلية ، (عنابة- الجزائر حالياً) . و مدينة هيبو هي الميناء الثاني في إفريقيا ، و يعود تاريخها في ذلك الحين إلى أكثر من ألف سنة ، وهي تعتدّ و تفخر بأبنيتها الممتازة الرائعة ، وبساحتها العامة المزدحمة بالأثواب الفخمة العظيمة . كان صديقه عضواً في الشرطة السرية ، وقد أبدى رغبة في أن يصبح مسيحيًّا . و عند وصولهما ، تبيّن لاغسطينوس أن رغبة صديقه كانت قد تضاءلت بعض الشيء ، و مع هذا ، فإن محادثالهما استغرقت بضعة أيام . و في يوم الأحد ، حضر أغسطينوس إلى كنيسة هيبو ، و هو لا يعلم أن ناظرها العجوز المدعو فاليريُوس (Valerius) ، كان منذ فترة ، يأمل في أن يحظى بشاب جدير بأن يحل محله في بعض أعماله . كان فاليريُوس يونانيًّا ، و هكذا بات تعليم الكنيسة باللغة اللاتينية حيث تقليلاً عليه . لذا ، صرّح في ذلك اليوم عن حاجته إلى مساعد . و إذ كان جمهور العباديين يعرفون الكثير عن أغسطينوس ، راحوا يتولّون إليه أن يأتي إلى معاونتهم ، ثم حملوه إلى الجهة الأمامية من القاعة ، على الرغم من معارضته الشديدة ، حيث جرى تنصيبه شيئاً على كنيسة هيبو . و هكذا ملأ المكان الذي افترن به اسمه منذ ذلك الحين . ولم يجعل معه أغسطينوس ، كما ألمح إلى ذلك في ما بعد ، سوى تلك الثياب التي كانت عليه آنذاك .

واجهت هذا الشيخ الجديد مشكلتان : الأولى و تلخص في تأمين الفرصة للاستمرار في دراسته الروحية ، حتى يتمكن من أن يعدّ نفسه ، على شكل ملائم ، لتعليم أولئك الذين يطلبون المعمودية في الكنيسة . و على هذا الأساس ، منحه فاليريُوس إجازة يحقّ له بموجبها أن يقى غالباً إلى أن يجد نفسه مستعداً لتسليم مهامه الجديدة . أمّا المشكلة الثانية ، فتعلق بكيفية تنفيذه مخططه في العيش بصحبة رجال عازبين آخرين حيث يكون كل شيء مشتركاً . و في سبيل ذلك ، تم تشييد بيت مناسب في الحديقة التي تخصل فاليريُوس حيث انضم إلى أغسطينوس ألييوس وأصدقاء قدماء من ثاغاست ، فضلاً عن بعض الأفراد الجدد . و قد أصرّ أغسطينوس على ضرورة أن يتخلى أولئك الذين يعيشون معه ، عن دورهم وأراضيهم ، إذ يهبونها لعائلاتهم أو للكنيسة ، لكي يعيشوا معاً حياة متشففة مكرسين أنفسهم بالكلية خدمة الله والإنسان .

و بعد ثلاث سنوات ، تركهم ألييوس لكي يصبح ناظراً في كنيسة ثاغاست . أمّا في هيبو ، فحيث أن الشيخ فاليريُوس كان راضياً جداً عن مواعظ أغسطينوس و تعاليمه و عن تأثيرها الحسن في رعایا كنيسته إذ رفعتهم إلى أعلى مستويات الحياة المقدسة ، جاء بسؤال أغسطينوس أن يصبح ناظراً مشاركاً له . و لم تمض إلا بضعة شهور ، حتى وافت المنية فاليريُوس . فأصبح عند ذلك أغسطينوس ، الذي كان قد بلغ سن الثانية والأربعين ، ناظراً في كنيسة هيبو ، المدينة التي تعنى «المجأ» . كان ذلك في العام 396 م ، و هكذا استمر في خدمته على مدى الأربع و الثلاثين سنة التالية .

و منذ اللحظة الأولى لتعيينه ، شعر أغسطينوس بأنه عليه أن يولي الخير الروحي المستمر للشعب المسيحي في هيبو ، اهتمامه الأول . إن مؤلفاته التي تشكّل تراثه الذي خلفه للأجيال

القادمة ، و الذي ترتكز عليه شهرته و سمعته ، قد كان يكتبها من حين لآخر كلما سُنحت له واجباته الأخرى . كانت اجتماعات الكنيسة تُعقد يومياً ، كما أنه كان مسؤولاً عن الاحتفال بالعشاء الرباني ، و عن المعموديات ، فضلاً عن مهام الوعظ و التعليم أيضاً . و لم تكن خدمة الوعظ تقتصر بالنسبة اليه ، على هيبو وحدها ، لكنه كان يعظ أيضاً في مدن إفريقيا الشمالية الأخرى وبالأخص في مدينة قرطاجة التي كان يدعى إليها مراراً و تكراراً . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان منهمكاً ، بإخلاص تام طوال حياته ، في تدريب الشباب الذين يقيمون معه ، حتى يكونوا مؤهلين تأهيلاً كاملاً ليتسلّموا مراكز قيادية متفرقة في كنائس أخرى . وكانوا يشكّلون مجموعة من التلاميذ عقدوا اليمونة على أن يتعلّموا كل ما يوسعهم تعلّمه من معلمهم الموهوب قبل أن يدعوا إلى القيام بعمل آخر بعيداً عنه .

كان يقضي بعض الوقت أيضاً في مراقبة الوظائف و الأعمال المالية و الإدارية في الكنيسة ، بما في ذلك المساعدات التي تُقدم للأرامل ، و الأيتام ، و سائر المحجاجين . فقد كان هناك عدد من الأيتام تحت وصايتها الشرعية ، و كان عليه أن يوفر لهم ما يتبع لهم إعالة أنفسهم ، ثم يضمّن تزويجهم بشكل مناسب مع أنه لم يكن متّحمساً جدًا للإعداد لمثل هذه الزيجات . « فإذا ما اختلف الزوجان ، فإنّهما سيلعنان ذلك الإنسان الذي قام بالإعداد لزواجهما ! »⁴ كذلك كان يُقاطع باستمرار من قبل أناس يسألونه التدخل في حل نزاعاتهم ؛ و هكذا وجد نفسه متورطاً في أمور شرعية لمصلحة المسيحيين الذين كانوا يرغبون ، بناء على اسس كتابية ، في التوصل إلى اتفاق حيي يخلو من الفضائح العامة ، و من دون أن يضطروا إلى دفع تكاليف إحالة قضيّاهم إلى المحاكم العامة .⁵ وكل هذا يعني عبّتا ثقلياً على ناظر دائم الاشتغال والمسؤوليات مثله . و في بعض الأحيان ، كان عليه أن يتدخل لدى السلطات الدنيوية أيضاً ، لصالح الكنيسة وأعضائها . و كانت هذه الأمور تستحوذ كثيراً على تفكيره ، فيكتب أحياناً رسائل مطولة إلى موظفي الدولة و غيرهم من ذوي المراكز العامة اذا اقتضت الحاجة إلى ذلك . كما خصص بعض الوقت لزيارة أعضاء كنيسته ، و كانت غايته « افتقاد اليتامي و الأرامل في ضيقتهم »⁶ . و قد ألزم نفسه بهذا القانون لكي يتجنب أي انهاك له بأنه يبحث عن صدقة الأخباء و ذوي النفوذ للحصول على هباتهم المالية و صداقاتهم . و لم يكن ليحضر الأعياد او مآدب الطعام ، و لكن إذا ما سُئل أن يقوم بزيارة المرضى لأجل الصلة من أجلهم ، فإنه يحضر من دون تأخير او إبطاء . و بالإضافة إلى كل هذا ، وَجِب عليه أن يكون جاهزاً و موجوداً في آية لحظة لاستضافة الزوار . و بالنظر إلى هذه الواجبات و الوظائف الضاغطة كلها ، يصبح من الصعب علينا أن نعرف من أين كان بإمكانه توفير الوقت اللازم لإنجاز انتاجه الأدبي المدهش . لقد أخبرنا صديقه بومسيديوس (Possidius) ، كيف كان يعمل بنشاط و جد في النهار ، كما كان يشهر أيضاً حتى ساعة متاخرة جداً من الليل . كانت مسؤولياته و أعباء أعماله تزداد باطراد كلما تقدّم به العمر . إن حياة كهذه هي كفيلة بأن ترهق حتى الأقوىاء ، ولكن الغريب في الأمر أن أغسطنطينوس كان عرضة للأمراض وبخاصة الالتهاب الشعبي (bronchite) ، و لم تكن صحته قوية .

كان يعيش حياة نقشف ، ولم تكن متطلباته او احتياجاته إلا قليلة . كانت وجبات الطعام عند جماعة الرجال التي يتسمى اليها ، تتكون من الخضار بشكل عام ، إلا أنهم كانوا يخصصون اللحوم للضيوف وللمرضى وحدهم . كانوا يقدّمون الخمر دائمًا ، بعد ان يمزجوا جيداً بالماء ، ولا يشربونه إلا بشكل محدود ، و بالكميات المسموحة فقط . « السكر هو بعيد عني » ، هذا ما صرّح به أغسطينوس بكل إخلاص ، وقد اعترف بأنه تجرب أحياناً بأن يُفرط في أكل بعض الأطعمة الشهية . ولم يكن يسمع لضيوفه ، أياً كانوا ، بأن يقسموا او يختلفوا قدّامه او بأن يستخدموا اسم الجلالة باستخفاف وبلامبالاة . كذلك كان محظوظاً عليهم التكلم باسلوب انتقادى او فظّ عن اي شخص آخر . لقد جعل لوحة على الطاولة مكتوب عليها : « الى كل من تسوّله نفسه أن يهشم سمعة الأشخاص الغائبين : ليكن معلوماً لديه بأن المائدة ليست له ! »⁷

كان لباسه لائقاً و خالياً من كل آثمة ، لكنه لم يكن يرغب في الظهور بظهور الفقر . كان يلبس ثوباً بسيطاً أسود فوق قميصه الذي يشبه « الفوقيه » المغربية المعاصرة ، و ذلك على طراز سائر الرجال الذين كان يعيش معهم . كما انه كان يتخل خفأً جلدياً عاديّاً (صندلاً) في قدميه .⁸ كان يحتاج على الهدايا التي كان يحصل عليها من الشباب الفاخرة ، و قال : « قد تكون هذه الهدية مناسبة لنظر ، ولكنها لا تناسب أغسطينوس الفقير ، و الذي ولد من أبوين فقيرين ». وقال أيضاً في مناسبة أخرى : « إن الشباب الفاخرة تمثلني حرجاً ، وهي لا تناسب عملي ، حتى و لا جسمي العجوز البالي و لا شعرى الأشيب ». و مع ذلك ، كان باستطاعته بلباقة و لطف ، أن يتصرف أحياناً بشكل مغاير لمبدئه المتواضع هذا كما ستتبين من قضية ساپيدا (Sapida) . لقد أرسلت هذه المرأة المسيحية له قميصاً صنعته بيديها ، و هي في الحقيقة كانت تنوى تقديمها تيموثاوس الذي كان يعمل مدبراً في كيسة قرطاجة ، و لكنه توقي قبل أن يتسلّم هدية أخته . وقد صرّحت له ساپيدا بأن قبوله لهذا القميص سيشكّل تعزية عظيمة لها . لم يقوّ أغسطينوس على رفض هديتها هذه ، و لكنه في الخطاب الذي كتبه اليها ليشكرها فيه على هذه الهدية ويخبرها بأنه بدأ يلبسها ، اقترح عليها بلطف أن تبحث عن مؤاساة أعظم إذ تذكر أن أخاهما ، الذي كانت قد صنعت له هذا القميص الأرضي ، بات لابساً الآن رداء الخلود الأبدي الذي لا يفنى .⁹

كان أغسطينوس يتعامل مع النساء بتحفظ كبير جداً . و لم يكن ليزور البيوت التي تشغلهها المجموعات النسائية إلا عند الحاجة الملحة القصوى . و في الوقت عينه ، لم يكن يسمح لأية امرأة بأن تبقى في الدار حيث كان يعيش مع الرجال . و إذا ما جاءت امرأة إليه نسأله النصح والمشورة ، لم يكن يستقبلها إلا بحضور قادة الكنيسة الآخرين . لقد حرص على إلا يعطي مجالاً للافتراضات او لسوء الفهم ، و كان يسعى جاهداً لوضع نصب أعين الجميع المثال الذي ، اذا ما اقتدى به الجميع ، قد يكسب احترام المسيحيين و الوثنيين على حد سواء ، كما انه يقي الضعفاء الفخاخ والأحابيل التي تكتنف الطبيعة البشرية .

و يامكاننا ، من خلال الفن المعاصر آنذاك ، و الرسائل التي بقيت منذ عصر أسطنطينوس ، أن تتصور طبيعة الناس الذين كان يخالطهم ، و أن تكون فكرة ، و إن يكن غامضة ، عن أعضاء الكنيسة التي كان يقودها . وأقدم الصور المرسومة لأسطنطينوس تبيّن ذا شعر قصير حليق الوجه على نحو كامل ؛ وقد كان هذا بالأمر المأثور في أيامه . فمنذ زمن كبريانوس لم تعد اللحى بالشيء المرغوب فيه ، فأهملها معظم الرجال ، ولكن بقى مظهر الرجال و النساء و ملابسهم من دون أي تخفيز يُذكر . كان الرجال و الصبيان ، في الدين على الأقل يلبسون قميصاً أبيض من الكتان أو الحرير ، المزین برسوم الحيوانات ، و بعض الأحيان مشاهد تعصيبة من الكتاب المقدس . أما في الأيام الباردة ، فكانوا يلبسون ، حين يخرجون ، سترة أو برنساً صوفيين وثبتت الأخير بدبوس معدني . و في الشتاء ، كان الأغنياء يلبسون الفراء ، بينما يلبس الفقراء الجلد المدبوعة التي تقاوم خشونة الأعمال البدنية الشاقة . و كانت تلبس القلنسوة خارج البيوت ، ولكن الرجال كانوا ، بشكل عام ، يخرجون عراة الرؤوس ، ما عدا صيادي الأسماك الذين كانوا يلبسون قبعة مصنوعة من القش ذات حافة عريضة ، و هي تشبه القبعات (قارازا) التي ما زلتا نراها اليوم في إفريقيا الشمالية . لقد وجد السرروال طريقه إلى إفريقيا من بلاد الغال ، و ذلك في نحو نهاية القرن الرابع للميلاد . و قبل هذا الوقت ، كان الأفارقة الشماليون يحفظون أرجلهم دافئة بواسطة وقامت نسيجية مشدودة بأربطة لا تتجاوز الركبة ، و وخاصة عند القنص او العمل في الحقول . و في ذلك الحين ، كما هو الحال الآن ، كان سهلاً تمييز الناس من أحذيتهم : معظم الناس كانوا يلبسون الصنادل - « الخف » - المزودة بربط ، او بآي نوع من أنواع الشبشب (البلغة) ، البسيط و لا عقب له . و كان الأغنياء يلبسون أحذية أكثر أناقة ، كالتبشب المنمق ، او الجزمزة القصيرة المفتوحة من الأمام ، تظهر منها الأصابع ، و هي مزينة بالعاج . أما الفقراء ، فكانوا حفاة .

كانت النساء يحتفظن بشعورهن الطويلة ، و لكنهن كن يقطعنها بوشاح في الاجتماعات الكنائسية . و كن يلبسن رداء طويلاً متديلاً و طليقاً عند الأكتاف . و لكن بالنسبة إلى الثياب التي تُستعمل عند الخروج من البيت ، فكن يجعلنّ عليهنّ رداء صيفياً او معطفاً مصنوعاً من الصوف ، او برنساً يثبت بدبایس مصنوعة من الأحجار الكريمة . كانت النساء الموسرات يشترين الثياب الحريرية الناعمة الممتازة المستوردة من الشرق ، و يحلينّ أنفسهنّ بحلقات الأذن و القلادات ، و الأساور ، و دبابيس الشعر . لقد توافرت في تلك الأيام مجموعة كبيرة وأنواع عديدة من العطور الباهظة الثمن ، بالإضافة إلى مراهم البشرة ، و مزيالت الشعر . و كان كبريانوس ، في أيامه ، قد وقع سيدة أنيقة واحدة على الأقل ، لاستعمالها « الكحل » ، لكي تزيد من جمال عينيها . اعتبر أسطنطينوس أنه يتوجب على النساء اللواتي يحضرن اجتماعات الكنيسة أن يلبسن و يتصرفن باحتشام و تواضع . و هذا ما قاله أسلافه أيضاً .

استُعملت الزيوت العطرية في عصر أغسطينوس للغسل ، و كذلك استُعملت الفراشي الخشنة لفرك البشرة . كما انه كان يجري تحضير صنف من معجون الأسنان الذي يتم استخراجه من بعض الأعشاب . و كان أغلب الناس في المدن ، و حتى في القرى بالقرب من الساحل ، يقصدون الحمامات العمومية يومياً لأجل الاستحمام . فسكان إفريقيا الشمالية ، بشكل عام ، كانوا محبيـن للنظافة ، و يرتدون لباساً مرتباً نظيفاً ، مع أنـ أغسطينوس كان قد ألمـ أكثر من مرـة إلى أنه باستطاعته معرفـة إنـ كانت عظامـه تطولـ و تدومـ أكثر من الوقتـ المأـلوف ، و ذلكـ منـ الروـاجـعـ الكـريـبةـ المتـصـاعـدةـ منـ أـبـدانـ الـحـاضـرـينـ ، وـ الـتـيـ تـزـدـادـ حـدـةـ معـ الـوقـتـ لـدرـجـةـ اـنـهـ تـصلـ حتـىـ الـهـ

فيـ مـقـدـمةـ القـاعـةـ 10.

إنـ التنـقـيـاتـ الـأـثـرـيـةـ فيـ كـلـ مـنـ قـرـاطـاجـ وـ هـيـبـوـ وـ أـمـاكـنـ أـخـرىـ ، تمـكـنـتـ مـسـنـ كـشـفـ الـأـبـنـيـةـ وـ الـأـمـتـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـخـصـ الـمـسـيـحـيـنـ فيـ أـيـامـ أـغـسـطـيـنـوسـ . وـ هـكـذـاـ تمـ العـثـورـ عـلـىـ بـقـاـيـاـ قـاعـاتـ الـاجـتمـاعـاتـ الـمـسـيـحـيـةـ ايـ «ـ الـبـاسـيـلـيـاتـ »ـ لـكـلـ مـنـ الـكـاثـولـيـكـ وـ الـدـوـنـاتـيـنـ . كـانـتـ الغـرـفـ الرـئـيـسـةـ عـادـةـ مـسـطـيـلـةـ ، وـ غالـبـاـ مـاـ تـحـتـويـ عـلـىـ الـأـتوـاسـ وـ الـرـوـاقـاتـ ذاتـ الـأـعـمـدةـ عـلـىـ طـولـ اـمـتـادـ جـانـبـيـهاـ . وـ قدـ يـصـلـ طـولـهـ إـلـىـ 80ـ اوـ 100ـ مـتـرـ ، وـ بـعـرـضـ قـدـرهـ 45ـ مـتـرـ اوـ أـكـثـرـ ، وـ سـقـفـهاـ كـانـ عـالـيـاـ . أـمـاـ الغـرـفـ الـأـخـرىـ ، فـقـدـ كـانـتـ تـسـتـعـمـلـ لـلـاجـتمـاعـاتـ الصـغـرـىـ ، اوـ لـاحـتـواـءـ مـكـتـبـةـ ، اوـ كـحـوـضـ لـلـمـعـمـودـيـةـ مـصـنـوعـ مـنـ الـجـارـةـ . لـقـدـ كـانـتـ تـزـيـنـ أـرـضـ الـأـبـنـيـةـ الـتـيـ ظـهـرـتـ لـاحـقاـ ، وـ جـارـانـهاـ وـ أـحـيـاـنـاـ سـقـوفـهاـ أـيـضاـ ، بـالـفـسـيـفـاءـ وـ بـقـطـعـ صـغـيرـةـ مـنـ الزـجاجـ وـ الـمـرـمرـ .

كـماـ وـجـدـتـ بـقـاـيـاـ كـسـيـسـيـنـ كـبـيرـيـنـ فـيـ هـيـبـوـ نـفـسـهـاـ ، إـحـدـاهـاـ كـاثـولـيـكـةـ وـ الـأـخـرىـ دـوـنـاتـيـةـ . وـ كـانـ طـولـ بـنـائـةـ الـكـنـيـسـ الـكـاثـولـيـكـةـ نـحـوـ 50ـ مـتـرـ ، وـ عـرـضـهـ 20ـ مـتـرـ ، وـ فـيـهـ حـوـضـ حـجـرـيـ استـعـمـلـ لـلـمـعـمـودـيـةـ ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ كـرـسيـ حـجـرـيـ كـبـيرـ حـيـثـ كـانـ النـاظـرـ يـجـلسـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ . وـ نـحـنـ لـأـ نـعـلـمـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـ هـذـاـ هـوـ الـبـنـاءـ حـيـثـ خـدـمـ أـغـسـطـيـنـوسـ بـالـخـالـصـ كـبـيرـ ، وـ قـدـ يـكـونـ هـذـاـ الـأـمـرـ مـكـنـاـ .

وـفـوـقـ مـدـخـلـ دـوـرـهـ ، وـ بـجـانـبـ اـسـمـ مـالـكـ الـبـنـائـةـ وـ الـمـقـيـمـ فـيـهـاـ ، كـانـ الـمـسـيـحـيـوـنـ يـحـفـرـونـ عـادـةـ آـيـاتـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ اوـ كـلـمـاتـ صـلـةـ مـثـلـ :ـ «ـ الـرـبـ يـحـفـظـكـ مـنـ كـلـ شـرـ ، يـحـفـظـ نـفـسـكـ .ـ »ـ «ـ الـرـبـ يـهـتـمـ بـيـ ، عـونـيـ وـ مـقـنـدـيـ أـنـتـ .ـ »ـ 11ـ وـ أـمـاـ النـقـشـ الـمـفـضـلـ فـيـ قـرـاطـاجـ ، فـكـانـ :ـ «ـ إـنـ كـانـ اللـهـ مـعـنـاـ ، فـمـنـ عـلـيـنـاـ ؟ـ »ـ 12ـ

كـانـتـ مـصـابـيـعـ شـمـالـ إـفـرـيقـيـاـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ ، مـرـيـّـةـ بـرـسـومـ مـخـلـفـةـ مـنـ وـحـيـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ :ـ ذـيـخـةـ اـسـحقـ ، اـبـرـاهـيمـ وـ زـوـارـهـ الـثـلـاثـةـ ، الـمـرـسـلـانـ الـعـادـلـانـ مـنـ أـرـيـحاـ وـ هـمـاـ يـحـمـلـانـ زـرـجـونـةـ الـعـنـبـ الـرـائـعـةـ ، يـوـنـانـ وـهـوـ جـالـسـ نـحـتـ الـبـقـطـيـنـةـ ، اوـ خـارـجـ مـنـ بـطـنـ الـحـوتـ ، الـفـيـانـ الـثـلـاثـةـ فـيـ الـأـثـونـ ، دـانـيـالـ فـيـ جـبـ الـأـسـوـدـ . كـانـتـ أـدـوـاتـ مـنـزـلـيـةـ أـخـرىـ تـصـوـرـ الـرـاعـيـ الـصـالـحـ ، الـمـسـيـحـ

في المجد ، رمز الصليب (أحياناً برأس معقوف يشبه عصا الراعي) ، أو العالمة الرمزية اليونانية « خاي - رو » (Chi - Rho) حيث يتشابك الحرفان (X و P) داخل دائرة ،¹³ أو الحرفين اليونانيين ألفا وأوميغا ، واللذين يمثلان المسيح بصفته الأول والآخر .

كذلك كانت الصخون والكتوس الفخارية تشير إلى أحداث مهمة عند المسيحيين مثل ذبيحة إسحق ، وآدم وحواء في جنة عدن ، وبطروس ويوحنا يصطادان السمك ، و معجزة إطعام الخمسة الآلاف ، وأعجوبة صيد السمك الوفير ، والعشاء الأخير ، وصورة سمكتين على هيئة صليب موضوعتين على الحصى ، والتي تشير إلى القطور الذي أعده المسيح بجانب البحيرة . كانت بعض هذه الفنون المسيحية في إفريقيا الشمالية مدهشة للغاية ، مثل لوحة حجرية تحمل رموز الحياة الأبدية معروضة الآن في المتحف بمدينة شرشال ، و الصحيفة الرخامية للراعي الصالح في المدافن السردابية بسوسة (Sousse) في تونس .

تحتوي متاحف الجزائر و تونس على الكثير من هذه البقايا . وهي تشهد للإيمان الحار الذي كان يُسرّ بقصص الكتاب المقدس و بوعود الله . إنها تعود فتحي ذكري صانعيها ومستعملتها . و لا شك أن هؤلاء القوم الذين تعموا بهذه الأمور قد تجاوبوا بحماسة كبيرة ، مع الموضع و التعاليم التي قدمها أغسطينوس .

ملاحظات

1- متى 21:25

Confessiones 9:10 - 2

3- قال المدبد من الكتاب في أغسطينوس إنه من « البربر ». ويرجح أنهم في ذلك على حق : كان بكل تأكيد تقريباً ، نصف أمازيغي على الأقل . يصرّح المؤرخ كابريل كُم جازماً : « هناك دلالة واضحة على أن أعظم المفكرين في الغرب اللاتيني ، وكاتب « مدينة الله » و « الاعترافات » ، كان ببربريا مسيحيًا » .⁴ (Camps p. 168) لا نعرف شيئاً بشأن خلفية والد أغسطينوس ، لكن يوجد أدلة على أن أمّه كانت من أصل أمازيغي . إن تحدّر أغسطينوس من أصل ببريري يظهر بطرق سلطة عديدة ، في اسم أمّه مونيكا ، وهو اسم ببريري ، قد يكون مشتقاً من « مون » ، الإله الليبي الذي يُعبد في المدينة المجاورة ثيليس (Thibilis) ، وفي ميل أغسطينوس إلى اتباع التقليد البريري وإلى اعتبار علاقة الأخ أقرب من علاقة الآباء . ولأنّهم مفرزى الاسم الغربي الذي أطلقه على ابنه ، أدريادانس ، إلّا في ضوء عادة البربر بـ« بـنسمة الأولاد باسم له علاقة بـعبادة البعل » (Freind p. 230) . فالاسم اللاتيني أدريادانس يعادل الاسم البوني « يعتمبل » الذي كان يستعمله الأمازيغ في ذلك الوقت .

تشادول⁵ (Chadwick p. 6) ، من جهة يعتبر أيضاً مونيكا اسمًا أمازيغياً ، بــ« تكون » (Brown) (p. 63) ، يلحظ أن

أدريادانس كان اسمًا شبيهًا بين أوساط المسيحيين في قرطاجة ، و معناه « مُعطي من الله » .

فرند (Freud p. 230) يلاحظ كيف أن ثاغاست ، سقط رأس أغسطينوس ، كانت تشكل مركزاً عظيماً للشقاوة الأمريكية التقليدية : « ليس في إفريقيا الشسالية أي مكان آخر حيث توافر بكلة هائلة المقابر الليبية التي تُعرف هويتها من المقوشات باللغة الليبية أو اللغتين الليبية واللاتينية ». ⁴

إلا أن أغسطينوس لا يظهر أبداً لية علامة لقدرته على التحدث باللغة الأمريكية أو لفهمها : كانت اللاتينية هي لغة التخاطب بينه وبين أمه . ان تفسيراً بسيطاً لهذا هو أن أباه لم يكن رِيماً يعرف إلا اللاتينية ، وهكذا لم يسمح باستخدام الأمريكية في البيت . وفي أيامنا هذه ، إن حالة كهذه هي مألوفة في إفريقيا الشمالية ، وهي تعود إلى فقدان ما كان يشكل حرفي اللغة - الأم

Vita 27 (Hamman p. 279). -4

6-1: كورنوس

6- بعقوب 1: 27

Vita 22 (Hamman p. 279). -7

Brown p. 193, 198-8

Epître 263:1 (Bonner p. 129). -9

10- بالنسبة إلى الملابس والطعام والفن العماري في عصر أغسطينوس ،
راجعاً (Hamman chap.3)

11- الزمرور (Hamman p. 65) 7:121; 17:40

12- بالإشارة إلى رومية 31:8

13- يشكل « خاي » و « رو » الحرفين اليونانيين الأولين للكلمة « المسيح ». كان هذا شعاراً مسيحياً مائرياً في القديم .
إن خدمة أغسطينوس ، في مراحلها الأولى ، يبحثها Bonner pp. 104 - 133 ، أثنا فلسفة الأفلاطونية المحدثة ،
. (pp. 9 - 56) Chadwick فكرًا وتأثيرات ، فيتناولها

الفصل الثالث والعشرون

الواعظ الماهر

لم يسع أغسطينوس ، كناظر في هيبو ، للتسلط على اعضاء كنيسته ، أو إرغامهم على القيام بأعمال خلافاً لإرادتهم . إن سر قيادته يكمن في صبره الحكيم . فعندما يقتضي بوجهة سير معينة ، يحرض على الآية دفع الآخرين إلى السلوك فيها أو رغمًا عن إراداتهم . لكنه كان يحاول جاهدًا أن يقنعهم ، إذ يعاملهم كفولم أذكياء قادرين مثله على إدراك الأمر ، و هكذا يتبعون بفرح ما يقترحه عليهم . إلى ذلك ، كان لاغسطينوس موهبة كسب تعاطف الآخرين و تقويمهم به . و يعزى ذلك جزئياً إلى استعداده للاعتراف بأخطائه الشخصية التي كانت دائمًا تظهر للسامعين بأنها أقل بكثير من خططيتهم . ولكن تواضعه كان حقيقياً و خالياً من الرياء إذ لم يفقد قط شعوره الحقيقي الصادق بالتجعل من خططيته القابعة في أعماقه ، و التي لا يدرى بها أحد سواه و سوى ربه .

كان أغسطينوس صاحب مشاعر جياشة ؛ كان ي يكنى بسهولة ، كما كان باستطاعته أن يسمو و يرتفع إلى أعلى مستويات الفرح والسرور في العبادة . اعتبر أنه ليس من الخطأ أن يكون عند المسيحي عاطفة و مشاعر . بل على نقبيض ذلك ، بما أن تلميذ يسوع قد تحرر من قساوة القلب تلك التي كان يتميز بها الفلاسفة الرواقيون الذين كانوا يكتبون كل مشاعرهم البشرية ، بما في ذلك الشفقة و الحنان . إلا أنه يتوجّب على المسيحي ، بالمقابل ، أن يكون قادرًا على كبح جماح مشاعره و يضبطها ، إذا ما اقتضى الأمر ذلك حتى لا تدفعه إلى اتخاذ أحكام متسرعة ، او يقوم بأعمال قد يندم عليها أخيراً . وهكذا يقول أغسطينوس : « ليست المسألة ، في الواقع ، كون النفس التالية خاضبة ، بل لماذا هي خاضبة ؛ أو كونها حزينة ، بل بالحرفي ما هو سبب حزنها ؛ أو كونها خائفة مرتعبة ، بل ممّ هي خائفة . أن نسخط على أحد الخطأ بداعي إصلاحه ، أن نتألم مع المحزونين بقصد التخفيف من معاناتهم ، أن نخاف على أحد لتجتبه ما قد يقوده إلى الموت ، هذه هي بعض المشاعر و العواطف المسيحية السليمة التي لا يمكن في نظري لأي حكم صائب أن يوبخها » .^١

كان أغسطينوس يتعاطف مع أخطاء إخوته الساقطين ، آخذًا بعين الاعتبار أنه يعجز أي إنسان عن معرفة ملء عنف التجربة التي قد اجتاز فيها قرينه . و هكذا يتحتم على المسيحي أن يتمهل في البحث عن أخطاء الآخرين . فبعض الناس ، بطبيعة عملهم ، وما تكتنف هذه الأعمال من مخاطر ، يكونون عرضة لإغراءات و إغواءات أعظم و أكبر من غيرهم ، لذلك يعترف قائلاً : « كان

قصد الرب أن يؤدّبني لأنني كنت نفطاً في توبخني البحارة على خططيّاهم ، و كأنني انسان أحكم منهم وأفضل منهم ؛ إلى أن علمتني الخبرة طبيعة عملهم . هذا لأنّه عندما تم إرسالي إليهم ، عندئذ أدركت كم كان تعنفي لهم وقحاً .² ولم يستطع أغسطينوس أن يقدّر صعوبة المهمة ، إلا بعد أن وجد نفسه مسؤولاً عن قيادة السفينة . إلا أن أخطار عمل القيادة في الكنيسة ، تفوق تلك المتعلقة بشتي الأعمال والمهن الأخرى . ففي عظاته ، كان أحياناً يشير ، وبإخلاص ظاهر بين ، إلى ضعفاته الخاصة و عدم أهلية ، سائلاً جمهوره أن يصلوا من أجله . لقد اعتبر نفسه أنه كان في موقع الخادم ، أكثر منه في موقع الأب للعائلات . و إذ كان يشعر بأنه مسكون ، راح يلهم من غنى كنوز الله ؛ وفي ضعفه الذاتي ، وجد قوته في مخلصه ؛ و في افتقاره إلى الكلمات المناسبة ، اعتمد على حق الوحي الإلهي . لقد قال : « الله يعلم كيف أرتجف في حضرته ، عندما أتحدث إليكم باسمه . »³

وجه أغسطينوس أبحاثه اللاهوتية إلى الذين كانوا يضارعونه فكريًا و عقليًا ، و لكنه كان يرغب ، و هو يعظ في كنيسة هيبو ، في أن يفهم كل الناس و يدركوا ما يقوله لهم . كانت مواعظه مميزة ببساطة التعبير و حضافتها العملية . فهو يحرص على أن يتمكّن الأقل ثقافة بينهم من فهمها واستيعابها . و هكذا تخلى عن اللغة اللاتينية ذات الأدب الرفيع التي يتحاطب بها عادة الفلاسفة ، لكي يستخدم لغة الناس اليومية ، قال : « أن يتزعزع مني أساتذة اللغة و القواعد النحوية هو أفضل بالنسبة إليّ من ألا يفهموني الناس . »⁴ كان يتكلّم كما الرجل مع صحبه ، مسدياً إليهم النصائح ، و مظهراً لهم سبيل الله ، حتى يتمكّنا هم أيضاً بدورهم من أن يعبدوا رب و يتبعوه . و كان يجده في الأشياء البسيطة المتوفّرة حواليه إيضاحات لتعليمه ، وكان يكثر من اقتباس الأمثال التي كانت مألوفة في عصره و بين قومه . كما أنه كان يؤمن بأن هذه الحكم و الأمثال التي هي حصيلة اختبار طويل للعالم ولطبيعة الإنسان ، قد تشير إلى حق الإلهي ، كما أنها قد تقود النفس إلى المسيح .

لم يتردد قط في تكرار ما يقول : كان بذلك يضمن و يتأكد من أن كل واحد سيقى بذكر ما قاله لهم . إنه يصف و يصور مشهدًا أكثر بكثير من عرضه لفكرة او بسطها أمام الناس ؛ و هو يختبر الشخصيات و يعطيهم أدواراً . كما أنه يطرح سؤالاً ، و من ثم يجيب هو عنه ؛ كذلك يتبع أحداً ، ثم يتسلّم مستفسراً عن بواطنها . كان يعلم ثماً أن الأمور الواقعية المدركة بالحواس تجد تجاوياً عند الناس بشكل أفضل بكثير من الأفكار التجريدية . و كان دائمًا و باستمرار ، يشرك ساميّه في عملية عرض مخططه ، فهو يدعوهم إلى الإجابة عن استئنه ، و إلى إضافة شيء إلى إيضاحاته ، و إلى الموافقة على اقتراحاته و أفكاره . إنه يحرّك عواطفهم و يلهبها ؛ و هو يقرأ أفكارهم من التعبير الباديّة على وجوههم ، و أخيراً يوصل إليهم رأيه بأسلوب منطقي لا يمكن مقاومته أو مناقضته . كان كلامه تلقائياً و عفوياً . و على كل حال ، لم يكن عنده

منسَّع من الوقت يسمح له بالإعداد المسبق الكافي لعظاته . « مهـما أعطـانـي الله ! » هذا هو التعبير الفضـل عنـه لوصف أسلوبـه فيـ الكلـام . كانـ أعضـاء كنيـستـه يكتـبون مواعـظـه فيـ الوقتـ الذيـ كانـ يلقـيـها ، و ذلكـ بـأـسـلـوبـ منـ أـسـلـوبـ الـاخـتـزالـ المعـرـوفـةـ آـنـذـاكـ ، ثـمـ يـصارـ إـلـىـ اـسـتـخـاصـهاـ قـبـلـ تـوزـيعـهاـ .

الـفـ فيـ العـامـ 393ـ ماـ هوـ أـشـيهـ بـتـشـيدـ اوـ تـرـتـيلـةـ لـمسـاعـدـةـ رـعـاـيـاـ كـنـيـسـتـهـ منـ عـمـالـ المـوـانـئـ وـالـفـلاـحـينـ عـلـىـ إـدـارـاـكـ الـحـافـقـ وـ الـمـادـيـ الـتـيـ كانـ يـعـتمـدـهاـ الـكـاثـولـيكـ فيـ صـرـاعـاتـهـ معـ الدـونـاتـيـنـ .ـ كانـ هـذـاـ الشـيـدـ يـتـكـونـ مـنـ عـدـةـ مـقـاطـعـ ،ـ يـبـدـأـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ بـالـأـحـرـفـ الـمـتـنـالـيـةـ فـيـ الـأـبـجـديـةـ ،ـ وـ ذـلـكـ عـلـىـ نـمـطـ سـفـرـ مـرـاثـيـ إـرمـيـاـ وـ بـعـضـ الـمـزـامـيـرـ ،ـ كـمـاـ إـنـ يـتـضـمـنـ فـيـ نـهـاـيـةـهـ حـثـاـ صـرـيـحـاـ عـلـىـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ وـحدـةـ الـكـنـيـسـةـ .ـ وـ الـوـاقـعـ أـنـ مـعـظـمـ الـمـسـيـحـيـنـ كـانـواـ أـمـيـنـ ،ـ وـ لـهـذـاـ لـمـ يـكـونـواـ قـادـرـينـ عـلـىـ تـفـصـصـ مـاـ يـسـمـعـونـ أـوـ مـاـ يـحـصـلـ أـمـاـهـمـ فـيـ ضـوءـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ .ـ وـ حـتـىـ هـيـبـوـ ،ـ وـ هـيـ ثـانـيـ مـدنـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ لـمـ يـكـنـ فـيـهاـ أـيـةـ مـدـرـسـةـ عـامـةـ .ـ لـقـدـ كـانـ أـبـاءـ الـعـائـلـاتـ الـغـنـيـةـ يـسـدـرـسـونـ عـلـىـ أـيـدـيـ مـعـلـمـيـنـ خـصـوصـيـنـ ،ـ وـ لـكـنـ هـؤـلـاءـ الـقـوـمـ كـانـواـ الـأـقـلـيـةـ .ـ «ـ أـنـاـ وـثـيـقـتـكـمـ ،ـ »ـ قـالـ أـغـسـطـسـفـيـوسـ «ـ أـنـاـ كـتـابـكـ .ـ »ـ 5ـ انـ رـجـلـاـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـقـعـ ،ـ كـانـ صـاحـبـ مـسـؤـلـيـاتـ جـسـيـمـةـ ؛ـ فـهـوـ مـسـؤـولـ عـنـ كـلـ كـلـمـةـ يـتـفـوهـ بـهـاـ ،ـ كـمـاـ «ـ وـ يـأـخـذـ دـيـنـوـنـةـ أـعـظـمـ »ـ مـنـ سـوـاهـ .ـ 6ـ

كـانـ الـمـوـاضـيـعـ الـمـفـضـلـةـ لـدـىـ أـغـسـطـسـفـيـوسـ تـلـكـ الـتـيـ توـقـعـهـاـ مـنـ مـعـرـفـتـاـ بـصـفـاتـهـ وـ خـلـفـيـتـهـ :ـ شـرـ الـخـطـيـةـ ،ـ زـوـانـ الـحـيـاةـ الـبـشـرـيـةـ وـ عـدـمـ يـقـيـنـيـتهاـ ،ـ الـغـزـىـ الـعـمـيقـ لـلـمـوـتـ ،ـ رـوـعـةـ مـجـبةـ الـمـسـيـحـ ،ـ فـعـالـيـةـ بـذـلـكـ نـفـسـهـ لـأـجـلـ فـدـائـاـ ،ـ الـمـثالـ الـذـيـ يـضـعـهـ أـمـاـنـاـ وـ الـذـيـ عـلـيـاـ اـتـيـعـهـ ،ـ عـطـبـةـ الـرـوـحـ الـقـدـسـ وـ حـضـورـهـ وـ قـوـتهـ ،ـ طـبـيـعـةـ الـكـنـيـسـةـ وـ مـجـدـهـ .ـ هـذـهـ هـيـ الـرـاعـيـ الـتـيـ يـهـوـيـ أـنـ يـرـيـضـ فـيـهـاـ ،ـ وـ الـتـيـ يـحـبـ أـنـ يـقـودـ رـعـيـتـهـ إـلـيـهـاـ .ـ لـقـدـ قـالـ :ـ «ـ هـنـاكـ شـيـءـ وـاحـدـ وـحـيدـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ ،ـ وـ هـوـ مـؤـكـدـ بـشـكـلـ مـطـلـقـ :ـ إـنـ الـمـوـتـ .ـ وـ حـتـىـ الـمـوـتـ نـفـسـهـ ،ـ ثـمـ شـيـءـ غـيـرـ مـعـرـفـ بـشـائـهـ ،ـ وـ هـوـ تـارـيـخـ حـصـولـهـ .ـ فـنـحنـ نـجـهـلـ إـيـنـ سـنـكـونـ عـنـدـمـاـ يـخـاطـبـنـاـ رـبـ الـبـيـتـ بـالـقـوـلـ "ـ اـرـحـلـواـ"ـ .ـ »ـ وـ لـكـنـ ،ـ هـلـ يـحـقـ لـنـاـ أـنـ نـحـزـنـ عـلـىـ أـوـلـاـكـ الـذـينـ رـقـدواـ ?ـ تـخـيـلـ أـنـ عـزـيزـةـ تـحـبـهـاـ قـدـ فـارـقـتـ هـذـهـ الـحـيـاةـ ؛ـ فـأـنـتـ لـمـ تـعـدـ تـسـمـعـ صـوتـهـاـ ،ـ وـ قـدـ اـنـقـطـعـتـ عـنـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ مـيـاجـ الـأـحـيـاءـ ،ـ وـ أـنـتـ أـنـتـ تـبـكـيـ .ـ وـ الـآنـ أـخـبـرـنـيـ ،ـ هـلـ تـبـكـيـ بـهـذـاـ الشـكـلـ عـلـىـ الـبـزـرـةـ الـتـيـ طـمـرـتـهـ تـحـتـ الـتـرـابـ ؟ـ وـ تـخـيـلـ رـجـلـاـ لـيـعـلـمـ شـيـئـاـ مـاـ سـيـحـدـدـتـ لـتـلـكـ الـبـزـرـةـ بـعـدـ طـمـرـهـ فـيـ الـأـرـضـ ،ـ وـ رـواـحـ بـنـوحـ وـ بـنـدبـ خـسـارـهـ لـهـذـهـ الـبـزـرـةـ ،ـ وـ يـحـزـنـ كـلـمـاـ تـفـكـرـ فـيـ تـلـكـ الـحـبـةـ الـتـيـ دـفـنـهـ ،ـ وـ يـنـظـرـ بـعـيـنـيـنـ مـغـرـورـقـيـنـ بـالـدـمـوعـ إـلـىـ تـلـكـ الـأـثـلـامـ الـتـيـ تـغـطـيـهـاـ ،ـ أـلـاـ تـشـفـقـ عـلـىـ جـهـلـهـ ،ـ أـنـتـ الـذـيـ لـدـيـكـ حـسـنـ اـطـلـاعـ أـكـثـرـ مـنـهـ ؟ـ !ـ مـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـكـ سـتـقـولـ لـهـ :ـ "ـ لـاـ تـقـلـقـ .ـ فـالـذـيـ دـفـتـهـ لـمـ يـعـدـ فـيـ الـمـخـرـنـ وـ لـاـ فـيـ يـدـكـ بـعـدـ الـآنـ ،ـ وـ لـكـنـ أـصـبـرـ حـتـىـ تـرـبـضـعـ إـيـامـ ،ـ وـ سـوـفـ تـرـىـ هـذـاـ الـحـقـلـ الـقـاـحـلـ مـنـطـقـيـ بـالـمـصـادـ الـوـافـرـ الـغـزـيرـ ،ـ وـ سـتـمـنـلـيـءـ مـنـ جـرـاءـ ذـلـكـ فـرـحـاـ وـ سـعـادـةـ .ـ »ـ وـ بـالـطـرـيـقـ نـفـسـهـاـ ،ـ فـنـحنـ الـذـينـ نـعـلـمـ مـاـ الـذـيـ سـيـحـدـدـ (ـ بـعـدـ الـمـوـتـ)ـ نـفـرـحـ وـ نـتـهـلـلـ بـهـذـاـ الرـجـاءـ الـعـظـيمـ الـذـيـ هـوـ مـنـ نـصـيـبـنـاـ .ـ 7ـ

كان أغسطينوس واحداً من أكثر الكتاب إثماراً وخصوصية على مرّ التاريخ ، و في أيامه لغة . وقد انتفع خلال حياته 93 عملاً أدبياً و 232 كتاباً ، هذا عدا موعظته و رسائله التي لا نزال نحتفظ حتى اليوم بالثبات منها ؛ ولم يفقد سوى عشرة من إنتاجه الرئيسي . وتشكل هذه الكتابات موسوعة ضخمة من المعارف ، و الشمرة الناضجة للفكر العميق والواسع بشأن أهم المسائل والمناظرات العظيمة في عصره . كانت اهتماماته تمتد إلى جميع نواحي الحياة البشرية ، وهو دائمًا يرسم إيضاحاته من العالم الذي يحيط به ، من نمط الحياة في الأرياف والقرى في إفريقيا الشمالية ، و من ضوضاء الحركة في المدينة . و كما كان فصيحًا في أحاديث الشفوية ، كان أيضًا خبيرًا في النمط الأدبي المقصول . وعلى الرغم من عمق معاناتها ، تحتفظ مؤلفاته المكتوبة بدفء القدرة على الإقناع نفسها التي تميزت بها كلماته التي نطق بها أسيوحاً تلو الآخر إلى الكنيسة في هيبو . إن الأساليب البلاغية للمحاجج ، تجد طريقها إلى نتاجه المكتوب كما في موعظته . إنه يجذب قراءه معه ، يقول : « على كل واحد يقرأ هذه الصفحات أن يتابع القراءة معي إن كان متيقناً من هذه الأمور مثلـي ؛ وليبحث معى عندما يكون متربـداً مثلـي . . . و هكذا لندخل سوية عبر نـر المحاجـة ، في سعينا في إثر (الله) ». ⁸

لم توجد مسيحية أغسطينوس لتجـبـاً في صحراء ، أو لتجـبـاً في دير وإنما وجدت لكي تتحمل إلى جميع أرجاء العمورة . لقد عزم على أن يذيع الأخبار السارة وينقلها إلى الناس أجمعين . اعتبر أغسطينوس أن على المسيحي أن يحب الله من كل قلبه و يحب قربه كنفسه ، وهذا يعني أنه لن يجلس غير مبال في وسط عالم محتاج . « إن الوصية بشأن محبة القريب ، تلزمـه بفعل كل ما في وسعـه لجعلـ هذا القريب بـحب الله » . ⁹ و عليه « أن يعيش بين الناس لما هو خـيرـهم وصـالـحـهم » . ¹⁰ كان أغسطينوس نفسه أفضل وأحسن مثال عن هذه المحبـة ، من خلال محادـثـاته الشخصية مع الناس ، و موعـظـاته في الكـنيـسـة ، و رسـائـله و كـتبـه التي كانت تـنـقـلـ إلى أبعد الأـصـقاعـ .

لم تكون كتابات أغسطينوس مصممة بشكل ترتيبـي أو نظامـي . كان بساطـة يلتقط قلمـه في أي وقت يـتـواجهـ مع كتاب يـحتـويـ على ضـلالـاتـ ، أو يـسمـعـ فكرةـ من الأفـكارـ يـرىـ أنها مـغلـوـطةـ . لـذا نـجـدـ أنـ أـعـمالـهـ كـانـتـ أحـيـاناـ فيـ ظـاهـرـهاـ « ضـدـ » شـخـصـ معـيـنـ أوـ فـكـرـةـ ماـ . وـ منـ ثـمـ نـجـدـهـ يـوضـعـ وجـهـةـ نـظـرـهـ ، وـ ذـلـكـ فيـ مـعـرـضـ تـحـطـيمـهـ حـجـةـ خـصـمهـ . وـ هـكـذاـ تـمـكـنـ ، خـلالـ حـيـاتـهـ ، منـ الكـنـيـسـةـ عنـ كـلـ المـاقـشـاتـ وـ الأـفـكارـ الرـئـيسـةـ الـمـطـرـوـحةـ فيـ عـصـرـهـ ؛ إـلاـ أنـ الطـرـيقـةـ التيـ جـمـعـتـ بـهاـ هـذـهـ المـادـةـ الـلاـهـوـتـيـةـ ، كـانـ منـ الصـعـبـ مـعـهاـ رـؤـيـةـ إـطـارـ مـتـسـقـ لهاـ اوـ تـلـخـيـصـ أـفـكارـهاـ الـعـامـةـ . لـقدـ دـامـ صـرـاعـهـ معـ الدـونـاتـيـينـ عـشـرـينـ سـنةـ ، وـ قدـ طـوـرـ خـلالـ هـذـهـ المـدةـ نـظـامـاـ عـقـائـديـاـ شـامـلاـ بـخـصـوصـ طـبـيـعةـ الـكـنـيـسـةـ . وـ فيـ مـعـرـضـ إـجـابـهـ عنـ التـسـاؤـلـاتـ التيـ أـثـيـرـتـ حـولـ سـقوـطـ رـومـاـ ، عـالـجـ فيـ عـمقـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـكـنـيـسـةـ وـ الـدـوـلـةـ ، وـ ذـلـكـ فيـ كـتـابـهـ « مـدـيـنـةـ اللهـ » ، كـماـ انـ رـدـهـ عـلـىـ پـلاـجيـوسـ (Pélage) ، نـتـجـ مـنـهـ نـظـرـيـةـ لـاهـوـتـيـةـ مـتـكـاملـةـ مـنـ الـخـلاـصـ عـرـفـتـ بـالـأـغـسـطـينـيـةـ » .

لم يكن أغسططينوس ملماً في تفسير مضمون الإنجيل و انعكاساته و في تقويم اعوجاج أولئك الذين أخطأوا في تفسيره و حسب ، بل كان أيضاً كفواً في الإجابة عن بعض الاعتراضات التي أثارها بعض معتنقى الأديان الأخرى و الفلسفات التي كانت شائعة آنذاك . فبعد اهتمامه بوقت قصير ، كتب عدة مقالات يفتقد فيها التعاليم الماثنة التي طالما أريكته و حيرته في شبابه . كما انه شخص صفحات كثيرة ، بما في ذلك نصف كتابه « مدينة الله » تقريباً ، لكشف مواطن الضعف في الوثنية و في عبادة الأصنام . كذلك بذل كل ما في وسعه لريح اليهود . ففي بداية عهد الكنيسة ، كانت هناك اتصالات متكررة بين الكنيسة و المجتمع اليهودي ، حيث كان المسيحيون الأولون ينشدون فهم المعنى الحقيقي للعهد القديم . ولكن بمرور الوقت ، افترق اليهود والمسيحيون . كذلك قل ، بشكل عام ، تعاطف اليهود مع ما قد أصبح الى حد كبير كنيسة من أهل الأسم . لقد راحوا يশرون بالاشمئزاز ، و يتظرون بعين الارتياب الى أولئك الذين كان يبدو لهم أنهم أخذوا توراة اليهود واستخدموه لأغراضهم الشخصية . وقبل عصر أغسططينوس ، كان اليهود قد بدأوا يرفضون الإقرار بالترجمة السبعينية للعهد القديم ، تلك التي كانت متداولة في الأوساط المسيحية ، مصررين بالحري على الرجوع الى النص الأصلي كما ورد باللغة العبرانية . في ذلك الوقت كان يهود إفريقيا الشمالية ، أقلية مضطهدة ، يتقلّص عددها رويداً رويداً . كان أغسططينوس يرغب في ان ينقل اليهود أن الميسا الذي يتظارونه قد أتى فعلًا حتى انه يتظار أيضاً لاستقبالهم .

كان أغسططينوس ملماً تمام الإلام بالنظريات العلمية و الاكتشافات في عصره ، و كان ينظر اليها بجدية تامة ، وبالخصوص في حقول الرياضيات و علم الفلك و الطب . كان في بعض الأحيان يتبع خطى أمبروزيوس إذ يلجم الى عرض تفاصير مجازية لبعض النصوص الكتابية التي تظهر وكأنها تعارض مع البيانات و الدلائل العلمية . و في أحوال عديدة كان يتحقق في إصدار حكمه ، ناصحاً للمسيحيين أيضاً بآلا يتسرعوا في قبول أو رفض هذا الرأي أو ذاك خصوصاً في تلك الحقول و الميادين التي لا يعلمنون عنها إلا الشيء القليل . لقد انزعج من بعض المسيحيين الذين رفضوا العلم ككل . و ذكر هؤلاء بالقول : «قد يحدث أحياناً كبيرة أن يكون لإنسان غير مسيحي رأي في ما يتعلق بالأرض أو السماء أو أي عنصر آخر من عناصر العالم ، كحركة الاجرام السماوية وكيفية دورانها ، أو حتى أيضاً حجم هذه النجوم و المسافة التي تفصل بينها ... وكذلك عن طبيعة الحيوانات و النباتات و التجارة و غيرها من الأشياء ، التي هي وليدة خبرة او تحليل منطقي لا يقبل الجدل . و إنه لأمر مخجل و مضر لنا ، وبالتالي مؤسف للغاية ، أن يسمع أحدهم أي مسيحي يتحدث بكلام فارغ و تافه بشأن هذه الأمور مدعياً أنه يستند في حكمه هذه على كتابات المسيحيين ». ¹¹ و من جهة أخرى ، إن أي تأمل أو فكرة أو تخمين علمي لم يثبت أو يُبرهن بعد ، لا يجوز قبوله و تفضيله على آقوال الكتاب المقدس الصريحة . كان أغسططينوس يؤمن بأن الكتاب المقدس هو صحيح في كل تفاصيله . « فمهما

كان الأمر الذي استطاع العلماء أن يثبتوه بالبراهين الصادقة عن طبيعة الأشياء ، يامكانتنا أن نظير بأن ذلك لا يتناقض مع الكتاب المقدس . ولكن مهما افترضوا في أي من كتبهم العلمية من النظريات التي تخالف كتابنا المقدس . . . فعلينا إما أن نعرض حلاً لذلك ، وإما أن نرفض من دون تردد ، ونعتبرها فرضيات كاذبة وغير صحيحة .¹² إلا أن الكتاب المقدس لا يهدف إلى تزويدنا بالمعلومات بشأن ما يسهل علينا اكتشافه بأنفسنا . بل على تقدير ذلك تماماً ، لأنه يعلن لنا أموراً لا يمكننا أبداً أن نكتشفها بأنفسنا . « هذه هي الكتابات التي لها أعلى سلطة و التي نضع ثقتنا المطلقة بها في ما يتعلق بالأشياء التي يجب أن نعرفها من أجل صالحنا الخاص ، إلا أنها عاجزون عن اكتشافها بأنفسنا ».¹³

لقد دان بصراحة بعض الفلاسفة ، الذين أدعوا أنه لا يمكننا أن نعرف شيئاً ، وأن كل الأشياء هي خامضة و مشكوك فيها بطيئتها ، وأنه كتب للإنسان أن يستمر يتخطى في دوامة من الشكوك . لكنه يعذّرنا بالمقابل من الانقيض إلى الآخر ، إذ ثق بالكلية بقدرنا على الإدراك و المعرفة . ثم قال إنه علينا ألا نفاجأ ، إذا ما تواجهنا مع أسرار لا تستطيع سير أغوارها أو تفسيرها ؛ فهناك بعض الأشياء غير الواضحة ، حتى في مجال الالاهوت . فقد نجد في الكتاب المقدس أقوالاً تربكنا و تحيرنا و تتشيء في عقولنا الشكوك ، و علينا ألا نستغرب حصول مثل هذا الأمر إذ إنه لا يشير إلى أي عيب في الكتاب المقدس ، لكنه يبيّن محدودية العقل البشري و يؤكدنا . ولا يمكننا أن نأمل في إدراك إلغاز هذا الكون جميعها ، و لا أن نفهم جوهر الله في العمق . فحتى الرسول بولس قال إن معرفته ستبقى ناقصة إلى أن يصل إلى السماء : « فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن جيذاً و جهلاً لوجه . الآن أعرف بعض المعرفة لكن جيذاً سأعرف كما عرفت ».¹⁴

فيما البت بعض الأمور علينا بسبب غموضها ، فهناك بالمقابل أشياء أخرى بدائية . إنها حقائق أثبتتها تجارب مشاعرنا و منطق أفكارنا ، فضلاً عن وحي كلمة الله الصادقة . قال أغسطينوس : « إن إيماننا يرتكز على ما قد تم إعلانه بكل وضوح ، وإذا بينما أفسينا على هذه الأسس الإيمانية الصلبة ، فليس من العدل أن نلام بسبب الشكوك التي قد تراودنا بشأن أمور أقل أهمية ، أي المسائل التي تعجز المشاعر أو قوى المنطق عن تسلیط كثير من الأضواء عليها ، كما أنه لا يوجد أي تلميح عنها في الكتب المقدسة القانونية ، و لا أعطينا آية معلومات بصددها بواسطة شهود يكون عدم الوثوق بهم أمراً لا منطقياً ».¹⁵ و تابع أغسطينوس كلامه بالقول إن المسيحي يؤمن بما هو واضح بين ، لكنه يتظر المزيد من النور الإضافي بالنسبة إلى ما هو فيه و غير واضح . انه واثق بشأن الأشياء التي برهنت على أنها حق ، لكنه حرّ في التأمل في الأشياء التي لم تثبت او تبرهن بعد ، لكي يتكون عنده رأي بخصوصها . معرفتنا قد تكون محدودة إلا أنها صحيحة و حقيقة ، و يمكن للمسيحي ان يطمئن لها و يتعرّى بها .

غالباً ما يشدد أغسططينوس على حقيقة أنه لا يمكن للإنسان أن يسر أغوار كلمة الله ، أو يأمل في معرفة كل ما تحتوي عليه . علينا أن نتفحص الكتاب المقدس بتواضع واحترام ، متيهلين إلى الله تعالى بصدق وجدية ليثير عقولنا لأجل فهمها . و من دون هذه الإنارة الإلهية سيبقى لا نعلم إلا الشيء القليل : " فإذا قال إنسان لي : « احتاج إلى أن أفهم حتى أتمكن من أن أؤمن » ، فسأجيبه بالقول : « الأصح هو أن تؤمن حتى تتمكن من أن تفهم ». " ¹⁶ فالمعرفـة هي المكافأة على الإيمـان ، كما أن الشفـة تكافـأ بزـيد من الـبـقـين . فالإنسـان الـذـي يصرـ على أن يفهم كل شيء قبل أن يؤمن ، قد حـكم على نفسه أن يبقى يـتـظـرـ إلى الأـبـدـ وـ هوـ يـتـخـطـ فيـ حـالـ منـ الشـكـ العـقـيمـ وـ غـيرـ المـشـمـرـ . فـنـحنـ لـاـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـرـىـ مـحـوـيـاتـ الـغـرـفـةـ وـ نـقـيـسـهـاـ مـاـ لـمـ نـدـخـلـ إـلـيـهاـ أـوـلـاـ . " وـ لـكـنـ فـوـقـ هـذـاـ كـلـهـ (ـ قـالـ اـغـسـطـطـينـوسـ)ـ تـذـكـرـ هـذـاـ الـأـمـرـ :ـ لـاـ تـقـلـقـ مـنـ جـرـاءـ النـصـوصـ الـكـتـابـيـةـ الـتـيـ يـعـسـرـ عـلـيـكـ الـآنـ فـهـمـهـاـ ،ـ وـ لـاـ تـسـفـخـ بـماـ قـدـ أـدـرـكـتـهـ مـنـهـاـ ؛ـ لـكـنـ اـنـتـظـرـ بـتـوـاضـعـ لـتـعـرـفـ مـاـ لـمـ تـعـرـفـ بـعـدـ ،ـ كـذـلـكـ تـسـكـ بـمـجـبةـ بـماـ قـدـ فـهـمـهـ . " ¹⁷

كان يعتبر الكتاب المقدس أوثق مصدر للحق ، لأنه معصوم من الخطأ . كما كان يرجع إليه دائمًا لجسم كل أمر يستعصي عليه ، وهو يشير باستمرار « إلى شهادات الكتاب المقدس الموحي بها » و إلى « الكتابات المقدسة ». ¹⁸ و عند اقتباسه آية آية ، كان يُصدر ذلك بهذه الكلمات : « يقول الكتاب المقدس (و الكتاب المقدس لا يكذب أبداً) ، او « دعوني استدل على هذا من الكتاب المقدس ». ¹⁹ كان يحاول أن يجمع بشكل متزن بين قبول الكتاب المقدس كإعلان حرفـيـ لـلـوقـاعـ الـلـادـيـ ،ـ وـ تـفـسـيرـهـ بـلـغـةـ مـجـازـيـةـ لـلـخـرـوجـ بـمـعـانـ رـوـحـيـ بـاطـيـةـ .ـ وـ كـانـ الـأـمـرـ يـعـتمـدـ كـثـيرـاـ عـلـىـ مـاـ إـذـاـ كـانـ النـصـ الـمـعـيـنـ مـوـضـعـ الـبـحـثـ اـرـادـ بـهـ مـؤـفـهـ أـنـ يـكـونـ كـتـسـبـيـحـ شـعـريـ اوـ سـرـدـ مـعـتـدـلـ رـزـيـنـ لـحـدـثـ مـعـيـنـ .ـ كـانـ هـنـاكـ مـعـانـ أـعـقـمـ يـجـبـ إـيجـادـهـ فـيـ أـبـسـطـ الـحـوـادـثـ ،ـ وـ هـذـاـ بـالـطـبعـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـ هـذـهـ الـأـحـدـاثـ لـمـ تـقـعـ فـعـلـاـ .ـ كـتـبـ يـقـولـ :ـ «ـ وـ الـآنـ فـنـيـ رـأـيـ ،ـ أـنـهـ مـنـ الـخـطـإـ الـأـنـ اـفـرـاضـ أـنـ نـصـ الـأـحـدـاثـ فـيـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ ،ـ لـاـ يـتـعـدـيـ مـفـزـاهـ الـجـانـبـ الـتـارـيـخـيـ الـصـرـفـ .ـ كـذـلـكـ لـاـ يـجـوزـ بـالـمـقـابـلـ اـعـتـيـارـ أـنـ كـلـ تـصـرـيـحـ فـيـ هـذـهـ الـأـسـفـارـ ،ـ مـهـمـاـ بـداـ بـسيـطـاـ ،ـ هوـ مـرـكـبـ مـعـانـيـ مـجـازـيـةـ كـثـيرـةـ .ـ » ²⁰ وـ لـاـ يـجـوزـ إـدـخـالـ آيـةـ عـقـيدةـ أـوـ بـرـهـتـهاـ اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ نـصـ مـجـازـيـ ،ـ مـعـ أـنـ هـذـهـ الـنـصـوـصـ قـدـ تـبـرـرـ اـسـتـخـدـمـهـاـ لـتـوضـيـحـ بـعـضـ الـتـعـالـيمـ الـمـصـوـرـةـ بـوـضـوحـ فـيـ أـمـاـكـنـ أـخـرـىـ مـنـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ .ـ وـ هـوـ يـصـرـحـ أـنـ يـأـمـكـانـاـ أـنـ تـنـأـكـ مـنـ أـنـتـاـ عـلـىـ خـطـاـ .ـ كـلـمـاـ حـاـولـنـاـ أـنـ نـلـصـقـ بـمـقـطـعـ مـعـيـنـ مـنـ كـلـمـةـ اللـهـ مـعـنـيـ مـخـالـفـاـ لـلـمـفـهـومـ الـعـامـ لـشـهـادـةـ كـلـمـةـ اللـهـ .ـ وـ هـكـذـاـ رـسـخـ الـمـبـدـأـ الـعـامـ بـأـنـ لـاـ يـكـنـ لـأـيـ تـفـسـيرـ أـنـ يـصـرـحـ مـاـ لـمـ يـعـزـزـ فـيـنـاـ مـجـبةـ اللـهـ وـ مـحـبةـ الـقـرـيبـ .ـ هـذـاـ الـاسـلـوبـ لـتـفـسـيرـ كـلـمـةـ اللـهـ هوـ سـلـيـمـ وـ مـوـزـونـ لـلـغـاـيـةـ ،ـ وـ نـعـمـ حـسـنـاـ إـنـ اـنـتـهـنـاـ إـلـيـهـ فـيـ أـيـامـنـاـ .ـ وـ لـكـنـ ،ـ مـنـ الـمـؤـسـفـ أـنـ أغـسـطـطـينـوسـ ،ـ كـمـاـ سـرـىـ لـاـحـقـاـ ،ـ لـمـ يـتـبعـ دـائـمـاـ مـبـادـيـهـ التـفـسـيرـ هـذـهـ الـتـيـ دـافـعـ عـنـهـ .ـ » ²¹

كان أغسططينوس حذرًا بالنسبة إلى الترجمات الجديدة للكتاب المقدس ، مثل **اللغة اللاتинية** التي انجزها جبروم ، والتي قال فيها أغسططينوس إنها تركت الناس الذين اعتادوا على الصيغة القديمة

للكتاب المقدس . كان أسطينوس يعتمد بشكل رئيس على الترجمات اللاتينية السابقة ، و على الترجمة السبعينية باللغة اليونانية . لقد كانت هذه الترجمات تحتوي على بعض الأخطاء التي ساهمت ، مع الأسف ، في التشوش الفكري الذي نراه أحياناً في كتاباته . ولم يتأثر وحده بذلك ، إذ ضل آخرون من بعض علماء اللاهوت الأولين بسبب القصور الظاهر في الترجمات التي استعملوها .

كتب عدداً من الشروحات والتفسيرات عن أجزاء مختلفة من الكتاب المقدس ، مشدداً بصورة خاصة على مراجع العهد القديم التي تشير إلى مجيء المسيح . إنه يبرز النبوءات التي تتكلم بوضوح عن مجيء المخلص ، كما أنه يجد الكثير من المراجع الرمزية المحتجبة بين طيات العبارات عن المسيح ، والتي يظهر عند قراءتها لأول وهلة ، أنها تعالج مواضيع أخرى . إنه يسرّ بإظهار كيف أن المعجزات المدونة في الكتاب المقدس تخطي و تفوق كثيراً تلك الأعمال السحرية التي كان سحرة الوثنين المشعوذين يستدقون بها . كذلك يستقي من الكتاب المقدس أجوبة عن أعظم التساؤلات حول خلق العالم ، وأصل الشر ، والدينونة الأخيرة ، والصيرين الأبديين - السماء والجحيم . وإذا ينتفع ما يحتوي عليه الكتاب المقدس من حكمة القديرين و معرفة المسألة و عنایته ، يؤخذ و يندهش بنعمة الله المعلقة لمخلوقاته التي ثارت عليه . كان أسطينوس مفكراً عظيماً ، ويستطيعه أن يكون من أعظم الفلسفه ، لكنه لم ينسَ البتة أن فكر الإنسان يجب أن يأتي دائمًا في المرتبة الثانية بعد فكر الله . وبالنسبة إليه ، كان الكتاب المقدس الموحى به من الله هو دائمًا السلطة المطلقة و النهاية .

ازداد نفوذ أسطينوس باطراد طوال فترة حياته . ففي الوقت الذي عين ناظراً في هيبو ، كانت المسألة الدوناتية تمزق كنائس إفريقيا ، بينما كانت كنائس أوروبا و آسيا منشغلة بمجموعة كبيرة من البدع المضللة . و هكذا كانت المسيحية في كل أنحاء العالم توشك أن تشردم وتتشتت في خضم نجاحها الشعبي . إنه بانتصاره على الدوناتيين ، تمكّن من توحيد الكنائس في إفريقيا . كما أنه في دحضه لمزاعم بلاجيوس و لعلميين هرطوقين آخرين ، استطاع أن يرسّخ الإيمان المسيحي على اسس كنائية صلبة و قوية . و هكذا تمكّن ، وحده تقريباً ، من لملمة الكنيسة الكاثوليكية التي كانت على شفير التفسخ و الانهيار . كتب إليه جيرروم رسالة يمدحه فيها ، وقد عاد كثيرون بعده ليردّدوا صدّاها : «يجلّك الكاثوليك و يوّلونك بصفتك المؤسس الثاني لإيمانهم القديم .»

و مع ذلك ، فلم يقدر حياة أسطينوس أن تنتهي على وطيرة الانتصار . فقد ترك هذه الدنيا في ظروف بدأ عليها و كأنها قد حطمت كل عمل حياته و فشلت آماله جميعها . فالإمبراطورية الرومانية التي كان يكنّ لها أسطينوس أصدق مشاعر الاحترام و التقدير ، و يعتقد عليها آمالاً جساماً - تلك الإمبراطورية التي حملت مشعل الحضارة ، و منحت الأمان و الاطمئنان و حرية

الأديان لكل العالم تقريباً - وجدت نفسها فجأة على شفير الانهيار والسقوط . لقد حوصلت مدينة روما ، و اقتحمها القوطيون (Goths) و نهبوا ممتلكاتها في العام 410 م . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل تزاحت هذه الامبراطورية و هي تداعى على مدى ست و سنتين سنة أخرى .²² وفي العام 428 م ، اكتسحت إفريقيا الشمالية جماعة الونداليين (Vandales) ، الذين كانوا في قربة مع القوطيين جالين معهم شكلاً شاداً و منحرفاً من المسيحية ، الأريوسيَّة (Arianisme) التي تنكر لآلوهية المسيح . لقد حطموا كل ما يتعرض سبيلهم ، كما انهم استولوا على الممتلكات و الأبنية الخاصة بيسوعي شمال إفريقيا بعد أن طردوا قادتهم . و فيما كانت الجيوش الوندالية تجتمع نحو هيبو ، ألحَ بعض الصحابة على أغسطينوس بضرورة الهرب . لكنه رفض أن يترك الرعية التي أوْقَنَ عليها ، و هكذا استمر يعظ و يعلم حتى آخر اللحظات . إن ساعة الخطر المحدق الرهيب ، قال أغسطينوس ، هي الساعة التي فيها يسرع كثيرون لطلب الخلاص ، لهذا شعر بأنه عليه أن يبقى لمساعدتهم على إيجاد هذا الخلاص . لقد صلَى إلى الله طالباً منه إما أن يُنقذ المدينة من خطر الغرزة المعذبين ، وإما أن يأخذه إليه تعالى قبل أن تسقط هذه المدينة الحبيبة .

و بينما كانت قوات الونداليين المعادية تضرب المدينة بقوَّة و تدكُّ ببوابات المدينة ، أوَى اللاهوتي العظيم إلى فراشه ، مكرساً ما تبقى له من أيام حياته للصلوة . لم يكتب آية وصية ، حيث أنه كان منذ فترة طويلة قد تخلى عن كل ممتلكاته لمجد الله . و هكذا مات أغسطينوس في الثامن والعشرين من شهر غشت (août) عام 430 م عن عمر بناهز الخامسة والسبعين ، بعد أن تشدَّد بوجود بعض الصحابة معه وبصلاتهم لأجله . لقد استجاب الله صلاته إذ جَبَّه أن يرى الدمار الأخير لمدينته الأرضية . نُقل جثمانه إلى إيطاليا ، فيما حُملت كتبه إلى جميع أنحاء العالم . ولكن أغسطينوس نفسه ، دخل أخيراً الراحة الحسنى ، منتظراً رجوع مخلصه ، و متأنِّياً للقيمة العظيمة ، و مستعداً للإستيقاظ ساعة ينفح البوق فجر ذلك اليوم الجديد الحالد ، فيدخل بعدها الأبواب الذهنية ، مدينة الله المجيدة .

ملاحظات

De Civitate Dei 9:5 -1

(Bonner p. 113) *Epître* 21 -2

(pp. 177) Clark -3

(pp. 177) Clark -4

-5 (Hamman p. 203) . يخبرنا أغسطينوس كيف انه لم يتمكن من

العنور على آية نسخة من كتابات شيشرون في اسوق هيبو كلها .

6 - يعقوب 1:3 - 6 : متى 12:36 و 37

- اقتبسها (p. 181) Clark

De Trinitate I, 3:5 - 8

De Civitate Dei 10:4 - 9

Epître 95:2 - 10

De Genesi ad Literam I, 19:39 - 11

De Genesi ad Literam I, 21:41 - 12

De Civitate Dei 11:3 - 13

12:13 كورنثوس 1 - 14

De Civitate Dei 19:8 - 15

- اقتبسها (p. 168) Clark

Sermon 51:35 - 17

De Civitate Dei 11:9 - 18

De Civitate Dei 11:6; 14:7 - 19

De Civitate Dei 17:4 - 20

21- تأثر منهج أغسطينوس تأثيراً بالغاً بأوريجانوس . وبما أن معرفة أغسطينوس ضعيفة باليونانية ، فقد قرأت كتابات هذا اللاهوتي الأسكندراني الشهير في ترجمته اللاتинية .

والحق يُقال إن كثيراً من وحيه يدو شاداً للباحث الكتابي المعاصر ، ولا سيما في عرضه المسهب للمزامير حيث نجد تأويلات خالية كثيرة : فكل مساحبة ترمز إلى النبي ، وكل جبل يشير إلى رسول . وكل حية تشير إلى الرذيلة ، والقمر يمثل الكنيسة . الأشجار هي الشعوب ، والزيت هو نعمة الله . الميوانات المفترسة هي الأمم ، والطيور هي المؤمنون . وقد كان معاصره يوحنا نسخ الذهب (345 - 407 م) مفسراً أيامه أكثر ، إذ ركز اهتمامه على المعنى التاريخي الطبيعي للنص المقدس ، مستخراجاً منه الدروس العملية التي تصدّها الكتاب الأصليون .

22- في العام 476 م عصَمَ أخيراً الانتحال والتفسير الجزء الغربي من الإمبراطورية (الناطق باللاتينية) ، فيما الجزء الشرقي (الناطق باليونانية) عانى هزّات عديدة لكنه صمد و ظل يُحكم من القسطنطينية حتى العام 1453 م .

الفصل الرابع والعشرون

مدينة الله

نشأ أغسطسبيوس في امبراطورية كانت في طريقها إلى الانهيار . إن تقوّض عمرانها البديع يرمز إلى نفخة وانحلال عامين . فالنساد ، والسعى وراء المتعة بشكل أثاني ، حلاً مكان الانضباط ، العمل الدؤوب ، وذلك في أقسام المجتمع الروماني كلّه . لقد باد جيل الجنود والمهندسين المقدامين أصحاب المبادرات والمخططات الجريئة ، وأخذ محالهم مجموعة من القوم الذين بات كل همّهم أن يحافظوا على ما بقي لثلا يخسروه . وفي الوقت نفسه راحت الحدود الشمالية للإمبراطورية تقع أكثر فأكثر تحت تهديد القبائل الواقعة ما بعد نهر الدانوب . إن هؤلاء الجيران المشاغبين قد تمّ صدهم بواسطة رماح وسيوف المرتزقة الجرمانيين ، من قوطيين (Goths) وونداليين (Vandals) كانوا يعملون في خدمة الإمبراطورية . لقد وجد هؤلاء أنفسهم يزدادون بأساً وقوة ، قياساً للضعف المتزايد الذي كان يعانيه أسيادهم الرومان .

لم يكن نهب روما على أيدي القائد الارك (Alaric) والقوطيين في العام 410م بالأمر غير المتوقع تماماً . فقد حاصرت أفواج هذه الجماعة الجرمانية مدينة روما مرتين من قبل ، ولم يُفكّ هذان الحصاران إلاّ بعد دفع قدية هائلة . لم تدم عملية نهب روما أكثر من ثلاثة أيام . ولم يحدث من جراء ذلك من الخراب والدمار في المدينة إلاّ في حدود جاءت أقلّ بكثير مما كان متوقعاً . لكن سقوط روما هذا ، كان يرمز إلى نهاية عصر . لقد شكلّ ضربة صاعفة للإمبراطورية بكلّ ملأها ، وللحضارة العظيمة التي مثلّتها هذه العاصمة القديمة . وحتى بعد مرور ستين على دمار روما ، كان جيرُوم (Jérôme) لا يزال متاثراً كثيراً بهذا الحدث ، بحيث لم يستطع أن يستجمع شتان أفكاره بشكل كافٍ يمكّنه من إملاء شروده وتعليقاته على نبوة حرقايل . كان من الصعب أن يصدق الإنسان ، أنَّ مدينة مثل روما ، حكمت العالم على مدى نحو الألف سنة ، قد تصدّعت ثمْ نُهِبت وتركت تحت رحمة البربرة المتوجهين الذين راحوا يجوبون شوارعها راكضين . وحتى ذلك الوقت مهما لاح في الأفق من تهديدات ومخاطر ، كانت الإمبراطورية الأبدية والتي لا تُنْهَى ، تحافظ على نفوذها ، ما دامت المدينة لم تُنتهك حرمتها بعد . ومهما كانت الأخطار التي تهزّها وتقلّلها ، يبقى احتمال ظهور بطل ما ينقذها بشكل معجزي ، وينفذ بنبوغ الحضارة من أن تُعثَّر به أيدٌ غاشمة ، ولكن الآن تبخرت هذه الآمال . ومع أن الحكومة أعادت تأسيس موقع جديد لها في القسطنطينية ، بقيت روما في قلوب الناس وعقلائهم باعتبارها العاصمة الرمزية للإمبراطورية . كان الكثير من

التاريخ يتعلّق بهذه المدينة الأسطورية القديمة ، كما ان الكثير من الغنى واليسر كان لا يزال متوفراً بين العائلات الأرستقراطية العربية التي تجتمع أبنيتها وقصورها المترفة في ضواحي المدينة . هرب الكثيرون من أولئك البلاء الى إفريقيا ، حاملين معهم الحكايات عن القوطين وعن تعاملهم بوحشية شبيهة مع الشعب الروماني النبيل الذي لم يقاوم ، ما أدى إلى إذلاله .

رأى كلّ من الوثنيين والمسيحيين الحكم السماوي وراء انقلاب روما ، المدينة اللامعة الشهيرة . ولكن الناس اختلفوا جداً في شرحهم لما عملته روما او لم تعمله حتى استحقت هذا المصير . لقد عزا الوثنيون هذه الكارثة الى ابعاد المدينة عن الإيمان بالآلهتها الوثنية القديمة والتي كان كلّ من الامبراطورين عُركاتيان (Gratien) وثيودوسيوس (Théodosius) قد خظرا على الشعب عبادتها منذ نحو ثلاثة سنّة . واعتبر هؤلاء الوثنيون أنَّ تلك الآلهة التي جعلت من روما مدينة عظيمة ، تحملت عنها الآن لأنها تتذكر لها ولعبادتها . وقد أشاروا في هذا المجال الى عشرين مرسوماً مجحفاً بحق العبادة الوثنية كانت السلطة قد أصدرتها خلال العشرين السنّة الأخيرة من القرن الرابع للميلاد . لذا ، برأيهم ، استحقت المدينة أن تسقط عليها هذه اللعنة بسبب ترحيبها بديانة دخيلة بالإضافة إلى أنه تم تحويل بعض المعابد الوثنية الشهيرة كالپانثيون (Panthéon) ، المعبد المكرّس لجميع الآلهة ، الى موقع وأمكنة يؤمّها المسيحيون ليجتمعوا فيها . لكن شكوى الوثنيين هذه لم تكن الأولى في نوعها ، هذا لأنَّه كانت قد صدرت صيحات مائة ضدَّ المسيحيين من القرن الثاني وما بعده ، فقصدَّ لها ترقويانوس وفتنه ، وكذلك فعل كلُّ من كبريانوس وأربنيوس . ولكن الانفعال الذي لم يسبق له مثيل ، والذي كان يحيط بالكارثة الراهنة أدى الى الضغط على هذه المسألة ، كما أنه أصفي عليها زخماً جديداً .

ومن جهة أخرى ، كان بعض المسيحيين قد أذدوا بحصول هذه الكارثة ، وذلك منذ زمن بعيد . لقد رأوا في عملية إذلال روما هذه تحقيقاً للنبوات التي تحدّث عنها المسيح نفسه في سفر الرؤيا . ففي هذا السفر الراهن بالتصورات المجازية ، لا يوجد رمز أكثر وضوحاً لسيحيي تلك الأيام من ذلك الذي يشير الى روما باستعمال رمز بابل القديمة : «المدينة العظيمة التي لها مُلك على ملوك الأرض» . وحتى التلال السبع التي بُنيت عليها روما هي مذكورة أيضاً في النبوة ^١ . كانت كل من بابل وروما تتمتعان بالقوة المطلقة نفسها ، كما أن الفساد ضربهما كلتيهما ، وحيث أن الأولى دُمرت ، فلا بدَّ إذاً من أن يكون المصير عينه من نصيب الثانية أيضاً . نظر المسيحيون الى الأيام الماضية ، ورأوا ، على مدى التاريخ ، يد الله القادر على كل شيء ، وديان كل الأرض ، وهي تنتدَّ لتخضع الأئمة والكافر . ولا بدَّ لحكم الله المحروم من أن يسقط على هذه الامبراطورية الفاسدة ، المنحرفة والمتغمسة في الملذات والشهوات ، كما كان قد سقط هذا الحكم على العالم الفاسد الفاجر في أيام نوح . لقد طلب المسيحيون من الناس أن يتخلّوا عن الشر والفساد الأليم الذي يدنسهم ويعرضهم للخطر في الوقت عينه ، فيتخلصوا من الطمع الصارخ ، والمال وأعمال الزنى والشهوة التي نشروها في كل مدينة وقرية ، وقد لوّت ، كما ييلو ، العالم بأسره . لقد توسلوا الى المذينين

والخطأة ليعودوا عن ذنوبهم وخطاياهم ، ويطلبوا رحمة الله وغفرة قبل فوات الأوان . كان الكثيرون ، وبخاصة الدوناتيون ، قد طلبوا من المسيحيين أن يبتعدوا كثيراً عن الامبراطورية الرومانية ، التي بات واضحاً أنها وشيكه الوقوع تحت حكم الله العادل . كانوا يصرخون قائلين : «اختصوا من هذا الجيل الملتوي» ، «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا»².

كانت عملية نهب روما ، بالنسبة إلى الكثيرين من الأفارقة ، كقصاص ناله سكانها المعجرفون المتكبرون ، وهي نهاية يستحقونها ، أكثر من كونها سوء حظ غير ملائم جاء في غير أوانه أو محله . فإذا كانت المدينة الأوروبيّة قد دبت فعلاً ، فهذا لا يهمهم في شيء . لقد حزنوا على المسيحيين الذين حوصروا وعانوا بين أسوارها المتزعزة ، إلا أن ملكتهم ليست من هذا العالم ، فهم يشكرون الله دائمًا لأنهم قبلوا ملوكًا لا يترعن . إن عملية إخضاع قوة ضاربة مسلحة لأخرى مثيلتها ، لم تكن تعني شعب الله بالشيء الكثير ، لأنهم «يتغرون وطنًا أفضل أي سماوياً»³.

لم ينظر أغسططينوس إلى ذلك الأمر بهذه البساطة . هذا لأنه سبق له أن فكر كثيراً ، حتى قبل سقوط روما ، بموضوع العلاقة بين الكنيسة العالمية والامبراطورية . فقد طلب إليه مارسلينوس (Marcellinus) ، مساعد الوالي المسيحي الذي كان قد ترأس المؤتمر مع الدوناتيين ، أن يدلي برأداً معقولاً على الادعاءات والمزاعم بأن إهمال الإباضيون الوثني هو الذي سبب الكارثة . إذاً كان هناك رغبة في تقديم جواب شاف عن هذا التساؤل ، لتبيّن ما هو معقول في ما يتعلق بسقوط روما ، وللنظر في أسباب هذا الحدث المأساوي ؛ وهذا ما دعا أغسططينوس إلى أن يكتب رائعته العظيمة «مدينة الله» . ولكن بينما كان في طور إنجاز عمله هذا ، ابتدأت آفاق هذا الموضوع الذي كان يكتب عنه تتسع كثيراً ، حتى شملت ليس فقط ماضي الكنيسة العالمية ، بل أيضاً مستقبلها ، وليس الكنيسة فحسب بل مستقبل الامبراطورية أيضًا . بدأ أغسططينوس عمله هذا في العام 413م ، وقد تضمن إنجازه هذا في صيغته النهائية مجموعة وصلت إلى اثنين وعشرين كتاباً ، صدرت على مراحل خلال مدة الثلاث عشرة سنة الثالثية . لقد باشر أغسططينوس عمله هذا في سن التاسعة والخمسين ، وانتهى منه عندما أصبح في سن الثانية والستين .

خصص أغسططينوس النصف الأول من عمله النهائي هذا لنبذ مفهوم تعدد الآلهة ، ولتقديم بيات شاملة تدور حول الإيمان بالله الواحد الحقيقي . يبدأ أغسططينوس بالإشارة إلى أن ما حلّ برومًا ، غالباً ما حدث أيضاً في الماضي لمدن أخرى كانت جادة في عبادة آلهة الوثن . كانت مثل هذه الأصنام تعجز دائمًا عن الدفاع عن نفسها وعن عابديها ، ولا تقدر على أن تجتثهم الهزيمة والواقع في الأسر : إذاً ، يستخلص أغسططينوس أنه لا يجوز لنا أن نعزو سقوط روما إلى استياء الآلهة الصنمية . ثم يستفيض بعد ذلك في إظهار مدى سخافة عبادة الأصنام . لكن ، كونه قام بضرب حسان ميت ، لا يقلل أبداً من حقيقة أنه ضريره جيداً . «إن أغسططينوس ، في نقه المفصل للوثنية وهي في طور الاحتضار ، يستحق إعجابنا أقل من ترتوليانوس الذي كان قد انهى بكل عنف على الصنمية ؛ ومع هذا فإن أغسططينوس يعالج الموضوع بشكل كامل ومن كل جوانبه ، حتى إنه لا تعود تدعو الحاجة إلى زيادة أي شيء عليه»⁴.

ثم ينتقل أغسطينوس بعد ذلك إلى موضوع سقوط مدينة روما نفسها ، فيشير إلى القوطين ، أولئك القوم الذين كانوا قد استفادوا من التعاليم المسيحية إلى حد ما ، كيف انهم عاملوا المواطنين المقهورين برأفة واعتدال ومحفظ ، كانت بمحملها استثنائية في تاريخ الحرب وشجونه . لقد حافظوا على حرمة الأماكن حيث كان يجتمع المسيحيون ، كما انهم رفضوا ان يلتحقوا الأذى بأي من أولئك الذين التجأوا إلى هذه الأمكنة لأجل الاحتماء بها . انهم بفعلهم هذا ، جنّبوا المسيحيين عناء تحمل الكثير من المخاوف التي قاساها الوثنيون ؛ وهكذا بات بإمكان المسيحيين أن يروا في كل هذا يد الله الصالحة والرحيمة عليهم . أما المسيحيون الذين تألموا ، فهم في معظم الأحيان ، من الذين حاولوا بلا جدوى أن يحافظوا على ثروتهم من النهب . على أغسطينوس على هذا بالقول إنه إذا كان أولئك القوم يحبون أموالهم بهذا المقدار ، فهم يستحقون أن يتآلموا في سبيل الدفاع عنها ، وعليهم أن يكونوا سعداء ، إذا ما سمح الله بفقدان هذه الأموال ، لأن ذلك سيحررهم بالطبع من تسلطها عليهم . «إن أولئك الذين عانوا الأمرين من أجل الذهب ، كان ينبغي تبيههم إلى مقدار تحملهم من أجل المسيح ، حتى يتعلموا بدلاً من أن يحبوا الذهب والفضة ، إن يحبوا رب الذي يعني ، بعنه الأبدى ، أولئك الذين يتآلمون من أجله . فالمعاناة من أجل الغنى والجاه هي في الواقع معاناة عيشة ». ⁵ ثم اردد أغسطينوس يقول إن المسيحيين الحقيقيين قد خسروا قليلاً من جراء خراب المدينة ، لأن ما بإمكانهم خسارته فيها هو قليل ، هذا لأن كنزهم هناك في السماء ، حيث الأمان والاطمئنان . «انهم يتمتعون ببركاتهم الأرضية على طريقة الرحالة والغرباء ، ولا يتعلمون بها ». ⁶

و قبل لأغسطينوس : «لكن ، هناك الكثيرون من المسيحيين الذين أخذوا إلى السيء !» فرد عليهم بتهكم لطيف قائلاً : «إنها ، ولا شك ، لأعظم مأساة تدعوا إلى الشفقة والرثاء إن كان يمكننا نقلهم إلى مكان يتذرّع عليهم أن يجدوا الله إليهم فيه ». ⁷ واستمرّ أغسطينوس يقيم الدليل تلو الدليل من الكتاب المقدس على أن الله غالباً ما بارك شعبه عندما كان مسيئاً ، كما زوّده أيضًا بأعظم العزاء وأفضله . كم أنا مسرور لأنني مسيحي ، يقول أيضًا أغسطينوس ، حتى حين أتألم من أجل ربي ، هذا لأن الله «حفظ لي عنده مكافأة أبدية مقابل ثباتي بأمانة تجاه ألام هذا الزمان الوقتية ». ⁸ إن ميراث أولاد الله هو ميراث سماوي وليس ميراثاً أرضياً . وإن سقطت روما ، فإن ذلك لا يزعزع ملوكوت الله أبداً . فقد تفتت المدينة الأرضية وتتوّضّع ، لكن المدينة السماوية تبقى خالدة إلى الأبد .

إن «مدينة الله» هي عنوان ، كما أنها موضوع رائعة أغسطينوس . لم يكن هو الذي ابتكر هذا المفهوم : لقد سبق لتيكونيوس (Tyconius) ، وهو من أحد الدوناتيين ، ان كتب دراسة حول هذا الموضوع ، لكن أغسطينوس طوره وتوسّع فيه . لقد حدد معنى هذا المصطلح بالنسبية إليه ، كما انه أنسّ عليه علم لاهوت متقد وموسوع . إن مدينة الله برأيه ، هي المجتمع العالمي ، أو جماعة عبيد الله المخلصين له في كل العصور : ماضياً ، حاضراً ، ومستقبلاً . ويخبرنا أغسطينوس أنه استبط عنوان الكتاب واختاره من الآية في سفر المزامير : «قد قيل بك امجاد يا مدينة الله »، ⁹ كما انه

يقتبس أيضاً فقرات من العهد الجديد تتحدث عن المسيحي بأنه مواطن في السماء ، ومن أهل بيت الله . «لأن سيرتنا هي في السماوات» . يكتب الرسول بولس ، انكم «رعيية مع القديسين وأهل بيت الله مبنيين على أساس الرسل والأتباء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية». ¹⁰ لكن مدينة الله ليست هي السماء بنفسها . فإن الكثرين من مواطنيها ما زالوا يعيشون الآن على الأرض ، على الرغم من أنهم سيذهبون يوماً ما إلى المكان المعد لهم في السماء . وعليه ، فإن «المصطلح "مدينة" بالنسبة إلى أغسطسبيوس ، يعني ببساطة مزاملة أو اتحاد مبني على روابط مشتركة»،¹¹ وبشكل خاص هنا ، رابط الإيمان المشترك بال المسيح ، والخلاص المشترك . إنه يصف مدينة الله ، في أمكنة أخرى ، مستخدماً في ذلك تعبير من نحو «بيت» أو «معبد» أو «عائلة» ، وهو يتحدث عنها «كأرض الأمان» ، أو «أرض السرور والفرح» ، وكذلك «البيت المشرق المثير» . إن الذين يتبعون إلى مدينة الله هم أولئك الذين يحبون الله ويخدمونه . ومن جهة أخرى ، فإن المدينة الأرضية مأهولة بأولئك الذين يعيشون بموجب المقاييس الأرضية . إنهم مجتمع الذين لا يطيعون الله : «هناك في الواقع مدينة واحدة يسكنها الناس الذين اختاروا أن يعيشوا بموجب مقاييس الجسد ، ومدينة أخرى يسكنها من اختاروا العيش بموجب مقاييس الروح . «بعض الناس يعيش بموجب المقاييس البشرية ، وبعضهم الآخر يعيش بموجب المقاييس الإلهية».¹²

ان لكلا المدينتين معنى روحيًا غير مدرك بالحواس ؛ وفي الواقع ، إن أول من سكن كلاً من هاتين المدينتين كانوا من الملائكة أو الأرواح . إن الشيطان وملائكته ، الذين غردوا على الله قبل خلق الإنسان ، انضم إليهم في ما بعد في هذه المدينة الشريرة قابين قاتل أخيه هابيل . ومن ناحية أخرى ، فإن الملائكة الأبرار ، سكروا هم أيضاً منذ البداية في مدينة الله ، حيث انضم إليهم شيث ونسله ، مع جميع الذين يعيشون بموجب طرق الله . فجميع الناس يولدون في المدينة الأرضية بحسب أغسطسبيوس ، لكن يبقى بإمكانهم أن يصبحوا أعضاء في المدينة السماوية ، إن كانوا معينين سابقاً لهذا الأمر . فعندما يولدون الولادة الجديدة بالإيمان بقداء المسيح ، يدخلون فوراً مدينة الله . كان أغسطسبيوس يعتقد أيضاً أن هناك عدداً قليلاً من ليسوا مسيحيين ، ولا يهوداً ، قد يجدون لهم مكاناً في المدينة السماوية ، أمثال سبيل (Sibylle) التي هي من أهل الأمم والتي عارضت عبادة الآلهة المريضة في العصور القديمة الغابرة ، وتحدثت عن الدينونة الأخيرة ، ويدو أنها تنبأت عن المسيح أيضاً.³

إن أعضاء المدينتين يعيشون جنباً إلى جنب في هذه الدنيا . فهم يتشاركون في الطعام والسكن ، وفي جميع المتطلبات الحياتية الأخرى . قد يعملون معًا في التجارة والوظائف ، وحتى يجتمعون معًا في الكنيسة ، إلا أن الأعضاء في مدينة الله هم وحدهم من سيحصل في نهاية المطاف على الخلاص الأبدي . يوجد اختلاط بين هاتين المدينتين في الوقت الحاضر ، لكنهما في الواقع مبنيان على أساسين مختلفين : «إذا نرى أن هاتين المدينتين قد تكونتا على أساس شكلين من أشكال المحجة : فالمدينة الأرضية استحدثتها محبة الذات التي أوصلت الإنسان إلى حد احتقار الله ؛

بينما المدينة السماوية ترتكز على المحبة لله التي قد تصل إلى درجة احتقار الذات . وفي الواقع ، إن المدينة الأرضية تفتخر بنفسها ، بينما المدينة السماوية تفتخر بالرب .¹⁴

إذا لم يكنا أن نعادل مدينة الله بالسماء ، يقول أسطينوس ، لا نقدر من ناحية أخرى على أن نعادل أيّاً منها بكنيسة الله . هذا لأن مدينة الله وُجدت قبل تأسيس الكنيسة على الأرض وتضم بين أعضائها عدداً كبيراً من العبرانيين الذين عبدوا الله بأمانة في أزمنة العهد القديم . ثم يضيف أسطينوس ، أن بعض أولئك الذين يشاركون في حياة الكنائس المحلية ، وفي عبادتها ، سيظهر انهم ليسوا أعضاء في مدينة الله قط . كما انه حتى بعض الذين اعتمدوا وأصبحوا يشاركون في العشاء الرباني ، قد لا يحظون بالخلاص من الديانتة الأخيرة في نهاية المطاف . «في وسط الكنيسة قوم اخدوا بها في المشاركة في الأسرار المقدسة ، لكنهم لن يكون لهم نصيب في الصير الأبدى المخصص للقديسين . بعض هؤلاء الناس متشر ، وبعضهم مشهور ومعرف لأئمهم لا يتزدرون في التذمر على الله ... حتى بعية أعدائهم المعروفين . إنهم طارة يملأون المسارح برفقة أعداء الله ، وطوراً يملأون الكنائس إذ يتضمنون إلينا .¹⁵»

ومن جهة أخرى ، هناك بعض الناس الذين لا يشاركون في الوقت الحاضر في الحياة المسيحية ، والذين يعارضون الاخجيل جهاراً ، ولكنهم سُيشاردون أخيراً في مدينة الله . «يجب أن يبقى في ذهن الكنيسة ، أن بين هؤلاء الأعداء الآلة يختفي مواطنوها في المستقبل ؛ وعند مواجهتها مع مثل هؤلاء ، ينبغي أن تكون طريلة البال إزاء إزعاجهم لها لأنهم بالنتيجة سيترفون بإيمانهم بال المسيح .¹⁶ إن هؤلا الذين من خارج ، لم يتوبوا إلى الله يسوع بعد ، ولكن الله سبق له فعرف انهم ذات يوم سيفعلون ذلك حتماً . الله وحده يعلم من هم المعيتون للخلاص ، وهو يعرف وحده من الذي سيسكن في مدينة الله إلى الأبد . «في الحقيقة ، إن هاتين المدينتين هما متناسجان ومتمازجان في هذا العصر ، في انتظار الانفصال في يوم الديانتة العظيم .¹⁷

كيف ينبغي للمسيحي أن يتصرف مع أولئك الذين يحبون الشر أكثر من الخير؟ «إن الإنسان الذي يعيش بموجب المقاييس التي وضعها الله وليس بموجب المقاييس البشرية ، يجب عليه أن يحب الخير وبالتالي يكره الشر ... عليه ألا يكره الإنسان بسبب خطشه ، والألا يحب الأخطاء بسبب جهه للإنسان . بل عليه أن يكره الخطأ لكن يحب الإنسان . وعندما يعالج الخطأ ، عندئذ لا يبقى أمامه إلا ما يتبعه له أن يحبه ، إذ لا يوجد بعد أي شيء مما يجب أن يكرهه .¹⁸

تتبع أسطينوس تطور كلٍّ من المجتمع العالمي والمجتمع السماوي في صفحات الكتاب المقدس . ينطلق الاتجاهان من قاين القاتل ، وهابيل البار ، لكي يسيرا جنباً إلى جنب عبر الأجيال المتالية . فالكتاب يفارق مثلاً بين نوع البار الذي وجد مع سبعة من أفراد عائلته الحماية الأكيدة لهم في داخل الفلك ، وبين جمهور الأشرار الذين هلكوا من جراء الطوفان . كما ان إبراهيم ينفصل بإيمانه التواضع عن أولئك المدعين الذين قاموا ببناء بابل . وبعد هذا ، يتقلل أسطينوس ليتتبع

مصير الأبرار ومصير الفجار ، وذلك في ضوء تاريخ كلّ من الامبراطورين اليونانية والرومانية . إنه يتوقف بشكل دوري بين الفينة والأخرى لمعالجة مسائل أخرى تبرز أمامه ، وهو لا يترك أية عقدة في الخيط من دون أن يحاول ، على الأقلّ ، أن يفكّها ويحلّ رباطها .

وبعد أن أسس أغسطينوس إطار عمله وبنائه ، استنتج منه الجواب المسيحي الشافي عن المشاكل الدينية والفلسفية والسياسية لهذا العالم وحكومته ، وذلك بتتبع خيوط الفكر الذي كان رائجاً في الكنائس في عصره ، مع الفكر الذي كان المجتمع قد تسلمه من الأجيال السالفة . كان لكتاب «مدينة الله» في أيام أغسطينوس تأثيراً أقوى بكثير من كتاب «الاعترافات» الذي يُقرأ بشكل أوسع في أيامنا الحاضرة . كان هذا الكتاب أشبه ببيان رسمي مسيحي حول مستقبل الجنس البشري ؛ بيان إيجابي جدّاً يعبر عن الثقة القوية الثابتة بأنه من الممكن ، حتى في تلك الأزمات الخاددة التي لم يسبق لها مثيل ، إعداد دستور مسيحي ، ليس لازدهار روما ، فحسب ، بل لخير العالم بأسره أيضاً .

في الحقيقة ، لم يكن إذلال تلك المدينة القديمة ، يعني نهاية الامبراطورية إلى الأبد : فقد يبقى الجزء الأكبر من الامبراطورية سليماً ولم يمس أي ذي ، وهو يُحكم كما في السابق من القسطنطينية ، اسطنبول . كان أغسطينوس لا يزال ينظر إلى الامبراطورية نفسها بصفتها الأداة التي اختارها الله لنشر المسيحية في جميع أرجاء العالم ، وهي قادرة على الاستمرار لوقت طويل جداً ، ولربما إلى الأبد . وحتى لو حدث تحطمته بنية الامبراطورية السياسية ، فإنَّ اتحاداً كونفدرالياً سليماً يضم دويلات ومالكـسيحية صغيرة ، يكفي لحماية مستقبل السلام والازدهار للحضارتـين اللاتينية واليونانية . ويعيداً عن الإنذار من الفساد والتفسخ والانهيار ، نادي أغسطينوس بجرأة وشجاعة يبداية العصر المسيحي العظيم . لقد دفع أغسطينوس عن فكرة أنَّ كلاً من المسيحية والدولة يمكنهما الاستفادة من الخير عند الطرف الآخر ، ومن الخير الذي قد يأتيهما من آية جهة أخرى . لربما بات الشيء الوحيد الذي لا يمكن للكنيسة أن تقبله من روما ، هو ديانتها القديمة التي تدين بعدها آلهة ؛ لكن الآلهة القديمة كانت في انحدار على كل حال .

إن المشكلة العملية التي كان يتوجب على أغسطينوس أن يواجهها ، هي في ما يختص بدور الكنيسة الروحية في الامبراطورية المادية ، شروط العلاقة بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية . لم يتوقع أغسطينوس أي صراع بين هاتين المدينتين ، بل على العكس إذ كان عليهما أن يعملما معًا . كان أغسطينوس يتنتظر أن تتحول الحضارة الرومانية تدريجياً لكي تصبح مسيحية . فاعتبر أنَّ العالم سيستفيد من ملح الكنيسة ونورها ، تماماً كما أن الكنيسة ستستفيد بدورها من معرفة هذا العالم ومن خبراته . فأكّد أنه بإمكان المسيحيين أن يستفيدوا من اكتشافات العالم - العلوم والفلسفة ، ومبادئ الهندسة ، والتاريخ والجغرافية ومبادئ الحكمة البشرية وعلم النفس - تماماً كما يجب على العالم أن يستفيد من تعليم الكنيسة وأسرارها المقدسة والأخلاقيات فيها . يتحتم على الكنيسة أن تطبع الامبراطور إلى أقصى حدود القوانين المدنية المرعية في الامبراطورية ؛ والامبراطور (الذي ينبغي

دائماً أن يكون مسيحيًا) عليه بالمقابل أن يتلزم الخضوع لتعاليم الكنيسة وإرشادها في القضايا الأخلاقية والروحية . وهكذا سيكون الآثار شريكين في نظام عالمي جديد .

وأسطينوس ، في نظرته هذه إلى الأمور ، يُظهر بكل وضوح ميله الرومانية . كان والده موظفاً رسمياً في الحكومة ، وهكذا نشأ الصبي في عائلة تنظر إلى الامبراطورية نظرة احترام وإكبار . كان يتكلّم اللاتينية ، وقد تعلم وتنقّل بموجب الأسلوب والطريقة الرومانية ، كما أنه باشر مهمته في مجالات علم البيان والبلاغة ، هذه الوظيفة الرومانية البحتة التي كانت السبيل الأكيد لتبؤ المراكز العالية في إدارة الامبراطورية . كان يفكّر في هذه الأمور والقضايا كمواطن روماني . «وحتى عندما قاده الفلسفة إلى اليونانيين ، وقاده علم اللاهوت إلى العبرانيين ، كان غرضه أن تكونفائدة كلّيّهما لمصلحة روما¹⁹».

إلا أنّ أسطينوس ظهر في أواخر أيام حياته ، ويشكل متزايد ، علامات تدل على أن الامبراطورية قد خلّت أمره . هذا لأن تلك المؤسسة العالمية الضخمة بات يحكمها شلة قليلة من الرجال المتوجّلين الحظيرين والفاسدین . «والغريب في الأمر أنه فقد حماسته في ما يتعلّق بأمر التحالف بين الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية ، وذلك في الوقت عينه الذي كانت قد رُسخت هذه المسألة . . . إن نظار الكنائس في الولايات الأخرى ربما كان تأثيرهم بالامتداد الروحي المفاجئ للأباطرة ليس في محله ، لكنّ أسطينوس كان يستطيع مخاطبة أحد هؤلاء النظار بالقول إن مثل هذا الأمر لا يعني فقط أنّ البشرة بالإنجيل قد وصلت "إلى أقصى الأرض" . . . ولا حتى الجماعات المسيحية كانت قد استفادت بشكل واضح من معاهدتها مع الدولة . وبعيداً عن كون هذه المعاهدة هي معاهدة إصلاحية ، فقد كانت مصدراً «لخطر ولتجربة أعظم»²⁰ كان يتطلّع بياجائية ويتناول إلى مجموعة من الدوليات المسيحية ، قد تبشق ، إذا دعت الحاجة ، من رماد الامبراطورية المنهوبة . لكنّ رجاءه أصبح أكثر فأكثر بالله ، وليس بالإنسان .

في الواقع ، لم تكن آراء أسطينوس هي الوحيدة في مجال تقويم الوضع السياسي . فآخرون كانوا أقلّ منه اقتناعاً بأنّ عند الرومان خيراً حقيقياً ذا قيمة ليقدّموه لهم . لقد أعجب المسيحيون بما يتمتع به الرومان من براعة ومهارة هندسية وكفاءات تنظيمية وإدارية تحولت على أساسها المخططات والمشاريع الطموحة في البلاد إلى حقائق واقع عملي ، وذلك بشقّ الطرق التي تصل إلى مدنهم ، فضلاً عن توريد الماء إلى الدور والمساكن . إلا أنّهم اشمأزوا من الفجور الواقع في المجتمع الروماني ناهيك من قسوته ووحشيته ، حتى إنّهم لم يعودوا يرغبون في أن يشاركون فيه إلا بالقدر الذي تقضيه مقومات معيشتهم . لم يكونوا يتوقون توقاً شديداً إلى تحقيق الامبراطورية «المسيحية» الوهمية ، ولا كانوا يعتقدون أن العالم بحمله سيف适用 «مسيحيًا» ، لأنّ كلمة الله لا تحتوي على أي وعد من هذا القبيل . كل ما كان يوسع الأباطرة فعله هو إصدار «قوانين مسيحية» ، لكنّهم لم يكونوا ليصنعوا أنساناً مسيحيين . كانت غالبية الشعب لا تزال غير مؤمنة وهالكة ، بلا رجاء ، وبلا إله في العالم²¹ . وحتى أسطينوس نفسه ، في معرض كلامه

عن سكان روما عند سقوطها ، قال : «ان الشهوة المشتعلة في قلوبهم كانت أكثر فتكاً من اللهب الذي أكل بيوتهم ». 22 لقد أخبر مسيحيو القرن الأول للميلاد في الكتاب المقدس ، كيف عليهم أن يتعاملوا مع المجتمع حيث يعيشون : «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم ... لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وبعظم العيشة ليس من الآب بل من العالم . والعالم يضي وشهوه وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد ». 23

غالباً ما استشهد الدوناتيون بمقاطع كهله من الكتاب المقدس . لم يجدوا أي سبيل للمجتمع المسيحي للدخول في أي نوع من أنواع التعاهدات أو الموثائق مع الناس الذين لا يعرفون الله ولا يطيعونه . تقول كلمة الله : «لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . لأنه آية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة ، وأية اتفاق للمسيح مع بليعال . وأية تصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة له بكل الله مع الأوثان ». 24 قد تكون الأشكال الخارجية للعبادة الوثنية قد ذابت وذوت ، ولكن تراثها الأخلاقي ظلَّ على حاله ولم يتغير في مجتمع كان قد بُني على ذلك الأساس الفاسد . «هم من العالم . من أجل ذلك يتكلمون من العالم والعالم يسمع لهم . نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ... من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال ». 25 لم تكن الإمبراطورية الرومانية كيساً من الدقيق يمكن للكنيسة أن تأخذ منه ما هو جيد وتخلي عن الرديء ، بل كانت كيساً من الغبار . ولم يكن الطحان الذي قام بعملية الطحن إلا إيليس نفسه . «تعلم أننا نحن من الله والعالم كله قد وضع في الشرير ». 26

كان لأسطينوس متقدون آنذاك ، كما هو الحال في أيامنا أيضاً . ولكن لم يستطع أحد أن يكتب كما كتب أسطينوس . كان كتاب «مدينة الله» موضوع الدراسة المفضلة عند الإمبراطور الأوروبي شارلمان (Charlemagne) في أواخر القرن الثامن . لقد وجد فيه دعماً وسندًا لمفهوم «العالم المسيحي» (Chrétienté) ، الفكرة التي جاءت بهمجلها لتهيمن على مفاهيم العصور الوسطى للعالم . فالعالم المسيحي يشكل ذلك الجزء من الكرة الأرضية حيث يوجد قادة مسيحيون من المفروض أن يدعموا القيم والمفاهيم المسيحية - «مدينة الله» على الأرض . كان الملوك المسيحيون في القرون الوسطى يعتبرون أنفسهم ورثة ، ليس للتقاليد والأعراف الكتابية فحسب ، بل للثقافة اللاهوتية واليونانية أيضاً . حاول أسطينوس أن يجمع بين أفضل المظاهر لكل منها في صيغة شاملة للحضارة المسيحية . وقد كان هناك أناس آخرون من أدعوا أنه لا يمكن الجمع بينهما . لكنهم كانوا مجرد أصوات صارخة في البرية . ومع مرور الزمن ، اختفت أصواتهم وتلاشت ؛ إلى أن بزغ فجر الإصلاح الديني على المسرح الأوروبي ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، وحطمت إلى الأبد الوهم المضجر والخادع بشأن فكرة «العالم المسيحي» الكاثوليكي ب gioشه الشعة المحاربة تحت راية الصليب ، ومحاكم التفتيش المتكررة ، والحروب الصليبية التي شنت على «الملاحدين» و«الآتراء» و«الهرطقة» . لم يكن أسطينوس مسؤولاً ، بأي حال من الأحوال ، عن هذا «الافراط» الذي تج من مفهومه ، لكنه يبقى هو صاحب هذه الفكرة في الأساس .

لعل كتاب «مدينة الله» هو البحث الديني الأكثر شهرة على الإطلاق . لقد تخصص الماضي وقدم المستقبل ، في الوقت الذي كان العالم يشهد تحولات خطيرة وهامة . «انه من الكتب النادرة التي تشكل بحد ذاتها حدثاً تاريخياً هاماً». ²⁷ إنه يكمل سلسلة كتب «الآپولوجيا» (Apologies) العظيمة التي كُتبت باللغة اللاتينية دفاعاً عن الإيمان المسيحي ، ولدعمه في وجه الهجمات الوثنية . ومن هذا الكتاب أيضاً تجذب المباحث اللاهوتية التي باتت مدار بحث عبر العصور الوسطى ، كما أن حججه لا تزال تحيطُ الباحثين على النقاش الحاد في الأوساط اللاهوتية حتى في أيامنا الحاضرة .

لقد كان لكتابات أغسطينوس الأخرى أثر ونفوذ أقل ، إلا أنها قد تكون ذات جاذبية شخصية أكثر . ففي بحثه تحت العنوان «عن السعادة» (De Beata Vita) يقدم أغسطينوس مثلاً ذا مغزى خلاصي . انه يرسم صورة أخاذة لبناء واقع على «أرض الأمان» على الجهة البعيدة من محيط واسع . كان هناك سبيلان لمبلغ اليابسة إلى ذلك المكان الممتنع البيهيج . أحددهما هو سبيل الفلسفة أو الأفكار المنطقية التي توصل بعضهم إلى المكان الأمين من المرفأ ، عند التصادم مع المتعلمين والحكماء أو قراءة كتبهم ؛ ولكنَّ هذا الطريق هو متاح فقط للأقلية المفكرة والمقلاة . ثم هناك سبيل الآخر للوصول إلى هذا المرفأ : انه طريق العناية الإلهية التي تستعمل عواصف الشدة والمعنى التي تهبه علينا وتجعلها الى شاطئ الأمان ، حتى عندما نكافح ونناضل في أفكارنا الحقاء الجاهلة للهروب الى الاتجاه المعاكس . وفي الواقع ، ان الذين يجدون عليهم أنفسهم أنفساً في الحياة ، يحتاجون الى أعنف العواصف والزوايا تهبه عليهم بقوه لكي يتحوّلوا عن الوجهة التي كانوا قد خططوا لها لأنفسهم ، الى الطريق الذي أعدته الله . فمنهم من يصل الى المرفأ من خلال هذا الطريق ، وأخرون من خلال ذاك . وبعضهم الآخر يبلغون إليه جزئياً بواسطة أفكارهم المعقولة المنطقية من ناحية ، ومن خلال شدة أو محنة مصدرها العناية الإلهية من ناحية أخرى .

لكن هناك خطر عظيم يهدّد جميع الذين يقتربون من المرفأ : فعند مدخله جزيرة غريبة تلوح عبر البحر . وفي هذه الجزيرة من الإغراء ما يجعلها تجذب إليها ، ليس أولئك الذين يقتربون من المرفأ فحسب ، بل حتى أيضاً بعضاً من الذين سبق لهم أن دخلوا المرفأ أو التجأوا إليه . يتباين سكان الجزيرة المغرورون بكون حرمهم المقدس الذي يلقى البحر من كل جانب هو أسمى وأعلى مقاماً من المرفأ نفسه ، مع أنه محاط بالصخور الضخمة . وإذا تجذرت السفن في المكان ، يقوم سكان الجزيرة بتوجيهها الى المرفأ ، لكنهم يزدرؤن بأمر اتباعهم والتمثل بهم ، وذلك الى أن يحين اليوم الذي فيه يكتشفون ، ولكن بعد فوات الأوان ، أنهم قد قطعوا من «أرض الأمان» ، ولم يعودوا قادرين على أن يصلوا اليها حتى ولو رغبوا في ذلك . وماذا عن أولئك الذين يتجنّبون الجزيرة وينجحون في بلوغ المرفأ؟ فبعضهم يدخل وبعد راحة لنفسه ، ولكن بعضهم الآخر يُحقق في النهاية في أن يقيم هناك .

ان التخييل واضح ، وهو يصور الرحلة التي تقود الى الأمان الأبدي . ان سكان الجزيرة هم فلاسفة من أتباع الفلسفية المحدثة (Néoplatonistes) المكتفون بما هم عليه ، والذين مهدوا السبيل أمام أغسطينوس وأمثاله من معاصريه للبحث عن الحقيقة ، ولكنهم فشلوا هم أنفسهم في

إدراكتها . ليس من السهل إيجاد المرفأ ولا يمكن لأي كان أن يصل إليه ؛ كما أن بعضًا من هؤلاء قد يدبر ظهره ويعود عنه . وهكذا أيضًا سُيُخْفَقُ الكثيرون في الحصول على الخلاص ، كما أن بعضًا من الذين بدا عليهم أنهم مسيحيون سيهلكون في النهاية .

ليس من الصعب أن نتصور كيف استوحى أسطنطينوس قصته الرمزية من خلال الرحلة التي قام بها هو شخصياً إلى المرفأ ، كما يصورها لنا في كتابه «الاعترافات» . كانت جميع الكتابات التي سبقت عن سير الحياة ، تهدف إلى تحليل كلمات الرجالات العظام وتأثيرهم وبالأشخاص مشاهير الفلسفه والجنود . وخارجًا عن نطاق الكتاب المقدس نفسه ، كانت سيرة أسطنطينوس الذاتية ، هي الكتاب الأول في تاريخ العالم الذي يعتبر ساحة النفس البشرية أهم من فتح إقليم ، أو من إضاح نظام فلسفى وشرحه . لكنه ، في تحليل حاليه الخاصة ، كان أسطنطينوس يتناول مسائل تهم الجنس البشري بأسره . لم يكن غرض أسطنطينوس أن يؤسس لنفسه سمعة وشهرة ، أو أن يستقطب حوله معجبين ؛ بل على العكس من ذلك ، إذ سعى أولاً لبيان حاليه ووضعه المؤوس منه ، ثم كيفوصلت إليه نعمة الله وخلصته . لم يتردد أسطنطينوس قط في أن يشير إلى أخطائه ، كما أنه لم يظهر حسناته إلا نادرًا . كان في وصفه لوضعه البائس ، يصور في الواقع حالة كل واحد منا . كما أنه في حديثه عن رحلته الشخصية التي قاده إلى الخلاص ، كان يشجع قراءه على أن يحلوا حلوه .

تبرز أيضًا استعارة الرحلة في أحد كتبه الأخرى تحت العنوان «ضد الأكاديميين» (*Contra Academicos*) . انه يروي لنا في هذا الكتاب قصة رجلين مسافرين يتوجهان إلى المكان عينه ، أحدهما يبدو عليه أنه ساذج وسريع التصديق ، بينما الآخر لا يصدق الأمور بسهولة . وعند وصولهما إلى مفترق طرق ، إذ يهما يلتقيان راعيًا وضيئًا ، فيقبل أحدهما توجيهاته على الفور ومن دون تردد ، وهكذا ينطلق في الطريق المحدد له . في هذا الوقت يستهزئ الآخر بذاتية هذا الإنسان من خلال موقعه ، حيث وقف متظاهرًا ومتفكراً في نفسه باعتداد إذ هو ليس من أولئك الذين يسهل خداعهم . وبعد أن طال انتظاره حتى إنه أصبح مضجرًا وملأ ، إذا برجل مهذب نبيل يبرأ به محظياً صهوة جواده . جاءت توجيهاته مخالفة لتلك التي كان قد أعطاها الراعي ، كما أن صاحبنا لم يقتنع تماماً بصحتها ، إلا أنه قرر أن يسير بموجبها على الرغم من كل هذا . لكنه سرعان ما تاه في الغابة ، وتقدَّ كل أمل بالنجاة ، ثم وجد نفسه يجول ضائعاً فوق الجبال التي لم يطرقها أحد . وبالطبع ، كان ذلك الرجل المهدب النبيل دجالاً محتالاً . وفي هذه الأثناء ، كان زميله يجلس قائمًا راضياً في مكانه المقصود . ومحزز هذه القصة هو أن حتى الفلسفة نفسها ، هؤلاء الذين يدّعون التشكيك في كل الأشياء ، يحتاجون في آخر المطاف إلى أن يتبعوا شخصًا ما أو شيئاً ما . ربما بفعلهم هذا يعرضون أنفسهم للاحتراف وراء الضلال ، أكثر من الذي قبل منذ البداية قيادة العناية الإلهية له . فإذا ما أرسل الله علينا راعيًا في الوقت الذي نحن في حاجة إلى من يوجهنا ، علينا الأنصار بجهل ، إذ نحتقره ، ونصر بكل اختيال على اتباع شخص آخر يبدو عليه أنه يفوقه في المهابة . إن هذا الراعي هو بالطبع الرب يسوع المسيح نفسه .

ملاحظات

- رؤيا 18:17-1
 - اعمال 2:40؛ 2 كورنثوس 6:17-2
 - يوحنا 18:36؛ عبرانيين 12:16-11
 Lloyd p. 233-4
De Civitate Dei 1:10-5
De Civitate Dei 1:29-6
De Civitate Dei 1:14-7
De Civitate Dei 1:29-8
 3:87-9
 - الزمر 20:3؛ أفسس 2:19 و 20
 O'Meara, *City of God* p. xxx-11
De Civitate Dei 14:1,4-12
De Civitate Dei 18:23-13
De Civitate Dei 14:28-14
De Civitate Dei 1:35-15
De Civitate Dei 1:35-16
De Civitate Dei 1:35-17
De Civitate Dei 14:6-18
 O'Meara, *City of God* p. xxiii-19
 Brown pp. 337-338-20
 كان أغسطينوس قد صُفع لثقب إعدام مارسيلينوس (الذى ييدو أنه كان بريئاً عندما قضى
 ضحية مؤامرة سياسية) ، على الرغم من المحاولات المخلصة التي بذلتها الكنيسة الكاثوليكية للتشتت فيه لدى السلطات .
 وقد وقع ذلك بعد مضي ثلث سنوات فقط على المؤمن الذى كان قد ترأسه في العام 411 م .
 21- أفسس 12:2
De Civitate Dei 2:2-22
 1- يوحنا 15:2-23
 2 كورنثوس 16-14:6-24
 1- يوحنا 4:5 و 6-25
 1- يوحنا 19:5-26
 Lloyd p. 233-27

ورد بحث عن كتاب مدينة الله بقلم O'Meara في مقدمة ترجمته للكتاب

رائع أيضاً Clark pp. 154-166; Lloyd pp. 224-235

Brown chap. 27; Chadwick pp. 96-106

الفصل الخامس والعشرون

الكنيسة في هيپو

كان يوم الأحد يوماً مميزاً . و بوجب أمر أصدره قسطنطين في العام 321 م ، أصبح اليوم الأول من كل أسبوع عطلة عامة و يوم راحة ؛ و فلاحو الباية و حدهم ظلوا يعملون في حقولهم . فما إن أشرقت الشمس حتى بدأ المسيحيون في هيپو بالتسوّج إلى الباسيليكا (basilique) ، اي قاعة الاجتماعات ، حيث أخذوا أماكنهم ، فوقف الرجال إلى اليمين و النساء إلى اليسار و هم يتظرون بترقب و سط الهمسات و الهممات .

كانت القاعة بحدّ ذاتها كتابة عن بناء بسيط منفرد و لا يثير الانتباه ، يقع في شارع جانبي . كان سقفها مدعوماً بصفين من العواید ، كما أنها كانت مجهزة بستائر و بمصابيح زينة . لكنها كانت تخلو من الصور و الرسوم و التمثال ، أو من أي شكل آخر من أشكال الزينة . كانت القاعة خلال الاجتماع الرئيسي في الأسبوع تغصّ بالحاضرين ، الذين كان من بينهم بعض الوثنيين ، واليهود ، أو أي إنسان آخر يود أن يستمع إلى الأنجيل . كان ناظر الكنيسة يتنظر في غرفة جانبية ، جاهراً و مستعداً لتعزية أي إنسان يرغب في مقابلته ، او لتقديم المنشورة له ، و ذلك قبل بداية الاجتماع . ثم قام الناظر و دخل القاعة الرئيسة و جلس على كرسي صخري كبير مخصص له ، يقع في المقدمة و في مواجهة جماعة المصلين . و ما إن بدأ الاجتماع ، حتى ساد السكون في المكان . و من وصل متأخراً تسلل ليجلس في الأماكن الخلفية . كان الأطفال يتسللملون و يتسرّعون عند أقدام ذويهم ، في وقت كانت جميع العيون تتجه نحو الشخص الموجود في المقدمة . أمّا أولئك الذين لم يكن بوسعهم أن يروا شيئاً ، فكانوا يقفون على رؤوس أصحابهم او يستقلون إلى موقع أفضل .

ثم نهض الناظر و حتى الجماعة بحرارة مرحبّاً بهم في الاجتماع . و بعد ذلك طلب إلى أحد القراء او المدربين أن يقرأ المقطع المقرر من الكتاب المقدس - العهد القديم . و ما إن انتهى من القراءة ، حتى عين الناظر أحد المزامير . عندئذ قام أحدهم ، كان قد تم تكليفه من قبل ، وأنشد كل سطر من سطور المزمور بنسمة أفقية ، على أن تقوم جماعة المصلين بترتيب قرار مكرر بسيط بعد نهاية كل سطر . واحياناً كانت تُطوى الـ « يا » الأخيرة من كلمة هللويا ، و تُردد بفرح و سرور كأنها تنسيد حال من الكلمات - إنها عبادة الذات الإلهية في سرها و في جوهرها غير المعلم - و هي تسمى على كل الكلمات و التعبير . ثم يقرأ أحد المدربين مقطعاً من رسائل العهد

الجديد ، يلي ذلك ترنيم مزמור آخر . وأخيراً نقرأ بعض الآيات من أحد الأنجليل ، و غالباً ما يقرأ أنجيل متى ، قبل أن يبدأ أسطفانيوس عظه .

كانت عظة أسطفانيوس تستغرق ما بين النصف الساعية والسااعة الواحدة ، ما عدا في أيام الاحتفالات الخاصة حيث لم تكن الموعضة تتعذر مدة العشر دقائق . وفي بعض الأحيان ، عندما يكون الموضوع هاماً ، وإذا يلمس تحابي الجماعة معه ، كان أسطفانيوس يستمر في الوعظ على مدى ساعتين . كان أسطفانيوس واعظاً فذا فريداً لا يُضمار . كان صوته يعلو و ينخفض تارة مقنعاً ، وطوراً متسائلاً باللحاج . كان صوت أسطفانيوس وهو يعلن حق الله يدوي كالرعد ، كما أنه كان من حين إلى آخر يتوقف عن الكلام هنيهة ، تاركاً كلماته الأخيرة معلقة في الهواء ، وفاسحاً المجال أمام الرب نفسه ليتكلّم ، خلال فترة الصمت ، إلى قلوب المستمعين الغيورين والمتألهفين . لم يكن الجمهور يدركون تماماً كل ما كان يخاطبهم به أسطفانيوس ، إلا أنهم لم يخفقوا قط في تلمس رهبة تلك المكتومات التي كان أسطفانيوس يسطّها لهم وروحتها . وكانتوا يشعرون في بعض الأحيان بأنهم اقتدوا صعوداً إلى الجبل المقدس ، وفي محضر الرب نفسه . لقد كانوا يشعرون ، كما شعر بطرس على جبل التجلّي حين قال : « جيئ يا رب أن تكون هنا » .^١

وبعد انتهاء الموعضة ، انصرف المحتشدون من المكان ما عدا المؤمنين المعتمدين وحدهم . فاجتمع هؤلاء حول طاولة موضوعة إلى جانب القاعة و مقطأة بقماشة بيضاء . وبعد رفع الصلاة ، وضع العابدون تقدماتهم على الطاولة : خبز و خمر ، و نادراً المال ؛ كما أن العتب والزيت والحبوب ، كانت من العطايا المقبولة أيضاً . ثم صلّى الناظر ثانية ، وبعد ذلك حمل المديرون إلى أعضاء الكنيسة الخبز والخمر المخفف ليشاركونه جميعهم في إحياء ذكرى مخلصهم . ثم يتمّ جمع ما تمّ تقاديه من الطعام ليُصار إلى توزيعه على الفقراء . كان هذا ، الاحتفال الأسبوعي العظيم لجماعة المؤمنين المسيحيين ، ذلك لأن فريضة مائدة الرب هذه ، كانت محور حياة الكنيسة و عبادتها .

يأتي عيد القيامة مرة واحدة في السنة فقط ، والاحتفال بهذا العيد ، كان أعظم الاحتفالات ، وكان يدور عده أسبوع . و كان الكثيرون يختارون مثل هذه المناسبة ليعتمدوا . كما أن آخرين من الذين اعترفوا بخطاياهم الكبيرة ، كانوا يأتون في هذا الموسم طالبين المغفرة والعودة إلى شركة الكنيسة . كان المسيحيون يصومون خلال ساعات النهار ، و ذلك على مدى الأربعين يوماً التي تسبق عيد القيامة . كما أنهم كانوا يصلون و يدرسون عقائد الإيمان . و خلال هذه الفترة ، كان أسطفانيوس يعظهم عدة مرات في الأسبوع . كان يتحدث مباشرة إلى أولئك الذين يرغبون في الاعتماد محاولاً في الوقت عينه أن يستثنى منهم من كانت بواطنهم مريبة و تدعوه إلى الشك . و كان يفرض على الراغبين في العمودية أن يتحجّبوا بمحاسن العالم الوئي و ما يحتويه من تمارسات فاسدة وألا يشتراكوا في الشرور التي تُركب في محيط المسارح والميادين العامة . كذلك كانوا في أثناء هذه الأسبوع ، يستظهرون قانون الإيمان واعدّين بتطبيقه في حياتهم بكل إخلاص .

اما في الأسبوع الأخير ، فكانوا يدرسون معًا بالتفصيل بنود الصلة الربانية جميعها ، مع التشديد بشكل خاص على الطلبة « واغفر لنا ذنبينا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبينينا ». ¹ و مع اقتراب حضور أحد القيامة ، كانت حرارة الإيمان تشتد أكثر فأكثر . كان المؤمنون ينقطعون عن الصوم في الخميس الذي يسبق يوم القيامة مباشرة ، كما أن المرشحين للمعمودية كانوا يقصدون الحمامات العامة استعداداً لليوم العظيم . وفي يوم الجمعة والسبت كانت الكنيسة بجملتها تصلي وتصوم معهم .

و مع حلول مساء يوم السبت ، كانت تباشير الليل تلوّح بحلول أحد القيامة ، و يبدء الاحتفالات . فليس المسيحيون أفضل ثيابهم ، و تجتمعوا في الباسيليaka المضاء بعدد لا يُحصى من المصايب . ثم ثُرأ في الكتاب المقدس بدءًا من الخلق ، ثم عن آدم و حواء في الجنة ، فحادثة عبور البحر الأحمر ، و أشودة مرريم ، و قصة يونان ، و هلّم جرًا حتى الوصول في نهاية المطاف إلى موت المخلص و قيامته . و من حين إلى آخر ، كان يقطع ذلك فترات تُخصص لترتيب المزامير والترانيم التي تقوم بها الجماعة . ثم يلي ذلك ، الموعظة التي قدمها أسططينوس ، و التي فيها أثار انتباه العابدين إلى الأحداث الكتابية في قديم الزمان إلى الوقت الحاضر . و أخيراً ، توجه في كلامه إلى أولئك الذين يرغبون في أن يعتمدوا . عندئذ قام كل واحد منهم بدوره ، و اعترف جهاراً بياديه بال المسيح مصرحاً عن رفضه للشيطان و لكل أباطيله . و بعد هذا ، كانوا يستقلون جميعهم في موكب واحد إلى بيت المعمودية الكائن في هيبو في بناءٍ أخرى قريبة . و في أثناء فترة انتظارهم هناك ، كانوا يرثمون كلمات المزمور 42 الذي مطلعه : « كما يشقق الإيل إلى جداول المياه ، هكذا تشناق نفسي إليك يا الله . »

كان حوض المعمودية يُشيد من الحجارة بشكل مثمن الزوايا ؛ كانت أرضه و جوانبه ملتبسة بالفسيفاس ، و على جانبيه درجات تؤدي إلى الماء الدافيء . خط المعتمد الأول بحذر و تؤدة إلى الحوض ، فاستقبله الناظر هناك بوقار ، و صمت للحظات ، ثم سأله : « هل تؤمن بالآب ؟ » فأجابه : « نعم أنا أؤمن » ، عندئذ صبَّ الناظر على رأسه كأساً من الماء و هو ينطق بالكلمات التالية : « أنا أعتمدك الآن باسم الآب » ؛ ثم سأله ثانية : « هل تؤمن بالابن ؟ » فأجابه المعتمد : « نعم أنا أؤمن ! » ، ومرة ثانية صبَّ الناظر الماء على رأسه و هو يقول : « أنا أعتمدك الآن باسم الابن » ؛ ثم سأله ثالثة : « هل تؤمن بالروح القدس ؟ » فأجاب : « نعم أنا أؤمن . » ومرة ثالثة صبَّ الناظر الماء على رأس المعتمد و هو يقول : « أنا أعتمدك الآن باسم الروح القدس . » و إذ خرج المعتمد الأول من الماء أخذ الثاني محله .

ثم حصل كل مسيحي اعتدلتْه ، على رداء من الكتان الأبيض . و وقف المعمدون في صف واحد فرسم الناظر إشارة الصليب على جباههم بواسطة الماء الموجود في حوض المعمودية ، من ثم وضع عليهم كلتا يديه ليحصلوا على الروح القدس . ³ و بعد ذلك رجعوا في موكب إلى الباسيليaka حيث يشكل لهم الحليب و العسل رمزاً لقبولهم في أرض الموعد . ثم ،

وللمرة الأولى ، سمح لهم بأن يشاركوا في العشاء الرياني أو كسر الخبز . وإذا يشقّ الفجر خيوطه فوق المدينة ، تكون الاحتفالات قد أشرفت على نهايتها ، فيبدأ المحشدون بالعودة إلى دورهم ، منهكين ولكن فرحين ، وملوئين بالحب لربهم ، والاخواتهم وأخواتهم المسيحيين .

ولاحقاً ، في ذلك الصباح عينه ، عاد هؤلاء الذين اعتمدوا لتوّهم ليجتمعوا في الباسيليaka حيث قام أغسططينوس بتشجيعهم على أن يعيشوا بقية حياتهم بقداسة وصفاء قلب . كما أنه حثّهم على البقاء مخلصين للرب يسوع المسيح ولكتبه . أمّا الأسبوع التالي ، فهو أسبوع عطلة يحيون فيه مهرجاناً يسوده جو بهيج و مليء بالطمأنينة . وفي كل يوم منه ، اجتمع المؤمنون الجدد في الباسيليaka ، وعليهم رداءهم الأبيض ، حيث علمهم الناظر عمّا يتعلّق بالتراثات الحية المسيحية وامتيازاتها .⁴

كانت معمودية الماء ترمز دائمًا إلى الدخول في الإيمان المسيحي . ولكن مع مرور الوقت ، علقت أفكار غريبة بهذه الممارسة . ولعل المعمودية هي أكثر التعاليم والممارسات الرسولية التي اعتنت بها الكنائس المحلية . وبحلول عصر أغسططينوس ، بدأ الناس يعتقدون بأن المعمودية تفصل الخطايا السابقة . وهكذا راح الحذرون في أمور الدين بينهم ، يؤجّلون أمر معموديتهم حتى يعلموا بالتأكيد أنهم قد اقترفوا كل خطاياهم . من أجل هذا لم يرض الإمبراطور قسطنطين إن يعتمد إلا عندما أصبح على فراش الموت .

كان أغسططينوس ، كالكثيرين من أبناء جيله ، يعتقد أن المعمودية هي ضرورة للخلاص : فإذا مات المسيحي قبل معموديته ، سوف لن يجد له مكاناً في السماء .⁵ وفي أوقات الأزمات - أوئلة ، ثورات ، غزوات ببرية - كان الملايين من الناس يُهرعون إلى بيت المعمودية . ففي مدينة سيبستييفس (سطيف) ، وعلى أثر هزة أرضية ضربت المكان ، راح الناس يتظرون دورهم أمام حوض المعمودية ؛ وارتفاع عددهم حتى بلغ نحو ألفي شخص . إننا لا نعلم تماماً كيف وقفوا بين هذا المعتقد وتعليم كلمة الله الصريح بأن الإنسان يخلص بالإيمان ، لا بالمعمودية .⁶ وقد يعجب أحدنا كيف أن النص التائب على الصليب حصل من المسيح على تأكيد بأنه سيكون مصيراً للفردوس ، مع أنه لم يعتمد فقط !

وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يخشى أن يموت بشكل مفاجيء من دون أن يكون مستعداً . وعلى هذا الأساس طلبوا أن يعتمدوا في أقرب فرصة ممكنة عوضاً عن تأجيل هذه المسألة إلى آخر لحظة . حتى إنهم توصلوا أيضاً إلى أن يعمدوا الأطفال الذين لم يكونوا يدركون أي شيء بشأن هذه الممارسة ، أو بشأن ما يجب أن يرافق هذه المعمودية من توبية وإيمان شخصي ، كما تعلم كلمة الله . لقد قالوا إن الطفل الذي يموت من دون معمودية هو لا بدّ هالك : بما أنه لم يكن له نصيب في الكنيسة ، سوف لن يكون له أي نصيب في السماء .⁷

إن كلا الخطأين - إن يطلب المرء بسرعة فائقة المعمودية ، أو أن يتأخر فيؤجلها أكثر من اللزوم - ينبعان من مفهوم واحد مغلوط : إن المعمودية هي « سر » يحدث تغييرًا في حالة المعتمد الروحية ، و ذلك إما بتأكيد خلاصه وإما بتطهيره من الخطية . و نتج من ذلك أن كثيرين من الذين تعتمدوا على عجلة ، سواء أكانتوا من الأطفال عند الولادة ، أم من الكبار في وقت الأزمات والأمراض الشديدة ، باتوا يظنون أنفسهم أنهم مسيحيون حقيقيون ، مع كونهم لم يعرفوا ، في الواقع ، من الإنجيل إلا القليل ، ولم يطبقوه قط في حياتهم .

و أسطنطينوس نفسه ، كما رأينا قبلًا ، لم يكن قد اعتمد وهو طفل ، مع كون امه مسيحية مؤمنة . وقد طلب مرة ان يعتمد عندما ألم به مرض وهو فتى ، إلا انه لم يعتمد فعلاً إلا بعد أن أصبح انساناً بالغاً . لقد جاءت معمودية أسطنطينوس كسائر المعموديات المذكورة في العهد الجديد ، لتأكيد إيمانه الشخصي بالمسيح و تصميمه على اتباعه .

كان تصور الجماعة المسيحية للزواج يختلف كثيراً عن التصور الوثي . إذ يقرب أكثر بين الزوجين ، و ذلك في علاقة حميمة للغاية . كان ترتوليانيوس قد أصرّ منذ بدء عهده على ضرورةأخذ موافقة الطرفين المعنيين بالأمر قبل الإقدام على الزواج . و اعتبر أنه لا يجوز تزويج الأبناء والبنات على الرغم من ارادتهم ، كما انه يجب الأخذ باستحسانهم الشخصي في أي مخطط تزويجي قد يرسمه الآباء . و ما ان يعطي كلا العروسان موافقتهما الطوعية على الزواج ، حتى يجري عقد قرانهما على مدى الحياة . لم يكن أي تدبير للطلاق بين المسيحيين .

كان الزواج يتضمن تبادل التعهادات والوعود الثابتة بالحفاظ على الأمانة الزوجية . كان والدا كل واحد من العروسين ، هما المذكورون يحضرانه شخصياً . ثم بطريقة رمزية ، كانت امرأة متزوجة تجعل يد العروس اليمنى في يد العريس اليمنى ، ثم يقوم العروسان بعد ذلك بوضع يديهما المشبوكتين على العهد الجديد ، فيياركمها الناظر ويصلي من أجلهما . ثم يتلى عقد الزواج . لقد وقع أسطنطينوس أولئك الذين يطلبون مهوراً و هبات . و اعتبر أنه من الأفضل بكثير ان نكتفي « بالهة الأبدية التي صارت لنا في شخص المسيح » . ثم يتبع الزواج احتفالات تستمر لسبعة أيام . كان المسيحيون في أثنائها يستمتعون بالشركة المقدسة معاً ، بالمقارنة مع انقسام الوثنين في الفسق والسكر في مثل هذه المناسبة .

لم يكن احترام الزوجة في المجتمع المسيحي يقلّ عن احترام الزوج . و كانت الجماعة المسيحية تحرص على ضمان تقيدهما تماماً بالتعهادات التي كانوا قد قطعاها بملء حريةهما . إن هذه المساواة لم يشهد لها مثيل بين الوثنين : كان هؤلاء يتوقعون من المرأة ان تكون عفيفة خاصة ، ولكن كان للزوج الحق بأن يتصرف كما يشاء . كان القانون الروماني يجيز للرجل ان يطلق امرأته بسبب العقم أو الزنا ، لكن هذا الأمر كان محظوراً على المرأة . لقد توجه أسطنطينوس الى الأزواج المسيحيين بهذه الكلمات : « ليس مسموحاً لكم بأن تعاشروا خليلات . كما انه لا يحق لكم ان

قانون الزوجين بنساء متزوجات لا يزال أزواجاً حياءً . إن قانون المحاكم العمومية الرومانية ليس هو
قانون المسيح .^{8*}

كان يتم تشجيع الشباب والشابات على أن يقدموا على الزواج في سن مبكر . هذا لأن المسؤوليات العائلية سوف تساعدهم على الاستقرار ، وعلى تهذيب شخصياتهم . كانت البنات تُرْكَ في بعض الأحيان في عمر الخامسة عشر ، لكن ذلك لم يكن مألوفاً . كانت مونيكا ، أم أغسطسبيتوس ، قد تزوجت في الثانية والعشرين من عمرها ، الأمر الذي دفع ابنتها في ما بعد إلى أن يوتح زواجهما المتأخر . كان الزوج في سن الشباب حسناً ، لكن هذا لا يعني الاندفاع إلى الزواج بمجلة ، و من دون تفكير : لأنه عندما يُعقد الرباط ، لا يعود من الممكن فكه . لقد خاطب أغسطسبيتوس « أصدقاء الشباب » بهذه الكلمات : « فكروا مليأ ! انكم تقيدون ارجلكم بسلسل حديدية . فلا تسرعوا في الالتزام بها . لا تنتظروا مني ان احل لكم هذا الرباط ، لأنني سأضطر عندذاك الى تثبيته بأكثر إحكام . ٩

كانت الاعتبارات الاجتماعية تدفع الأهل في بعض الأحيان إلى تدبير زيجاتٍ مع الوثنيين . وهذا ما حصل لموئلها ، وقد سبب لها ذلك الكثير من الأسى والحزن . كان ترطيليانوس قبل قرنين من ذلك ، قد تحدث باللهجة القاسية نفسها عن كلّ من موضوع التزاوج بين المؤمنين والوثنيين ، وموضوع الزنا والفحشاء : الشر الذي يجب على المؤمن المسيحي أن يتجنبه بأي ثمن . وكيريانوس ، المعروف بأنه أكثر لباقة ، اعتبر على الرغم من ذلك ، أن مثل هذا الزواج بين المؤمنين والوثنيين هو خطأٌ بالغ الخطورة . فالسيحي المؤمن الذي يقترب بشخص غير مؤمن ، سيعرض نفسه لضغوط وتجارب لا حد لها - طقوس الزواج الوثنية المشيرة للأشمئزاز ، والانحلال الجنسي الواقع ، السكر والعربدة - هذا بالإضافة إلى المطالب التي تفرضها كل من عبادة الأصنام وخرافات مذهب حيوة المادة ، والتي تشمل كل المجالات . فالبيت سيلتس بأصنام الآلهة الوثن ، والطعام يقدم مع الخمر المدعى لتقديمات الآلهة الوثنية ، كما ان المحاديث على المائدة ستُنسَد من جراء الشكّات الرديئة القبيحة ، و التجحّات الوثنية اللاعقلانية . كذلك فإن الشريك المسيحي ، لا يمكنه ان يتوقع من شريكه العالمي الذي يملأ البيت بأصحابه المغروبين وأقرانه الطعاميين ، ان يكون صبوراً ولطيفاً . كانت الزوجة المسيحية ، وبخاصة خلال زمن الاضطهاد ، تعتبر نفسها محظوظة جداً إن كان زوجها الوثني يسمح لها بحضور اجتماعات الكنيسة ، او بتلقين أولادها الحق المسيحي . 10

رفض اغسطينوس ان يُزوج فتاة شابة كانت الكنيسة مسؤولة عنها ، الى وهي رغب في الاقتران بها . كتب الرسول بولس في هذا المجال : « لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . »¹¹ لا يمكن ابداً للوثنيين والسيحيين ان تتفق وجهات نظرهم حول عدّة مسائل كمسؤوليات كل من الزوج والزوجة مثلاً ، وطرق إنفاق المال ، وأسلوب تربية الأولاد ، وغيرها . كذلك ، فالوثني لا يلتزم ابداً المقاييس المسيحية ، وهذا ما أكدته مونيكا جداً .

نظر الشعب الوثني الى الكنيسة نظرة استهزاء ، متسائلين ، هل اعضاء الكنيسة هم حقاً شعب الله الخاص ؟ و اتى لهم أن يتأكدوا بأنهم وحدهم على حق ؟ و إذ استفهم احد متقددي أسطينوس منه عن السبب وراء عدم حصول معجزات في أيامه كما كانت عليه الحال في زمن بداية الكنيسة ، رد عليه أسطينوس بالقول : « كانت هذه المعجزات ضرورية آنذاك قبل ان بدأ العالم يؤمن ، و ذلك لمساعدة العالم على الإيمان ». ¹² أمّا الآن ، أردف أسطينوس يقول ، فالإيمان أصبح سهلاً ، لاته بات يقدر أي إنسان ان يستمع بملء إرادته الى التوضيحات الكاملة المقنعة عن الأخيل . إن الذين يطلبون المعجزات الآن ، هم لا يفعلون ذلك إلا بقصد التشكيك بمعجزات الماضي .

ولكن ، يصرّح أسطينوس ، فالحدث فعلاً ، هو ان المعجزات لم تتوقف ! « بل في الواقع ، و حتى في أيامنا ، توجد معجزات كثيرة تُصنع باسم المسيح . » ربما لا يعرف الجميع بها ، لأنها غير مكتوبة ، كما انه لا يوجد من يقوم بالدعابة لها . و مع ذلك ، « فإن المسيحيين الآمناء ينقلون الخبر ، ويرونه اناساً آمناء آخرين . » أمّا في ما يتعلق بالمعجزات المدونة في الكتاب المقدس ، فهي معروفة ومشهورة للغاية ، و يستطيع أي إنسان ان يقرأ عنها . و بالمقابل ، نجد ان المعجزات التي تحصل الآن ، هي معروفة فقط في اوساط الكنائس المحلية او العائلة المسيحية ، حيث تحدث هذه المعجزات و تجري .

ثم تابع أسطينوس قائلاً : « لقد حدثت إحدى المعجزات في ميلاتو حين كنت هناك ، حيث ان أحد العبيان استعاد نظره . كان قد احتشد جموع كبير لرؤبة جشعي الشهيدين بروتاسيوس و جرفاسيوس (Protasius, Gervasius) ؛ و حصلت هذه المعجزة في حضور هؤلاء الشهود جميعهم ». و في قرطاجة نفسها ، كان هناك رجل مريض يتألم من البواسير يُدعى إثنت (Innocent) ، فشل الأطباء في مداواته فشارف على الموت . لقد شفّي عاماً بعد أن صلّى الشيوخ لأجله . وأضاف أسطينوس ، « أنا أشهد لذلك لأنني كنت حاضراً في المكان . »

و في المدينة نفسها ، كان هناك ايضاً امرأة تدعى إِنْسِتِيَا (Innocentia) ، وقد شفّيت من مرض سرطان الثدي المستعصي ، بعد أن أُعلن لها في حلم أن تطلب من احدى النساء ، و هي خارجة من حوض العمودية ، ان تلمس لها المكان المصاب و ترسم عليه إشارة الصليب . و هذا ما حصل ، فشفّيت إِنْسِتِيَا للحال . تنتهي قصة هذه المرأة بشكل غريب ، حيث ان الطبيب الذي عاينها بعد شفائها ، عاد فاستفهم منها عن الكيفية التي حصل فيها شفاؤها المعجزي ، وبالكامل ، خصوصاً و انه سبق له أن أعلمها بأن حالتها ميؤوس منها . و حين اخبرته عمّا حدث ، ظهر و كأنه غير مبال ، الأمر الذي جعلها تظن بأنه سوف يبدأ يذمّ المسيح او يستخف به . «حسناً» ، قال الطبيب بجدية ظريفة : « لقد اعتتقدت انك ستخبريني عن شيء استثنائي

ملفت! » و إذ لاحظ ان السيدة المسكينة بدأت تزعج و تقلق ، أردد يقول لها بسرعة : « ما الذي يedo خارقاً في قدرة يسوع على الإبراء من مرض السرطان ، و هو الذي سبق له أن أقام من الأموات رجلاً بعد أربعة أيام من موته؟! » لقد كانت هذه السيدة نفسها تحفظ في أن تخبر الآخرين عن شفائها هذا ، إلى أن شجعها أغسطينوس شخصياً . ثم علق أغسطينوس بالقول إن كثيرين مجذدوا الله بسيتها .

يسرد أغسطينوس بكثير من التفصيل قصة سبعة اخوة و ثلاث اخوات في كنديوكية بآسيا ، كانوا يعانون مع والدتهم حالة من العوز و الفقر ، و ذلك بعد موت الوالد الذي كان رجلاً له منزلة في المدينة . أساء هؤلاء الأولاد معاملة أمهم ، وقد بلغ بها الاستياء و الغيظ جداً جعلها تلعنهم . وعلى أثر ذلك ابتلوا جميعهم برجمة مستمرة في اطرافهم . و اذا لم يعودوا يتمكنون من مواجهة اصحابهم و معارفهم ، تركوا المنزل و مضوا هائلين على وجوههم ، من مكان الى مكان . وصل اثنان منهم ، أخ و أخيه الى هيبو ، وذلك قبل أسبوعين من عيد القيامة . و هكذا بدأوا يحضرون الاجتماعات كل يوم ، سائلين الله أن يغفر لهم و يعيد لهم صحتهم السابقة . وفي كل مكان في المدينة توجهوا إليه ، كان الناس يحدّقون إليهم . و كل من عرف قصتهم ، راح ينقلها الى الآخرين . و مع حلول صباح عيد القيامة ، كان ذلك الشاب واقفاً مسكوناً بالضريح الذي كان يحوي رفات الشهيد المسيحي الاول استفانوس . « و فجأة سقط الشاب صريعاً على الأرض » ، يقول أغسطينوس ، « و ظل هناك و كأنه يغطّ في نوم عميق ، ولم تعد تتباهي أية رجمة في اطرافه كما كان يحصل له دائمًا حتى في أثناء نومه . لقد ذهل الحاضرون . و تلك بعضهم النزور ، أما بعدهم الآخر ، فرثوا حاله . » و ما إن همّوا بمساعدته على الوقوف ، حتى نهض بنفسه فجأة . لم يعد يرجف . لقد شفّى تماماً ، و هو يقف أمام الجميع متعرضاً . من كان بوسعه في ذلك الوقت ان يُحجم عن تمجيد الله؟! لقد امتلأت أرجاء الكنيسة كلها بصرخات الشكر . وللوقت هرعوا الى المكان حيث كنت جالساً لينقلوا إلى ما حصل . » بعد هذا ، حضر الشاب وأرى نفسه لاغسطينوس . و عندما استأنفوا الاجتماع ، كان المكان « يرن و يرجج بصيحات الفرح : " الحمد لله ! المجد لله ! " »

و بعد ثلاثة أيام ، اجتمعت الكنيسة لتستمع الى قراءة عامة لقصة هذا الشاب ، بينما كان يقف مع أخيه في مقدمة القاعة . « وكان جميع المحتشدين من رجال و نساء ، يبتئلون أعينهم محدقين إلبيهما : الشاب واقف من دون أية حركة غير طبيعية في اطرافه ، في وقت كانت أخيه ترتجف وترتعش . لقد بات بإمكان أولئك الذين لم يروا بعد عمل رحمة الله في حياة هذا الشاب ، أن يدركوا هذا الأمر الآن بعد معاييرهم لحالة أخيه . » عند الانتهاء من القراءة ، طلب أغسطينوس من الأخرين ان ينزلوا ريشما يخاطب الجماعة . « بعد هذا و بينما كنت انكلم ، » قال أغسطينوس « عادت تسمع بصيحات الشكر عند ضريح الشهيد ! » هذا لأن الفتاة كانت قد قصده للصلوة . « و حالما لمست سياجه ، سقطت على الأرض و كأنها نامت ، تماماً كما

فعل أخوها ، و هكذا قامت وقد ببرئت من دائها . وإذا رحت استفهم عما حصل ، وعن سبب الضجة و كل هذا الفرح ، عادوا معها . . . وهي في صحة تامة ! وللوقت تعالت بالطبع صيحات الاندهاش ، و هكذا استمر الصراخ ممزوجاً بالدموع ، حتى بدا انه من المستحيل ان يتنهى ابداً . . . كانوا يتوجهون ، إذ راحوا يستجرون الله بصرخات خالية من الكلام محدثين بذلك ضجة عظيمة ، حتى صعب على اذني تحملها . »

ذكر أغسططينوس ، وبالتفصيل ، العديد من معجزات الشفاء هذه بالإضافة إلى حوادث أخرى حصلت بفعل العناية الإلهية . إنها روايات رصينة وحقيقة لأحداث عرفها و شهدتها هو شخصياً . يبقى على المؤرخ أن يسجل أن أغسططينوس ، مع كونه ذلك الرجل المتعلم و الفطن ، آمن بصحتها كما انه نسبها إلى قدرة الله المتعة . و فوق هذا ، كان يرغب في ان يعرف الناس بها . كتب يقول : «لقد اهتممت بنشر مثل هذه الروايات لأنني رأيت باستمرار في أيامنا الحاضرة علامات القدرة الإلهية ، كما كانت تُعمل في أيام القدم . فشعرت أنه لا يجوز ان تفرق هذه في بحر النسيان ، ولا يعود أحد يأبه لها». ¹³

ملاحظات

5:9 - مرقس

2:6 - متى

3 - لقد تم في الفصل 15 بحث الفكرة المبتدعة القائلة بقبول الروح القدس بواسطة وضع يدي الناظر .

4 - يقدم لنا Hamman (pp. 245 - 264) وصفاً للاحتجالات بالمعودية في ميرو .

5 - طبعاً ، لقد جعل هذا الاعتقاد النزاع يعتمد بين كيريانوس ونوفاتيان ، حيث كان كل فريق يعتبر ان معنويته وحلوها هي الصحيحة والفعالة في نظر الله .

6 - أفسس 8:2

7 - 7 HOTCC Vol. II pp. 258 - 262 ; Foakes-Jackson p. 509 . يُذكر أحياناً أن إيريناوس Schaff (Adversus Haereses) (نحو 130-200) ، كان أول من كتب شهادة صريحة لممارسة معنودية الأطفال (II 22:4 ; Schaff p. 259) لكن هذا النص موضوع الجدل هو غامض ، والمعنودية الوسيدة التي يذكرها هي المتعلقة بال المسيح (كرجل بالغ) والتي ثُبتت على يدي يوحنا .

كان ترتوليانوس يعارض فكرة معنودية الأطفال وذلك لأسباب استعريضاً عنها في الفصل السادس

18 - De Baptismo . بالمقابل نجد أن كيريانوس دعم بكل وضوح هذه الممارسة Epître 58 . كان يؤمن على

غرار أغسططينوس بأن كل طفل يولد وقد ورث الخطيبة الأصلية (الطبيمة البشرية الساقطة) ، و هكذا يدخل

العالم مُدانًا ومحكومًا عليه بالهلاك الأبدي . ولا يكون للطفل أية فرصة للخلاص إلا إذا اغسل أولاً من الخطيبة الأصلية

بواسطة المعنودية . لقد اعتبر أغسططينوس أن الطفل غير المعمد يضي إلى الجحيم . (Chadwick p. 111)

أما بلاجيوس ، فرفض بسهولة فكرة أن الأطفال يولدون ممحوماً عليهم ، ذلك لأنه علم بأن البشرية لم تسقط نتيجة خطبة آدم . يرى المسيحيون الإنجيليون هنا إحدى أخطاء بلاجيوس . لكن بوبيان الأثلاجومي (Julien d'Eculainum) ، وهو من اتباع بلاجيوس ، ومناوي لاغسطينوس بشكل مباشر ، اقتبس من تعاليم ترطوليانيوس في تشديده على أنه لا يمكن تصور أن الله العادل يقوم بمعاقبة طفل بريء على خطايا لم يقترفها . (Brown p. 391-397).

إن عددًا كبيراً من المسيحيين في أيامنا ، يرفضون عقيدة أن الأولاد غير الممتنين هم هالكون لا محالة . فالأطفال بما في ذلك أيضًا الجين الذي يموت قبل ولادته ، هم بكل وضوح عاجزون عن معرفة إرادة الله أو عن إدراك إنحسار الخلاص . والطفل نفسه لم يتعدَّ على توجيهات الضمير الناضج ؛ ولا كسر ناموس الله ؛ ولا حتى رفض المخلص . كما أنه لا يقدر على التمييز بين الخير والشر قبل بلوغه سنًا معينة (اشعياء 16:7) . وعندها فقط سيقوده ميله الموروث إلى الخطية ، سيقوده إلى انتراف الخطية فعلًا . وفقط حينما يخطئ ، يفصل عن الله .

إن الكتاب المقدس يصرخ في الواقع أن الأطفال هم إلى حد ما أقرب من ذويهم إلى ملكوت الله . قال رب يسوع : «دعوا الأولاد يأتون إلىّي ولا تنعوهم لأنَّ نَهْلَ هُؤُلَاءِ ملَكُوت السَّمَاوَاتِ . الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ مَنْ لا يَقْبِلُ ملَكُوت الله مثْلَ وَلَدٍ قَلْنَ يَدْخُلُهُ» (لوقا 18:16 و 17) .

Sermon 392:2 (Hamman p. 95) -8

(Hamman p. 93) *Ennarationes in Psalms* 149:15 -9

10 - Schaff HOTCC Vol. II p. 366 . إن حالة الرجل أو المرأة المترندين بشريك غير مؤمن وذلك قبل التجديد ، كانت بالطبع مختلفة تماماً . يلاحظ ترطوليانيوس أنه عندما تهتمي زوجة وثنية إلى المسيح ، سرعان ما سيرى زوجها الوثنى تغيراً فيها نحو الأفضل . ولكن ، عندما تقوم فتاة مسيحية بالاتزان بوتني ، سرعان ما سيرى حظ تغييراً فيها نحو الأربد . إنه لأمر شريف لمن هو في طين الحسناً أن يعبر إلى السماء ، ولكن من ينزل براراده إلى المستنقع فهو مجنون ، ويستحق أعنف توبيق . *Ad Uxorem* 2:4 - 6 -11

16 - 14:6 2 كورنثيوس

De Civitate Dei 22:8 -12

De Civitate Dei 22:8 -13

الفصل السادس والعشرون

الكاتب المبدع

كانت كتابات أغسطينوس الأولى موجهة بشكل واسع إلى المانيسين (Manichéens)، وإلى اتباع الأفلاطونية المحدثة (Néoplatonistes)، وغيرهم، وذلك لردهم إلى درب الإيمان. إلا أن سجهوده الأدبي اللاحق انصب، في معظمها، في تصحيف بعض الأفكار والعقائد التي صدرت من داخل الكنيسة وليس من خارجها. كان أغسطينوس مستعداً ليشترك في جميع المباحثات التي كانت جارية في أي جزء من أجزاء الامبراطورية؛ إنه لم يحصر اهتمامه بالقضايا الأفريقية المحلية وحدها.

شهدت الفرون الأربعة الاول للتاريخ المسيحي عدداً كبيراً جداً من المباحثات، بالإضافة إلى الكثير من التأملات والأفكار المنطرفة والمنهورة، وبالخصوص في ما يتعلق بالثالوث الأقدس. لقد اشغل قادة الكنائس في مناظرات ومناشطات لا نهاية لها بخصوص موضوع إمكانية وجود الله واحد في ثلاثة أقانيم. وفي بعض الأحيان كانت تصل المحاولات إلى تعريف شامل كامل بطبيعة الله، إلى أبعاد سخيفة؛ ولم يكن أحد يقدر على تفهم هذه الصيغة الغريبة والمهمة إلا علماء اللاهوت أكثر إطلاعاً وعرفة. فهل من قائلة تُرجى من هذه الصيغة بالنسبة إلى المسيحي العادي القابع في معمله أو حقله؟

إلا أن بعض الميل العماية بدأت تظهر في الجماعات المسيحية في أماكن مختلفة. هذا لأن مناطق مختلفة من الامبراطورية راحت تشهد بشكل تدريجي اختلافاً في التشديد على بعض المفاهيم، وذلك تحت تأثير نفوذ بعض المعلميين المحليين أو التقاليد اللاهوتية. وحيث كانت النية تسجه في الشرق (آسيا الصغرى، سوريا، والاسكندرية) لإظهار الفوارق في داخل الثالوث، برع من جراء ذلك خطأ اعتبار الأقانيم الثلاثة كثلاثة آلهة. أما في الغرب (أوروبا وأفريقيا)، ف غالباً ما تم التشديد على وحدة الله، وذلك على حساب تجاهل ميراث كل واحد من الأقانيم. لقد جرى تقديم توانين إيمان (بيانات عقائدية) متعددة في محاولة لتلخيص عقائد التعليم المسيحي وتسويتها. وكان متوقعاً من قادة الكنيسة أن يخضعوا للقانون المعتمد، ويوقعوا عليه كدليل على استقامة عقيدتهم. وفي ما بعد، بدأت الكنائس في بعض الأماكن تحفظ قانون الإيمان غيّاً، وتلوه في اجتماعاتها الكنسية.¹

إن الصدع الأعمق نتج من تعاليم أريوس (Arius)، وهو شيخ من شيوخ كنيسة الاسكندرية، عاش في بداية القرن الرابع. انكر أريوس الوجود الأزلاني لكلمة الله، رافضاً بذلك

الوهية المسيح . كما اعتقد كذلك أن ابن الله ، مع كونه بلا خطبة ، هو كائن مخلوق ، صنعه الله ، على أنه ليس الله المتجسد . اصطدم آريوس بمقاومة عنيفة لزملاءه هذه ، وقد حصل ذلك في كنيسته نفسها ، وبالتحديد على يد الناظر الإسكندر و خلقه أثنايسيوس (Athanae) اللذين تجادلا معه بعنف ، مؤكدين أن المسيح كان موجوداً دائمًا ككلمة الله السرمدية ، وهو الأقnon الثاني من الالاهوت الأزلي . وفي العام 325 م ، عُقد مؤتمر للناظار عُرف بمجمع نيقا (Concile de Nicée) ، اتّخذ خلاله قرار ضد المبدأ الآريوسي . و صدر في هذا المجمع ما يُدعى الآن بقانون نيقا (Symbole de Nicée) الذي يحتوي على تعريف بجوهر الإيمان المسيحي ، ويشكل خاصَّةً لجنة الطبيعة الإلهية للمسيح . كانت كنائس النصف الغربي من الامبراطورية ، بما في ذلك إفريقيا الشمالية ، موافقة على بيان الإيمان هذا ؛ أمّا تلك في النصف الشرقي ، وبخاصة في آسيا الصغرى ، فقد رفضت هذا البيان . في وقت من الأوقات ، كان اتباع آريوس في القيادة الوandalيين آيدوا موقف آريوس هذا . وهكذا ، بعد غزوهم للولايات الافريقية ابتداءً من العام 429 م ، أصبحت هذه الهرطقة ، ولفترة معيّنة ، الديانة الرسمية في شمال إفريقيا . أمّا غيرها من الهرطقات ، وبشكل رئيس تلك المتعلقة بالوهية الرب يسوع ، فقد بُحثت ، وجرى رفضها خلال ستة مؤتمرات تلت مجمع نيقا .

اعتبر الآريوسيون الرب يسوع أقلَّ رتبة من الله . و من جهة أخرى ، فإن المجموعات المختلفة للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح (Monophysites) ، و من ضمنهم الأقباط في مصر و كنائس آثيوبيا ، فقد قبلوا بألوهية المسيح ، و لكنهم رفضوا و انكروا أن يكون المسيح بالحقيقة إنساناً أيضاً . أمّا النساطرة (Nestoriens) أولئك الذين شاعت تعاليمهم في سوريا و في مناطق أخرى من آسيا ، فهم من جهتهم قسموا المسيح فكريًا إلى اثنين ؛ فقسمٌ منه يشكّل الله ، فيما القسم الآخر يتعلّق بالإنسان ؛ و هكذا باتت تعيش فيه طيّعتان مختلستان . و قالوا أيضًا إن العذراء مريم كانت أم الطبيعة البشرية للمسيح من دون طبيعته الإلهية . كما انهم ادعوا أن يسوع ، في بعض صفحات الإنجيل ، كان يتصرف بصفته الله ، بينما تصرف كإنسان في صفحات أخرى منه . رفض أغسطينوس كلًا من هذه الهرطقات ، آخذًا موقفًا صريحًا إلى جانب أولئك الذين اعتبروا أن المسيح هو إله و إنسان في آن ، و قد اتحدت طيّعتاه في شخص واحد لا عيب فيه .² وافق أغسطينوس بالكلية على البيانات الصادرة عن المؤتمرات الكاثوليكية في أوروبا و آسيا ، و التي قالت إن المسيح كان دائمًا موجوداً منذ الأزل ، و انه كان دائمًا الله بشكل كامل و أنه تجسد و أصبح إنسانًا بشكل كامل أيضًا . لقد قبل أغسطينوس المفهوم الضمني الكامل لتعليم الرسل حيث قالوا : «والكلمة صار جسداً» ، وقد سُمي عن حقٍّ «الإنسان يسوع المسيح» ، لكنه في الوقت عييه الإعلان المنظور و الفريد في نوعه عن الله ، «فإنَّه فيَه بِحلٍّ كُلِّ الالاهوت جسدياً» .³

كتب أغسطينوس أحد أضخم كتبه عن الثالوث ، و هو يوازي في حجمه نحو نصف حجم كتابه « مدينة الله ». لم يوجهه مؤلفه ضد أي خصم معين ، بل كان يضيف إلى مادة هذا الكتاب أفكاره على مراحل ، وذلك في أثناء انشغاله بنشاطاته الأخرى . و هو يخبرنا كيف أنه شرع في تحرير هذا الكتاب حين كان لا يزال يائماً ، لكنه لم ينته من كتابته إلا عندما أصبح شيئاً . لقد بدأت مناقشات أغسطينوس مع الآريوسيين و مراسلاته معهم قبل عدة سنوات من شروعهم بالتدعي على التربية الإفريقية . و لم يتوقف عن ذلك حتى موته الذي حصل قبل دخول قواتهم إلى هيبو .

ستبقى مناظرة أغسطينوس مع بلاجيُوس (Pélage) ملتصقة إبداً باسمه . كانت في جوهرها ، مناظرة إفريقية غوذجية ، وقد اشتقت من الاعتبارات الأخلاقية و العملية ، أكثر من اشتقتها من التأملات المعقّدة المتعلقة بطبيعة المسيح ، والتي طالما فنتت لاهوتني الشرق .

كان بلاجيُوس مواطناً بريطانياً ، لكنه عاش سبعين عديدة في روما . لقد صعّبته أخلاق الناس المنسخة والمنحلة حتى في أوساط المسيحيين ، في هذه المدينة الكبيرة ، وأربكه هذا الأمر تماماً . كما شعر بأن الناس لا يأخذون كلمة الله بجدية و يواجب إطاعتها . كما انه تضليل بشكل خاص عندما سمع أحد النظار يقتبس احدى صلوات أغسطينوس من كتابه « الاعترافات » ، حيث يقول : « أمنحني يا رب نعمة لأفعل ما تأمر ، و مرنني لأفعل ما تزيد ». ⁴ على بلاجيُوس على هذا بالقول إن هذه الطلبة يجعل منها مجرد ذمي بين يدي الله . كما علينا ألا نسأل الله ان يعمل من أجلنا ما قد سبق له تعالى ان طلب إلينا لتفعله بأنفسنا .

شعر بلاجيُوس بوجود نزعة في الكنائس المحلية ، اطلاقاً من النسخ المداولة عن سيرة حياة أغسطينوس ، للقاء مسؤولية كل شيء على الله ، كذرعية لبذل أقل حدّ ممكن من المجهود الشخصي . وقد لام كنائس أيامه إذ اعتبر أنه من المستحبيل السلوك وفق مقاييس الله . قال بلاجيُوس : « نحن نصرخ الى الله ، بداع من قلوبنا الكسولة المزدرية ، قائلين له : " إن هذا صعب جداً و ثقيل علينا . لا نستطيع ان نعمله ؛ نحن لسنا إلا بشراً ، معوقين بضعف الجسد . " فيا للحق الأعمى و التجديف الواقع ! إذ إننا ننسب بذلك الى الله العارف بكل شيء ذنب جهل مزدوج : جهله خلقيته الخاصة ، و وصياغه بالذات . و كأنه نسي ضعف الناس الذين هم عمل بيده ، فقدم لهم على هذا الأساس وصياغاً يعسر عليهم تطبيقها ! » ⁵

اعتبر بلاجيُوس أن خلقيّة الله هي تامة و كاملة . و الإنسان لا يولد شريراً و مستحثنا الإدانة ؛ إنه يولد بريئاً و لا يحتاج إلا إلى التشجيع . لا يوجد خطيبة آدم أي تأثير سلبي فقط في سلامته ، هذا لأن كل واحد منا يبدأ حياته الأرضية ، و عنده القدرة و القوة على عمل الخير ، تلك القوة عندها التي تمنع بها آدم في جنة عدن . إن قصد الله هو أن يبارك الإنسان ، لا أن يدبّه . و إرادة الله لنا جميعاً هي طبعاً ان نسير معه ، و أن نصبح كاملين في المحبة و القداة . و في استطاعتنا ، بكل تأكيد ، أن نفعل شيئاً إذا ما رغبنا في ذلك ، لأنه بما أن وصياغه قد أعطيت لجميع الناس ، لذا

يقدر كل الناس على أن يطيعوها . « و لا أحد يعرف مدى قدرتنا و قوتنا الذاتية أفضل من الله الذي منحنا إياها و ليست إرادة الله ان يأمرنا بما لا نستطيع عمله ، ذلك لأنه إله بار ؛ وبما أنه قدوس ، سوف لن يدين الإنسان عمما ليس في وسعه عمله .⁶

لم يكن بلاجيوس يهتم بطبيعة الإنسان و حسب ، بل بطبيعة الله على نحو أعظم أيضاً . لقد شدد على حقيقة محبة الآب السماوي . ولم يقبل بأي تعليم قد يظهر الله فيه بأنه غير عادل ، لأن يخلق الله الإنسان مثلاً في حالة من الخطية مبسوطاً منها ، ثم يقوم بمعاقبته عليها . اختلف بلاجيوس مع الفكرة القائلة إن ليس باستطاعة الإنسان إلا أن يعصي شريعة الله ، و الله يتحمّل عليه بالتالي أن يكابد غضب الله . و هو يتساءل في هذا المجال : أين العدل في كل هذا ؟ لكنه يعتبر على تقدير ذلك أن الله منح الإنسان الحرية بأن يؤمن أو لا يؤمن ، بأن يطيع أو لا يطيع ، وهكذا بناء على قرار الإنسان الشخصي توقف دينونة الله عليه .

كان بلاجيوس وابناعه مثالين . فقد كتبوا إلى أناس كانوا « يرمدون أن يتغيروا إلى الأفضل »⁷ . و كان هدفهم بالتأكيد إصلاح المجتمع المسيحي كله . كانت هذه الأسواق لبلوغ القداسة و الكمال الأخلاقي قد قادت بعض معاصرتهم إلى الدبر ، و غيرهم إلى الصحراء و قد ألهبت قلوب البلاجيين بالرغبة في حصول نهضة في الكنيسة . اعتقادوا أنه بإمكانهم أن يؤثروا بشكل مباشر في تصرفات المجتمع ، في حال آتوا على الناس بتوجيهاتهم و بتحذيراتهم . كان لديهم أفضل الاهتمام وأرق الشفقة على من حولهم من البشر ، و كان باستطاعتهم الإشارة إلى أولئك الذين وجدوا الخلاص والفرح و القداسة العملية ، من خلال تقديم ولائهم القلبي الكامل للرب يسوع . كانت دولتهم رائعة ممتازة ؛ ولكن هل كانت عقائدهم صحيحة ؟

رفض أغسطينوس مثل هذه الأفكار ، و اعتبر أن السعي لبلوغ الكمال في هذه الحياة هو هدف خادع بعيد عن مثال المسيحي الاعبادي . و على كل حال ، فهو يذكرنا بأن الإنسان هو مخلوق ساقط ، خاطيء بالطبيعة ، و متمرّد يستحق دينونة الله . لقد بذلك معصية آدم ، تماماً ، العلاقة بين الإنسان و خالقه ، كما أنها غيرت مسار الطبيعة بأكمله . أمّا نتائج سقوطه - الموت ، و المرض ، و الخطية - فقد ابتنئت بها سلالته منذ ذلك الوقت . فالإنسان ، بالحقيقة ، يكافح و يناضل من دون جدوى ليعمل الصلاح . انه لا يقدر على ان يطيع الله ، كما انه لا يفهم الحق ، و لا يمكنه ابداً باجتهداته الخاصة ان يجد طريق الخلاص . و عليه ، فحيث ان الله صالح و محب ، فقد أظهر عطفه لأشخاص معينين ، فزرع في قلوبهم بزرة الإيمان ، و منحهم هبة الحياة الأبدية .

تمت إدانة كتابات بلاجيوس في عدة مؤشرات عُقدت في إفريقيا و في أماكن أخرى ، على الرغم من أنها حظت بالتأييد في فلسطين . كما أنه تم إقصاء العديد من النظار بعيداً عن كنائسهم بسبب تأييدهم له . زار بلاجيوس مدينة هيپو مرة ، و ذلك كلامجيء من غزو القوطين لروما ، ولكن من المؤسف ان أغسطينوس لم يكن في ذلك الوقت في هيپو ، و هكذا لم يستطع هذان

الرجلان ان يجتمعوا قط لمناقشة اختلافاتهما .⁸ لم يكن بلاجيوس يرغب في أن يؤسس طائفة او كنيسة خاصة به ، و هو اعتبر ان هذه المسائل عويسقة و غامضة ، وقد يختلف الرجال الصالحون بشأنها . أما أغسطينوس و أولئك الذين تبعوه منذ ذلك الحين ، فقد كانوا بشكل عام ، أقل تسامحاً مع خصومهم . و مع ذلك ، يبقى أغسطينوس يستحق احتراماً التام على كياسه و كرمه تجاه الذين لم يوافقهم الرأي .

وعلى الرغم من هذا فقد شعر أغسطينوس بأن العقيدة التي تخير الإنسان بين القبول بمشيئة الله أو برفضها ، هي هرطقة خطيرة . فهو يشدد على حقيقة سيادة الله المطلقة ، الله الذي يسيطر على كل الأشياء ، الذي لا يمكن مقاومته مشيئته . وعلى هذا الأساس بنى أغسطينوس لاهوته بخصوص الخلاص على متنق جازم و حاسم . الله يعلم ما سوف يحدث ، ولا شيء يحدث ضد مشيئته : لذلك فإنه تعالى يقرر ما الذي سيحدث . و الله يعلم من هم الذين سيخلصون ؛ و لا يمكنهم أن يخلصوا إلا بعمته ؛ عليه ، فالقرار هو قراره ، وليس قرار البشر . إن علم الله السابق هو غير محدود ، كما ان تدبيره لا يقاوم ، لذا عين الله بعض الناس للسماء و آخرين بجهنم ، حتى قبل ان يولدوا . و لا يمكن لأي انسان أن يهلك إن كان الله قد سبق و عينه للهلاك .⁹ كما انه لا يقدر على ان يخلص إن كان الله قد سبق و عينه للهلاك . وقد حدد الله سابقاً عدد الذين سيخلصون ؛ ثمة « عدد معين للمختارين ».¹⁰ وأما الباقون ، فلياتهم لن يتمكنوا أبداً من الحصول على الخلاص ؛ إنه محكوم عليهم بالعقاب الأبدي ؛ ذلك لأن « الله بترتيب خفي ، لكن عادل ، قد سبق و عين بعضهم ليكافدوا هذا العقاب النهائي ».¹¹

قد يظن الإنسان أن له الخيار ، ولكن في الواقع لا خيار له . و أغسطينوس يؤكد لنا ان كل ذلك هو للخير . هذا لأنه لو أعطي الإنسان الخيار ، لاختار بالتأكيد الشر وفضله على الخير . ومن حسن حظنا ان خلاصنا لا يعتمد على قرارنا نحن . وبصرخ أغسطينوس بالقول : « إن حرية الاختيار عند الإنسان سوف لن تعوده إلا إلى فعل الخطيبة ، هذا في حال أخفيت عنه طريق الحق ».¹² ولكن الله يكشف بنعمته طريق الحق لأناس معينين ؛ إنه يوحى إليهم بشعور من البهجة و الفرح ؛ كما انه ينحوهم الرغبة في الإيمان . « نعمة الله هي التي تحرك إرادات الناس ... إنه تعالى هو الذي يجعلهم يسعون وراء الخير الذي سبق لهم أن رفضوه من قبل ».¹³

وعليه ، فإن مصير الإنسان الأبدى لا يعتمد على اختياره قبول المسيح او رفضه ، بل على ما اذا كان الله قد قرر ان يفدي هذا الإنسان أم لا . و الإنسان يخلص بالإيمان بكل تأكيد ، قال أغسطينوس ، ولكن الإيمان بحد ذاته هو عطيـة إلهـية تـُمنـح لبعضـهم و تـُحـجـب عـن بـعـضـهمـ الآخرـ . فالمؤمن لا يختار الله ، و اما الله هو من يختار المؤمن . و الإنسان لن يستيقـن أو يرـغـب فـي أـن يـتـعـرـفـ

بالله ، إلا إذا زرع الله في قلبه هذا الشوق أو تلك الرغبة . الجميع هالكون ، ولكن نعمة الله قد أعطيت لبعضهم لكي يخلص بعض الناس ، و يُعرف هؤلاء « بالمحظيين » . « إذا ، فالإيمان في بدايته كما في نهايته ، » كتب أغسطينيوس « هو عطيه الله ، ولا يراودن أحد أدني شك ... في أن هذه العطية قد وُهبت لبعضهم ، لكنها مُنعت عن بعضهم الآخر . »¹⁴

لم يكن أغسطينيوس يتوقع أن يكون قطبيه متخرجاً من الخطيئة ، كما أن وعده لم يعطهم أملاً في ذلك . لقد دعوا إلى تجنب الكبائر التي لوثت المجتمع الوثني ، لكن عليهم أن يتყعوا دائمًا الاخفاق في بلوغ مطاليب الله . و ما دام التركيز في هذا التعليم هو على ضعف الإنسان لا على قوة الروح الساكن في أعماق المؤمن ، فإنه من الصعب اكتساب رؤية عن القدسية التمثّلة في المسيح . كانت كنيسة أغسطينيوس إذاً مأهولة بالعبد البطالين ، و بالخطاة الذين لا حول لهم و لا قوّة ، وقد نالوا الخلاص بالتنعمة . إن المسيحي الحقيقي في نظره هو الذي يقضي أيامه كلها « ناظرًا إلى نفسه كإنسان مليء بالخزي و معطياً المجد لله » .¹⁵

لعل أكثر ما يدعو إلى الحزن و الاضطراب في نظام أغسطينيوس هذا ، هو ما يولده من خوف و قلق في قلب المؤمن . « أصرّ أغسطينيوس على أنه لا يمكن أبداً للمختارين أن يتأكدوا من أنهم مختارون . »¹⁶ ولن يظهر لأي إنسان ، قبل ان يلطف أنفاسه الأخيرة ، إن كان قد ثابر و دأب على الإيمان فعلاً ، حتى النهاية . و الله وحده يعلم من أعطيت مثل هذه الموافقة والمثابة . و على المؤمن أن يقضي أيامه في حالة من الشك و القلق ، و هو يتساءل عما إذا كان الله قد اختاره للسماء أو للجحيم . و إذا لم يكن الله قد اختاره للخلاص ، فلا يمكن للإنسان أن يعمل أي شيء في الوجود خلاص نفسه . فهو سيعلن حتماً قدره المقرر أصلاً ، و إذا تم إرساله إلى جهنم ، فهو لا يحق له أن يتشكّى من الظلم ؛ هذا لأن جميع الناس يستحقون هذه الدينونة العادلة .

إن هذا النظام القاسي - المقدم في الأساس ، من إنسان مسيحي كريم عطوف و مليء بالشفقة - وجد قبولاً ، ليس في أفريقيا فحسب ، بل في جميع أنحاء العالم الغربي أيضاً . لقد اعتنقه كالفنان (Calvin) و آخرون أيضاً في عصر الاصلاح الديني ، وقد استحوذ منذ زمن بعيد على فكر العديد من المؤمنين المخلصين ، سواء أكانوا من البروتستانتين أو الكاثوليك . و مع ذلك فقد كان هناك دائمًا من تفرّع منه بداع شعورهم بأنه نظام جائر واعتباطي وقاسٍ ، لا على أساس دحض أو تفنيد منطقى له .

كان بلاجيوس منتقداً في السن ، و من الواضح أنه لم يكن يحب عناء النزاعات الفكرية . لقد تقادع من أعمال المعاشرة ، تاركاً هذه الساحة لعدد من الرجال الأكثر شباباً ، الذين كانوا قد دعموا موقفه . حاول احدهم من بلاد الفال ، و يدعى يوحنا كاسيان (Jean Cassian) ، أن يحلف من لأهوت بلاجيوس النقاط التي كان عليها علامات استفهام و تُطرح حولها تساؤلات ، مع حرصه على أن يبقى أميناً للسياق العام للكتاب المقدس و بياناته الواضحة .

قبل كاسيان ، بخلاف بلاجيوس ، بأنّ جميع الناس قد سقطوا بسقوط آدم و يستحقون بذلك الإدانة . كذلك أيد فكرة أغسطينيوس أنه ما من إنسان يمكنه أن يجعل نفسه مقبولاً لدى الله

من دون المساعدة الإلهية . و لكنه انكر ان الله يعيّن أياً كان مسبقاً و بشكل لا رجوع عنه ، للهلاك الأبدى ، معتبراً أن الهلاك هو النصيب المعين مسبقاً لجميع الذين يختارون عمداً أن يذيروا ظهورهم لله . قال إن نداء الله يصل إلى أولئك المستعدين لقوله ، و قد استشهد في ذلك بمثل زكا واللص التائب الذي نال الخلاص وهو على الصليب ، و كلامها لا يستحقان الخلاص ، لكنهما كانا يتوقعان إلى الحصول عليه . والإنسان ، برأي كاسيان ، هو حر الإرادة ، و باستطاعته أن يطبع أو لا يطبع ، أن يقبل أو لا يقبل الخلاص . ولكن حرية الإرادة وحدها ليست كافية ، فالإنسان هو في حاجة إلى نعمة الله و إلى مساعدته المستمرة لكي يتمكن أولاً من إيجاد طريق الحياة ، و لكي يستمر ثانياً في السير في هذا الطريق من دون تقليل أو تردد . ثم أضاف قائلاً إن هذه المساعدة تقدّم لكل الذين يرغبون بإخلاص في الحصول عليها . لم يكن موقف كاسيان في الواقع ، سوى محاولة تسوية بين وجهتي نظر كلّ من بلاجيوس وأغسططينوس . و يطلق عليها أحياناً التسمية «شبه بلاجية» (Demi-Pélagianisme) ، كما أنه من الممكن ، بكل صدق ، تسميتها أيضاً «النصف أغسططينوسية» ، نظراً لكونها تجمع بين معالم الظاهرين .¹⁷

و تلخيصاً لجوهر هذه الماذرة ، اعتبر أغسططينوس أن نعمة الله حكمت لبعضهم بالخلاص ، فيما اعتبر بلاجيوس أن نعمة الله عرضت الخلاص للجميع . و اعتبر كاسيان ، أن النعمة تزود بالخلاص كل من يرغب فيه .

ومهما كانت نظرتنا تحن إلى هذه القضية ، فإننا نشكّر أغسططينوس على تشديده على أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً من دون معونة الله و نعمته ، و ایضاً على تذكيرنا بما خلقه السقوط من شائع و تأثيرات كونية .¹⁸ كان بعضهم و من ضمنهم بلاجيوس نفسه ، بدأوا في تخطي حدود الكتاب المقدس الصريح ، لكي ينسبوا إلى الإنسان بعض المناق الأخلاقية والمقدرات الروحية التي لا يملكونها في طبيعته الخاصة . بال مقابل ، تجد أن أغسططينوس ، في تشديده الصارم على مفهوم التعين السابق ، قد انحرف إلى حد التطرف المعاكس . و من المؤسف أنه أنس ذلك على آيات مفردة من الكتاب المقدس ، اقتبسها بشكل مغلوط من سياق الكلام الوارد فيه . فنراه يستشهد مثلاً باختيار المسيح للتلاميذه الاثني عشر لنقل البشارة - «ليس انتم اخترقوني بل أنا اخترتكم» -¹⁹ وقد استعمل هذه الآية الكريمة كبرهان على أن الله اختار سابقاً أولئك الذين سينالون الخلاص . و هو بالطريقة نفسها ، يأخذ الآية «لأن هبّات الله و دعوه بلا ندامة» ،²⁰ و يطبقها ، لا على مستقبل الآلة اليهودية - كما يظهر من سياق الكلام و من القرآن - بل ایضاً على خلاص الإنسان الشخصي . إنه يتجاهل أو يهمل آية فقرة من الكتاب المقدس لا تتطابق رسالته او فرضياته . كما ان تعليم الرسول مثلاً عن «مخلصنا الله الذي يريد أن جميع الناس يخلصون و الى معرفة الحق يقبلون» ،²¹ يفسّره أغسططينوس بمعنى أن الاختيار سيشمل تمثيل عن جميع الأجناس البشرية و الطبقات الاجتماعية . و واضح أن هذا لم يقصده الرسول بهذا الكلام .

في الواقع ، كان هذا التعليم الصارم عن التعبين السابق ، شيئاً جديداً في التاريخ الكنسي . ويظهر أن التعليم الذي أطلقت عليه في ما بعد التسمية « شبه بلاجي » ، قد تم التزامه بشكل شامل على مدى القرون الثلاثة الأولى من العصر المسيحي ، و ذلك في أماكن مختلفة في معظم المراكز الحضارية مثل الاسكندرية و انتاكية و اثينا و قرطاجة و اورشليم و روما . ويدرك أنه كان يقدم هذا التعليم كل علماء اللاهوت كبار امثال يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) و اسبريانوس (Irénée) ، و كلمنتوس (Clément) و اوريجانوس (Origène) ، و نوفاتييان (Novatien) ، وجيسروم (Jérôme) ، و يوحنا فم الذهب (Jean Chrysostome) فضلاً عن لاهوتى منطقة شمال افريقيا ايضاً .

فتروليانوس مثلاً ، أكد أن الإنسان خُلق على صورة الله ، وهو يتمتع وبالتالي بإرادة حرة ، كما ان لله إرادة حرة . إن الإرادة الحرة ، يقول تروليانوس ، هي عطيّة الله الكريمة للإنسان . وهو يُظهر من الكتاب المقدس كيف ان الله غالباً ما طلب من الإنسان ، أن يختار بين الخير والشر ، وبين الطاعة والمعصيّان للقوابين والوصايا المعطاة له . « إن كل المخلوط لتهذيب الإنسان من خلال وصايا الله - بواسطة دعوات الله ، تحذيراته و نصائحه - يفترض أن الإنسان حرّ في اختيار الطاعة او الرفض والعارضة . » 22

اختلاف ارنويوس أيضاً مع أولئك الذين يحلون الإنسان من مسؤوليات تصرفاته وقراراته : « يقول معارضي : اذا كان الله كلي القدرة و كثير الرحمة ، وهو يرغب في أن يخلصنا ، فليس بغير هو مخلصنا ، ويجربنا على أن نتف بمواعيده ! » ولكن هذا سيقود إلى الظلم ... لأن ما هو الشيء الأكثر جوراً على الإنسان الذي هو في واقعه معارض و مقاوم وغير جدير بتحويل انحرافاته و نزعاته ، من أن يُرغم بالقوة على عمل ما لا يريد قوله ، و ينكحه أمامه ؟ » بل على تقدير ذلك ، يقول ارنويوس ، « فالله القدير ... يعطي الجميع على حد سواء القوة ليُقبلوا إليه . إنه يقول للجميع : " إن بناء الحياة هو مفتوح ، و الشرب من هذا البناء ليس منوعاً عن أحد . » 23

بيد أن أفكار أغسطينوس قد ثُبّلت بشكل التعبين السابق ، كما انه جرى الاعتراف بها رسميًا في أيامه ، على أنها تشكل الموقف الكاثوليكي . 24 وهذا الأمر لا يدعو إلى العجب ، لأن الذين يؤكّدون سلطة الكنيسة الرسمية ، يميلون إلى العقائد التي تشدد على سلطة الله . إن عقيدة الخلاص المبنية على الإرغام ، تسجم تماماً مع التعاليم التي تُكره الناس أيضاً على الإيمان وعلى ممارسته . فإن كان الناس يُساقون إلى الأمان و السلامة الأبديين رغمما عنهم وبالقوة ، أليس من الممكن أيضاً إجبارهم بالقوة على نبذ الهرطقات و تقديم الطاعة و الخضوع للكنيسة الرسمية ذات المعتقد القويم ؟ إن المدافعين عن هذه المبادئ ، قد يُظهرون من دون أي شك في خبراتهم ، كيف ان السلطة غالباً ما تضمّن المعتقد القويم ، بينما الإرادة الحرة و الهرطقة يسران ، في نظرهم ، جنباً إلى جنب في اتجاه واحد . هل نستطيع ان نرى في موافقة أغسطينوس

على استخدام القوة لقمع الدوناتيين ، انعكاساً لأفكاره حول دور الإرغام في مقاصد الله ؟ و لربما نسي أغسطنطينوس ، ان الحرية هي أمر عزيز جداً على قلب الإنسان ، أنها بركة لا توافر لدينا إلا على أساس المخاطرة ، إذ قبل النوع ، ولو تحوك أحياناً إلى تيهان . لكن ، قد يكون أن الله ارتأى ان يمنع الإنسان حرية أكبر مما يريد أغسطنطينوس أن يمنحه إليها او يسمح بها .²⁵

و اذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية مختلفة ، نجد أنه كان هناك في الحقيقة الكثير من أوجه الشبه بين أغسطنطينوس و خصمه الأساسي . لقد اعترف أغسطنطينوس نفسه بأن بلاجيوس كان رجلاً يعيش حياة لا لوم عليها او شائبة ، و انه متخصص للحياة الصالحة المستقيمة . كان دائمًا يجعل تحذيرات بلاجيوس اجلالاً كبيراً ، إذ اعتبر أنها « مدونة بشكل جيد ، كما أنها تنصيب الهدف تماماً ». لقد تشابه هذان الرجلان في فكرة التشديد على أهمية إطاعة الله ، كما وصل كلامهما إلى المكان عينه بشأن أهمية الإيمان الشخصي بال المسيح يسوع . و لعل الفارق الكبير بينهما يكمن في كونهما وصلا إلى هذا المكان من طريقين مختلفين . كتنا قد ن Finchينا من قبل ، وبشيء من التفصيل ، طفولته المضطربة التي تلتها سنوات خطبته و بعد ذلك مرحلة تجده ، العميق والعاطفي . ومن جهة أخرى ، عاش بلاجيوس حياة هادئة ، كانت تخلو عادة من الانفعالات العنيفة . عاش منعزلاً مع جماعة من الرهبان ، حيث قضى معظم وقته في دراسة هادئة للكتاب المقدس و الصلاة . و هكذا اعتبر بفضل مزاجه اللطيف و الهداء هذا ، أن الصلاح هو أمر يمكن تتمييزه بالمواظبة على الانضباط و الطاعة . فهو لم يشعر يوماً بأنه انسان عاجز او ضال . لقد آمن باليسوع كمحليه الشخصي ، فقط لأن الكتاب المقدس يقول إن هذا هو طريق الخلاص . وكان يعلم أنه أصبح مخلصاً ، ذلك لأنه آمن و عمل بموجب ما يقوله الله . أمّا أغسطنطينوس ، فكان يشعر ، بالمقابل ، بأنه غير قادر على فعل ما يقوله الله . لقد كافح بمرارة ضعفه البشري ، و ينس من إمكانية إحرازه أي انتصار على التجربة ، و هكذا أدرك أخيراً أنه إن لم يتقدّم الله و يحفظه ، لا يبقى عنده أيأمل على الإطلاق . لقد خلص تماماً بنعمة الله . من أجل ذلك كان يرى خلاصه كمعجزة حارقة حصل عليها على أساس الرحمة الإلهية ، إذ لم يكن يستطيع أن يفعل أي شيء لتخلص نفسه . ان الخبرات التي مر بها كل من هذين الرجلين ، تزودنا بالفتاح المطلوب لفهم سبب المناظرات التي وقعت بينهما ، ولربما أدركنا أيضًا ما الذي يقف وراء الكثير من إساءات الفهم المحرجة التي قد تنشأ بين مسيحيين مخلصين ، حتى في أيامنا هذه .

ويستحيل علينا في هذه الصفحات ان نصف بشكل كاف وجهتي النظر المختلفتين في الماناظرة البلاجية . وأكثر من ذلك ، علينا الا نتسرع في قبول الموقف « الأغسطنطي » ، او رفضه ، في هذا الأمر او في أي من التعاليم الأخرى . لقد رأينا قبلًا كيف ان أغسطنطينوس غير رايه بخصوص أمر استخدام العنف لتأمين تطابق في وحدة الإيمان و الممارسة . ومع مرور السنين ، طرأ تعديل على أفكاره في مجالات أخرى ايضاً . لقد وصف نفسه بأنه « الرجل الذي يكتب بينما يتقدم ، و يتقدم بينما يكتب ». ²⁶ قضى بعض الدارسين حياتهم بكمالها و هم

يحاولون ان يبنوا أنظمة لاهوتية على أساس مقاطع مقتبسة من كتابات أغسطينوس الواسعة والمتعددة . لكن ، واجهتهم حقيقة كيف أنه يبدل رأيه في بعض الأحيان ، كما أنه ينافق نفسه مراراً كثيرة . فالرأي الذي يطوره ويعالجه بمنطق لا يقاوم ومعقولية متعنة في مكان ما ، يعود ويرفضه في سطور قليلة في مكان آخر . مثلاً ، يظهر انه نسي تماماً رفضه المطلق لفكرة الإرادة الحرة ، عندما يشير في كتابه « مدينة الله » إلى « التعليم المسيحي السليم » في ما يتعلق بالنفس التي يمكنها ان تتحول الى الأسوأ من خلال الاختبار والحر .²⁷ كذلك ، فإن استهانة الأولى بالشفاء المجزي لكونه « قمط الكنيسة الرضيعة »²⁸ التي نضجت الآن ، قد حل مكانه تأييد حار للمعجزات التي لاحظها في كنيسته الخاصة في هيبو و في أمكنته أخرى و التي ما زالت تمارس في أيامنا هذه .

لكن أغسطينوس لم ينهمك في المسائل النظرية العظيمة الى حد تجاهله القضايا العملية التي كانت تقلق الاخضاء العاديين في الكنيسة . رأى ان المسيحيين غالباً ما يحصلون على البركات و النجاح و الازدهار كنتيجة لاستجابة صلواتهم ، إلا أنه قد لا يحدث ذلك في بعض الأحيان ، فيظهر عند ذلك كان الله لم يستجب صلواتهم . فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟ لقد كتب : « في حال لم يمنع الله حقاً جيداً بكرم ظاهر لبعض المسلمين اليه ، علينا أنفترض ان هذه البركات الوقتية هي من اهتماماته تعالى ؛ بينما اذا كان ينعم بالازدهار على الجميع مجرد أنهم يطلبون منه ، فقد نعتقد ان عبادة الله هي رهن بهذه العطايا ، و عندئذ ستكون عبادتنا برهاناً ، لا على ثقوانا ، بل بالحرى على جسمنا و طمعنا . »²⁹

يعلم الله ما تحتاج اليه قبل أن نسألة ؛ لكنه مع ذلك يربض في أن نسألة ، حتى إنه يمسك عنّا أحياناً بعض البركات لكي نطلبها منه . « إن إرادته أن تصلي من أجل ما يريد لكي لا تستخف في ما بعد بهباته . »³⁰ ولكن ، عندما لا تستجاب الصلاة ، و يظهر كأننا نقع بباب السماء من دون جدوى ، « فاستمر في القرع ... لأن الله يؤجل او يؤخر قليلاً ما يريد أن يمنحنا ، لكي نزداد شوقاً و توقاً للحصول عليه . »³¹ وهكذا ، فإننا نتعلم من خلال صلواتنا ان تكون جديرين أكثر ، و صبورين أكثر ، و شكورين أكثر .

لقد تفكّر أغسطينوس في العمق ، كما فعل غيره ايضاً من جاءوا قبله او بعده ، في مسألة سماح الله بمعاناة الصالحين والأبرار مع الأشرار الطالحين . فتوصل الى الاستنتاج بأن المعاناة هي لاختبار طبيعة الإنسان ، رجالاً كان أم امراة ، وبالتالي كشفها على حقيقتها : « فعندما يتآلم الأبرار و الأشرار معاً ... ، وعلى الرغم من أن هذه الآلام هي مشابهة ، إلا أنه يوجد اختلاف بين الأشخاص الذين يتآلمون . فالفضيلة والرذيلة ليسا الشيء ذاته ، حتى ولو كابدا العذاب نفسه . إن النار التي تجعل الذهب يلمع ، هي نفسها التي تجعل التبن دخانًا ، والمدرس الذي يُهشم التبن ويسحقه هو ذاته الذي ينقى الخطة . ولا مجال لل璧ه ليثبت علينا أمر التمييز بين الزيت و رواسب الزيتون ، لمجرد انهما يتعلمان كلاماً من المقصورة علينا . و على هذا النسق ، فإن العنف الذي

بطال الأبرار لأجل اختبارهم و تطهيرهم ، هو نفسه الذي يجعل على الأشرار ادانتهم و خرابهم . و عليه ، فإن الأشرار ، تحت وطأة البلوى ، يلعنون الله و يجدفون عليه تعالى ؛ بينما الأبرار ، وقد ألم بهم المصاب عينه ، يقدمون الصلوات و التسابيح . و هذا يبيّن أن ما يهم هو طبيعة المتألم ، لا طبيعة معاناته . حرك مجرى تصريف المياه للبنية ، فستتصاعد منها رائحة التناهـ و الفساد ؛ و بالمقابل ، حرك العطر فتجد أن ما سيفوح هو العبير و الشذا الطيب الذي فيه . و مع ذلك فإن عملية التحرير هي نفسها في كلتا الحالتين .³²

شجع أغسطينوس الكنيسة على ألا تخضع للتهديل او تكتسب بسبب القوى المنظمة ضدها ، لأن قضية الله هي التي ستنتصر في النهاية . إن عدم شعور المرسل بأهلية ، لا يشكّل أي عائق في وجه عملية انتشار الرسالة بانتصار . فحتى الرسول الذين اختارهم المسيح أنفسهم ، « كانوا رجالاً ولدوا ولادة ببساطة متواضعة ، ولم تكن لهم مراكز و لاثقافات ، حتى إن وُجد فيهم او في أعمالهم أية عظمة ، فهي عظمة المسيح نفسه الحاضر و العامل فيهم ». فالرسل هم رجال أصبحوا جسورين بعمل قوة الله في حياتهم . « لقد قال المسيح لتلاميذه : " لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد و لكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها . " و هكذا التهوا بنار المحبة لشلاقجندوا من جراء الخوف . و على هذا الأساس تأسّت المصادرة بالإنجيل في كل أنحاء العالم ، ليس فقط من التلاميذ الذين رأوا الرب و سمعوه قبل الآمه وبعد قيامته ، بل أيضاً بعد موتهم بواسطة خلفائهم ، و ذلك في خضم الانحطارات المروعة والتعذيب على أنواعه وموت الشهداء ». ³³

الله ، في كل الأشياء ، يعمل لصالح الذين يحبونه ، يقول أغسطينوس ، كما أنَّ الْأَدَاءَ اعداء الكنيسة يقدمون لها خدمة لأنهم « يدرّبون بذلك الكنيسة على الاحتمال ، إن كان عندهم سلطان على أن يؤذوا الجسد ، كما أنهم يدرّبونها على الحكم ، إن كانوا يكتفون بمقاومةها بواسطة أفكارهم الفاسدة . إلى ذلك ، فهم يدرّبونها على اللطف كما على الكرم أيضًا ، لكي تظهر محنة المؤمنين حتى إلى الأعداء ». إن العناية الإلهية هي التي تضمن أن يكون للكنيسة ما يكفي لصلاحتها من الإزدهار والنجاح ، من جهة ، و الشدة و المحن من جهة أخرى : « إن العناية الإلهية ، ولا شك ، تزوّد الكنيسة بتعزيزة الإزدهار لشلاقجند من جراء الضيق ، وبناديات الضيق لشلاقجند العمل الإزدهار على إفسادها ». ³⁴

يبحث أغسطينوس المسيحي على ألا يتأقلم أبداً او يتشكّل من معاملات الله معه ، بل أن يشق بحكمة الخالق : « إن العناية الإلهية تحذرنا من الاسترسال في التشكي من الأوضاع بشكل سخيف ، كما أنها تحثنا بالمقابل على أن نكتف فهومنا عناء البحث عن المقاصد المفيدة الكامنة وراء الأوضاع . وعندما نفشل في الحصول على جواب ، سواء كان ذلك بسبب عجز في بصيرتنا او من جراء محدودية قدراتنا ، يجب أن نؤمن بأن هذا القصد قد أخفى علينا فهناك دائمًا هدف مفيد وراء غموض الهدف ؛ وقد يساعد على تدريب تواضعنا ، او على تقويض

كبيرائنا .³⁵ وعلى كل حال ، على المسيحي ان يتذكر دائمًا انه لا يستطيع من طريق القلق او المخططات ان يضيق ذراعاً واحدة الى قامته او يوماً واحداً الى حياته . ان اعمارنا هي في يد الله ، وهكذا سنبقى في هذا العالم الى ان يدعونا سيدنا للرحيل الى بيتنا الابدي . قال اسطينوس : «الانسان في امان من الموت حتى ينهي مهمته .»³⁶

وأشار اسطينوس ببعض الظرف الى أن المؤمن يجب الا يخاف ابداً من الاضطهاد ، حتى وإن كان المضطهد يسنَ موسه و يحدّها ، فهو لن يتمكّن من حلق إلا ما هو زائد من لحى المؤمنين : «لذا فمهما استطاع انسان غاضب ذو سلطة ان يأخذكم ، فاعتبروه من الزوائد التي عندكم . فليأخذ امتحنكم ، ولليأخذ قطعاتكم ، ولبيستول على اراضيكم ! ... نعم و حتى الحياة الحاضرة نفسها ليست في نظر اولئك الذين أفكارهم منشغلة بحياة أخرى ، هذه الحياة ليست سوى من الزوائد ... ماذا أخذ منا هذا العدو المقتدر ، ما هي الاشياء المظيمة التي أخذها منا؟ إنها تلك الاشياء التي يستطيع لص أو سارق المنازل أن يأخذها ! انه ، وهو في أوج غضبه ، لا يقوى على أخذ إلا ما يستطيع اللص أن يأخذه . لو كان عنده سلطان بأن يقتل الجسد ، هل باستطاعته ان يأخذ منكم ، إلا ما هو بإمكان اللص أن يأخذه أيضًا؟ انتي في الواقع امنحة الشرف الكبير عندما أدعوه لصاً . لأن اللص مهما كان عليه ، فهو مجرد إنسان . فهو يأخذ منكم ما يمكن ان تأخذنه الحمى ، او الافعى ، او نبات الفطر السام . هذه هي الححدود التي قد تصل إليها كل قوة غضب الإنسان و سخطه ، أي ان يفعل ما يستطيع ان يفعله الفطر !»³⁷

كان اسطينوس من أعظم الكتاب الجدليين ، لكن المقاطع التي تحرّك أعدب مشاعر الدفء عند القراء المعاصرين بالإضافة الى قصة بحثه العظيم عن الحقيقة في كتابه «الاعترافات» ، هي ربما تلك التي يسكب فيها قلبه في عبادة خالقه العظيم الكريم . إن اعماله الجدلية تُظهر ذهنه الشاقب والمهذب ، إلا أن كتاباته التعبيدية تبيّن ، بالمستوى عينه ، قلبًا دافئًا و محباً . لم تقتصر مهاراته الكلامية على إثبات مسائل عقائدية . لقد استند كل قدواته اللغوية للتغيير عن حبه الكبير لسيده ، وعن فرحته الشديدة كوله من أولاد الله صاحب دعوة عليا . لم يكن يعرض براهين ناشفة لحقائق ، إنما وصف ما كان يفيس به قلبه المفتون بمحاجات الله و اعماله التي صنعها للإنسان - و فوق كل هذا ، ما فعله تعالى لأسطينوس نفسه ، وهو أقل الناس استحقاقاً لنعم الله .

«هل من ملجم آخر غير الله؟ أنت يا إلهي ، أنت يا إيها الكائن الأسمى ، أنت الاعظم صلاحًا ، القوي والأقدر ، الأكثر رحمة والأنصى عدلاً . أنت هو الأكثر احتجاجاً واحتفاء عنا ، ومع ذلك فانت الأكثر حضوراً بيننا ، أنت هو الأكثر جمالاً ، و مع هذا انك الأشد قدرة . أنت الثابت إلى الأبد ، إلا أننا لا نقدر على إدراك كنهك . أنت يا من لا يتغير ، و مع ذلك قادر على تغيير كل الاشياء . لم تكن ابداً جديداً ، ولم تكن يوماً قدِيناً ، و مع ذلك فكل الاشياء

نُعطي من لدنك حياة جديدة . . . أنت من هو دائم الحركة ، ومع ذلك تنعم بالراحة باستمرار . . . أنت تحزن على الإساءة ، لكنك لا تعاني ألمًا . باستطاعتك أن تقضي و لكنك هادئ ساكن . أعمالك متنوعة ، ولكن قصدك واحد ، ويقى هو هو . أنت ترحب بجميع الذين يأتون إليك ، على الرغم من أنك لم تفقدهم قط . . . أنت إلهي و حياتي و فرحتي المقدسة ، ولكن هل هذا يكفى في وصفك ؟ هل يقدر أي إنسان أن يقول ما يكفى في حديثه عنك ؟ ولكن الوبيل من يصمتون ولا يتكلمون عنك ! وحتى أكثر الناس مهارة في الكلام والحديث ، لا يمكنهم ان يجدوا الكلمات لوصفك . »³⁸

ملاحظات

- 1 يحتوي الملحق رقم 2 على ثلاثة من أقدم قوانين الإيمان .
 - 2 كانت مقيمة الدوناتيين مستقيمة جدًا بالنسبة إلى لأمومت المسيح ، كما كان الحال مع المؤمنين والوفاتين .
 - 3 يوحنا 1:14 : 1 تيموثاوس 5:2 : كولوسي 9:2 .
- Confessiones* 10:29 -4
(DOTCC p. 52) *Ep. Demetriadem* 16, *ad fin* -5
(DOTCC p. 52) *Ep. Demetriadem* 16, *ad fin* -6
Brown pp. 345-352 -7
Brown p. 344 -8
- 9 -9
الله هو الذي "أعد" التحرير الأول لإرادات الناس ، وهو تعالى ، قد قرر في حكمته السرمدية ، أن يتم ذلك بالنسبة إلى مجموعة قليلة من الناس فقط . (p. 399) وأغسطينوس نفسه يلخص حجته بشأن هذا الأمر في كتابه :
(DOTCC p. 56). *De Dono Perseverante* 35

يبدو أن أغسطينوس ، قد أساء فهم الكلمة اليونانية (eklectoi, eklektos) التي ترجم "المختارين" والتي تشكل عبارة أساسية في نصوص المهد الجديد المصلحة بهذا الموضوع . إن هذه الكلمة لا تعني "مختارين" بمعنى "اختبار شخص من ضمن عدد من البلداء" . و هذا يبدو واضحًا إذ تجد في الكتاب أن المسيح نفسه مختار (مني 18:12 ، لوقا 9:35 ، بطرس 4:2 - 6) ، والملاكية أيضًا مختارون (1 تيموثاوس 5:21) . وبال مقابل مخنان الكلمة (eklektos) تشير إلى شيء أو شخص "فُرز لأجل غرض خاص" ، كما فرز المسيح نفسه ليكون مخلصنا . وعليه ، عندما يشار إلى المؤمنين كمختارين في بعض الفقرات الكتابية ، يجب أن نفهم ذلك كإشارة إلى الامتياز الذي لنا كثيعب الله الخاص بجعلته ، لا كوصف للشكل الذي خُلّصنا به كأنوار (كولوسي 12:3 ، 1 تاساليونيكي 4:1 ، بطرس 9:2 الخ . . .) .

-10
Epître 204:2 (Brown pp. 335 - 336) -10
(DOTCC p. 54) *De Spiritu et Littera* 5 -11

(DOTCC p. 55) *Epître 217 - 12*(DOTCC p. 56) *De Correptione et Gratia 34 - 38 - 13*(Forster & Marston p. 206) *Pred Saints 16 - 14*

(Brown p. 348) *Epp. Pet III, 5:14 - 15*
 باستمرار كيف أنه يترتب حتى على المسيحي المعبد نفسه أن يبقى معاً ؛ فهو يشبه ذلك الرجل المسافر الذي وقع بين لصوص وترك بين حيٍ ومت عنـد فارعة الطريق ، كما ورد الحديث عنه في مثل السامي الصالح .
 عليه ان يتحتمل ، وعلى مدى حياته الباقية ، فترة نقاهة طويلة وغير مستقرة ، وذلك داخل فندق "الكبسة" . (Brown p. 365)

ولم يوافق البلاجيون على هذا الرأي ، إذ اعتبروا ان أكثر ما يدعوا الى القنوط هو عقيدة أغسطينوس عن الصراع الدائم الداير في حياة المؤمن بين «الجسد» و«الروح» . فهذا لم يكن في نظرهم سوى الصراع المأثير القديم بين «الخير» و«الشر» ، لكنه يظهر هذه المرة بزريّ مسيحي . كان البلاجيون يفضلون ان يروا المسيحي كإنسان «حمل كاملاً في المسيح» ، وأصبح واحداً من «أولاد الله» . وقد كتب براون قائلاً : « كانوا يجدون انه من الصعب عليهم أن يدعموا آراء يظهر كأنها تشجع الوثبيين المهددين إلى المسيحية ، الذين خطوا أخيراً الخطوة النهاية وأصبحوا مسيحيين فعلاً ، تشجّعهم على الرجوع إلى الخنوع والبلاد ، لكونهم معاينين مزمنين » . (Brown p. 369)

Chadwick p. 116 - 16 . قد يهلك رجل صالح ، وقد يخلص رجل شرير . قال أغسطينوس : « ثمة انسان يعيش حياة الفساد والخطيئة ، إلا انه قد يكون نوراً بحسب اختيار الله ؛ كما انه يوجد من يعيش حياة حسنة ، لكنه ربما اسوة كالتالي » .

(Guelf 18:1, cité par Brown p. 400)

ولاحظ أغسطينوس قائلاً : « قد يبدو بدبهباً للناس أن يحصل المسيحيون الصالحون والأمناء جميعهم على هبة الشبات والثانية حتى النهاية . لكن الله ارتأى ان يكون مع القديسين الذين عدهم محدثاً ، بعض الذين لن يثابوا » .

(De Dono Persev. 8:19, cité par Foakes - Jackson p. 405)

17 - ان شبه - بلاجية هي التي يدين بها معظم المسيحيين الائحيين المعاصرین . وينضمون الملحق الثالث خلاصة لهذا المقيدة .

18 - راجع رومية 12:5 - 21 ؛ 1 كورنثوس 15:15 و 22

19 - يوحنا 15:16

20 - رومية 11:29

21 - تيموثاوس 3:2 و 4 ؛ راجع أيضاً بطرس 3:9

22 - *Adversus Marcionem* 2:5

بامكانك ان تجد في الفصل الثامن بحثاً عن رأي ترتوليانوس بشأن الإرادة الحرة عند الإنسان .

(Adversus Nationes 64, 65) (Forster & Marston p. 203)

23 - لقد أصدرت الامبراطورية قوانين تحظر على النظراء اتباع مبادئ بلاجيوس ، وذلك تحت طائلة خلумهم من منصبهم ونفيهم (Brown p. 398)

25 - كتب براون قائلاً : « في نظر الدوناتي ، كان موقف أغسطينوس من الإرغام ، إنكاراً فاضحاً للتعليم المسيحي التقليدي : لقد منح الله الإنسان حرية الاختيار بين المثير والشرّ ؛ وكل معتقد يُرضم الإنسان في مجال الاختيار هذا ، هو ببساطة غير ديني . إن المقاطع من الكتاب المقدس التي اتبسها الدوناتيون لدعم فكرة حرية الاختيار ، هي نفسها التي عاد بلاجيوس واقتبسها في ما بعد » . (Brown p. 236)

وأضاف براون قائلاً : « كان يبدو (لأغسططينوس) ، أن مادحه حديثاً بلاجيون بأنه باستطاعتهم تحقيق كنيسة

”بلادنس ولا غضن“ ، لم يكن سوى استمرار لتأكيد الدوناتيين انهم يتمنون وحدتهم الى هذا الصنف من الكنيسة . »

(Brown p. 348)

Epître 143 (Chadwick p. 1 -26

De Civitate Dei 11:22 -27

De Peccatorum Meritis 2:52 (Chadwick pp. 73-74) -28

كتب براون سلاحيطاً : « يدعم بلاجيوس افكاره إذ يكتسب من كتاب أغسططينوس نفسه تحت العنوان

De Libero arbitrio (عن الإرادة الحرة) . وهكذا ، كان الخصم العظيم لأغسططينوس الشقيق ، يستلهم من كتابات

الفيلسوف الشاب حين كان أغسططينوس يدافع عن حرية الإرادة في وجه القدرة المائية . »

(Brown pp. 148 - 9)

De Civitate Dei 1:8 -29

Sermon 56:4 -30

Sermon 105:3 -31

De Civitate Dei 1:8 -32

De Civitate Dei 18:49 -33

De Civitate Dei 18:50 -34

De Civitate Dei 18:51 -35

15 - راجع متى 27:6 ; المزמור 31:14 و 15 - 36

Sermon 62:14 -37

Confessiones 1:4 -38

يبحث أغسططينوس عن التعيين السابق كل من :

؛ Brown pp. 154 - 156, 235 - 243؛ Chadwick pp. 107 - 119

؛ Foakes - Jackson pp. 502 - 511

مع مناشدة قوية لقبولها من Bavinck (pp. 345 - 382)

. و مناشدة أخرى قوية لرفضها من Forster and Marston (pp. 198 - 231)

الفصل السابع والعشرون

إرشادات صائبة

كان أغسطينوس ، كما أسلفنا ، يتوقع تماماً أن ينمو الزوان وسط الخطوة في الكنيسة . لكنه ، مع ذلك ، حزن جداً حين رأى كيف أن هذا العشب الضار راح ينمو كثيراً وينتشر في كل أرجائها . لقد أفسد هؤلاء القوم شهادة الكنيسة ، فأصبح هذا النوع من الكنيسة مكاناً محفوفاً بالمخاطر لأتباع المسيح الحقيقيين . كتب أغسطينوس مأسفاً : «إن المسيحيين الأشرار والفاتررين يشكّلون عائقاً في وجه المسيحيين الذين هم جادين بحق و مخلصين في إيمانهم ». ¹

أحياناً ، كان غير الزوار الذين يرغبون في أن يعرفوا المزيد عن المسيح ، يُصعبون بما يرونه في أولئك الذين حملوا اسم المسيح . «نحن نرغب في أن يأتي إلينا سائر الوثنين »، قال أغسطينوس ، «لكنكم أنتم حجارة عشرة في سبيلهم : ان لهؤلاء القوم الرغبة في ان يتسموا الى الكنيسة ، ولكنهم يمثرون وبعودون الفهقري بسببكم ». ² لقد وقع اعضاء كنيسته الذين كانوا «بتصرفاتهم البعيدة عن المبادئ الروحية ، يسيطرون الى معاشر اولئك الذين يعيشون في خوف الله . لقد شوّهوا التسميين «مسيحي» و «كاثوليكي» ، و جلروا العار عليهم . وعلى قدر ما تكون هذه التسمية او تلك عزيرة على قلوب من يرغبون في عيش حياة تقية في المسيح ، يزداد امتعاضهم من تصرف الأشرار في داخل الكنيسة ، الأمر الذي يجعل تعلق الناس بهذه التسمية أقل بكثير مما يصبو إليه الأتقياء ». ³

من جهةه ، أخذ أغسطينوس بكل جدية مسؤوليته كراعٍ بهتم «برعية الله ». ⁴ كان وعظه عملياً للغاية . و كان يتوقد إلى أن يعم الجماعة المسيحية روح من المحبة والقادسة . ولكن ، كيف السبيل إلى تحويل الناس العاديين الآخرين إلى قديسين؟ - هذه كانت قضية أغسطينوس . و ربما ، أول ما يجب عمله هو خلق الشوق العميق في قلب كل واحد للتحول إلى إنسان أطفى وأفضل . خطابهم أغسطينوس بالقول : «أنت تشترون حنطة بنقودكم ، و تقتلون حنلاً بفضلكم ، و حجرأً كريماً بذهبكم ، ولكن ماذا عن المحبة؟ عليكم أن تُشفقوا من ذواتكم لأجل افتئتها . لعلكم تريدون أن تشتروا ملكاً أو جوهرة أو دابة . أنت تفتشون حقولكم و بيونكم بحثاً عن موارد لدفع ثمن هذه الأشياء . ولكن لكي تفتنوا المحبة ، عليكم أن تفتشوا في نفوسكم و في دواخلكم . هذا لأنه ينبغي عليكم أن تجدوا ذواتكم ونفوسكم ». ⁵

كان أغسططيوس يعلم ما للعادات السيئة من تأثير مضرّ، إذ تولّى إضعاف الإنسان الذي ينتمس فيها و تُنسده : كالاعتياد على الخلفان مثلاً. «انتا نجد حولنا العديد من الناس الذين لا يرحبون في أن ينطقوا بقسم ، ولكن حيث أن أسلتهم قد اعتادت على الخلفان ، يجدون ان الكلمات تخرج من شفاههم من دون ان يكون عندهم آية سيطرة عليها . . . فإذا أردتم ان تعرفوا ماذَا أقصد ، ابدأوا بمحاولة بضم شفاهكم عن القسم . . . عندئذ ستتحققون من مدى قوة عامل العادة في حيائكم ». على المسيحي ان يكون انساناً ملتزماً بكلمته و يكتفي بقول «نعم» او «لا». إن نزاهة المتكلّم و سمعته الحسنة تعطيان وزناً لما يتقوه به من كلام حق ، مهما كان بسيطاً . وطبعاً ، لا يجوز ان يستعمل اسم الجلالة باستخفاف و من دون تفكير ، «الثلا . . . يسقط الإنسان في خطبة الخلفان الكاذب ، و ذلك لكثره ما اعتاد على الخلفان ». ⁶

و ماذا بشأن التحديات اليومية التي تواجه المسيحيين في أعمالهم و تجارتهم و حرفهم التي يزاولونها لأجل كسب لقمة العيش؟ ان جميع الوظائف والأعمال هي جيدة في نظر أغسططيوس ، بعزل عن مدى كونها مربحة ، او مدى الاحترام الذي يكتبه لها الناس . أنت من يقرر قيمة وظيفتك : «لا تتقدّش شغلك او تجارتك ، بل بالحربي اتقن نفسك وحدها ، انتقد قلبك الجشع للمال الذي لا يخاف الله ». ⁷ بعد أن أسقط أغسططيوس من حساباته تلك الأعمال و النشاطات التي يظهر عليها بكل وضوح أنها ملتوية و غير شريفة ، عاد فاكم بصرامة رائعة : «لا يوجد أعمال حقيقة ، بل فقط عمل حقيرون ». ان المسيحي الحق ، أيًا كان و مهما كان مرکزه ، يحصل كل ما في وسعه ليكون نافعًا للجميع ، وليتصرّف معهم بالعدل . تحدث أغسططيوس عن أحد أصدقائه ، وهو طبيب مسيحي كان يخدم المسيح إذ يهتم بمعالجة الفقراء مجانًا و من دون مقابل ، عندما لم يكن بإمكانه دفع اجرته . ⁸ انه يشجّع الجميع على العمل الدؤوب كعبد للكائن الأحد الذي يرى و يعلم كل شيء ، وسيكافئه على الإخلاص . عليهم عندما يعملون ألا يأبهوا فقط لأسيادهم الأرضيين ، «لا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ». ⁹ و كما قال الرب يسوع نفسه : «الأمين في القليل أئمن أيضًا في الكثير ». ¹⁰ و لا بد من ثواب ، لأن الله يعطي كثيراً ذلك العبد الذي كان أميناً في القليل ، سواء أكان هنا على الأرض أم في الحياة الآتية .

عارض أغسططيوس بشدة عملية قرض المال بالربا ، هذه الممارسة التي كانت شائعة في أيامه . لقد جلبت خراباً على بعضهم ، و ثروة لآخرين . من أجل هذا ، اعتبر أغسططيوس أنه من الأفضل بكثير الوثوق بالله لسد الاحتياجات كلما طرأ . ¹¹ كذلك يكون من الأفضل بكثير الأنس مع الحصول إلأ على الأشياء التي يتوافر عندها المال الكافي لشرائها ، و ان تتجنّب بأي ثمن جميع الأساليب التي لها علاقة بالقامرة . يتوجّب على المسيحي أن يُفرض المال من دون مقابل ومن دون أن يرجو شيئاً . لكن عليه بالمقابل أن يتجنّب الاقتراض . يوجد وجهان للدين : «إقرض »، هذا ما تقوله كلمة الله ، لكن في الوقت حيثه ، «لا تكونوا مدبوغين لأحد ». ¹²

و من الواضح ان القرض الذي لا يُعطى من دون إرجاع ، يمكن اعتباره هبة مقدمة باسم المسيح لأجل تقدم ملكته .

كانت الحياة في إفريقيا الشمالية محضوفة بالمخاطر بالنسبة إلى المسافر ، سواء أسار في الطريق من أجل عمله أم من أجل خدمة ملكته الله . و أغسطينوس نفسه ، كان يتقلّل على صهوة حصان للكرازة في أماكن مختلفة ؛ كما ان العديد من القادة الآخرين كانوا يُقبلون من خارج البلاد لحضور المؤشرات المنعقدة في قرطاجة . كان أغسطينوس بحسب العادة الشائعة آنذاك ، يصطحب معه دليلاً عندما يكون الطريق غريباً عليه أو غير مألوف . كانت الطرقات تمعّج بقطعاً لها وبالوحش المفترسة وذلك بمحاذة الأوهاد و غابات المسالك الصخرية الجبلية الوعرة ، خصوصاً في منطقة نوميديا ، وفي داخل البلاد . الطرقات الرئيسية وحدها كانت مرصوفة بسلاطات رومانية خشنة و متغيرة . غالباً ما كانت الطرقات الجانبيّة و الفرعية مقطوعة في الشتاء ، و ذلك بسبب انهيارات الصخور او التربة ، أو من جراء السيول المتداة بغزارة و الناتجة من ذوبان الثلوج التي تكسو قمم الجبال . أمّا في الصيف ، فعلى المسافر أن يواجه مع العطش و مع الحرّ الحرق و الزوابع الرملية العنيفة . لكن المسيحي كان يلاحظ العناية الإلهية و هي ترافقه حتى في أفقه تفاصيل الرحلة و دقائقها : إيجاد المؤونة ، المظرو بنزل محترم ، رفقة مسافر شريف نبيل ، او الحصول على حمار بسعر متهاود و مناسب . كانت هذه الأشياء في نظر المسيحي كبركات من عند الله . كان المسافرون يغتنون للبقاء على المعنيّات مرتفعة . ففي الوقت الذي كان الوثنيون يضجّون بأغانيهم الفاحصة الفاسقة ، كان المسيحيون بالمقابل يترغبون بالزمامير او بالتراث الذي تعبد الله .

كانت حياة المسيحي تشبه رحلة . «رسموا في قراراً نفوسكم ترتيمة جديدة» ، قال أغسطينوس ، «رسموها في الطريق المأمون ، كما يغنى المسافرون . فهم يغنوون خصوصاً في أوقات الليل . كل ما حولهم يدعو إلى الخوف ، تزعجهم أقلّ ضجة أو أي صوت مهما كان خافضاً ، وحتى الصمت الرهيب نفسه ، لأنّه يولد الخوف في النفس . كما أنّ أولئك الذين يخشون قطاع الطرق ، يتجمّعون أيضاً لأجل الغنا». ¹³ أمّا المسيحي ، فيرث ، لأن قلبه يفيض بالفرح ، و لأنّ المسيح يسبر أمامه ليعد له السبيل . و هو لا يُنسد أغاني العالم ، كما يذكّرنا أغسطينوس بأنه «جديد هو الطريق ، و جديد هو المسافر ، و جديدة هي الأغنية». ¹⁴

و من وقت إلى آخر ، يتوقف المسافر ليأخذ قسطاً من الراحة . علق أغسطينوس على هذا بالقول : «نجدّد قوانا حين نتوقف قليلاً في فندق ، ثم نعود بعد ذلك إلى التحرّك من جديد . إننا نجد هنا خير نعيير عن حياتنا كمسيحيين . فأنت تقصد الفندق لأنك على الطريق . و أنت تلتجمّء إليه لأنك ت يريد ان تكمل سيرك ، لا لأنك ترغب أن تقع في مكانك . انت في رحلة ، و هذه الحياة هي سلسلة من الفنادق». ¹⁵ إلا أن الفنادق غالباً ما كانت في تلك الأيام ذات سمعة سيئة ، و هكذا كان المسافر شكوراً عندما يستضيفه مسيحيون آخرون . فالمأوى الذي

يقدم الى أخ في المسيح يُقدم في الواقع للمسيح نفسه ، تماماً كما وجد التلميذان اللذان كانوا متطلقين الى عمواس.¹⁶ كانت الكنائس المحلية الكبرى كتلك التي في قرطاجة ، تُعدّ وتنظم احياناً بيت ضيافة دائم للمسافرين ؛ كما ان آخرين كانوا يسمحون للمسافرين بالنوم في مبني الكنيسة المحلية . و مونيكا ، عندما كانت في طريقها لزيارة ابها في ايطاليا ، باتت ليلة في بيت تابع لكتيبة قرية من قرطاجة .

يوجد مكان للعز و للمعوز في مواعظ أغسططينوس ، كما انه كان لهم مكان في شوارع هيبو ، حيث كان التجار يختلطون مع المسؤولين يوماً بعد يوم . كان الأغنياء ، أصحاب الأرضي ، يتجذبون الى الكنيسة بفضل ما يسمعونه عن المواقع المنشقة التي كان يلقاها الوعاظ المهوبيون أمثال أغسططينوس . كان هؤلاء aristocrats قد جمعوا ثراءهم من تصدير البضائع الى روما ، إلا أن المدينة باتت ايضاً شبه شبكة فانصة تحتوي على العديد من الذين كانوا يجتازون في ضيقات وأزماط ، أو قد تمّ ربما اقصاؤهم عن مدينتهم أو عن قريتهم بسبب إساءاتهم أو إساءات الآخرين . كان هؤلاء يجدون ملأاً لهم من خلال الإقامة داخل الأكواخ في «قرطاجة» ، او في «هيبو» . وقد عانى الكثيرون منهم الأمرّين من جراء اعمال احتيال و تدجيل : إفلاس في العمل بسبب صفقات عقدها أناس عديم الضمير ، مصادرة الأموال او الاستيلاء عليها بالقوة ، بخس الأرامل حقوقهن ، سرقة صكوك التملك او تزوير مضمونها ، حياة سادها الشقاء بسبب تهديدات جيران جشعين ، او محامين مجردين من المباديء الخلقية يطلبون الرشوة . لقد أشار أمبروزيوس (Ambroise) في ميلانو الى كرم نابوت البزرعيلى ، الذي كان قد سرقه منه اخّاب الشرير ، ملك السامرة.¹⁷ «هذه القصة تكرر يومياً أمام أعيننا » ، قال أمبروزيوس . لقد كانت مثل هذه الحوادث مألوفة في افريقيا ايضاً .

كانت العائلات المتألهة على هذا النحو كثيرة العدد . كان الفقر المدقع حقيقة مرّة : دائتون واقفون يتجادلون عند قبر المديون و على مرأى من أولاده المتبحرين ، قوم محشمون يتحولون في يأسهم الى السرقة و الى تعاطي الزنا ، أهل يُضطرون ، بسبب الجوع الذي أصاب أحد ابنائهم ، الى بيع ابن الآخر في سوق النخاسة ، اولاد يعيشون حياة الحرمان بسبب الموت المفاجيء لوالدهم او تخليه عنهم ، اطفال مطروحون في الشوارع من أمّهاتهم اللواتي اخبنهم بطريقة غير شرعية . و غالباً ما أشار أغسططينوس الى مثل هذه الأمور المرعبة ، و كان الويل من نصيب أي عضو في كنيسته عنده ميل لقهقر الضعيف : «اتبهوا فعندما تفترسون سمكة صغيرة ، سوف تأتيكم سمكة كبيرة لكي تفترسكم انتم !»¹⁸

ناهض أغسططينوس بشدة مارستين كانتا شائعتين : الاجهاض ، و التخلّي عن الاطفال غير المرغوب فيهم . غالباً ما كانت السورة المسيحيات ، وبخاصة أولئك اللواتي كن يقطنن الأيدرة ، هن من كان يهتم برعاية امثال هؤلاء الأطفال المتروكين والمسردين ، يحملهم بحر جياش ، و لا مأوى لهم في هذا العالم . لكنهم وجدوا الدفء و الرجاء من جراء رعاية الجماعة المسيحية لهم . «لقد

حل فصل الشتاء »، قال أغسطينوس ، «ففكروا إذا في الفقراء ، اكسوا المسيح العريان ! كل واحد منكم يرجو ان يتقابل معه في المجد ؛ ولكن انظروا ، ها هو ملفي هناك تحت القنطرة ؛ انظروا ، ها هو يتضور جوعاً . انظروا انه يرتعش من البرد القارس ، معدم و مفلس ؛ انظروا اليه هناك وهو بعيد عن بيته و أهله . افعلوا ما تعودتم ان تفعلوه ، لكن أكثروا منه ! يجب على معرفتكم الروحية ان تتمر في افعالكم و سلوکكم . اتم تسبحون الزارع ، فأتوا الآن بالخصاد !»¹⁹

كانت تُسمع حكايات كثيرة محزنـة عن أناس فقدوا دُورهم ، و صحتهم و مصادر معيشتهم . وكان باستطاعة الأصحابـاء من رجال و نساء أن يجدوا أعمالاً موسمـية ، ولكن بعضـهم لم يكونـوا أصحابـاء أو صالحـين للعمل ، و لم تكن لديـهم آلـية و سـيلة أخرى للبقاء على قـيد الـحياة ، سـوى الـاتـكـال على مـسـاعدة الـمحـسـنين . يـأـني بـعـضـهـم و يـقـرـعـ أـبـابـ الـمـسـيـحـين . «أـتـمـ تعـطـونـ الـمـسـتعـطـيـ عـنـدـمـاـ يـطـلـبـ مـنـكـمـ »، قال أغسطينوس ، «لكـنـ طـوـبـيـ لـمـ يـعـطـيـ مـنـ دونـ أـنـ يـتـنـظرـ الـطلـبـ مـنـهـ . اـدـعـواـ الـمـحـتـاجـينـ إـلـىـ دـخـولـ بـيـوـتـكـمـ ؛ قـدـمـواـ لـهـمـ شـيـئـاـ لـيـأـكـلـواـ . اـفـرـحـواـ عـنـدـمـاـ يـسـدـ رـمـقـ هـوـلـاءـ الـجـيـاعـ ، لـأـنـهـ يـكـوـنـ عـنـدـاكـ قدـ شـبـعواـ مـاـ قـدـمـتـ لـهـمـ مـنـ خـبـزـ ، وـ أـتـمـ تـكـوـنـونـ قدـ شـبـعتمـ مـنـ بـرـ اللـهـ .»²⁰ وـ فيـ يـوـمـ آخـرـ ، قـادـ أغـسـطـينـوسـ شـعـبـهـ إـلـىـ التـفـكـيرـ فـيـ مـاـ شـعـرـواـ بـهـ عـنـدـمـاـ أـعـطـواـ : «لـقـدـ رـحـبـتـ بـإـنـسانـ فـقـيرـ فـيـ بـيـتـكـ ، وـ لـكـنـ يـظـهـرـ عـلـيـكـ أـنـكـ مـتـرـدـ وـ مـتـحـيرـ . أـلـيـسـ هـذـاـ مـاـ يـحـصـلـ ؟ لـعـلـ ذـلـكـ الـإـنـسانـ كـانـ دـجـالـاـ وـ مـرـاثـيـاـ . حـسـنـاـ ، أـعـطـهـ عـلـيـ كـلـ حـالـ . إـنـ كـانـ شـرـيراـ ، فـلـنـ التـفـاتـكـ الـلـطـيفـةـ هـذـهـ قـدـ تـحـوـلـ إـلـىـ إـنـسانـ صـالـحـ .»²¹ كذلك خـاطـبـهـ بـأـكـثـرـ حـدـةـ قـائـلاـ : «انظروا إـلـىـ الـفـقـيرـ الـذـيـ هـوـ إـلـىـ جـانـبـكـ ! أـتـمـ إـيـهاـ الـأـغـنـيـاءـ ، لـتـسـمـ سـوىـ شـحـاذـ وـ اـقـفـ عندـ بـابـ اللـهـ .»²² فالـرـجـلـ الـفـقـيرـ ، قالـ أغـسـطـينـوسـ هوـ قـصـةـ رـمـزـيةـ حـيـةـ : انهـ يـظـهـرـ طـبـيـعـتـاـ الـإـنسـانـيـةـ الـحـقـيقـيـةـ اـمـامـ اللـهـ .

لمـ يـكـنـ أغـسـطـينـوسـ مـحـاـمـياـ يـدـافـعـ عـنـ قـضـيـةـ الـفـقـراءـ فـحـسـبـ ، بلـ كـانـ يـسـعـيـ أـيـضاـ لـتـعـزـيـتـهـ وـ تـشـجـيـعـهـ . وـ لـمـ يـكـوـنـواـ بـدـورـهـ يـشـكـونـ أـبـداـ فـيـ أـنـ كـانـ يـعـملـ لـصـاحـبـهـ ، لـكـنـهـ كـانـواـ أـحـيـاناـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ أـنـ يـسـمـعـواـ كـلـمـةـ تـحـذـيرـ مـنـهـ . فـصـفـةـ الـجـيـشـ مـثـلـاـ ، لـمـ تـكـنـ بـأـيـ حـالـ مـنـ الـأـخـوـالـ مـقـتـصـرـةـ عـلـىـ الـأـغـنـيـاءـ ، هـذـاـ لـأـنـهـاـ قـدـ تـبـرـزـ عـنـ الـفـقـراءـ أـيـضاـ ، وـ عـلـىـ درـجـةـ قـدـ لاـ تـقـلـ عـنـ اوـلـثـكـ . وـ لـعـلـ خـطـيـئـةـ الشـهـوـةـ وـ الـطـمـعـ هـيـ الـأـكـثـرـ شـيـوعـاـ بـيـنـ الـخـطاـيـاـ ، وـ قـدـ دـاتـهـاـ شـرـيعـةـ مـوـسـىـ ، كـمـ دـاتـهـاـ الـمـسـيـحـ فـسـهـ أـيـضاـ .»²³ «انظروا إـلـىـ الغـنـيـ الـوـاقـفـ إـلـىـ جـانـبـكـمـ »، قالـ أغـسـطـينـوسـ مـخـاطـبـاـ الـفـقـراءـ ، «فـلـرـبـماـ كـانـتـ لـهـ أـمـوـالـ كـثـيرـةـ ، لـكـنـ لـيـسـ فـيـهـ أـيـ جـشـعـ اوـ طـمـعـ ؛ بـيـنـماـ أـتـمـ الـذـينـ لـاـ تـمـلـكـونـ الـمـالـ ، أـتـمـ طـمـاعـونـ إـلـىـ أـقـصـىـ الـحـدـودـ !»²⁴

كـمـاـ أـنـ أغـسـطـينـوسـ هـنـاـ أـيـضاـ اوـلـثـكـ الـذـينـ ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـحـوـالـهـمـ الصـعبـةـ ، ظـلـلـواـ مـحـافظـيـنـ عـلـىـ فـرـحـهـمـ ، وـ مـاـ اـنـفـكـواـ يـرـفـعـونـ الشـكـرـ وـ الـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ اـعـطـاهـمـ مـاـ فـيـ حـوـزـتـهـمـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ قـلـتـهـ . إـلـاـ أـنـ أغـسـطـينـوسـ لـمـ يـكـنـ بـالـمـقـلـلـ وـ الـجـاهـلـ ؛ هـذـاـ لـأـنـهـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـ الـكـثـيرـيـنـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـفـقـراءـ قـدـ جـلـبـواـ الـفـقـرـ وـ الـمـعـوزـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ ، وـ بـخـاصـيـةـ اوـلـثـكـ الـذـينـ اـرـادـواـ اـنـ يـتـخـلـصـواـ مـنـ

احزانهم ، او ان يجدوا بعض السرور والترفية من خلال الانغماس في شرب خمر افريقيا الحاد . كان ايضاً يعرف عن بعضهم الذين كانوا أصحاب غنى وامتيازات في بداية حياتهم ، لكن فقدوا كل شيء ، بسبب الادمان ، وانتهى بهم المطاف الى لبس الأسمال البالية . و مع هذا ، فإن أسطفنيوس دعا الآخرين إلى أن يستفقو على أمثال هؤلاء ، وأن يعاملوهم باللطف إن كانوا يتظرون من الله أن يعاملهم أيضاً بالمثل . لقد عملت الكنيسة المحلية الكثير من أجل الفقراء - ك الشخصيين حoccus من مواد غذائية للأراميل واليتامى ، وجمع بعض الثياب المستعملة وجعلها في متناول من هم في حاجة إليها - ولكن كل هذا لا يعفي اعضاء الكنيسة قط من ضرورة تقديم المزيد في هذا المجال . «ان اعطيتم الفقراء » قال أسطفنيوس ، «اتمن بذلك تعطون رسولكم الشخصي ، فإنه سيوصل لأجلكم إلى السماء كل ما تائتونه عليه ». 25

قال أسطفنيوس إن المحبة تبذل كل ما في وسعها لمساعدة الآخرين ، ولاحتمال زلائمهم وخطائهم ، وإن هذا هو سبب ترحينا بعودتنا أولئك الذين تركونا وسقطوا في الخطية ، إلى الكنيسة من جديد . ولكن المحبة تتطلب مثـا في بعض الأحيان ان نطلب لأجل الذين نحبهم ان يرثوا في حياتهم إلى مستوى أعلى . فالله ، كأب حكيم يؤذينا لأجل صالحنا . و هو لا يرغب في أن يحرمنا من بركة او من مسرة ، لكنه يرغب في ان يتزعزع من قلوبنا الخطايا التي تسبب لنا الحزن والأسى . «المحبة هي التي تضرب وتجرح ، بينما الشر هو الذي يُطْرِي و يتملّق ». 26 الله في معاملاته معنا لا يريحنا دائمًا ، لكنه دائمًا يتضاعـنا . و بما ان الله يتعامل معنا بأخلاص ، لذا يجب علينا ان نتعامل مع الآخرين بلطـف ، ولكن بحزم . فنويـخـهم عند الضرورة ، وبالاكثر عندما نكون مسؤولين شخصياً عنهم وعن سعادتهم .

كذلك ألمح أسطفنيوس أيضـاً إلى ان الأمور ليست دائمـاً كما تبدو لنا . فالناس قد يعملون المأثر الحسنة ، ولكن انطلاقـاً من بواعـث بحـث أناـنية . و من جهة أخرى ، قد نعمل بأفضل الدوافع ما قد يظهر عليه بأنه تصرف وحشـي وفاسـد . «يوجـدـ أشيـاءـ كـثـيرـةـ تـظـهـرـ بأنـهاـ جـيـدةـ ،ـ لـكـنـهاـ فيـ الواقعـ تـخلـوـ منـ المـحـبةـ فيـ جـذـورـهاـ ». لكن أمورـاً آخرـى تـبـدوـ فـاسـيـةـ وـ مـرـفـوضـةـ ،ـ معـ آنـهـاـ فيـ الواقعـ ،ـ مـعـمـولـةـ بـدـافـعـ المـحـبةـ لـلـآخـرـينـ .ـ وـ هـذـاـ يـنـطبـقـ عـلـىـ التـأدـيبـ فـيـ الـكـنـيـسـةـ الـحـلـيـةـ :ـ آنـهـ يـعـمـلـ لـصـالـحـ الـذـيـ يـقـبـلـهـ .ـ وـ لـكـنـ ،ـ كـيـفـ لـنـاـ انـ نـعـلـمـ إـنـ كـنـاـ تـعـسـنـ التـصـرـفـ إـمـ لـاـ؟ـ فـيـ شـؤـونـنـاـ الـيـوـمـيـةـ ،ـ كـمـاـ فـيـ أـمـورـ الـكـنـيـسـةـ ،ـ إـذـ شـتـنـاـ انـ نـعـرـفـ أيـ سـلـوكـ هوـ الصـحـيحـ ،ـ يـنـصـحـ أـسـطـفـنـيـوسـ بـأـنـ نـفـتـشـ فـيـ قـلـوبـنـاـ عـنـ الـمـحـبةـ ،ـ وـيـأـنـ نـعـمـلـ مـاـ تـمـلـيـهـ عـلـىـ الـمـحـبةـ .ـ ثـمـ يـخـتـمـ أـسـطـفـنـيـوسـ بـقـوـلـهـ الـمـأـثـورـ :ـ «ـفـيـ النـهـاـيـةـ ،ـ ثـمـ وـصـيـةـ وـاحـدـةـ مـعـطـاهـ لـكـمـ :ـ أـحـبـواـ ،ـ ثـمـ اـفـعـلـواـ مـاـ تـشـاؤـونـ وـتـرـغـبـونـ ».ـ 27ـ هـذـاـ لـأـنـ الـذـيـ يـحـبـ ،ـ لـاـ يـعـمـلـ إـلـاـ خـيـرـ وـ الـحـسـنـ دـائـماـ .ـ

في القرن الرابع ، كان عدد الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين في المدن ، أكبر من عدد الوثنين . و كان من الصعب ان تجد بينا لا يحتوى على مسيحي واحد على الأقل ، كما ان البيوت التي هي في غالبيتها وثنية باتت نادرة . لكن هذه الظاهرة لم تحدث أي تغيير كبير في نمط الحياة

الذي كان متبعاً في الشوارع او في الأسواق . لقد وقفت الكنيسة لتنافس ما كانت تقدمه المسارح والميادين من عروض جذابة وبيهجة . كانت حشود المندفعين من درج هيبو ، وهم ملؤون إثارة من جراء ما رأوه معروضاً أمامهم على هذا الدرج قبل قليل ، بجدون أنفسهم انهم قد اختلطوا في الشوارع بالسيحيين الخارجين من الباسيليكا . «يا نشعاستهم !» كانوا يتمتنون ، «إنهم لا يدررون ما فاتهم من مشاهد مشيرة في الداخل !»²⁸ طبعاً لا يمكن للمزامير ولصلوات في روعتها اللطيفة ، ولا للعظات في فصاحتها وبلاغتها ، ان تكون طرقاً في المناسبة على أساس هذه الشروط . كانت العبادة المسيحية في روعتها وجمالها تُعرض على الجمهور عينه ، ولكنها كانت تحرك مشاعر مختلفة عندهم . لم تكن اجتماعات المسيحيين معًا تهدف قط إلى أن تكون مرحة وسلية ، وهكذا باتت خيبة الأمل من نصيب كل من كان يخالها كذلك . وغالباً ما كان أغسطينوس يتأسف في مواضعه ، ويرثي حال أولئك المسيحيين الذين كانوا يقطعون عن الاجتماعات بسبب ارتياحهم للسارح . فأولئك الذين كان يوسعهم ان ينالوا أكبر إفاده ممكنة من كلامه ، لم يكونوا حتى حاضرين للاستماع إليه .

لكن ، وُجد أيضاً في الكنيسة من كانوا مصدر فرح وسرور لاغسطينوس . كانوا يقرأون الكتاب المقدس في بيوتهم ، باذلين كل ما في وسعهم للسير بوجوب ما يكتشفونه فيه . كذلك كانوا يجتمعون كل يوم للصلة ، ومرة في الأسبوع لأجل التعمّق في التعليم ، كما أنهم كانوا يحتملون بصبر أخطاء من هم حولهم من الناس وعيوبهم . لقد اظهروا محبة المسيح في حياتهم . قال أغسطينوس عنهم إنهم يشبهون النمل : «تأملوا أذًى نملة الله : أنها تصحو باكراً في كل يوم ، تُقبل سرعة إلى الكنيسة ، تصلٌ ، تصغي إلى القراءات ، تشارك في الترنيم ، ثم تخرج لتجتر ما قد سمعته . إن هؤلاء القوم يستمرون ، على غرار النمل ، في السير ذهاباً وإياباً في الطريق عينه بلجم مخزون لفصل الشتاء ».²⁹

إلا أن الوثنية ، مع مذهب حبوبة المادة (animisme) ، كانت لا تزال شوكة في جنب الجماعة المسيحية . وأحياناً ، عندما كان عدد كبير من الوثنين يعتنقون المسيحية ، كان عندهم ميل إلى أن يحملوا معهم إلى الكنائس كمباث ضخمة من الرواسب الوثنية . وقد كان من الصعب على القيادة الروحية آنذاك ، والتي سبق لها أن وزّعت مقدراتها وطاقاتها ، أن تزودهم جميعهم بالتعليم الملائم الكافي . كما انه غالباً ما كان قادة الكنيسة أنفسهم غير مؤهلين لتقديم الأمور ، وبالتالي تقرير ما يُسمح للمسيحيين ان يعتقدوه و يمارسوه ، وما يجب أن يرفضوه . لقد شاعت في القرن الرابع في أوساط الكنائس بعض العادات المعروفة والتي ترجع في جذورها إلى مذهب حبوبة المادة ، لا إلى الأسس الكتابية المسيحية . أنها تُظهر في الواقع مجرد قشرة مسيحية رقيقة تفطّي تحتها جسماً صلباً من المعتقدات والمارسات الخرافية - مثال ذلك رسم إشارة الصليب في الهواء كدفاع ذاتي ضد الشر والشرير - وبالاستناد إلى هذه الخلفية الوثنية ، نستطيع ان ندرك الأسباب الكامنة وراء الاهتمام بمحاسبة بتوجيه الصلة الى أرواح الموتى ، وبجمع رفات الشهداء وزيارة المقابر والمكان الأخرى المعتبرة مقدسة .

لقد استحوذت هذه المعتقدات القديمة على عقول الرجال و النساء آنذاك على مدى أجيال كثيرة ، حتى إن عدداً كبيراً من الناس استحسنوا أن يساوموا و يبقوا يعيشون بين الفرقتين . و هكذا اكتفوا بإضافة صيغ جديدة إلى صيغ العادات والتقاليد التي كانت مألوفة عندهم قبلأ . كانوا يمجدون الله في الباسيليكا ، وأيضاً يتمتعون بالله الإخلاص و الحرب في المسارح والميادين ويهجرون بها . كانوا يلبسون التماثيل ، لكنهم كانوا يحتشرون في داخل بعضها آيات من الكتاب المقدس . كانوا أحياً ناظر الكنيسة وأحياناً أخرى العراف والمنجم . كانوا يخافون من الفأر السيئ ، ويفتشون عن الفأر الحسن . كانوا يأخذون الخيط و الخنزير من أمور وهمية ، وذلك بالتلتفظ بأشكال من الرقي وعبارات السحر . كما انهم كانوا يحاولون استرضاء الشياطين الذين كانوا يحسبون اعتقدهم ، يطوفون خلسة حول مصادر المياه والمزارع . «انهم يتصورون ان الشياطين هم مصدر غناهم » قال أسطينوس ، «في ظنهم ان الله ضروري للحياة الأبدية ، ولكن في ما يخصّ ضروريات الحياة ، يكون من الأفضل التوجّه الى القوى الشيطانية . يا للغباء ! «انهم مسيحيون طيبون ما دام كل شيء على ما يرام » أضاف يقول ، «ولكن اذا حصل معهم أي حادث مؤسف ، فهم يهرعون الى العرافية ليبروا ما تقوله أوراقها . يا لسذاجتهم ! »³⁰

ان الكثيرين من الذين كانوا يعزون اعمالهم الشريرة الى تزامنات النجوم ، ظلّوا يحتفظون باعتقداتهم الخرافية بالقضاء و القدر ، و هو أمر لا يزال مألوفاً حتى في أيامنا الحاضرة . و بدل من أن يلوموا النجوم او «القدر» ، أصبحوا يلومون الله . ثم يختارون الأعذار المناسبة : «لو لم يكن ذلك من إرادة الله ، لما كنت فعلته ! فماذا تتوقعون مني ؟ لقد كان هذا قدرى ! »³¹ كانت صرختهم في الأيام الماضية : «ان من ارتكب الفحشاء والزنى هي الزهرة (Vénus) ، لا أنا ! لم أكن أنا الذي قتلت هذا الرجل ، بل عطارد (Mercurie) هو الذي قتله ! ! » و هكذا نجد أنه لم يطرأ على كل هذا إلا تغيير قليل . انهم يصرّحون الآن بيساطة بالقول : «لم أكن أنا بل الله ! »³²

آخرون حاولوا ان يجمعوا بين عبادة الله و الاستمرار في تقدّماتهم السرية للألهة الرومانية : كابيلستيس (Célestis) ، نبتون (Neptune) ، جُونو (Juno) وغيرها . بالنسبة الى هؤلاء الناس ، كانت أية كارثة ، سواء أكانت طبيعية أم بشرية ، تهشم ما كان لديهم من ايمان ضعيف . فبحن سقطت روما سقطوا هم أيضاً معها . لقد كانوا يتمسكون في يأسهم بأقنية الألهة المتقدّرة في محاولة عقيمة لإعادتها الى الامبراطورية التي كانوا قد تخليوا عنها .

كيف السبيل الى تشجيع الناس على الانتعاش بالكلية من الماضي ؟ تلك كانت القضية التي شغلت قادة الكنيسة في القرن الرابع . وقد اتخذ القرار في ذلك الحين بنقل الاحتفال بعيد ميلاد يسوع من السادس من شهر يناير (كانون الثاني) الى الخامس و المشردين من شهر ديسمبر (كانون الاول) ، الذي كان يصادف موعد انقلاب الشمس الشتائي وعيد مولد الإله شمس . و كانقصد من ذلك هو ادخال شكل من الجذب المضاد في هذا اليوم الذي كان المهددون الى المسيحية يمليون فيه الى مشاركة غيرائهم الوثنين في احتفالاتهم الدينية الصاخبة .

إن احتفال المسيحيين بيوم القيمة - حين يتذكرون موت المسيح و قيامته - قد صادف حلوله في الربع ، في الوقت عينه حين كان الوثنيون يحتفلون بشعائرهم وبطقوسهم الخاصة المتعلقة بالموت والقيمة . وإذا كان كلّ من الاحتفاليين يجربان في وقت واحد ، كان على المسيحي أن يختار واحداً منها . ولكن الخطر في ذلك هو أن يكون احتفال المسيحيين مشابهاً إلى حد كبير لذلك الاحتفال الذي كانوا يحاولون الاستعاضة عنه ، الأمر الذي يعمل على تثبيت ، لا الحق المسيحي بل الضلال الوثني ، في أفكار المشاركين فيه .

لم تكن معتقدات الوثنية و خرافاتها هي التي لا تزال موجودة وحدها في الكنيسة ، ولكن مع الأسف الشديد ، وفي حالات عديدة ، كان معها أيضاً مقاييس وثنية للسلوك والممارسة . فالكاثوليك الذين رحبوا بكل الناس و بلا استثناء ، وجدوا نتيجة لذلك ان اجتماعاتهم كان يحضرها الكثيرون من الذين لم يكونوا مسيحيين إلاً بالاسم فقط ، كما ان بعض هؤلاء لم يكونوا حتى يدعون انفسهم مسيحيين . كانت هذه الحشود تستمتع بالمناسبات الاجتماعية و بفضائحه الواعظ ، ولكن لم يكونوا ينزعون قط أن يتوافقوا عن ضرب زوجانهم ، وعن معاشرة خليلاتهم ، والتعامل بالغش مع زبائنهم . ففي القرن الرابع أصبحت الاجتماعات تمحور على خطبة أو محاضرة فضيحة ، و ملقاء بعبارة يقاطعها بين الفينة والأخرى تصفيق الحشود المجتمعية و هنافهم . أما أغسطينوس ، فكان يبكي ؛ لقد أوضح لقطيعه كيف أنه يفضل بالنسبة إليهم أن يعملوا بموجب ما يوجههم إليه ، على أن يهملوا لدى سمعائهم إياضاته . لقد تحدث عن بعض الناس الذين لا يريدون العمودية خوفاً من ان تُضطرّهم هذه العمودية إلى الإخلاص لزوجاتهم . كانوا يتمتنون عليه كثيراً إلا ينطّرق إلى مسائل شخصية من هذا النوع . فرد عليهم بالقول : «سابق اتكلم سوء أحبتهم ذلك أم لا .»³³ انه يكشف الخطايا القبيحة التي تقترفاها جماعته ، ثم يتوسل إليهم لكي يصلحوا طرقهم . وقد صور الوضع ، ربما بشكل أقسى من حقيقته ، لأنه كان مهتماً بشفاء المرضى أكثر من نهضة الأصحاب . لقد كان قصده من الصورة التي رسماها أن يصعق الجماهير - و بالتالي اصلاحهم - أما الحقائق ، فهي لا تقبل الشك .

في بعض الأحيان ، لم يكن تجنب عملية التأديب ممكناً ، لقد كان من الضروري منع أحد الرجال او النساء عن العشاء الرباني . و كان على التائب ان يعبر عن توبيه بالصلوة والصوم لوقت طويل . ولكن عملية تأديب مثل هذه الجماهير المختلطة ، كانت مشحونة ومفعمة بالصعوبات : «انه من الضروري ان تراعي بالنسبة الى كل واحد من اولئك الذين يخضعون للتآديب ، مدى قدرته على الاحتمال »، قال أغسطينوس ، «و ذلك لثلا نشل» بعضهم ، أو ثُirteen بعضهم الآخر . كم أنا احتمل من كروب ! ف غالباً ما يحدث إني أؤدب انساناً في عشر من جراء ذلك ، وإن كنت لا أؤدب ، ي عشر شخص آخر هذه المرة .»³⁴

ولكن ، لماذا لم يكونوا مسيحيين أفضل مما هم عليه؟ قد يجيب بعضهم : لأنهم لم يكونوا مسيحيين أبداً ، و هم وبالتالي لا يستحقون على الإطلاق العمودية التي رفضوها . ففي القرن الرابع

للميلاد أصبحت الكنيسة مركزاً اجتماعياً هاماً في مدن شمال أفريقيا . لقد حلّت ابنتها محلَّ المعابد و قاعات جماعات الحرفيين و الصناعيين ، حيث يجتمع الناس لكي يتظارحوا أطراف الحديث . وفي هذا الوقت أيضاً ، كان العديدون قد لُكِدوا في داخل العائلات المسيحية ، وهكذا اعتادوا على حضور اجتماعات الكنيسة منذ نعومة اظفارهم ، من دون أن يستجيبوا شخصياً للدعوة المسيح . لقد أدعى بعضهم أنهم مسيحيون ، لكن لم تظهر في حياتهم إلا الدلائل القليلة على مسيحيتهم ؛ ومع ذلك فقد رُحِب بهم ، على أقلّ ان يتحسّنوا ، إذ يستمعون إلى الموعظ و إلى ما يتعلّق بالإيمان . لقد كانوا أعضاء في الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن ، بأسف و حزن عميقين ، لم يكونوا تلاميذ حقيقين للمسيح . و عليه ، هل يوجد شيء آخر يمكن توقعه منهم ؟ كيف يامكانهم أن يعيشوا بفورة الله ، إن كانوا لم يحصلوا بعد على غفران الله ؟ و كيف سيكون بوسفهم أن يرجووا الحصول على بركة الله في الوقت الذي يرفضون أن يطليوه تعالى ؟ لقد بذلك أغسطينوس فصارى جهده لتحويل الزوان إلى حنطة ، لكن هذه المهمة كانت خارجة حتى عن نطاق إمكاناته . فقد كرر التحذيرات نفسها ، وقدم التوجيهات عنها ، وعلم الحق ذاته ، ولكنه اكتشف مع مرور الزمن كيف أن رعيته ظلت جاهلة و ضعيفة ، كما كانت دائمًا من قبل . لم تعد الكنيسة الكاثوليكية كشراكة بين أنساس مسيحيين مخلصين و تزهاء . وفي معظم الأوقات ، كانت تحذيرات أغسطينوس الصادقة تذهب أدراج الرياح و تصطدم بأذان صماء .

ملاحظات

Sermon 88:1

Sermon 67:9-2

De Civitate Dei 18:51-3

2:5 - 1 بطرس

(Hamman p. 47) *Enn. in Psalmos 38:13-5*

37 - 33:5 Brown pp. 149 - 150 ; *De Sermone Domini in monte 1:51-6* ، بالإشارة إلى متى

(Hamman p. 48) *Enn. in Psalmos 70:17 -7*

(Hamman p. 51) *Epître 159:3 -8*

6:6 - أفس

10:16 - لوقا

19:4 - فيلبي

12 - لوقا 6:34-36 ، رومية 13:8 ، أمثال 7:22

(Hamman p. 86) *Enn. in Psalmos 66:6 -13*

(Hamman p. 86) *Enn. in Psalmos 66:6 ; 137:10 -14*

(Hamman p. 86) *Tractatus in Joannis evangelium 40:10 -15*

- 16 متى 35:13 - 40:37:25 ، لوقا 24:19 - 1:21 ملوك 1:21 Hamman pp 144 - 145 - 17
 (Hamman p. 208) *Enn. in Psalms* 64:9 - 18
 (Hamman p. 351) *Sermon* 25:8 - 19
 (Hamman p. 141) *Enn. in Psalms* 103:3, 10 - 20
 (Hamman p. 141) *Sermon* 41:7 - 21
 (Hamman p. 141) *Sermon* 123:5 - 22
 - خروج 17:20 ، لوقا 12:15
Enn. in Psalms 72:26 - 24
 (Hamman p. 141) *Sermon* 60:8 - 25
 (Hamman p. 304) *Tractatus in Joannis evangelium* 7:8 - 26
 (Hamman p. 304) *Tractatus in Joannis evangelium* 7:8 - 27
 (Hamman p. 168) *Enn. in Psalms* 147:8 - 28
 (Hamman p. 215) *Enn. in Psalms* 66:3 - 29
 (Hamman p. 184) *Enn. in Psalms* 91:7 - 30
 (Hamman p. 191) *Enn. in Psalms* 140:9 - 31
 (Hamman p. 192) *Enn. in Psalms* 61:23 - 32
 (Hamman p. 97 - 98) *Serm. Denis* 20:6 ; *Sermon* 82:11 - 33
 (Hamman p. 211) *Epître* 95:3 - 34

الفصل الثامن والعشرون

التقاليد المنحرفة

كلما ابتعدنا عن عصر الرسل ، وجدنا تقاليد الكنيسة أكثر ازعاجًا وارهاقًا ، وازداد رثاؤنا لضعف المسيحيين . لقد وضع جاتباً العديد من مبادئ العهد الجديد ، هذه المبادئ التي كان من شأنها ان تحفظ المسيحيين في مسارهم السليم وأن تقودهم ؛ وهكذا تم التمسك بالمقابل بمارسات غريبة مستوحة من عوائد العالم : التشقّف المانوي الذي ينادي بالعزوبة ، فن خطابة الفلسفة اليونانيين ، الطقوس الخرافية في العبادة الوثنية والأنظمة الإدارية في الامبراطورية الرومانية .

لقد تبدل الزمان وانتهت الأيام التي كان يتعرض فيها المسيحي للسجن وللموت من جراء إيمانه . وإذا غاب الاضطهاد عن باي الناس وتلاشى من ذاكرتهم ، تم تشييد قاعات ضخمة للجماعات ، وراحت الجماهير تدفع إليها بأفواج كبيرة . كان المجتمع المسيحي قد أصبح في ذلك الوقت مؤسساً بشكل راسخ ، و معروفاً للغاية ، كما ان قادته باتوا حينها مشهورين وذوي شعبية كبيرة . وفي بداية القرن الخامس ، كان على كل من يرغب في إظهار نفسه ، ان يدخل بين الجموع المحتشدة في الباسيليكا . وهكذا صار الكثيرون يؤمنون الكنيسة بدفاعه دنية وقدرة جدأ : كسب ترقية في الوظيفة ، استرضاء صاحب عمل مسيحي ، الزوج بفتاة مسيحية ، او لكسب زبائن مسيحيين . كانت هؤلاء الناس مصدر قلق وألم لآغسطسنيوس . فقال : « أي فرح نحصل عليه في حشود كهذه ؟ « اسمعوني ايها القليلون ! أنا أعلم ان الكثيرين يصغون إليّ ، لكن ، قليلاً هم الذين يأخذون كلامي على محمل الجد ». « من أين جاءت أعظم شرور الكنيسة التي تسبب لنا هذا الحزن العميق سوى من استحاللة الحكم في هذه الجماهير الغفيرة التي أفسدت مبادئ الكنيسة واستطاعت الدخول بأخلاق مخالفة تماماً لطرق القديسين؟ »¹

انتهت الأيام حين كان المسيحيون في غالبيتهم يعرفون بما يؤمنون ولماذا . ولم يعودوا ينجذبون الى الإيمان من وسط صفوف أولئك الذين كانوا يواكبون منذ نعومة اظفارهم على حضور المدرسة أو المجتمع ، وعلى استظهار مقاطع كبيرة من الكتاب المقدس . كانوا يجهلون الأمور الروحية بشكل مخيف ، والقليل القليل منهم كانوا على علم بذلك . « لسنا تلقين أبداً » - قالوا ذلك بمرح ينمّ على لامبالاة - « ... هذا لأننا نتبع ناظرنا ! » فأجابهم أغسطسنيوس : « إن ما تقولونه هو خالٍ من أي منطق ، لأنه يوجد نظار حتى بين أوساط الهرطقة ». ² لكن

المسيحيين كانوا قد اعتادوا على الاتكال على الرجال المهوسيين عوضاً عن الاعتماد على الله . كانوا في الكنيسة مجرد متفرجين ، لا مشاركين ؛ يكتفون بالحضور غير آبهين بأن يصبحوا تلاميذ المسيح . « ان شعب هيبو » قال أغسطينوس ، « هؤلاء الذين أقامني الله خادماً لهم ، هم جميعهم تقريباً ضعفاء للغاية ، بحيث ان أصغر الصعاب هي كافية لتهاجمهم ». ³ فعندما كان أغسطينوس بعيداً عن المدينة ، كما كان يحصل خلال ثلث أوقاته ، كان الشعب يجد نفسه في حالة من الهلع . ولكنَّ كتابوا اليه وهو في قرطاجة ، يتوسلون اليه ان يعود اليهم سريعاً ، لأنَّ الشيخ البديل الذي بذل قصارى جهده ملء الشغرة ، لم ينجح في إرضائهم .

انتهت تلك الأيام التي كان فيها الإخوة والأخوات أصحاب الأذكار التجانسة ، يجتمعون معًا لتشجيع أحدهم الآخر . ولم يعد هناك اجتماعات تلقائية يستطيع كل واحد خلالها أن يعلم ، أو يصل إلى ، أو يقرأ كلمة الله ، كما يرشده روح الله إلى ذلك . انتهت أيضاً دفة شركة المحجة ورابط الإيمان المشترك بال المسيح . كما انتهت أيضاً تلك الحماسة لنقل بشارة الإنجيل إلى أقصى الأرض . فالدعوة إلى المحبة - دخول البناء والإصغاء إلى الناظر - حلّت مكان الدعوة إلى الذهاب لزرع بذور الإنجيل في كل مكان . لقد أصبح اجتماع عدد كبير من المحتشدين المتفرجين حول العلم المهووب هو النمط المتبوع : فاستبدل تكبير كنيسة ما ، في مركز مهم في مكان مركزي ، بزرع مجموعات من المسيحيين في كل مكان . ⁴ ومع بداية القرن الخامس بات الخطيب الفصيح الواقف أمام الجمهور الحضري ، هو الذي يقردهم ويتلقهم ويسليمهم ؛ و هكذا راحت الهوة بين « الإكليروس » و « العلمانيين » ، بين القادة والمتقدسين ، تزداد وتتسع أكثر فأكثر . فإذا كليسروس كل كنيسة المؤلف من ناظر وشيخ و مدربين و مساعدي المدربين و قراء ، هم الذين كانوا يوجهون اجتماعات الكنيسة فيقرارون في الكتاب المقدس و يتقدون ما سيتم إنشاده من ترانيم و مزامير . أمّا دور العلمانيين ، فكان يقتصر على حضور الاجتماعات ، و الظهور من الخارج بظاهر المساجدين ، و تعبيته صندوق المال . و هكذا ، فمن الناحيين النظرية والعملية ، كان الإكليروس هو الذي يتحرك و يقوم بالخدمة ، في الوقت الذي كان العلمانيون يقبعون في أماكنهم جامدين . ⁵

كان الإكليريكيون الشباب يخضعون في معظم الأحيان لتدريبات تؤهلهم ليصبحوا نظاراً . كان يُتوقع منهم أن يتقيدوا بمقاييس أدبية صارمة أكثر من سائر أعضاء الكنيسة . كانوا يعدون أنفسهم لذلك اليوم الذي فيه يؤمّنون على الاهتمام في مكان بعيد ما بجماعة خاصة بهم . هذا لأنَّ كنائس القرى وهي أصغر من كنائس المدن ، كان لها الحق ان تختار ناظرها من بين اعضائها او أن تقبل بناظر قد جرى تدريبه في إحدى كنائس المدن الكبرى . كانوا يوثرون الخيار الثاني إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنَّ هذا الناظر سوف يكون رجلاً منتفقاً ، يجيد الكلام و يتقن اللغة اللاتينية ، و يستطيع أن يعتني بهم من كل النواحي . و غالباً ما كان الناظر المهووب ضليعاً في مجال تعليم رعيته ؛ و بفعله هذا ، كان يضمن يشكل فعالاً أنهم سوف يبقون خرائفاً ، و لا يطمحون أبداً إلى أن يصبحوا رعاة .

كان النظار من كنائس مختلفة يلتقطون معًا من وقت لآخر ، بمناسبة مؤشرات كانت تُعقد في قرطاجة او في أماكن أخرى . وقد عودوا انفسهم على استعمال الصلوات اللاتينية الرسمية والصياغات اللاهوتية التي تم إصدارها و الموافقة عليها في مؤتمراتهم . وقد كانت غايتهم من ذلك ضمان الانسجام في التعليم مع تجنب الأخطاء والانحرافات العقائدية . إلا انهم بعلمهم هذا ، قيّدوا المسيحيين المحليين إذ أغلقوا أمامهم المجالات لأخذ المبادرة . في مجال الطقوس الدينية ، إن استخدام لغة لم تكون سهلة و ميسّرة إلا للقليلين ، ساعده على توسيع الهوة بين الإكليرicos والعلمانيين . كما ان هذا الأمر رسم أيضًا عند الفلاحين و الباعة المتجوّلين ، شعورًا بتنقفهم ، وبضرورة اتكالهم على الناظر المنافق الذي تم إرساله لأجل الاهتمام بهم . كذلك أثر فيهم أيضًا تأثيرًا كبيرًا إذ تسبّب بإطفاء الروح القدس الذي كان ، ليتهم علموا ذلك ، مستعدًا للتحدث إلى المؤمنين بالغتهم الأماس ، أي الأمازفيّة ، و خدمتهم بواسطة أزواجهم و إخوتهم . لقد أصبحت القيادة الروحية من امتيازات نخبة معينة من الأخصائيين ، طفة الكهنة التي كان كبرياتهن قد دعا إليها و رسختها .

و من جملة التطورات ، و كان أكثرها مدعاة إلى الاستغراب ، ذلك التوّقّع - إن لم نقل الشرط - بأن ينذر الإكليرicos على البقاء في حالة العزوّة . و عمليًا ، فهذا يعني أنه لم يعد بإمكان أي مسيحي متزوج أن يكون مسؤولاً بعد الآن في الكنيسة . هذا و إن المتزوج الذي يتم تعينه شيئاً ، كان عليه في الواقع أن يفصل عن زوجته ، التي باتت متوقّعاً منها أن تتضمّن إلى دير - جماعة من الراهبات العازيات - أو أن تبحث عن شيء آخر تسلمه خلال بقية حياتها . وأحد الصبيان الذي كان يعمل « كقاريء » في الكنيسة ، كان عليه عندما يصل إلى سن البلوغ ، أن يختار إماً أن يتخلّى عن التفكير في الزواج ، و إماً أن ينخلّى عن آماله في ميدان القيادة المسيحية .⁶

إن هذه العادة الغريبة من نوعها ، تتنافى مع كلّ من تعليم كلمة الله ، و الممارسات التي كانت متّعة في بداية عهد الكنيسة في منطقة إفريقيا الشمالية . إن توصية الكتاب المقدس هي صريحة في هذا المجال : « ليكن الزواج مكرّماً عند كل واحد »⁷ كما انّ الرسول بولس يدين بصراحة أولئك «المانعين عن الزواج»⁸ كذلك كان كلّ من بطرس و يعقوب متزوجين ، وهكذا كان « باقي الرسل » بالإضافة إلى إبطال المعهد القديم . و بالطبع « ليكن لكل واحد امرأة » كما يكتب بولس . و نفهم من مكان آخر في الكتاب المقدس أنه يجب أن يكون الناظر أو المدبر « بعل امرأة واحدة» . و هذا لا يعني ان الزواج هو إلزامي بالنسبة إلى قائد في الكنيسة ، ولكن (على الأقل) انه أمر طبيعي .⁹ انا نجد أيضًا أن الكنيسة كانت تجتمع بانتظام في بيت زوجين : برسكلا و أكيلا في روما كما في أفسس . والكنيسة اجتمعت أيضًا في بيت عائلة فليمون و زوجته أفيّة في كولوسي .¹⁰

كان هذا التشديد الغريب على العزوّة امراً جديداً في المسيحية . وقد نجح متسائلين : هل يرجع ذلك إلى التأثير الخفي الذي تركه الماتزيون عندما سبق لهم أن تملّكتوا من الجموع بين كهنوت عزوبي و متياه ، و جماعة من العلمانيين الكسولين و الخاملين ؟ و هل كان يتوجّب على كنيسة المسيح أن تقضي أثارهم بخنوع ؟ و لعلّ هذا ما حصل فعلاً !

والعزّوزية ، بالطبع ، تعني أن قادة الكنائس باقىوا يجهلون الكثير عن ضغوط الحياة الروحية العائلية و عن بركاتها . و هكذا أصبح من الصعب عليهم أن يُسلّدوا آية نصيحة فعالة و مقبولة بشأن هذه المسائل العامة و الحيوية . كما أن من ذيول هذا النّظام هو أن عدداً قليلاً جداً من الأولاد شبعوا و نموا في كف بيوت حيث تعلم كلمة الله بشكل حسن ، و تُعاش عملياً . هذا لأن الأولاد الذين كان أولياً لهم ملمنين بتعاليم الكتاب المقدس ، و بالتالي قادرين على تربيتهم « في تأديب الرب و في إنداره »¹¹ باقىاً قليلاً . كما أن أقلية فقط من بين الشباب البافع ، كانوا يستطيعون الحصول من أب أو من أم ، على إرشاد مسيحي حكيم ينمّ على حسن اطلاع . وقد أصبحت من العادات النادرة أن تجتمع العائلة للصلوة و القراءة كلمة الله معاً . كما أنه لم بعد التركيز على العائلة و على البيت كالمكان للحصول على المساعدة الروحية و على التعليم ، بل أصبح التركيز بالحرفي على بناء الكنيسة .

كانت هذه نقطة ضعف محزنة . إلا أنها لم تكن بعده من الأمور التي يستحيل تخطيّها ، ما دام باستطاعة الأولاد الحصول على هذا النوع من التدريب والتعليم في اجتماعات الكنيسة . ولكن ، في حال أغلقت أبواب الكنائس و تمّ نفي النّظار ، سيكون عند القليلين جداً من الأولياء المهارة الكافية أو الثقة بالنفس ، لتعليم أولادهم الحق المسيحي . و هكذا بات المشعل محكوماً عليه بالانطفاء و الموت ، إذا انعدمت امكانية تسليمه للجبل القادر .

لم تكن هذه هي العيوب الوحيدة في الكنيسة المسيحية الإفريقية ، كانت تظهر من الخارج بأنّها شعبية ، مزدهرة و ناجحة . إن التوكيد الخارجي الظاهري غالباً ما كان قناعاً يستر ريبة داخلية . ففي الواقع ، لم يكن عند مسيحيي إفريقيا الشمالية في ذلك الوقت آية معنويات عالية . فالعديد من النّظار وجدوا أنفسهم أنهم عيّنا بموجب قوانين امبراطورية على رأس جماعة من المسيحيين كانوا لا يزالون في جوهرهم من الدوناتيين . لم تتعجب المناظرات و لا المؤشرات التي نظمها الكاثوليك في تفتيش الدوناتيين في مطالبتهم بالمحافظة على نقاوة الكنائس الإفريقية و على استقلاليتها . كان عدداً كبيراً من المؤمنين قد أرغموا على دخول الحظيرة الكاثوليكية ، و ذلك قسراً و خلافاً لإرادتهم . أمّا آخرون ، فقد دخلوها من تلقاء ذواتهم ، لا لأنّهم كانوا يرثّون إلى الكنيسة الرسمية في الدولة ، بل ببساطة ، لأنّهم سنمّوا الزراعات و أعمال العنف . و طبعاً لا يُتوقع من هؤلاء أن يكونوا متحمسين للكاثوليكية .

السيحيون في أيام أسطنطينوس الذين قرأوا الكتاب المقدس ، أو حتى فقرات منه ، كان عددهم قليلاً جداً . كانوا يستمتعون بمواعظ ناظر كنيستهم ، ولكن قليلاً بينهم كانوا راغبين في قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم أو قادرين عليها . قد قبل ، بحق ، انه في تاريخ العالم ، لم يسبق للكنيسة ، في بلد توافر فيه كلمة الله بلغة الشعب ، ان انحرفت وراء أية ايديولوجية أو ديانة أخرى مغايرة . ولكن الأرض التي وهب ترثيليانوس و كبريانوس و أسطنطينوس ، لم تعم قط ، على مدى تاريخها الطويل ، يامكانية الحصول على كلمة الله بأية لغة . لقد حقق هؤلاء الرجال العظام الكثير ضمن نطاقهم الخاص ، لكنهم فعلوا القليل لتسهيل عملية توزيع الكتاب المقدس على نطاق واسع باللغتين اللاتينية واليونانية ؛ و من الواضح انهم لم يفعلوا شيئاً لترجمة كلمة الله الى اللغة الأمازنية . لقد ارتكبوا بذلك خطأ فادحاً . أما في الشرق ، وفي ذلك الحين ، فكان الرهبان المصريون قد أنجذبوا ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القبطية . كما ان المسيحيين السوريين فعلوا الشيء نفسه خدمة لشعوبهم . و لم يكن الإثيوبيون والأرمن مختلفين كثيراً عن هؤلاء . ولدينا دلائل قديمة على وجود كنائس في هذه الأمكنة تستخدم اللغة المحلية ؛ وقد استمرت هذه الكنائس ، و لا تزال موجودة حتى الى ياماها هذه .¹²

و هكذا في اصرارهم على استعمال اللاتينية كلغة التعليم المسيحي و العبادة ، و بسبب اعتماد قراءة الانجيل باللغتين اللاتينية و اليونانية فقط ، فقد حتم أسطنطينوس مع أبناء جيله أنه بسقوط روما ، ستسقط الكنائس المحلية معها أيضاً . فقد كانوا ، على الأرجح ، يظنون بأن الامبراطورية ستدمي إلى الأبد ، و بأن اللغة اللاتينية ستكون اللغة الشعبية العامة و الموحدة في جميع أنحاء العالم ، و في كل العصور والأوقات . ولكن التاريخ يعلمـنا ان الامبراطوريات تقسم و تسقط . كان باستطاعتهم هم أيضاً ان يتلقـوا من التاريخ هذا الدرس عليه لو أنهم انتبهـوا الى مصير الأشوريـين ، والبابليـين و اليونانيـين و الفينيـقـيين . إنه لا يجوز لأية كنيسة ان تعتمـد على لغـة معـينة ، فقط لـكونـها لـغـة الـقادـة الـمعـاصـريـن . إنـ اللغةـ الـتي يـحكـيـهاـ النـاسـ فيـ بـيـوـتـهـمـ هيـ الـتـيـ يـفـهـمـونـهـاـ أـكـثـرـ ، وـ هيـ الـلـغـةـ الـتـيـ سـتـعـمـرـ أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهـاـ .¹³

على كل حال ، فحتى الكتاب المقدس باللغة اللاتينية كان نادر الوجود جداً في إفريقيـا الشمالـية . كان يجب ان يُستنسخ استنساخـاً يدوـياً . كما ان الكـتبـ التي تـصدرـهاـ الأـديـرةـ كانت غالـيةـ الشـمـنـ جـداً ، و يـصـعبـ شـرـاؤـهـاـ ، و كانـ منـ النـادـرـ انـ يـحـوزـ أيـ إـنـسـانـ عـلـىـ نـسـخـتـهـ الـخـاصـةـ ، حتـىـ وـ لـوـ عـلـىـ جـزـءـ يـسـيرـ مـنـ هـذـهـ الـكـتبـ . كماـ انـ الـأـكـثـرـ السـاحـقةـ مـنـ الـمـسـيـحـيـنـ كانواـ أـمـيـنـ عـلـىـ كـلـ حـالـ ؛ وـ لـمـ يـكـونـواـ يـعـرـفـونـ فـيـ مـعـظـمـهـ إـلـاـ بـعـضـ الـآـيـاتـ الـتـيـ كـانـتـ تـُقـرـأـ بـشـكـلـ مـتـظـمـ وـ يـصـوتـ عـالـ فـيـ اـجـتـمـاعـاتـ الـكـنـيـسـةـ . كانواـ يـعـتمـدـونـ عـلـىـ النـظـارـ لـكـيـ يـشـرـحـواـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ وـ يـفـسـرـوـهـ لـهـمـ . وـ لـمـ تـكـنـ لـدـيـهـمـ الـقـدرـةـ عـلـىـ تـفـحـصـ الـتـعـالـيمـ الـتـيـ كـانـتـ تـُقـدـمـ لـهـمـ ، وـ ذـلـكـ فـيـ ضـوءـ سـلـطـانـ كـلـمـةـ اللهـ . مـنـ الـضـرـوريـ اـحـترـامـ النـاظـرـ وـ الـوثـوقـ بـهـ ، وـ لـكـنـ لـمـ يـكـنـ وـ لـاـ يـكـنـهـ اـنـ يـكـونـ مـعـصـومـاًـ عـنـ الـخـطـإـ حـتـىـ وـ لـوـ كـانـ صـاحـبـ أـسـمـيـ دـوـانـعـ فـيـ الـعـالـمـ . لـقـدـ تـسـلـلتـ

أفكار شاذة غريبة إلى كنائس إفريقيا الشمالية لسبب بسيط وهو أن أولاد الله لم يكن لهم فرصة للاطلاع على كلمة الله .

ملكون الله ، كما هو مذكور في الأنجيل ، يشبه كثراً¹⁴ ، ولكن ليست الكنوز البشرية كلها تختص بملكون الله . كانت الكنائس في عصر أغسطبنيوس قد اكتسبت غنىً على الأرض بالإضافة إلى الغنى في السماء ، وأثر ذلك في موقفهم من الناس والمتلوكات . و من المؤسف أنه كثيراً ما كان الإنسان في القرن الخامس يُقْوَى على أساس مكانته الاجتماعية و ثروته ، لا على أساس إيمانه و مستوى الروحي . وهكذا ، تم الإسراع في إدخال طبقة المثقفين و الحكام و ذوي النفوذ بين صفوف قادة الكنيسة . فعندما يعتنق أحد الأغنياء المسيحية ، كانت كنائس المنطقة تسابق لإضافة اسمه على سجلاتها و تعميه شيخاً للحال ؛ يا له من أمر هزلي و محزن في آن !

إن الرسل و المعلمين في العهد الجديد ، لم يتم اختيارهم على أساس ثقافتهم أو مستواهم الاجتماعي ، أو غناهم . كان يوحنا و يعقوب مجرد صيادي سمك . و حتى العالم العظيم بولس ، عانى خسارة كل الأشياء ؛ و بالطبع فإن سيدهم المسيح لم يكن له أين يستند رأسه . كان النضج و الخلق التقى ، الشرطين العظيمين للقيادة في كنائس العهد الجديد . هذا وقد صرّح ترتوخيانوس في عصره : « إن الشيوخ المواقف عليهم هم الذين يتّسّعون على الجميع ، وقد نالوا هذا الشرف لا بمالهم بل بخلقهم »¹⁵ .

إلا أنه بعد مرور قرنين على ذلك ، وجد أغسطبنيوس أنه كان يُصار إلى الإسراع في ترفيع الإداريين الامبراطوريين و أصحاب المتلوكات إلى مراكز قيادية في المجال الروحي ، من دون أن يكونوا أهلاً لذلك على الإطلاق . و ليس من الصعب إيجاد الأسباب وراء ذلك . هذا لأن انضمام شخص صاحب نفوذ إلى الكنيسة لا يُكسبها شهرة و مكانة اجتماعية و حسب ، لكنه يزيد أيضاً ازدهارها ، و ذلك بفضل ما يمنحها إياه من مال و من متلوكات . فالأرستocratie ، في نظر الناس ، قد ولد للقيادة ، اذاً يتحتم عليه أن يكون قائداً . وعلى كل حال ، إنهم يتتسّعون ، هل سيقبل الإنسان المعرف و الفتنى ان يجعلس على مصطبة خشنة قاسية الى جانب الناس الفقراء و المحترفين و المتبوذين في المجتمع ؟ هذا تماماً ما فعله يسوع ، ولكن الآن ، يظهر ان العبد أصبح أعظم من سيده¹⁶ .

و كثيراً ما كان يعين نظار لا يكترون بأمور الدين . و لعل أبرز مثال على ذلك سينسيوس (Synésius) الذي كان ناظر كنيسة كوريني في القرن الرابع . و كان هذا الأخير يظن نفسه المثقف الوحيد في ليبيا ، ولكنه اعترف شخصياً بجهله للأمور اللاهوتية ، كما ثبّرهن على ذلك رسائله التي تضمنت إشارات لا حصر لها لكتاب وثنين ، و لانتقام الآلهة و القدر ، لكن لم تتضمن تقريباً أية إشارة إلى الكتابات المسيحية او ارادة الله .

لعل أغسطينوس حاول أن يقاوم هذا الاتجاه ، و لكنه لم يستطع أن يضع حدًا له . كان يبحث سامعيه على ضرورة العودة إلى مقاييس العهد الجديد و كان « أنصاف المحتدين » من الوثنيين الذين كانوا يحتشدون في الكنيسة سيؤيدون ذلك أو يأخذونه على محمل الجد ! إذا ... هل ننقى نعجم ماذا سبق للدوناتيين و الموناتيين و النوفاتيين في القديم ، أن اعتبروا أنَّ الكنيسة الكاثوليكية كانت مريضةً و محتضرةً و لا أملَّ في علاجها ؟

لقد أصبحت الكنيسة الكاثوليكية في الواقع من مالكي الأراضي الرئيسيين ، و هي تشغل الآلاف من العمال . و كان من وقت إلى آخر ، يوصي أحد التجار أو المالكين بتجارةه أو يقسم من ممتلكاته إلى الكنيسة . و بذلك جاءت الكنيسة على أراضٍ شاسعة و على أملاك زراعية ، لكل منها قواماً العاملة الخاصة ، بالإضافة إلى نفقاتها و انتاجها . كان ريع هذه الأراضي يستخدم لدعم الإكليرicos ، و لإنشاء أبنية ضخمة ؛ ثم يُصار إلى توزيع ما تبقى منه على الفقراء . كانت ، و لا شك ، تتم إدارة هذه الأراضي بشكل حسن ، و بإنصاف و كرم ، و لكن بات من الصعب على أعضاء كنيسة كهذه أن يقروا يشعرون بحقيقة أنهم غرباء و نزلاء في هذا العالم ، و هم في انتظار أجرامهم في الدهر الآتي .

لكن ، حتى كنيسة كهذه ، لم تكن بالضرورة تتقبل كل ما كان يُقدم لها . فـأغسطينوس رفض الحصول على تركة رجل كان يملك اسطولاً من المراكب تنقل مستحاجات من إفريقيا إلى إيطاليا . لم يكن هذا النوع من التجارة يخلو من الممارسات المريبة ، الأمر الذي دفع بأغسطينوس إلى رفض التورط فيها . فتساءل : « أية حاجة لنا إلى المال ، و إلى حمولات البضائع ، و الأرباح ؟ فالكنيسة ليست بشركة تجارية ! » حسناً ، و قد نوافه رأيه هذا ، و لكن هل كان من الأفضل أن تكون الكنيسة مؤسسة زراعية ؟ لن تعمل مثل هذه البرامج إلا على تحويلها عن دعوتها الروحية ، وربط أكثر الرجال مهارة فيها بمسائل تتعلق بتصفية الحسابات ، و دفع الأجرور ، و حل النزاعات المختصة بالحدود و العقود . « هل تعتقدون أنني استمتع وأفرج باستلاك كل هذه المزارع ؟ » سأله أغسطينوس ، « الله يعرفني جيداً ، و يعرف رأيي في هذا الأمر ، هو يعلم أنَّ هذه المهمة هي مرهقة و مملة بالنسبة إليّ . » وأيضاً : « الله شاهد كيف أن إدارة كل هذه الممتلكات هي حمل ثقيل على كاهلي ؛ إنها اشتغال شاقة و عبودية ، لكن اتحملها بما أنني أثق في الله و أحب إخوتي » .¹⁷

لربما كانت هذه المهمة عبودية ، و لكن هل الله هو الذي حمله إياها ، كما يظهر من طريقة تفكيره؟ يعلمنا الكتاب المقدس أن الكنيسة شركة روحية ، و أن عملها هو روحي في طبيعته . إن هدفها هو الكرازة بالإنجيل للهالكين و تعليم القدسية للمخلصين . إنها ليست مدعومة إلى إدارة مزارع و أعمال تجارية ، و لا لتوفير وظائف أو تكدير أرباح . ففي سفر أعمال الرسل نجد أن الرسل لم يكونوا يجمعون الأراضي ، بل كانوا يبيعونها ، و هكذا يذخرون كنوزاً ، لا على الأرض بل

في السماء .¹⁸ إن النظام الكاثوليكي بضموره الاجتماعي والسياسي ، لا الله ، هو الذي فرض على القادة المسيحيين وعلى الشعب المسيحي مثل هذا الحمل الإداري المرهق والمرعب . وقد أصبح ذلك على مر الأجيال المتعاقبة مصدراً لعدة فضائح وللกثير من الأحزان .

إن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، بتنظيمها وقادتها الحازمة ، كانت ولا شك تلقى تجاويم لدى الرومان محظي الانقضاض ؛ لقد صيفت إلى حد كبير على شبه البنية الإدارية للإمبراطورية ، ولكنها جاءت مختلفة بشكل غريب عن المجموعات المسيحية البسيطة التي نشأت في كل مدينة في أزمنة العهد الجديد .¹⁹ كما أن مثل هذا النظام الكنسي لا يتاسب ولا يتسمج مع الأفارقة الشماليين وشخصياتهم . كان هذا النظام غريباً عليهم ، فهو ليس مستمدًا من الكتاب المقدس ، ولا حتى من الطبيعة الأمازيغية . كما أنه يتضارب مع الحب الفطري عند الإنسان الأفريقي الشمالي لحرّته الشخصية ولجموعاته الصغيرة المحلية والتلقائية . كان الخضوع لسلطة تبعد عنهم مئات الكيلومترات بالأمر الجديد عليهم ، ويتعارض مع الولاءات العائلية والتحالفات المرنة التي هي من صلب تاريخ الشعب . لست بالغ عندما تعتبر أن الروح الاستقلالية عند الأمازيغين هي التي جعلتهم يفضلون باستمرار عبر العصور ، تلك الجماعات غير الرسمية ؛ وهي حركات انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ؛ وكذلك أيضًا ، في ما بعد ، عن الإسلام العربي الرسمي . ونحن نجد بين سكان الأجزاء الداخلية للبلاد أساساً من أشد المؤيدين للدوناتية ؛ وفي عصر الإسلام ، لكل من مذهب الشيعة والخوارج .²⁰ و حتى في أيامنا الحاضرة ، لا تزال جبال المنطقة الداخلية تشهد نزاعاً عنيقاً بين مذهب حبوبة المادة ، والمذين الرسمي .

هذه الرؤية الاستقلالية سبّبت توترةً بين الصداقات داخل إفريقيا ، كما أيضاً عبر البحر الأبيض المتوسط . إن العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية لشمال إفريقيا ، واحتها في روما ، استمرت حارة قلبية ، ولكن بحذر . كان من الواضح أن روما توقعت دائمًا من بقية الكنائس أن تتخل لأحكامها ولآرائها ، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد ، لكي يحصل هذا بشكل تام ومن دون أي احتجاج . ومع مرور السنتين ، راح ناظر كنيسة روما ، آيا من كان ، يدعى لنفسه يالخاخ متزايد أنه هو الوريث لسلطة بطرس وبولس اللذين قبل فيما انها كانوا الناظرين الأولين فيها . إن الفكرة القائلة إن بطرس هو الذي كان أول ناظر في روما ، لم تكن بحد ذاتها ، حقيقة غير قابلة للبحث أو للجدل . وبطرس لم يعتبر الناظر الأول في روما بشكل نهائي إلا بعد أن تم جمع المستند المعروف بـ « الكاتالوغ الليبراني » (Catalogue Libérien) ، و ذلك في روما نحو العام 354 م . أئماً إذا كان الناظر الحالي قد حصل على السلطة عينها التي كانت لبطرس ، فكانت مسألة فيها نظر . ولم يمض وقت طويل حتى أطلق ناظر روما على نفسه التسمية « بابا » ، بمعنى « أب » ، وهو لقب لا يورده الكتاب المقدس مطلقاً بشأن بطرس ؛ انه محصور بالله وحده . في العصر السابق ، كان بعضهم قد اعتاد على مخاطبة كرييانوس مستخدمين العبارة « پاپا » (Pape) ،

وكذلك أيضاً بالنسبة إلى ناظر الاسكندرية ، ولكن كبريانوس لم يشجع الناس قط على ذلك ، رعاً لأن في الأمر تناقضاً واضحاً مع توصية المسيح الصريحة : « لا تدعوا لكم آباء على الأرض لأن أبياكم واحد الذي في السماوات ». ²¹ ثم تم في ما بعد ، و لأول مرة ، استخدام هذه العبارة لمخاطبة ناظر روما ، لكنها لم تصبح مخصوصة به وحده من دون سواه ، إلا مع حلول القرن الحادى عشر . ²²

كان أسطنطينوس يحترم النظار الذين توالوا و تعاقبوا في روما ، كما انه كان يستشيرهم احياناً ويطلب دعمهم بالنسبة إلى بعض المسائل ، ومن جملتها مثلاً النزاع الدوناتي ؛ إلا أنه لم يقدم بزيارة لهم فقط ، كما انه لم يسمح لهم بأية سلطة مباشرة على الكنائس الأفريقية . وفي العام 418م عقد مؤتمر في قرطاجة يمنع على الكنائس الرجوع إلى روما لاستئناف القرارات التي اتخذها القادة المسيحيون الأفارقة . و حتى أقوى المناصرين للوحدة الكاثوليكية بين الأفارقة كانوا يشعرون بالتحفظ من طموحات الكنيسة في روما ، كما انهم قاوموها عند الضرورة .

إن مقاومة التدخل السافر لكنيسة روما في شؤون الكنائس الأفريقية ، بلغت أوجها في مطلع القرن الخامس . ففي قرطاجة تم إقصاء أحد الشيوخ و يُدعى أپاريُوس (Apiarius) من منصبه ، كما أنه تم تجريده من مسؤولياته ، و ذلك بسبب انحرافاته الأخلاقية المتكررة . لكنه قصد روما ، وهناك تمكن من إقناع الناظر فيها بأنه بريء من التهم الموجهة إليه في قرطاجة . ثم عاد بعد ذلك إلى أفريقيا لكي يضيف المزيد من الممارسات الشائنة إلى سجل إساءاته السابقة . و في العام 426م ، أرسل ناظر روما تعليماته إلى قرطاجة ، يهد أحد المسؤولين الامبراطوريين المتكبرين ، يعلم فيها أوريليوس (Aurelius) الناظر الكاثوليكي في ذلك الوقت ، بضرورة العودة عن قراره السابق وبرهه أپاريُوس ، البريء و المقترى عليه ، إلى منصبه . عندئذ قام الناظر أوريليوس بالدعوة إلى عقد مؤتمر في قرطاجة . و بعد ثلاثة أيام من التداول و البحث ، لم يكن المؤمنون قد توصلوا بعد إلى اتخاذ أي قرار ، حضر فجأة المتهم ، و وقف أمامهم بتواضع ، معترفاً باخطائه وطالباً منهم المغفرة . و هكذا طوّت هذه القضية بشكل فعال ، إذ تم تبييت الذنب على أپاريُوس و وفرت إمكانية المصالحة بينه وبين كنائس أفريقيا و ذلك من دون الرجوع إلى روما . ومن ثم عاد المسؤول الرسمي إلى إيطاليا بارتباك و خجل حاماً معه رسالة من كنيسة قرطاجة تقول : « دعونا نضع حدًا لهذه الأساليب المتعارفة العالمية . انه لا يليق ان نُمارس هذه الأساليب في كنيسة المسيح ، حيث يجب ان يُعمل كل شيء ببساطة و تواضع في حضرة الله ». ²³

إذا كان قادة الكنيسة مرتاحين من التحركات الناشطة خارج البلاد ، فإنَّ أعضاء الكنيسة بشكل عام لم يكونوا على علم بها . لم يكن يهمهم ما يقوم به النظار ، و لا ما تؤول إليه المؤتمرات المعقدة في المقاطعات الثانية عبر البحار : فإنَّ اقدامهم لم تطاُق خارج القارة الأفريقية ، كما انهم لم يكونوا يرغبون في ذلك . كانت الكنائس الأفريقية تشعر باستمرار بأنها في الصدارة ، فقد شيدت على ارض مباركة انتقع ترابها و شرب الكثير من دماء شهدائها القديسين الأبرار ؛ كما انه

كان لهم تراثهم المسيحي المجيد . و في الوقت عينه لم يكونوا يشعرون بأنهم مدينون لروما بأي شيء . و عبئاً حاول أغسطينوس ان يوسع آفاقهم ، و يقوّي علاقتهم مع الكنائس في بقاع أخرى . قد تأتي الحشود لتحفل بذلك شهادة پريستوا و كبريانوس ، و لكن عدداً قليلاً فقط - يضيف ايضاً أغسطينوس مؤمناً - يفكرون في أن يتذكروا الشهداء الأوروبيين ، او حتى بطرس وبولس ، او تلك الذين لم ينعموا بامتياز ان يكونوا من الأفارقة .

في القرن الرابع و في بداية القرن الخامس ، تعاظم الإعجاب بالشهداء و قوي جداً إلى درجة العبادة . كان عدد الشهداء الجدد قليلاً ، إلا أن قصص الشهداء القدامى تطورت في كلام الناس . كما ان عظامهم و خرق ثيابهم ياتي اثناء موافقة و مجملة بشكل غريب ، و وخاصة بين المسيحيين السلاح والبساطة . كان هؤلاء يعتقدون أن الشهداء الذين كانوا قد توسطوا لهم في حياتهم ، ظلوا يتتوسطون لهم حتى بعد موتها ; و هكذا نشأت فكرة عبادة «القديسين» . كذلك راحوا يرفعون الصلوات الى الشهداء الراحلين ، و الى الرسل ، و الى مريم أم يسوع ، ظناً منهم أنه ياماً كانهم سمع هذه التوسلات ، و أنها سوف ينقلونها الى الله القادر على كل شيء ، بتأثير أوفى و بفعالية أكثر مما لو انهم كانوا قد رفعوا هذه الصلوات مباشرة إليه تعالى . لم يقدّم أحد ، كما انه لم يطلب أحد أي تبرير او دعم من وحي الكتاب المقدس لهذه الممارسة .

استمر الموت و الرجاء العظيم بالحياة الأبدية في إفان الجماهير و إلهامهم . كذلك استمرت لوقت طويل عادة الاحتفال بالعشاء الرباني عند القبر ، و ذلك بعد مرور سبعة أيام على وفاة القيد المحبوب . ثم كان أفراد العائلة و أعضاء الكنيسة يجتمعون بشكل دوري في ذلك المكان للصلة و للتبريم . كانت هذه الممارسة تبعث بالاطمئنان و الراحة في قلوب الذين فقدوا عزيزاً أو حبيباً ، كما أنها كانت فرصة لطيفة لهم ليذكروه و يتذكروا خصائصه للاتقاء بها ، ومصدراً عظيماً للتعزية إذ يتعلّمون بشغف الى اللقاء العتيق معه في السماء .

إلا انه نشأت في أيام أغسطينوس معتقدات خرافية سافرة حول هذه العادة ، إذ بات كثيرون يظنون ان المؤمن الراحل كان يشتراك معهم ، بطريقة سحرية ما ، في العشاء الرباني الذي كانوا يتناولونه معاً عند قبره . كذلك نشأ اعتقاد آخر بأنه كان باستطاعة أصدقائه ان يصلوا لأجله ليضمنوا له سعادته في العالم الآخر ، و حتى أيضاً ان يرفعوا الصلوات له لكي يضمن لهم السعادة هنا على الأرض . و هكذا تحول احتفال التذكرة عند القبر الى ما يشبه ، الى حد بعيد ، الممارسات الوثنية الخاصة بتقدیم القرابین من أجل موتها . و لم تكن قد ظهرت بعد تلك «القداديس الخاصة بالموتى» التي تميّزت بها في ما بعد العصور الوسطى ، و التي تتطلّق من الافتراض بأن ما يقوم به الأحياء من مراسيم و من صلوات قد يساعد على التخفيف من وطأة مصير الأموات . إلا أنها نرى في القرن الخامس ، الآثار الأولى لذلك المعتقد الوهمي المحزن و المكلّف ، الذي سيسيطر في ما بعد .

و في هذه الحقبة الزمنية بالذات أيضاً ، بدأ الناس يطلقون على بعض ابطال الإيمان التدماء اللقب الشرف « قديس ». و هكذا شرعوا يدعون الرسل مثلاً « القديس بطرس » و « القديس يوحنا » ، و هلمَّ جراً . و هكذا اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ان لها الحق في تقرير من يستحق هذا اللقب و من لا يستحقه . فجعل كبريانوس « قديساً » ، و بعد بعض الوقت ، أغسطسفيوس أيضاً . إلا أنه تم تجاهل ترتوبيانوس : و هو على كل حال ، كان على الأرجح ، سيرفض مثل هذا التمييز مؤكداً على حقيقة أنه هو و جميع الذين يحبون يسوع هم « قديسون » فيه أصلًا.²⁴

قطعت الكنائس المحلية في شمال إفريقيا شوطاً طويلاً . فالسيحيون هناك عانوا الاضطهاد العنيف على مدى أكثر من قرنين و نصف القرن من الزمان . كانوا باستمرار ضحايا الظلم و الاضطهاد ، محظوظين و مذللين من الولاة و الحكام الرومانيين المشامخين . لكنهم صمدوا بثبات بالرغم من كل شيء . لقد وجد الامازيغيون في مثل هذا الایمان العنيف ما يجذبهم إليه : كانوا هم أيضاً في نهاية المطاف معرضين للإذلال في المجتمع الروماني الأوتوقراطي المستبد . و لكن اعتلاء قسطنطين العرش سجل تحولاً هاماً . فما ان تبت الحكومة الكنيسة و اعتبرتها أداة في يدها ، حتى بدأ الناس يتظرون إلى المسيحيين بانتظار جديد . كذلك راحت حركة الدخول الجماعي إلى المسيحية تتضاعل رويداً رويداً حتى انتهت أخيراً . و ما إن أصبحت الجماعة المضطهدة محترمة حتى فقدت زخمها .

أدخلت الحرية الدينية إلى الكنائس المحلية صيفاً جديداً من « المسيحيين » يغلب عليهم طابع اللامبالاة المحرنة : اللامبالاة تجاه الدعوة الإلهية ، و مقاييس المسيح الأخلاقية ، و للحاجات الروحية لهذا العالم . كبرت الكنائس بسرعة ، لكنها لم تكن أقوى مما كانت عليه من قبل . و في الواقع ، كان غناها و هي تعاني في كور المشقة ، أعظم منه و هي تتمتع بالرفاهية الوهنة في ظل الرضى الامبراطوري . و هي في ذلك تشبه يونان الذي جاء تصرفة و هو في بطن الحوت أنبل وأشرف من تصرفة عندما جلس بهدوء يستظلّ اليقظية.²⁵ لقد ظهر على الكنيسة الكاثوليكية ، بعد قهرها الدوناتيين ، بأنها مزدهرة وناجحة ، و لكن كلما كانت تقاليدها و اعرافها تتصلب ، راح تمسكها بكلمة الله يضعف . و هكذا أصبح العديد من اعضائها لا يعرفون المسيح الذي يحملون اسمه .

إن مثل هذه الكنيسة لا يمكنها ان تعمّر طويلاً في وجه المعارضة الثابتة و القوية التي استهدفتها . وهكذا سرعان ما أخضعت صحتها لأحد أصعب الامتحانات . كان الونداليون الذين لا يتكلّون و لا يملؤن يقرون على الباب ، ثم تلتهم مجموعات أخرى من الغزاة ، و بعدهم آخرون . كان ذلك ، على ما يبدو بداية النهاية بالنسبة إلى المسيحية في إفريقيا الشمالية .

ملاحظات

Tractatus in Joannis evangelium 122 *Sermon* 3:1 (Brown p. 402) -1

Sermon 46:21 (Hamman p. 204) -2

Epître 124:1 (Hamman p. 204) -3

- أصبح تقليداً مقبولاً أن يحضر غير المؤمن العادة ويسمعوا الاشبيل في بنية الكنيسة ، وكان الغرض من ذلك ضمان اهتمامهم . إلا أن هذه الاستراتيجية جاءت بمشاكل عده ، إذ إنها تعارض كثيراً مع ممارسات كنائس العهد الجديد حيث اجتماعات البووث كانت مخصصة للعبادة والصلوة والتعليم وشركة المؤمنين (أعمال 1:13-14؛ 1:2، 46 و 47؛ 23:4 و 24؛ 12:12؛ 7:20؛ 117:21)، بينما كان عمل التبشير يمارس في الأماكن العمومية . فقد كانت الشارة تعلق مثلاً في :

شوارع اورشليم (أعمال 14:2 وما يليه؛ 9:6 وما يليه) .

و في ساحة الهيكل والمحكمة اليهودية في المدينة نفسها (أعمال 3:11 وما يليه؛ 4:5 وما يليه؛ 5:4 وما يليه؛ 8:4-5) وفي قرى كثيرة (25:8) و في طريق صحراوي (26:8 وما يليه) ، وفي جميع المدن (40:8) ، و عبر منطقة اليهودية والسامرة (أعمال 1:8، 12:6 وما يليه؛ 1:23 وما يليه) ، و في طرق مصر (20:9 - 23:5، 14:17، 1:14؛ 4:1-17؛ 10:10 وما يليه؛ 18:4 و 5، 19:8) وفي قرى كثيرة (25:8)

و في طريق صحراوي (26:8 وما يليه) ، وفي جميع المدن (40:8) ،

و في مجامع اليهود في كل مدينة (20:9 - 23:5، 14:17، 1:14؛ 4:1-17؛ 10:10 وما يليه؛ 18:4 و 5، 19:8) وفي بيت روماني ثري (10:10 وما يليه)

و في محضر والي بالقوس (13:7) ،

و عند ابواب لترة (14:8 وما يليه) ،

و بجانب نهر بمدينة فيلبي (16:13 وما يليه) ،

و في شوارع نفس المدينة و سجنها العمومي (16:16 وما يليه، 25 وما يليه) ،

و في الساحة العمومية في وسط أصنام مدينة أثينا (17:16 وما يليه) ،

و في مدرسة يرانتس نافسس (19:9) ،

و على درج معسكر في مدينة اورشليم (37:21 وما يليه) ،

و أمام الوالي وبعد ذلك الملك اغripias في القصرين (24:10 وما يليه؛ 26:1 وما يليه) ،

و في سفينة على البحر الابيض المتوسط (27:21 وما يليه) ،

و في بيت مقدم جزيرة ملطة (7:28) ،

وأخيراً ، و كما كان يذهب بولس ، في محضر القىصر بروما .

5- كانت الجماعات المسيحية قد بدأت تقبل بشكل متزايد درجة بالغة الخطورة من «الاختصاص الأخلاقي» : كان على «الكامل» أن يعيش حياة معينة تختلف عن الحياة التي يعيشها المسيحي العادي . ان خلق هذه الهوية التي تسع باستهانة بين النخبة المنشقة ، وهم أقلية ، وبين مجموعة المؤمنين الآخرين ، هي التي كانت السبب وراء التوقف عن انتشار المسيحية في العالم الروماني آنذاك ». (Brown p. 248)

6- الكنيسة الكاثوليكية في روما هي التي حظرت بشكٍ رسمي في العام 385 م على القادة المسيحيين أن يتزوجوا . وقد أثبتت على هذا الحظر منذ ذلك الحين حتى يومنا هنا ، على الرغم من المقاومة العنيفة التي قوبلت بها هذه السياسة حتى بين صفوف الكنيسة الكاثوليكية نفسها

Schaff HOTCC Vol. II p. 412; Bainton p. 206.

7- عبرانيين 13:4

8- 1 يموثاوس 3:4

9- 1 كورثوس 11:1-7؛ 5:9؛ 1 يموثاوس 2:3، 11، 11؛ 3 - 1:4

10- رومية 16:3 - 5؛ 1 كورثوس 19:16 (يظهر العدد 8 أنهما كانوا في أفسس)؛ فليمون 1 و 2.

11- أفسس 4:6

12- Latourette Vol. I pp. 256 - 257

13- إن استخدام اللغة المحلية في العبادة و في التعليم المسيحي ، سيمثل على تمجيع بروز قادة محليين . إلا أنها قد تسبب من وقت إلى آخر في نشوء البدع المحلية . إن كانت الكنائس تريد أن تستخدم اللغة المحلية ، حتماً يتربّط عليها سُؤْلَيْهَا عدم قطع علاقتها بسائر المجموعات المسيحية في أجزاء أخرى من العالم ، كما أنه عليها أيضاً الاكتساح في تبني التعاليم التي كان المسيحيون الآخرون قد رفضوها في غالبيتهم . وإذ تُذكر الكنيستين القديمتين القبطية والسورية بسبب استمراريهما وثباتهما المخلص ، يبقى علينا تذكر أيضاً كيف أن إحداثهما انحرفت وراء البدعة الفائلة بطبيعة واحدة لل المسيح (Monophysite) ، بينما الأخرى تبنّت انكار الساطرة (Nestorianism) . و بالشكل نفسه

أدخل الإثيوبيون «تقاليد يهودية» كثيرة لا وجود لها في إنجيل المسيح .

يتوقف الكثير على مدى دقة الترجمة وعلى توافق الذين يستخدمونها . لأن ترجمة جيدة للكتاب المقدس بين أيدي قادة حكماء وروحيين ، منساعدة الكنيسة كثيراً على البقاء والاستمرار ، حتى ولو اجتازت في أصعب المحن . وبالإضافة إلى الترجمة ، يجب أيضًا تعليم المسيحيين كيفية قراءة كلمة الله ، ومساعدتهم على استظهار مقاطع كبيرة منها ، وتحتها على مشاركة الآخرين بها .

14- متى 44:13

15- Apologeticus 39

16- هنا الإشارة إلى يوحنا 13:16

17- Tractatus in Joannis evangelium 6:25 ; Epître 226:9 (Hamman p. 291)

18- اعمال 32:4 - 35؛ لوقا 12:33 و 34؛ يعقوب 3:5؛ متى 19:6 - 21

19- اعمال 42:2 ، 46 و 47؛ 12:12؛ 1:14؛ 31 - 1:12؛ 1 كورنوس 12:12

20- راجع الفصل 30

21- منى 9:23

22- كان على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ان تنتظر القرن التاسع عشر لكي تدعى فكرة عصمة البابا في ما يتعلق بتصريحاته الرسمية ، بالإضافة الى تلك التي نطق بها البابوات السابقون .

(Schaff HOTCC Vol. II p. 168)

: Foakes - Jackson pp. 526 - 527؛ Hamman p. 32 - 23

(Synod of Carthage AD 424, Mansi 3:839 ff Bettenson DOTCC pp. 81 - 82)

24- بحسب المهد الجديد ، كل مؤمن هو «قديس» ، أي أنه شخص قدّسه الله وفرزه عن العالم لكي يعيش له تعالى وبخدمته (اعمال 9: 41؛ 10: 26؛ 41: 9؛ رومية 7: 1؛ 25: 15؛ 31؛ 26؛ 1 كورنوس 1: 1؛ 13: 13). الرسول بولس يكتب «إلى القديسين في أفسس» - وهو يقصد بذلك جميع أعضاء الكنيسة في هذه المدينة - و ايضاً إلى القديسين في فيلبي والذين في كولوسي . (أفسس 1: 1؛ فيلبي 1: 1؛ كولوسي 1: 2). انه يشير الى الكثائس في جميع أنحاء العالم بالعبارة «جميع كثائس القديسين» (1 كورنوس 14: 33). أما الكاثوليك ، فإنه يوجد بين صفاتهم العديد من الأشخاص غير الطاهرين ، وبالتالي لا مجال للإشارة إليهم بصفتهم «قديسين» .

من هنا جاء استخدامهم لهذه العبارة بمعنى آخر مختلف ، كلقب شرف يطلق على قلة قليلة . ففكرة ان بعض المسيحيين المتفوقيين ، من دون سواهم ، هم قديسون ، هي تقليد بشري ، لا مبدأ كتابي .

25- يومان 2: 1 و 2؛ 7: 4 - 11.

الجزء الخامس

الحصاد الآخر

(متتصف القرن الخامس وما فوق)

الفصل التاسع والعشرون

الونداليون والبيزنطيون

مهما كان الأمر ، فقد كان عصر الونداليين في إفريقيا الشمالية ، مجرّد كارثة تامة من البداية إلى النهاية . أن اسمهم المشتق من سمعتهم ، دخل لغات العالم أجمع للتعبير عن معنى واحد : الونداليون هم جهال مغفلون ، دأبهم التدمير و التخريب الوحشي الذي لا طائل منه . ينفي علينا ، و يعزل عن آية نية في إيجاد الأعذار لهم أو الدفاع عنهم ، أن نضع نصب أعيننا أن ما لدينا من معلومات و تسجيلات حول أفعالهم ، قد وصلت اليانا عبر ما كتبه ضحاياهم من تقارير مشيرة للمشاعر ، و ما أصقه بهم اعتداوهم الألداء من اتهامات مرّة ؟ فهم أنفسهم لم يكتبوا إلا الشيء القليل . ولكن لا يمكننا أن تتأكد من أنهم كانوا سينظرون الى اقامتهم في إفريقيا الشمالية بمنظار أحسن وأفضل .

كان الونداليون أناساً جرمانيين قد تركوا ديارهم البلطية منذ وقت طويلاً . كانوا يتقلّلون من مكان الى مكان ، ليدخلوا في زيارات دورية مستمرة مع أصحاب الأرضي التي كانوا يشتهرُون الاستيلاء عليها . لقد طافوا و جالوا في جميع أنحاء أوروبا ، و ذلك على مدى عدة قرون ، مجاهدين للحصول على مكان يستقرّون فيه . أخيراً ، وجدوا أنفسهم في بداية القرن الخامس ، وهم يسيطرون مؤقتاً على أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الإيبيرية . و في مكان ما ، في سياق غزواتهم ، كان الونداليون قد بنوا إحدى البدع المسيحية وهي الأريوسية (Arianisme) . و من المؤسف أنهم تعلّموا منها القليل من الحق الإلهي و التذر البسيط من المحبة المسيحية . و في العام 429 م ، وضع الونداليون مخططاً طموحاً لغزو إفريقيا الشمالية ، و قد أوكلت مهمة هذا الغزو على أكثر قواهم العسكريين كفاءة ، و هو المدعو جنسريك (Genseric). لقد نجح هذا الأخير ، على الرغم من قصر قامته و عرجه البارز ، في تسييم هذا الغزو عبر مضيق جبل طارق ، و ذلك بواسطة جنود قلiliين لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر ألف جندي . لقد سهل له أمر مهمته الحاكم الروماني المدعو بونيفاكيوس (Bonifacius) ، الذي تصرف بشكل أثاني وخائن إذ سلم بحسب الظاهر الأقطاع الأفريقية جنسريك ، و ذلك بقصد الانتقام من الإمبراطور . جاءت المقاومة العسكرية محدودة و قليلة : فقليلون هم الذين كانوا راغبين او قادرين على صدّ المرة . وهكذا راح الونداليون يحرقون و ينهبون ما يحلو لهم .

و بذلك تكون قد انتهت نحو ستة سنة من الحكم الروماني لأفريقيا . ولم يسلم من الغزو طوال هذا الوقت ، أي جزء آخر من أجزاء الامبراطورية الرومانية ، كما أنه لا يوجد أي جزء آخر قد تم في نهاية المطاف تخربيه و تدميره بهذا الشكل المخيف . لقد غاب منظر الأرضي الشمرة ، و لم يعد يُرى إلا منظر المدن المدمرة التي أصبحت أنقاضاً ، و القرى المحروقة ، و الناس الذين قل عددهم بفعل سيف جماعة من القوم المتوحشين ، الذين إذ كانوا من دون حضارة تختص بهم ، اعتادوا على استفزاف الحضارات التي بناها الآخرون .¹ و يظهر أن الشعب الأمازيغي الذي يُعد بنحو سبعة إلى ثمانية ملايين نسمة في شمال إفريقيا ، و وخاصة ما بقي من جماعة الدوناتيين ، قد رحّبوا بالونداليين ، آملين أنه بتغير الحكم ، سوف يتغير المستقبل نحو الأفضل . إلا أن هذه الآمال جاءت مخيّبة للغاية .²

و قبل أربع عشرة سنة ، أي في العام 395 م ، كانت الامبراطورية الرومانية قد فُسست رسميًا إلى جزئين : الامبراطورية الغربية و تحكم من روما ، و الامبراطورية الشرقية و تحكم من القسطنطينية (Constantinople) ، المدينة العظيمة ، و تُعرف أيضًا ببيزنطة (Byzance) . نحو نهاية القرن الرابع ، وقعت الامبراطورية الغربية تحت سيطرة البرابرة الجerman . و في العام 435 م ، اعترفت الامبراطورية البيزنطية (الشرقية) رسميًا بالونداليين كحلفاء لها . و معروف عن هؤلاء أنهم كانوا في ذلك الوقت قد رسخوا أقدامهم في إفريقيا . و بعد مضي أربع سنوات على ذلك غزوا جنسريك قرطاجة و استولى عليها ، و بذلك أصبح الحاكم الفعلي لشمال إفريقيا في حوض البحر الأبيض المتوسط . و قد امتدت مملكته غربًا إلى ما بعد قبصرة (شرشال) بقليل ، و جنوبًا إلى أبعد نقطة استطاع جنوده أن يسيطروا عليها بسيوفهم . أما ما تبقى من المناطق الداخلية والأجزاء الغربية للبلاد ، فكانت الجهة التي تحكمها تبدل ببدل رؤساء القبائل القادرین على السيطرة عليها .

و على الرغم من الانفاقية المعقودة مع القسطنطينية ، فقد قطع الغزو الوندالي بشكل فعال الاتصالات مع العالم الخارجي . هذا لأن الطرق البحرية عبر المحيط الأطلسي و البحر المتوسط ، باتت تحت رحمة القراءنة الونداليين . و بذلك توقفت التجارة تمامًا . كما أن الاقتصاد الزراعي في إفريقيا الشمالية بات مهددًا بالحراب . كذلك تم طرد المزارعين من أراضيهم و ذلك من بعض القادة العسكريين الظاماعين . كانت لهؤلاء معرفة قليلة بالزراعة ، إلا أن طموحاتهم كانت بلا حدود . و نتيجة لذلك ، وجد الكثيرون من الحرفيين و التجار الأمازيغين ، الذين كانت تُصدر متوجاتهم قبلاً إلى أسواق الامبراطورية البعيدة ، وجدوا أن بضمائهم كسدت : فالمخزون من الحبوب و من الصوف ، المخصص لأوروبا ، لم يكن بالإمكان بيعه في إفريقيا . كانت البلاد تعاني حالة الفوضى تحت وطأة الطغيان التусفي ، كانت تربكه بين الفينة و الفينة هجمات

دورية متابعة تشنّها العصابات المسلحة التي كانت تتدفع بقوة من الجبال ، في اتجاه المدن الساحلية الغربية التي لم يكن باستطاعتها الدفاع عن نفسها . و في العام 455 م ، عبر القائد جنسريك البحر الضيق الى روما ، وهكذا كان النهب والسلب ، وللمرة الثانية ، من نصيب العاصمة التي لم يكن لديها أية قوة دفاعية . لقد أظهر القائد الوندالي مهارة في حرق المدن ، تفوق مهارته في امر حكمها .

لقد دمر الونداليون ، او استولوا ، على متلكات الكنائس جميعها في المدن الأفريقية ، ولم يتركوا أثناً او شيئاً ثميناً فيها لم ينهبوه . كذلك قيدوا معظم قادة الكنائس السابقين ، واقتادوهم في سفن شحن بالية الى روما : كانوا يخشون أن يتمكّن هؤلاء الرجال من أن يستقطبوا حولهم نواة مقاومة سياسية ، و ذلك أكثر مما كانوا يخشون عقائدهم و مخاطرها . ثم عمد الونداليون الى تعين مكانهم نظاراً من قبلهم . و هكذا أصبحت احدى اللغات الجermanية هي لغة الكنائس ، و باتت الأريوسية قانون إيمانها . و حتى ذلك الوقت ، لم تكن البدعة الأريوسية قد دخلت بعد الى الكنائس الأفريقية . هذا لأنّ مجمع نيقا المعقود في العام 325 م كان قد شجب بشدة آريوس وجميع أولئك الذين انكروا ايضاً الوهبة المسيح . ولكن نيقا كانت تبعد كثيراً عن أفريقيا ، كما أنّ المجمع كان قد عُقد منذ فترة طويلة . و حتى أغسطسنيوس نفسه ، كان قد كتب تفليداً مطولاً ، يدحض فيه افتراضات الأريوسين . و لكن بعد مرور مئة سنة ، لم يعد بمقدور إلا القليل من الأفارقة على أن يقرأوا كتابات أغسطسنيوس : فقد ضاعت كتبه ، كما أن لغته اللاتينية باتت منسية إلى حد كبير ما عدا في أوساط الدوائر الإدارية حيث تسود الفوضى .

و من الملحوظ أن جنسريك نفسه قد تخلى عن يضطهد الكاثوليك بعنف . و في العام 476 م ، وفي مقابل اعتراف الرومان بحق الونداليين بالهيمنة على الولايات التي سبق لهم أن احتلوها ، سمح للكاثوليك بإعادة فتح بعض الكنائس ، و باستخدام اللغة اللاتينية فيها . ولكن هنريك (Hunéric) ، وريث جنسريك ، كان ، الى حدّ ما ، أقلّ احساناً منه . ففي العام 484 م ، دعا الى مؤتمر حضره 466 ناظراً كاثوليكياً ، و هذا عدد قياسي بالنسبة الى تلك الظروف . كان الغرض من المؤتمر ، بحسب الظاهر ، بحث القضايا الجدلية مع الأريوسين ؛ لكنه كان يهدف في الواقع الى تدمير الكاثوليك . فطبقوا عليهم قوانين قاسية و أذلوا بهم عقوبات عنيفة للغاية ، حتى إنه تم خلال الستين التاليين ، إعدام تسعين ناظراً بعد تعذيب رهيب . و هذا المدد يتتجاوز بكثير عدد أولئك الذين عانوا خلال الاضطهادات الوثنية الماضية . فالكاثوليك الذين سبق لهم أن برروا إمكانية اللجوء الى العنف عندما كانوا في موقع قوة ، وجدوا الآن أن هذا الأمر انقلب عليهم . وهكذا تمّ معاقبة الكثيرين منهم ، وذلك بتفويهم من المدن الى المناطق الداخلية النائية من البلاد . وآخرون يبعوا كعبيد . و يذكر عن جنسريك انه باع أربعة من المؤمنين الكاثوليك الى

رئيس قبيلة كَبِرَ كَبِيْتِي (Caprapiii) : لكنَّ هذَا الْأَمْرُ لَمْ يَرَوْهُمْ قَطُّ ، إِذْ رَاحُوا يَسْعُونَ جَاهِدِينَ حَتَّى
الْقَبِيلَةِ كُلُّهَا عَلَى اعْتِنَاقِ الْمُسِيْحِيَّةِ.³ تَرَى بَعْضُ الْقَبَائِلِ الشَّمَالِيَّةِ أَفْرِيقِيَّةً أَنَّ لَهَا أَصْوَلًا مُسِيْحِيَّةً ،
كَقَبَائِلِ صَنْهَاجَةِ قَرْبِ شَفَشَوْنَ فِي مَنْطَقَةِ الرِّيفِ فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ . وَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَلِ
يُمْكِنَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى مَا خَلَفَهُ هُؤُلَاءِ الْأَسْرَى وَ الْلَّاجِئِينَ الشَّعْجَانَ مِنْ تَأْثِيرٍ لِّيَجَابِيِّ فِي مَحِيطِهِمْ.⁴

لَقَدْ سَمِعَ الْمَلِكُ الْمُعْتَدِلُ هِلْدِرِيْكُ (Hildéric) (523 - 530) ، لِلْكَاثُولِيكِ بِفَتْرَةِ مِنِ الْرَّاحَةِ
إِلَى حَدَّ مَا . فَانْتَهَرُوا هَذِهِ الْفَرَصَةَ لِلْإِعْدَادِ لِلْمُؤْمِنِ ، وَ لِمُسَانَدَةِ تَجَارِ قَرْطَاجَةِ الْمُظْلَومِينَ الَّذِينَ كَانُوا
تَجَارَتِهِمْ قَدْ خَرِبُوا تَامًا بِسَبِّ التَّعْسُفِ الْوَنْدَالِيِّ . فَأَرْسَلُوا مَعًا إِلَى الْإِمْپَاطُورِ الْبِيزَنْطِيِّ فِي
الْقَسْطَنْطِيْنِيَّةِ ، يَوْسُولُونَ إِلَيْهِ لِيَأْتِيَ إِلَى مَعْنَتِهِمْ . إِنَّ شَعْبَ السَّهُولِ الدَّاخِلِيَّةِ ، الَّذِي كَانَ قَدْ رَحَبَ
بِالْوَنْدَالِيِّينَ فِي بَدَائِيْةِ غَزْوَهُمْ ، بَاتَ الْآنَ يَرَاهُمْ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ ، وَ ازْدَادَ شُوقَهُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُمْ .
وَقَدْ لَاحَظَ الْإِمْپَاطُورُ يُوْسِتِيْبِيَّانُ (Justinien) بِشَيْءٍ مِّنِ الرُّضْسِ ، نَفَّاصُلُ قَوْةِ الْوَنْدَالِيِّينَ الْبَحْرِيَّةَ
وَ تَلَاشَيَ قَوَافِلُ الْمُسَكِّرِيَّةِ وَ كَيْفَ عَمِلَتْ حَيَاةُ الرَّفَاهِيَّةِ الزَّائِدَةِ عَلَى إِضْعَافِهِمْ . وَ فِي الْعَامِ
533 مَ، حَطَّتِ الْقَوَافِلُ الْبِيزَنْطِيَّةُ ، بِقِيَادَةِ الْجَنْزَالِ بِلَسَارِيُّوسَ (Bésilaire) رَحْالَهَا بِحُذْرٍ عَلَى مَقْرَبَةِ
مِنْ قَرْطَاجَةِ . وَ بَعْدَ عَدَةِ أَيَّامٍ مِّنَ التَّحْرُكِ هَذَا وَ هَذَا ، عَمَّكُوا أَخِيرًا مِنْ دَحْرِ الْقَوَافِلِ الْوَنْدَالِيَّةِ .
عَنِدَئِذٍ فَرَّ قَادَةُ الْكَنِيْسَةِ الْأَرْبُوْسِيَّةِ هَارِبِينَ ، بَيْنَمَا التَّحْقَقَ الْجُنُودُ الْوَنْدَالِيِّينَ بِالْجَيْشِ الْمَلَكِيِّ
الْإِمْپَاطُورِيِّ ، وَ آخَرُونَ مِنْهُمْ رَجَعُوا مُدَبِّرِيِّنَ إِلَى إسْپَانِيَا . وَ هَكَذَا بَدَأَ مَا هُوَ مَعْرُوفُ بِالْحَقْبَةِ
الْبِيزَنْطِيَّةِ فِي إِفْرِيقِيَا الشَّمَالِيَّةِ .

شَيَّدَتِ الْخَصُونُ عَلَى امْتِنَادِ الْحَزَامِ السَّاحِلِيِّ مِنْ لَيْتِيسِ (Leptis) (شَرْقِ طَرَابِلسِ الْمُدْيَنَةِ) ،
إِلَى طَنْجَةِ . لَقَدْ تَوَصَّلَ الْقَادِيُّونَ الْبِيزَنْطِيُّونَ إِلَى الْاِنْفَاقَ مَعَ عَدْدٍ مِّنَ الرَّؤُسَاءِ الْأَمْازِيْغِيِّينَ ،
وَ بِدَائِتُ بَعْدِهَا فَتْرَةُ الْسَّلَامِ وَ الْاسْتِقْرَارِ عَمِتُ الْقَرْيَ وَ الْمَدَنُ عَلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ لِلْبَحْرِ الْأَيْضِ
الْمَوْسُطِ . فَأَعْيَدَتِ الْمُمْلَكَاتُ ، عَلَى قَدْرِ الْمُسْتَطِاعِ ، إِلَى أَحْفَادِ أَصْحَابِهَا الْأَصْلِيِّينَ ، كَمَا تَمَّ تَعْيِينُ
النَّظَارَ الْكَاثُولِيكِ فِي كَنَاسِ الْمَدَنِ . فَاسْتَقْبَلَ الْمُسِيْحِيُّونَ ، بِأَغْلِيَّتِهِمُ السَّاحِقَةُ ، الْإِدَارَةُ الْجَدِيدَةُ
بِحَفَاوَةِ الْغَلَةِ . وَ بِالْمُقَابِلِ ، نَجَدَ أَنَّ الْبَقِيَّةَ الْقَلِيلَةَ الْبَاقِيَةَ مِنَ الدُّونَاتِيِّينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْوَثَّيِّينَ ، أَبْدَوُا
الشَّيْءَ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْتِيَاحِ عَلَى هَذَا التَّنْتَرُّ ، فِيمَا كَانَ هَذَا الْأَرْتِيَاحُ مَعْدُومًا تَامًا عَنْ أَوْلَاثِ الَّذِينَ
كَانُوا يَنَاصِرُونَ آرْبُوْسِيَّةَ الْوَنْدَالِيِّينَ الْمُكْرُوهِةِ . ثُمَّ رَاحَ رَؤُسَاءُ الْقَبَائِلِ الْمُحْلِيِّينَ ، وَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ
يَدْعُونَ بِأَنَّهُمْ مُسِيْحِيُّونَ ، يَتَنَافَسُونَ فِي الْحُصُولِ عَلَى السُّلْطَةِ الْمُحْلِيَّةِ فِي الْجَبَالِ ، وَ كَذَلِكَ فِي
الْسَّهُولِ الْغَرْبِيَّةِ لَا يَسْمَى فِي أَيَّامِنَا : الْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَتِ الْقَسْطَنْطِيْنِيَّةُ ، هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْإِمْپَاطُورِيَّةُ ، مُفْتَخِرَةً بِنَفْسِهَا ، مَدْعَيَةً أَنَّهَا عَاصِمَةُ
الْعَالَمِ . وَ رَأَتِ فِي نَفْسِهَا الْمِثَالَ الْكَاملَ لِلْحُضَارَةِ وَ قَانِدَهَا . وَ هَكَذَا تَمَّ التَّرْحِيبُ مِنْ جَدِيدٍ بِإِفْرِيقِيَا
الشَّمَالِيَّةِ فِي دَاخِلِ حَظِيرَةِ الْإِمْپَاطُورِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ الْأَنْهِيَارِ الْاِقْتَصَادِيِّ كَانَ باسْتِمرَارِ يَهْدِدُ الْبَلَادَ . وَ لَمْ

تمضي فترة طويلة ، حتى بدأت الإدارة الإقليمية الفاشلة تفرض الضرائب التعجيزية على الشعب ، الأمر الذي أدى إلى قطع جذور أي دعم شعبي كان يتمتع به البيزنطيون .

و في الواقع كان فشل الحكومة البيزنطية في السيطرة على إفريقيا الشمالية ، أمراً متوقعاً منذ البداية . أما الأمر المدهش ، فهو كون هذا النظام الركيك قد بقي متماسكاً طوال ذلك الوقت الذي يربو على المئة و الخمسين سنة . لقد صمد النظام حتى منتصف القرن السابع ، على الرغم من افتقاره إلى الدعم الفعال من القسطنطينية ، وعلى الرغم من انقطاع الطرق التجارية البحرية وفساد الأسواق . لقد صمد في وجه الغارات التي كانت تشنها القبائل المضطربة من الجبال ، وأيضاً في وجه الهجمات المفاجئة للمقاتلين الرحّل الذين تسللوا من الصحراء على جمالهم المدجحة حديثاً . كما أنه قاوم ببسالة أيضاً الغارات الاستطلاعية التي شنتها العرب الذين كانوا يجتمعون قواهم في مصر . وقد أثار عدم استقرار الموقف قلقاً واضطرباً في نفوس سكان شمال إفريقيا .

لقد مضت أجيال ثلاثة كان يعاني خلالها المجتمع المسيحي الجوع الشديد للطعام الروحي . فاللغة الوندالية كما الهرطقة الأكريوسية ، كانت كلناهما غير ذي جدوى لهم . أما اللاتينية ، التي كانت على درجة أقل من الإبهام ، فلم يكن النظار الوandalيون المتبعرون يستخدمونها بكثرة أو يقدّرُونها : لقد اقتصر عملهم على إرباك الناس و تشويشهم بتعاليمهم المضللة عن المسيح . كان مسيحيو شمال إفريقيا في القرن السادس يجهلون كلمة الله بشكل مأساوي مثير للشفقة ، كما أنهم كانوا في الوقت عبته غرباء عن الله نفسه . كان قد مر أكثر من مائة سنة على رحيل أبغسطينوس : كان جيله كله قد رحل ، و كذلك أيضاً أولادهم . ولم تختلف سنو البلي وراءها إلا القليل من آثار نفوذه ، بالإضافة إلى ذكرى واهنة للإذهار الذي عم المسيحية في زمانه . كان المجتمع المسيحي ، إذا أمكن ان تُطلق عليه هذه التسمية ، مرتباً متصاعداً و مقطوعاً عن تراث التعليم والخبرة المسيحية ، وكل ما كان بوسعه ان يضمن استمرارته .

لكن المسيحيين بذلوا قصارى جهدهم . و في جهفهم للغة اليونانية التي كانت اللغة المفضلة عند المحكّام البيزنطيين ، توجهوا إلى كنيسة روما آملين أن يحصلوا منها على القدر الكافي من المساعدة والدعم ، و هكذا بدأوا يلملمون جراحهم بحنر . أما الذين كانوا لا يزالون يعرفون اللغة اللاتينية ، فكان بإمكانهم أن يفهموا تعليم الكتاب المقدس ، بالإضافة إلى الصلوات الriteية التي أدخلتها النظار المرسلون إليهم . و خلال المقدمة الزمنية الواقعة بين العامين 565 - 578 عاد المبشرون يتوجّلون ما بين القبائل الأمازيغية ، وصولاً إلى أقصى الجنوب ، حتى إلى فزان (Fezzan) في الصحراء الليبية⁵ . لقد كان هناك أمل ببداية جديدة مشرقة - و لم يكن ذلك بعد أكثر من مجرد ومض ، لكنه ربما كان الأمل الأخير والفرصة الأخيرة السانحة لكتابات إفريقيا الشمالية . و لم يكن الوقت قد فات بعد - لو كان ياسكانهم فقط ان يعودوا إلى ذلك الإيمان البسيط

بالمخلص الحي الذي سبق و عرفه آباءهم وأجدادهم ، وأن يبدأوا بتعليم كلمة الله باللغة التي يفهمها الشعب . ولكن ذلك كان حلمًا لم يتحقق .

إلا أنه بدأت عوضًا عن ذلك حقيقة ، تميزت بتنفيذ بعض المشاريع الإنسانية الضخمة : بأسيليكات كانت زخرفتها و زيتها مستوحاة ، لا من الكتاب المقدس ، بل من الغنى الشرقي الإمبراطورية كانت تبني مجدها على عبقرية الإنسان و ذكائه ، وليس على أساس نعمة الله . وكل ما عملته هذه الصرح الكثيرة الشمن و المرتفعة إلى السماء ، هو أنها أذلت الجماعة المسيحية الكثيبة و روعتها . ولا يزال يمقدورنا اليوم أن نرى بقايا هذه الأبية و الهياكل العظيمة الرائعة في أماكن مثل لپيس ، و سيراثا وتبسة وشرشال . لكن لم يبقَ أي أثر على الإطلاق للمسيحيين الذين كانوا يجتمعون فيها . فالسمير المرتأت الرائع و القنطر و الأقواس الضخمة ، لم تبعث في قلوب الأفارقة إلا الشيء القليل من الطمأنينة ؛ لقد كانت بكل تأكيد تشيد بعظمة الله ، ولكنها ربما لا تكشف سوى القليل من محبه . كانت ترمز بالنسبة إليهم إلى قوة و مجد غريبين ، لكنها لم تكن في توافق مع حاجات المسيحيين الحقيقة . هذه الأبية و العظمة كانت تربيع بشكل يشع على أنفاس الكنيسة الإفريقية الشمالية المكسرة والفاشلة . لقد كان البيزنطيون جادين بعزم على تأكيد عظمة الله من خلال مشاريعهم ؛ أمّا الامازيغيون فكانوا بالمقابل متقلقلين و خائفين يتخبّطون في شكوكهم بشأن هوية الله و ماذا فعل ، و ما قد يفعل من أجليهم بعد .

و مع ازدياد روعة الأبية ، ازدادت أيضًا روعة الطقوس الدينية للكنيسة الكاثوليكية . لقد كان الاكليروس المعين يقود الحاضرين في ثلاثة صلوات لاتينية : كلمات تعبر عن عبادة الله ، ولكنها في الواقع تمنع الناس من أن يقولوا أي شيء له . كما ان الناس لم يعودوا يفهمون اللغة اللاتينية . لقد كانوا في معظم الأحيان يحضرون إلى الكنائس ، لا ليقدموا الشكر والحمد لخالقهم ، و لا ليتعلّموا إن يخدموا المسيح بشكل أفضل ، بل كانوا يأتون بالأحرى لإظهار إعجابهم بالفن المعماري الذي كان يولد الرهبة في قلوبهم ، و يموّضي جوقة المرتلين ، كما كانوا يأتون لأجل الحصول على الأسرار التي كانت في ظنهم تؤمن لهم الخلاص . هذا ، لأن فكرة كانت قد بدأت تنتشر ، و مفادها أن الخبز و الخمر في أشاء العشاء الرباني ، كانا يتحولان بين يدي الناظر ، و بشكل عجائبي ، إلى جسد المسيح و إلى دمه الحقيقيين ، مع أنهما لا يزالان يحتفظان بطعم الخبز و الخمر و برائحتهما .

كان العديد من معالم الكنيسة البيزنطية هذه تنذر بالانحرافات الغربية التي دخلت إلى الكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى : الصلاة من أجل الموتى ، شراء صكوك الغفران

بالمال ، صناعة تماثيل العبادة التي تُثْلِبَ بسوع ، مريم أو «القديسين». كذلك ظهرت أيضًا عقائد غريبة مثل وجود المظهر حيث يعاني المؤمنون العقاب بعد الموت لكي يتظاهروا من خطاياهم ، والاعتقاد بال بتولية الدائمة لمريم العذراء ، وبكمالها ، و كذلك بفعالية الصلاة لها . قليلون هم الذين استطاعوا أن يقرأوا الكتاب المقدس ليتفحّصوا في ضوئه مدى صحة هذه الأمور .

أصبح هناك حرية لنشر الإيمان وBeth ، ولكن في الوقت عينه استُخدمت الحرية لنشر الانخطاء والبدع وتسويتها . ومنذ بداية عهد الكنيسة ، كانت قد ظهرت هنا و هناك تعاليم غريبة وهرطقات متعددة . ولكنها كانت الآن قد ازدهرت و نمت جداً . لقد أظهر أباطرة القبطيّة رغبة ساذجة في توريط أنفسهم في مثل هذه المناظرات ، و في إصدار بيانات رسمية وقرارات تتعلّق بها . لكن هؤلاء الأباطرة كانوا في معظم الأحيان يجهلون تماماً تلك المسائل ، ما جعلهم أحياناً ينصرّون آراء كانت بعيدة كل البعد عن الحق . و كل ما عملوه هو أنهم زادوا في الإرباك العام الذي كان يختبئ فيه آنذاك جسم المجتمع المسيحي .⁶

ما الذي كان يختلّ في فكر الأشخاص العاديين من رجال و نساء ؟ في الوقت الذي كان الكاثوليكيون والدوناتيون والأريوسيون والبيزنطيون يتذمرون و يضطهدون بعضهم بعضاً في طول البلاد و عرضها ، و جميعهم يدعون بأنهم مسيحيون ، من بات بإمكانه ان يقرر من منهم هو على حق ، إن كان ذلك يصحّ على أي منهم ؟ لم يعد بإمكان الناس في أغلبتهم الساحقة ان يروا المسيحية في شمال أفريقيا ؛ بل بالأحرى طائف تعاوٍ بعضها بعضاً . لقد أصبح الناس ، في حيرة و ارباك ، من جهة المناوشات و المناظرات التي لا نهاية لها ، كما أنهم سمعوا من العقاد التي كانوا ي الجهد يفهمونها . كذلك لم يعودوا يشعرون برابط الأخوة بينهم و بين الكهنة المتعجرفين اللاتسين الشاب البهية ، و الذين كانوا من مراكزهم العالية في عروشهم «الأسقفية» ، يكررون على مسامعهم العبارات اللاتينية .

كثيراً ما يتكرّر القول إن الكنائس في إفريقيا الشمالية وهنّت و نضمضعت بفعل ما ابْتُلِيت به من مناظرات أكثر من أي شيء آخر . يوجد بعض الحق في هذا القول ، إلا أنه قد يتساءل احدنا بشأن هذه المناظرات ، إن كانت قد جاءت حقاً أصعب من تلك التي حصلت في أماكن أخرى من العالم ، حيث تحكّمت الكنائس على الرغم من كل شيء في أن تعمّر من دون أن تصاب بأي أذى . في المناطق الأخرى ، انطلقت المباحثات من تساولات لاهوتية معينة و خصوصاً في ما يتعلق بلاهوت المسيح . أمّا في إفريقيا ، فكانت تتمحور على قضيّاً أبسط ، و تتركز بالإضافة إلى ذلك على شخصيات شعبية . ولربما هذا ما جعل المشاعر جيّاشة أكثر و تسبّب بالتّيّجة بجروح أعمق .

كانت هذه المشاكل التي حصلت باسم الكاثوليكية ، والموتنانية ، والدوناتية ، والأريوسية تحتاج إلى معالجة . لكن هذه العملية كان لها انعكاسات سلبية على المسيحيين ، إذ أربكت أذهانهم ، وأزاحت مشاعرهم ، حتى إن الكثيرون منهم لم يعودوا يصبرون على احتمال المفكرين والثقافيين الذين كانوا قد عيّنوا لأجل قيادتهم . أين أصبحوا الآن من الإيمان البسيط والشعور المرفرف بحضور الله بين المؤمنين ، والأمور المباركة الأخرى التي كانت تتميز بها الكنائس الأولى ؟ لقد كانت هناك قلوب كثيرة جائعة إلى معرفة الله الحسي . لقد طلبوا خبراً فحصلوا على حجر ، وسألوا بيضة فحصلوا على عقرب .⁷

خاب ذلك الإيمان المخلص الذي كان يسكن قلوب الرجال والنساء في أيام ترتوليانوس . لقد عملت فترة الست مئة سنة الماضية على مرج هذا الإيمان وخلطه بظموحات الإنسان ، وبخرافات العالم ، وبعنف السلطات المسلحة ، حتى إنه لم يعد بالإمكان التعرف به . كما أنه لم تعد تعاليم المسيح البسيطة والصريرة تُسمع بعد في إفريقيا الشمالية . إن رسل المسيح الأوائل أمثال بطرس ويعقوب ويوحنا ، بكلامهم العادي البسيط ، وبما كان عليهم من ثياب صيادي السمك ، لا بد لهم من أن يرتبّكوا ويتغيّروا أمام مشهد البياسيليكا البيزنطية المترفة والفخمة ، وأمام خدمات الطقوس اللاتينية في القرنين السادس والسابع . فهذه الأمور لم يعلّمها سيدهم ، كما أنه لم يكن هذا هو الإيمان الذي أرسلهم ليكرزوا به .

كانت إفريقيا الشمالية تحتاج مرة أخرى إلى الاستماع إلى الإنجيل الحقيقي ، الرسالة البسيطة عن محبة الله ، التي تستطيع وحدها أن تبعث الرجاء في قلب الإنسان . فهذا البذار المقدس الذي سقط في الأرض الجيدة على مدى سنوات عديدة ، أعطى ثماراً وفيرة . ولكن الغلة القديمة قد ثُرّكت الآن مدوسة من الأبدان ، ميتة وجافة تحت أشعة الشمس المحرقة . وقد أصبح الحقل بوارًا في انتظار المطر والحرارة والبذار . ولكن لم تجد مثل هذه البذار الروحية موجودة في هذه الأرض . لقد انقضى الوقت وفات الأوان ، و كان بذار غريب دخيل في طريقه إلى هذا الحقل ، ويحمله مزارعون مختلفون . وسرعان ما ستغطى حقول إفريقيا الشمالية بمحاصيل جديدة وغريبة .

ملاحظات

1- راجع 190 Clark p.

2- راجع 299 - 297 Frend pp.

3- (Hamman p. 34) Victor de Vita *Historia Persecutionis* 1:35 - 37

4- Coon p. 25

5- Cooley p. 54

يبدو أن بعض الكلمات الدينية ذات الأصل اللاتيني ، بالإضافة إلى بعض أسماء شخصية من العهد القديم ، قد دخلت في ذلك الوقت لغة التوارث الصحراويين . يخبرنا المؤرخ البيزنطي بُرُوكُوبُوس (Procopius) (نحو 558 م) عن سكان أوجيلة (Aoujila) في شرق ليبيا ، وعن سكان غدامس (Ghadames) في غربها ، كيف انهم اهتدوا إلى المسيحية في عهد الامبراطور يوستينيان (527 - 565 م) ، وكيف أن قبائل الغaramانيين (Garamantes) في المناطق الداخلية في ليبيا ، قبلوا الإيمان أيضًا .

(H.T.Norris *The Tuaregs: their Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel*,

Aris & Phillips, 1975)

6- أخيراً أدى النزاع اللاهوتي إلى الانشقاق الذي حصل في الكنيسة الكاثوليكية الرسمية العام 1054 م بين القسم الشرقي : الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (تكلم اللاتينية) ، وإدارتها في روما ، والقسم الشرقي : الكنيسة الأرثوذكسية التي تتكلم اليونانية ومركزها الرئيس في القسطنطينية .

7- هنا الإشارة إلى متن 9:12 ولوقا 11:7

من الممكن الرجوع إلى المصادر الثانوية بشأن المعتقدين الواندالية والبيزنطية في إفريقيا الشمالية في :

، Camps pp. 177 - 180؛ Coon pp. 24 - 26؛ Frend pp. 301 - 314

Guernier pp. 140 - 161؛ Cooley pp. 49 - 57

الفصل الثلاثون

الغزو العربي

لم تمض أكثر من ست وعشرين سنة على الخمرة الأولى التي شنتها محمد على المدينة ، حتى قام اتباعه ، بعد أن استولوا على ما يستطيعون إليه سبيلاً من الجزيرة العربية و مصر ، و توجهوا نحو الغرب بحثاً عن أمجاد إضافية و غنائم ثمينة ، فتركزت انتظارهم على المدن الواقفة و المنهكة القوى في إفريقيا الشمالية . ففي عام 647 م ، عبر عشرة آلاف فارس مع عدد كبير تماثل من المشاة ، إلى ما يُدعى اليوم تونس . وقد قطعوا مسافات طويلة بعيداً عن بلادهم في الجزيرة العربية ، و ذلك سعياً للحصول على مكافآت لهم و بركانه الأرضية . و مع أن هذه المسافات جاءت أقل من تلك التي قطعها الوانداليون قبل قرنين ، فقد وصلوا إلى أهدافهم و أدركوها بأوفر سرعة . لقد اخترقوا العالم المتوسطي المنهك فسقط و تشرذم .

و في سُوقُّنُولا اسمها الحالي سبطة ، واجهوا بعض المقاومة من جيش بزنطي ضعيف سرعان ما انكسر أمامهم . ثم أبرم اتفاق ، تراجع على أساسه العرب مقابل حصولهم على قلبة كبيرة . و هكذا عادوا إلى مصر محملين بالغنائم و بالمقاسب ، و عندهم اقتتال راسخ بأن أرض إفريقيا الشمالية فيها الكثير من الخيرات التي يستطيعون أن يستفيدوا منها . انشغلوا بالاستمتاع بهذه الغنائم على مدى ثلاث عشرة سنة قرروا في نهايتها ، أي في العام 660 م ، أن يرجعوا ليعيدوا تعبئة خزانتهم . هذه المرة اتفقوا في مدة عشر سنوات ما كانوا قد حملوه معهم . و يظهر أن شمار إفريقيا الشمالية قد أغوتهم أكثر من تلك التي في مصر . ففي العام 670 م اتجهوا مجدداً نحو الغرب بقيادة عقبة بن نافع . لكنهم جاءوا هذه المرة ليتمكنوا ، و يحطوا الرحال .

كان العرب يستعملون غيرة و حماسة بشكل لم يسبق له مثيل بين الغزاة . كانوا يحاربون لنشر ديانة جلبت عليهم مكافآت أرضية تفوق كل خيال . لقد صادفوا طريقاً اثبت انه نافع لهم ، وهو الطريق الذي يعدهم أيضاً بالكثير من المكافسب في المستقبل . و إلى ذلك ، فقد قطع العرب على أنفسهم سبيل العودة ، كما أنهم طرحو عنهم جانباً قيود بلادهم و محاذيرها ، و هكذا راحوا يسيرون قدماً على طريق الشهرة و الغنى . لم يكن عندهم أي شيء يخسرونه ، في الوقت الذي كان يعتقدونهم أن يربحوا كل شيء . بالإضافة إلى ذلك ، وجد العرب أنفسهم على حسبة بلاد كان الأرستقراطيون والقادة المفكرون فيها قد هربوا منها ، كما أن مالكي الأرضي

كانتوا قد ارتقوا حديثاً إلى رتب لم يكن لهم فيها أية خبرة سابقة ؛ أرض قطعت اتصالاتها التجارية ، ولم يكن جيشها يضم سوى قلة قليلة من الجنود المرتزقة الجermanيين الذين كانوا يتلقون أجوراً زهيدة . أما الرجال الذين كان لديهم القدرة على تنظيم دفاع إفريقي ، و دحض المزاعم اللاهوتية العربية الجديدة و تفنيدها ، فكانوا قد بحثوا منذ وقت طويل إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط آخذين معهم كل ما يستطيعون حمله من الأشياء الثمينة : كتب ، وكتوز ، ورفات الشهداء المسيحيين .

و في العام 698 م ، احتلَّ العرب العاصمة التاريخية لشمال إفريقيا ، ميناء قرطاجة العظيم . ولكن لم يقسووا مستوطناتهم في تلك المدينة ، هذا لأنَّ قاعدتهم التي لم تكن في البداية تختلف كثيراً عن المخيم العسكري ، قد جرى نصبها وإقامتها في القبرون ، التي كانت تقع في سهل و تبعد نحو مائة كيلومتر عن الساحل . سجل ذلك تحولاً ورمزاً عن الماضي ، فعلى إفريقيا الشمالية ، من الآن فصاعداً ، ألا تنظر إلى الخارج إلى الحضارة الغربية ، بل بالحرى إلى الأماكن الفارغة في الداخل . فميناء قرطاجة لم يعد محورها بعد الآن ، كما أنه لم يعد الباب الذي منه تخرج إلى العالم الواسع للبحر الأبيض المتوسط . فالعرب ، إبناء الصحراء الذين لا يحبون البحر أبداً ، أوصدوا هذا الباب بإحكام . لقد اندفعوا غرباً باتجاه الساحل الأطلسي للمغرب ، و لكنهم لم يعبروا قط إلى جزر الحالات .

كانتوا متعطشين للحصول على المزيد من السلطة و الغنائم ، و يشجعهم على ذلك اقتناعهم بأنَّ هذه البركات المادية هي مكافأتهم الحقيقة على محاربتهم حروب إلهم . من ثمَّ أنسوا لهم قاعدة داخلية أخرى في فاس و ذلك في سنة 809 م . ولم يلاكموا هذه المرة أية مقاومة من البيزنطيين الذين لم تعد إفريقيا بالنسبة إليهم سوى مكان بعيد و عبءٍ مكلف . فوجئ الأمازيغيون بهذه الهجمومات وفرعوا ، ولم يدرروا كيف يصدونها . كانت القبائل الجبلية معتمدة على نهب المدن التي كانت مقرًا للرومان وللوانداليين وللبيزنطيين ؛ و كثيراً ما قاموا خلال القرنين السابقين بشنَّ غارات عليها . لكن عصاباتها الصغيرة كانت تكتفي بالخروجه من حصونها لشنَّ هجوم سريع على المنطقة الساحلية قبل أن تُهرع مجدداً إلى حصونها . أما الآن ، فكانوا يواجهون حالة جديدة مختلفة تماماً . هذا وإن المهاجم الجديد لم يتوقف عند حدِّ الحزام الساحلي الضيق . فالعرب أرادوا أن يهيمنوا على المناطن الداخلية أيضاً ، الأراضي التي كانت دائمًا ملكاً للأمازيغين .

طور الوافدون الجدد استراتيجية عسكرية سهلة و لكنها فعالة جداً . فقد دأبوا على أن يهاجموا كل قبيلة على حدة في معارك في الهواء الطلق و الكرات السريعة للفرسان ، و هكذا قهروهم بقوة سلاحهم المتفوق . ثم كانوا يعرضون عليهما اختياراً بسيطاً : إما اعتناق الدين الجديد ، وإما دفع الجزية ، و كلاماً يضم خصوص المهروم وإذعانه لهم ! هكذا وجد الأمازيغيون أنفسهم ، و لأول مرة ، في موقع الدفاع ، يقاتلون ، لا لكتسب أراضٍ أو غنائم جديدة ،

بل للمحافظة على الخيرات التي كانت دائمةً ملوكاً لهم . كان العديد من هذه القبائل المشردة ، مسيحية ، على الأقل بالاسم ، ولم يشتركوا بالثالى في أية حرب ، و ذلك على مدى أجيال طويلة ، و هم بالطبع لا يستطيعون ان يتذكروا أي وقت سبق لهم أن اتحدوا فيه ضدّ عدو مشترك . كذلك كان من الصعب جداً ، في جميع الأحوال ، الحصول على السيف او الرماح من تجارة الساحل الذين جرى إعلامهم بأن لا يزوروا الأعداء المحتملين بوسائل الهجوم والقتال . وهكذا باتوا الآن غير مجهزين كما يجب لمواجهة هجمات الخالية العرب المتقدفين والعنقاء . وإذا أدرك العديد من الأمازيغين أنه ليس باستطاعتهم فهر العتدي ، قرروا الانضمام اليه ، وبذلك انتهز بعضهم الفرصة أيضاً للاتقام من القبائل المجاورة .

ولعل شعورهم بأن ما نطلب منهم العرب كان سهلاً ، هو الذي شجّعهم على ذلك : كل ما كان عليهم فعله هو التلفظ بجملة قصيرة بلغة يجهلونها ؛ شيء من القسم بالولاء لقادتهم ولديانتهم . كان المسلمين يؤمنون بإله واحد أسمى : وهذا لم يكن بالشيء الجديد عليهم ، فون هذا ما كان يؤمن به كل من المسيحيين واليهود أيضاً . كما أن التقاليد القديمة المختصة بمذهب حبوبية المادة ، كانت منذ القديم الغابر تشير هي أيضاً إلى وجود الكائن الأسمى . أما البديل لاعتناق الاسلام ، فكان دفع الجزية وضرائب الثقلية الباهظة حساب المستوطنين ، وذلك بشكل مستمر ؛ ولم يكن هذا بالعرض الجذاب بالنسبة إلى الشعب الافريقي الذي كان قد عانى الأمرين من جراء ذلك إبان حكم البيزنطيين . فمثل هذه الضرائب ستكون كفرك الملح على جروح العبودية بشكل دائم ؛ وهذا أمر غير مستحب لدى الناس الذين طالما افتخروا بحرفيتهم . فإن كان الغرزة يرضون بمجرد النطق ببعض الكلمات أمامهم ، يكون إذاً هذا الخيار هو الأسهل بكثير عند الأمازيغين . فهولاء القوم لم يكونوا يأبهون للتنemicات اللاهوتية : كان يدو لهم على كل حال انه لا يوجد سوى فارق بسيط بين الإسلام والأريوسية . وإلى ذلك ، فقد كان من السهل تبني الإسلام : فشعائره بسيطة ، ويمكن تعلمها بسرعة ، وتطييقها علانية . أمّا الأمور الشخصية والأكثر صعوبة كتلك المختصة بالأمانة والنقاوة الأخلاقية والرفق وانكار الذات ، و التي تشكّل في الواقع لبّ المسيحية ، فلم تكن الديانة الجديدة تشدد كثيراً عليها . كان التفوه « بالشهادة » ، يكفي لحلّ الإنسان من دفع الضرائب ، و ربما لفتح ابواب التجارة المربيحة والترفيه ، و المناصب الرفيعة امامه ، و كل ذلك من دون تعقيدات التوراة أو الإيمان التي كانت تشغل بال المسيحيين . وعلى كل حال ، كان التأكيد من المقبولية عند الناس أسهل من التأكيد من المقبولية عند الله . و الناس ، كما هو واضح للجميع ، كانوا يحملون سيفاً ! لقد اختار شعب المناطق الداخلية في افريقيا الشمالية الطريق الذي يُعيّن على ماء الوجه من جهة ، و يوفر المال من جهة أخرى . ولكنهم اختاروه من دون أن يكون عندهم اقتناع كاف به . ف الصحيح ان الأمازيغين قد دخلوا الدين الجديد بسرعة ، لكنهم ظلوا فاتحين للغاية كما سُتُّظهِر ذلك أحداث المستقبل . إنهم لا يزالون حتى اليوم يدفعون غالياً ثمن خسارتهم حرية الضمير .

لκنهم ، لم يكُنوا جمِيعهم يتَّبعون إلى الأذْعَان بخُنُوْعٍ . فالمؤرخ العظيم ابن خلدون - وقد يكون هو نفسه من أصل أمازيغي - كتب ما يلي : «وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة (Aouréba) ، لـ كُسيلة بن لمزم (Kosaila)»² . كان هذا القائد و معه سائر قادة القبيلة أيضًا ، قد اعترفوا بأنهم مسيحيون . و كان كُسيلة قد عانى الأمرين على أيدي المسلمين . فبعد أن قبض عليه عقبة ، كُبِّلَ بالحديد ، ثم أقتاده و هو في هذا الحال عبر مناطق شمال إفريقيا . لكنه تمكن في العام 683 م من الفرار ، و راح يحشد ضدَّ معتذبه جيشًا كبيرًا من الجنود الأمازيغيين والبيزنطيين . ثم نجح فيأخذ العرب على حين غرة . هذا لأنهم كانوا منذ البداية مجموعة من الأفراد المدججين بالسلاح ، أكثر من كونهم جيشًا مدرّبًا . و ضعف تنظيمهم هذا ، وضع الآن ، و لأول مرة ، على المحك ، و تم اختباره بشكل جدي . فانهزم القائد العربي عقبة و قُتل . و احتلَّ كُسيلة القيروان نفسها ، و قد بدأ لفترة قصيرة ، و كانه سيد إفريقيا الشمالية كلها . لم تدم هذه الفترة طويلاً ، إذ بعد خمس سنوات على ذلك قُتل كُسيلة في معركة خاضها ضدَّ قوات عربية جديدة بقيادة جنال مسلم من دمشق . و بعد فترة وجيزة ، تمكن بعض القراءة البيزنطيين من قتل هذا العسكري على حين غرة . و على أثر ذلك ، ساد الارتباك والتشوّش لبعض الوقت . لكن سرعان ما أدرك قبيلة أوربة ضعف مركزها ، فاستسلمت أخيراً للجيش العربي الذي كان قد تم تعزيزه وإعادة تنظيمه حديثاً .

و بموت كُسيلة ، انتقل مشعل المقاومة إلى قبيلة تدعى جَرَاوة (Djeraoua) ، كانت تقطن في جبال أوراس (Aurès) . و كانت هذه القبيلة قد اعتنقت الإيمان اليهودي . هذا لأنَّ عدداً كبيراً من اليهود كانوا قد التجأوا إلى الأمازيغين ، وبخاصة خلال القرنين الرابع والخامس . و قد جلب اليهود معهم تقنية أعمالهم المعدنية و مهارات حرفة أخرى . من أجل هذا وجدوا لأنفسهم موضعًا ملائماً بين القبائل التي قدرت متجاهthem حقَّ قدرها ، و احترمت صدق إيمانهم بالله و أماناتهم في تعاملهم اليومي . و هكذا ترسخت بفعل التزاوج و الهدایة الدينية مجموعات كبيرة من شعب « البربر اليهود » .

كانت ملكة قبيلة جراوة تدعى « كاهنة ». و يشير لقبها إلى أنها كانت ذات نفوذ ديني . وقد اشتهرت بمعروفيها الخارقة للطبيعة ، التي اكتسبتها من الشياطين التي كانت تربطها بها علاقة حميمة . وهذا ، في الواقع ، هو من مذهب حبوبة المادة ، لا من الإيمان اليهودي . و بضراوة بالغة ، ردت كاهنة بعنف ثلاث هجمات عربية شَتَّتَ عليها ، و هكذا استمرت قوية و لا يمكن قهرها ، وذلك لفترة تزيد على الثلاث سنوات . و لكن ، بعد موتها في العام 693 م ، لم يبقَ هناك من يوسعه أن يستقطب حوله القبائل المحتشدة . لقد انتهت تقريراً المقاومة الأمازيغية المنظمة و المسلحة ضدَّ العرب³ .

إن التدقق العربي على المنطقة في القرنين السابع و الثامن ، كان يقتصر على المخيمات العسكرية و المراكز المدينية الموجودة . كان أول المستوطنين العرب ، رجالاً من عائلات

ارستوقراتية و مثقفين جداً . كانوا منتمين جداً في معتقدات دينتهم ، و يتقنون التكلم بلغة عربية فصيحة مشابهة للغة القرآن نفسه . كان هؤلاء القوم من المغامرين و المحاربين أكثر مما كانوا من المستعمررين . كان العديد منهم ، ولا شك ، مدفوعين بحماسة دينية . كانوا حساسين و قابلين للتكييف ، وقد تبتووا بسهولة البنية الإدارية البيزنطية الموجودة آنذاك لخدمة أغراضهم الخاصة كما أنهم تعلموا بسرعة نظام الزراعة التقليدي ، و الذي لم يكن لهم فيه أية خبرة مسبقة . و إذ أحاطوا أنفسهم بمستشارين مسيحيين و يهود ، بات من السهل عليهم أن يستوعبوا بسرعة المعلومات و المهارات المطلوبة التي يحتاجون إليها في التحول من حياتهم السابقة كأبناء بدو ، إلى دورهم الجديد كحكام مقيمين . لا يمكنهم الادعاء بأنهم هم من استقدموا معهم التراث العلمي اليوناني إلى شمال إفريقيا ، ولكتهم على الأقل تلقوه جيداً من معلميهم البيزنطيين ، و حافظوا عليه خلال القرون ، حين كانت أوروبا مشغولة بثوراتها الاجتماعية والسياسية .

و حيث انهم كانوا يسافرون في معظم الأحيان من دون اصطحاب نساء ، لم يتزدوا في الزواج من أمازيغيات . وهكذا باتت ذريتهم أمازيغاً و عرباً على حد سواء ، على الرغم من أن هذا النسل كان يرى على اللغة العربية و الديانة الإسلامية . لكن ، و بعد مرور عدة أجيال ، بات الدم العربي ضعيفاً ، وهكذا نبدأ في رؤية نشوء الأرستوقراتية المدينية النموذجية في إفريقيا الشمالية : عرب من الناحية الثقافية ، ولكن أمازيغيون في عرقهم .

غالباً ما كان الأسياد العرب يقومون بتبني أولاد رؤساء قبائل الأمازيギن ، فيأتون بهم إلى بيوتهم ليترعرعوا فيها أو لحفظهم كرهائن ، و لا فرق بين الاحتمالين . أما القبائل التي كانت تعيش في محاذة تلك القواعد العسكرية الداخلية ، فكانت تحاول دائمًا ان تحظى بحماية حكامها الجدد ويرضاهما . و هكذا تطورت العادة بأن يقوم أحد القادة العرب ذو التفوّه « بتبني » قبيلة أمازيغية برمتها ، حتى إنه كان يحق لها منذ ذلك الحين أن تحمل اسمه . لقد منح هذا النظام درجة عالية من الاعتبار و الكرامة للأمازيغين ، كما أنه فتح أمامهم مزيداً من الفرص التجارية التي كانوا يتوقون إليها و يشهونها . كذلك ساعد كثيراً على « تعريب » هذا الشعب . و كما ان الكثيرين اندفعوا لكسب رضى العرب في المدن و في السهول ، انهر آخرون الفرصة لنوار المجد و الغنائم مع الجيش العربي . و من المعروف تماماً أن قوات المسلمين الذين اجتاحوا أسبانيا في بداية القرن الثامن ، كانوا في غالبيتهم من الأمازيغين بقيادة شلة قليلة من القادة العرب الأشداء .⁴

إلا أن الهجرات العربية الرئيسة إلى إفريقيا لم تحصل إلا بعد مرور أربع مئة سنة على هذا . ففي القرن الحادي عشر ، وصلت قبائل بدوية من طريق البر ، مع مواشיהם ، و بدأوا في الانتشار في كل السهول الداخلية . و كان هؤلاء المستعمرون من بني هلال و بني سليم و غيرهم ، قد تركوا العربية بسبب الجفاف و القحط و الجوع و صراعهم مع حكامهم .⁵ و قد جلبوا معهم قطعاً ضخمة من الماعز التي قضت على الحياة النباتية الهزيلة و الهشة في إفريقيا الشمالية . لقد تجنبت

هذه القبائل الجبال التي لم تكن رناس بمع تربية مواشيهن ، فاضطروا بذلك إلى أن يجتاجوا الأرضي الزراعية حيث كان يقيم الأمازيغيون ، و ذلك بمساعدة رجال قبائل الزناتة الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه على مدى قرون طويلة . ثم جاءت المواصف الرملية لتكميل عمل ماعزهم التخريبي ، إذ نزعت التربة الفوقيه . وهكذا حلّت البقاع الفسيحة من الأرضي القاحلة العارية والجافة ، محل حقول الخنطة والحضر الخصبة سابقاً . وقد وصفهم ابن خلدون « كالجراد المتشير ، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه » .⁵ بات من الممكن تعقب آثارهم ، و ذلك من الخراب الذي خلفوه وراءهم . وقد نرى هنا مثلاً آخر على ذلك النمط الهام الذي غالباً ما يتكرر في التاريخ : الصراع بين الصحراء والحقول ، بين البدوي والفللاح ؛ رغبة ساكن الصحراء في الاستيلاء على أراضٍ أخصب وأغنى يمتلكها غيره ، فيسوقها منهم ثم يخرسها !

كان بنو هلال أقل معرفة بمبادئ الإسلام من أسلامهم أهل المدن ، ولكتهم مع ذلك رأوا الفائدة من انتسابهم إلى هذا الدين . كانوا يتكلمون صيغة بسيطة من اللغة العربية ، و التي دخل عليها ، بعد مضي عدة أجيال ، الكثير من الكلمات و التعبيرات الأمازيغية التي أخذوها عن جيرانهم ، فنشأت على إثر ذلك لهجة جديدة كثيرة : العربية المحكية الخاصة بإفريقيا الشمالية ، وهي لغة فعالة للغاية ، بما أنها ورثت أقوى معالمها عن كل من والديها ، مستخطية بذلك التفاصيل التافهة التي تعقدهما .

لم يزيد عدد هؤلاء العرب الذين تدفقوا إلى إفريقيا خلال القرن الحادى عشر ، عن المئة ألف نسمة ، بما في ذلك النساء والأولاد .⁶ وقد توزعوا بين بضعة ملايين من الأمازيغين . ولكن نفوذهم فاق عددهم بكثير . وقد تقدمت إليهم القبائل المتزايدة ساعية بكل حماسة للحصول على دعمهم . فكان دورهم محصوراً في إمالة الميزان هنا أو هناك في ما يتعلق بالخلافات التي شغلت القبائل على مدى أجيال عديدة . و هكذا حصلوا على حصص من الأرضي والممتلكات التي أعيد توزيعها . وبعد عدد من المعارك و تحرير كثير من المدن ، و تدمير الأشجار والأبار ، وأعمال النهب والسلب وقتل الكثير من الأنفس ، استطاع بنو هلال ان يسيطروا على الوضع . «و هلكت الضواحي والقرى . . . و عم النهب والعبث في البلاد ، و تغلب عائد بن أبي القبث على مدينة تونس وسباها ». و لم تسلم مستوطنات المسلمين بالقيروان « و جاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه ، و اكتسحوا المكاسب و خربوا المباني و عاثوا في محسانتها ، و طمسوا من الحسن والرونق معالها . واستصفعوا ما كان لاك بلükken في قصورها ، و شملوا بالعبث و النهب سائر من فيها و تفرق أهلها في الأقطار فعظمت الرزنة ، و انتشر الداء ».⁸ وقد هلك في يوم واحد 3300 من هؤلاء الذين حاولوا مقاومتهم . و بعد احتكاكات كثيرة ، و مزيد من إراقة الدماء صُلح العرب المشققون الذين يحكمون المدن مع نظرائهم الريفين الغليظين ، و هكذا راح حكام المدن يوازرون العرب البدو في جميع نزاعاتهم مع الآخرين ، فارضين العقاب على كل من يعاديهما أو يقف في وجههم . و بالطبع ، فقد أمست الغزوات العربية منذ ذلك الحين فعالة للغاية ، و لا يمكن

صدقها أو مقاومتها . كما أن أمر كسب الود العربي بات مطلب جميع الفرقاء في كل الظروف والمناسبات . كذلك ازداد في الوقت عبيه الدافع عند الكثيرين لتعلم لغة الحكم و القاضي . وفي غضون بضعة أجيال ، كان باستطاعة مناصريهم ، بالإضافة إلى اعدائهم و مقاومتهم السابقين ، أن يلمسوا المفعمة من التقدّم خطوة أخرى بعد ، إذ يدعون بأن دماء عربية تسري في عروقهم . كان بعضهم ، ولا شك ، قد اختلطوا بالدماء العربية من طريق الزواج . إذا لم يخلُّ أدباء هؤلاء من بعض الحق . أما أولئك الذين لم يرضخوا لطلاب الغزاة المسلمين وأوامرهم ، فهربوا إلى الجبال و يقروا هناك منذ ذلك الحين .

نحو العرب في الاستيلاء على مناطق واسعة ، و في إخضاع شعب كان ينوقهم جداً في العدد ؛ ولا تزال آثارهم في إفريقيا الشمالية باقية حتى وقتنا هذا . هذا على الرغم من أن عددهم لم يكن أكبر بكثير من عدد الونداليين الذين لم يخلفوا وراءهم آثار لغوية أو ثقافية أو دينية . وقليلون هم المواطنون في إفريقيا الشمالية الذين يدعون أنهم يتحدرُون من أصلٍ ونديٍ .⁹ كان نجاح العرب يُعزى إلى عوامل أخرى غير العدد .

غالباً ما يفترض بأن المسلمين هم الذين جاءوا بالحضارة إلى الشواطئ الجنوبيَّة للبحر الأبيض المتوسط . إن هذا الافتراض ، في الواقع ، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة . هذا لأن كل ما فعله الوافدون الجدد هو أنهم نصبوا مخيّماتهم العسكرية ، جنباً إلى جنب تلك المدن النامية النسو والخبرة بالحياة ، والتي كانت لاتني عشر قرناً خلت قد شهدت مذًّا الحضارات المتطورة وجزرها ، لكلٍ من القرطاجيين والرومان والبيزنطيين . فمنذ فجر التاريخ ، والأمازيغيون يشكلون جزءاً من عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد شاركوا في الثقافة اليونانية العالية والرفيعة ، كما شاركوا في التقنية الرومانية المتقدمة . قام العرب بقطف ثمر الأشجار التي زرعها غيرهم ، وقادوا قطعائهم العربية إلى المراعي حيث سبق للقطعان الإفريقية أن ریضت على مدىآلاف السنين . كما أنهم عقدوا أيضاً صفقات جديدة مع التجار الذين كانوا أول من سافر عبر الصحراء على ظهور الجمال و جابوا طرقانها حاملين الذهب والماعج من الجنوب ، وقد حصل ذلك على ما يبدو منذ بداية الزمن .

لا يزال تراث تلك الحضارة القديمة لحيط البحر الأبيض المتوسط موجوداً حتى أيامنا في شمال إفريقيا . فالرومان هم الذين ابتكروا الربي على نطاق واسع . ولنا في البقايا الأثرية لتلك القنوات والقنطر لجر المياه خبر شهادة صامته للأعمال الهندسية الرومانية الرائعة في ذلك الزمان . وتلك الحضارة الزراعية التي ازدهرت خلال ألف السنة قبل دخول الإسلام ، استمرت بعد ذلك ، ومن دون توقف حتى عصرنا هذا . إن كلاً من العرب والأمازيغين لا يزالون يقسمون السنة بموجب التقويم الروماني ،¹⁰ كما ان المصطلحات الزراعية ، بشكل خاص ، غنية جداً بالكلمات التي هي من أصل لاتيني : لم يستكر العرب إلا الشيء القليل في ما يتعلّق بأنواع المحاصيل والمواشي أو المعدات الزراعية .

لقد اشتهر الرومان ، بحق ، بتعبيد طرقهم الطويلة المستقيمة ؛ إلا أن تصميم البيت الحديث في مدن إفريقيا الشمالية ، كما في مزارعها ، قد أخذ عن الفن المعماري الروماني ، أكثر منه عن الفن المعماري العربي : مدخل واحد عبر الحائط الخارجي ، ثم ردهة تقود إلى الفنان المركزي ؛ و هذا الفنان نفسه مفتوح على السماء وغير مسقوف ، وفيه غرف عند جوانبه الأربع ؛ و حديقة صغيرة ربما ، أو نافورة في وسط الفنان ، و أيضاً حوض سباحة بالنسبة إلى العائلات الأكثر ثراءً . كانت الجدران مصنوعة من الحجارة الخشنة التمسكية بواسطة مادة الإسمنت الصلبة ، وهي من أعظم ما قدمته الإمبراطورية للعالم . و في بعض الأماكن لا يزال القرميد الأحمر الشبيه بذلك الذي كان يستعمله الرومان ظاهراً فوق سطوح بعض البناءيات . و حتى الزليج الملون والمركم الذي يغطي أرضية بيوتنا في أيامنا الحاضرة ، فإنه يذكرنا بالقصيقات الرومانية التي أوجحت به . زُودت الدور الرومانية بالأحواض وبمجاري المياه ، وهي تضاهي في جودتها الأنابيب الحديدية ومصارف المياه المصنوعة من الإسمنت في أيامنا الحاضرة ، كما أن الحمامات العامة التي ابتكرها الرومان لا تزال من معالم حياة المدن في إفريقيا الشمالية .

و قد بني الرومان ما مجموعه حوالي ست مائة مدينة في شمال إفريقيا وأكثر من 19 000 كيلومتر من الطرقات ، و اكتشف علماء الآثار ثلاثة مدرجات حجرية فخمة . و في مدينة واحدة فقط ، أي مدينة تيمقاد في الجزائر ، توجد آثار ثلاثة عشر حمام عمومي ، كما توجد الكثير من التوافير العمومية (السباقيات) . هذا بالإضافة إلى الأحواض المائية التي تجدتها في كل مكان في الآثار الرومانية .

أما في السلال والجبال ، فلا يزال الأمازيغيون حتى اليوم يشيرون بيونهم الاقتصادية المميزة مما يتوافر لهم من طين و قش و حجارة ؛ و لطالما استخدمو هاتين المادتين منذ فجر التاريخ . إذا لم يتأثروا في هذا المجال ، لا بروما ولا بالعربية : كان عندهم تراثهم الأمازيغي الخاص بهم وحدهم .

إن الشيء الجديد الذي جاء به العرب إلى إفريقيا هو الدين الإسلامي . و كان اسلامهم في العربية و في سوريا ، و على مدى نحو ثلاثة جيلاً يعرفون المسيحية جيداً ، كما أنه كان يوجد بين ظهرائهم الكثير من المسيحيين ¹¹ . ولكن الرجال الذين أصبحوا من أتباع محمد ، كانوا في غالبيتهم نظيره ، أي من أصل وثنى و غير مسيحي . وربما لم يكونوا يعرفون بشكل واضح ما يؤمن به المسيحيون . وفي أية حال ، فإن تعليمهم لم يكن ينماش مع الواقع المدون في الكتاب المقدس و التي كانت معروفة عند جميع المسيحيين واليهود المثقفين في ذلك الوقت . لقد اعتقادوا أن امرأة نوح هلكت هي و واحد من بنيه في الطوفان ، لا ، إنهم خلصاً مع نوح ، كذلك كانوا يومئون بأن هامان كان أحد رؤساء الوزارة في بلاط فرعون في زمن موسى ، هذا مع أن الكتاب المقدس يصرخ

بأنه كان الوزير الأول للملك فارس أحشويروش ، أي بعد نحو 800 سنة من ذلك . لقد اعتقادوا أن اسماعيل كان الابن الذي أخذه ابراهيم الى الجبل ليقرئه كذبيحة ، لكن الكتاب المقدس يذكر أنه أخذ ابنه اسحق . كما أنهم خلطوا بين مرريم أم يسوع وبين مرريم اخت موسى ، على الرغم من أنه من الثابت تاريخياً أنهمَا تنتهيان الى سبطين مختلفين وتفصل بينهما 1200 سنة . ولم يكونوا يستعملون الاسم الأصلي للمسيح الذي كان « يسوع » . كما لم يُبدوا أية علامة على معرفتهم بحياته وتعاليمه وكتابات رسle .

خلال ستة القرون التي سبقت دخول الإسلام الى إفريقيا الشمالية ، كانت تعاليم المسيح معروفة ومكتورة فيها . وبعد دخول الإسلام بستة قرون يقى هناك بعض المسيحيين الأمازيغين الذين كان لا يزال بإمكانهم تعليم الوافدين من المسلمين طريق المسيح . إلا أن المسلمين كانوا مهتممين بقهر أبناء البلد ، وبإخضاعهم ، أكثر من اهتمامهم بالتعلم منهم .

شهد النصف الأول من القرن الثامن ، تحول معظم الأمازيغين ، ولو ظاهرياً ، الى الإسلام ، على الرغم من أن ابن خلدون يذكر « أن البربر ارتدوا اثنى عشرة مرة من طرابلس الى طبقة »¹² . ومن الخطأ ان نعطي انطباعاً في أن الغزو العربي لإفريقيا قد حصل فوراً و بشكله الخامس وال النهائي . فقد كان هناك مقاومة واسعة وعنيفة ضد المستعمررين ، و ذلك على مدى خمسة قرون ، وكانت هناك مناطق واسعة خارج نفوذ الحكم المسلمين . و خلال القرون الوسطى ، ثبّت الأمازيغيون بسهولة ، و أحياناً بحماسة ، الحركات الإصلاحية كلها التي حاولت أن تتحدى السلطة العربية . و كانت هذه الحركات تتلقى بشكل حتمي دعمها وتأييدها من الشعب الريفي و من الطبقات الفقيرة في المجتمع .

و في العام 740 م ، بلغ الأمر بيرغواطا (Berghawata) ، في السهول الغربية من المغرب ، بين سلا و الصويرة ، أنها استبانت دينها الخاص بها ، بالإضافة الى مصحف جديد للكتابات الدينية مكتوب باللغة الأمازيغية . و هكذا استطاعوا ان يثبتوا وجودهم كامة منفصلة حتى العام 1062 م . وفي معظم سنوات القرن العاشر ، حكم المسلمون الشيعة من قبيلة الكثامة مساحات و مناطق واسعة من الجزائر باسم سلالة الفاطميين الحاكمة . و في القرن العاشر أسس خوارج جنوب الجزائر المملكة الإيابية المستقلة . كما أن الذين تحدروا منها في كل من جربة و رقنة وجبل ثقوسة والمزاب لا يزالون يحتفظون بهويتهم منفصلة حتى أيامنا هذه . كذلك تم تأسيس مملكة أخرى للخوارج في سجلماسة . و بالإضافة الى ذلك ، يقى الكثيرون من الرؤساء الأمازيغين في الجبال و السهول الغربية ، بعيدين تماماً عن سيطرة العرب و المسلمين حتى قامت عليها حملات الموحدين و ذلك في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر . و البدو في الصحراء ، لم يصيروا مسلمين بشكل فعلي إلا بعد حلول القرن الخامس عشر . أما شعب الغوانش (Guanches) سكان جزر الخالدات ، فلم يبلغهم الإسلام أبداً .

وكما كان الإسلام بطبيعته في تثبيت جذوره في إفريقيا ، كذلك كانت المسيحية ترفض أن تتلاشى . فقد استمرت بعض الكنائس في شمال إفريقيا فاعلة ، و ذلك بعد خمسة قرون من دخول الإسلام . إلا أن الجماعة المسيحية ، وباعتراض الجميع ، باتت تختلف تماماً عما كانت عليه من قبل . ولكتنا نعجب من تكها من البقاء والاستمرار ، نظراً إلى ما عانه من صدمات ، مع ما كانت تفتقر إليه من تعليم و تشجيع . كانت الكنيسة البيزنطية في إفريقيا تضم عدّة مئات من النّظار ؟ لكن ، لم يبقَ منهم سوى أربعين مع مذابة القرن الثامن . وقد تمكّن هؤلاء الأربعين من الشابرة الدّلّوب . لقد رفضوا أن يتّنكروا للحق ، فدفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، حاسبيهم أن إيمانهم و حرية ضمائرهم لا يقدّران بشمن . وعلى الأقل ، فإنّهم لم يديروا ظهورهم للمسيح . لقد كانوا رجالاً و نساء رائعنين ، و يامكاننا الّوثق بأن مكافأتهم تتّنظّر لهم هناك في السماء .

هناك الكثير من التضارب في وجهات النظر بين المسلمين أنفسهم حول كيفية التعامل مع مشاعي الآيات الأخرى في الدول الإسلامية . ومن الناحية البدائية ، كان التساهل ممكناً مع المسيحيين ومع اليهود ، شرط أن يرضوا بأن يكونوا في موقع « اللّمة » ، أي أولئك الذين يتّكلّن الإسلام بحماساتهم . وفي هذه الحال ، يتوجّب عليهم أن يدفعوا الضريبة المطلوبة . ففي سوريا و مصر ، اختارت جماعات كبيرة من المسيحيين أن يدفعوا هذه الجزية ؛ أمّا في شمالي إفريقيا ، فالذين دفعوا الضريبة ، كانوا قلة قليلة نسبياً . كانوا يطلقون عليهم التسمية « رومي » ، ولا يزال هذا الاسم يُطلق على الأوروبيين في شمالي إفريقيا . كان يقدّر المسيحيين المحافظة على بنية الكنيسة المحلية الموجودة بواسطة اصلاحها وصيانتها ، ولكن لم يكن يجوز تطويرها أو توسيعها ، ولا حتى تشييد أبنية جديدة . صدر مرسوم في المغرب ، بعد اربعة قرون من موت محمد ، ينصّ على التالي : « لا يحقّ للمسيحيين أن يزيدوا ارتفاع كنائسهم ، ولا أن يغيّروا في بنائها في حال كانت الكنيسة المحلية مبنية بواسطة الأجر المحقق وارادوا ان يعيدوا بناءها بالحجارة . و اذا كان خارج الكنيسة لم يكتمل بعد ، فيجب منهم من إكمال بنائها على أي حال » . ولكن اذا وجدت بنية الكنيسة فعلاً ، فيجوز صيانتها واستعمالها للعبادة : « لا يُحظر على أي من المسيحيين أو اليهود ان يضعوا اللمسات الأخيرة على أي بناء مكتمل ، كالعمل على رفع الباب قليلاً في حال ازداد علو الأرض الى جانبها ، او القيام بالترميمات الضرورية لاستقبال العابدين في داخل المبني » .¹³

و مع حلول القرن التاسع ، تحنّ نعلم أنّ المسيحيين ، مع ان عددهم لم يعد غافراً ، كانوا لا يزالون يتواجدون في المدن الرئيسية في شمالي إفريقيا ، بما في ذلك المراكز الجديدة التي أسّسها العرب في فاس وتلمسان ، و تيارات ، و بجاية ، و تونس ، و القيروان ، و المهدية . و نحن ، مع الأسف الشديد ، لا نعرف سوى الشيء القليل عن هؤلاء الذين استمرّوا بفضل صمودهم العنيف . و لا بدّ من أن إيمانهم كان راسخاً حتى استطاعوا ان يتحملوا شتى الضغوط العنيفة

طوال تلك الفترة . إن هذه المعاشرة الدؤوبة تم ، ولا شك ، على معرفة حقيقة بالله و بقدره الفائقة على حفظ المؤمنين ، وعلى مدتهم بما يحتاجون إليه . لم يكونوا مجاهزين كما يجب للبقاء وللاستمرار . فكلمة الله لم تكن متوافرة لديهم (إلا إذا استطاع كل جيل أن يدرس اللاتينية وأن يستنسخ الكتاب المقدس باليد) ، كما أنه لم يكن لديهم آية ذكريات عن كنيسة مبهجة ونامية كما كانت عليه حالها في أيام ترتوثيانوس . كانت لديهم خبرة ضعيفة وهزيلة في ميادين التلمذة الشخصية ، لأنهم اعتادوا في الكنائس البيزنطية على أخذ دور المترفّ و عدم القيام بأي شيء . لقد ورثوا الخرافات المتراءكة ، بالإضافة إلى أحطاء إلى من الدوناتين والكاثوليك والأريوسين . وبالرغم من كل هذا ، كان لا يزال بوعدهم أن ينالوا الخلاص بالإيمان البسيط يسوع المسيح ، وأن يختبروا يوماً بعد يوم معبة الله ، أيهم السماوي . ولربما أمكننا بحق أن نجد في هذه البقية الشجاعة كنيسة للمسيح أصدق من تلك التي كانت موجودة وسط العوائد والأقواس الفخمة للبيزنطيين .

ولكن الجماعات المسيحية راحت ، واحدة تلو الأخرى ، تستسلم بشكل حتى تحت وطأة الضرائب والدعایة والتعمّص الديني . و حيث عُسكَر الآباء بإيمانهم ، أنكره ابناؤهم ، و حيث وقف المزارعون بعزم ثبات ، جبن عمالهم و خضعوا . ولم يوجد هناك من يستقطبهم ويستجمعهم حول الحق الإلهي ، أو من يحيي فيهم إيمانهم المتداعي و معنوياتهم المهاورة . و يبدو أن أولى الكنائس التي زالت من الوجود كانت تلك التي في الشرق - الإسكندرية ثم قرطاجة ، و هيرو و سيفيسيس - و ما يدعو إلى السخرية هو أن هذه الواقع كانت تضم أقوى الجماعات المسيحية ، لكنها كانت هي أيضاً التي تعرّضت لأعنف الضغوطات الإسلامية وأفساها . وقد نتعجب كيف أن وجود الكنائس دام لمدة أطول في المنطقة الأضعف أي في شمال المغرب ، وقد يكون السبب هو أن إيمانهم أقوى وأكثر تأثيراً من حيائهم الشخصية .

وُجِدت جماعة مسيحية في فولوبليس (وللي)، وهي ترجع إلى زمن الرومان . و قليلاً ما تأثرت بالونداليين والبيزنطيين ؛ هذا لأن تأثيرات هؤلاء القوم لم تسعَ مخاوفهم الأمامية في طنجة و سبتة . وفي القرن السابع ، كانت فولوبليس و المناطق المحيطة بها تحت حكم مجلس ينكون من أناس ذوي أسماء لاتينية يبدو أنهم كانوا مسيحيين . كما أن مسيحيين آخرين من الشرق والغرب هربوا من وجه الزحف الإسلامي قاصدين المعقل المسيحي فولوبليس . و من بين هؤلاء كان من تبقى من قبيلة أوربة التي تخص كسيلة . وقد عُثر هناك على كتابات لأسماء و ألقاب باللاتينية ، يرجع تاريخها إلى العام 655 م ، أي بعد ثماني سنوات على زحف عقبة نحو الأطلسي .

في إحدى المخطوطات العائدة إلى القرن الثامن ، ذكر لأحد النظار المسيحيين في طنجة ، ومع حلول العام 833 كانت الكنيسة في سبتة لا تزال تحفظ بناظر عليها . و في العام 986 م وجد عالم الجغرافيا الاندلسي البكري جماعة مسيحية ، بالإضافة إلى مكان للاجتماعات في

تلمسان في الجزائر . كذلك تم العثور على كتابات لاتينية مقتضبة يعود تاريخها إلى نهاية القرن العاشر و ذلك في النجيلة بليبيا ، و حتى منتصف القرن الحادى عشر في القิروان . كانت الرسائل لا تزال تكتب إلى القادة المسيحيين في إفريقيا الشمالية ، و ذلك في النصف الأخير من القرن الحادى عشر . و هذه الرسائل ، بما أنها كُتبت باللغة اللاتينية ، تشهد على أن هذه اللغة قد استمرت حتى ذلك الوقت . إننا نسمع عن ناظر في قُمّي (المهدية بتونس) في العام 1053 م ، وعن مجموعة كبيرة من المسيحيين في ورقة طوال المدة من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر .

ولكن آثار المسيحيين نقل أكثر فأكثر بانتظام القرون و الزمن . هذا ، و لم نعد نعرف في منتصف القرن الحادى عشر سوى خمسة نظار في شمال إفريقيا ، و بعد عشرين سنة من ذلك ، بات هناك اثنان فقط . تم اختيار ناظر جديد في إپونا (Ipona) في العام 1074 م ، ولكن الحاكم المسلم اضطر أن يرسله إلى روما لأجل الاحتفال بتعيينه ، لأنه لم يكن ممكناً العثور في إفريقيا على النظار الثلاثة المطلوبين . وقد يعجب أحدنا لماذا اهتم الحاكم بهذا الأمر كل هذا الاهتمام : كان الحكام العرب يحصلون ، في الواقع ، على دخل كبير من جراء الضرائب المفروضة على المسيحيين . وعلى هذا الأساس نفهم لماذا لم يكونوا يغضبون بشكل مستمر ، على المسيحيين لحملهم على التحول إلى الإسلام ، الأمر الذي سيحرم الحكام من هذه الدخل . كانت الكنائس في ذلك الوقت تضم بين صفوفها بعض المسيحيين من الأسرى و العبيد من هم من أصل أوروبي . وفي العام 1114 م ، كان لا يزال هناك ناظر في مدينة بجاية . و في هذه المدينة عينها تم في العام 1212 م إلقاء القبض على الأولاد الساكن الذين شاركوا في حملة الأولاد الصليبية ، ويعهم كعبيد . وبعد قرن من الزمن ، و في هذا المكان عينه ، استشهد المبشر والصوفي الكتالوني رامون لول (Raymond Lulle).

بات انخفاض عدد النظار المعروفين أمراً مثيراً و ظاهراً جداً ، و لكن من الصعب تقدير أهمية هذا الأمر . لا شك في أن بعض الكنائس قد تشتتت ، كما ان بعض المباني أُخليت ، و لم يعد البعض النظار أي اعتبار . و لكن الوجود المسيحي لم يتضاءل إلى الدرجة التي قد تكون قد ألحقت بها هذه الاحصاءات : و إلا وكانت ، وبكل تأكيد ، قد ماتت و انقرضت بسرعة أكبر بكثير . وقد يكون أن انخفاض عدد النظار يشير فقط إلى أن المسيحيين باتوا يجتمعون في دورهم ، و على هذا الأساس راحوا يتخلّون ، تدريجياً ، عن شكل من أشكال الإدارة الكنسية الذي كان دائماً مثيراً للشبهات و الذي لم يعد يتلاءم مع الضغوطات التي وجدوا أنفسهم معرضين لها .

في الواقع ، استمرت بعض المجموعات المسيحية ، حتى فترة «الموحدين» في القرن الثاني عشر . و خلال تلك الفترة قام سجين مسيحي ، جيء به من إسبانيا ، بنسخ و تأريخ مخطوطة للأناجيل باللغة العربية و ذلك في أثناء فترة أسره الطويل في فاس بالمغرب . و لم يحدث التبديد

النهائي لأعضاء كنيسة قرطاجة بالإضافة إلى نفي ناظرها ، إلا بعد أن قام المصلح الإسلامي عبد المؤمن بالسيطرة على تونس في العام 1159 م . ثم قدم هذا القائد للمسيحيين الباقين خياراً بسيطاً : الإسلام أو الموت . و إذا ذاك فرب بعض المسيحيين إلى أوروبا ، ولكن معظمهم لم يفروا على ذلك . وهكذا تكون عبد المؤمن بسيفه ذي الحلين ان ينهى بضرره القاضية ، بشكل أو باخر ، على الكنيسة كجسم من المسيحيين معترف به في إفريقيا الشمالية .

إلا أن المسيحية لم تستسلم و تمت ، حتى بعد تلقيها هذه الضربة المميتة . و بقى هناك البقية مبعثرة من المسيحيين ، و حتى أيضاً تقارير عن مسلمين قبلوا الأخيل . و في العام 1228 م ، قام أحد أمراء «الموحدين» بالسماح بعمودية بعض المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية¹⁵ . إننا نسمع عن آخر ناظر مسيحي من المغرب في العام 1246 م ، كما أن بعض المسيحيين الأفراديين كانوا لا يزالون موجودين في إفريقيا الشمالية حتى القرن الرابع عشر . و لكن منذ ذلك التاريخ ، كانوا في غالبيتهم من البحارة في البحر الأبيض المتوسط والأطلسي ، من الذين انتصروا للقراصنة وأودعوهم سجون فاس و سلا و مدينة الجزائر¹⁶ .

إنه لأمر مثير أن نتساءل عما إذا كانت بعض العائلات المسيحية أو القرى المختبئة في عمق الجبال في إفريقيا الشمالية ، حافظت على مشعل الحق وهاجأ مضيئاً طوال القرون الطويلة منذ ذلك الحين . هل كان باستطاعة آية جماعة أن تحمل إيمانها ينتقل من جيل إلى جيل ، كما فعل اليهود مثلاً ، و حتى أيامنا هذه ، و كل هذا من دون أن يعرفوا عن أي مؤمن ضمن إطار ألف كيلومتر من مكانهم ؟ إن مثل هذا التخمين قد لا يكون إلا خيالياً ، حيث أنه لا يوجد لدينا أي دليل على مثل هؤلاء الناجين . فالامر ليس بالسهل ، إذ يتطلب ثباتاً مدهشاً و رائعاً في وسط المحن الساحقة . و لكن فإن مثل هذه المعجزات ليست مستحيلة بالطبع .

ملاحظات

- 1- وكتب المؤرخ العربي «النويري» في القرن الرابع عشر عن حملة عقبة ، قائلاً : «فرحل من طنجة إلى السوس الأدنى وهو في جنوب مدينة طنجة التي تسمى تارودانت فانتهى إلى أولتهم فقتلوا ذريماً و هرب من بقى منهم و تفرقوا خليه في طلبيهم . و مضى حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع البربر في عدد كبير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فقاتلهم قائلاً لهم يُسمع بهنله ، فقتل خلقاً كثيراً منهم وأصاب نساء لم يرَ الناس مثلهن . فقيل إن الجارية كانت تساوي بالشرق ألف منتقل وأكثر وأقل . و سار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد ولا يفرون له ، فدخل فيه حتى بلغ الماء لبان فرسه ، ورفع يده إلى السماء وقال : «يا رب لولا هذا البحر لضيبي في البلاد إلى ملك ذي القرنين مدافعاً عن دينك و مقاتلًا من كفرتك و عبد غيرك ». (النويري : كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب . تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد - الفصل السادس) .

- ويخبرنا الكاتب نفسه انه بعد وقت قصير أخذ العرب 35 000 أمازيغي كعبيد الى مصر ، وقد وهب قائد القافلة للحاكم المصري "ماكتي جارية ووصيف من خيار ما كان معه" (الفصل الحادي عشر) .
- 2- ابن خلدون ، كتاب العبر . . . فصل : أخبار البربر على الجملة . المجلد VI ص . 216 .
 - 3- وعلى الرغم من ذلك ، فإنهم بقوا ، خلال القرن التالي ، متقدرين ومعانين المجازر على المستوى المحلي . ففي معركة واحدة فقط ، فقد أكثر من 180 000 من الأمازيغين حيالهم . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الكثيرين منهم قد استعبدوا وسبوا ، وكثيرون آخرون شُوّهوا جسدياً أو تركوا مشردين . (ابن خلدون ، فصل : أخبار البربر على الجملة ، المجلد السادس ص . 222 .
 - 4- التويري : (م . س .) الفصل الثالث عشر .
 - 5- ابن خلدون (ن . م .) فصل : دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 27 - 28 .
 - 6- ابن خلدون (ن . م .) فصل : دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 31 .
 - 7- Camps pp. 137, 187
 - 8- ابن خلدون : فصل دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 34-31 .
 - 9- يُذكر أن نحو 80 000 من الوتاديين عبروا مع جنسيrik من إسبانيا إلى أفريقيا ، في العالم 429 م .
 - (Brown p. 424 ; Bonner p. 152)
- بعد .

Amahan pp. 85 ff - 10

11- رابع Trimingham (عدة اقتباسات)

12- ابن خلدون ، فصل دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 34 - 31 .

13- اقتبسها (p. 62) Cooley

Walker TGS p. 229 - 14

Latourette Vol. II p. 325 - 15

Cooley pp. 64-79 - 16

من المصادر الأولية للهجوم العربي : التويري وابن عبد الحكم وابن خلدون : تاريخ البربر ، المجلد I .

من المصادر الثانية :

Latourette, Vol. II pp. 304 - 5, 325;

Mantran pp. 204 - 206 ; Cooley pp. 58 - 95

Neill pp. 62 - 5 ; Camps pp. 129 - 137 , 175 -6, 180 - 192;

Norris pp. 44 - 104 ; Guernier pp. 249 - 253;

Coon pp. 26 -35.

الفصل الحادي والثلاثون

غرض الله المقصود

هذا إذاً هو تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية . قصة فرح عارم ، وأحياناً حزن ، قصة كلمات شجاعة و أيام راسخ مخلص ، و حياة صادقة ، و أخيراً الفساد المحزن ثم الموت . لقد رأينا كنيسة عظيمة و مجيدة ، ولكن ، عيوبها حبيرة ، و إذ تعرّرت في سيرها ، كان لا بدّ لها من أن تسقط . نحن ننظر إلى الماضي ، ربما بتعجب و بشفقة ، و نسعى لفهم الأسباب الكامنة وراء ذلك النجاح الرائع الذي حققته المسيحية في إفريقيا الشمالية ، بالإضافة إلى العوامل التي تسبّبت في سقوطها الرهيب .

ولكن ، يجب ألا تغيب عن بالنا أبداً حقيقة أن الكنيسة هي كنيسة الله . فحين نُمعن النظر في كلمات الناس و في أعمالهم ، يسهل علينا عندذلك ان ننسى حقيقة أنَّ شؤون البشرية هي دائمة في يد الخالق العظيم . انه يعلم خروجنا و دخولنا ، و هذا ما يؤكّده لنا الكتاب المقدس . انه يعرف الخطط التي رسّمها لنا ، إنها خطط خبر لا شرّ . انه يحول كل الأشياء معًا للخبر للذين يحبّونه ، الذين هم مدعّون حسب قصده .¹ ولذا يتوجّب علينا ان نطرح السؤال الرئيس التالي : كيف نظر الله إلى تقدّم المسيحيين في إفريقيا الشمالية ، هؤلاء الذين أظهروا أنّهم بشر فعلاً؟ و أين هي يده في كل ما حصل لهم؟

من السهل جداً ان نرى العناية الإلهية في ثورة الكنيسة الرائعة في مراحلها الأولى ، ولكن قد يكون من الصعب لنا تمييز قصده تعالى في ما تلا ذلك من خراب و سقوط . كانت الجماعات المسيحية الأولى قد اختبرت برّكة عظيمة : لقد تجاوب الآلاف مع رسالة الإنجيل إذ آمنوا بال المسيح ، كما أنّهم انتصروا على أعنف الاضطهادات و أصعب الظروف الاجتماعية و الدينية و الجغرافية . لا يمكننا أن نعزّز تحاجّهم المذهل هذا إلى العوامل البشرية وحدّها ، بل يجب ردة ذلك إلى قوة الله التي كانت تعمل بكل وضوح في حياتهم . لقد ازدهر المسيحيون الأوّلون ، لا لأنّهم كانوا أذكي و أمهّر من أولئك الذين جاءوا بعدهم ، بل لأنّهم كانوا مخلوقين بروح المسيح . لقد كثروا لا بسبب براعتهم في التبشير و الوعظ ، بل لأن رسالتهم كانت رسالة حق . لقد ازدهروا ، لا لأنّهم كانوا يدركون و يفقهون لاهوت الله من جميع جوانبه ، بل لأنّهم كانوا على اتصال بالله الحي نفسه . وعلى قدر ما كانوا يعرفون الله القدير الذي في يده زمام الأمور ، و يؤمنون به و يطبعونه ، كانوا يختبرون بركته الحقيقة الفعالة بوفرة و بفرح .

إن ما يدعو حقاً إلى السخرية ، هو أن أقول شمس المسيحية من إفريقيا الشمالية ، لم يحصل إبان فترة التناحر والصراعات العنيفة ، بل عندما كانت في أوج مجدها وكرامتها ؛ لم يأت الانحلال في وقت البلاء والضيق ، بل في وقت الإزدهار والرفاهية . و هذه الحركة ، لم تسقط عندما واجهت الضغوطات ، بل عندما أتيحت أمامها فرص أعظم من سابقاتها . كانت الكنائس في أيام اخسطينوس قد خرجت متصورة من اضطهاد ميردام قرنين ونصف ؛ و هكذا باتت تقف على عتبة ما ظهر بأنه عصرها الذهبي . و بزوال الآلهة الوثنية ، امتد فراغ روحي كبير عبر الامبراطورية الرومانية . كان العالم بأسره يتظاهر ، في ذلك الوقت ، ان تصل إليه رسالة المسيح . كما أن المسيحيين باقى ينعمون بالسلام والإزدهار والتآيد الملوكى ، و أصبح عندهم الحرية والإمكانيات لتوسيع رسالة الإنجيل إلى طول العالم وعرضه . و لم يسبق أن افتح أمامهم ، من قبل ، باب واسع بهذا الشكل .

إلا أن الكنيسة المسيحية التي كان يجدر بها أن تتحرك بقوة وشجاعة في الخارج ، ترددت وتعثرت ، و من ثم في ضعفها ، انهارت على نفسها . يبدو أنه كان من الصعب عليها أن تتفند هذه المهمة . لكن ، ما هو السبب؟ و ما هي العيوب والشوائب التي أدت إلى هذا الفشل الذريع؟ وما هي الأخطاء التي ارتكبها هذه الكنيسة؟ و لماذا سمح لها الله بارتباكها؟ هذه هي الأسئلة التي يجب علينا أن نطرحها .

في الواقع ، لم تكن هذه الضعنفات جديدة ، بل كانت موجودة منذ عدة سنوات ، كما أن الكثيرين من المسيحيين كانوا قد دعوا إلى التغيير ، محذرين من الكارثة الوشيكة الواقع . و بإمكاننا ان نعزز هذا الفشل إلى ثلاثة أخطاء رئيسة : المساوية مع العالم ، الافتقار إلى الشركة الحقيقة بين المؤمنين ، و فقدان الرؤية الروحية الناجمة . وهذه الأخطاء أدت بدورها إلى بروز ثلاث مشاكل غير محلولة : إلتزامات اجتماعية و سياسية تشكل عيناً مضيناً ، و تقييز صارم بين الإكليلروس و العلمانيين ، و توافر ضئيل جداً للكتاب المقدس المكتوب .

بادع ذي بدء كانت الكنائس ، كما رأينا ، قد أصبحت متورطة ، بشكل ميؤوس منه ، في أمور وبقى غريبة عن المسيحية . وفي الوقت الذي انحرف فيه الكاثوليك بسبب الحلف الذي عقدوه مع الدولة الرومانية ، لم يكن الدوناتيون أقل ارتباكاً منهم ، و ذلك في تورطهم المشؤوم مع جماعة «الدوارين» (Circumcellions) . إن ما دار بينهما من صراع مؤسف ، لم يكن له أية علاقة بإنجيل المسيح ، لا بل ألهى الجماعة المسيحية و ضعف معنوياتها . إن هذه النزعة المنظورة إلى الأمور العالمية ، كان يقابلها انحراف داخلي لا يخفى وضوحاً على ذوي البصائر النّفّادة . كان عدد كبير من الناس مسيحيين بالاسم ، و لا تظهر مسيحيتهم في ممارساتهم إلا نادراً . كذلك كانت الخرافات الوثنية ، والاثانية ، والخطيئة ، تعمل معاً على جرّهم بعيداً عن دعوة المسيح . و لم يكن التوبيخ وإسداء النصائح بعدهي نفعاً في الكنيسة الكاثوليكية التي فاق فيها الزوان على الخنطة . و من جهة أخرى ، تجد أن الدوناتيين فشلوا

فشلًا ذريعًا في مجال تأديب مناصريهم العنتاء . و هكذا لم تعد المحبة و النقاوة القلبية من الصفات المميزة للمسيحيين . كما أن أتباع المسيح لم يعودوا نوراً و ملحًا في وسط عالم وثني جحود ، كما كان يفترض فيهم أن يكونوا .

و ثانيةً ، قد يكون انعدام الشركة الأخوية الحقيقة بين المؤمنين هو الذي سبب الجمود الروحي هذا . كان يعوّل لأجل القيادة و التعليم و تنشيل الجماعة ، على الناظر العازب والمثقف ثقافة عالية ، والذي كان قد تمّ تعينه لأجل هذا الغرض . ولم يعد الرجال و النساء المسيحيون سوى أعضاء خاملين ، ضمن نظام يقوم بعمل كل شيء من أجلهم . و هذا الأمر أضعف فيهم الرغبة في الالتزام الشخصي بالعبادة و الخدمة الروحية و الإحسان بمسؤولياتهم أمام الله . فالسيطرة عليهم من فوق ، و من أماكن بعيدة ، جاءت لتعيقهم في اتخاذ المبادرات المحلية ؛ و بذلك انطفأ الروح القدس تماماً .

وأخيراً ، يظهر أيضًا أن الكنائس فقدت الشعور بالقصد من وجودها . إنهم ، في نظرهم إلى دواخلهم متشغلون بزعامتهم الخاصة ، فقدوا الرؤوس المختصة بدعوة الله العليا لهم إلى الخروج إلى العالم المتضرر ، و توصيل محبة الله له . و ربما لهذا السبب اخفق القادة المسيحيون تماماً في وضع الكلمة الله بلغة يفهمها شعب إفريقيا الشمالية . و حتى الكتاب المقدس باللغة اللاتينية ، كان وجوده قليلاً ونادراً . و هذا يعني أنه لم يكن باستطاعة المؤمنين التحقق من صحة التعليم الذي يتالونه من القادة ، كما أنهم يأتوا عاجزين عن حمل الإنجيل بفعالية إلى داخل البلاد ، حيث يجهل الناس هناك اللغة اللاتينية . هل بإمكاننا القول ، عن حق ، إن الله يتخلى عن شعبه بسبب سقطات و تقصيرات كهذه؟ ربما لا . فالكنائس قد عرفت ، و بكل تأكيد ، بركته حتى النهاية . لقد اختبروا فرحة في العبادة ، و قدرته الإلهية في أوقات الخطر ، و عجائبه أيضًا استجابة لصلواتهم . و نحن نعلم أن محبة الله لأولاده لا تتأثر بمحاجتهم ، كما أن ضعفهم لا يقدر على أن يطفئ حنانه عليهم . لقد جاء ابن الإنسان ، لا ليطلب الناس الكاملين الصالحين و يخلصهم ، بل الخطة الهالكين ، لم يأت الطيب العظيم ليداوي الأصحاء ، بل المرضى². إن الله ، أيها ربنا يسوع المسيح ، يحب أولاده الضالين بلطف و بصير يفوقان إساءاتهم وجهائهم جميعها . وهو يحتملهم إذا رأى فقط في قلوبهم حبًا خالصًا له و إيماناً صادقًا بذلك الذي أرسله ليموت عنهم .

إن الإيمان الحقيقي الصادق لدى ترتوليانوس ، كان أيضًا لدى اغسططينوس و كبريانوس؛ كما أنه لم يكن أقل درجة منهمما في ترتوليانوس ؛ و هكذا حظي كل واحد منهم بالرضى الإلهي . ففي كل جيل ، نجد أن الله يبارك الذين عرفوه و مجدهو و خدموه . ولكن ، من المؤسف جدًا أن عدد الرجال و النساء بهذه المستوى الرفيع ، راح يتضاعف بمرور الزمن في مدن إفريقيا الشمالية و قراها . حتى إنه بات من الصعب ، في أيام اغسططينوس ، ملاحظة أن هذه الكنائس

نفسها ، هي وليدة تلك التي كان قد أستسها الرسل لأربعة قرون خلت . و لكن بعض القوم كانوا لا يزالون يفتشون الكتاب المقدس بكل صدق ، باحثين عن مشيئة الله المعلنة فيه لكي يطيعوها . أما بعضهم الآخر ، فكانوا يتشارعون لعمل ما يبدو لهم أنه الأفضل في نظرهم ، أو ما يبدو أنه الأفضل في نظر أصدقائهم في المراكز العليا .

و منذ أن اعتلت الكنيسة الاسقفية العرش ، أصبح من الصعب جداً على أعضاء الكنيسة ان يتبعوا الراعي الصالح . لا يقدر أحد ان يخدم سيدين . و بارتفاع البنية المهيأة و الراية للكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، سمت هذه الكنيسة ، و حلقت فوق الجميع ، مسيطرة بذلك ، بشكل تام ، على كلّ ما يجري أمامها ، بحيث ضاع المخلص نفسه ، و اختفت صورته البهية في هذا الخضم العارم . مرّ الزمان ، و لكن انتصاع المسيح الناعم الرقيق ، لم يعد له مكان وسط إشراقة الهمينة الامبراطورية هذه . و هكذا انعزلت كلماته الصريحة المباشرة وراء عادات و توكيدات كرسها بعض الأشخاص الطموحين . و بعد أن أخرست جميع الأصوات التي تعارضها ، أصبحت بذلك الكنيسة الكاثوليكية ، العقبة الرئيسة و العثرة الكبيرة في طريق النمو الروحي لأعضائها . كما أنها جعلت درب التلمذة الحقة مظلماً و أكثر إيهاماً . كان هذا الدرب لا يزال موجوداً ، و لكن إعادة رسم الخارطة لم تعد تُظهر معالم الطريق الحق . و في النهاية ، لم يعد باستطاعة إلا القليلين فقط أن يسلكوا هذا السبيل .

يمكنا القول إن المجد في أيام أغسطنطينوس كان بعد قائماً ، لكنه كان يسير في طريق الزوال .³ وكان لا يزال هناك رجال و نساء ملؤين بروح المسيح ، و لكنهم كانوا أشبه بطيوبر بپباء ترفرف فوق بحر قدر و ملوث ؛ جماعة غريبة ، و كنيسة كانت ستُحرج منارتها قريباً وينطفئ نورها .⁴ و لربما ترددنا في القول إن سقوط المسيحية جاء نتيجة لدينونة الله على كنيسته . الواقع الذي لا يمكن انكاره هو أنه بعد أن ضلت الكنيسة و ساومت مع العالم و فسدت ، انهارت أخيراً تحت وطأة الضغوط التي لم يمنع الله وقوعها . لقد ذهبت كنائس شمال إفريقيا بعيداً جداً في الاتجاه الخاطيء ، و قد فات الأوان بالنسبة إلى احتتمال اعادتها إلى جادة الصواب .

ألم يكن باستطاعة الله ان يتدخل بنفسه لكي ينهض شعبه من جديد ، و يردهم إلى الحياة الروحية ، بواسطة قائد أو ربيا حركة إصلاح ؟ طبعاً ، كان ذلك يامكانه ، و قد يرى بعضهم في الموتنسيين و التوفاتين ، و حتى في الدوناتيين أيضاً ، تحسيداً مثل هذه الحركات المصلحة . ولكن الفشل كان حليف كل واحدة منها ، و ذلك للأسباب التي سبق ذكرها . و هكذا ، لم يبق في عصر البيزنطيين سوى الكنيسة الكاثوليكية . و في الأحوال التي كانت سائدة آنذاك ، كان أي انتعاش سيُستقبل ببرودة تامة . فالانتعاشات ، مع ما يرافقها من عفوية ونشاط ، تتجاوز القبود و التحفظات البشرية كلها ، الأمر الذي يسبب بعض الاضطراب . هذا في الوقت الذي كانت هذه التحفظات و القبود البشرية هي التي تمسك حجاجة النظام الظقي الكاثوليكي ببعضها البعض . ففي هذه الظروف لا يفرض الله مجده على أولاده ، و لا يركنه أيضاً .

لقد ثُمِّت الكنيسة الأفريقية ، و تَطَوَّرَت جدًا على مدى ستة سنة . و لكن الورق الكبير كان قد أخذ مكان الشمر ، حتى إنه بحلول القرن السابع ، أصبحت الأوراق تفطى و تمحجب كل شيء . لِيَسْت خيانة أو عدم مبالاة عندما يحمل البستاني في يده سكين التشذيب ، لكنه يُظهر ، على تقىض ذلك ، مقدار اهتمامه المحب ، كما أنه يؤكد كونه بعد للمستقبل . قال يسوع : «أنا الكرمة الحقيقة وأبي الكرام . كل غصن في لا يأتى بثمر ينزعه . و كل ما يأتي بشمر ينقيه ليأتى بشمر أكثر ».⁵ فإن كان خراب كنيسة شمال إفريقيا قد حصل نتيجة لـ«دينونة إلهية» ، فإنه لا بد في هذه الحال من أن يكون القصد منه هو إزاحة العوائق أمام نمو جديد ، لكي ينبع ملوكوت الله من جديد في هذه البقعة من الأرض .

و إذ نقلب صفحات الكتاب المقدس ، يلفتنا كيف أن الله سمع مراراً بأن يسقط شعبه و أن يكون أحياناً سقوطه عظيماً للغاية . لقد قدمت لهم التحذيرات والإذارات ، و أرسل إليهم الأنبياء ، و كشفت الخطايا و عرضت علينا ؛ ولكن إن بقي شعب الله لامبالي و غير مكترث ، سوف تقع الواقعه و تحمل الكارثة ، و لن يفعل الله بعد ذلك أي شيء ليجتنب شعبه هذا المصاب الأليم . إلا أنه غالباً ما يجد عند تقصيّنا الأمور ، بذرة أمل في وسط الخراب - و أحياناً أملاً كبيراً - قد حفظه الله لأولئك الذين يطلبونه من جديد . ثمة دائمًا وعد للمستقبل .⁶

وفي كثير من الأحيان ، مهد الفشل السبيل لأنطلاقة جديدة تكللت أخيراً بالنصر . فإذا سمع الله لبيت بأن يتداعى و يسقط ، فهو تعالى لن يترك هذا البيت خرباً إلى النهاية . فقد تظل الحجارة مبعثرة لعشرين السنين ، و ربعاً لقرون ، و لكنها غير منسية عند الله .⁷ وبعد سني السبي والفنى الطويلة ، يعود الله ، فيقود شعبه إلى وطنهم . و بعد الخطيبة مغفرة ؛ و بعد السقوط ، الوعد بالخلاص ؛ و بعد انكار بطرس ، إعادة تكليفه القيام بهمه ؛ و بعد فرار يوحنا ، فرصة الثانية . يتأخر الرب أربعة أيام ، فيموت لعازر . «هل تؤمنين؟» يسأل يسوع . ثم تتم عملية إقامة لعازر من الأموات .⁸ يربينا الله على صفحات الكتاب المقدس التمطم نفسه و هو يتكرر عدة مرات : فالقيامة تأتي بعد الموت ؛ والمجد بعدحزن ؛ والتاج بعد الصليب . و السقوط ، في نهاية المطاف ، ليس ، في الواقع ، إلا الباب الخلفي للنجاح .

من الأسهل علينا ان نقطع الشجرة ، من أن نستأصل ساقها . قد تحرق أغصانها جميعها وتأكلها النار ، و مع هذا يبقى ساقها حياً . و عند هطول المطر ، سينبت هذا الساق أغصاناً جديدة وبراعم . لقد تحدث إشعياء عن شعب الله الذين خذلوا إلههم . فتبأ بالخراب والدمار على هذا الشعب و على أرضهم . «و إن بقي فيها عشر بعد فيعود و يصير للخراب و لكن كالبطمة و البلوطة التي و إن قُطعت فلها ساق ». لكن لا تُسع إلى تجاهل ذلك الأصل المكسور ، انه لا يزال يحتفظ بالحياة . انه يحتوي على بذرة مقدسة . نعم ، فإن إشعياء يؤكد لنا بشكل قاطع أنه «يكون ساقه زرعاً مقدساً».⁹ ومن هذا الأصل ، سوف تبرعم الشجرة من جديد لكي تعود فتنشر أغصانها كما من قبل .

وَالآن ، مَاذَا بِشَانُنَا نَحْن ؟ إِن كُنَّا نَرْغِبُ فِي الاعْتِنَاءِ بِالْبَذْرَةِ الْمَقْدَسَةِ ، نَحْتَاجُ إِلَى أَن نَدْعُ حَكْمَةَ اللَّهِ تَصْيِيرَنَا حُكْمَاء ؛ عَلَيْنَا أَن نَتَعَظُ وَنَتَعَلَّمُ مِنَ الَّذِينَ سَبَقُونَا جَمِيعَهُمْ . وَإِذْ نَسِيرُ فِي طَرِيقِهِمْ ، سَتَمْكِنُ مِنْ مُلْاحَظَةِ الْعَقِبَاتِ الَّتِي وَاجْهَتُهُمْ وَالْمُجَارَةِ الَّتِي أَعْثَرَتُهُمْ ، لَكِي نَتَجَبَّنَهَا نَحْنُ بِدُورِنَا . لَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ بُولُسُ الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَشَبَّهُوا بِهِ ، وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ مَا يَمْثُلُ هُوَ بِسَيْدِهِ . قَالَ لَهُمْ : « كُونُوا مُمْتَنِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ »¹⁰ نَحْنُ نَنْتَظِرُ إِلَى الْمَاضِي ، فَيُلْهَمُنَا إِيمَانُ الشَّهِيدَاءِ ، وَيَسْتَحْثَنَا تَرْقُولِيَّانُوسُ بِمَا يَضْعُهُ نَصْبُ أَعْيَتَا مِنْ تَحْدِيَاتِ ، وَنَثَاثُ بِعَثَانِ كَبْرِيَّانُوسُ ، وَتَحرُّكُ مُشَاعِرَنَا وَإِرَادَاتِنَا بِفَعْلِ تَوجِيهَاتِ اغْسِطَنِيُّونَ . اتَّا نَشَكِرُ اللَّهَ مِنْ أَجْلِ هُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ . وَلَكِنْ لَنْبَقَ نَشَذَّكَرُ أَنْهُمْ بَشَرٌ نَظِيرُنَا وَخَاضُعُونَ لِلضَّعْفَاتِ نَفْسَهَا مُثْلَنَا ؛ وَالْوَاقِعُ الْمُشَرُّ هوَ أَنَّ الْكَنَائِسَ الَّتِي أَسْسَوْهَا وَخَدَمُوهَا ، لَمْ تَعْمَرْ . وَيَحْقِّنَ لَنَا نَحْنُ أَنَّ تَبَعُهُمُ الْأَحَدُ الَّذِي فِيهِ قَدْ تَبَعُوا الْمَسِيحَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ . لَنَا دَرْسٌ عَظِيمٌ مِنَ التَّارِيخِ الْمُسِيْحِيِّ ، وَهُوَ بِسِيطٌ لِلْغَایَةِ : أَنَّ الْكَنَائِسَ ازْدَهَرَتْ عِنْدَمَا أَتَبَعَتْ مِبَادِئِ الْكِتَابِ الْمَقْدَسِ ، لَكِنَّهَا ذَبَّلَتْ وَذُوَّتْ مَا إِنْ تَخَلَّتْ عَنْ هَذِهِ الْمِبَادِئِ .

وَكُلُّ هَذَا يَعُودُ بِنَا إِلَى مَا قَبْلَ رِجَالٍ إِفْرِيقِيَا الشَّمَالِيَّةِ ، إِلَى كَلْمَةِ اللَّهِ نَفْسَهَا . فَلَا نَعُودُ نَسَالَ : « مَا الَّذِي قَالَهُ تَرْقُولِيَّانُوسُ عَنْ هَذِهِ؟ » بَلْ بِالْحَرْبِيِّ ، « مَاذَا قَالَ اللَّهُ بِهِذَا الشَّأنَ؟ » كَمَا أَنَا لَا نَسَالَ : « مَاذَا فَعَلَ اغْسِطَنِيُّونَ؟ » وَلَكِنْ بِالْحَرْبِيِّ ، « مَاذَا فَعَلَ الْمَسِيحُ وَرَسْلُهُ؟ » وَكَذَلِكَ لَا نَطْرُحُ السُّؤَالَ التَّالِيَّ : « كَيْفَ قَامَ كَبْرِيَّانُوسُ بِتَنظِيمِ كَنِيسَتِهِ؟ » بَلْ بِالْحَرْبِيِّ ، كَيْفَ نَظَمَ مُسِيْحِيُّو الْعَهْدِ الْجَدِيدِ كَنَائِسَهُمُ الْمُحْلِيَّةِ وَادْارَوْهُمَا؟

إِنَّ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ هُوَ سُلْطَنُنَا وَمُرْشِدُنَا فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّائِلَاتِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالتَّشْيِيرِ وَبِنَمْوِ الْكَنِيسَةِ . اتَّا نَجِدُ عَلَى صَفْحَاهُنَا كَيْفَ كَانَ رُوحُ اللَّهِ يَقُودُ رِسْلَ الْمَسِيحِ . وَالْكُلُّ كُتُبٌ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لِأَجْلِ تَعْلِيمِنَا وَتَشْعِيْجِنَا . وَعَلَيْنَا أَنْ نَفَكِّرَ مُلِيًّا قَبْلَ وَضَعْنَا كَلْمَةَ اللَّهِ جَانِبًا مُسْتَعْيِضِينَ عَنْهَا بِمَا نَعْتَقِدُ عَنْ خَطْلِ أَنَّهُ « أَسْلُوبُ أَفْضَلٍ » ، خَصْوَصًا حِينَما نَتَذَكَّرُ أَنَّ الْاسْتَرَاطِيجِيَّةَ الْبَسيِطَةَ الَّتِي أَتَبَعَهَا الرَّسُولُ ، كَانَتْ نَعَالَةً بِشَكْلِ رَاعِيَّةِ الْغَایَةِ . لَنْ نَكُونَ بِأَيِّ شَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ قَدْ تَصَرَّفَنَا بِحَكْمَةِ ، فِي حَالٍ فَضَلَّنَا عَلَيْهَا بِرَامِجٍ وَمُخْطَطَاتٍ مُسْتَعْدِدَةٍ وَضَعْمَهَا أَنَّاسٌ قَدْ زَالَتْ كَنَائِسُهُمْ مِنَ الْوُجُودِ مِنْذَ أَمْدٍ بَعِيدٍ . كَمَا أَنَا سَنَكُونُ قَدْ أَسَانَنَا إِسْتَخْدَامُ درَاسَتَنَا لِتَارِيخِ الْكَنِيسَةِ بِشَكْلٍ فَظِيعٍ ، فِي حَالٍ اكْتَفَيْنَا بِالسَّعْيِ لِاِسْتَنْتَاجِ مِنْهُ مَاذَا كَانَتْ عَلَيْهِ التَّقَالِيدُ الْبَشَرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ ، وَذَلِكَ بُغْيَةُ فَرَضْهَا عَلَى كَنَائِسِ الْيَوْمِ . اتَّا نَحْتَاجُ ، عِنْدَمَا نَدْرُسُ الْمَاضِيَّ ، إِلَى أَنْ نَهْتَمَ بِمَزْلِ الْخَطَّةِ عَنْ قَشْرِهَا وَتَبَيْنَهَا . أَمَّا الرِّيحُ الَّتِي تَقْوِمُ بِعَلْيَةِ الْفَرْزِ هَذِهِ ، فَيُجِبُ أَنْ تَكُونَ كَلْمَةَ اللَّهِ وَسَدِّهَا . وَعِنْدَهَا فَقْطُ يَطِيرُ التَّبَنُّ بِعِدَادًا ، لَكِي تَبْقَيَ الْحَنْطَةُ الْقَبِيَّةُ الصَّافِيَّةُ .

وَلَرِبَّمَا تَمَكَّنَا ، فِي مَعْرِضِ التَّفَاقِتِنَا إِلَى الْوَرَاءِ ، مِنْ إِيْجَادِ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ وَالْبَلَّاتِ فِي آبَائِنَا وَأَجَدَادِنَا الْقَدَامِيِّ . وَلَكِنْ ، مَاذَا كَنَّا قَدْ فَعَلَنَا نَحْنُ ، لَوْ أَنَا كَانَ مَحْلَهُمْ؟ وَكَيْفَ كَنَّا سَنَقُودُ الْكَنَائِسَ النَّامِيَّةَ عَبْرَ اِنْتَقَالِهَا مِنْ مَرْحَلَةِ كَوْنِهَا مَجَمُوعَاتٍ صَفِيرَةً مُضْطَهَدَةً ، إِلَى الْمَرْحَلَةِ الَّتِي اصْبَحَوْا فِيهَا جَمَاعَاتٍ ضَخْمَةً تَضُمُّ حَشُودًا شَعْبِيَّةً؟ هَلْ كَانَ بِمَقدُورَنَا أَنْ نَوْجِهَ مَسَارَ الْأَمْرِ تَوجِيْهَيْها مُخْلِقاً؟

كانت المجتمعات الشكلية التي تحضرها حشود ضخمة من بين نتائج النجاح الباهر المنقطع النظير الذي أحرزه الإنجيل في المدن . فقد آمن الناس بأعداد وافرة . و هكذا توافقوا بكثرة إلى الكنيسة المحلية ، حتى إنه بات من الصعب على الناظر أن يهتم بمفرده بمصادقة كل واحد منهم شخصياً ، وبتقديم النصيحة له بحسب حاجته الخاصة وإمكاناته . إن هذه الجماهير كانت تحتاج بالطبع إلى تعلم عقائد الإيمان ، ولكن قد تتساءل : آية طريقة كانت الفضلى لتعليمهم؟ هل كان تقديم المواعظ بطريقة شكلية و بلغة راقية من على منبر الكنيسة هو حقاً الأسلوب المثالى؟ لقد علم يسوع ، ويكلّ تأكيد ، مبادئ الآداب الإلهية للمحشود ، و هكذا فعل الرسول أيضاً . ولكن رب كن حريصاً على أن يفسح في المجال أمام الذين تجاوיבו بكل إخلاص ، بأن يطرحوا أسئلتهم وأن يتحدثوا عن نظمهم الجديد في الحياة على صعيد فردي ، أو ضمن مجموعات صغيرة .

كانت كنائس شمال إفريقيا فقيرة ، بشكل واضح ، إلى هذا النوع من الشرطة الشخصية الحميمة - خصوصاً بين الكاثوليك - و لعل هنا كان يمكن أخطر ضعف . و نعرف بالأخبار أنه لا بد لكل مجموعة مسيحية من أن يطلع منها قادة روحيون ، اذا ما اتيحت لهم الفرصة لذلك . قد لا يفوقون سوادهم من ناحية ثقافتهم أو غناهم ، لكن قلوبهم ستكون متوجبة إلى طرق الله ، و عندهم شوق إلى مساعدة الآخرين . ولربما كان باستطاعة أمثال هؤلاء الرجال و النساء أن يضمنوا مستقبل كنائس شمال إفريقيا ، لو أن النظام الكسي لم يطفئ مواهبهم ، و لم يشنّ قدراتهم علىأخذ المبادرات .

تساءل : ماذا كان سيحصل لو أن كل كنيسة محلية نعمت بالمساهمات المتنوعة التي قد يقتضيها لأجل بنائها مجموعة من عشرة قادة مقتدرین او أكثر - من الشيوخ و المدبرين - الذين جعلوا شغلهم الشاغل الاهتمام بمعرفة اوضاع كل فرد من اعضاء كنيستهم ؛ و هكذا يقتربون على كل واحد منهم أساليب عملية لخدمة الرب ، كما يحتذونهم على طرح الأسئلة بشأن الإيمان المسيحي بغية بحثها معاً و لو أنه كان باستطاعة المتعلمين بينهم ان يلقنوا كل مؤمن جديد القراءة ، ويساعدوه على استنساخ مقاطع من الكتاب المقدس تكون خاصة . فلو أن كل واحد اهتم بنقل ما قد تعلمه إلى الآخرين ، بينما يُعنى في الوقت عينه بتحصيل المزيد من العلوم ، لتعلم الجميع بسرعة أكبر ، و لكن بقدورهم ان يفكروا في أمر إيمانهم بأكثر انتباه . قال المسيح : « أعطوا نعموا . كيلاً جيداً ملبدًا مهزوزًا فائضاً يُعطون في أحضانكم ». 11 انه لأمر واقع ان المسيحي خصوصاً في وقت الضيق ، غالباً ما يساعد أخوه المتعاطف معه أكثر من أي معلم او لاهوتى . قال سي . أنس . لويس (C. S. Lewis) : « ان قليلاً من الشجاعة يساعد على احتلال الاماكن أكثر من معرفة عميقه ، كما ان بعض التعاطف البشري هو أفضل من شجاعة كبيرة ، إلا أن أقل ومضة من سجدة الله تبقى هي الأفعى من الكل ». إن الذي يساعد أخاه غالباً ما يتبارك هو أيضاً نتيجة لتعبه ، كما الذي ينال المساعدة .

ففي مثل هذه الكنيسة ، قد يوجد بعض صغار التفوس أنهم أمسوا على قارعة الطريق ، وذلك المستوى الأخلاقي العالي الذي ينبغي لهم بلوغه ، والجهود الذي يجب بذله لأجل البقاء والاستمرار في الكنيسة . وهكذا تكون الكنائس ، لبعض الوقت ، أصفر وأفقر . إن مثل هذا الجو المقدس ، سوف لن يلام الناس الفاسق والمتورى في طرقه . ولكن آية كنيسة التي يكون فيها كل عضو «صياداً للناس»¹² لا تفشل في ثورها ونكائرها ، لكي تصبح أكثر صحة وابتهاجاً ، وربما أيضاً أكثر عدداً في نهاية المطاف .

يجب على الكنيسة التي تبغي النمو أن تبشر بالإنجيل . فإذا ما فشلت في رفع من هم من خارجها إلى ملوكوت الله ، فإنها ستموت حتماً . لقد أعيق الكنائس الكاثوليكية الرسمية في أيام أسطيفينوس بفعل استخدامهم اللغة اللاتينية واعتمادهم على النظار المثقفين وال المتعلمين . وجدهؤلاء أنه يعسر عليهم التحرك إلى داخل البلاد لأجل التحدث إلى القبائل التي تعيش هناك عيشة بسيطة ، ولا تجيد التكلم إلا باللغة الأمازيغية . وقبل أربع منة سنة ، أرسل المسيح تلاميذه اثنين اثنين كغم من الذئاب ، إلى قرى فلسطين ومدنها . قال لهم : «أن الحصاد كثير ، ولكن الفعلة قليلون»¹³ . كان هؤلاء الرجال قد مكثوا معه لمدة ستين فقط . لقد علمهم ما يجب عليهم فعله و قوله ؛ ثم عند رجوعهم إليه تحدث معهم إليه عن اختباراتهم . كانوا تلاميضاً و معلمين في آن . فعند تعلمهم كانوا يعلمون ، وفيما هم يعلمون كانوا يتعلمون أيضاً¹⁴ .

وقد يتساءل أحدهنا : ما الذي كان سيحصل ، لو أن الأفارقة الشماليين تبعوا أسلوب المسيح ؟ لم يكن باستطاعتهم أن يطلبوا من وسطهم الأقباء الورعين الجادين في الإيمان ، ويرسلوهم إلى التلال والوهاد والسهول ، ليخدموا ويكرزوا برسالة الإنجيل بين شعبيهم الخاص ، وبلغتهم الخاصة ؟ لم يكن باستطاعتهم أن يشجعوا أخوتهم و أولادهم على الانطلاق بقوة الروح القدس لإذاعة الأخبار السارة ، ونشرها في المناطق النائية ؟ لو أن هؤلاء الرجال ، الذين على الرغم من جهلهم للاتينية كانوا يعرفون الله ، توجهوا إلى المناطق الداخلية في البلاد حاملين معهم البركة (إذا لزم الأمر ، الدعم المادي) من كنائس المدينة ، لعله كان باستطاعتهم أن يبرهنوا أنهم مرسكون فعالون وعلى درجة عالية جداً من الكفاءة ، وذلك بتأسيسهم جماعات مسيحية في القرى الكبيرة والصغيرة في إفريقيا الشمالية ، كما في الجبال و عبر السهول ، نزولاً في اتجاه الصحراء . وعن آية تتبع ضخمة و رائعة ، كان كل هذا سُبُّر ، لو أن الغيرة لأجل الاستشهاد والرهبة ، تحوكت عوضاً عن ذلك في اتجاه تعميم المأمورية العظمى !¹⁵

نعرف عن بعض القبائل «المسيحية» التي كانت تعيش خارج حدود الامبراطورية الرومانية . ولم يكن هؤلاء يتصرفون دائمًا كما ينبغي على المسيحيين أن يتصرفوا . إنه لأمر مؤسف أنه لم يكن عددهم أكبر ولم يتعمدوا أكثر عن المبادئ المسيحية . لقد أعيق عمل الخدمة بين هذه القبائل ، وذلك بسبب الافتقار إلى الكتب المقدسة . فلو كان بمقدور البشر أن يقرأ لهم بلغتهم الخاصة ، لما وجد أنه من الصعب عليه أن يبين لهم طريق المسيح بأكثر وضوح . ولو أن كل قبيلة بمفردها قامت بتوصيل الأخبار السارة عن محبة الله إلى جيرانها بالقول

وبالفعل ، ل كانت النزاعات التي تفصل بينهم قد زالت سريعاً من الوجود ، و لأن أصبحت العطة على الجبل دستور الحياة ، و لأدرجت مبادئ الرب السامية في أشهر أعراف الامازيغين و عاداتهم المكتوبة و غير المكتوبة في سائر أنحاء إفريقيا الشمالية .¹⁶

بقى على تلك المجموعات التي خرجت عن الكنيسة الكاثوليكية ، ان تحاول تفتيذ هذه الهمة العظيمة . فلو أن الكاثوليك أدركوا هذه الرؤيا ، أو لو أن الدوناتيين لم يحرقوها ، ل كانت قصة المسيحية في شمال إفريقيا مختلفة تماماً ؛ ربما كانت أقل ترتيباً ، ولكن أكثر نشاطاً و حيوية ؛ وقد تكون أقل ممانة ، ولكن تدوم و ثبت أكثر .

لا جدوى من دراسة تاريخ الكنيسة إن كنا نبني من وراء ذلك الاسترسال وراء الخنين إلى الأمور الماضية ، و التمادي بشكل مرضي و غير سليم في التأسف على ما حصل . ولكن هذه الدراسة تصبح مفيدة و عملية إن كانت التفاتتنا إلى الوراء تساعدننا على النظر قدمًا بشكل أوضح . أنها توجّتنا إلى السبيل القديمة - إلى ما وراء اخسطينوس و كبريانوس و ترطليانوس - حتى نصل إلى كلمة الله الحية نفسها . بعد هذا تقدمنا قدمًا نحو المستقبل .

ملاحظات

- 1 بـالإشارة إلى المزبور 13:3؛ إرميا 11:29 (ترجمة كتاب الحياة)؛ رومية 28:8
- 2 بـالإشارة إلى لوقا 10:19؛ 31:5
- 3 صموئيل 21:4
- 4 رؤيا 5:2
- 5 يوحنا 1:15 و 2
- 6 راجع بشكل خاص نبوة اشعيا و الفصول 27 إلى 32
- 7 اشعيا 21 - 15:49
- 8 يوحنا 26:11 ، 43 و 44
- 9 اشعيا 13:6
- 10 كورنثوس 1:11
- 11 لوقا 6:38؛ متى 2:7
- 12 بـالإشارة إلى متى 4:19
- 13 لوقا 2:10
- 14 تيموثاوس 2:2
- 15 متى 18:28 - 20؛ أعمال 8:1 . يت夙ق في هذا الموضوع بشكل مقنع Allen TSPC .
- 16 Guernier pp. 359 - 366؛ Camps pp. 334 - 341 . للحصول على مثال عن هذه الأعراف التقليدي باللغة المحكمة في جنوب المغرب (راجع :

E. Laoust *Cours de Berbère Marocain: Dialectes du Sous, du Haut, et de l'Anti-Atlas*, Paris, 1936 (pp. 277 - 282).

للسجدة رجاء :

إِنْ قَطَعْتُ تُخْلِفُ أَيْضًا
وَلَا تُعْدَمُ خَرَاعِيهَا .

وَلَوْ قَدِمَ فِي الْأَرْضِ أَصْلُهَا
وَمَاتَ فِي التُّرَابِ جِذْعُهَا
فَمَنْ رَائَهُ مَاءٌ تُفْرِخُ
وَتُنْبِتُ فَرْوَعًا كَالْغَرْسِ .

أيوب 8-7:14

الفصل الثاني والثلاثون

قوة الحياة الجديدة

إن المستقبل متى أاماًنا . وقد تصير أعمالنا وأقوالنا في يوم من الأيام موضوعاً للدراسة التاريخية . و ما كان باستطاعة المؤمنين الأوائل أن يتخيلوا ان افريقياً وحدها ستحتوي ، مع حلول العام 2000 ، على 250 مليون مسيحي ، او ان 15 مليون عربي في العالم يفتخرن بأنهم من أتباع المسيح . وعلى الرغم من ذلك فإن ثقفهم الكاملة بالانتصار النهائي ، جعلتهم يتحمّلون الآلام بصبر ، مُظهرين حلمهم لمن يعيشون حولهم ، و مؤكدين بذلك أنه لا يمكن مقاومة الله ان تفشل وأنه تعالى اختار ان يكمل مشيّته بواسطة شهادتهم المسالة للحق .

لقد أحس المسيحيون بعدم حاجتهم الى فرض دينهم او الدفاع عنه بأسلحة بشرية - بالقوة او بالقانون او بالتهديد . ولهذا السبب فإن الأوطان ذات الإرث المسيحي تسمح بالحرية الدينية الكاملة لأتباع الديانات الأخرى . كما ان المسيحيين لا يقتنون البتة عندما يكونون أقلية في مكان معين . فهم سيكونون مواطنين مخلصين و جيراناً متعاونين و محترمين و نزهاء و لطفاء . وسيفسرون إيمانهم بكل سرور لمن يهتمون بهم ، لكن سيتركون لكل فرد الحرية لأن يطلب الى الله ان يظهر له الحق كما هو .

لقد فشلت فشلاً ذريعاً محاولات الناس الدنويين في المصوّر الوسطي لتحويل الكنيسة الى جيش صليبي . و سرعان ما يترك هذا التحريف الواضح لمبادئ المسيح الداعية على المحنة لجميع الناس بمجرد ان أصبح بإمكانه ان يقرأوا الكتاب المقدس بحرية و بلغتهم الخاصة . و منذ ذلك الوقت فصاعداً ، عادت الكنائس في جميع أنحاء العالم الى أصولها التقية و المقدسة « ثم البر يُزرع في السلام من الذين يفعلون السلام » ١

والغاية التي تلهم المسيحيين الحقيقيين في الحياة هي : أن يملأوا هذا العالم بمحبة الله . لقد انطلقا عارضين الشفاء على ذوي الأرواح المريضة ، والرجاء للبائسين ، و السلام و الفرقان للرجال و النساء البعيدين عن الله . لقد كان المسيحيون أطباء و مرضيات ، لا على صعيد الجسد ، بل النفس ، و كان دواؤهم الشافي هو محبة الله ، كما ظهرت في المسيح . كتب بولس الرسول : « ولكن كنت محترضاً أن أبشر هكذا ليس حيث سُمي المسيح » ، « الذي ننادي به منذرين كل انسان و معلمين كل انسان بكل حكمة لكي تحضر كل انسان كاملاً في المسيح

يسوع .² لقد عزم التلميذ على أن ينقدوا مأمورية المسيح الأخيرة لهم : « فاذهبو وتعلموا جميع الأمم ... وعلّموه أن يحفظوا جميع ما أوصيتم به .³ كان المسيحيون نور العالم ، و كانوا حريصين على أن يُشرق هذا النور في كل مكان .⁴

شجع أحدهم الآخر في هذا العمل العظيم ، حيث كانوا يجتمعون لقراءة الكلمة الله وللصلة طليباً لبركته تعالى على مسامعهم . كانت الشركة المسيحية تحملهم قوة هائلة . وفي أثناء سفر المبشر ، كان يتسبّح بما يقدمه له أخوه و أخواته في الكنيسة التي أرسلته ، من دعم محب و صلة من أجله ، كما أنه كان متاكداً من أن ترحيماً حاراً يتظره لدى عودته . كان وإنقاً من الرسالة التي دُعي إلى المقادمة بها : « لأنّي لست أستحي باخيل المسيح لأنّه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن ».⁵

لقد أعطت الكلمة المسيح معنىًّا للحياة ، كما أظهرت طبيعة الإنسان الحقيقة . كذلك أعطت الإنسان العاقل فهماً لسلوك الناس ، و ما هي الاهتمامات التي تشغلهما . وهي ، فرق هذه كلها ، تعرض عليهم رجاءً أكيداً لمستقبل أفضل . لخص الرسول بولس القصد من التعليم المسيحي الذي يُشعّن القلب و العقل : « لكي تتعزّز قلوبهم مقتربة في المحبة لكلّ غنى يقين الفهم لمعرفة سرّ الله الآب و المسيح المدخر في جميع كنوز الحكم و العلم .⁶ لقد وجد المسيحيون طريقاً جديداً للحياة ، وهو أن يحبوا أقرباءهم ، و يغفروا للذين يسيئون إليهم ، و يحسنوا لكل الناس . كانوا في اجتماعاتهم يقتربون إلى ربّهم و بعضهم إلى بعض ، فهناك كانوا يسجدون للرب في زينة مقدسة .⁷ وكانوا يحصلون بذلك على القوة الروحية اللازمة لتنمية المهمة التي أوكلناها إليهم . كانوا يجدون في هذا فرحة و بهجة . كان هذا قصد الله فيهم . كما كان هذا سرّ مجاهم .

جمع الرومان الناس لأهداف و مقاصد أخرى . كانوا سادة المشاريع الهندسية على نطاق واسع : أعمال الري ، شق مجاري المياه و الطرق . و في مجال المزارع و الأراضي ، أظهروا براعة في التخطيط لها ، و ادارتها ، و كيفية أخذ القرارات الجماعية بشأنها . أدخل الرومان إلى شمالي إفريقيا أسلوبًا جديداً للعمل : تعاون مسالم لصالح الجماعة : توحيد الأفراد من عائلات و عشير و أجناس مختلفة ، و وضعن جاباً مصالحهم الخاصة و رغباتهم ، و ذلك لاتباع مخطط منظم يكون لصالح المجتمع ككل و فائدته و ازدهاره . إلا أن العمال الذين كانوا يحملون الحجارة و يحفرون الخنادق و القنوات ، لم يكونوا ، على الأرجح يشعرون إلا الشيء القليل بأنّهم جزء من هذه المثالية الرفيعة . كان هؤلاء يعملون في مشاريع يخطّطها الآخرون ، و لم يكونوا وبالتالي يتحملون أيّة مسؤولية بشأنها . بعض هؤلاء العمال كانوا عبيداً رغم أن غالبيتهم ، كانوا يتلقّبون أجرًا عن أعمالهم . كان اهتمامهم في كلّتا الحالتين يتوقف عند هذا الحدّ . و مع

هذا ، فقد استوعبوا فكرة التعاون في العمل . أما بالنسبة إلى الوثنيين من الأمازيغين ، فلم يكونوا يتخدون إلا لأجل هدف واحد : الحرب - عشائر و عائلات يلتتص بعضها ببعض التصافى هنـا سريع الزوال ، و ذلك خلال ساعات الكوارث والمحن ؟ ردة فعل اعتباطية و عاطفية تجاه أمر طارىء ؟ دعوة مقاجنة الى حمل السلاح لأجل الدفاع أو الهجوم .

أما المسيحية ، فجاءت بنوعية مختلفة تماماً من الوحدة : وحدة تستند ، لا على الطموحات ، أو الخوف ، بل على المحبة الأخوية والحنان ، لم يكن الغرض منها إنشاء العمارات او ادارة المشاريع التجارية ، و بالتأكيد لم يكن قصدها حتى خوض الحروب والمعارك . فالمسيحيون الحقيقيون لا يتورّدون لمهاجمة أحد ، و لا للدفاع عن أنفسهم ضد أعداء خياليين أو حقيقين . نحن لا نجتمع لأجل تحصيل المال ، أو لكسب فنود الأصدقاء ، أو جني أرباح مادية . لكننا نجتمع على تقدير ذلك ، لخدم وساعد بعضنا بعضاً ، و لكي نحسن الى من هم خارج نطاق مجتمعنا المسيحي . اتنا نجتمع لكي نشجع اخوتنا و اخواتنا و ندعهم ، و لكي نعد أنفسنا لخدمة العالم من حولنا . هذه هي الشركة المسيحية . انها تعارض التاريخ الوثني الأمازيغي . و هي تنكر للادعاءات الشعورية العميقـة التي تفترض أن الناس محركون دائمـاً و مدفوعون بطموحات ائدية صرف .

و حيث يعمل المسيحيون معاً ، فإنـهم لا يفعلون ذلك لأنـهم عبيد ، أو عمال اجراء يعملون على تنفيذ مشروع وضعـه آخرون . ان كنيسة المسيح تتـألف من رجال و نساء احرار . و هي ملك لكل واحد من افرادها ، و الجميع هم مسؤولون عن صحتها و عن غـورها . و كل واحد يشارك على قدر طاقته ، لصالح الجميع . فأغسطسيوس ، لم يتمتنق المسيحية لأنـه رأى فيها منافع شخصية لنفسـه ، او شغله ، او زواجه . و في الحقيقة ، لقد هدم هذا الایمان عملـه و منع زواجه . كما لم تتـبع كل من بريستـوا و فلافيانوس و سالسا المسيح لأجل الحصول على مكافـب في هذه الدنيا . لقد خسروا في الواقع كل ما كانوا يمتلكونـه ، بما في ذلك حياتهم ايضاً . ولم يضمن إيمـان مكسيميـليـاتـوس و مارـسلـوس ترقـيتـهم او تقدـمـهم ، بل ضـمن بالـحـرـي موتهـم الأكـيد . لقد تـبع هؤـلاء الناس طريقـ المسيح لـسبـب وحـيد بـسيـط ، و هو انـهم آمنـوا أنـ هذا الطريقـ هو طريقـ الحقـ . لقد تـافقـوا ، لا للأـخذـ من الله او من الانـسان ، بل للـعطـاءـ و البـذـلـ الى أقصـى حدـودـ قدرـاتـهمـ ، و إلى آخرـ ذـرـةـ من قـواـهمـ ؟ حتىـ عـنـدـماـ يـرىـ الآخـرـونـ فـرـحـتـهمـ العـارـمةـ هـذـهـ ، يـصـبـعـ لـديـهـمـ الرـغـبةـ فـيـ المـشارـكـةـ فـيـ اـيـانـهـمـ . لقدـ كانـ اـجـرـهـمـ فـيـ السـمـاءـ ؟ وـ لمـ يـكـونـواـ يـتوـقـونـ الىـ أـيـ شيءـ هـنـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ .

قالـ الـربـ يـسـوعـ : « مـغـبـوطـ هوـ الـعـطـاءـ أـكـثـرـ مـنـ الـأـخـذـ . »⁸ وـ هـذـاـ الـمـبـداـ عـلـمـهـ المـسـيحـ ، كماـ اـتـبـعـهـ اـيـضـاـ فـيـ حـيـاتـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ . لمـ يـأـخـذـ إـلـاـ القـلـيلـ ، وـ لـكـنـهـ أـعـطـىـ كـلـ مـاـ كـانـ لـدـيهـ . « اـذـ

كان قد أحب خاصته الذين في العالم ، أحبهم إلى المتهي .⁹ إن حبًا كهذا يحرّك قلوبنا ، هنا إن لم تكن قلوبنا قاسية كالصخر ، كما أن هذا الحب هو الذي يدفعنا لعمل ما عمله يسوع . « بهذا قد عرّفنا الحبّة إن ذات وضع نفسه لأجلنا فتحنّ ينبيّ لنا أن نضع ثفوسنا لأجل الإخوة .»¹⁰ إن كل مسيحي هو بذرة من البذار . وإن لم تزرع هذه البذرة ، فستبقى وحيدة ، ولكن عندما تسقط في الأرض ، فإنها تعطي غلالاً عظيمة .¹¹ وعندما تخصّص نفسها لخدمة الآخرين ، ستحصل على أضعاف ما أعطته . « أمّا أنا فبكل سرور أتفق وأتفق لأجل أنفسكم ،»¹² هذا ما صرّح به الرسول . ولم يكن هذا بالأمر الصعب عليه ، لأنّه يخاطب أصدقاء الدين يكتب إليهم بالقول : « أيها الأحباء .»¹³

هذا إذًا هو البيان المسيحي الرسمي - انه الهدف من وجود الكنيسة - لا الأخذ بل العطاء ، لا الاحتفاظ ببركات الله للأفسنة ، بل توصيلها ونقلها إلى إخوتنا المسيحيين ، وإلى أقربائنا الوثنيين . لقد دعا الرسول كل واحد إلى أن يكون : « مهتماً لا بصلاحه الخاصة بل بمصالح الآخرين .»¹⁴

و هذا ما سنفعله بعون الله تعالى . سنعتني بالأرحام والأيتام . وسنعلم أولادنا الفرق بين الحق والباطل ، وبين الصدق والكذب . سنجتمع لقراءة كلمة الله ، وللصلة بعضنا لأجل بعض . سوف نجتمع للاحتفال بالعشاء الرباني . سوف نزور المؤمنين الجدد ليشعروا بأنّا نرحب بهم إلى الإيمان . وسوف نتعاون سوية في كتابة الترانيم وفي إنشادها . سوف نساعد شبابنا على إيجاد أزواج وزوجات مسيحيين . وسوف ندعم ونساند بعضنا بعضاً في أوقات المحن . وفوق كل شيء ، فإنّا مستوحّد في مجّة الله ، ونطرح جانباً كل شيء تاقه يؤدي إلى انقسامنا . وعندما نجتمع ، يفكّر كلّ منّا أول ما يفكّر في أخيه ، ويطلب من الله الارشاد إلى السبيل المساعدة أخيه وقويته في المسح .

إنّا نعيش اليوم في مجتمع مقولب على أساس عادات الماضي . لقد ظلّ الأفارقة الشماليون ، وعلى مدىآلاف السنين ، يجتمعون كلّما كانوا يتّخذون من صراع معين ، أو يرغبون في البدء به . وفي أيامنا الحاضرة ، لا يزال بعضهم يرتّاب من آية مجموعة من الناس تلتقي معاً بانتظام . لكن ، لماذا هذا الارتّاب ؟ ربما يراودهم شعور مزعج بأن الرجال والنساء لا يمكنهم أن يتحدوا في جماعة إلا لتنفيذ أغراض أثانية وعدوانية ، وللتسبّب بالمشاكل ، أو للتشكي من أمر ما ، أو للنضال من أجل ما يدعون أنه من حقوقهم . إن الرغبة في عقد مثل هذه الاجتماعات السلمية ، والتي لا يُتعنّى منها سوى فائدة الآخرين ، هي شيء خارج عن نطاق اختبار الكثيرون من الناس ، حتى في أوساط أولئك الذين يتّبّعون مراكز عليا .

و لكن ، اذا سألونا ، فيامكانتنا ان نريهم معنى المحبة المسيحية . فنحن نجتمع ، لا لانتقاد الآخرين او لمقاومتهم ، و لا لإحداث شغب او لأغراض سياسية . بل نجتمع فقط لتعلم مبادئ الاستقامة و الأمانة ، و لتعلم أيضاً عن حنان المسيح ، و لكي نصللي بعضنا البعض و جميع الناس ، و بخاصة أولئك الذين هم في منصب . و نحن نجتمع لنضرم في قلوبنا مجدداً محبة الله ، حتى تبعث الدفء في العالم أجمع . هذا هو هدفنا ، و هذا هو التحدي الموضوع أمام كائننا في هذا العصر .

* * * * *

ان تحدي المحبة المسيحية يواجه كل جيل جديد . لقد تجاوب آباءنا مع هذا التحدي بسمو وروعة . كان درب المسيح معروضاً في شمال إفريقيا قبل أن يصل الى أوروبا الغربية ، و قبل عدة قرون من وصوله الى مناطق العالم الجديد (Le Nouveau Monde) ، أو الى البلاد الآسيوية في الشرق الأقصى . لقد ولدت المسيحية هنا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، و كُرِّز بها اولاً بين المجموعات الريفية في فلسطين ، ثم في المدن الساحلية الواقعة على امتداد طول هذا الطريق البحري . إذا ، من هنا انطلق الإنجيل .

القول إن الإمبراطورية الرومانية هي التي أستَّت المسيحية في إفريقيا الشمالية ، هو قول مرفوض تماماً ، و يجب طرحه جانبياً مرة و إلى الأبد . ان مثل هذه الفكرة هي مغلوطة . هذا لأن الولاة والقضاة الرومان كانوا ، كما وضحنا من قبل ، يبذلون قصارى جهدهم لقمع الإيمان ، والقضاء على قادة الكنائس ، و دفع أتباع المسيح للرجوع الى المعابد الوثنية . فسنَّ الأباطرة المستبدون الذين تعاقبوا ، عدداً كبيراً من القوانين و المراسيم التعسفية الصارمة ، كانقصد منها محقُّ المسيحية من على وجه الأرض . ظلَّ الامازيغيون ، على مدى قرنين و نصف ، يستمرون الى الإنجيل و يتجاوزون مع البشرة ، لا بسبب السلطة الرومانية ، وإنما على الرغم منها . لم يتم لهم الإنجيل أية فوائد مالية أو منافع أرضية ، لكنَّ كثيراً ما فقدوا كل شيء ، بما في ذلك ممتلكاتهم و حرثياتهم و حتى حياتهم .

على الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، كانت المسيحية ديانة إفريقيَّة أكثر منها رومانية . فقد كانت من بين المكونات الأساسية للتراث الثقافي في هذه القارة الواسعة . وهكذا تقلغل تأثيرها الى أقصى الداخل حيث لم تكن هناك سيطرة امبراطورية . كما كان اوسع وأقوى انتشار لها تحت اسم الدوناتية ، تلك الحركة غير المنضبطة التي كثيرةً ما كانت سبب ارباك للسلطات الرومانية لا أداة في يدها . كانوا يحتفلون بذلك شهدائهم الافارقة ، و يعيّنون

نظارهم الأفارقة ، ويعقدون مؤتمراتهم الأفريقية ، عاملين كل هذا في وقت كانت لا تزال فيه المسيحية ديانة غير شرعية . كما كان الامازيغيون المهووبون يعلون سبيل المسيح بكل شجاعة قبل أن تبوا أحد المؤمنين مدة الحكم بعشرة سنوات . لقد طالع الحكام الوثنيون في روما ما دونه ترتوبيانوس الأفريقي الشمالي من كتابات جريئة ، و ذلك قبل مائة عام من ترحيب قسطنطين بشيخ الكنيسة في قصره . و هكذا مدّ الأنجليل جذوره في إفريقيا و انتشر كإيمان أعزل تعنته الأقلية المصطفاهة . وعندما أصبحت المسيحية أخيراً الدين الرسمي للإمبراطورية ، كان ذلك النظام السياسي العظيم قد بدأ في المستوطن والأنهيار .

إن مسيحيي شمال إفريقيا لم يأتوا في أيامنا هذه بالشيء الجديد أو الغريب من نوعه إلى هذه الأرض : إننا نعود إلى جذورنا وأصالتنا الثقافية . فلدينا ميراث مسيحي مجيد ، وقد ذاع صيته في العالم بأسره . ترتوبيانوس ، كبريانوس ، وأغسطسنيوس : أسماء رجال عظام ، ووصلت كتاباتهم إلى كل القارات ، وترجمت كتبهم إلى لغات لا تُعدّ ولا تُحصى ، و يوجد في كل جيل جديد من يقتبس كلماتهم . يشعر المسيحيون بالارتياح في إفريقيا الشمالية . ففي هذه الأرض الحبية ، سار آباءنا قدّيماً مع المسيح . ونحن نتبع خطاهم ، فلا نبني للمرة الأولى ، لكننا في الواقع نعيد بناء الجدران الروحية لمدينة الله ، تلك الجدران التي صمدت في الماضي على مدى إحدى عشر قرناً ، كما نؤمن بأنها ستبقى صامدة إلى مجيء المسيح .

نحن نطلع إلى أبطال الماضي ، ونعجب من إيمانهم ، وعقربتهم ، وحناهم . من السهل علينا ان نراهم كأبطال استثنائيين ، فربدين في نوعهم ، يسمون فوق المستوى الدنيوي الأرضي الذي نعيش نحن فيه . ولكن هؤلاء الرجال والنساء لم يكونوا بأية حال من الأحوال غير عاديين . فترتوبيانوس عاش على مدى خمس وثلاثين سنة كشاب وشقي لا يعرف الانضباط . كما ان كبريانوس يقى حتى سن الخامسة والأربعين ، مجرد محام تقليدي . وأغسطسنيوس ايضاً ، الى أن بلغ الثانية والثلاثين من عمره ، كان يعمل كمعلم للبلاغة والبيان ، و كان مغموراً بالنسبة الى سائر المعلمين الآخرين الذين كانوا أكثر شهرة منه . بالجهاد ، كان يستطيع أي واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة ان ييرز على زملائه : كان أمراً عادياً ان يفرقوا في بحر الشبان ، و يبقوا غير مشهورين وغير معروفين ، لو لم يكن عندهم إحدى الخصائص المشتركة بينهم و هي أنه توصل كل واحد منهم الى معرفة الله الحي . فتغير الإنسان بفعل الإيمان بال المسيح ، و ولد ثانية حياة جديدة ، وأصبح ذات قدرات و إمكانيات لم يكن يحلم بها من قبل .

إن أمر ما في الرسالة المسيحية ، بالإضافة الى قوة الروح القدس الساكن في الداخل ، يحظى في كل واحد منهم القدرات التي كانت كامنة في سبات من قبل . الأمر الذي مكنهم

من السماء والارتفاع إلى مستويات رفيعة و عالية ، كان يصعب عليهم أن يصلوا إليها وحدهم . لقد تساءل الرسول بولس : « فمن جعلك متميزاً عن غيرك ؟ و أي شيء مما لك لم تكن قد أخذته هبة ؟ »¹⁴ الله هو مصدر هذه الموهب الكامنة بالإضافة إلى القوة التي حركتها و جعلتها تحيا و تبرز . لقد تمكّن عدد كبير من الرجال و النساء العاديين من تحقيق أمور عظيمة عندما ألهيت رسالة الإنجيل قلوبهم ، وبعد ان امتلاو بقوة من الأعلى . نحن أيضًا ناس عاديون مثلهم . إلا أن هذه الأواني الخزفية البسيطة تحتوي على كنز عظيم ، روح الله الحي .¹⁵ ولا يوجد بالتالي أي سبب يمنعنا من بلوغ المستويات العالية التي وصلوا إليها هم حتى نحقق نحن في أيامنا هذه ما حققوه هم بالأمس .

لقد تشربت أرض إفريقيا الدافئة بدماء الشهداء ، و غطت برفق أجسادهم المهشمة . كانت دماءهم بذاراً مقدساً ، انتفع الشمار رائعة . انهم في استعدادهم النام للتكلم عن المسيح في ساعة المحنّة ، ولترك هذه الحياة بفرح وهم يحملون اسم المسيح ، يؤكدون أمام الملائكة ايمانهم و استقامتهم ، كما يبرهون أيضًا أي رجاء راسخ يوحى لهم به هذا الإيمان . ان المشتكي القديم ، ابليس ، قد تم طرحة أرضاً : و هم غلبوا بدم الحروف و بكلمة شهادتهم و لم يحبوا حياتهم حتى الموت .¹⁶

« أليست إفريقيا مليئة بأجساد الشهداء القديسين ؟ » - أعلن اغسططينوس - « أو ليسوا هم شهداؤ للحق ؟ »¹⁷ ان رجاءهم لم يخيب ، بحيث انهم الآن مع رب يسوع . و سياتون معه حين يعود بمجده إلى هذا العالم . وفي ذلك اليوم ستقوم الآلاف المؤلفة من إخوتهم و أخواتهم من الحقوق والسهول ، و من وديان الأولاد والأطلس ، و من تونس و عنابة و طنجة و فاس . ستقوم ونصعد لملاقاة رب بفرحة عظيمة عارمة لا يمكن وصفها . و ستفتح مع آبائنا المسيحيين أيضًا - مع بربوتا و ساتورووس و ترنيليانوس و كبريانوس و اغسططينوس - و سوف نعاين جميعًا مجده الله . وستحدث إلى أولئك الذين تعرفنا بأسمائهم و نحن من ابنائهم ؛ سيُجمع شملنا من جديد مع آبائنا المسيحيين ، و لا يعود أي شيء يفصلنا في ما بعد .

« لأنّه إن كنّا نؤمن أن يسوع مات و قام ، فكذلك الراقدون يسوع سيحضرهم الله أيضًا معه . فإنّا نقول لكم هذا بكلمة الله إننا نحن الأحياء الباقيين إلى مجيء الله لا نسبق الراقدين . لأنّ الله نفسه يهتف بصوت رئيس ملائكة و بوق الله سوف ينزل من السماء و الأموات في المسيح سيقومون أولاً . ثم نحن الأحياء الباقيين سنُخطف جميعًا منهم في السحب لملاقاة الله في الهواء . و هكذا تكون كل حين مع الله . لذلك عزّوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام . »¹⁸

من كلّ ما تدمرْ :
 فبعدَ كلَّ شدةٍ برَّكة
 وبعْدَ الضيقاتِ
 يُزهُرُ الفَرَّخُ
 وَنَخْسِرُ أشياءً كثيرةً
 لنُرَبِّحَ أكْثَرَ
 * * * * *

وبِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ :
 التَّجَدِيدُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
 كُلُّ مَا يُلَاقِيكَ الْآنَ
 بِالْأَمْسِ كَانَ
 وَكُلُّ مَا فَقَدْتَ
 يَرْجِعُ إِلَيْكَ
 وَيَعُودُ كُلُّ الَّذِي أَبْيَدَ
 وَغَوْتُ الأَشْيَاءُ
 لِتُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ
 تَصْبِيرٌ عَدَمًا حَتَّى تُعِيدَ كِيانَهَا
 لَا شَيْءٌ يَمُوتُ
 إِلَّا وَيَبْعَثُ مِنْ جَدِيدٍ
 النَّمَطُ الطَّبِيعيُّ الَّذِي يُكَمِّلُ دُورَتَهُ
 وَنَظَامُ أَمْورِ الْأَرْضِ
 كُلُّ ذَلِكَ يَشَهَّدُ
 لِحَقِيقَةِ عَجَيْبَةٍ
 هِيَ قِيَامَةُ الْأَمْوَاتِ .

الحياة الجديدة

في كُلِّ مَرَّةٍ
 أَنَّا مُلْكُ مُخْلوقَاتِ اللَّهِ
 الْمَسْ حَقِيقَةٌ أَكِيدَةٌ :
 إِنَّ الْأَرْضَ تُحاكي خَطَّةَ السَّمَاءِ !
 فِيهَا الشَّتَاءُ وَالصَّيفُ وَالرَّبِيعُ وَالخَرِيفُ
 وَكُلُّ فَصْلٍ
 يَكْتُسِي بِحُلَّةٍ فَرِيدَةٍ
 وَكُلُّ فَصْلٍ
 يَرْدُهِي بِشَمَارٍ جَدِيدَةٍ
 تُلْبِسُ الْأَشْجَارَ بَعْدَ عُرْيَهَا
 وَتَتَبَعَ الْأَرْهَارُ بَعْدَ دُبُولِهَا
 وَتُفَرِّشُ الْأَرْضُ بِالْعَشْبِ الْأَخْضَرِ
 وَتَسْقُطُ الْبَذَارُ كَيْ تَمُوتَ
 وَتَتَبَتَّ الْبَذَارُ
 فَتَشْبَعُ مِنْ مَوْتِهَا الْحَيَاةُ .
 * * * * *
 مُدْهَشَةٌ خُطْكَ ، يَا اللَّهُ
 فَالسَّلَبُ يُضْمَنُ النَّمَوْ
 تَنْزَعُ لَكِي تَرُدُّ
 تَأْخُذُ لَكِي تَصُونُ
 تُبَدِّدُ لَكِي تُجَدِّدُ
 وَتُنْقَصُ لَكِي تَزِيدُ
 هَذَا نَظَامٌ يَعِدُ إِلَيْنَا
 أَشْيَاءً أَعْجَمَ وَأَبْهَرَ

« تحيياً أمواتك تقوم الجثث .

استيقظوا ترّنموا

يا سكان التراب ! »²⁰

ملاحظات

- بعقوب 18:3
- رومية 20:15 ; كولوسي 1:28
- متى 19:28 و 20
- متى 14:5
- رومية 16:1
- كولوسي 2:2 و 3
- المزמור 2:29
- اعمال 35:20
- يوحنا 1:9
- يوحنا 16:3-10
- يوحنا 12:26 - 24:11
- كورنثوس 12:15؛ 1:7
- فلبي 4:2 (ترجمة كتاب الحياة)
- كورنثوس 7:4 (ترجمة كتاب الحياة)
- كورنثوس 7:4
- بالإشارة الى رؤيا 12:11
- Epître 78; Sermon 128:3 - 17
- 1 تسالونيكي 18 - 14:4
- ANF Vol. p. 553 *De Resurrectione Carnis* 12-19
- Bettenson ECF pp. 161-162
- اشعيا 19:26

الملحق الأول

الأصول الثقافية لأفريقيا الشمالية

لقد أصبحت إفريقيا الشمالية وطنًا لشعوب كثيرة : بعضهم من استقر فيها منذ وقت طويل ، وأخرون لم يأتوا إلا حديثاً . فالفينيقيون ، والرومان ، واليهود ، ومن بعدهم الونداليون والبيزنطيون والعرب والفرنسيون ، جميع هؤلاء بنوا بيوتاً وأنشأوا عائلاتهم في هذه الأرض ، و ما زالت دمائهم تجري في عروق أحفادهم . أما أولئك الذين عاشوا فيها أولاً ، و ظلوا يشكلون غالبية السكان ، فهم الأمازيغيون ، والمعروفون أيضاً بالبربر¹ . إنهم الأفارقة الشماليون الحقيقيون . إن قصة المسيحية في هذه البقعة من الأرض ترتبط بشكل وثيق بتاريخ سكانها القدماء .

إن أصل الأمازيغين قد ضاع في عتمة التاريخ . و مع ذلك ، فهناك الكثير من النظريات الخيالية التي قيلت بقصد بث أسلاف هؤلاء القوم و نسيهم . فقد رأى بعض الكتاب فيهم أحفاد الكنعانيين القدماء ، الذين كان العبرانيون قد طردوهم من فلسطين . و آخرون يفضلون أن يرددوا أصل هؤلاء القوم إلى مجموعات مغامرة من الماديين و الفرس أو الهنود . و بعضهم يصدق ما ورد في بعض الأساطير بشأنهم ، أي كونهم يتحدرُون من طروادة (Troie) أو اليونان . و يوجد من يقول إنهم جاءوا من اليمن ، ولعلهم كانوا من أقرباء العرب أو منافسهم . و بعضهم ، في استناده إلى خصائص علم الإنسان (Anthropologie) ، يتوجه ذهنه نحو بلاد الغال ، أو أوروبا الشمالية ، أو صقلية (Sicilie) أو إسبانيا . و يرى آخرون أنهم الناجون من الأطلنطس (Atlantis) ، هذه الأرض المفقودة و الغارقة الآن تحت البحر . كذلك يعتقد بعضهم أنهم جاءوا من الشرق الأدنى – ربما من بابل – و هم واحد من عدة شعوب تشتتوا من هذه المنطقة في حدود ما قبل عام 2000 ق.م .

تمكن علماء الآثار من اكتشاف عدة ثنايا لآناس ، يشابهون من الوجهة التشريحية العديد من الأمازيغين الحالين . و يبدو أن أولئك القوم كانوا يعيشون في العصر الحجري (ère néolithique) و ربما قبله . و قد تبين ، بكل وضوح ، أن أقدم الهياكل المعمارية بينها تعود إلى نوع أوروبي شمالي أي توقاري ، عاش تقريباً في العام 10 000 ق.م ، أي قبيل نهاية العصر الحديث الأقرب (ère pléistocène) . و قد عبر هؤلاء القوم ربما من إسبانيا² . كذلك تم العثور على مجموعة عرقية ثانية ، أصغر حجماً ، و عظامها أرفع ، تشير ملامحها إلى تحدُّرها

من منطقة البحر الأبيض المتوسط . و يظهر أنهم دخلوا إفريقيا الشمالية من الشرق الأدنى في نحو العام 8000 ق م .³ لقد اقترح علماء الإنسان فكرة ان ذرية المجموعة الأولى كانوا مستقرين ؛ أمّا نسل المجموعة الثانية ، فكانوا من البدو الرحل . تشكل المجموعة الأولى أسلاف المزارعين ، سكان التلال ، فيما تكون الثانية رعاة الماشي من أمثال شعب الزناتة (Zénata) والتوارك (Touareg) الحالين في أقصى الجنوب .⁴ كان هناك اختلاط كبير بين هاتين الفتنتين من الناس ، وكلاهما متشر حاليًا في كل أنحاء إفريقيا الشمالية . و بهما كان عليه ما يستحسن الأمازيغيون أن يعتبروه أصلهم ، يوجد أمر واحد مؤكد و هو أنهم كانوا السكان الطبيعيين الأصليين لشمال إفريقيا ، وذلك منذ العصر الحجري . و هم الورثة المستحقون للشواطئ الجنوبيّة للبحر الأبيض المتوسط ، ذلك البحر العظيم الذي كان مركزاً للحضارة المتقدمة منذ العصور التاريخية الأولى .

و يظهر أن الاسم «الأمازيغين» هو نفسه مشتق من جذر يفيد معنى «الناس الأحرار» أو «السادة».⁵ فالإفرقي الشمالي يثور و يتململ ، بكل تأكيد ، من شتى أنواع العبودية ، لكنه يُبْتَ بالمقابل انه صديق مخلص لكل الذين يتمكنون من كسب احترامه و محبته ، و ذلك بغض النظر عن أيّة اعتبارات إيديولوجية او ثقافية . انه صاحب قلب دافع ، يضحك بسهولة و يفرح كثيراً بحكمة أرضية تقود بشكل عفوي الى استنتاج أعمق العبر من العالم الطبيعي ، كما انها تكشف بظرف ضعفاته الطبيعية البشرية . و طالما كان الجيل القديم يُجيد بإتقان فن رواية القصص ، كما ان حكاياتهم عن الفناد ، والخروف والذئب ، تخدم هدفاً مزدوجاً إذ تسلّي الشباب ، و تعلّمهم ايضاً مبادئ الحياة . للأمازيغين موهبة فطرية في نظم الشعر ، و أحاسيسهم مؤثرة و عميقه في آن . انهم يستقون صورهم و يوضحاتهم من الطبيعة بشكل عفوي : النحلة التي تطير بكل اجتياح و تحظى حيشما تشاء ، والأواعال التي تفتر من صخرة الى صخرة ، و لا يقوى أي صياد على النيل منه ؛ و الصقر الذي يحلق بسهولة تامة و بلا كلل أو ملل في أرجاء السماء الفسيحة . أمّا موسيقى الأمازيغين ، فهي مميزة ، إذ تستند الى المقام الخماسي ، وحصل الترتيل على أساس المناوبة التجاويبة . كذلك تحتوي هذه الموسيقى على أنظمة إيقاعية معقدة تتطور بشكل تدريجي . وفي أيامنا ، لم تخل البانجو و القيثارة الأجزيئي محل الآلات الموسيقية الوراثية التقليدية .

و لا يزال الرقص يجذب القرويين للقاء معًا ، موقراً لهم بذلك حياة اجتماعية مشتركة . إن هذه الظاهرة لنموذجية فحينما يتجمع الأمازيغيون ، لأي غرض ، تكون شركتهم على نطاق ضيق دائمًا . هذا لأن العوامل الجغرافية و التاريخية قد ساهمت بلا انقطاع في تقسيم هذا الشعب ، إذ فصلت قبيلة عن قبيلة أخرى ، و عشرة عن عشرة ، و عائلة عن عائلة و حتى الرجل عن جاره . لم يتمكن الأمازيغيون قط من الاتحاد لتكوين أمة . فإن قمم جبال الأطلس المكللة بالثلوج تقفل بين واد و آخر ؛ كما ان المساحات الخالية الفارغة في الصحراء تجعل قاطعاً بين الواحة والأخرى ؛ كذلك يعمل المحيط الأطلسي بمواجهة العاصفة على فصل جزر الحالات الخضراء اليابسة عن البر الرئيسي الواقع على بعد 80 كيلومتراً منها فقط . و هكذا منذ فجر التاريخ ، بدا

على الأمازيغين أنه راض بالوادي ، أو الواحة ، أو القرية التي ولد فيها . فالتجمعات المحلية هي كل ما يلزمه لبناء المدرجات الجبلية الفلاحية ، أو شق مجاري المياه ، أو لفض التزاعات الصغيرة . لم يكن سكان المنطقة ينشدون كونفدراليات كبيرة ، حيث إنهم لا يرغبون في شن الحروب على نطاق واسع ، أو احتلال مدن ، أو هزم بلدان أخرى .

لم يتم للأمازيغيون أبداً بناء وطنهم الخاص ، ولا عنع أجناس آخرين من السيطرة عليهم . ان عدداً من الإمبراطوريات تعاقبت على احتلال أرضهم - من الشرق ، و الشمال ، والغرب ، وفي ما بعد من الجنوب المستعرب - إلا أن أحداً ما من هذه الجيوش المحتلة ، لم يلاق مقاومة موحدة من سكان المنطقة . وهذا لا يعود إلى كون المهاجمين هم أكثر عدداً ، أو أكثر ذكاءً أو ضراوة من الأمازيغين . لكن هؤلاء الغزاة كانوا دائماً منظمين بشكل أفضل ، و يتفوقون عليهم في العتاد الحربي .

كان للأمازيغين ملوك مشهورون يسيطرون على مناطق واسعة ، أمثال الملك ماسينيسا (أو ماسينيت) (نحو 240 ق م - 149 ق م ، ويُوغرنا (أو يُوكُرتن) (و نحو 118 - 105 ق م) ويويا الثاني (Juba II) (نحو 50 ق م - 23 ب م) . وكان هؤلاء الحكام يجدون بصفة عامة أسباباً موجبة للتعاون مع جيرانهم في محيط منطقة البحر الأبيض المتوسط . هذا لأنهم كانوا يجنون مع شعوبهم فوائد جمة من التجارة و الزراعة و الابتكارات الهندسية المتوافرة عند حلفائهم المنظوريين . لقد عامل الرومان الملوك الأمازيغين و رؤساء القبائل باحترام ، حيث لم يكن لديهم مطامع في الاستيلاء على مناطقهم الداخلية . إلا أن هؤلاء الحكام المحليين ، لم يكونوا يسيطرون فقط سوى على منطقة محددة ، تلك الأرضي التي يستطيعون الوصول إليها و التسلط عليها بما لديهم من قدرة شخصية على التأثير في الجماهير . كان شمال إفريقيا كياناً مجزئاً سياسياً كما كان جيولوجيًّا . فلربما كانت طبيعة الأرض الجبلية الوعرة و المجزأة إلى مناطق معزولة التي تقف وراء هذا الشرذم ، شهادة صامتة لما للاعتبارات الجغرافية من هيمنة كونية على التاريخ .

و عندما استقر الغزاة الألومن ، من قبائلين و رومان و ونداليين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، تركوا رؤساء القبائل الأمازيغين يحكمون المناطق الداخلية بأنفسهم تماماً كما كانت الحال قبل حصول الغزو . أما العرب ، فنصرقوا معهم بطريقة مختلفة تماماً . هذا لأنهم زحفوا إلى داخل البلاد و راحوا يدعون تارة هذه القبيلة و طرهاً قبيلة أخرى . و هكذا استطاعوا بالتدريج أن يهيمنوا على الأرضي المقهورة . أما أولئك الذين فقدوا أراضيهم باستيلاء المستعمرين عليها ، فانتقلوا إلى الجبال . ثم أخيراً قامت الطبقة الحاكمة المسلمة بثنيت واقع الشرذمة هذا . فتم رسم الحدود السياسية و تحديد المناطق التي يتوجب عليها دفع الضرائب ، و تعين الحكام والقضاة ، وهكذا أصبح شمال إفريقيا «المغرب العربي الكبير» .

و بخصوص الدين ، يخبرنا ابن خلدون بأن الأمازيغين ارتدوا عن الإسلامائtent عشرة مرة قبل أن يُضطروا أخيراً إلى الإذعان قسراً لهذا الدين⁶ . كانوا يتمسكون بأية تعاليم غير صحيحة قد

تعترض سببهم ، و يلتقطون حول أي قائد هرطوفي قد يظهر بينهم . إنّ شعب برغواطا (Berghawata) في غربي المغرب ، دعموا بشدة نبيّهم ، صالح ، مستدين في ذلك إلى ما استتبعوه من الفكرة الإسلامية القائلة إن الله قد أرسل نبيّاً خاصّاً لكلّ جنس من الأجناس البشرية . فاعتبروا أنّ محمداً أرسل للعرب ، أمّا النبي صالح ، فقد تمّ إرساله للأمازيغين . كما يخبرنا البكري أنّ قبائل برغواطا بدأوا استعمال اسم أمازيغي للله - «ياكوش» (Yakush) عوضاً من الاسم العربي «الله» . كما نقلوا الصوم السنوي من شهر رمضان إلى شهر رجب . وقد شرّعوا أيضاً عشر فترات للصلة عوضاً عن الصلوات الخمس المقرّرة يومياً ، كما بذلكوا موعد عيد الأضحى ، وسمحوا للرجل أن يتزوج قدر ما يشاء من النساء . كذلك اخْذُوا بعض الطقوس المستوحاة من المعتقدات القدّيمة المتعلقة بذهب حبوبة المادة ، وأضافوها إلى العادات التي كانوا قد تعلّمواها من العرب . إلا أنّ أعظم إساءة افترتها صالح في نظر العرب هي أنه كتب فرائناً جديداً بلغته الخاصة ، مستعيناً لأجل ذلك بالأبجدية العربية . يحتوي هذا الكتاب على 22 فصلاً عوضاً عن الـ 114 سورة المتضمنة في القرآن الإسلامي الرسمي .⁷

لم يكن شعب برغواطا هم الوحيدين الذين تركوا الإسلام العربي ، و استعاضوا عنه بديل أمازيغي . هذا لأنّ العلمين الإياثيين الجزائريين كتبوا في القرن العاشر صفحات من التعاليم الدينية باللغة الامازيغية ، مستعملين لأجل ذلك الأبجدية العربية ، بالإضافة إلى الألفباء البيفياغية القدّيمة . كان التوارك ، سكان الصحراء ، يشieren في القرن التاسع عشر إلى الله باسم «اماناي» أو «اماناي مقارن» ، كما أطلقوا عليه أحياناً التسمية «متّي» .⁸ في إفريقيا الشماليّة ، يظهر أنّ السيد المتصّر الذي يظنّ أنه قد نسلّط على الشعب ، هو الذي يخضع لهم في نهاية المطاف . إنه ضرب من عبقرية الأمازيغين . أنّهم يجحدون فنَّ استيعاب ، ومن ثم تغيير من يغزونهم و يتسلّط عليهم ، أيّاً من كان . و الفينيقيون كانوا أول من اكتشفوا هذا الأمر . هذا لأنّهم وجدوا بعد اقترانهم بالنساء المحليات ، كيف أنّ ديانتهم امتزجت مع المعتقدات الامازيغية القدّيمة . كما أنّ أطفالهم نسوا أساليب الحياة الفينيقية و لغتهم البوئية . ثم تكرّر الأمر عيّنه بالنسبة إلى الرومان حيث أكلوا من الحنطة و الرزبون التي كانت تُزرع في الحقول الامازيغية ، كما اختاروا أيضاً رجالاً أمازيغيّاً أميراً طوراً لهم . لكنّهم فشلوا ، في النهاية ، في فرض لغتهم اللاتينية ، أو معرفتهم و نظمهم الإدارية على التلال و السهول الإفريقية . ثم جاء دور الونداليين الذين غزوا الأرض الامازيغية و حكموا الشعب هناك لأمد قصير ، إلا أنّهم لم يستطعوا أن يؤسّوا أي شيء جديد أو دائم بينهم . و كذلك بالنسبة إلى العرب ، فقد فرضوا دينهم و لغتهم على الأفارقة الشماليين لكي يجدوا أخيراً كيف أنّ الأمازيغين قد أفسدوا كلاً من اللغة و الدين ، بحيث لم يعد يمكن اعتبار اللغة العامية المستخدمة لديهم أنها لغة عربية ، و لا ما توصلوا إليه دينياً من تركيبة الخرافات و العقائد ، أنه الإسلام .⁹ و أخيراً ، في عصرنا الحديث

هذا ، نرى أن الفرنسيين ، أدخلوا إفريقيا الكثير من التقنيات الأوروبيية الحديثة والمدهشة ، وبخاصة في كل من ميداني الهندسة والطباعة ؛ إلا أنهم لم يسمعوا ، بالمقابل ، أية كلمة شكر على أنعابهم .

إلا أن هؤلاء المذكورون ، لم يكونوا وحدهم من جاءوا من الخارج ليمدوا جذورهم في إفريقيا الشمالية . وبعد الاستيطان العربي ، أصبح الرق من أعظم الاهتمامات التجارية . هذا وقد تم القبض على الآلاف من الأفارقة السود ، واقتيدوا من مواقعهم في الأدغال عند الناحية الجنوبية من الصحراء . وبعد تعرضهم للألم مرعبة ، كان بعض تجار الرقيق المسلمين يبيعونهم كعبيد في زنجبار ، و حتى في شمال إفريقيا نفسها . فأنجب بعضهم نسلاً لسادتهم العرب ؛ أما آخرون منهم ، فتزوجوا في النهاية مع الأمازيغين ، ولا يزال أحفادهم معنا حتى اليوم .

وقد سبق اليهود كل هؤلاء في شمال إفريقيا بوقت طويل . وقد نسي أحياناً أن هؤلاء اليهود جاءوا قبل العرب بألف سنة . كان اليهود يختلفون عن أي جنس أو عرق آخر عرفة الأمازيغيون . ولعل السبب لذلك هو أنهم كانوا لا جندين ، ولم ينفكروا قط في التسلط على الأرض هناك ، أو في فرض لغتهم أو دينهم على الآخرين . لقد أتوا إلى هذا البلد بحكم الضرورة ، لا بدافع المغامرة أو التجارة أو بسط النفوذ . فوطّنهم الواقع في أقصى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كان قد تعاقدت على احتلاله مجموعات من الجيوش الأجنبية . فتركوه على أمل العيش في مكان آخر . ظلوا على مدى قرون يتّسدون إلى إفريقيا ، وذلك كمجموعات صغيرة من عائلات صغيرة وأفراد . وهكذا استقرّوا في المدن والقرى ، وفي أجزاء معزولة من الريف ، حتى وصلوا إلى أبعد المناطق عند ساحل الأطلسي ، ثم نزولاً إلى الصحراء .

وصلت أولى المجموعات اليهودية إلى إفريقيا الشمالية في حدود العام 320 ق م عندما قام اليونانيون بتفكيك ملة الف يهودي ، ثم نقلوهم خارج أرض فلسطين ، فحطوا رحالهم في قرطاجة . كذلك تحرّكوا إلى الغرب مخلفين وراءهم آثاراً في فولوبيليس (وليلي) . ووصلت أيضاً مجموعة ثانية منهم إلى المغرب بعد العام 150 ق م ، وذلك هرباً من الاضطهاد الذي لحق بهم في كورينيقيا ، أي ليبيا الحديثة . واستقر هؤلاء في الريف المغربي وجبال الأطلس . كذلك يوجد مجموعة أخرى تركت فلسطين ، وانتشرت عبر إفريقيا الشمالية بعد ثورة اليهود العارمة التي قادها سمعان بار كوخبا (Simon bar Kochba) والتي تم سحقها في العام 135 م . وفي ما بعد ، توافد المزيد من اليهود من إسبانيا ومن أجزاء أخرى من أوروبا ، وذلك هرباً من المراسيم الإمبراطورية التعسفية . وفي القرن الرابع والخامس طرد العديد منهم بسبب الهجمات العنيفة التي كان يشنّها القوطيون والونداليون وغيرهم .

لم يكن هناك أي سبب أو موجب يدعو اليهود في شمال إفريقيا إلى محنة الرومان . هذا لأن الوحدات العسكرية الرومانية ، كانت قد احتلت بلادهم ، وفرضت عليهم حكمهم الوثنى الذي اعتبره اليهود تجديداً . كما أن الرومان دنسوا هيكل أورشليم ، وأخيراً حطموا الأماكن المقدسة في العام 70 م . ولربما انسجم الأمازيغيون مع اليهود جيرانهم ، هؤلاء الذين جاءوا يسعون للدين في العام 70 م . كذلك كان بعض هؤلاء اليهود فضلة عالية في حقل التجارة ، فضلاً عن العلاقات المعدنية مثلاً . كذلك كان بعض هؤلاء اليهود نفطة عالية في حقل التجارة ، فضلاً عن العلاقات التجارية التي استسواها قبلًا ، إبان إقامتهم عند ساحل البحر الأبيض المتوسط . جاء اليهود على شكل عائلات فقيرة منفحة عن أوطانها ، قائمين في حياتهم بمقامهم الوضيع . وظاهر أنهما كانوا يكسرون احترام الشعوب التي يستقرن بين ظهرانيها ، وذلك بفضل تقديرهم الدقيق بما فرضوه على ثقافتهم من مبادئ الأمانة والاستقامة . إن إيمانهم الثابت بالله الأحد ، خالق كل الأشياء ، لا بد من أنه لقي تجاوباً في قلوب أولئك الأمازيغيين الذين كانوا يشعرون هم أنفسهم أيضًا بوجود مثل هذا الإله العلي .

اعتنقت بعض القبائل والقرى الدين اليهودي ، وتعلّم بعضهم كتابة اللغة الأمازيغية بواسطة الحروف الأبجدية العبرانية . وهكذا استمرت العلاقات اخوية وودية بين اليهود والأمازيغيين عبر القرون ، إلى الوقت الذي قدم فيه العرب وأدخلوا صنفًا جديداً من التمييز العنصري الناتج من نزعاتهم الخاصة في الشرق .

لقد تعرضت إفريقيا الشمالية مؤثرات كثيرة ومتعددة . وترك كل من هذه المؤثرات بصماتها على خلق السكان وعلى لغتهم وعاداتهم . فمنذ فجر التاريخ ، والأمازيغيون بارعون في استعمال اللغات الأجنبية . كان بعضهم يجيدون لغتين أو ثلاث لغات إيجاداً تامة ؛ ولا يزال هذا الأمر يصح على العديد منهم في أيامنا أيضًا . فقد تعلّموا اللغة البوئية من الفينيقيين ، واللاتينية من الرومان ، وأخيراً قدم لهم العرب لغتهم ، وكذا الفرنسيون أيضًا .

إن اللغات الأجنبية تفتح الأبواب دائمًا أمام أفكار وخبرات جديدة . ومنذ أقدم العصور ، وشعب إفريقيا الشمالية يسافرون إلى الخارج بكثافة ، ثم يعودون إلى بلادهم حاملين معهم وعيًا بكل المعارف والنشاطات التي اطّلعوا عليها في البلدان والأماكن الأخرى التي زاروها . كانوا جزءًا من حضارة منطقة البحر الأبيض المتوسط العظيمة ، وشاركوا بالكلية في هذه الحضارة . لقد تعلّموا قراءة آداب العالم ، كما أن بعضًا منهم - مثل مانيلوس (Manilus) وفلوروس (Florus) وأبوليوس (Apulée) - شاركوا في كتابة هذه الآداب . لقد استفادوا من المعارف والعلوم التي قدمتها لهم المدارس الفينيقية والرومانية ، تماماً كما أن أحفادهم يسعون

اليوم لاكتساب ثقافة أدبية عربية و فرنسية . و قد أثاحت هذه الثقافة أمامهم شتى أنواع الفرص . و لكن الفينيقيون و الرومان لم يسعوا لوضع سياسات حكومية من شأنها أن تحدّ من استخدام الشعب للغة الأمازيغية الأصيلة ، و لا فرضوا لغة جديدة على المتكلمين بها . كانوا يرغبون في إضافة ثقافة لا في محو ثقافة ، و كان هدفهم إضافة بعد جديد ، و ليس نزع القديم .

تعاقب اللغات الأجنبية و تبدل ، أمّا اللغة الأمازيغية التي كانت قبلها جميعها ، فلا تزال حية . إن ثلاثة الآلاف سنة من السيطرة الغربية ، بانظمتها التعليمية الأجنبية ، لم تكف لمحق اللغة الأصلية لإفريقيا الشمالية . و ما زالت هذه اللغة تُستعمل في دُرَيْنَة من البلدان التي تمتَّد من البحر الأبيض المتوسط و حتى الصحراء ، و من المحيط الأطلسي حتى نهر النيل . و هذه اللغة تضمّ في هذه الأيام عدداً وافراً من اللهجات الأقلية المحلية المختلفة ، يفصل بينها اصقاع من الأرض و يقع لا تعرف اللغة الأمازيغية . ان الأماكن التي تحمل اسماء أمازيغية لا تزال موجودة في كل أنحاء إفريقيا الشمالية ، حتى في تلك المناطق حيث لم تعد اللغة الأمازيغية هي لغة السكان . ان القطعة التي لا تزال موجودة ، تشهد لعالم عملت عناصر غريبة على تغييره و تشكيله ، لكهما تشهد أيضاً أن هذا العالم كان موحداً في يوم من الأيام .

إن اللهجات المحكية للأمازيغية الحديثة تجمع بين مواصفات نوعين من اللغات : الخامسة والسامية . كما أنها تشبه من بعض التواهي لغات إفريقيا أخرى من نحو اللغة القبطية المصرية والصومالية والحسوة (Hausa) . كذلك يوجد أيضاً بعض توجه الشبه بينها وبين اللغات السامية كالعربية و العبرية¹⁰ . و يقترح بعض الدارسين أن هذه المظاهر السامية في الأمازيغية ، إنما تشير ببساطة إلى تأثيرها باللغة البوئية خلال الفترة القرطاجية ؛ و لكن هذا الأمر لم يتتأكد بأية حال من الأحوال . و يوجد كاتب واحد على الأقل يعتبر أن الأمازيغية هي أقرب إلى أحدي اللغات الأوروبية أي اليونانية منها إلى أيّة من اللغات السامية أو الخامسة¹¹ .

كان شعب إفريقيا الشمالية ، على مدىآلاف السنين ، يتكلمون الأمازيغية بصيغة أنقى بكثير من لهجتها الحالية . فقد كان ينبغي التعبير بواسطة هذه اللغة عن كل صنف من أصناف الأدوات المنزلية ، وعن المشاعر الإنسانية كلها ، و عن صور الحياة او وجوهها جميعها . كما أن اسماء الناس ، كانت أمازيغية صرف . و لكن ، لا يمكن لأية لغة أن تبقى جامدة . هذا لأنّه يُصار باستمرار إلى إدراج كلمات جديدة بالإضافة إلى تعابير أصلية . و تشهد المنقوشات القديمة و الزخارف الفخارية على هذه التنويعات و التبديلات المحلية في كلام الناس و أحاديثهم منذ الأزمنة الغابرة . كانت الطرق التجارية القديمة تحدث تشابكاً بين المناطق الواسعة الفسيحة التي تمتَّد من جنوب الصحراء الإفريقية ، إلى البحر الأبيض المتوسط ، و من ثمّ إلى أوروبا . ففي عملية المتاجرة بالبضائع الغربية على سكان البلاد ، كما أيضاً عند إدخال أساليب تقنية مستحدثة ، كان يحصل تبادل لأفكار جديدة ، و للكلمات الالازمة للتعبير عن هذه المواد الغربية . كذلك ، منذ أقدم العصور ، كان هناك مستوطنون أجانب على الساحل ، و هم يتحدثون لغات أخرى تختص بمنطقة

البحر الأبيض المتوسط . كما أن القبائل المجاورة في الجنوب ، كانت تتحدث اللغات الإفريقية . و هكذا دخلت إلى الأمازيغية كلمات معينة مصدرها هذه اللغات ، وبخاصة التعبير المتعلقة بالبضائع التجارية - الدجاج ، القناديل ، السطول - و كذلك الاصطلاحات المتعلقة بالابتكارات الجديدة كالقوابين المكتوبة ، و الطقوس الدينية ، و المعالم لفن البناء الجديد ، كالأبراج و القبب مثلاً .

إلا أن تشرذم اللغة الأمازيغية ، لم يحصل إلا على أيدي العرب الهلاليين في القرن الحادي عشر ، حيث ان تواجدهم لم يقتصر على المناطق الساحلية والمدن . لم يكتف هؤلاء القوم بأن يكونوا مجرد جيران يعيشون بمفردهم لمجموعات أخرى من الناس ، او زملاء عمل من الممكن مقابلتهم من وقت إلى آخر في السوق . لكنهم شقوا طريقهم إلى عمق السهول الداخلية ، حتى إلى سفوح الجبال ، و إلى رمال الصحراء ، هذا لأنهم كانوا قد عزموا على أن يستعمروا الدار نفسه . و هكذا بدأت عملية تعریف الأمازيغين ، و التي استمرت منذ ذلك الحين . و منذ ذلك الحين ، أصبحت اللهجات الأمازيغية المحلية متفرقة واحدة عن الأخرى في الأودية النجدية و في الواحات الصحراوية . و هكذا راحت تتطور على انفراد ، و في عزلة عن بعضها بعضاً . لقد بات اليوم من الصعب على أحد الأمازيغين من « تومبوكتو » (Tombouctou) أن يتضامن مع نظير له من طنجة ، مع أنه يعلم أن هذه اللغة هي لغته أيضاً .

تُعتبر اللغة الأمازيغية عادة من اللغات غير المكتوبة . فإذا ما أراد الأفريقي الشمالي ان يكتب أو يقرأ ، فإنه يتوجه عموماً إلى اللغة العربية أو الفرنسية . و مع ذلك فإن الأمازيغية تستطيع أن تتجاوز بأبجديتها الخاصة ، و التي هي أقدم عهداً من كل من الأبجديتين العربية و الفرنسية . فالأمازيغيون كانوا كالصربين و الفينيقيين القدماء ، يكتبون على شكل نقوش قصيرة و كلمات إبداء ، و ذلك قبل مئات السنين من ظهور مفهوم الكتابة في أنحاء أخرى من العالم . إلى ذلك ، فإن الأمازيغية هي اللغة الإفريقية الحديثة الوحيدة ، بصرف النظر عن الإثوبية ، التي طورت أبجديتها الخاصة . أما اللغات الأخرى في هذه القارة ، فقد اكتفت بتطوير النباء أجنبية تخدم أغراضها الخاصة ، و ذلك استناداً إلى الأبجديات الأوروپية أو العربية المعاصرة .

ان الأبجدية التيفيانية ، تشتمل على دواوين و مثلثات و أشكال هندسية أخرى ، مع نقاط مجموعة بأشكال مختلفة تمثل أحرف اللين (Voyelles)؛ و هي تكتب من الشمال إلى اليمين ، وذلك على طراز الأبجدية الأوروپية .¹² فمن الصعب أن تتعقب عملية تطور هذه الأبجدية . كانت في صيغتها الأولى تُعرف لدى الدارسين بالأبجدية الليبية ، و يُرجح أنها ، كالليونانية ، قد اشتقت أساساً من اليونية ، أي الأبجدية الفينيقية ، و ذلك في وقت ما من القرن الثاني قبل الميلاد . ويوجد تشابه قریب بين التيفيانية والكتابة العربية المعروفة « بخط جنوب جزيرة العرب »، مما يدلّ على أن هذه الأبجدية قد جيء بها من طرف المهاجرين الصنهاجيين و الكتامين من تلك المنطقة . إلا أن هذا الأمر ليس مؤكدًا . و على الرغم من أن الأبجدية الليبية لم تكن قد طورت بالكامل

حتى ذلك التاريخ ، فقد وُجدت قبل هذا بكثير حروف تشابه التيفيناغية الحديثة في « الجيزة » ، متضمنة في أقدم الكتابات الهيروغليفية المصرية القديمة ، ويرجع تاريخها إلى نحو سنة 3000 ق.م ، وهي الآن معروضة في متحف القاهرة . وبعض هذه الأحرف منقوش أيضاً بالهيروغليفية على «حجر رشيد» (Pierre de Rosette) ، الذي يرجع تاريخه إلى سنة 196 ق.م ، والمعروض حالياً في المتحف البريطاني بلندن . ويقترح بعض العلماء أن الأحرف البونية البدائية ، قد تطورت من الهيروغليفية نفسها . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يجعل هذه الأحرف الأقدم بين تلك التي لا تزال مستخدمة في أي مكان في العالم . هذا لأن الكتابة الصينية لم تظهر إلا نحو عام 1400 ق.م ، كما أن العبرانية والعربية ، اللتين منهما تحدّرت سائر الأبجديات لغات الشرق الأوسط ، ظهرت بعد هذا التاريخ .

إن النقشات والكتابات التي تستعمل الأبجدية الليبية ، قد وُجدت بوفرة في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية : في تونس ، وفي الجزء الشمالي الشرقي من الجزائر ، وفي السهول الغربية للمغرب ، كذلك بالقرب من طنجة ، وفي الصحراء الشرقية لموريتانيا . إن الصعوبة الرئيسية تكمن في تحديد تاريخ هذه الأكار . إن أول نقش ثُقّت معرفة تاريخه بشكل يقيني ، عُثر عليه في هيكل دُفَّة (Dougga) بتونس ، وهو يخص الملك الأمازيغي ماسينيسا ، وقد قدمه له ابنه في العام 138 ق.م . إلا أن إحدى الجرارات المحتوية على عظام ، وقد عُثر عليها في تيّيس (Tiddis) بالجزائر ، تحمل نقشاً ملوثاً باللغة الليبية القديمة ، وهي ترجع إلى عام 250 ق.م ، كما تم تحديد ذلك بواسطة الطريقة العلمية « كاريون - 14 » (Carbone 14) . وقد وُجدت جرة أخرى عليها نقش وكتابات ليبية في جزيرة رشدون (Rachgoun) بالجزائر ، ويعود تاريخها بحسب الطريقة العلمية نفسها إلى القرن السادس ق.م . ولعل جرة أخرى في ياكور (Yagour) ، في جبال الأطلس الكبير المغربي ، تفوقها بعد في القدم . كذلك عُثر على التيفيناغية ، بصيغتها الحديثة ، محفورة على الفخار في فزان (Fezzan) بالصحراء ، وربما يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد وفي تن حنان (Tin Hinan) في الهقار (Hoggar) في الجزائر ، تجد نقشاً تيفيناغية يعود تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس بـ 13.

وفي بداية القرن العشرين ، كان هذا النوع من الكتابة لا يزال يستعمل كوشم من قبل النساء في جنوب المغرب . كذلك كان التوارث من نسجر يكتبون رسائلهم بالتيفيناغية .¹⁴ إلا أنه منذ ذلك الوقت يبدو أن هذا الخط قد مات بالكلية تقريباً . أما في أيامنا ، فلا تستعمل الأبجدية التيفيناغية إلا لأغراض عملية ، وذلك بين أوساط التوارث في الصحراء . كما أن استخدامها حتى بين هؤلاء هو جد محدود ، ويشكل رئيس للتعرّف بالمتلكات الخاصة ، والوشم والنقش على الفخار ، ولوضع علامة على الصخور البارزة ، وعلى القبور في الصحراء .

من الصعب معرفة نسبة السكان المسلمين من الكتابة التيفيناغية في العصور القديمة . ويفتقر إلى أنه كان هناك أقلية صغيرة فقط تقدر على أن تكتبها وتقرأها بطلاقه ، كما أنه

كان من النادر أن يصل أحدهم إلى حد استخدامها في تأليف المستندات أو المخطوطات . و انه لن دواعي العجب أن تكون هذه الكتابات قد بقيت حتى الآن ، خصوصاً وأنها لم تُستخدم قط لأنجاز أعمال أدبية عظيمة و مؤثرة ، و لا كانت أيضاً لغة قوم ظافرين و متسليطين . و عليه ، فمن الغريب أن اللغة الأمازيغية عمرت أكثر من البوئية و اللاتينية ، كما أنها استمرت كلغة حية مكتوبة ، مدة أطول من أيام اللغتين الإنكليزية و الفرنسية . و حتى اللغة العربية ، لم تعد صيغتها المكتوبة تشبه صيغتها المحكية .

ان إحدى الأساطير الخرافية في العصر الحديث هو الاعتقاد أن الكتابة ، و المعرف و الحضارة جاءت إلى إفريقيا الشمالية بواسطة المسلمين . و ينمو الولد الأمازيغي في هذه الأيام و عنده معرفة مفصلة بال بتاريخ العربي في الوقت الذي يجهل فيه تاريخه الخاص . و هكذا نجد كيف ان الكثيرين منهم ليسوا على علم بأن أسلافهم و أجدادهم سبق لهم أن بنوا مجتمعاً متقدماً حضارياً و مزدهراً في إفريقيا الشمالية ، و ذلك قبل وصول العرب إليها بوقت طويق . إن الأفارقة العظام - ترتوليانوس ، كبريانوس وأغسطنوس فضلاً عن الامبراطور سيفيروس و الملوك أمثال يوما الثاني - فاقوا العرب البدو كثيراً في المعرف و العلوم ، و في الانجازات الأدبية و الفكرية ، و في المهارات الهندسية ، و في الأنظمة الزراعية ، و في معرفتهم بأديان العالم و فهمها .

إنه الواقع غريب أن يفضل عدد كبير من الأفارقة الشماليين اليوم ، أن يرددوا أصلهم إلى أجانب حديثي العهد ، و ذلك نظراً لجهلهم تراثهم و ما ضيّعهم العريق في منطقة البحر الأبيض المتوسط . هذا ، بالرغم من الحقيقة التاريخية المعروفة أن عدداً لا يزيد على 200 000 الى 300 000 عربي كانوا قد استقروا في إفريقيا الشمالية بين ظهرانيين 7 000 000 او 8 000 000 امازيغي¹⁵ . ولربما كان ضرورياً أن نعتبر اسم «عربي» كلفظة ذات مضمون ثقافي ورمزي وغير دالة على أصل عرقى حقيقي .

و مع ذلك ، و في وسط هذه الصدمات التاريخية ، و على الرغم من شرذمة الشعب الأمازيغي ، وما يرافق أصلهم و لغتهم من احتقار عظيم ، فإنهم يبقون جنساً عيناً و فريداً من نوعه ، و أصحاب تاريخ رائع و عريق . و هم يظهرون اليوم تلك الصلاة في الشخصية التي بها يواجهون الصعوبات ، هذه الصلاة التي باتت العلامة المميزة لهم ، و ذلك منذ أقدم المصور .

لقد أنجب الأمازيغيون جمعاً غفيراً من الرجال و النساء المشهورين : فتركوا بصماتهم على التاريخ و آثروا في مسار الأحداث ، ليس فقط في إفريقيا الشمالية ، بل أيضاً في محيط البحر الأبيض المتوسط و أوروبا و العالم أجمع . أعظم الأمازيغيين ، و لا شك ، كانوا أولئك المسيحيين الذين تمكّنوا في ساعة التحدي من أن يرسخوا ، بكلماتهم الشجاعة ، الآلاف من الناس إلى طريق الحياة ، والذين قدروا بواسطة كتاباتهم المجيدة على أن يؤثروا في جميع الأجيال التالية ، الذين كانت محبّتهم و لطفهم وأماناتهم أمثلة رائعة لكل أحفادهم إنهم يقفون في الصف الأول ، معروفين و مكرّمين في كل مكان .

ولعلَّ ولاعهم هو الذي يضرب على أعتدُّ وتر في أيامنا هذه - ذلك الولاء الذي يتميّز به كل واحد من أفراد سلالتهم - ولاعهم بعضهم لبعض ، و لخلوصهم ولبلائهم الأخلاقية . حب مكرّس جمعهم و ملأ قلوبهم بالرجاء . لم يكونوا يهابون شيئاً أو يخجلون من شيء . وقد رفضوا أن يستعبدوا لأي كان أو لأي شيء كان . كانت أيديهم تقبض برشاقة على كل شيء ، فيتمنون بما هو متوازن عندهم ، مع استعدادهم التام في أي وقت للتخلي عنه . لم يزد غسلهم بالحياة على تمكّهم ببيوتهم أو بساتينهم . ولم يتربّدوا فقط في بذر بذرة أرضية كما يجنوا حصاداً سماوياً حالداً .

ملاحظات

1- يُعرف الأمازيغيون بأسماء أخرى في بعض المناطق المعينة : إشْتِيجِنْ (شلوج) في جنوب المغرب ، إِرْفِينْ (روقة أو ريافة) في شمالي المغرب ، إِقْبِيلْنْ (قبائلون أي Kabyles) في الجزائر ، نوازاڭ (Touareg) في الصحراء . كما أن تسميات مختلفة تُطلق على اللهجات المحلية لغتهم : تَشَلْحِيتْ (Tachelhayt) أو تَسُوسِيتْ (Tasousit) في جنوب المغرب ، تَرِيفِيتْ (Tarifiti) في شمالي المغرب ، تَقْبِيلْتْ (Kabyle) في الجزائر ، تَشَاشِكْ (Tamacheck) في الصحراء .

Hart p. 342-2

Camps pp. 41 - 44-3

Coon p. 409; Camps pp. 257 - 258-4

ed. Camps *Encyclopédie Berbère* pp. 562 ff-5

6- المقدمة 3 ، 9 . يمكننا أن نجد في الفصل الثاني ، بعض الصيغ المتعددة للاسم «باكتوش» .

7- 7 Norris pp. 6, 95, 101 ; Cooley pp. 86 - 7 اقتبسها من المؤرخ العربي البكري الذي عاش في القرن الحادي عشر .

Norris p. 228-8

9- يشير أغلب المثقفين العرب إلى اللغة العربية المحكبة في إفريقيا الشمالية بعبارة «اللغة الدارجة » ؛ وعلى هذا الأساس يحصرون استخدام العبارة « العربية » بالنسبة إلى اللغة في صيتها الكلاسيكية . وبالشكل نفسه يرفض علماء المسلمين الممارسات العادلة التي مذهب حبوبة المادة بالإضافة إلى العقادل الحرافية .

10- راجع Apparentement (de la langue Berbère) ؛ وأيضاً المقال : Diakonoff (ed. Camps *Encyclopédie Berbère* pp. 812 ff)

Hanouz p. 26 - 11

12- إن الأقواء التيفيناغية تشمّي بكل وضوح إلى المجموعة الأبجدية نفسها التي تضمّ أيضاً كلَّ من اللغتين البربرية واليونانية ، أكثر مما تنتهي إلى أيٍّ من اللغتين العربية أو الإليبوية . لكنَّ ما في الكتابة لم يُظهر في إفريقيا الشمالية إلا بعد أن كان الأمازيغيون قد عاشوا هناك على مدى الآف السنين ، فإنَّ استخدام القواء معتمدة على أحرف أوروبية لا تحمل النثر شأن مسألة أصل الأمازيغيين أنفسهم .

Camps pp. 275 - 279-13

Campbell pp. 17, 99-14

Camps pp. 14, 137, 187; Guernier p. 142; Meakin pp. 32 - 33-15

الملحق الثاني

قواعد الإيمان

خلاصة عقائد الائمان عند ترتوهيانوس (نحو سنة 230 م)¹

نؤمن باليه واحد . . . الذي عنده الابن ، كلمته ، المبشر من ذاته ، الذي به كان كل شيء ، وبغيره لم يكن شيء مما كان . لقد أرسله الآب الى أحشاء عذراء ، فولد منها و كان انسانياً وإلهياً في الوقت نفسه - فهو ابن الانسان ، و ابن الله - وقد دعى يسوع المسيح . تالم ومات و دُفن بحسب الكتب . ثم أقامه الله الآب من الأموات ، وأصعده مجدداً الى السماء حيث يجلس عن يمين الآب . وأيضاً سيأتي ليحكم على الأحياء والأموات . وبحسب وعده ، أرسل لنا أيضاً من السماء من عند الآب الروح القدس ، البارقليط ، الذي يقدس إيمان أولئك الذين يؤمنون بالآب والابن والروح القدس .

قانون الائمان الذي صدر عن المؤتمر الذي انعقد في نيقية (عام 325 م)²

نؤمن باليه واحد آب قادر على كل شيء ، خالق كل ما يرى و ما لا يرى ؛
وبرب واحد يسوع المسيح ، ابن الله ، المولود الوحيدي من ماهية الآب ،
إله من الإله و نور من النور ، إله حقيقي من الإله حق .
مولود غير مخلوق ، ذو جوهر واحد مع الآب ،
الذي به كان كل شيء ، فيه خلق الكل ما في السماوات و ما على الأرض
الذي من أجلنا نحن البشر و من أجل خلاصنا
نزل من السماء و تجسد ، و صار إنساناً .
تالم و قام أيضاً في اليوم الثالث ؛ و صعد الى السماء .
 وسيأتي ليدين الأحياء والأموات .
ونؤمن بالروح القدس .

قانون « الرسل »³ (نحو سنة 750 م ، مع أن قوانين أخرى تحتوي على كلمات شبيهة يرجع عهدها إلى نحو سنة 400 م .)

أنا أؤمن بالله الأكِب الضابط الكلَّ خالق السمااء والأرض . وبربنا يسوع المسيح ابنه الوحيد . الذي حُبِّلَ به بالروح القدس . ووُلدَ من مريم العذراء . وَتَلَمَّ على عهد بيلاطس البططيِّ وصُلُبَ ومات وُفِّرَ ونزل إلى الهاوية . وقام أيضًا في اليوم الثالث من بين الأموات . وصعد إلى السماء وهو جالسٌ عن بين الله الأكِب الضابط الكلَّ . وسيأتي من هنالك ليدين الأحياء والأموات .

وأؤمن بالروح القدس . وبالكنيسة المقدسة الجامعة . وشركة القديسين . وبغفرة الخطايا . وبقيامة الموتى . وباحيَاة الأبدية . أمين

ملاحظات

-1 من 2 *Adversus Praxean*

-2 Bettenson *DOTCC* p. 25 ; Schaff *HOTCC* Vol. II p. 537 . لقد تمَّ في ما بعد تنقيح قانون الإيمان النيقوري . وهذه الصبغة المتقدمة باشت معروفة تحت اسم القانون النيقوري .

-3 Schaff *HOTCC* Vol. II p. 536

الملحق الثالث

علم الله السابق و حرية الإنسان

إن معظم المسيحيين الإنجيليين في أيامنا ، يدينون بال موقف الشبه - **پلاجي** (demi - Pélagien) كما يظهر بشكل أو بآخر . إنهم يؤمّنون بأنه لا حدود لنعمة الله و لفداء المسيح ، إنّ جهة مداههما أو قيمتهما ، كما أنها لبسا بأي شكل من الأشكال حكراً على فلة من الناس مختارة دون سواها . إنهم في معرض جوابهم عن السؤال : لماذا أذا لا يخلص جميع الناس ؟ يعتبرون أن العائق في سبيل تحقيق خلاص يشمل الجميع ، يجب أن يكمن في الإنسان وليس في الله ، ليس في الله المحب الذي يريد أن جميع الناس يخلصون ، بل في الناس العنيدين الذين لا رغبة عندهم في اختبار الخلاص .

انهم يعرضون ما يلي كبدائل لنظام اغسططينوس :

1- الله يريد خلاص الجميع ، وقد دبر لأجل هذا الأمر

الله هو كائن مطلق و غير محدود ، وبالتالي فإن محبته و نعمته غير محدودتين : انه يرغب في أن يحصل جميع الناس ، في كل مكان ، على الحياة الأبدية . ويصرّح لنا الكتاب المقدس بأنه تعالى لا يشاء أن يهلك أنساً . لقد أرسل ابنه المتجسد لأجل الجميع .¹

إن فداء المسيح هو فداء غير محدود . إن ابن الله الامتناعي في كماله و في قداسته ، في موته كل الكفاية لمحو خطايا جميع بني البشر في جميع العصور والأزمنة .²

2- الله الرؤوف يُعلن نفسه لكل إنسان

بنعمته غير المحدودة و اللامتناهية ،³ يعلن الله نفسه بمحة لكل إنسان لكي يكون للجميع رجاء طلبه و إمكانية إيجاده .⁴ لقد أعلن الله ذاته لكل إنسان بطرق ثلاثة :

- ان العالم الطبيعي يشهد لقدرة الخالق و حكمته .⁵

- ان الضمير البشري يُظهر نقاوته الأدبية .
- الروح القدس يحسّ بالخطية و يثبت الحق في قلب الانسان .⁷

إن عظمة نعمة الله تظهر في كونه تعالى يمنع هذه البركات لرجال ونساء ، خطأة وعصاة لا يستحقونها أبداً؛ هؤلاء الذين لم يكن بوسعمهم فقط أن يكتشفوا وجودهم وجود الله ، أو أن ييزوا طبيعته . و لا كان بإمكانهم ان يفهموا ، من ثلاثة أنفسهم ، طريق الخلاص أو أن يؤمنوا ، بشكل راسخ ، بال المسيح كمخلص . و لو انهم تركوا على هواهم ، لما رغبوا حتى في ذلك .⁸

3- الله منح الإنسان الحرية لقبول الخلاص أو رفضه

لقد خلق الله الإنسان على صورته ، صاحب إرادة حرة : إذا للإنسان ملة الحرية في أن يتجلّب مع نعمة الله أو أن يرفضها .⁹ إن مقاومة نعمة الله باستمرار لا بد من أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الهلاك الأبدي - التتجة العادلة لل اختيار الشخصي الآخر . لن يستفيد الجميع من الفداء غير المحدود واللامتناهي الذي تممه المسيح ، و ذلك لسب بسيط : ليس الجميع يريدون هذا الخلاص .¹⁰

أما التجالب المستمر مع نعمة الله ، فسيقود الإنسان بالمقابل إلى الإيمان بال المسيح و إلى الخلاص . جميع الذين يريدون أن يخلصوا ، بإمكانهم ان يخلصوا .¹¹ كما انه بوسعمهم ايضاً ان ينعموا بملء اليقين بأنهم قد خلصوا فعلاً.¹²

* * * * *

أغلب أصحاب هذا الموقف اللاهوتي يقبلون أن علم الله بكل شيء يجب أن يمتد إلى معرفة من الأفراد سيخلصون . لكن لا ينبغي أن نخلط العلم المسبق مع عقيدة التعيين المسبق بخصوص الهلاك والخلاص .

إلا أن النصوص الكتابية التي تشير إلى التعيين الإلهي المسبق ، عندما ننظر إليها في ضوء قرائتها ، نلاحظ أنها تتعلق لا بالصير الأبدى المحتوم لأفراد معينين ، بل بخطبة الله للكنيسة ككل ،¹³ أو باختيار الله للأفراد من أجل تنفيذ خدمة أرضية محددة ،¹⁴ أو إلى الدور المقرر مسبقاً لأمم معينة كإسرائيل ، أو أدولم أو مصر بحسب مقاصد الله لهذا العالم .¹⁵

الله قد قضى ، وبكل تأكيد ، بأن مجموعة من الناس ستؤمن و تخلص ، لكنه يسمح لكل فرد أن يختار بكل حرية بأن يكون أو لا يكون من ضمن هذه المجموعة . الله يعلم من من الرجال و النساء يذهبون إلى السماء ، و من يذهبون إلى الجحيم ، لكنه لا يقرر خلاص أي واحد منهم أو هلاكه . هم الذين يقررون .

كيف إذا ، يترسخ الإيمان في قلب الإنسان الخاطئ ؟ الله في رحمته اللامتناهية يعلن الحق بمحبة لكل واحد منا ، و ذلك مع أنها لا تستحق أبداً محبة الله ، و لا حق لنا بالطالبة بالفرار . وعلى قدر ما تتجاوب مع الحق الذي يظهره لنا تعالى ، يُعلن لنا المزيد بعد . هكذا ، ومن خلال إصلاحه المتزايد و تجاوينا النامي ، يتأنّص الإيمان فيما تدريجياً ، إلى أن نضع ثقتنا بشكل كامل في المسيح كمخلص و رب . إن مسؤوليتنا لا تعلو أن تكون استقبال ما ينتحه لنا الله .

إن الإيمان عطية متوفرة لكل انسان . إنها ثمرة نعمة الله الشاملة و استجابة الفرد لتلك النعمة . فالحياة الأبدية و غفران الخطايا ، و قداسة الشخصية هي بركات إلهية لا يمكن الحصول عليها بالاستحقاق أو كسبها بواسطة مناقبنا الأخلاقية و الروحية التي اكتسبناها بجهودنا ، أو أعمالنا الحسية او ذكائنا .

و كل ما يمكننا فعله هو أن نقبل عطايا الله بتواضع و شكر . مثلاً في ذلك مثل المسؤول الذي لا يدّعى استحقاقه للخبر الذي يعطي له عند باب الملك . و رغم ذلك ، عليه أن يذهب إلى الباب مستعملاً القوة التي منحها الله له . كما يجب عليه أن يمدّ يده ليتلقى ما أعطي له ، واثقاً بأن الملك سيعطي له ما وعده به .

« لأنكم بالنعمـة مخلصـون بالإيمـان و ذلك ليس منـكم . هو
عطـية الله . ليس منـ أعمـال كـيلا لا يـفتخـر أحد . » « نـشـكرـاً للـله
على عـطـيـتـه التـي لـا يـعـبـرـ عنـها . » 16

ملاحظة : انه من المستحبيل هنا أن تعالج موضوعاً عميقاً و شائكاً كهذا ، و نحيط به من كل جوانبه . هذا الموضوع الذي قد يوافق الرجال الصالحون على الاختلاف حوله .
للحصول على بحث كتابي بشأن الموقف الشبه - بلاجي ، رجاء مراجعة

Forster and Marston God's Strategy in Human History (STL,
1973)

و بشأن الموقف الأغسطيني / الكالفيني :

Pink The Sovereignty of God (Banner of Truth, 1928)

ملاحظات

- 1- بطرس 9:3 ؛ 1 تيموثاوس 4:2 ؛ حزقيال 11:33 ؛ يوحنا 16:3
- 2- تيموثاوس 6:2 ؛ عبرانيين 9:2 ؛ 27:7 ؛ 1 يوحنا 2:2
- 3- تيطس 11:2 ؛ يوحنا 9:1
- 4- أعمال 24:17 - 28 ؛ يوحنا 32:12
- 5- رومية 19:1 و 20 ؛ أعمال 14 و 16:17
- 6- رومية 15:2
- 7- يوحنا 8:16 - 11

إن أوضح إعلان إلهي على الإطلاق هو الموجود طبعاً في الكتب المقدسة الموسى به (2 تيموثاوس 3:16) . إن هذا الإعلان الحرفي المحدد سيكون مقبولاً بسهولة عند الذين سبق لهم أن تجربوا مع إعلان الله الكوني وغير الملفوظ (رومية 9:10 - 20) . هؤلاء القوم « المستعدون » يقبلون رسالة الإنجيل بفرح ، كما فعل كرتيليوس وأصدقاؤه الآخرين في قصيرة (أعمال 10) .

و كثيراً ما يضيف الله إلى هذا الإعلان الشامل إعلانات خاصة ، فقد أعلن الله عن نفسه في التاريخ لشعوب وأفراد خاصين ، بواسطة خدمة أنبيائه ، و بواسطة المسيح المتجسد و رسالته ، و بواسطة أجيال من شهداء الأمانة الذين حملوا الإنجيل إلى أقصى الأرض .

- 8- كورنثوس 2:14 ؛ أفسس 1:2 - 5
- 9- متى 37:23 ؛ لوقا 30:7 ؛ غلاطية 4:5 ؛ عبرانيين 12:15
- 10- متى 41:25 - 46 ؛ يهودا 14 و 15 ؛ رومية 2:2 ، 11-5 ، 10:26-29
- 11- متى 11:28 ؛ يوحنا 37:7 ؛ 10:27 و 28 ؛ رومية 17:22
- 12- 1 يوحنا 10:5 - 13 ؛ يوحنا 24:5
- 13- رومية 28:8 - 30 ؛ أفسس 3:1 - 14 ؛ 1 بطرس 1:1 و 2
- 14- أرميا 1:5 ؛ غلاطية 1:15 و 16 ؛ نحريا 7:9 ؛ المزמור 70:78 و 71 ، 106 ؛ لوقا 13:6 ؛ يوحنا 70:6
- 15- رومية 10:9 - 15 ؛ 2:11 ؛ 33:6 - 6 ؛ 1 اخبار 4:28
- 16- أفسس 8:2 و 9 ؛ 2 كورنثوس 15:9

الملحق الرابع

اسم يسوع

يسوع هو اسم له معنى . يخبرنا الكتاب المقدس أنَّ اسم ربنا هو أرفع قدرًا من الملائكة^١ إن اسمه هو « فوق كل اسم ». ^٢ عندما أُرسل رئيس الملائكة جبرائيل لإذاعة خبر سجيِّ الطفل الإلهي ، نقل لمريم وليوسف الاسم المعطى من الله للمسيح ، كما فسر بالتحديد ما هو معناه : او تدعوه اسمه يسوع لأنَّه يخلص شعبه من خططيتهم . ^٣ وبما أنَّ هذا الطفل هو كلمة الله ، كان من الضروري ان يتكلم اسمه ويعبر لنا بشكل رائع عن المهد الإلهي من مجده .

من الواضح ان جبرائيل تحدث الى مريم و يوسف باللغة الأرامية ، وهي العبرية الدارجة ، كما يُرجح أنه بواسطة هذه اللغة ، جرت ، لأول مرة ، الكرازة بال المسيح في القرن الأول . إن مثل هذا الاستخدام المسيحي للأرامية في وقت مبكر ، له نتائجه ، كما سنرى ، لأنها تشبه العربية في كونها لغة سامية أيضًا .

إلا أنَّ الرسل سرعان ما اكتشفوا أن اليونانية ، ثم في وقت لاحق اللاتينية ، كانتا تُفهمان على نطاق أوسع - لذا قادهم الروح القدس الى كتابة الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، باللغة اليونانية - وهكذا ، بواسطة هاتين اللغتين الكلاسيكيتين ، تمكن معظم سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط ، بمن فيهم أمازيغيو إفريقيا الشمالية ، ان يسمعوا بشارة الانجيل لأول مرة .

كان كلَّ من الأفارقة والأوروبيين يواجهون صعوبة بالغة في لفظ اسم ربنا باللغة الأرامية : يشوع . وبما ان اللغتين اليونانية واللاتينية تفترقان الى اللفظة ش ، استعاضا عنها باللفظة س . كذلك فإن هاتين اللغتين تفترقان ايضاً في ابجديتهما الى ما يوازي الحرف الصامت السامي ع ، الذي يقع في آخر اسم ربنا . كما انهما تتميزان بخاصة أخرى : على الأسماء المذكورة بشكل عام أن تنتهي باللفظة OS - (بالنسبة الى اليونانية) ، او باللفظة IIS - (بالنسبة الى اللاتينية) . ^٤

و هذا يفسر إشارة الرسل ، الذين يتحدثون اليونانية ، الى المسيح بالعبارة يسوس . ^٥ كذلك ، فالذين يتكلمون اللاتينية لفظوا هذا الاسم بالطريقة عينها ، و كتبوه على الشكل التالي Jesus . (الحرف اللاتيني J يوازي اللفظة ي) كان هذا ، في الواقع ، أقرب ما توصلت إليه هاتين اللغتين من الصيغة الأصلية للاسم باللغة الأرامية ، بعد إضافة اللاحقة (suffix) إليها والتي يفرضها علم الصرف والنحو لكل لغة . ^٦

إذا يبدو أن العبارة المكتوبة ، Jesus ، واللفظة يسوس ، كانت هي التسمية التي بها عرف بهم كل من ترطيلاتوس و كيريلاتوس و أغسطينوس ، بالإضافة إلى سائر المسيحيين الأولين من الأفارقة . كما أن الدونانيين و سواهم من الذين استخدمو اللغة الأمازيغية للتثبيت و العبادة ، كانوا ، على ما تأكّد ، يلفظونها بالطريقة نفسها : فالإنجيل وصل إليهم عبر اللاتينية ، كما ان اللهجات الأمازيغية لم تكن في الأصل تحوي على الحرف الأرامي او العربي .

ان الاسم عيسى ، ادخله المسلمون الى إفريقيا الشمالية ، وذلك ابتداء من القرن السابع . و قبل محمد ، لم يكن يوجد أي أثر لهذا الاسم في أي جزء من العالم ؛ كما انه لا توجد أية إشارة على الاطلاق الى أصله أو الى معناه ؛ ولذلك يبدو ان محمدًا هو أول من استعمل هذا الاسم . لقد اعتبر بعضهم أن عيسى هو تشويه عرضي للاسم يشوع ، لكن لا توجد أية دلائل على أن أحدًا آخر غير محمد قد يكون أحدث هذا التشويه في الاسم . ان العبارة عيسى تبدو لأول وهلة مشابهة للاسم الأساس للمسيح . فهو عند كتابته يحتوي على الحروف نفسها تقريبًا . لكنها مبعثرة ، و الى حد ما معكوسة ، حتى إنها صارت تختلف في اللغة العربية جذريًّا مختلفًا تماماً . و بحسب قواعد اللغة العربية ، لا يوجد أي تجانس صرفي بين الكلمتين عيسى و يشوع .

إن سبب اعتماد محمد هذا الاسم أمرٌ غير واضح ، خصوصاً و انه كان هناك العديد من المسيحيين الذين يتكلّمون الأرامية في الجزيرة العربية و في سوريا حيث عاش محمد و تنقل في شبابه . كانت الأرامية هي اللغة الرائجة في ذلك الحين ، او انها كانت لغة المعاملات التجارية في كل من فلسطين والجزيرة العربية ، واستمرت كذلك بعد موت محمد بوقت طويل . وفي أيام محمد ، كانت الجماعات المسيحية العربية شديدة الرسوخ بإيمانها و واسعة الانتشار ، و هذا الأمر مدحوم بوثائق بيّنات . لقد شبَّ محمد وثنياً ، لكنه معروف عنه انه كانت له ، في ما بعد علاقة مع مسيحيين من اليونان ، حتى إنه كان يملك جارية من المسيحيين الأقباط . كان باستطاعة المسيحيين حواليه ان ينقلوا إليه الاسم الحقيقي ليسوع كما كان معروفاً و مستخدماً في كل أنحاء الشرق الأدنى ..⁷

فالإنجيل ، في الواقع ، وصل الى شبه الجزيرة العربية في وقت مبكر جداً . لقد سمع الزائرون من الجزيرة العربية البشارة التي قدمها بطرس في يوم الخمسين في اورشليم و التي أعلنت بداية الكنيسة المسيحية ، كما انهم كانوا ، على الأرجح ، في عدد الثلاثة الآلاف الذين آنسوا في ذلك الحين .⁸ لم يكن المسيحيون العرب ، في أي وقت من الأوقات ، معزولين عن التقاليد الرسولية المتّمة عند إخوتهم في انطاكية و دمشق و الإسكندرية . وعندما أراد شاول الطرسوني ، الذي كان قد اهتدى حديثاً الى المسيحية ، ان يفكّر أو أن يصلّي ، انطلق

إلى الجزيرة العربية التي كانت قريبة .⁹ كما أن أوريجانوس سافر أكثر من مرة نحو العام 250 م ، و انتقل من تبصربة على شاطئ فلسطين ، متوجهاً إلى شمال الجزيرة العربية ، و ذلك في سبيل مساعدة القادة المسيحيين العرب على معالجة بعض المسائل الطارئة عندهم و على حلها . كما أن نظاراً عرباً كانوا حاضرين في مؤتمر نيقا (325 م) ، وأورشليم (335 م) .¹⁰

في أيامنا ، لا تزال الكنائس العربية المزدهرة في عدة أماكن ، تحتفظ بالإيمان الرسولي وبالاسم الحقيقي للمسيح . لقد ظلل المسيحيون العرب على مدى فترة ستة مئة سنة قبل محمد ، يطلقون على مخلصهم الاسم يشوع أو يسوع .¹¹ وبقوا كذلك على طول الألف والأربع مئة سنة التالية .

وإذ لاحظ المسيحيون العرب أنه كان يصعب على الكثييرين أن يلفظوا الاسم الأرامي يسوع ، حذوا حذو الرسل في اتصالاتهم بالعالم الواسع ، فاستخدمو العبارة يسوس للإشارة إلى يسوع باليونانية واللاتينية ، كما استخدمو التسمية Jésus في الأرمنية الحديثة أيضاً . من أجل هذا ، تجد أن ترجمات عصرية عديدة للعهد الجديد تستخدم اللاحقة -ous . من النص اليوناني المكتوب ، بينما تفضل ترجمات أخرى العودة إلى حرف ع من الأرامية المحكية . و هذا الاختيار يتعلق إلى حد كبير بكون اللغة تستوي ، أم لا ، على الحرف ع . إننا نجد في كل من Jésus الفرنسية ، و يسوع العربية خير تعبير صحيح عن اسم المسيح . فأحدهما يتبع الاسم المكتوب الذي أطلقه عليه الرسل ؛ بينما الآخر يشير إلى التسمية التي تفوه بها الملائكة ، بالإضافة إلى جماعة التلاميذ الأولين .

ملاحظات

- 1- هبرانيين 4:1
- 2- فيليبي 9:2
- 3- لوقا 31:1-21 . يشوع هي اللفظة المرخصة للاسم العبراني الكلاسيكي يهوشوع بمعنى «يهوه يخلاص» .
- 4- من هنا نجد في الكتاب المقدس أسماء يونانية من تحوبيوس (Paulos) ، بطرس (Petros) ، واستفانوس (Stephanos) ، وأيضاً أسماء لاتينية مثل ماركوس (Marcus) ، اغسطسوس (Augustus) ويوهانوس (Julius) .
- 5- لو يحسب بعض العلماء ، يسوس (Yassous) لو حتى أيضًا يسوس (Yaïssous) .
- 6- في القرن الأول ، كان الحرف اللاتيني ل ينطق ي ، وبحور القرون في بعض الأماكن ، تغير تدريجياً إلى ج . وبما أن الكتابة اللاتينية كانت تُستعمل في الترجمات الأولى للكتاب المقدس ، أصبح القراء متعددين على نطق الاسم هكذا : جيسوس أو جيزو .

كذلك ، يوجد أيضاً كلمات أخرى من أصل لاتيني مثل :

(Jérusalem, Jean, Jacques, Janvier, Juin, juste)

و جميعها كانت في الأساس تبدأ باللغة اليهودية .

7- Trimingham (عدة اقتباسات) ed. Brockelmann pp. 10 - 11, 14;

8- أعمال 11:2

9- غلاطية 17:1

Eusebius, *Historia Ecclesiae* VI . 33,37; *Vita Constantini*, 7, 43 - 10

(NAPNF Vol. 1)

11- كانت ولا تزال بعض الاختلافات الطفيفة في اللفظ في أنحاء متعددة من الشرق الأوسط . اننا نفهم من قصة 6:12

كيف أن العبارة شبيهات كانت تُلفظ سبّولت في بعض الأماكن . لقد كان من الصعب على الأنراميين أن ينطقوا الصوت من . إن الأمر عليه ينطبق أيضاً على اسم يسوع . فبعض الناس يدعونه يشوع ، وبعضهم الآخر يدّعونه يسوع ، وكلاهما صحيحان .

إن الآيات التالية تظهر قيمة عظيمة يعطيها الكتاب المقدس لاسم المخلص :

متى 18:18 ; يوحنا 3:18 ; أعمال 12:4 ; 17:3 ; كولوسي 1:14 ; بطرس 1:23 ; يوحنا 3:14;

. روما 13:2 ; 8:3 .

اسئلة للبحث و النقاش

ان الآيات الكتابية المدرجة بين فوسين ، تكمل تلك المذكورة في نص الكتاب

الجزء الأول : الشمار الأولى

* برأيك ، هل كانت يرثيتسوا على حق في بذلها حياتها ، و ذلك على الرغم من ترسّلات أيها و احتياجات طفلها إليها ؟ (متى 10:37 - 39 ؛ أعمال 4:18 - 20) .

* أي تعليم قد تعرض على مسيحي يعيش في خوف من الشياطين ، و العين الشريرة أو السحر الذي قد يقع عليه بواسطة آخرين ؟ (مرقس 1:25 - 27 ؛ أعمال 16:18 ؛ 1 كورنثوس 16:3 و 17 ؛ 1 يوحنا 4:4 ، 18) .

* ماذا تقول لمن يدعى بأنه مسيحي لكنه يحمل عليه تعازف ، و يتبع خرافات باطلة قديمة ، أو يمارس خطايا جنسية أو يسكر ؟ (أعمال 19:18 - 20 ؛ 1 كورنثوس 18:10 - 22 ؛ 2 كورنثوس 6:16 - 1:7 ؛ رومية 1:32 ؛ أفسس 3:5 - 20) .

الجزء الثاني : عصر ترتوليانوس

* في أيامنا هذه ، أية اشتغال او حرف او مهن قد لا تلامس المسيحي ؟ (غلاطية 6:7 و 8 ؛ 1 تيموثاوس 5:24 و 25 ؛ 6:6 - 12 ؛ 1 بطرس 3:10 - 16 ؛ 2 بطرس 17:3 و 18) .

* هل على المسيحيين أن يعنوا بمسائل اجتماعية تتعلق بعدم المساواة بين الناس ؟ هل على المسيحيين أن يكون لهم أية روابط بالأحزاب السياسية ؟ (يوحنا 18:36 ؛ 1 كورنثوس 7:20 - 24) .

* برأيك ، هل يجوز للمسيحيين ان ينخرطوا في الجيش ، او في أية قوى عسكرية أخرى ؟ أعرض الأسباب الموجة . (يوحنا 18:36 ؛ متى 5:39 - 44 ؛ راجع الفصل الخامس)

* برأيك ، هل كان ترنيمانوس على حق في انصمامه الى الموتانيين ؟ هل كان على حق في تركهم ؟ على أي أساس ، قد تفصل أنت شخصياً عن مجموعة يفترض فيها أن تكون مسيحية ؟ (متى 4:24 و 5 ، 23 - 25 ؛ 1 تيموثاوس 1:4 - 5 ؛ 3 يوحنا 9 - 11 ؛ راجع الفصل السابع)

* هل يجوز أن تطلق على كنيستنا التسمية « رسولية » ؟ إن كان نعم ، لماذا ؟ كيف بإمكاننا أن نضمن أنها ستبقى وتستمر « رسولية » ؟ (2 تيموثاوس 11:1 - 10:3 ؛ 14 - 5:4 ؛ راجع الفصل الثامن)

* كيف علينا أن نستجيب للسلطات التي تربينا أن نكر المسيح ؟ (1 بطرس 13:3 - 12:4 ؛ 18 - 19 ؛ أعمال 18:4 - 21 ؛ 40:5 - 42 ؛ رومية 17:12 - 21 ؛ 1 تيموثاوس 1:2 - 7 ؛ 1 بطرس 13:2 - 25)

* كيف نشجع أولئك الذين يعانون الاضطهاد من أجل إيمانهم ؟ (رومية 8:8 - 39 ؛ فلبي 12:1 - 30 ؛ 1 تسالونيكي 1:2 - 20 ؛ 2 تيموثاوس 8:2 - 13)

الجزء الثالث : عصر كبريانوس

* أية أصناف من الناس يحتاجون يعيشون حوالينا ؟ هل بإمكانك أن تفكّر في بعض الطرق والأسباب لمساعدة المحتاجين ؟ (يعقوب 27:1 - 14:2 ؛ 17)

* كيف نذبح بشارة الإنجيل في كل أنحاء بلادنا ؟ كيف نستطيع أن نساعد الناس على الإيمان باليسع ؟ (2 كورنثوس 1:4 - 6 ؛ رومية 11:1 - 17 ؛ 13:10 ؛ 17 - 20:15 ؛ أعمال 1:13 - 3 ؛ 1 كورنثوس 19:9 - 23)

* كيف نعيّن قادة في كنائسنا ؟ أي صنف من الناس نقدر أن نألفهم على المسؤولية الروحية ؟ (أعمال 6:3 - 6 ؛ 1 تيموثاوس 1:3 - 13)

- * كيف ينبغي على القادة الروحيين أن ينظروا إلى مسؤولياتهم؟ أية نظرة يجب أن تكون عند المسيحيين من نحو الشیوخ في كنائسهم المحلية؟ (عبرانيين 7:13 ، 17؛ بطرس 1:5 - 5)
- * كيف تشجع كل واحد على المشاركة في عبادة الكنيسة وشركتها؟ هل يوجد ما يستطيع كل واحد منّا أن يساهم به؟ (رومية 3:12 - 8 ، 13:15 و 14 ، 1 تسالونيكي 9:4 و 10 ، عبرانيين 12:3 و 13:4 و 25)
- * كيف على المثقفين وغير المثقفين ، الأغنياء والفقرا ، أن يختلطوا معًا ضمن الكنيسة المحلية؟ (رومية 1:12 - 3 ، 9 و 10 ، 16 ، 16:1 - 10 ، يعقوب 1:2 - 10)
- * كيف تحمل المؤمنين المثقفين والمشهورين (أمثال أرسطو) يندمجون في الكنيسة ، في الوقت الذي لا يعرفون إلا الشيء القليل من التعليم المسيحي؟ (أعمال 26:9 - 28)

الجزء الرابع : عصر أسطفانوس

- * كيف ثاروا التأديب في وسط الكنيسة؟ ما العمل في حال سقط أحد المؤمنين المشهورين جداً في خطبة شديدة؟ (يعقوب 19:5 و 20 ، غلاطية 1:6 ، 1 كورنثوس 9:5 - 13)
- * ما العمل في حال قام أحدهم بإدخال عقيدة جديدة معيبة إلى الكنيسة؟ (رومية 1:14 - 23 ، 2 تيموثاوس 14:2 - 19 ، 23 - 26: 1 يوحنا 1:4 - 6)
- * ما العمل في حال أصرّ أحدهم على تعليم عقائد مغلوبة؟ (رومية 17:16 - 20 ، 2 يوحنا 7 - 11 ، غلاطية 1:6 - 10 ، 2 كورنثوس 13:11 - 15 ، 1 تيموثاوس 3:1 - 7 ، تيطس 3:9 - 11)
- * كيف يامكان ما استظرفناه من آيات كتابية أن يساعدنا في وقت الأزمات؟ كيف تقدر أن نساعد بعضنا بعضاً على حفظ كلمة الله غيّراً؟ (يوحنا 26:14 ، 2 تيموثاوس 16:3 و 17 ، رومية 4:15 ، كولوسي 16:3)
- * لماذا حُلّز المؤمنون من الزواج بغير المؤمنين؟ وهل هذه الأسباب تطبق علينا اليوم تحنن أيضاً؟ (2 كورنثوس 14:6 - 18 ، راجع الفصل السادس والعشرين)

الجزء الخامس : المصاد الأخير

* هل يوجد تقاليد في كنائسنا : ممارسات وعادات غير مذكورة في الكتاب المقدس ؟ هل جميع التقاليد هي سليمة ؟ هل بوسعنا أن نميز بين تقليد جيد وتقليد سيء ؟ إن كان نعم ، كيف ؟ (مرقس 9:7 - 13 ; كولوسي 8:2 ، 1 كورنثوس 11:1 و 2 ، 2 تسالونيكي 6:3 و 7 ، 15:2)

* آية لغة هي مفهومة و مدركة عند معظم أعضاء الكنيسة ؟ آية لغة نستخدمها في اجتماعاتنا : لأجل الصلاة و العبادة و البحث و التعليم ؟ لماذا ؟ هل باستطاعتنا أن نستخدم أكثر من لغة واحدة ؟ هل يجوز أن نعقد اجتماعات مختلفة نستخدم فيها لغات مختلفة ؟ (كورنثوس 7:14 - 12)

* على عتبة الاستيطان العربي ، فــ بعض القادة المسيحيين هاربين ، و فــ معهم أيضــاً قوم من المثقفين . وبذلك خلــقوا وراءهم كنائــس ضعيفة للغاية ! هل تعرف مسيحيــين يرغيــبون في الفرار لأجل الاستقرار في أماكن أــسهل ؟ هل هــم في ذلك على حق ؟ ماذا يــلاقــ بهم أن يتذــكرــوا ؟ (مرقس 50:14 ، لوقا 23:9 - 27 ، فيليبي 21:1 ، نحــما 11:6 . راجــع اعمال 13:13 ، 37:15 و 38)

* كيف ينبغي على المسيحي أن ينظر إلى غاز مسلح يهدف إلى نرض ديانــته الجديدة بقوة السلاح ؟ كيف كان يجب على الأمازيــيين المسيــحــيين أن يستقبلــوا العرب ؟ هل كان عليهم أن يستسلمــوا لهم ، أو يــحارــبــهم ، أو أن لا يــتعاونــوا معــهم ، فــيرــفضــوا أن يــدفعــوا لهم الجــزــية ، أو يــزوــدــوــهم بالطــعام ... الخ ؟ هل كان عليهم أن يــدفعــوا الجــزــية ثم يــصــلــدوا ؟ هل كان عليهم أن يــقــلــدوا الإسلام بشكل ظــاهــري في وقت لا يــزالــون يــؤــمــنــون بالإنجـــيل ســراً ؟ كيف كنت ستتصــرف في ظــروفــ مــاثــلةــ لهذه ؟ (مرقس 14:12 - 17 ، يــوحــنا 18:18 - 36 ، رومية 1:16)

* في حديثــا عن مــخلــصــتنا ، أي اسم له يجب أن نــتــخدــم ؟ لماذا ؟ و بماذا نــدعــوه عندما نــتكلــمــ إلى أــنــاســ يــعــرــفــونــهــ باسم آخر ؟ (متــى 21:1 ، لوقــا 21:2 ، فيــليــبي 9:2 ، متــى 20:18 ، يــوحــنا 18:3 ، كــولــوــســي 17:3 ، 1 بــطــرســ 14:4 ، 1 يــوحــنا 23:3 ، روــيا 13:2 ، 8:3 ، راجــع الملحق الرابع)

* ما هو الــهــدــفــ من وجود كــيــســتناــ المــحلــبةــ ؟ ماذا نــحــنــ فــاعــلــونــ لــلــمســاــهــمــ في تــفــيــذــ هــذــاــ الــهــدــفــ ؟ (متــى 39:22 ، 37:22 ، 19:28 ، اــعــمــالــ 31:9 ، 1 كــورــنــثــوســ 58:15 ، 2 كــورــنــثــوســ 17:14:2 ، رومية 15:17 ، 21:17:15)

المراجع البيبليوغرافية

الاختصارات

- ed. Roberts & Donaldson, Ante-Nicene Fathers Series (Eerdmans): *ANF*
 ed. Schaff, Nicene & Post Nicene Fathers Series (Eerdmans): *NAPNF*
 ed. Bettenson, Documents of the Christian Church (OUP): *DOTCC*
 ed. Bettenson, The Early Christian Fathers (OUP): *ECF*
 Schaff, History of the Christian Church (Eerdmans): *HOTCC*
 Augustine, City of God: *COG*

1- إفريقيا الشمالية

أبو ضيف مصطفى أحمد : «تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط» تحقيق للكتاب
 (نهاية الأدب في فنون الأدب» للنويري (دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1985)

- AHERDAN *Aguns' N Tillas 'Au Coeur des Ténèbres* '
 (Rabat 1985)
- AKHMISSÉ Mustapha *Médecine, Magie et Sorcellerie au Maroc*
 (Casablanca, 1985)
- Ali AMAHAN *Abadou de Ghoudama, Haut Atlas Marocain*
 (GLECS, Paris, 1983)
- Albert AYACHE *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*
 (Editions Sociales, Paris, 1964)
- Sir Gavin de BEER *Hannibal: The Struggle for Power in the Mediterranean* (Book Club Associates, London, 1969)
- ed. Carl BROCKELMANN *History of the Islamic Peoples*
 (Routledge, London, 1948)
- Dugald CAMPBELL *With the Bible in North Africa* (John Ritchie,
 Kilmarnock, 1944)
- Gabriel CAMPS *Berbères aux Marges de l'Histoire* (Editions des Hesperides, 1980)
- ed. Gabriel CAMPS *Encyclopédie Berbère* (Edisud, La Calade,
 13090 Aix-en-Provence, France, 1984-)
- John K. COOLEY *Baal, Christ and Mohammed: Religion &*

- Revolution in North Africa* (John Murray, UK, 1965; Holt Rinehart & Winston, USA, 1965)
- Carleton S. COON *Tribes of the Rif* (Harvard African Studies, 1931) (Kraus Reprint, New York, 1970)
- I.M. DIAKONOFF *Semito-Hamitic Languages* (Nauka Publishing House, Moscow, 1965)
- FODOR'S GUIDE TO NORTH AFRICA
- Jean GABUS *Au Sahara, Arts et Symboles* (Neuchatel, 1958)
- Lionel GALAND *Langue et Littérature Berbères* (CNRS, 15 Quai Anatole-France, 75700 PARIS, 1979)
- Ernest GELLNER *Muslim Society* (C.U.P., 1981)
- Eugene GUERNIER *La Berbérie, L'Islam et la France, Tome I* (Paris, 1950)
- S. HANOUZ *Connaissance et Syntaxe du Langage des Berbères* (Klincksieck, Paris, 1968)
- Donald HARDEN *The Phoenicians* (Penguin Books, Harmondsworth, 1971)
- David M. HART *The Aith-Warayaghur of the Moroccan Rif* (University of Arizona Press, 1976)

ابن خلدون - كتاب العبر . . . (دار الكتاب اللبناني 1959)

- Charles-André JULIEN *Histoire de l'Afrique du Nord*, Tomes I et II (2^eme edition-ed. Courtois / Tourneau, Payot, Paris, 1986)
- Emile LAOUST *Mots et Choses Berbères* (Société Marocain d'Edition, 1918; reprint Rabat, 1983)
- Paul MACKENDRICK *The North African Stones Speak* (Croom Helm, London/Univ. of North Carolina, 1980)
- Cyril MANGO *Byzantium - The Empire of the New Rome* (Weidenfield, 1980)
- Robert MANTRAN *L'Expansion Musulmane* (VII-XI siècles) (Presses Universitaires de France, 1969)
- Budgett MEAKIN *The Moorish Empire* (Swan Sonnenschein, 1899)
- Sabatino MOSCATI *The World of the Phoenicians* (Sphere Books, London, 1973)
- H.T. NORRIS *The Berbers in Arabic Literature* (Longman, 1982)

- OUAHMI Ould-Brahim *Sur Une Chronique Arabo-Berbère des Ibadites Médiévaux* (Etudes et Documents Berbères No. 4, 1988)
- Northcote PARKINSON *East and West* (John Murray, London, 1963)
- Hassan RACHIK *Sacré et Sacrifice dans le Haut Atlas Marocain*
(Afrique-Orient, Casablanca, 1989)
- Susan RAVEN *Rome in Africa* (Routledge, 1993)
- Jean SERVIER *Tradition et Civilisation Berbères*
(Edition du Rocher, Monaco, 1985)
- J.S. TRIMINGHAM *Christianity Among the Arabs in PreIslamic Times*
(Longman, 1979)
- Bat YEOR *The Dhimmi - Jews and Christians Under Islam* (Associated University Presses, 1985)

2- تاريخ الكنيسة

- Roland ALLEN *The Spontaneous Expansion of the Church* (Eerdmans, 1927, 1962)
- AUGUSTINE of HIPPO *Confessions of St. Augustine*
(trans. PINE-COFFIN, Penguin, 1961)
City of God (trans. BETTENSON, Penguin, 1972)
- Roland BANTON *The Penguin History of Christianity* Vol. I
(Penguin, 1967)
- T.D. BARNES *Tertullian: A Historical and Literary Study*
(Oxford University Press, 1971/1985)
- ed. Geoffrey BARRACLOUGH *The Times Concise Atlas of World History* (Times Books, London, 1982)
- Herman BAVINCK *The Doctrine of God*, trans. Hendrickse
(Eerdmans / Banner of Truth, 1951 / 1977)
- ed. H. BETTENSON *Documents of the Christian Church*
(O.U.P. 1943)
The Early Christian Fathers (O.U.P. 1956)
The Later Christian Fathers (O.U.P. 1970)
- G. BONNER *St. Augustine of Hippo: Life & Controversies*
(SCM, 1963)
- Peter BROWN *Augustine of Hippo* (Faber, 1967)
- F.F. BRUCE *The Spreading Flame* (Paternoster, 1958)

- Henry CHADWICK *Augustine* (OUP, 1986)
- W.R. CLARK *Saint Augustine* (SPCK, no date)
- J.J. COOKSEY *The Land of the Vanished Church* (World Dominion Press, no date)
- Arthur C. CUSTANCE *Belief in One God or Many Gods: Which Came First?* (Doorway Paper No. 34) (Box 291, Brockville, Ontario, Canada, 1968)
- How Noah's Three Sons Influenced History* (Doorway Paper No. 28)
- Louis DELAPORTE *Atlas Historique, Tome I-L'Antiquité* (Paris, 1955)
- ed. DUDLEY/LANG *The Penguin Companion to Literature* Vol. IV: *Classical and Byzantine, Oriental and African* (Harmondsworth, 1969)
- Mark EDWARDS *Opitatus, Against the Donatists* (Liverpool University Press, 1997)
- Paul-Albert FEVRIER *Approches du Maghreb Romain, Tome I: Pouvoirs, Différences et Conflits* (Aix-en-Provence, 1989)
- Augustine FITZGERALD *The Letters of Synesius of Cyrene* (Oxford U. P., 1926)
- F.J. FOAKES-JACKSON *History of the Christian Church to AD 461* (J. Hall & Son, Cambridge, 5th edition 1909)
- Roger FORSTER & Paul MARSTON *God's Strategy in Human History* (STL, 1973)
- W.H.C. FREND *The Donatist Church* (Clarendon Press, Oxford, 1952)
- Martyrdom and Persecution in the Early Church* (Blackwell, Oxford, 1965)
- Michael GREEN *Evangelism in the Early Church* (Hodder & Stoughton, London, 1970)
- A.G. HAMMAN *La Vie Quotidienne en Afrique du Nord au Temps de Saint Augustin* (Hachette, Paris, 1979)
- Edward Roche HARDY *Faithful Witnesses - records of Early Christian Martyrs* (Lutterworth, London, 1960)
- Adolf HARNACK *Trans. Moffatt - The Mission and Expansion of Christianity in the first three Centuries* (William and Norgate, 1908)
- K.S. LATOURETTE *A History of the Expansion of Christianity:*

-
- Vol. I** *The First Five Centuries* (Eyre & Spottiswood , 1945)
- Vol. II** *The Thousand Years of Uncertainty*
(Eyre & Spottiswood, 1945)
- H. LECLERCQ *L'Afrique Chrétienne*, Tomes I et II
(Paris, 1904)
- ed. John LEINENWEBER *Letters of Saint Augustine*
(Triumph Books, New York, 1992)
- Julius LLOYD *The North African Church*. (SPCK, 1880)
- Paul MONCEAUX *Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne*,
Tomes I-VII (Paris, 1901)
- John MOORHEAD *Victor of Vita, History of the Vandal Persecution*
(Liverpool University Press, 1992)
- Herbert MUSURILLO *The Acts of the Christian Martyrs* (Clarendon, Oxford, 1972)
- Stephen NEILL. *The Pelican History of the Church Vol. VI: A
History of Christian Missions* (Penguin, 1964)
- Donald L. NORBIE *New Testament Church Organization*
(Walterick Publishers, P.O.Box 2216, Kansas City, Kansas 66110, 1977)
- The Early Church* (Christian Missions Press Inc. P.O.Box 4848.
Homosassa Springs, Florida 32647, 1983)
- John O'MEARA. *Introduction to "AUGUSTINE - The City of
God"* (Penguin, 1972)
- A. PLUMMER *The Church of the Early Fathers* (Longmans
Green & Co, 1891)
- E. PORTALIE *A Guide to the Thought of St. Augustine* (1960)
- ed. E. PRZYWARA *An Augustine Synthesis* (Harper & Bros.,
New York, 1958)
- Don RICHARDSON *Eternity in Their Hearts* (Regal Books,
California, 1981, 1984)
- eds. A. ROBERTS & J. DONALDSON *Ante-Nicene Fathers:
The Writings of the Fathers down to AD 325*, Vols. I-X (Eerd-
mans, Grand Rapids / T. & T. Clark, Edinburgh, 1885, reprint
1989/90)
- J.C. ROBERTSON *Sketches of Church History* (SPCK, no
date)

- Phillip SCHAFF *History of the Christian Church*, Vols. I-III
 (Eerdmans, Grand Rapids, 5th edn. 1889, reprint 1989)
- ed. Phillip SCHAFF *The Nicene & Post-Nicene Fathers*, Series I,
 Augustine, Vols. I-XIII (Eerdmans, Grand Rapids / T. & T.
 Clark, Edinburgh, 1887, reprint 1991)
- eds. Phillip SCHAFF & Henry WACE *The Nicene & Post -Nicene
 Fathers*, Series 2, Vol. I: *Eusebius* (Eerdmans, Grand
 Rapids / T. & T. Clark, Edinburgh, 1890, reprint 1991)
- Calvin E. SHENK *The Demise of the Church in North Africa and Nubia*
 (Missiology Vol. 21 No. 2, 1993)
- eds. Maxwell STANIFORTH & Andrew LOUTH *Early Christian
 Writings* (Penguin, 1968/1987)
- ed. J. STEVENSON *A New Eusebius: Documents Illustrating
 the History of the Church to AD 337* (SPCK, 1957/1987)
- Alexander STRAUCH *Biblical Eldership* (Lewis & Roth,
 Littleton, Colorado 80125-9761, 1986)
- ed. Henri TEISSIER *Histoire des Chrétiens d'Afrique du Nord*
 (Desclée, Paris, 1991)
- Maureen TILLEY *Donatist Martyr Stories* (Liverpool University Press, 1996)
- G.S.M. WALKER *The Growing Storm* (Paternoster, 1961)
The Churchmanship of St. Cyprian (Lutterworth, 1968)
- David WRIGHT *Montanism: A Movement of Spiritual Renewal?*
 (Theological Renewal No. 22, Grove Books, Nottingham, Nov. 1982)

الفهرس

الإياصيون (طائفة إسلامية) الأرامية (لغة) أپناتوس (كاتب كاثوليكي) ابن خلدون الأناء ، الموقف المسيحي منهم أبوكريفا (كتابات مسيحية قديمة موضوعة) أبوليوس (كاتب وثني) أبيبينا (تونس) أناناسيوس إثيوبيا الأحد ، موقف المسيحيين منه إنثوس (سمكة) : عالمة رمزية الأديرة أدريوداتس (ابن أغسطينوس) إراسموس (لاهوتي) الأرامل ، عنابة المسيحيين بهم الأرثوذكسية ، الكنيسة أرمنيا أرنوبيوس أرواح شريرة ، الخوف منها طردها إرمانيوس الأريوسية (النزعه) إزيس (إلهة مصرية)	402 417, 416 252, 240 401, 374, 371, 369, 34 332, 66 97 404 234, 213-212 315, 225, 97 417, 315, 153 304, 72 29 342, 227-226 280, 274, 272, 268, 262 255 166, 164, 155, 124, 75-73, 65-64, 51 365 214 321, 293, 224-219 335, 136, 38-35 224, 87, 43 321, 312, 259, 204, 198, 135, 98 357, 315, 290 45
--	---

-
- اسبانيا ، مظاهر المسيحية الأولى فيها 204، 202
 الاستشهاد ، الموقف المسيحي منه 210-208، 137-131
 تأثيره على المفترجين 181، 140-137، 20
 استيفانوس (ناظر في روما) 259، 200-199
 الإسكندرية ، الكنيسة فيها 314، 225، 197-196، 116
 الأضطهاد ، أسبابه 129 - 122
 رد فعل المسيحيين تجاهه 173-172، 158-157، 140-131، 118-108
 أغسطينوس ، اهتداؤه 270-260
 أسلوب حياته 280-274
 مسؤولياته الكنسية 307-304، 275
 شخصيته 282، 277، 265
 مهاراته الوعظية 305، 284-283
 كتاباته 286-285
 أصوله الأمارينية 281-280
 إغناطيوس 165، 152، 109
 أفلاطون 42
 الأقباط 315
 إقليمندوس (الروماني) 321، 197، 135، 87
 إقليمندوس (الإسكندرى) 198-197، 165، 97
 الأرك (قائد قوطي) 292
 الله : إيمان الأمازيغيين القدماء 45، 40-39
 بوحدانيته
 الجدل بخصوص طبيعته 319-314، 104-100
 تعينيه المسبق لخلاص الإنسان 414-412، 322-320
 سماحة للإرادة الحرة عند الإنسان 413، 323-319، 100-99
 نعمته ورحمته وغفرانه 414-412
 رعايته وعنايته 384-380، 326-323

- أليبيوس (صديق أغسططينوس)
الأمازيغيون ، تاريخهم القديم
دينهم الوثنى
الأصول المبكرة للمسيحية عندهم
الكتاب المسيحيون المشهورون منهم
الأمازيغية (اللغة) ، تاريخها
الأفاظ الدالة على «الله» فيها
الإمبراطورية البيزنطية
الإمبراطورية الرومانية ،
سياساتها الوثنية
المسيحية فيها
أمبروزيوس (ناظر في ميلاتو)
إمريتوس (الشهيد)
إستيتيا (امرأة مسيحية)
أنطونيوس (ناسك مصرى)
أوتيكا (تونس)
أوئما (تونس)
أوري (قبيلة أمازيغية)
أوريجانوس ، حياته وشخصيته
مؤلفاته
أوزريس (إله مصرى)
أوستيا (إيطاليا)
أوكوتامي (قبيلة أمازيغية)
إيكوسيوم (الجزائر)
البابا ، أصول اللقب والمنصب
باسيليكا (بنية مسيحية)
برغواطا (قبيلة أمازيغية)
- 275-272, 270-268, 246
409-399, 32-26
45-33
365, 361-359, 207-201, 121, 53-50
280, 224-219, 146, 85
409-406
402, 44, 39
364-360
171, 129-125
394, 203-202, 52-51
332, 286, 273, 267-266, 259, 60
212
310
226-225
175-174
53
376, 369
418, 119, 117-116, 92-91, 87
321, 199, 197, 135, 98, 78, 62
45
273
202
241
350-347, 200-198
362, 340, 307-304, 279
402, 374

- برنابا ، رسالته 106, 97
 بمحاجة (الجزائر) 377, 357
 بعل آمون (الله فينيقي) 40-39
 البكري (عالم أندلسي) 409, 402, 376
 بلاتيدينا (الشهيدة) 112
 بلساريوس (قائد بيزنطي) 360
 بنو هلال (قبيلة عربية) 371-370
 بونيفاكيوس (حاكم روماني) 357
 بيلياس (الشهيدة) 112
 پاتريكيوس (أب أغسططينوس) 262-260
 پاخوميوس (راهب مصرى) 226
 الپارقلبيط (المعزى) 410, 271, 263
 پارمينيان (قائد دوناتي) 240
 الپاکس رومانا 52-51
 پتيليان (قائد دوناتي) 257 - 247
 پراكسياس (خصم للمتناين) 198, 91-90
 پريپتو (الشهيدة) 63, 25-17
 پروکوبيوس (مؤرخ بيزنطي) 365
 پروکولوس (عبد مسبحى) 115
 بلاجيوس (lahoty) 320-316, 313
 پليني الصغير 129-127
 پليني الكبير 35-34
 پوثينوس (ناظر ليون) 112
 پودنز (حارس سجن) 22-20
 پوسيديوس (كاتب سيرة
 أغسططينوس) 276
 پولس (ناظر في سيرنا) 213

- بوليكاربوس 259, 166, 135, 111-109
- ثانية (الهة فينيقية) 79, 40, 37
- البلل ، الموقف المسيحي منه 343-342, 274, 272, 227-226, 87
- تبرسق (تونس) 246
- تدليس (الجزائر) 407
- ترايان (إمبراطور روماني) 127
- تريليانوس ، اهتماؤه 83-82
- شخصيته 86-84
- مؤلفاته 106-98, 84-83
- تركيا 214, 165, 108, 96, 88
- التقويم السنوي 372, 138
- تلمسان (الجزائر) 377, 375
- تنجيس (المغرب) 207, 202, 181
- تنجيم وأبراج 336, 171, 100, 67
- النوارك (الشعب الأمازيغي الصحراوي) 407, 402, 400, 365, 45
- تونس (المدينة) 378, 375, 51, 31
- تيارت (الجزائر) 375
- نياسا (الجزائر) 241, 216-215, 207, 202, 39
- تيفيناغ (خط أمازيغي) 409-406, 402, 38
- تيكونيوس (معلم دوناتي) 295, 243
- ثاغاست (الجزائر) 281, 275-274, 264-258, 227
- ثاموغادي (الجزائر) 202
- راجع أيضًا تيمقاد
- ثيريومنيس (تونس) 53
- ثرسبيكوم بور (الجزائر) 246
- ثيلس (الجزائر) 280

- ثقت (قبة ، الجزائر) 362, 179
- ثيودوسيوس (إمبراطور روماني) 293, 267
- دقة (تونس) 407
- دكيوس (إمبراطور روماني) 214, 148, 121, 119
- دمشق 417, 369, 46
- الدواريون 243-237
- الدوناتيون 343, 327-326, 300, 294, 257-234
- ديداكي (من الكتابات المسيحية المقدمة) 360, 358
- ديوقلطيانوس (إمبراطور روماني) 215-214, 211-210, 181
- جبل طارق 357, 27
- جبل نفوسه 374
- جراؤة (قبيلة أمازيغية) 369
- جريدة (تونس) 374
- جنسريك (قاتل وندالي) 379, 359-357
- جوبيتر (إله وثنى) 115
- جونو (إله وثنى) 336, 115
- الحيتوليون (مجموعة من القبائل الأمازيغية) 219, 52, 31
- جيروم (كاتب مسيحي) 321, 292, 241, 227, 224, 222, 98, 93
- الجبرة ، الهرير وغليفة فيها 407
- الحج ، ممارسة المسيحيين له 335
- حجر رشيد 407
- الحروب الصليبية 390, 300, 259
- الحرية الدينية 390, 350, 259, 257, 228, 84
- الحسيون (طائفة مسيحية أوروبية) 255

400, 374, 367, 37	الخالدات (جزر)
280	خاي - رو (علامة رمزية)
374	الخوارج (طائفة إسلامية)
51	رأس بون (تونس)
	راعي هرمس (من الكتابات
97	المسيحية المتقدمة)
31	الرباط (المغرب)
407	رشقون (الجزائر)
177	رنوس (الشهيد)
348-347, 200-197, 152, 71	روما ، الكنيسة فيها
403, 360, 35, 26	الريف (منطقة بال المغرب)
41, 39, 35, 21	زحل (إله وثنى)
263	الزردشتيون
	الزناتة (مجموعة من القبائل
400, 371	الأمازيغية)
403	زنبار
336, 41	الزهرة (إلهة وثنية)
313, 309-308, 65-64	الزواج ، الموقف المسيحي منه
277	ساپیدا (امرأة مسيحية)
113	ساترنيوس (بروفصل روماني)
22-19	ساتورس (الشهيد)
241, 216-215	سالسا (الشهيدة)
112	سانكتوس (الشهيد)
376	سبتة (المغرب)
	سبتيروس سيفيروس
232, 115, 83, 30	(إمبراطور روماني)
289, 286, 98	السبعينية (ترجمة للعهد القديم)

112	سبلي (اللهة وثنية)
114-113	سيبراتوس (الشهيد)
366, 113	سيطالة (تونس)
374	سجلماسة (المغرب)
336, 220, 210, 38-34	السحر ، ممارسته و موقف المسيحية منه
223, 219	سكا (تونس)
34	سكيبو (قائد روماني)
113, 53	سكيليمون (تونس)
378, 374, 31	سلا (المغرب)
330	السلف ، الموقف المسيحي منه
267	سمبليسيانوس (مسيحي في ميلاتو)
403	سمعان بار كوخبا (قائد يهودي)
378, 207	سوس (المغرب)
280, 79, 52	سوسة (تونس)
296	سييل (نبية وثنية)
376, 307, 207, 53	سيتيفيس (الجزائر)
345	سينسيوس (ناظر في كورني)
414-412, 320	شبيه - بلاجية
280	شرشال ، متحف
262	الأثار المسيحية فيها
300	راجع أيضاً قصيرة
367, 335, 312-311, 210-209	شرلان (إمبراطور)
290, 262, 34	الشمامسة ، راجع : الكتبة ، قيادتها
402	الشهداء ، بقاياهم
	راجع أيضاً الاضطهاد
	شيشرون
	صالح (قائد ديني أمازيغي)

الصلاة ، تضرعات ودعوات من أجل احتياجات الآخرين 261, 172, 140, 139, 109 136 من أجل الأعداء 222, 156, 62 من أجل السلطات 210, 164, 74 الإرشاد الالهي 310, 276, 274 من أجل الشفاء 212, 18 في السجن 323 استجابة الله لها راجع أيضًا العبادة 79 الصليب (رمز مسيحي) صنهاجة (مجموعة من القبائل) 360 الصوم ، الممارسة المسيحية له الصويرة (المغرب) الضيافة ، نظرة المسيحية لها طرابلس (ليبيا) طنجة (المغرب) راجع أيضًا تنجيس العبادة ، ممارسة المسيحيين لها التعبير عنها بالصلاحة التعبير عنها بالترانيم العبودية ، موقف المسيحية منها العرائش (المغرب) راجع أيضًا ليكسوس العربية (الجزيرة) ، الوصول المبكر 418-417 لل المسيحية إليها العصر الأنفي 135 العصر الحديث الأقرب 399	
---	--

399, 36-35, 33 336, 41 369, 366 298, 286 68-66 390, 257, 180, 127, 68, 62 337, 307-305, 259, 239, 198, 72, 53 336, 80	<p>العصر الحجري</p> <p>عطارد (إله وثنى)</p> <p>عقبة بن نافع (قائد عربي)</p> <p>العلم ، موقف المسيحية منه</p> <p>العمل ، موقف المسيحية منه</p> <p>العنف ، موقف المسيحية منه</p> <p>عيد قيامة المسيح</p> <p>عيد ميلاد المسيح</p> <p>الغارامثيون (مجموعة من القبائل الأمازيغية)</p> <p>غاليريوس (إمبراطور روماني)</p> <p>غدامس (ليبيا)</p> <p>الغنوسطية</p> <p>الغوانتش (أمازغيو جزر الخالدات)</p> <p>خييلدو (قائد أمازيغي)</p> <p>فاس (المغرب)</p> <p>الباطميون (الدولة الإسلامية)</p> <p>فالريان (إمبراطور روماني)</p> <p>فاوستوس (قائد مانوي)</p> <p>فرتونيوس (ناظر دوناتي)</p> <p>فرزان (ليبيا)</p> <p>فكتور (ناظر في روما)</p> <p>فكتوريانوس (مهدى أفلاطوني)</p> <p>فكيك (المغرب)</p> <p>فلافيانوس (الشهيد)</p> <p>فولوبيليس (المغرب)</p> <p>فلوروس (كاتب وثنى)</p>
--	---

280, 278, 79	الفن المسيحي
	الفولغانة (ترجمة لاتينية للكتاب المقدس)
288, 227, 98	فيان (فرنسا)
161, 118, 113-111	فيرمس (قائد أمازيغي)
241	فيلكس (ناظر)
235-234	فيليستاس (الشهيدة)
23-18	الفينيقيون
406-401, 59, 47, 38-36, 27	قبص
47-46	القبور المسيحية
349, 217, 69, 62, 51	القديسون ، أصول الكلمة ومعناها
353	القرطاجيون ، راجع : الفينيقيون
307, 304, 243-233, 231, 215, 70	قسطنطين (إمبراطور روماني)
330	القمر ، موقف المسيحية منه
411-410, 315-314, 305, 197	قوانين الإيان
403, 295, 293-292, 290, 121	القوطيون
377, 375, 369, 367, 52	القيروان (تونس)
358, 254, 241, 207, 202, 30	قيصرية (الجزائر)
418, 199, 117, 91, 48	قيصرية (فلسطين)
320-319	كاسيان (لاهوتي)
181	كاسيانوس (الشهيد)
236, 204, 175	كالاما (الجزائر)
319	كالفان (لاهوتي)
369	الكافنة (قائدة الشعب)
254-249, 235-234, 213	كايكليان (ناظر في قرطاجة)
360	كباربيتي (قبيلة)
145	كيريانوس ، اهتداؤه
146	شخصيته

146, 119 193-184, 168-167, 153-149 158-153 158 249, 98-96 352, 289-288, 227, 205-204, 98, 72-71 289-286, 249-248, 98 289-286, 197, 188 374, 202 204 242 236 369 31 48-46 394-390, 68-57 162-160 342-341, 168-165 338-337, 206, 162, 78-77 392, 190-184, 105, 91, 89 74-73 177 173, 157 345, 164, 52, 50, 47-46 111 240 228-224 176, 53	<p>كتاباته</p> <p>أفكاره المتعلقة بتنظيم الكنيسة</p> <p>أعماله في زمن تنشي الوباء</p> <p>استشهاده</p> <p>الكتاب المقدس ، جمع أسفاره</p> <p>ترجمته</p> <p>سلطته</p> <p>مناهج تفسيره</p> <p>كتامة (قبيلة أمازيغية)</p> <p>كرسبن (قائد في كنيسة)</p> <p>كرسكونيوس (زعيم دوناتي)</p> <p>كريسبس (مالك أرض دوناتي)</p> <p>كسلة (قائد أمازيغي)</p> <p>كليوباترا</p> <p>الكنيسة ، أصولها</p> <p>أهدانها ومثلها</p> <p>قيادتها في العصر الرسولي</p> <p>قيادتها في العصور المتأخرة</p> <p>مارسة التأديب فيها</p> <p>طبيعة وحدتها</p> <p>استعمال المال فيها</p> <p>كوراتلوسا (الشهيدة)</p> <p>كوروبيس (تونس)</p> <p>كوريني (ليبيا)</p> <p>كومودوس (إمبراطور روماني)</p> <p>كونستانتس (إمبراطور روماني)</p> <p>لاكتانيوس (كاتب مسيحي)</p> <p>لامبايسيس (الجزائر)</p>
---	--

اللباس	277, 147, 87, 27
لبيس ماغنا (ليبيا)	362-360, 115, 53
اللغة الپونية	409-402, 207, 204, 113, 44, 38, 28
لوثر (لاهوتي)	255
لوكيانوس (معترف)	121
لول ، رامون (الشهيد)	377
ليبيا ، مسيحيون قدماء منها	47-46
ليكسوس (المغرب)	202
ليون (فرنسا)	204, 198, 161, 118, 113-111
ليونيدس (الشهيد ؛ أب أوريجانوس)	117-116
ماجوريانوس (ناظر دوناتي)	234
ماداورا (الجزائر)	53
ماركوس أوريليوس	
(إمبراطور روماني)	111
مارسلوس (الشهيد)	181
مارسيليوس (برو昆صل روماني)	303, 294, 253, 248-247
مارسيون (معلم هرطوفي)	96
ماريانوس (الشهيد)	208, 177-175
مامينيسا (سلطان أمازيغي)	407, 401, 34
المانوية	343, 327, 274, 266-263, 226
مانيلوس (كاتب وثني)	404
مثانية (دين وثني)	58, 41
المجموعة البيضاء (الشهداء)	175
المدارس ، موقف المسيحية منها	164, 70, 67
مدبرون ، راجع : الكبيرة ، قيادتها	
المزاب (الجزائر)	374
المعودية ، مارستها في الزمن	77-76
الرسولي	

378, 308 - 305, 19	مناسبتها
168	نظرة ترثيليانوس لها
312, 198, 190	نظرة كبريانوس لها
307, 251	نظرة أغسططينوس لها
313-312, 307, 191	مارستها في حالة الأطفال
180-179	مكسيميليانوس (الشهيد)
235-234, 213	منصوريوس (ناظر في قرطاجة)
377, 375	المهدية (تونس)
398-397, 284, 273, 154, 133	الموت ، موقف المسيحية منه
219, 52, 31	الموريون (مجموعة من القبائل الأمازيغية)
175	موغاس (الجزائر)
177	مونتانيوس (الشهيد)
88	مونتانيوس (قائد المونتانيين)
89-88	المونتانيون ، أصولهم
193-187, 93-89	معتقداتهم
332, 309, 280, 273-272, 268-261	مونيكا (أم أغسططينوس)
231, 226, 215	ميلانو ، مرسوم
227	ميلاطي (امرأة مسيحية)
377	النجيلة (ليبيا)
66-65	النساء ، موقف المسيحية منها
151-150, 148-147	الناظار ، راجع : الكنيسة ، قيادتها
151-150	نوفاتوس
199, 153-152	النوفاتيون ، أصولهم
121-120	معتقداتهم
379-378	نوميديكوس (معترف)
407	النويري (المؤرخ العربي)
	النجر

- نيرون (إمبراطور روماني) 108
 نيقية ، مجتمع 418، 359، 315
 القانون الذي وضع فيها 410، 197
 النيل 405، 205
 هرقولانيوم (إيطاليا) 79
 هقار (الجزائر) 407
 هنيبل (قائد قرطاجي) 219، 28
 هورس (إله مصرى) 45
 هيپو (الجزائر) ، الكنيسة فيها 312-304
 هيرودوتوس (مؤرخ) 34
 الهايروخليفية 407
 الولديسيون (طائفة مسيحية أوروبية) 255
 ورقلة (الجزائر) 374
 وليلي ، رابع فولوييليس 360-357
 الونداليون 208، 176-175
 ياكوبوس (الشهيد) 407
 ياكور (المغرب) 276، 75، 73، 64، 51
 اليتامي ، عناء المسيحيين بهم 399
 اليمن 408، 401، 31
 يوحنا فم الذهب 321، 291
 يوسابيوس (مؤرخ مسيحي) 166، 48
 يوستينوس الشهيد 321، 173، 166، 135، 109، 98، 71
 يوستينيان (إمبراطور بيزنطي) 365، 360
 يوغرتا (سلطان أمازيغي) 401، 31
 يوليستوس (عبد مسيحي) 60
 يوليان الأكلاطومي (كاتب مسيحي) 313
 يوليان (إمبراطور روماني وثني) 240، 69

في كثير من أجزاء شمال إفريقيا توجد
أطلال بنايات مسيحية عريقة. ترى ماذا
نعرف عن الحضارة المتقدمة والدين المتتطور
اللذين تشهد لهما هذه الآثار؟

وعلى رفوف خزاناتنا كتابات علماء
مسيحيين من شمال إفريقيا كأوغسطينوس
وكريانوس وترتوليانوس. ترى لماذا كان
أسلافنا هؤلاء يؤمنون؟

هذا الكتاب الممتع يفتح باباً على جزء مهمٌ
من تراثنا الثقافي والديني.